التراث والتجديد

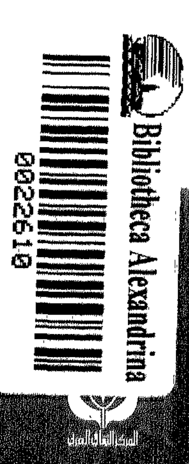
(١) موقفنا من التراث القديم

من العقيدة إلى الثورة

١

المقدمات النظرية





د. حسن حنفي





من العقيدة إلى الثورة

المقدمات النظرية

* د . حسن حنفي : التراث والتجديد
(١) موقفنا من التراث القديم
من العقيدة إلى الثورة
(١)
المقدمات النظرية

* الطبعة الأولى ، ١٩٨٨

---

* الناشر

* دار التنوير للطباعة والنشر .
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف .
ص . ب : ١١٣/٦٤٩٩ بيروت ـ لبنان .
هاتف : ٨٠٦٣٥٩ تلكس : Tanwir 20942

* المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر .
طلعة النويري ـ شارع العريسي ـ ملك فقيه
ص . ب : ١٣/٥٨٨١ بيروت ـ لبنان .
4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب

(١) موقفنا من التراث القديم

التراث والتجديد

من العقيدة إلى الثورة

(١)

المقدمات النظرية



د. حسن حنفي







الإهداء . . .



حسن حنفي



مقدمة :

من الدعاء للسلاطين إلى الدفاع عن الشعوب :

تبدأ المقدمات التقليدية في علم أصول الدين بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله . وهي مقدمات إيمانية خالصة ، تعبّر عن إيمان ذاتي خالص ، هو المطلوب إثباته ، والبرهنة عليه . ولكن العالم الأصولي القديم يُعلن عنه ، ويسلم به ، وكأن مقدماته هي نتائجه ، وأن ما بينهما إن هو إلاّ لهوٌ ولعب وسد فراغ . كما يغيب الأسلوب البرهاني ، وعرض الإشكال ، وبيان الهدف كما فعلنا في معنى « التراث والتجديد »، عارضين للتراث القديم ، قارئين فيه أزمة العصر ، ومحللين أزمة العصر مكتشفين فيها بُعد التراث القديم . إن التعبير عن مضمون الإيمان كإحدى المسلمات هو نقض للبرهان ، وهدم للإستدلال ، وضياع للعلم ، خاصة ولو كان هذا المضمون هو المطلوب إثباته . إيماننا هو « التراث والتجديد » ، وإمكانية حل أزمات العصر ، وفك رموزه في التراث ، وإمكانية إعادة بناء التراث لاعطاء العصر دفعة جديدة نحو التقدم . فالتراث ، كما بيّنا ، هو المخزون النفسي لدى الجماهير ، وهو الأساس النظري لأبنية الواقع[1] .

تبدأ المقدمات التقليدية بتنزيه الله تنزيهاً مطلقاً ، والإعلان عن أوصاف ذاته الكاملة ، وصفاتها المطلقة ، والتعبير عن هذا المطلب الذي هو غاية الإنسان بلغة العشق والهيام[2] ، وأن تحقيقها صعب المنال ، وإدراكها ينــدُّ عن العقول ،

(١) التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، دار التنوير ١٩٨١ .

(٢) يقول الأشعري مثلاً « الحمد لله الواحد ، العزيز الماجد ، المتفرد بالتوحيد ، المتمجد بالتمجيد الذي لا تبلغه صفات العبيد ، وليس له منازع ولا نديد ، وهو المبدىء والمعيد ، الفعال لما يريد ، جل =

ويصعب على الخيال . وتجد الذات نفسها كلما أمعنت في التعبير عن هذا العالم اللانهائي ، وأعلنت حيرتها أمامه ، وضياعها فيه أو لجأت إلى الفيض والإلهام تجد فيه معرفة له ، وحاولت الإتصال به كي تنهل منه أو رأت في الطبيعة الآثار عليه ، واكتشفت في الكائنات مظاهر لوجوده ، وشعرت في نفسها بالدلائل عليه أو أعلنت في النهاية عن حيرة العقول والافهام ، وعجزها عن تحقيق بغيتها ، ضعف الطالب ، وقوي المطلوب[3] . ومع ذلك فإن المقدمات الإيمانية تعلن عن هذا الوجود المطلق الأوحد باعتباره قدرة شاملة ، وإرادة مسيطرة . فهو الذي يبدأ ويعيد ، وهو الذي يبدأ ويقرر ، وهو الذي يحيي ويميت . ويظل العالم الأصولي القديم يتغزّل في هذه القوة المسيطرة لدرجة الفناء فيها . وكلما شعر بعجزه قوي مدحه . وكلما شعر بأن الكون لا يسير وفقاً لما يجب تصور وكأن « الآخر » قد قام

= عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، وتقدس عن ملابسة الأجناس والأرجاس ، ليس له صورة تقال ، ولا حد يضرب له المثال . . » الابانة ص ٤ . ويقول الجرجاني « سبحان من تقدست سبحات جماله عن سمة الحدوث والزوال ، وتنزهت سرادقات جلاله عن وصمة التحيز والانتقال ، تلألأت على صفحات الموجودات أنوار جبروته وسلطانه ، وتهللت على وجنات الكائنات آثار ملكوته واحسانه . . . » شرح المواقف ص ٢ . ويقول الرازي « الحمد لله المتعالي بجلال أحديته عن مشابهة الأعراض والجواهر ، المقدس بعلو صمديته عن مناسبة الأوهام والخواطر ، المتنزه بسمو سرمديته عن مقابلة الأحداق والنواظر ، المستغني بكمال قدرته عن معاضدة الأشباه والنظائر ، العليم الذي لا يعزب عن علمه شيء من مكونات الضمائر ، ومستودعات السرائر ، العظيم الذي غرقت في مطالعة أنوار كبريائه أنظار الأوائل وأفكار الأواخر . . . » المحصل ص ٢ . ويقول البيضاوي « الحمد لمن وجوده وبقاؤه ، وامتنع عدمه وفناؤه ، دل على وجوده أرضه وسماؤه ، وشهد بوحدانيته وصف العالم وبناؤه ، العليم الذي يحيط علمه بما لا يتناهى عده واحصاؤه . . . » الطوالع ص ٣ . ويقول الايجي أيضاً « وكرم بني آدم بالعقل الغريزي ، والعلم الضروري ، وأهّلهم للنظر والاستدلال ، والارتقاء في مدارج الكمال . ثم أمرهم بالتفكير في مخلوقاته والتدبر في مصنوعاته ليؤديهم إلى العلم بوجود صانع قديم ، واحد أحد ، فرد صمد ، منزه عن الأشباه والأمثال ، متصف بصفات الجلال ، مبرأ عن شوائب النقص ، جامع لجهات الكمال ، غني عما سواه . فلا يحتاج إلى شيء من الأشياء ، عالم بجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » المواقف ص ٢ .

(٣) يقول البيضاوي « تاهت في بيداء الوهيته أنظار العقل وآراؤه ، وارتجت دون ادراكه طرق الفكر وانحاؤه . . » الطوالع ص ٣ . ويشرح الأصفهاني «قصرت عن ادراك ذاته أفكار العقلاء وتحيرت في =

بدلاً عنه بالسيطرة على هذا الكون المفقود . وبالتالي ينشأ السلطان ، الديني أولاً ثم السياسي ثانياً . ويصبح للعالم مركز سيطرة واحد لا يتزحزح . ويكون السلطان متفرداً بسلطانه ، لا ينازعه أحد ، ولا يشاركه شريك ، ولا يعارضه معارض ، ولا يقف بجواره ندٌ . يملك كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، لا معقب على قراراته وأوامره[٤] . ومن ثم كان من السهل الانتقال من السلطان الديني إلى

= بيداء الوهيته أنظار العلماء . . . » المطالع ص ٢ . ويقول الجرجاني « تحيرت العقول والافهام في كبرياء ذاته ، وتولهت الأذهان والأوهام في بيداء عظمة صفاته . . . » شرح المواقف ص ٢ . ويقول الظواهري « وتحيرت في ادراك حقيقته أفكار العقلاء . . . » التحقيق ص ٢ . ويقول الرازي « الحمد لله الذي تحيرت العقول والأرواح في مطالعة بيد كبريائه وعزته ، وتاهت الأبصار والأفكار في حضيض كمال صمديته . . . » المسائل ص ٣٣٠ .

(٤) يقول الباقلاني « أحمده حمد معترف بأنه لا شبيه له يساويه ، ولا ضد له ينازعه ويُناويه وأنه مالك الخلق ومنشيه ومعيده ومبديه ، ومفقره ومغنيه ، وراحمه ومبتليه ، لا مالك فوقه يزجره ، ولا قاهر ينهاه ويأمره ، وأن الخلق جميعاً في قبضته ، ومتقلبون بمشيئته ، ومتصرفون بين حدوده ومراسمه ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لأوامره ، ولا اعتراض لمخلوق في قضائه وقدره . . . » التمهيد ص ٣٣ ويقول الجويني « الحمد لله بارىء النسم ، ومحيي الرمم ، ومقدر القسم ، ومفرق الأمم إلى الهداية للطريق الأتم ، والخذلان بافتراق الزلل واللُّحم » الارشاد ص ١ . ويقول الرازي « الحمد لله فالق الأصباح ، وخالق الأرواح والأشباح ، فاطر العقول والحواس ، ومبدع الأنواع والأجناس الذي لا بداية لقدمه ، ولا غاية لكرمه ، ولا حَدَّ لسلطانه، ولا عَدَّ لاحسانه . خلق الأشياء كما شاء بلا معين ولا ظهير ، وأبدع في الانشاء بلا تردد ولا تفكير ، تجلت بعقود حكمته صدور الأشياء ، وتجلت بنجوم نعمته وجود الأحياء . جمع بين الروح والبدن أحسن تأليف ، ومزج بقدرته اللطيف بالكثيف ، قضى كل أمر محكم ، وأبدع كل صنع مبرم عجيب » . العالم ص ٢ ـ ٣ . ويقول الايجي « قادر على جميع الممكنات على سبيل الاختراع والانشاء ، مريد لجميع الكائنات ، تفرد بمقتضيات الأفعال وأحاسن الأسماء ، أزلي أبدي ، توحد بالقدم والبقاء . وقضى على ما عداه بالعدم والفناء . له الملك ، يحيي ويبيد ، ويبدىء ويعيد ، وينقص من خلقه ويزيد ، لا يجب عليهْ شيء له الخلق والأمر ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا تتعلل أفعاله بالأغراض والعلل ، قدر الأرزاق والآجال في الأزل . . . » المواقف ص ٢ . ويشرح الأصفهاني ويقول « أبدع المواد بقدرة قديمة ممتنعة عن الانتهاء ، له الاعادة ومنه الابتداء ، دبر الكائنات بقدرة ، الذي هو تالي سابق القضاء . . . » المطالع ص ٢ . ويشرح التفتازاني ويقول « نحمدك يا من بيدك ملكوت كل شيء وبه اعتضاده ، ومن عنده ابتداء كل حي وإليه معاده . . . ولا توجد في الامكان من طبقة إلا تشملها قدرته القاهرة . . . » شرح المقاصد ص ٢ ـ ٣ . والنصوص كثيرة من هذا النوع أوردنا بعضها حتى يشعر القارىء بتحليلاتنا له ، وتحدث له تجربتنا معها ، فيشاركنا فيها .

السلطان السياسي ، ومن الحمد لله إلى الحمد للسلطان ، ومن الثناء على الله إلى الثناء على السلطان ، ومن طلب العون والمغفرة من الله إلى طلبها من السلطان لأن التكوين النفسي للطالب واحد ، وأحد البدائل يؤدي نفس الوظيفة التي يؤديها البديل الآخر . من هذه القوة المركزية يستمد الإنسان كل شيء إن كان له فعل ، أو تفعل هذه القوة بذاتها مستغنية عن الإنسان . فالله مُدحض الأباطيل ، وكاشف الحق ، ودافع الباطل ، ومعطي العلم ، وواهب المعرفة ، والمبرهن والمستدل والمنير الطريق . هو مصدر المعرفة وأساسها ، ومعطي السعادة وواهبها . إن معرفة الحق والباطل ، والصواب والخطأ لا تأتي من علٍ بل من تأملٍ في المعطيات الفكرية والواقعية . فالمعرفة النظرية لا تتم كهبة مسبقة بل عن طريق التحليل العقلي الرصين للأفكار والوقائع ، وباستقراء مجرى الحوادث . ذلك لا يمنع من وجود مقاييس للصدق ، وأنماط مثالية للفكر . ولكن هذه المعطيات المسبقة تنبع من طبيعة العقل ، ويدركها الشعور بحدسه ، وليست فعلاً لكائن خارجي مشخص ، يفعل مباشرة أو بطريق غير مباشر من خلال الإنسان . ولا يمكن التسليم بشيء على أنه حق ما لم يعرض على العقل ويثبت في الواقع أنه كذلك(٥) .

والحقيقة أنه لا يحمي الإنسان المعاصر ، ولا يحافظ على مصالح الجماعة إلاَّ

---

(٥) يقول الباقلاني « الحمد لله قامع الأباطيل ، ومدحض الأضاليل ، وهادي من اختص برحمته إلى سواء السبيل ، ومضل الناكب عن النهج المستقيم ، والحايد عن واضحات الحجج ، ونيرات البراهين . . . » التمهيد ص ٣٣ . ويقول البغدادي « الحمد لله فاطر الخلق وموجده ، ومظهر الحق ومنجده الذي جعل الحق وزناً لمن اعتقده ، وعمراً لمن اعتمده ، وجعل الباطل مزلاً لمن ابتغاه ، ومذلاً لمن اقتفاه . . . » الفرق ص ٣ . ويقول الجويني « . . . موضح الحق بواضحات الدلائل ، ومزهق الكفر والباطل . . . » الارشاد ص ١ . ويقول الآمدي « الحمد لله الذي زلزل بما أظهر من صنعته أقدام الجاحدين ، واستنزل بما أبان من حكمته ثبت المبطلين ، وأقوى قواعد الالحاد بما أبدى من الآي والبراهين ، واصطفى لصفوته من عباده عصابة الموحدين ، ووثقهم من أسبابه بعروته الوثقى وحبله المتين ، فلم يزالوا للحق ناظرين ، وبه ظاهرين ، ولله ورسوله ناصرين ، وللباطل وأهله دافعين ، إلى أن فَجّرَ فَجْرُ الايمان ، وأشرق ضوؤه للعالمين ، وخسف قمر البهتان ، وأضحى كوكبه من الآفلين ، وذلك من صنع الذي أتقن كل شيء » الغاية ص ٣ .

الوعي الفردي ، وتجنيد الجماهير . وكلاهما لن يتم إلّا بالثورة الفعلية . لن يتغير الواقع بفعل خارجي ، قادر على دحض الباطل والدفاع عن الحق بل بفعل الطليعة الواعية من المثقفين التي يتحول فيها الوعي الفردي إلى معبر عن وعي الجماعة . الجماهير هم الدرع الواقي ، والطليعة هم رأس الحربة . لا تسليم هناك بشيء بل لا يؤخذ شيء على أنه حق إن لم يُعرض على العقل والواقع وإثبات أنه كذلك . لا يوجد صمام أمان إلّا في وعي الإنسان بذاته وليس في « عقدة القبة السماوية »[٦] التي تغطي الأرض . فلا وكالة إلّا من الأنظمة الإجتماعية والعجز عن مراقبتها وعدم القدرة على مراجعتها . ليس المطلوب في هذا العصر أن يتوه الإنسان تحت هذا الخواء ، وأن يضيع في هذه المتاهة ، وأن يشعر بضآلته تحت هذا الشمول . بل المطلوب تأكيد ذاته ، وإعمال عقله ، وإحساسه بالمسؤولية ، وتحقيقه للرسالة ، ووعيه بالجماهير ، وإدراكه لحركة التاريخ . ليس مطلب العصر هو تبرئة « عقدة القبة السماوية » الحافظة للعالم من كل سوء ، تشبيه أو تجسيم أو شرك ، بل معرفة المسؤول عما وصل إليه حالنا من احتلال وتخلف ، وقهر وطغيان ، وفقر وبؤس ، وضنك وحرمان ، وتشرذم وتبعثر ، وذل وهوان . ليس مطلب العصر هو إبراء الذمة ، ووضع الطهارة المجردة ، إفتراضاً وأملاً ، هذه الطهارة التي لا تشوبها شائبة ، وتخليصها من مآسي العصر ، مع أنها قد تكون أحد مظاهره أو أسبابه ، بل المطلب هو تحديد المسؤولية عما وقع في حياتنا من مآسٍ وأزمات ، وهزائم ونكبات . وكيف يكون الخالص مسؤولاً عن الشائب ؟ وكيف يكون البريء مسؤولاً عن ذنوب العصر ومظاهر البؤس والشقاء فيه ؟ كيف يكون الغني مسؤولاً عن الفقر ، والعادل عن الظلم ، والقوي عن الضعف ، والقيوم عن المحتل ، والواحد عن المتجزىء ؟ إن كل الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي نحن فيها ليست مفروضة علينا ولا مكتوبة من أحد بل هي نتيجة للأوضاع ذاتها . ويخطىء القدماء عندما يجعلون العلة معلولاً ، ونخطىء معهم عندما نعلق مآسينا وهزائمنا على مشجب لم يره أحد ولم ينقذ أحداً . لا يعني ذلك

(٦) Clé de Voûte في الهندسة المعمارية هو مركز القبة الذي يمسكها أي أساسها الأعلى .

رفض الشمول والعموم ، فالشمول للأفكار وللمبادىء . وهي لا تعطي الإنسان أي ضمان أو أمان بل تعطيه فقط الأساس النظري للتطبيق والممارسة ، وتصف له وسائل التحقيق ، ولا يتوه فيها العقل بل يدركها ويحصل منها على معرفة ، ولا تضعف أمامها الإرادة بل تتمثلها وتتأكد حريتها . ولا تضمحل أمامها الذات وتفنى بل تثبت ويتأكد وجودها .

في هذه المقدمات الإيمانية تتحدد علاقة الإنسان بالله ليس فقط على مستوى المعرفة والنظر بل أيضاً على مستوى السلوك والعمل . فالإنسان يحمد الله على نعمه ، ويشكره على فضله ، مما يجعل العلاقة أحادية الطرف ، من واهب إلى موهوب ، ومن مُعطٍ إلى مُعطى . وتجعل الإنسان مجرد وعاء للنعم ، ومستقبل للعطايا ، ومنتظر للجود والإحسان . قد يرفض الإنسان بطبيعته الكرم والفضل ، وقد ينفر من الهبات والعطايا لأنه يأبىٰ أن تكون يده هي السفلى ، ويد غيره هي العليا . وان كثيراً من مآسي عصرنا لهو انتظار الكرم والجود ، والتشوق إلى الهدايا والعطايا ، والتزلف من أجل هبات السلطان حتى أصبح العصر كله عصر تعايش وارتزاق . بل إن سلبية الجماهير اليوم قد ترجع إلى أن معظم مظاهر التغير الإجتماعي في حياتها قد تمت أيضاً بفعل الجود والكرم ، وكأنها هبات من أعلى ، وليست مكتسبات حصلت عليها الجماهير بعرقها وكفاحها . فإذا حصلت الجماهير على بعض حقوقها فإن الحاكم لم يتفضّل عليها بشيء . بل نالت حقّها ، وحقّها ليس منّة ولا فضلاً عليها من أحد . وقد يكون هذا هو السبب في معاناة عصرنا من اعتبار كل حق منة أو فضلاً من رئيس على مرؤوس .

فإذا كان القدماء قد حمدوا الله على الكفاية فإننا نتجه بكل قوانا نحو الناقص ونتوجه إلى ما لم يتحقق بعد . إتجاهنا نحو الحاجة أقوى من نزوعنا نحو الحمد . والحمد على ما هو موجود فيه رضاء واستكانة ، والثورة على ما هو مفقود فيه غضب ومطالبة بحقّ . حالنا لا يتطلب حمداً ولا ثناء على أحد بل يقتضي رفضاً واعتراضاً ، مطالبة وثورة . نحن لا نحمد بل نتضجّر ولا نرضى بل نغضب ، ولا نثني بل ننقد ، ولا نشكر ، فلا شكر على واجب ، بل نثور ونطالب . إن

الإحساس بالحق المشخص يعطي الإنسان نوعاً من الرضا ، ويجعل نفسه طيبة طيعة حامدة شاكرة ، وهذا على خلاف مقتضيات تكويننا النفسي المعاصر الذي يشوبه القلق والغليان ، وتعتريه عواطف السخط والغضب ، ويئن تحت ضغوط العجز والحرمان[7] . فإذا طلب الإنسان شيئاً فانه يدعو كي يُستجاب له ، ويسأل كي يُعطى له . فتكوينه النفسي قد تعوّد على السؤال والإستجداء ، واعتاد على الشحاذة والتسول . ولن يتغير الواقع عن طريق الدعاء ، ولن يطعم جائع بطريق الإستجداء ، ولن ينصر مظلوم عن طريق البكاء ! الدعاء تعبير عن أمانٍ ورغبات وليس تحقيقاً لها . هو حيلة العاجز ، وفعل القاعد ، وأسلوب القعيد ، وطريق الخامل ، وسبيل المستكين . وقد بدأنا تغيير الواقع بالدعاء منذ تراثنا القديم ولم يتوقف حتى عصرنا الحاضر[8] . والخطأ لا يتغير بالتوبة والإستغفار ، بل بالتعلم

---

(٧) يقول الملطي الشافعي « الحمد لله ذي العزة والأفضال ، والجود والنوال ، أحمده على ما خص وعم من نعمه ، وأستعينه على أداء فرائضه . . . » التنبيه ص ١ . ويقول الأشعري « الحمد لله ذي الجود والثناء ، والمجد والسناء ، والعزة والكبرياء ، أحمده على سوابغ النعم ، وجزيل العطاء . . . » اللمع ص ١٧ . ويقول الشهرستاني « الحمد لله حمد الشاكرين بجميع محامده كلها على جميع نعمائه كلها حمداً كثيراً طيباً ، مباركاً كما هو أهله . . . » الملل جـ ١ ، ص ٣ . ويقول الباقلاني « الحمد لله ذي القدرة والجلال ، والعظمة والكمال ، أحمده على سوابغ الأنعام ، وجزيل الثواب . . . » الانصاف ص ١٣ . ويقول البغدادي « الحمد لله ذي الحكم البوالغ ، والنعم السوابغ ، والنقم الدوافع . . . » الأصول ص ١ . ويقول الشهرستاني « الحمد لله حمد الشاكرين . . . » النهاية ص ٣ . ويقول الآمدي « فنحمده على ما أولى من منته ، وأسبغ من جزيل نعمه ،حمداً تكلّ عن حصره السنة الحاصرين . . . » الغاية ص ٣ . ويقول الرازي « أحمده على جزيل نعمه ، وجميل كرمه. . . » الأساس ص ٢ . ويقول المكناسي شارحاً «إن أنجح الوسائل في فتح أبواب المسائل، وأرفع المطالب في الفوز بالرغائب ، وأوثق العرى في التعلق بإله الورى حمد منعم جاد بالكونين بلا نفع له ، وبسط البسيطة لنعمائه ، وسمك السموات العلى لإكرامه الخلق بلا علة ، فله الحمد الذي لا يحصيه سواه ، والشكر على ما جاء به على كل خلق سواه . . » أشرف المقاصد ص ٢ . وتبدأ كل العقائد المتأخرة بلا استثناء شعراً أو نثراً بالحمد لله ، وكلما قل احكام العلم وابداعه وتعقيله زادت المقدمات الايمانية .

(٨) يقول الملطي الشافعي أيضاً « وبالله نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » التنبيه ص ١ . ويقول الطوسي ملخصاً « الحمد لله الذي يدل افتقار كل موجود في الوجود إليه على وجوب وجوده وافاضته إياه . . . » التلخيص ص ٢ ، ويقول الاسفرايني « . . . اللهمَّ كما أنعمت أدِمْ ، وكما أسست أتم ، =

والإستفادة منه ، والعود من جديد إلى القيام بنفس الأفعال على أساس من المناعة ضد الخطأ والإكتساب النظري والعملي للصواب . لا يوجد ملجأ للإنسان إلاَّ عمله ، ولا نجاة له إلاَّ بعمله المشترك مع الآخرين أي بالعمل الجماهيري الذي تؤيده حركة التاريخ . إن الحصول على القوة لا يأتي بالدعاء للقوي ، وباستجداء واهب القوة بل يُحصل عليها بالإستعداد ، والحصول على القوة بالفعل .

ثم تنتقل المقدمات الإيمانية التقليدية من محورها الأول ، وهو الله ، إلى محورها الثاني ، وهو الرسول ، وهما المحوران اللذان دار حولهما علم أصول الدين في المرحلة العقائدية المتأخرة ، وتشرع في الصلاة والتسليم عليه[9] . وفرق بين الصلاة والعلم ، بين الترانيم الدينية والتحليلات العقلية . البحث العلمي ليس صلاة ، والنظر العقلي ليس دعاء ، وسلامة المنهج هو الضامن لليقين ، ودقة التحليل هو السبيل إلى الصواب . والتركيز على الرسول بشخصه ، وفضله ، وكرمه ، ومآثره ، وفضائله ، وسجاياه ، تشخيص للرسالة ، وتركيز في الوحي على المُبَلَّغ إليه ، وخلط بين الرسالة والرسول ، والنبوة والنبي . ومدح الوحي المشخص في النبي تشخيص للفكر مثل تشخيص الحق ، والقدوة لا تعني التبعية لشخص والثناء عليه ومدحه بل تعني تجربة تاريخية فريدة ، وأن الفكر ممكن التحقيق ، تجربة يُستفاد منها ولكن لا يُمتدح محققوها . الهدف هو التجربة ، كيف يتحول الفكر إلى واقع ، وليس الأشخاص .

ومن مآسي عصرنا تشخيص الأفكار ، وعبادة الأشخاص ، وقد قوّى ذلك فينا الصوفية بنظرياتهم عن « الحقيقة المحمدية » . كما انتشر هذا التيار بيننا لأنه في غياب القدرة على فهم الأمور ، وتصور الحقائق ، والتعامل مع الأفكار ،

= فإنا لسنا إلا الظاهر ، وليس عنا ما يسند إلينا في الظاهر ، أنصرنا يا ناصر ، وأعطنا أوفر من كل وافر ، وكما أدخلتنا في الدنيا مسافر ، أخرجنا عنها كالمسافر » حاشية الاسفرايني ص ٣ . قارن أيضاً « أنصرنا يا ناصر » بما يقوله الجبرتي « يا نجي الألطاف ، نجنا مما نخاف » . ويسمي إقبال ذلك « فلسفة السؤال » التي تميت الذات ولا تحييها .

(٩) أنظر « محمد ، الشخص أو المبدأ » في قضايا معاصرة (٤) ، اليسار الديني . وأيضاً الباب الثالث ، الفصل الأول .

يستبدل بذلك كله الأشخاص الحسية ، والجاهل بما لا يرى يستعيض عنه بما يرى . في حين أن الرسول ما هو إلَّا مُبَلِّغ للوحي ، هو مجرد وسيلة لا غاية ، فضله من الوحي ، ومآثره من الرسالة ، وعظمته في الجهاد ، وقدوته في الأخلاق مثل أي قائد أو زعيم . فاختياره للرسالة ليس ميزة لشخصه بل لأن الرسالة لا بد وأن تُبلَّغ من خلال رسول تتوفر فيه شروط الأداء والتبليغ . والتركيز على الاختيار والاصطفاء ليس من الوحي في شيء ، وهو أقرب إلى الاصطفاء اليهودي Election . الوحي يرمي إلى ما بعد الاختيار وهو التبليغ وليس إلى اختيار الشخص ذاته وإلَّا خلطنا بين الوسيلة والغاية(١٠) . وكثيراً ما نقف في حياتنا المعاصرة على الأشخاص ونترك أفكارهم ، ونتمسك بالأفراد ونترك رسالاتهم . لذلك جعلنا الرسول شفيعاً في اليوم الآخر ، وجعلناه واسطة بين الله والخلق ، واقتربنا من المسيحية فيما تقوله في المسيح ، واعتبرناه قديماً لم يخلق ، وأبدياً لا يفنى ، ومن ثم شارك في صفات الألوهية في العقائد الشعبية المبنية على حب آل البيت . والخلود لا يكون للأشخاص بل للأعمال والأفكار(١١) .

---

(١٠) يقول الملطي الشافعي « وصلى الله على محمد النبي المختار . . . » التنبيه ص ١ . ويقول البغدادي « والصلاة والسلام على الصفوة الصافية ، والقدوة الهادية محمد وآله خيار الورى ومنار الهدى » . الفرق ص ٣ . ويقول الباقلاني « وأرغب إليه في الصلاة على نبيه محمد المختار وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار ، والتابعين لهم باحسان إلى يوم القرار » . الانصاف ص ١٣ . « والصلاة على رسوله المصطفى وآله الطيبين الطاهرين أجمعين » النهاية ص ٣ . « صل على نبيك المصطفى ، ورسولك المجتبى ، محمد المبعوث بالهدى » . شرح المواقف ص ٢ . « وأصلي وأسلم على رسله سيما من اختص الله منهم بكمال عموم الرسالة محمد » . التحقيق ص ١ . « وأفضل الصلاة والتسليم ، على النبي المصطفى الكريم » الخريدة ص ٥ ــ ٧ .

(١١) « والشفيع المشفع في الصغائر والأكابر » المحصل ص ٢ . « المقرب منزلته وآدم بين الماء والطين . . . » المعالم ص ٢ ــ ٣ . « والصلاة والسلام على أكمل مظاهر الحق ، في مرأى الخلق ، نبي الرحمة وشفيع الأمة » شرح الفقه ص ٢ . « والصلاة والسلام على الواسطة في وجود جميع اللطائف ، من هو نور الأنوار ، وينبوع المعارف سيدنا ونبينا ومولانا محمد ، المنفرد بأعم رسالة ، وأكبر شفاعة ، والمهيمن على من قبله بكتابه المبين وسنته المطاعة » أشرف المقاصد ص ٢ . « الشفيع المشفع يوم المحشر » المواقف ص ٣ ــ ٧ . « ووعد لهم مقام الشفاعة يوم العرض والجزاء » . المطالع ص ٢ .

ويستمر الفضل والاختيار ليس فقط للرسول بل في آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين[١٢].مع أن كل إنسان مسؤول فرداً ، بعمله وليس بانتسابه إلى جماعة . ويحاول كل فريق منا أن يكون هو الوريث لهذه الجماعة الأولى ، فكثر الإدعاء ، واطمأن كل فرد على حاله ، ما دام ينتسب إلى العترة الطاهرة ، والصحبة الخيرة . وقد يسمح لنفسه ما لا يسمح به لغيره لأنه هو سليل الجماعة الأولى . مع أننا نعاني من الشللية ، ونقاسي من الجماعات المغلقة . ثم يقل الفضل والاختيار حتى يّمحي في عصرنا الذي يسوده الشر ، ويعمه الضلال . ومن ثم يتدهور التاريخ ، ويسير في انحطاط مستمر ، ويظل التاريخ الأول قدوة للناس ، يتقدمون بالرجوع إلى الوراء ، ويسيرون إلى الأمام ووجههم إلى الخلف ، وهو ما نحن عليه الآن، وكما يبدو في الحركات الإسلامية المعاصرة . وهذا لا يمنع الإنسان من الإنتساب إلى جماعة عمل مثل الحزب أو الجمعية . ولكن هذه الجماعة توجد في أي وقت وفي أي مكان وليست في زمان أو مكان معينين . والتجارب التاريخية التي يتحقق فيها الفكر عامة وليست محددة . قد تكون الجماعة الأولى أقرب إلينا لأنها هي التي تعمل في مخزوننا النفسي والتي يمكن اتخاذها قدوة ودليلاً[١٣] . إن الصفوة المختارة ليست أسرة القائد ولا قبيلته ولا أصحابه بل هي

---

(١٢) « وعلى آله الطيبين الأخيار » التنبيه ص ١ : « وعلى إخوانه المرسلين ، وأهل بيته الطاهرين ، وأصحابه المنتخبين ، ومن بعدهم من التابعين ، وأسأله التوفيق لاصابة ما به أمرنا ، والاقتداء بالسلف الصالح من أمة نبينا ، وصرفنا عن الميل إلى الحايد عن ديننا والطاعن على ملتنا » التمهيد ص ٣٣ . « وآله ضياء الورى ، ومنار الهدى » الفرق ص ٣ . « وعلى آله الطيبين الطاهرين » الملل جـ ١ ، ص ٣ . « وعلى آله الأبرار ، وصحابته الأغيار ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار » الانصاف ص ١٣ « وآله الطيبين الطاهرين أجمعين » النهاية ص ٣ . « وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً » المحصل ص ٢ . « وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وعلى أصحابه الأنصار منهم والمهاجرين وسلم عليهم أجمعين » العالم ص ٢ ـ ٣ . « وعلى آله البررة الاتقياء ، وأصحابه الخيرة الأصفياء » شرح المواقف ص ٢ . « وعلى العترة الطاهرة والأنجم الزاهرة من آله وأصحابه وخلفائه وحلفائه وأسلم تسليماً » المقاصد ص ٤ ـ ٧ . « وعلى آله وصحابته المحرزين قصب السبق في اتقان الرواية ، الفائزين بدراية صفو العلوم وصفاء الدراية » أشرف المقاصد ص ٢ .

(١٣) «ولما توفاه الله ، وفق أصحابه لنصب أكرمهم واتقاهم ، وأحقهم بخلافته وأولاهم. فأبرم قواعد الدين ومهّد، ورفع مبانيه وشيد، وأقام الأود، ورتق الفتق، ولم الشعث، وسد الثلمة، وأقام =

أية طليعة ثورية في أي مكان وفي أي زمان ، تحاول توجيه الواقع بالفكر . فهي ليست جماعة تاريخية نسبية بل هي جماعة فكرية لا مكان ولا زمان لها ، هي كل جماعة حاولت تحرير الإنسان ، وتغيير الواقع ومناهضة الظلم ، وأداء الرسالة . وإذا كان هناك وضوح في الرسالة ، وإذا اشتمل الوحي على البرهان فإن ذلك راجع إلى طبيعة الرسالة والوحي وليس إلى فعل المُبَلِّغ . فالوحي بطبيعته واضح ، والرسالة بطبيعتها عقلية ، وكلاهما يشتملان على البرهان الداخلي ، والوضوح النظري للإعلان والبلاغ . ومن ثم فالتصديق لا يحتاج إلى معجزة لأن المعجزة برهان خارجي في حين أن الوضوح النظري برهان داخلي . والقرآن ليس معجزة بمعنى خرق قوانين الطبيعة بل بمعنى موضوعية الفكر ، من ناحية المضمون وناحية الشكل ، والتصديق بالفكر والإحساس بأسلوب التعبير ، ورؤية المعنى والإتصال المباشر باللفظ[14] . وإن إثبات أن الرسول خاتم الأنبياء والمرسلين لا يعني أيضاً تركيزاً على فضائل شخص أو على مزايا فردية لأحد بل يعني أن الوحي قد اكتمل ، وأنه تطور منذ أول الأنبياء حتى آخرهم ، وأن آخرهم يعني أن النبوة قد انتهت ،

= قيام الأبد بأمر دينهم ودنياهم ، وجلب المصالح ، ودرأ المفاسد لأولاهم وأخراهم . وتبع من بعده سيرته ، واقتفى أثره ، والتزم وتيرته ، فجبروا عتاة الجبابرة ، وكسروا أعناق الأكاسرة حتى أضاءوا بدينه الآفاق ، وأشرقت كل الاشراق ، وزينوا المغارب والمشارق بالمعارف ومحاسن الأفعال ومكارم الأخلاق ، وطهروا الظواهر من الفسوق والبطالة والبواطن من الزيغ والجهالة والحيرة والضلالة » المواقف ص ٣ .

(١٤) « كما أوضح السبيل وأنار الدليل » التمهيد ص ٣٣ . « فأوضح بنوره سبل السالكين ، وشاد بهدايته أركان الدين » الغاية ص ٣ . « الذي رفع الهدى جده وعناؤه ، وقمع الضلالة بأسه وعناؤه » الطوالع ص ٣ . « فأقام الحجة ، وأوضح المحجة » المواقف ص ٢ . « وأصلي على من أرسل بالنور الساطع ايضاحاً للمنهج وافصاحاً عن البيانات ، واتبعه بالأمر الصادع اقامة للحجج وازالة للشبهات » المقاصد ص ٤ ـ ٧ . « والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله لتطهير العقول من نجاسة الاشراك ، وتحرير العقائد من روح التقليد » التحقيق ص ١ . « والصلاة على نبيه محمد المؤمن بساطع حججه ، وواضح بياناته » ، شرح التفتازاني ص ٧٣ . « وبين من البرهان سبله ، ومن الأيمان دليله ، وأقام للحق حجته ، وأنار للشرع محجته » شرح المقاصد ص ٢ ـ ٣ . « ثم أنه بعث إليهم الأنبياء والرسل مصدقاً لهم بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة . . . وأنزل معه كتاباً عربياً » المواقف ص ٢ .

وأن الإنسان قد استقل ، وأن عقله قد استطاع أن يصل بنفسه إلى اليقين ، وأن فعله بإمكانه أن يحقق رسالة الإنسان دون ما تدخل من أية إرادة خارجية عامة أو مشخصة[١٥] . كما يعني عموم الرسالة أنها أصبحت رسالة للبشر جميعاً ، وأن هناك حقيقة شاملة يمكن لكل الشعوب معرفتها والوصول إليها .

وبعدما تبدأ المقدمات الإيمانية التقليدية بالحمد لله والصلاة على رسوله فإنها تشفعها بالشهادتين ، شهادة أنْ لا إله إلاَّ اللّه وأنَّ محمداً عبده ورسوله . وفي حقيقة الأمر ، وطبقاً لمقتضيات العصر لا تعني الشهادة التلفظ بها أو كتابتها بل تعني الشهادة على العصر ، وذلك ببيان المسافة بين نظام الواقع ومقتضى الفكر ، وهي الشهادة النظرية ثم محاولة إلغاء هذه المسافة وتوجيه الواقع طبقاً لمقتضيات الفكر ، والتضحية في سبيل ذلك بكل شيء حتى بالنفس فتتحقق الشهادة ، وهي الشهادة العملية ، ويصبح الإنسان شهيداً بعد أن كان شاهداً . فالشاهد والشهيد كلاهما موقف شهادة . ليست الشهادتان إذن إعلاناً لفظياً عن الألوهية والنبوة بل الشهادة النظرية والشهادة العملية على قضايا العصر وحوادث التاريخ . فالتوحيد نوعان ، توحيد قول وتوحيد عمل[١٦] . ولفظ الشهادة الأولى « لا إله إلاَّ اللّه »

---

(١٥) « وصلى الله على محمد المصطفى ، رسول الرحمة ، خاتم النبيين » الملل ط ١ ص ٣ . « وصلى الله على محمد عبده ورسوله خاتم النبيين بكرة وأصيلاً وسلم تسليماً » الفصل جـ ١ ، ص ٣ . « ذلك محمد سيد الأولين والآخرين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين » المعالم ص ٢ ــ ٣ . « محمد خاتم رسله وأنبيائه » المقاصد ص ٤ ــ ٧ . « ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى الكافة أجمعين» الغاية ص ٣ . « ثم ختمهم بأجلهم قدراً ، وأتمهم بدراً ، وأشرفهم نسباً ، وأزكاهم مغرساً ، وأطيبهم منبتاً ، وأكرمهم محتدا ، وأقومهم ديناً ، وأعدلهم ملة ، وأوسطهم أمة ، وأسدهم قبلة ، وأشدهم عصمة ، وأكثرهم حكمة ، وأغرهم نصرة ، سيد البشر ، المبعوث إلى الأسود والأحمر » المواقف ص ٢ . أنظر أيضاً كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشري ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٧٧ ، بيروت ، دار التنوير ١٩٨١ .

(١٦) « أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له عدة اللقاء ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » اللمع ص ١٧ . «نشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، شهادة مبوئة لقائلها . جنة الفوز والعقبي في يوم الدين ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله » . الغاية ص ٣ . « أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له شهادة تكون بالتخلص في الدارين إعلاماً ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الممنوح من اتبعه من الجنان اعلاماً » إتحاف المريد ص ٣ ــ ٥ . « أشهد أن لا إله إلا الله =

يحتوي على قضيتين : الأولى سالبة « لا إله » والثانية موجبة « إلاّ اللّه » . فالتوحيد فعلان : فعل سلبي يقوم فيه الشعور الفعلي العملي بنفي كل آلهة العصر المزيفة التي تصبح تصورات للعالم ودوافع للسلوك عند الناس ، وفعل إيجابي يضع فيه الشعور مثلاً أعلى ، مبدأً واحداً عامّاً وشاملاً . بفعل النفي يتحرر الوجدان الإنساني من كل صنوف القهر والظلم والتسلط والطغيان . وبفعل الإيجاب يضع الإنسان مثلاً أعلىٰ ويعلن ولاءه للمبدأ الشامل الذي يتساوى أمامه الجميع . الفعل السالب يحرر الشعور الإنساني من كل صور القهر ، والفعل الموجب يضع الشعور حراً خالقاً مبدعاً . الأول يحرر الإنسان من التبعية للقيم السائدة في عصره وما به من تطلعات ، والثاني يجعل الإنسان متمثلاً لقيم جديدة ومرتبطاً بمبدأ عام[١٧] . ولفظ الشهادة الثانية « أن محمداً رسول اللّه » إنما تعني الإعلان عن اكتمال الوحي ، ونهاية النبوة ، وتحقق آخر مراحلها في نظام وتجسّده في دولة ، وأنه لا يمكن الرجوع إلى الوراء لمراحل سابقة منها ، فالتاريخ لا يرجع إلى الوراء . والتقدم جوهر الوعي الإنساني ومسار التاريخ وحركة التطور . فالإنسان بعقله المستقل وبإرادته الحرة قادر على أن يواصل حركة التاريخ وأن يستمر في تقدمه باجتهاده الخاص فيرث النبوة وتراث الأنبياء ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، والاجتهاد طريق الوحي ، والعقل وريث النبوة[١٨] .

= وحده لا شريك له القديم المخالف لما عداه من الكائنات الباقي وهالك كل من عداه من المخلوقات . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين المبلغ كل ما أمر بتبليغه من رب العالمين » تحفة المريد ص ٣ . وفي المؤلفات العقائدية المتأخرة تتقلص التمهيدات والبسملات وكأن العواطف الانشائية الباقية من عصر الشروح والملخصات قد انتهت وتبخرت وتجمدت في عبارة واحدة .

(١٧) قد حاولت معظم الحركات الاصلاحية الحديثة اعطاء الأولوية للتوحيد العملي على التوحيد النظري ، وتوجيه النصوص نحو سلبيات الواقع فخرج التفسير مرآة تعكس الواقع حتى ولو ظلت النصوص متفرقة لا يجمعها جامع واحد ، ولا تخضع لنظرية واحدة تعطيها أساسها النظري ، ودون تحليل للواقع ، ومعرفة أسباب نشأة سلبياته ، ودون اعطاء مناهج للتغيير وكأن النصوص بسلطتها وفاعلية الايمان التلقائية كافية للتغيير . (ابن القيم ، ومحمد بن عبد الوهاب ، ومحمد عبده ورشيد رضا في تفسير المنار) .

(١٨) أنظر مقالنا « ماذا تعني شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله » في قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

ونظراً لفراغ المقدمات الإيمانية التقليدية من أي مضمـون فكري أو واقعي ، عقلي أو مصلحي فإنها تعبّر عن نفسها بأسلوب السجع المملوء بـالتلاعب بـالألفاظ التي لا تحمل وراءها إلاّ عواطف إيمانية . فالعاطفة تُنشىء اللغة ، واللغة تُعبـر عن العاطفة ، ويغيب الفكر كما يغيب الواقع . تعتمد المقدمات على المحسنات البديعية وعلى الإنشاء الخالص دون فكر ودون رؤ يـة أو تحليل لشيء . لا يكمن وراءهـا إلا بعض الإنفعالات الإيمانية تبلغ أحياناً درجة التصوف ، وكأن الإعلان عن العلم لا يتـأتىٰ إلاّ بالإغـراق في المواجيـد الصوفيـة ، والتعبير عنهـا بالتـراشق اللفظي(١٩) . يغيب الأسلوب البرهاني والتحليل العقلي والـوصف الواقعي للظواهـر ، ويحل محله أسلوب إيماني خالص يعبّر عن العشق والهيام لموضوع فارغ ، ويكشف عن مواجيد النفس ولوعات الإيمان وكأن علم أصول الدين كأحد علوم النظر قد تحول إلى علم التصوف كعلم للذوق . وإذا كانت « الأشعرية » قد ازدوجت بالتصوف في العقائد المتأخرة ، فـإن التصوف قـد حل محـل الأشعريـة كلية في العقـائد الإيمـانية . حتى الشروح والملخصات فـإنها لا تبين الغـاية من الشـرح أو التلخيص بل تقـوم بشرح المقدمة الإيمـانية ، فـالحمد تعني الحمـد ، والله يعني الرَّحمٰن ، والثنـاء يعني المدح ! فـاستعاضت عن الفكـر بالسجـع واللفظ وبلعبة المتـرادفات . أمـا في عصرنـا فقد بلغت أزماته ومـآسيه درجـة أن الاعتناء بـالمحسنات البـديعية أصبـح تعويضـاً عن الشقـاء ، وتعبيراً عن الخـواء ، ورغبة في الحصـول على شيء حتى ولـو كـان رنـين الصفائح أو قرع الطبول . وإن أول ما نذكره نحن هو الواقع ، أزماتـه وتقلباتـه ، خاله ومآله حتى يعي الناس حالهم . فـالرمـوز والصور والتشبيهـات تكرار وسجـع لفظي لا يكمن وراءه وعي ، ولا يغير الواقع قيد أنملة .

---

(١٩) وجعـل الاسلام لـلأصول والعقـائد عقله الـوافي بالاتصـال بالمبـدأ الفياض، وذهنـه الصافي عن كدر الاهمال بالاعقال والارتياض، وكأنه شربه من أنهار خمسة صافية ليس لها سادس، ولا يركب لتحصيـل نفائس الآراء وفـرائد المعاني إلاّ بحر أبـادي . فإيـاك وهذه المـائدة الشـريفة المـوضـوعـة للكـرام ، ولو لم تصف أنهارك عن قـذى الأوهام ، ولم يغلب عـلى نهارك ضوء مصـابيـح أسهـارك المنـورة للظلام ، ولم يتسخر وهمـك لعقلك وفهمـك لجـامـع فضلك ولم تكن من فضـلاء الأنـام » حاشية الاسفرايني ص ٢ ـ ٣ .

وأحياناً تختلط المقدمات الإيمانية التقليدية بين الحمد لله والثناء عليه وبين الدعوة للسلطة والتزلف إليها ، فالحديث عن السلطان واحد ، السلطان الديني أم السلطان السياسي ، السلطان الإلهي أم السلطان البشري أو باختصار الله والسلطان ، الأول يمثل السلطة الدينية في قمة الكون والثاني السلطة السياسية على رأس الدولة . وكلاهما يتم الكلام عنه بلغة الجبروت والعظمة حتى أنه ليصعب الفصل بين السلطانين أو بين السلطتين أو بين الآلهين إله السماء وإله الأرض ، إله الدين وإله السياسة . وقد يكون ذكر اسم الله المطلق وأنه المسيطر على كل شيء تعبيرا عن وضع إجتماعي يتحد فيه الله بالسلطة ، فلا فرق بين الثناء على الله والثناء على السلطان ، كلاهما يصدران عن بناء نفسي واحد ، وكل منهما يغذي الآخر ويدعمه ، فالثناء على الله تدعيم للثناء على السلطان ، والثناء على السلطان نابع من الثناء على الله[20] . وكلاهما قضاء على الذاتية ، ذاتية الأفراد وذاتية الشعوب .

---

(٢٠) « أما بعد ، فإني وإن كنت ساكناً في أقاصي بلاد المشرق إلا أني سمعت أهل المشرق والمغرب مطبقين متفقين على أن السلطان المعظم ، العالم العادل ، المجاهد سيف الدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، أفضل سلاطين الحق واليقين ، أبا بكر أيوب ، لا زالت آيات رائيه في تقوية الدين الحق والمذهب الصادق متصاعدة إلى عنان السماء ، وآثار أنواره وقدرته ومكنته باقية بحسب تعاقب الصباح والمساء ، أفضل الملوك وأكمل السلاطين في آيات الفضل ، وبينات الصدق ، وتقوية الدين القويم ، ونصرة الصراط المستقيم ، فأردت أن أتحفه بتحفة سنية ، وهدية مرضية ، فاتحفته بهذا الكتاب الذي سميته بأساس التقديس، على بعد الديار، وتباين الأفطار، وسألت الله الكريم أن ينفعه به في الدارين بفضله وكرمه» أساس التقديس ص ٣. «أما بعد، فقد عرفت إيثار سيدنا الأمير، أطال الله في دوام العز بقائه، وأدام بالتمسك بالتقوى ولزوم الطريقة المثلى نعمائه، ومن بإرشاده هداه، وجعل له من وافر عقله وحزمه واعظاً ومن علو همته وسؤدده زاجراً ورقيباً ، ومن استكانته لربه تعالى والخنوع لطاعته سامعاً ومطيعاً حتى يلحقه اعتقاد فعل الخير وايثاره ، بأهل النجاة والسلامة ، ويبلغه بما يتيح له ذلك ، ويوفقه لأقصى منازل أهل الزلفة والكرامة . . . ولا آلو جهداً فيما يحيل إليه سيدنا الأمير ، حرس الله مهجته ، وأعلى كعبته . . . » التمهيد ص ٣٣ ـ ٣٤ . « وأسمي الكتاب تلخيص المحصل ، وأتحف به بعد أن يتم ويتحصل عالي مجلس المولى المعظم ، الصاحب الأعظم ، العالم الأعدل ، المنصف الكامل ، علاء الحق والدين ، بهاء الاسلام والمسلمين ، ملك الوزراء في العالمين ، صاحب ديوان الممالك ، دستور الشرق والغرب ، عطاء ملك ، ابن الصاحب السعيد ، بهاء الدولة والدين محمد ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ، إذ هو في هذا العصر بحمد الله معتني بالأمور الدينية لا غير ، موفق =

فإذا كان هذا هو حال السلطان فإنه لا يختلف كثيراً في صفاته عن حال الله . كلاهما منعم ، واهب ، عادل ، عالم ، قادر ، . . . الخ وتملّق السلطان ومنافقته لا يختلف كثيراً عن مواقف الزلفى والنفاق للّه . بل إن الموقفين موقف نفسي واحد . مرة يتجه نحو الله ومرة أخرى نحو السلطان[٢١] . فإذا أتى الشارح فإنه يقوم بنفس الدعاء

= في إحياء معالم كل خير ، منفرد في اقتناء الكمالات الحقيقية ، متخصص بإنشاء الخيرات الأخروية . فإن لاحظه بعين الرضا فذلك هو المبتغى ، وإلى الله الرجعى ، والعاقبة لمن اهتدى» . التلخيص ص ٣ . «وحين ما همت حول لجينه ، ورحت تزيين شينه وسينه الحقته إلى خزانة من لا مثل له في العلى ، وله المثل الأعلى ، الصاحب الأعظم ، والدستور المعظم ، بابه كعبة الحاجات ، يطوى إليه كل فج عميق ، وتستقبله وجوه الآمال من كل بلد سحيق ، باهت تيجان الوزراء بهامته ، وحلل الامارة بقامته ، ولي الأيادي والنعم ، ومربي أهل الفضل والحكم ، آخذ أيدي العلماء والعلوم ، ورافع ألوية الشرع المرسوم ، حائز المآثر والمفاخر ، وحاوي الرياسات الأول والأواخر ، أول مدارج طبعه النقاد ، آخر مقامات نوع الانسان ، وآخر معارج ذهنه الوقاد ، وخارج عن طوق البشر بل عن حد الامكان :

لو لم يدل الوهم حيث جلاله ... ما خيل طيف خيال سامي حاله
ناظورة الديوان آصف عصره ... وهو العزيز الفرد في اقباله
محمود أهل الفضل طراً كاسمه ... وكفى به برهان حسن خصاله
بكماله في الأوج بدر كامل ... بحر محيط زاخر بنواله
في كل علم عالم متبحر ... في فن حلم عالم بحياله
سحبان عيّ في فصاحة لفظه ... معن بليغ النمل في أفضاله
الصائب الأفكار في تدبيره ... الثاقب الآراء في أقواله
للناس يبذل ليس يمسك لفظه ... فكأنما ألفاظه من ماله
يتزاحم الأنوار في وجناته ... فكأنه متبرقع بفعاله

وهو الذي عم انعامه وفشا ، الوزير الكبير محمود باشا ، أوضح الله عزة العزة بضيائه ، ورفع علم العلم بأعلائه ، ولا زال مورد أفضاله ماء مدين المآرب ، يوجد عليه أمة من الناس يسقون منه المطالب فإن رفعه إلى سماك القبول فقد سعد كوكب الأمل في برج شرف الحصول ، والله ولي الاعانة ، وكفى به وكيلاً » . حاشية التفتازاني ص ٢ ـ ٣ .

(٢١) « فأشار إليّ من لا يسعني مخالفته ، ولا يمكنني إلا موافقته أن أشرح له شرحاً . . . فبادرت إلى مقتضى إشارته . . . ورسمته باسم من هو متخل عن قبائح الرذائل ، متحل بمحاسن الشمائل ، منبع الجود والاحسان ، المؤيد بتأييد الرحمن ، وهو المقر الأشرف ، العالي ، المولوي ، الأميري ، الكبيري ، الأجلي ، المخدومي ، المجاهدي ، المرابطي ، المتاغري ، المؤيدي ، المنصوري ، =

لله وللسلطان الجديد ، فالله قائم والسلاطين تترى[٢٢] . وما الفرق بين أسماء الله الحسنى وألقاب السلطان ؟ بل إنه في كثير من الأحيان يوصف السلطان بصفات الله ! في العقائد المتقدمة تقل المدائح لله فتختفي المدائح للسلطان في حين أنه في

العضدي ، الذخري ، الأتابكي ، الاسفهسلاري ، السيفي ، قوصون ، الساقي ، الملكي ، الناصري ، شيد الله عضده بمن جاهد في الله ، واجتهد فأقام العدل والاحسان ، ونصر أهل الدين والايمان ، مولانا السلطان الأعظم ، مالك رقاب ملوك العجم ، السيد ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، المتأخر ، المظفر على أعدائه ، المنصور من السماء ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، امام المتقين ، جامع كلم المؤمنين ، أبي المعالي محمد ابن مولانا السلطان الأعظم ، الملك المنصور ، سيف الدين أبو الفتح قلاوون ، مد الله سلطانه على الأمة ظلاً ، وأوسعهم من نصله وفضله صونا وبذلاً ، ومهّد لمقامه الشريف بين منازل الكواكب محلاً ، بالسعود محلى ، وقسم البأس والبذل لاعدائه وأوليائه من الليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، شكراً لبعض أياديه واكرامه ، وشيء من احسانه وانعامه ، والمرجو من محاسن شيمه أن يتلقى بالقبول بفضله وكرمه » المطالع ص ٢ ـــ٣ .

« وكنت برهة من الزمان أجيل رأيي ، وأردد قداحي ، وأؤامر نفسي ، وأشاور ذوي النهى من أصدقائي مع تعدد خاطبيها ، وكثرة الراغبين فيها في كفو أزفها إليه ، يعرف قدرها ، ويغلي مهرها ، موفق له مواقف ، يعز الدين فيها بالسيف والسنان ، وهو متطلع إلى مواقف ينصره فيها بالمحجة والبرهان ، فإن السيف الغاضب إذا لم تمض الحجة حده كما قيل مخراق لاعب حتى وقع الاختيار على من لا يوازن ولا يوازى ، وهو غني عن أن يباهي ، وأجلى من أن يباهى ، وهو أعظم من ملك البلاد ، وساس العباد شأناً ، وأعلاهم منزلاً ومكاناً ، وأنداهم راحة وبنانا ، وأشجعهم جاشاً وجنانا ، وأقواهم ديناً وإيماناً ، وأروعهم سيفاً وسناناً ، وأبسطهم ملكاً وسلطاناً ، وأشملهم عدلاً وإحساناً ، وأعزهم أنصاراً وأعواناً ، وأجمعهم للفضائل النفسية ، وأولاهم بالرياسة الأنسية ، من شيد قواعد الدين بعد أن كادت تنهدهم، واستبقى حشاشة الكرم حين أرادت أن تنعدم ، ورفع رايات المعالي وإن ناهزت الانتكاس ، وجود مكارم الشريعة وقد آذنت بالاندراس ، محرز ممالك الأكاسرة بالارث والاستحقاق ، جمال الدنيا والدين أبو اسحق لا زالت الأفلاك متابعة لهواه ، والأقدار متحرية لرضاه ! وإلى الله ابتهل بأطلق لسان ، وأرق جنان أن يديم أيام دولته ، ويمتعه بما خوله دهراً طويلاً ، ويوفقه لأن يكتسب به الأبقين ذكراً جميلاً ، وأجراً جزيلاً ، إنه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير » المواقف ص ٥ ـ ٦ .

(٢٢) « ولما تيسر لي اتمامه ، وختم بالخير اختتامه ، حبّرته بالدعاء لمن أيده الله بالسلطنة العظمى ، والخلافة الكبرى ، وزاده بَسْطةً في الفضل والندى ، وشيد ملكه بجنود لا قبل لها من العدى ، وأمده بمعقبات من السموات العلى ، يحفظونه من بين يديه ومن خلفه بأمر ربه الأعلى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ليحق به الحق ، ويقطع دابر الكافرين ، ويبطل به الباطل ، ويشفي =

العقائد المتأخرة تكثر المدائح لله فتظهر المدائح للسلطان . وكأنه إذا ظهر العقل خف المديح ، وإذا عم الإيمان كثر المديح !

وفي عصرنا الحالي ، بدلاً من الثناء على السلطة ، والدعاء للممسكين بها ، والقائمين بها ، والقيمين على الناس ، مستنصرين لهم ، ومؤيدين لخطاهم ، فإننا نبين تواطؤ السلطة الدينية والسلطة السياسية ، وكيف أن كلاً منهما تعيش على الأخرى . وفي كلتا الحالتين ، الجماهير هي الخاسرة ، والشعوب هي الضائعة ، حرية ورزقاً . إن مدح خصال السلطان النظرية والعملية تقرب وتملق ، مداهنة وتزلف ، وصولية وإنتهازية ، نفاق وكذب وخداع . وهذا ليس دور الجماهير ولا مهمة طلائعها . فدورها الرقابة ومهمتهم النقد ، وليس في كليهما مدح أو تعظيم . علاقة الرعية بالسلطان في عالمنا المعاصر وبأوضاعه الحالية التي ينكشف بناؤها من خلال وجداننا القومي ، وإحساساتنا الدفينة ليست علاقة طاعة وقبول

= غيظ صدور قوم مؤمنين ، ويجعل له لسان صدق في الآخرين ، ويرفع مكانه يوم الدين ، في أعلى عليين ، وما هو إلا حضرة المولى ، السلطان الأعظم ، والخاقان الأعلم الأكرم ، مالك رقاب الأمم ، من طوائف العرب والعجم ، المختص من لدن عليم حكيم ، بفضل جسيم ، وخلق عظيم ، ولطف عميم ، شمل الورى الطافه ، وعمهم أعطافه ، وصافهم اكنافه ، من كل ما لا يرتضي ، مكارمه لا تحتصى ، ومآثره لا تستقصى

حول عطاياه سمت فوق المدى ... وتباعدت من رتبة الأفلاك

الدر والدري خافا وجوده ... فتحصنا في البحر والأفلاك

من التجأ الى جنابه يجد له مكاناً علياً، ومن أعرض عن بابه لم يجد له نصيراً ولا ولياً إذا هم بمنقبة امضى، وإذا من له بمكرمة أسرع إليها ومضى .

عزماته مثل السيوف صوارما ... لو لم يكن للصارمات فلول

ناشر العدل والاحسان على الأنام، وباسط الأمن والأمان في الأيام ، وهو الذي رفع رايات العلم والكمال بعد انتكاسها، وعمر باع الفضل والأفضال بعد اندراسها، فعادت رياض العلوم إلى روائها ، مخضرة الأطراف ، وأمنت حدائقها إلى بهائها مزهرة الجوانب والاكناف ، ملجأ سلاطين العالم بالاستحقاق ، ومفخر سلاطين بني آدم في الآفاق ، السلطان المؤيد المنصور ، غياث الحق والدولة والدين پير محمد اسكندر ، خلد الله ملكه وسلطانه، وأفاض على العالمين بره واحسانه .

وهذا دعاء لا يرد لأنه ... اصلاح لاصناف البرية شامل

وهأنا أفيض بالمقصود متوكلاً على الصمد المعبود» شرح المواقف ص ٣ .

بـل علاقـة ثورة ورفض . فكثيـراً مـا أدت طـاعـة السلطان إلى الضيـاع والتخلف والاحتـلال ، والخروج عـلى السلطان والثورة ضـده كان فيـه إجبار لـه على العدل والشـورى ، والرقـابـة عليـه[٢٣] . والسلطان لا يهـدي ولا يضـل ، ولا ينفـع ولا يضـر ، لا تتبـع الأفـلاك هـواه ، ولا تتحـرى الأقـدار رضـاه فتلك صفـات الله وحده[٢٤] . هو سلطة تنفيـذية خـالصة . والسلطتـان التشريعيـة والقضائيـة للفكر الذي وعد السلطان بتنفيذه ، وعلى أساس إلتزامه به تمّت البيعـة له والعقـد عليه ، واختيـاره من بين المسلمـين . فـالفكـر هـو مصـدر السلطات . والسلطة الحقيقيـة الفعلية هما السلطتان التشريعيـة والقضائيـة ، والسلطان ما هـو إلا منفذ لـلأولى ، مطيع للثانية . السلطان ليس ملكاً ، ولا صاحباً ، ولا آمراً ولا ناهياً ، ولا خالقاً ، ولا قادراً بل هو منفذ لقانون الفكر ، ومطيع لقضائه ، ومستمع للمشورة ، وقابـل للنصـح . ليس السلطان باستمـرار مصدر الخير والصلاح ، بـل كثيـراً مـا يكـون مصدراً للفساد والطّلاح لنفسه ولشعبه . السلطة في غياب الرقابـة الشعبية تفسـد ، وتعمل لمصلحة القائمين بها ، تغنم وتثرى ، تتجبر وتنفرد بها . ثم تجد من يعـاونها في ذلك ، تحقيقاً لنفس الأغراض ، الثراء والسلطة ، المنصب والجاه . ثم تضع في الشعوب كل القيم التي تساعدها على تحقيق مـآربها مثـل الحرمـان الجنسي بدعـوى الفضيلة والتقوى ثم الإثارة الجنسية بدعوى المدنية وإدخال السرور على النفس حتى يتحـول الشعب كله إلى فئتين مُثـير جنسياً ومُثَـار جنسياً . أو تلهي السلطة الشعب بقُـوْته اليـومي ، حتى يظل الشعب لاهثـاً وراءه ، تاركـاً السيـاسـة ، وغـافـلاً عن السلطة ، تاركاً لها مجال السياسة العليا في الحرب والسـلام ، في الغنى والفقر ، في الحـرية والقهـر ، وفي الوحـدة والتجزئـة . أو تلوِّح بالمنـاصب حتى يتهافت عليهـا

---

(٢٣) « أما بعد ، فقد أشار إليّ من اشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له مشكـلات الأصول ، وأحـل له ما انعقد من غـوامضها عـلى أرباب العقـول لحسن ظنٍ بي أني وقفت على نهايـات النظر ، وفـزت بغايات مطارح الفكر ، ولعله استحسن ذا ورم ونفخ في غير حزم » النهاية ص ٣ .

(٢٤) يقول القرآن الكريم « ومن يضلل الله فما لـه من هاد » (١٣ : ٣٣) ؛ « قـل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شـاء الله » (٧ : ١٨٨) ؛ « ولو اتبـع الحق أهواءهم لفسـدت السمٰوات والأرض ومن فيهن » (٢٣ : ٧١) ، وهو معروف في عقائد الأشعرية التي ينتسب إليها مؤلفو العقائد .

الناس ، ويتسابق نحوها وزراء الغد ، فتعطى لمن لا يستحق حتى يظل عبداً لها ، حريصاً عليها ، يستمد منها قيمته كل من لا قيمة له . إن أزمة السلطة في عالمنا المعاصر أنها لم تأت عن طريق الشورى والبيعة ولكنها أتت قفزاً عليها ، واستمرت بقوانين القهر وبحكم العسكر وبسيطرة أجهزة الأمن بعد أن أخذت شرعيتها أولاً من الإنجازات الثورية أو الحركات الوطنية التي أدت إلى الاستقلال لا من البيعة والاختيار الحر . أخذت الشرعية من العمل ثم من القوة لا من النظر ثم البيعة . والثورية حتى في أحسن صورها واستمراريتها لا تكفي دون البيعة لتحقيق ذاتها ولاستمرارها ولالتفاف الجماهير حولها . وغالباً ما تنقلب الثورية ضد الشعب ، أصل البيعة ، ومصدر الشورى . قد تكون السلطة مصدراً للجهل لا للعلم ، وقد يكون في مصلحتها نشر الأمية وليس محوها ، والقضاء على الثقافة وليس تنميتها . فالسلطة تتأكد في شعب جاهل ، وتقوى في جماعة مطيعة ، فالجهل طاعة والعلم ثورة . وقد يكون المدح للدولة ، لفكرها وعقيدتها ، لحزبها ونظامها كما يحدث في عالمنا المعاصر من الدعوة للنظم السياسية وللثورات الوطنية ، يكون التاريخ قبلها خواء وظلاماً ثم يحدث الملاء ويعمُّ العدل في ظل النظام السائد ، وبعد الثورات المباركة ، وهو ما عاصرناه في جيلنا من جبٍ لما قبل تاريخ ثوراتنا المعاصرة ، وشجب لكل ماضينا ثم الازدهار المفاجىء والنهضة الشاملة في ظل النظام القائم وبعد الثورة . فنولد من جديد ، ونحيا بعد عدم ، ونملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، وتوجهنا عقائد الشيعة ونحن أهل سنة ![25] وهو ما يحدث أيضاً في خطب المساجد من الدعوة إلى السلطان ، وتأييد للنظام ، ومدح للحكام . وهو ما يكثر في عصور الإنحطاط كأحد مظاهره أو أسبابه . فالإمام يخشى السلطان فيمدحه ، والسلطان يخشى الإمام فيوظّفه في رعيته ويجعله تابعاً له فقيهاً للسلطان . وبمدح الإمام تثبت شرعية السلطان في قلوب الناس والجهال ، ولو أن الإمام فضح السلطان لما بقي السلطان . وشرعية الإمام في قلوب الناس أرسخ وأعمق من

(٢٥) هذا لا يعني أي قدح في عقائد الشيعة بل على العكس يعني سريان عقائد الشيعة في المجتمع المضطهد مثل مجتمعاتنا أكثر من سريان عقائد السنة التي لا تستفيد منها إلا السلطة القائمة . فهذا حكم واقع وليس حكم قيمة .

شـرعية السلطان(٢٦) . فـإذا ما تغيـرت السلطة بانقـلاب أو بـوفـاة ، انصبّ نفس المدح للسلطان القديم على السلطان الجديد الذي يُعـطى نفس الصفات ، وتكـون له نفس المحامد والآثار ، وتُوجه إليه نفس الدعوات والإبتهالات . فمدح السلطان لا يقـوم على خصـائص موضـوعية في السلطان بـل هو اتجـاه نحو السلطة بـالتملق والـزلفى والنفاق حتى ولـو كان السلطان حيـواناً ! ولقـد نشأ بيننـا كتّاب لهم هـذه الوظيفة في مدح القائد الملهـم ، والزعيم الشجاع ، وابن الشعب البار ، والمجـاهد

---

(٢٦) «فـإن أمر العلم بمغـربنا قبـل هذا متضـائل الحجـة ، متضايق المحجـة . حيث معـالمـه مـوسـود بالاندراس ، ورجـوع الحشاشـة إليه من روحـه بادية الأساس ، لتضـاعـف أهوال عـلى معاشـرة تشيب لها النواصي ، فشغل كل عن نفسه بكثرة ما يقاس ، ولترادف فاقات كاسرة لعزماتهم أشد من كسر الهمام العواصي . فهي بحيث تذوب لها الجنادل الصلب القواسي حتى صار من هـومنهم أهل لاقتناص أزاهره ، وجدير بنظم فرائد جواهره ، منبوذاً بالعـرا ، ملزوم أبنية الورى ، منقطع المدد ، وفي تلك المدد لا يلوي على أحدقهـا ، هم حزب أهـل العلم في ظلمات الافتقـار ، وطال عليهم ليل الالغاء والاحتقار إلى أن تداركتهم نعمة من ربهم بطلوع طالع السعادة لحزبهم وذلـك بظهور الدولة الشريفة المولوية الهاشمية الاسماعيلية ، فإذا بـدور عزهم طـالعة مسفـرة ، وإذا وجوه أفراحهم ضاحكة مستبشرة ، فذهبوا حينئـذ في العلوم كل مـذهـب ، ونسخوا في المـدارك أعلى مـا يتـطلـب ، فعمت مجالس التـدريس مساجـدهم ، وغشيت رحمـة التعـاطي للفهـوم معـاهـدهم ، وصارت حجج العلم لديهم تتخايل اتضاحاً ، وشبهات الجهـل في جانبهم تتضـائل افتضـاحاً . ولم يزالوا في الارتقاء في تلك المدارج ، وفي التنافس فيها طلباًللسلوك عدل المناهج ،إلى أن بلغـوا أعلى مراتب الانشاء والتـأليف ، فصاروا بعـد التعرف والتعلم رؤ وس التعـاليم والتعاريف . ثم زادهم من لا يخيب لآمـلٍ أمله ، ولا يبطل لعامل مؤمن عمله ، نعمة منـه بأن جعـل خليفته فيهم وهـو المنصور بالله مولانا اسماعيل رأس أمـلاك العصر ، وهـامة القمـاعيل مـلاحظاً لهم بعـين الإجلال والتوقير رؤ وفاً بهم رأفة الوالد بولده الصغير ، خافضـاً لهم جناح رحمتـه حافـظاً لهم من كل اهـانة بسطوته ، ماداً عليهم سرادقات عزته ، يزيد لمحسنهم في الاحسان ، ويتجاوز عن مسيئهم بالعفو والامتنان ، قد كفاهم مهمات دنياهم . وانعش لميل المعـالي قواهم . آمنهم من الخـوف بحسنى ما أظهره ، وفتح عليهم منافع الدين والدنيا بصفاء مـا أضمره . خلد الله تعـالى ملكه ، وأدام حسن سيرته في ما ملكه . ومن قال آمين أمنه في العاجل والآجل . فإن هذا دعاء للبرية شامـل . ثم ان من بركة هذه الدولة السعيدة ، ومن لطائف ميامنها العديدة أن فتح لي في انشاء عدة من المؤلفـات في فنون صعبة ، وعلوم مختلفات ، وكان هذا الشرح من جملتها . ومما يجب الثناء على المولى تبارك وتعالى المعين على انشائه فهو الهادي للعبد إلى مراشده الـدينية والـدنيويـة ليشتغل بهـا بصدق نيتـه واعتنائه » أشرف المقاصد ص ٢ ـ ٣ .

الأعظم ، والرئيس الأفخم ، وصاحب القرار . وإذا استنفدت السلطة أحدهم أو ضاقت به أو خدمها بغباء أو استعمل ذكاءه لحسابه الخاص أتى الآخر ، ثم تطول قائمة الانتظار . يود الكل اللحاق بوظيفة مدّاح السلطان[٢٧] . وقد يكون الدعاء

(٢٧) «ولما من الله تعالى على أهل هذا العصر بخليفة رفعت لجلالته الوية الشرف والفخر ، ونشرت لحضرته رايات العز والنصر ، وسار في اصلاح الرعية سيراً عجيباً ، وسلك في نجاح البرايا سلوكاً غريباً ، وقام على أقدام الاقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الأنام ، وصرف أوقاته لنفع الخاص والعام . وبسط بساط المراحم لكافة تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته . ألا وهو ثاني القمرين ، ومحيي سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغراء ، ورافع لواء المحبة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس من آثار سالف الأمم ، الخليفة الأعظم ، والخاقان الأفخم ، السلطان ابن السلطان ، الغازي عبد الحميد خان ابن السلطان عبد المجيد خان نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين بالفتح المبين اعلامه ، وجه عنايته حفظه الله تعالى إلى أحوال العلوم والمعارف ، وألفت الطرف إلى شؤون الفضائل والعوارف . فرآها بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطالب احياءها بلمحة من أنظار دولته ، فرثى لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبى شكواها ، فشيد لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس النفائس ، وساق إليها المعلمين من أقطار الأرض ، وأمر باحيائها دارسها ، واطاعة أمره فرض وأي فرض ، فقرىء فيها من العلوم والفنون ما يسر القلب المحزون ، ولم تزل المعارف تنتشر في البلاد ، وتتضاعف ثمراتها وتزداد حتى استنقذت شباب الرعية من ظلمات الجهل ، ونوّرت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد علت بذلك همتهم ، وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم . إلا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التي نقلت الينا على متون المطبوعات من نوائل الشبهات ، قد يُخشى منه زيغ عقائد شبان ضعفاء الأمة ، ووقوعهم في الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالي ، والموافق لرأي جلالته السامي تأليف كتاب مختصر يشتمل على تقرير العقائد الاسلامية ببراهينها العقلية ، ويتكفل بدفع تلك الشبهة التي حدثت من الفلسفة الجديدة ، وسواها من الأغاليط المضرة بالعقيدة مع بيان ما يقضي بجلب قلوب شباب المسلمين لمحبة الدين المبين ، والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، عسى أن تعم قراءته في جميع المكاتب السلطانية والمدارس الشاهانية ، محافظة على عقائد تلامذتها من أهل الملة الاسلامية والشريعة المحمدية ، فوفقت لهذه الخدمة الشريفة التي ينتج عنها إن شاء الله تعالى بأنظار خليفة رسول الله الخير الأعظم لعموم الأمة الاسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكته حفظه الله ، وغرة من غرر عصره الحميدي السعيد ، المؤيد بتوفيق الله تعالى فجاء كتاباً يسر قلوب المؤمنين ، ويقر أعين الموحدين ، مشتملاً على مقدمة وثلاثة أبواب ، كل باب منها يشتمل على فصول تحتوي على ما تمس الحاجة إليه من مهمات الأصول ، وعلى خاتمة تشتمل على بيان وجوب الخلافة في الدين المحمدي المبين ، وما لها =

لرئيس المصلحة ، السلطان الأصغر ، الذي بيده الخبز والعيش ، الرئيس المباشر الذي بيده الترقية والدرجة ، والتقرير والتوصية ، والذي يراه الكاتب وجهاً لوجه . فالسؤال هنا مباشرة من شخص إلى شخص وليس إلى ذات مجردة أو لسلطان بعيد قد يسمع وقد لا يسمع . السؤال هنا لشخص حي ، يصعد الدرج ويهرول ، ويهبط تحفّه البركات ، ويصعد تنهال عليه الدعوات(٢٨) . أما الإهداء فإنه يكون أيضاً للحضرة العلية حتى يُذكر اسم السلطان في فاتحة الكتاب بعد فاتحة القرآن أو قبلها ، فكل الآراء تتوجه إلى السلطان كما أنها بدرت منه ، وخرجت بتوجيهاته(٢٩) .

أما نحن فإهداؤنا « إلى علماء أصول الدين ، تحقيقاً لمسؤولية جيلنا » تكاتفاً مع العلماء وإبداء للنصح وتحملاً للمسؤولية عن هذا العلم وأثره في الحياة العملية وعلى سلوك الجماهير وعلاقتها بالسلطة. فإذا كان هذا هو المحتوى الرئيسي للمقدمات الإيمانية التقليدية التي تدعو إلى الله وإلى السلطان معاً وتسبح بحمدهما معاً خاصة في العقائد المتأخرة ، عصر الشروح والملخصات ، عصر الإنحطاط وتلقي البركات فإن عصرنا الحالي عصر إصلاح ونهضة ، وجيلنا الحالي جيل تغيير وثورة . وكتّابه لا يتملقون السلطان الإلّهي أو السلطان السياسي بل يدافعون عن مصالح الشعوب ضد جميع السلاطين . هذه هي مسؤولية « من

= من حقوق الاطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى « الحصون الحميدية لمحافظة العقائد الاسلامية » . فنتوسل إلى الله تعالى بروحانية حبيبه الأعظم ، صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤيد عرش الخلافة العظمى بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الأعظم، ويحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المكين ، والفتح المبين ، اللهم آمين آمين » . الحصون ص ٣ ـ ٤ .

(٢٨) يقول المفتقر إلى رحمة الكريم الثواب ، عبد العليم بن الشيخ محمد أبي حجاب . هذا شرح لطيف على متن السنوسية ، راعيت فيه حال طلبة السنة الثانية النظامية التي أدرس الآن بها مع جمع من حضرات العلماء الأكابر تحت رآسة صاحب الفضيلة الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، وشيخ القسم الأولى الأنور. . . الخلاصة ص ٢ .

(٢٩) « أما بعد ، فهذا مختصر في أصول الدين ، أدرجت فيه الدلائل الجدلية ، والقواعد الأصولية ، وأهديت بها إلى الحضرة المشرفة . اللهم أوصل بركات معرفتك وتوحيدك إلى دولة السلطان الأكبر ، واجعله في الدارين متوجهاً مستوجباً للسعادات والكرامات بفضلك يا أرحم الراحمين » المسائل ص ٣٣٢ .

العقيدة إلى الثورة » ومقدمته الأولى .

وإذا كانت بعض المقدمات الإيمانية القديمة تبدأ فقط « باسم الله الرّحمن الرّحيم » فإننا نبدأ « بَاسم الأمة » ، فالله والأمة واجهتان لشيء واحد بنص القرآن[٣٠] . فإذا كان الله قد تم الدفاع عنه عند القدماء وانتصروا في قضيتهم إثباتاً للتنزيه فإننا ندافع عن الأمة التي اعتراها التفتت ، وأنهكها الضياع ، وتوالت عليها الهزائم ، وانتابها العجز ، وعمها القعود . وإذا كان القدماء في دفاعهم عن التوحيد قد فتحوا البلدان ، وغزوا في سبيل الله ، وحرروا الوجدان البشري إعلاءً لكلمة الله ، فانتصروا في الفكر والشريعة ، وحققوا النظر في العمل ، فإننا اليوم ندعو الأمة إلى الجهاد وإلى تحرير البلدان ، واستعادة الأراضي المغتصبة ، وذلك عن طريق تفجير التوحيد لطاقات المسلمين ، وعودتهم إلى الأرض . فإذا دافع القدماء عن الله نظراً لأنه كان مظان الخطر والهجوم فإننا ندافع اليوم عن الأرض فهي المستهدفة ، رقعة وثروة . فالله بنص القرآن ﴿ إلٰه السموات والأرض ﴾ ، ﴿ رب السمٰوات والأرض ﴾ ، ﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه ﴾ . فالتوحيد فتح وجهاد ، تلك « الفريضة الغائبة » ، وهذا الأصل من أصول الإسلام بل وعقيدته الأولى باسم التوحيد . لقد استبيحت حرمات المسلمين ، واحتُلت أراضيهم ، ونُهبت ثرواتهم ، وانتُهكت أعراضهم ، وقُتلت نساؤهم وأطفالهم ، وذُبح أبناؤهم . فإذا كان القدماء قد بدأوا مقدماتهم الإيمانية التقليدية « باسم الله »[٣١] فإننا نبدأها باسم الأرض المحتلة في مواجهة الإحتلال الأجنبي لأراضي المسلمين ، وباسم حريات المسلمين في مواجهة صنوف القهر والطغيان ، وباسم

---

(٣٠) « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) ؛ « وإن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٢٣ : ٥٢) .

(٣١) المقدمات التي تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم مثل الفقه الأكبر ص ١٨٤ ، التنبيه ص ١ ، أصول الدين ص ١ ، نهاية الاقدام ص ٣ ، المختصر ص ١٦٨ ، عقيدة العوام ص ٣ ـ ٥ ، رسالة التوحيد ص ٢ ، الحصون ص ٢ ، التحقيق ص أ ، تجريد التوحيد ص ٨١ ، تطهير الاعتقاد ص ١٢٨ ، عقيدة الفرقة الناجية ص ١٦٢ ، العقيدة التوحيدية ص ٢ ، جامع زبد ص ٢ ، قلائد الخرائد ص ٣٧ ، كفاية العوام ص ٢ .

النصيحة ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وباسم المساواة والعدالة الإجتماعية في مواجهة تجميع الثروات وتكديس الأموال لدى الأقلية المترفة أمام جماهير الأمة التي تموت جوعاً وقحطاً ، بؤساً وعرياً . وباسم الوحدة ، وحدة الأمة بنص القرآن مرآة لوحدة الله في مواجهة التجزئة والتشرذم والتشتت والتبعثر بين ملوك الطوائف ، وباسم التقدم في مواجهة التخلف ، وباسم النهضة في مواجهة الانحطاط . وباسم الهوية ضد التغريب . باسم جماهير الأمة ، وباسم الأغلبية الصامتة ، وباسم عامة المسلمين يصدر « من العقيدة إلى الثورة » بناء على « العقل المصلحي » يجمع بين « علم أصول الدين » وبين « علم أصول الفقه » ليعيد وحدة « علم الأصول » بشقيه .

وفي مرحلة ثانية[٣٢] ، انتقلت المقدمات الإيمانية من مجرد التعبير عن عواطف الإيمان إلى التركيز على « التأصيل العقلي » للعلم خاصة وأن علم التوحيد هو الذي يعطي التصورات ويقدم المسببات والأسباب[٣٣] . ونستمر أيضاً في التأصيل العقلي دون وقوع في أخطاء التجريد أو التشبيه[٣٤] . ولكننا نزيد على « التأصيل العقلي » عند المتأخرين « التأصيل الواقعي » عند المعاصرين أسوة بالمصلحين المحدثين حتى يرتبط التوحيد من جديد بالعمل ، والله بالأرض ، والذات الإلهية بالذاتية

---

(٣٢) وذلك ابتداء من القرن الخامس كما يبدو في « الارشاد » للجويني .

(٣٣) يشير الجويني إلى ضرورة البحث عن « القواطع الساطعة ، والبراهين الصادعة لا تنهض لدركها همم أهل الزمان. صادفنا المعتقدات عرية من قواطع البرهان ، رأينا أن تسلك سلكاً يشتمل على الأدلة القطعية والقضايا العقلية متعلياً عن رتب المعتقدات منحطاً عن جملة المصنفات » الارشاد ص ١ ، « وكرم بني آدم بالعقل الغريزي ، والعلم الضروري ، وأهلهم للنظر والاستدلال ، والارتقاء في مدارج الكمال ، ثم أمرهم بالتفكر في مخلوقاته ، والتدبر لمصنوعاته ليؤديهم إلى العلم . . . » المواقف ص ٢ ، « وإنما يتميز بما أعطي من القوة المنطقية ، وما يتبعها من النقل والعلوم الضرورية ، وأهليته للنظر وللاستدلال ، وعلمه بما أمكن واستحال ، فإذاً كماله بتعقل المعقولات ، واكتساب المجهولات ، والعلوم متشعبة كثيرة ، والاحاطة بجملتها متعسرة أو متعذرة . . . » المواقف ص ٣ - ٤ . « ومن غير نظر إلا إلى صحة الدليل وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف » رسالة التوحيد ص ٢ . « تقزير البراهين ، والدليل بجانب المدلول » كفاية ص ١٠ .

(٣٤) الأول تصور المعتزلة والفلاسفة والثاني تصور الأشاعرة وأهل الظاهر وجميع الفرق المجسمة.

الإنسانية ، والصفات الإلّهية بالقيم الإنسانية ، والإرادة الإلهية بالحرية الإنسانية ، والمشيئة الإلّهية بحركة التاريخ . وإذا كان الدافع عند القدماء هو العلم ، فقد كانوا منتصرين في الأرض فاتحين للبلدان ، وارثين الإمبراطوريتين القديمتين ، الفرس والروم ، فإن الدافع لدينا هو العمل ، فنحن مهزومون ، محتلون ، تتداعى علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، تريد الدولتان العظميان اليوم ، في الشرق والغرب ، وراثتنا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ليس المهم لدينا هو فهم العالم كما كان عند القدماء بل تغييره وتطويره والسيطرة عليه . لقد عبرت المقدمات التقليدية الأولى عن واقع العلم والمناقشات النظرية في عصر كان الواقع الفعلي مستوراً : البلاد مفتوحة ، والجنود منتصرة ، والدول قائمة مستقلة . وكان الخطر يتهدد العقائد النظرية الجديدة أي التوحيد . ولقد تغير الوضع الآن فأصبح الخطر على الأرض بعد أن احتلت البلاد ، واستُعمرت الأوطان ، واثّاقل الناس إلى الأرض ، وقعدوا عن الجهاد في حين أن التوحيد النظري قائم ، وصفات الله ظاهرة ، وهو واحد حي قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم . يهدف التأصيل الواقعي إذن إلى إعادة بناء « علم أصول الدين » بحيث تتحول العقيدة إلى ثورة للدفاع عن البلاد ، وإطلاق التوحيد من عقاله ، وإيقاظه من سباته ، وتحويله إلى فاعلية في الأرض ، وحركة في التاريخ(٣٥) .

وإذا كانت المقدمات التقليدية بلا استثناء قد جعلت هدفها الدفاع عن العقيدة ، فقد كان الدفاع في معظم الأحوال دفاعاً عن عقائد فرقة معينة هي فرقة

---

(٣٥) « فيما يفتقر أهل التكليف إلى معرفته في أصول العلم وفروعه » الاقتصاد ص ٤ . كما يشير البغدادي لأهمية العقل والنظر والفطرة « والمعارف التي تحصل من تعريفات أحوال الاضطرار أشد رسوخاً في القلب من المعارف التي هي نتائج الأفكار في حال الاختيار ومن دعاء الأبرار » نهاية ص ٤ . . ومع ذلك فقد أشار بعض القدماء إلى الطابع العملي لعلم التوحيد فليس المطلوب هو المعلومات بل العمليات . غاية المرام ص ٣ ولكن كان العمل عندهم بمعنى الالتزام بالحق ، والسلامة من البدع ، والانتفاع بالعلم « أعوذ بالله من علم لا ينفع » تجريد التوحيد ص ٨١ ، عقيدة الفرقة الناجية ص ١٦٢ ، « والله أسأل أن ينفع به كل من تلقاه بقلب سليم » شرح الخريدة ص ٣ . كما كان العمل عندهم هو الحصول على السعادة الأبدية وليس السعادة الدنيوية . غاية المرام ص ٤ .

أهل السنة ضد أهل البدعة ولكننا لا ندافع عن عقائد فرقة بعينها بل نعيد تـأصيل التوحيد كما ورثناه من القدماء وبعد عرضه على ظـروف العصر دفـاعاً عن مصـالح الأمة . ليس الغرض من التأصيل العقـلي المصلحي هو الهجـوم على « الملحـدين » والدفاع عن عقائد الدين بل إيجاد البراهين على الصدق الداخلي للعقائد عن طريق التحليل العقلي للخبرات الشعورية الفردية والجماعية وبيان طرق تحقيقها من أجـل إثبات الصدق الخارجي لها وإمكانية تطبيقها في العالم(٣٦) . فإذا كان هدف القدماء إثبات عقائد « الفرقة الناجية » ضد « الفـرق الضالـة » فإن هـدفنا هـو الدفـاع عن اجتهادات الأمة كلها ، ووضع العقائد كلها على قدم المساواة ومعـرفة كيف نشـأت في ظروف العصر القديمة وكيف يمكن أن تحيا في ظروف العصر الجديـدة . إذا كان هدف القدماء هو بيان « الفرْق بين الفِرَق » فإن هدفنا هو « الجمع بين الفِـرَق » في وقت الأمة فيه أحوج ما تكون إلى الوحـدة الوطنيـة . إذا كان هـدف القدمـاء بيان « مقـالات الإسلاميـين واختلاف المصلين » فـإن هدفنـا هو بيـان « مقال المسلمـين واتفـاق المصلين » . إذا كان هـدف القـدمـاء عـرض « اعتقـادات فـرق المسلمـين والمشركين » فإن هدفنا هو الكشف عن عقيدة الأمة وكيفية استعمالها من كافة قواها الإجتماعية والسياسية ولصالح من يتم تأويلها وفهمها واستخدامها(٣٧) .

---

(٣٦) « الحمد لله زلزل بما أظهر من صنعته أقدام الجاحدين واستزل بما أبـان من حكمته ثبت المبـطلين ، وأقوى قواعد الالحاد بما أبدى من الآيات والبراهين » غاية ص ٣ . « منبهاً على مواضع مواقع زلل المحققين ، رافعاً بأستار عورات المبطلين ، كاشفاً لظلمات تهويلات الملحدين كالمعتزلة وغيرهم من طوائفنا الإلهيين » غاية ص ٥ . « أما بعد ، فإنك سألتني أن أصنف لك كتاباً مختصراً أبين فيه جملاً توضح الحق ، وتدفع الباطل ، فرأيت اسعافك بذلك ، رزقك الله الخيرات ، وأعانـك على الخـير والمـطلوبات» اللمـع ص ١٧ ؛ «طلب الحق ونصـرتـه ، وتنكـب البـاطـل وتجنبـه ، واعتمـاد القـربة بـاعتقاد المفـروض في أحكام الـدين » الانصـاف ص ١٣ ، وأيضـاً نفس المعنى في تجـريـد التوحيد ص ٨١ عقيدة الفرقة الناجية ص ١٦٢ .

(٣٧) « رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركـه إلا الرجـل الرشيـد . . . وبعد عن الخـلاف بين المذاهب بعد محليه عن أعاصير المشاغب » رسالة التوحيد ص ٢ ـ ٣ ، وفي ذلك يقول الايجي « فلذلـك افترق أهـل العلم زمراً ، وتقـطعوا أمـرهم بينهم زبراً ، بـين منقول ومعقـول ، وفـروع وأصول ، وتفاوت حـالهم ، وتفاضـل رجالهم إلى أن قـال ابن عباس في درجـاتهم : انها خمسمائـة

وإذا كان القدماء قد اتبعوا نهج الإلتزام بقواعد السلف ، وبما قاله السابقون ، ينقلون عنهم ، ويهمشون عليهم ، ويشرحون عقائدهم دون تجديد أو إضافة حتى أصبح علم أصول الدين لا يقص تاريخ الأمة ولا يعكس صورة الأحداث فإن نهجنا هو عدم التأسي بأحد ، قدماء أو محدثين . « هم رجال ونحن رجال . نتعلم منهم ولا نقتدي بهم » . وإذا كان القدماء قد آثروا الإتباع دون الإبداع فإننا نرى مأساتنا في الإتباع لا في الإبداع . وأن هناك فرقاً بين الإبتداع والإبداع . الأول خروج على النهج بلا أصول ، والثاني تطوير للأصول وتجديد لها . الأول انقطاع بلا تواصل ، والثاني تواصل بلا انقطاع . ليس السلف بأفضل من الخلف بالضرورة ولا الخلف أشر من السلف بالضرورة ولكن لكل عصر اجتهاداته ، ولكل جيل ابداعاته ، ولكل زمن سلبياته وايجابياته . ولكن رؤية الماضي كنموذج للإتباع ورؤية المستقبل كنموذج للإبداع كلاهما اسقاط للحاضر من الحساب ، وفي ذلك إهدار للإمكانيات البشرية لجيلنا وكأن الحل يوجد خارج عصرنا إما في فردوس الماضي أو في حلم المستقبل ، وكلاهما طريقان وهميان للخلاص . وذلك ضد حركة التاريخ ومساره ، وتطوره على نحو طبيعي من الماضي إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى المستقبل بفعل الأجيال . وطالما أن القدماء لهم الطول على المحدثين فإن الأمة لم تحسم بعد في حياتها معارك النهضة ولم تحصل بعد على شروط التقدم بل إن بعض القدماء يضع لفظ « السلف » أو « السنة » في العنوان إيثاراً للسلامة ، وتحقيقاً للإتباع ، سواء من المؤلفين أو من الناشرين . ونحن لا نعتمد إلا على البحث الحر ، والإيمان بقدرات الأمة على الإبداع ، وتطبيق العقل المصلحي في العقائد ، فهي إيمان الجماهير والتي تعطيهم تصوراتهم للعالم ودوافعهم على السلوك . كما فضل بعض القدماء ذكر سند الرواية وكأن العقائد أحاديث تروى من شيخ إلى شيخ بالقراءة والإجازة والمناولة إلى آخر ما هو

= درجة ما بين الدرجتين مسير خمسمائة عام . وقال بعض اكابر الأئمة وأحبار الأمة في معنى الخبر المشهور والحديث المشهور : اختلاف أمتي رحمة ، يعني اختلاف هممهم في العلوم ، فهمة واحد في الفقه وهمة آخر في الكلام كما اختلف همم أصحاب الحرف ليقوم كل واحد بحرفة فيتم النظام » المواقف ص ٣ ـ ٤ .

معروف من مناهج الرواية الكتابية القديمة[٣٨] .

فإذا كان القدماء قد جمعوا ما في الكتب السابقة المتفرقة وكان التأليف هو التجميع فإننا نجتهد رأينا من واقع المسؤولية ، مسؤولية الأصوليين الواضعين للعلم والمطورين له[٣٩] .لذلك ارتبط « من العقيدة الى الثورة » بالعقائد الإصلاحية فهي وحدها التي تركز على دور العقائد في تغيير حياة الناس ، تصوراتهم وأساليب حياتهم من أجل تغيير الأنظمة الإجتماعية والسياسية وإعادة نظام التوحيد . بل لقد تأسست دول بأكملها إبتداء من إعادة بناء العقائد . وإن مظاهر الشرك في حياة الناس عديدة ليس فقط زيارة قبور الأولياء والأنبياء ، والتبرك بالحجابة والتميمة وممارسة السحر ، والرجم بالغيب ، والوساطة والشفاعة ، وهو الشرك في العبادات ، بل أيضاً الشرك في المعاملات ووجود مجتمع به أغنياء وفقراء ، قاهرون ومقهورون ، أصحاب سلطة ومتزلفون منافقون . أو أن

(٣٨) مثلاً «الاعتقاد على مذهب أهل السلف » للبيهقي (ص ٣) ، أو « لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة» للجويني ، أو «عقيدة أهل الفرقة الناجية » « أهل السنة والجماعة » لمحمد بن عبد الوهاب أو « عقيدة السلف أصحاب الحديث » للصابوني (ص ٢٧ ـ ٢٩) أو « التحف في مذهب السلف » للشوكاني (ص ٩) . وكثيراً ما تكثر الاشارة إلى « أتباع السلف الصالح من المؤمنين » الانصاف ص ١٣ « هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني رضوان الله عليهم أجمعين ، وما يعتقدون من أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين » الطحاوية ص ٣ ؛ « وان جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف . . . قد سلك في العقائد مسلك السلف ولم يصب في سيره آراء الخلف » رسالة التوحيد ص ٢ ـ ٣ ، وهذه أول مرة يتم فيها الجمع بين السلف والخلف ، والاعتماد على الآية القرآنية ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ﴾ (١٩ : ٥٩) لا يعني أي سقوط في تصور التاريخ بل اقرار واقع تاريخي معاصر واعطاء دفعة من التاريخ ، فالبدائية Primitivism وحركات الاحياء Revivalism كلها حركات اصلاحية تقوم بدافع ارساء شروط النهضة . أما عبارة « هم رجال ونحن رجال . . . » فهو قول مأثور عن الشيخ أمين الخولي في تجديده لمناهج النقد في الأدب العربي . أما لفظا الاتباع والابداع فهما من أدونيس في « الثابت والمتحول » في « أصول الاتباع والابداع عند العرب » .

(٣٩) مثل مسؤولية الشاطبي في « الموافقات » بتطويره فكرة المقاصد ، ومسؤولية الامام محمد عبده في تطويره لعلم العقائد في « رسالة التوحيد » .

يظن إنسان أن لإنسان آخر سلطاناً عليه فيمدحه ويداهنه أو يجبن ويخاف ويسكت على الحق حرصاً على الدنيا وإيثار السلامة . ولا يكفي الشرك في العقائد النظرية إبتداء من الغزو الثقافي الحديث إثر حركة الترجمة الثانية وضرورة الرد عليها. بالإعتماد على العقائد السلفية والرد على نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية الحديثة فذلك نسيان لهموم المسلمين العملية ، وإبقاء على النظر دون العمل وإعطاء الأولوية للمستوى النظري القديم على المستوى العملي الحديث(٤٠)

وقد بدأنا بعلم أصول الدين كأول جزء من « التراث والتجديد » لأنه هو العلم الذي يمد الجماهير بتصوراتها للعالم وببواعثها على السلوك . فهو البديل لأيديولوجياتها السياسية خاصة بعد فشل جميع الايديولوجيات العلمانية للتحديث(٤١) . فعقائد الإيمان هي التي حافظت على هوية الجماهير وعلى الشخصية الوطنية للبلاد إبان نضالها ضد الإستعمار . وعبارات الإيمان هي التي تخرج على اللسان في لحظات الحسم مثل « الله أكبر » أو « سبحان الله » أو « لا إله إلا الله » عند المصابين أو « الله ، الله » في لحظات العجب والاستحسان أو « لك يوم يا ظالم » في لحظات الإحساس بالقهر والعجز عن الظلم . فما سماه القدماء

(٤٠) «فهذا «تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد » وجب عليّ تأليفه ، وتعينّ عليّ ترصيفه لما رأيته وعلمته من عموم اتخاذ العباد للأنداد في الأمصار والقرى وجميع البلاد من اليمن والشام ونجد وتهامة ، وجميع ديار الاسلام وهو الاعتقاد في القبور ، وفي الاحياء ممن يدعي العلم بالمغيبات والمكاشفات وهو من أهل الفجور ، لا يحضر للمسلمين مسجداً ، ولا يُرى لله راكعاً ولا ساجداً ، ولا يعرف السنة ولا الكتاب ، ولا يهاب البعث ولا الحساب ، فوجب عليَّ أن أنكر ما أوجب الله انكاره ، ولا أكون من الذين يكتمون ما أوجب الله اظهاره . فاعلمْ أن ههنا أصولاً هي من قواعد الدين ، ومن أهم ما تجب معرفته على الموحدين » تطهير الاعتقاد ص ١٢٨ - ١٢٩ . « هذه فوائد غزيرة . . لهداية أكثر المؤمنين والاخوان عسى الله أن ينفع بها مدى الزمان أقصى حد الهداية » قلائد الخرائد ص ٣٧ . وأيضاً الحصون الحميدية ص ٢ - ٣ .

(٤١) أنظر دراساتنا السابقة « نشأة الاتجاهات المحافظة » ، « التراث والتغير الاجتماعي » ، « اليسار الاسلامي ومستقبل مصر » في « قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني . وأيضاً مجلة « اليسار الاسلامي » العدد الأول يناير ١٩٨١ وأيضاً :
Origines of modern Concervatism and Islamic Fondamentalism, Amsterdam, 1979; Islamic Alternative in Egypt, Boston, 1981; Des Idéologies modernistes à L'Islam Revolutionaire, Paris, 1983

« أرفع العلوم وأعلاها » أو « أشرف العلوم وأسماها » هو عندنا أكثر العلوم فاعلية وأثراً في تصورات الناس وسلوكهم . فالشرف ليس من الموضوع كما قال القدماء بل من الأثر والقدرة على تحريك الناس ، وتجنيد الجماهير ، والدخول في حركة التاريخ(٤٢)

وإذا كان القدماء قد وضعوا عقائدهم بناء على سؤال الأمراء والسلاطين أو بعد رؤية صالحة للولي أو للنبي أو بعد استخارة لله فإننا وضعنا « من العقيدة إلى الثورة » دون سؤال من أحد أو رؤية أو استخارة بل تحقيقاً لمصلحة الأمة وحرصاً على وحدتها الوطنية بعد أن أصبحت شيعاً وفرقاً في نضالها الوطني وتغيرها الإجتماعي خاصة بين أنصار التراث وأنصار التجديد ، بين الحركة السلفية والحركة العلمانية وهما الإتجاهان الرئيسيان في جسد الأمة ، بدلاً من التكفير المتبادل ، والصراع على السلطة ، وإستبعاد كل منهما الآخر . فعقائدنا هي حركة الوصل بين جناحي الأمة والتي من خلالها يستطيع التراث السلفي أن يواجه قضايا العصر الرئيسية كما يستطيع العلماني التقدمي (الليبرالي أو الإشتراكي أو القومي) أن يحقق أهدافه إبتداء من تراث الأمة وروحها . فيأمن الأول المحافظة والرجعية ويأمن الثاني الوقوع في التغريب والعزلة عن الناس . يأمن الأول الخروج على المجتمع سراً أو علناً ومعاداة الأهل والوطن ويأمن الثاني الانتهاء إلى الردة والوقوع

---

(٤٢) « وأشرف العلوم إنما هو الملقب بعلم الكلام . . . العلم به أصل الشرائع والديانات ، ومرجع النواميس الدينيات ، ومستند صلاح نظام المخلوقات » غاية ص ٤ ؛ « وإن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد الهمة ، والقاء الشراشر عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها ، علم الكلام ، المتكفل باثبات الصانع ، وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام ، واتصافه بصفات الجلال والاكرام ، واثبات النبوة التي هي أساس الاسلام ، وعليه مبنى الشرائع والاحكام ، وبه يترقى في الايمان ، باليوم الآخر من درجة التقليد إلى درجة الايقان ، وذلك هو السبب للهدى والنجاح ، والفوز والفلاح ، وأنه في زماننا هذا قد اتخذ ظهرياً وصار طلبه عند الأكثرين شيئاً فريا ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل . فوجب علينا أن نرغب طلبته في زماننا طلب التدقيق ، ونسلك بهم في ذلك العلم مسالك التحقيق » المواقف ص ٤ أنظر أيضاً الباب الأول ، الفصل الثاني . تعريف العلم ـ مرتبته .

في الثورة المضادة . وهذا ما يبرهن عليه واقعنا المعاصر سواء في موقف الحركة الإسلامية منه أو في انتكاسة الثورة العربية وردتها[٤٣] .

والغالب على أسماء مؤلفات العقائد التقليدية إما أسماء العلم والتبيين أو أسماء الجدل والإرشاد أو أسماء تدل على القدرة الشخصية الفائقة أو التواضع الشديد أو أسماء محايدة لتأصيل الدين وشرح أصوله أو أسماء تبين العقائد الناجية طبقاً لتصور أصحابها أو بعض الأسماء التي لا تدل على مُسَمَّياتها[٤٤] . أما اسمنا

---

(٤٣) يذكر صاحب « نور الظلام » شارح عقيدة العوام للمرزوقي أن سبب التأليف هو أن الناظم رأى النبي في المنام سنة ١٢٥٨ آخر ليلة الجمعة من أول جمعة من شهر رجب ، سادس يوم حساباً من شهور السنة من النبي . نور الظلام ص ٢ ـ ٣ . انظر أيضاً بعض هذه الأسباب في لمع الأدلة ص ٧٥ غاية المرام ص ٥ ، البداية ص ٣٩ ، التحف ص ٩ ، عقيدة الصابوني ص ٢٨ ، كفاية العوام ص ٩ ، أنظر لنا أيضاً « الحركة الاسلامية المعاصرة » دراسة في التحقيقات (مقالات الوطن ٢٠ نوفمبر ـ ١٢ ديسمبر ١٩٨٢) ؛ « ضرورة الحوار » قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(٤٤) أسماء العلم والتبيين مثل : « الابانة » ، « الفقه الأكبر » ، « معالم أصول الدين » . وأسماء الجدل والارشاد مثل « التنبيه والرد » ، « الارشاد » ، « الانتصار » ، « البداية من الكفاية في الهداية » ، « ارشاد المريد » ، « البرهان » ، « وسيلة العبيد » ، ومعها تأتي الأسماء الاصلاحية السلفية مثل « تطهير الاعتقاد من أدران الاتحاد » ، « مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد » . أما الأسماء التي تدل على القدرة الشخصية الفائقة والغرور العلمي فهي مثل : « اللمع » ، « لمع الأدلة » ، « نهاية الاقدام » ، « البرهان » ، طوالع الأنوار » ، « المحصل » ، « الدر النضيد » ، « المحيط » ، « بحر الكلام » ، « المغني » ، « التحقيق التام » ، « غاية المرام » ، « الشامل » ، « جامع زبد » ، « الحصون » ، « كفاية العوام » ، « جوهرة التوحيد » ، « الخريدة البهية » ، « قلائد الفرائد » ، « جواهر العقائد » ، « التحف » .. الخ . وعكسها الأسماء التي تدل على التواضع مثل « التمهيد » ، « الاقتصاد » ، « الفصل » . أما الأسماء التي تدل على العقائد الشخصية فمثل : « الطحاوية » ، « النسفية » ، « العضدية » ، « النظامية »، أو « عقيدة السلف » ، « عقيدة الفرقة الناجية » ، « العقيدة التوحيدية » ، « عقيدة العوام » ، أما الأسماء المحايدة فمثل «أصول الدين » ، « الانصاف » ، « أساس التقديس » ، « معالم أصول الدين » ، « مسائل أبي اللهيث » ، « المسائل الخمسون » ، « كتاب التوحيد » ، « جوهرة التوحيد » ، « رسالة التوحيد » . أما الأسماء التي لا تدل على مسمياتها فمثل « المقاصد » ، « المواقف » ، وكان العنوان قبل « من العقيدة الى الثورة» هو « علم الانسان » (التراث والتجديد ص ٢٠٥) Ánthropologie في مقابل Théologie (أنظر بحثنا Thèologie or Anthropologie? La Renaissance du Monde Arabe, Duclos, Bruxelles, 1973) ولكن اتضحت لنا عيوب هذا

فهو « من العقيدة إلى الثورة » فالعقيدة هي التـراث والثورة هي التجديـد . العقيدة هي إيمان الناس وروحهم والثورة مـطلب عصرهم ، والسؤال هـو : كيف يتم نقل الأمة على نحو طبيعي من الماضي إلى الحاضر ؟ كيف تعود إلى التوحيـد فاعليتـه في قلوب الناس ليعود نظاماً سياسياً لمجتمعاتهم ؟ كيف تصبح العقيدة باعثاً ثوريـاً عند الجماهير وأساساً نـظرياً لفهمهم للعـالم ؟ كيف يتحول مسلمـو اليوم إلى ثـوار الغد بعد أن بدأوا ثـوراتهم الوطنيـة العلمانيـة المحدثـة والتي حققت أقل قـدر ممكن من الإستقلال ، وهو جلاء القوات الأجنبيـة ولكن ما زالت الأرض محتلة ، والثـروات ضائعة ، والإقتصاد تابعاً ، والأبنية متخلفة ، والهوية مغتربة ، والحريات مقهورة ، والأمة مجزأة ، والجماهير عاجزة ؟ كيف يصبح التوحيد ، وهـو اسم فعل ، تحـريراً للوجدان البشري ، وتحرراً للمجتمعات البشرية ولـلإنسانيـة جمعاء؟(٤٥) . أمـا من حيث الألقاب التي تبارى فيها القدمـاء مدحـاً لأنفسهم أو تعظيـماً من الآخرين لهم

العنوان ونقائصه فيما بعد . فهو عنوان غربي يحيل إلى فيورباخ وكتابه الشهير « جوهر المسيحية » كما أن علم أصول الدين أو علم الكلام عندنا لا يقابل تماماً « علم اللاهـوت » في الحضارة الغـربية . كما أن تعبير « علم الانسان » قد يحيل إلى « علم الانسان » كـأحد العلوم الاجتمـاعية المعـاصرة في الغرب والتي انتقلت إلى فكرنا المعاصر بكافة فروعه . هذا بالاضافـة إلى أن « الانسان » كـان فقط أول محاور العلم ثم تم اكتشاف « التاريخ » كمحورثانٍ له كبديل للمحورين التقليـديين القـديمين « ذات الله » ، « ذات الـرسـول » أو « الإلهيـات » و « النبـوات » . كـما أن الانسـان لا يـوحي بالضرورة بالثورة ولكنه يوحي فقط بحقوق الانسان وبالنزعة الانسانية التي ارتبطت بالقيم الفرديـة وبالنظم الليبرالية .

(٤٥) يستأنف « من العقيدة الى الثورة » العمل العظيم الذي بـدأه الامام الشهيـد سيد قـطب في المرحلة الثـالثة من حيـاته بعـد مرحلة النقـد الأدبي ، ومـرحلة التصـويـر الفني في القـرآن . وهي مـرحلة « العـدالة الاجتمـاعيـة في الاسـلام » ، « معـركـة الاسـلام والـرأسمـاليـة » ، « السـلام العـالمي والاسلام » ثم محاولة تأسيس هذه «الثورة » على أسس نظرية في « خصائص التصور الاسلامي » ، « المستقبل لهذا الدين » . وفي نفس الوقت يطور المرحلة الرابعة ويعيدها إلى العالم ، مرحلة « معالم في الطريق » أي مرحلة « العقيدة » التي تمت وهو بريء في السجن قبل الشهـادة والتي يغلب عليها نفسيـة السجين البـريء والتي تعبر عن المجتمـع المضطهـد . « من العقيدة الى الثـورة » يعبـر عن ممارسة طبيعية للسياسة ، ومشاركة طبيعية في حركات التغير الاجتماعي دون عداء لأحد ودون ثـأر لا يمحوه إلا الدم . انظر دراستنا : أثر الامام الشهيد سيد قطب في الحركات الاسلاميـة المعاصـرة قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

فلست الإمام ، ولا القطب ، ولا الشيخ ، ولا القاضي ، ولا الرئيس ، ولا العالم العلامة ، الحبر الفهامة ، ولا الصاحب ، ولا الحافظ ، ولا المحدث ، ولا المحقق ، ولا العالم ، ولا الأستاذ ولا المرجع ولا سيدنا ومولانا ! كما أني لست إمام العالمين ، ولا قدوة علماء المسلمين ، ولا سيف الحق والدين ، ولا نجم الملة والدين ، ولا فخر الدين ، ولا عضد الدين ، ولا سيف الدين ، ولا أفضل المتقدمين والمتأخرين ، ولا سيف السنة ، ولا لسان الأمة ، ولا حجة الإسلام ، ولا صدر الإسلام ، ولا شيخ الإسلام ، ولا لسان المتكلمين ، حجة الناظرين مع فرق المبتدعين ، ولا صاحب الفضيلة . ولست العبد الفقير إلى رحمة ربه ، الحقير الراجي من الله غفران الوزر[٤٦] . بل أنا فقيه من فقهاء المسلمين أجدد لهم دينهم

---

(٤٦) هذه كلها القاب القدماء ، تُعطى فرادى أو مجتمعة مثل الامام (عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، البخاري ، أبو سعيد الدارمي ، الحسن البصري ، يحيى بن الحسين الرازي ، ابن حزم ، الباقلاني ، سعد الدين التفتازاني ، الصابوني ، أبو البركات سيدي أحمد البدوي السنوسي ، الأشعري ، أو مشتقات الامام مثل أمام أهل السنة (أحمد بن حنبل) ؛ الامام الحجة ناصر الحق فخر الدين (الرازي) ؛ الامام الأجل ، رئيس أهل السنة والجماعة ، سيف الحق والدين (النسفي) ؛ الامام الهمام ، قدوة علماء الاسلام ، نجم الملة والدين (النسفي) ؛ الامام العلامة ، لسان المتكلمين ، حجة المناظرين مع فريق المبتدعين ، سيدنا ومولانا (أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الدلالي المكناسي) ؛ الامام العالم العلامة شيخ الاسلام (البيجوري) ؛ الامام شيخ الاسلام (محمد بن عبد الوهاب) ؛ الامام الحافظ الكبير (البيهقي) ؛ امام المتكلمين سيف الاسلام (الباقلاني) ؛ الامام الفقيه المحدث الثقة (الملطى الشافعي) ؛ امام المتكلمين ، ناصر سيد المرسلين ، والذاب عن الدين (الأشعري) ؛ صاحب رسول الله ﷺ ؛ الامام الأعظم (أبو حنيفة النعمان) ؛ الامام الهمام ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، شيخ عصره (ملا علي القاري الحنفي) ؛ امام الحرمين (الجويني) ؛ الامام الاستاذ (البغدادي) ؛ الامام الحبر ، شيخ الاسلام (محمد بن عبد الوهاب) ؛ الامام العلامة (المدهدي) ؛ امام المحققين ، وقرة السالكين ، شمس الشريعة ؛ وبدر الحقيقة ، العلامة شيخ الاسلام (الشرقاوي) ؛ الامام المحقق والفهامة المدقق الشيخ (محمد نووي) ؛ الامام الفاضل (محمد بن سعد) ؛ أو العلامة والعالم ومركباتهما مثل العلامة (الطوسي ، محمد نووي الشافعي ، الخيالي ، البيجوري ، الأنصاري) ؛ العلامة السلفي (أحمد محمد مرسي) ؛ العلامة المحقق ، الحَبْر الفهامة المدقق (التفتازاني) ؛ العلامة العصام (الاسفرايني) . العلامة المحقق (التفتازاني) ؛ العالم العلامة شيخ الاسلام (البيجوري) ؛ العالم العلامة، والحبر الفهامة ، ذي الفيض الداني الشيخ (ابراهيم اللقاني) ؛

وأرعى مصالح الناس . ليس لنا ألقاب بل نحن من علماء الأمة ، ورثة الأنبياء ، والمحافظون على الشرع كما كان فقهاء الأمة من قبل . لا نريد مدحاً ولا تعظيماً كما

العلامة الكبير معز الدين السيد (القزويني) ؛ العالم العلامة المسمى (ولدعدلان) ؛ العلامة الشهير سليل العلماء النّحارير ، فريد عصره ، ووحيد دهره الشيخ (أحمد جمال الدين القاسمي) ؛ العلامة الشيخ (أحمد بن عيسى الأنصاري) ؛ العلامة المحقق ، الفهامة المدقق الشيخ (الدسوقي) ؛ العالم العلامة ، الحبر الفهامة الشيخ (محمد نووي) ؛ العلامة الشمس (الانبابي) ؛ العلامة المحقق (السيالكوتي) ؛ العلامة المدقق (محمد عبده) ؛ أو الشيخ ومركباته مثل الشيخ (محمد الفضالي ، حافظ بن أحمد) ؛ الشيخ الامام (عضد الدين الايجي ، الصابوني ، تقي الدين أحمد بن على المقريزي ، أبي الليث) ؛ الشيخ العالم اللوذعي (السيد أحمد المرزوقي المالكي) ؛ شيخ الاسلام (محمد بن عبد الوهاب) ؛ شيخ علماء الشافعية (الايجي) ؛ الشيخ الامام العالم (الشهرستاني) ؛ شيخنا العالم العلامة ، الحبر الفهامة من هو للخصال الحميدة والي مولانا (الشيخ محمد الفضالي) ؛ الشيخ الامام الأجل شيخ الاسلام (الهروي الشافعي) ؛ شيخ الاسلام القاضي العلامة (الشوكاني) ؛ الشيخ الامام العلامة (اليمني الصنعاني) ؛ الشيخ الامام وعلم الهداة الاعلام (محمد بن عبد الوهاب) ؛ الشيخ الامام علم الهدى (الماتريدي) ؛ أو الاستاذ ومركباته مثل الاستاذ صاحب الفضيلة الشيخ (حسين افندي الجسر) ؛ الأستاذ العلامة ، شيخ المحققين الشيخ (طاهر الجزائري) ؛ الاستاذ الامام الشيخ (محمد عبده) ؛ الاستاذ الفاضل الشيخ (أحمد زناتي) ؛ أو القاضي ومركباته مثل القاضي (البيضاوي ، عبد الجبار) ؛ قاضي القضاة (الباقلاني) ؛ القاضي الفقيه ، الامام العالم ، الصدر الكبير ، شيخ القضاة ، بقية المشايخ ، الزاهد ، العابد ، الورع (جمال الدين الأنصاري) أثابه الله الجنة ؛ أو باقي الألقاب التي تجمع بين الوظائف العلمية مثل المحدث وألقاب المدح والتعظيم مثل سيف الدين . . . الخ . المحقق الرباني مولانا الشيخ (الكردستاني) ؛ أو سيف الدين (الآمدي) عضد الله والدين (الايجي) ؛ حجة الاسلام (الغزالي ، الطحاوي) ؛ الحافظ الكبير (البيهقي) ؛ قدوة علماء الاسلام نجم الملة والدين (النسفي) ؛ الصاحب الجليل امام العالمين في العلم والدين والفضل أدام الله علاه لأهله من حيث أحله محل الولد وشاهد منه آثار الفضل وعلامات النجابة والتقدم ؛ أفضل المتأخرين ، وقدوة المحققين ، فخر الملة والدين ، مرجع أفاضل علماء الأكراد حتى زمانه الشيخ (الكردستاني) ؛ صدر الاسلام ، الأصولي العالم المتفنن (البغدادي) ؛ خاتمة المحققين الأدباء ، وخلاصة المدققين الألباء والبلغاء الذي عقم بعد نتاجه الزبد ، وبخل بوجوده مثله وضن ، الممتاز في فنون الكلام بطول الباع الجلي الشيخ (اسماعيل الكلنبوي) ؛ وحيد زمانه ، ونادر عصره وأوانه ، عمدة المحققين مولانا الشيخ (محمد بخيت) ، قاضي ثغر اسكندرية غفر الله له ونفع به آمين ؛ القطب (الدردير) ؛ أو الألقاب العادية الوظيفية مثل صاحب الفضيلة الشيخ فلان أو (محمد الحسيني الظواهري) من علماء الأزهر الشريف ،

فعل القدماء فقد أعطي نفس اللقب لأكثر من عـالم وإمام. وأعـطي للإمـام والعالم أكثر من لقب . وكثرت الألقـاب قبل الاسم وبعـده، يصحبه دعـاء حتى اختلطت الوظائف بالألقاب . ويتساءك الإنسان: طالما أن في الأمة كل هؤلاء العلماء سيـوف الـدين فلمـاذا احتلت الأرض، ونُهبت الثـروات، وقُهـرت الحـريـات، وتجـزأت الأمة، وتخلّفت الأبنية الإجتماعية، وتغرّبت الهويـة، وسكنت الجماهـير؟ ولا نريـد أن نضيف إلى مئـات الألقـاب واحـداً. إنمـا نحن أحـــد علماء الأمـة وواحـــد من المجتهدين .

وكما يستعين القدماء بالله فإننـا نستعين بقـدرة الإنسان عـلى الفهـم والفعل ، على النظر والعمل بالإعتمـاد على النصـوص القديمـة وتجارب العصـر . ولا عصمة لأحـد . والخطأ خطأي وحدي . فـلا يستطيـع الباحث أن يعي كـل شيء ، وأن يعـرف كـل تحليـل ، وأن يكـون عـلى علم تـام بمـطالب العصـر ، ومن ثم فهي اجتهـادات ومـواقف محتملة . وكـل التفسيرات ممكنـة إذا كـان فيهـا تلبيـة لمـطالب

= ومـدرس بكلية أصـول الدين . الفـاضل (اسمـاعيل الكلنبـوي) ؛ وإذا كانت بعض الألقـاب تكشف الغـرور الساذج فـإن البعض الآخر يخفي الغـرور المستتر مثـل الفقير إلى رحمـة ربـه تعـالى ومركباته . الفقير إلى رحمـة ربه (ابراهيم البيجوري) الضعيف ، ابن محمـد غفر الله لـه اللطيف الكريم ؛ الفقير الحقير الراجي من الله غفران الوزر (عبـده حسين بن محمـد الجسر الـطرابلسي) عفا الله عنه ؛ العبد الفقير إلى الله الغني (أحمد بن محمد بن يعقـوب الدلالي نسبـاً المكناسي داراً) طهره الله بلا محنة من جميع العيوب ، وأوجب له برحمته وكرمه مغفرة تمحو جميـع الذنـوب ؛ الفقير لغفران العزيز الجبار ، لكثرة الذنوب والأوزار (محمد نـووي الشافعي) ؛ الفقـير الورى إلى ربـه القدير (ابن محمد البيجوري) ذو التقصير ؛ راجي رَّحمة القدير (أحمد المشهور بالدردير) ؛ الفقير إلى رحمة الكريم التوّاب (عبد العليم ابن الشيخ محمد ابن حجاب) الشافعي مـذهبـاً ، الحـدادي بلداً ومولداً ، أحد علماء الأزهر الشـريف ، ومدرس بنـظام القسـم الأول الأزهري ، عفـا الله عنه آمين ؛ مرتكب الذنوب (محمـد نووي) ؛ فقـير رحمة ربـه الخبير البصـير (ابراهيم البـاجوري) ذو التقصير ؛ الفقير إلى مولاه الغني القديـر (ابراهيم البـاجوري) ؛ العبـد الضعيف بنفسه ، القـوي بالله ، الغني عمن سواه ، الفقير إلى لطفـه الخفي (محمد بخيت) . وكلما تـأخرت العقـائد زادت مثل هذه الصفات التي تدل على الضعف والمسكنة ولـو في الظاهـر والتي قد تكشف عن جـو ثقافي وحضاري عام . لأن الفقير لا يضع أمام نفسه كل هذه التحديدات بالأسماء والمذاهب والألقاب . وهي من وضع الفرد واختياره وإن كانت ألقاب المديح من صنع التـاريخ . أمـا نحن فإن الحـرف د. أمام الاسم إنما اختصار لدرجة علمية وليست لقباً ، فنحن في غنى عن الألقاب .

العصر . فلا توجد صحة نظرية بقدر ما هناك من فائدة عملية[٤٧]. وإذا كانت أخطاء القدماء تتغير بالتوبة والاستغفار فإن أخطاءنا تتغير بالتعلم والاستفادة والمراجعة والنقد ، ثم العود من جديد للقيام بنفس المهمة في تأصيل جديد عقلي مصلحي لعلم أصول الدين على أساس من اجتهاد العصر ، والاكتساب النظري والعملي للصواب[٤٨] . وإذا كان القدماء يريدون ثواباً في الجنة أو إنقاذاً من النار فإننا نريد صلاح الأمة : تحرير أراضيها ، وإعادة توزيع ثرواتها بالعدل والمساواة ، وإطلاق حرياتها في القول والعمل والإعتقاد ، وتوحيد شتاتها ، والقضاء على تخلفها ، وإعادتها إلى هويتها من غربتها ، وتجنيد جماهيرها . نريد تحقيق الإصلاح في الأرض ، ومقاومة الفساد فيها[٤٩] . ولا أرجو مفازة ، ولا أبغي جزاء بل سير الحضارة بعد أن توقفت ، ونقلها من طور إلى طور ، من الطور الثاني (من القرن السابع حتى الرابع عشر) إلى الطور الثالث (إبتداء من القرن الخامس عشر) . مفازتي في تحمل المسؤولية الوطنية والواجب الحضاري ، رسالة العلماء وأمانة الجماهير . لا أطلب ثواباً أخروياً ولا جزاء دنيوياً بل تأدية الرسالة . فالرسالة تحتوي على جزائها في باطنها بتحقيقها ، وتحول الإنسان من الفردية إلى حياة الحضارة الجماعية . فيتحول الفرد إلى تاريخ ، والزمان إلى خلود[٥٠] .

---

(٤٧) اللمع ص ١٧ ؛ « والله أسأل أن يعصمني من الأباطيل ، ويهديني سواء السبيل ، ويغفر لي خطيئتي يوم الدين » الطوالع ص ٦ ؛ وكانت عصمة الله له من الخطأ والزلل في الاعتقاد والعمل جنته وسميته » القول ص ٢ .

(٤٨) التنبيه ص ١ ؛ التلخيص ص ٢ ؛ حاشية الاسفرايني ص ٣ ؛ شرح الأصول ص ٣٩.

(٤٩) المحصل ص ٢؛ العالم ص ٢ ؛ الاعتقاد ص ٣ ـ ٤ ؛ غاية المرام ص ٣ ؛ طوالع الأنوار ص ٦ .

(٥٠) « ويبدأ في أعلى عليين ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » الطوالع ص ٦ ؛ « وسبباً للفوز لديه بجنات النعيم » الاتحاف ص ٦ ؛ « والله أسأله أن ينفع به كل من تلقاه بقلب سليم » شرح الخريدة ص ٣ ؛ فإذا سلك هذا الطريق سلك الله به طريقاً إلى الجنة » القول ص ٢ .

والله أرجو في القبول نافعا ... بها مريداً في الثواب طامعا
الجوهر ص ٩

والله أرجو في قبول العمل ... والنفع منها ثم غفر الزلل
الخريدة ص ١٠

أرجو من الله حصول الأجر ... وكونها عدة يوم الحشر
الوسيلة ص ٤

ونادراً ما تصدر عقائد القدماء عن تجربة شخصية أصيلة . فإذا حـدثت فإنها تجربة شروح وحواشي . فالمادة « الكلامية » محفوظة ومرصوصة ، يتناقلها المصنفون أباً عن جد ، وابناً عن أب ، وتلميذاً عن شيخ . فهم مصنفون وليسـوا مؤلفين . يـرتبون ويبـوبون مـادة صماء لا بـاعث فيها ولا هـدف لها . وأقصى مـا يوجـد من تجارب شعورية وراء المؤلفات القديمة هي تجارب الشرح قبل فوات العمر[٥١] ! أما

---

(٥١) « فقد كنت في إبان الأمر ، وعنفوان العمر ، إذ العيش غض ، والشباب بمائه ، وغصن الحداثة علىنمـائه ، وبـدور الآمال طـالعة مسفـرة ، ووجوه الأحـوال ضاحكـة مستبشرة ، وربـاع الفضل معمورة الأكناف والعرصات ، ورياض العلم ممطـورة الاكمام والزهرات ، أسرح النـظر في العلوم طلباً لأزهارها وأنوارها ، وأشرح الكتب من الفنون كشفاً لاستارها عن أسرارها ، يرد عليّ حـذاق الآفاق غوصاً على فرائد فوائدها ، ويتردد إلى أكياس الناس روماًلشوارد وعوائدها ، علماً منهم بأنـا بذلنا قوانا لكسب الدقائق، وقتلنا نهانا في طلاب الحقائق». شرح المقاصد ص ٢ . «وحين حررت بضعـاً من الكتاب ، ونبـذاً من الفصول والأبـواب ، تسارع إليـه الطلاب، وتـداولته أيـدي أولي الألباب ، وأحاط بـه طلبته كـل طالب، ونـاط به رغبتـه كل راغب ، وعشا ضوء ناره كل وارد ، ووجه إليه الهمة كل رائد . وطفقوا يمتدحون ويقترحون ، وزناد الازدياد يقتدحون ، وأنـا أصرف جهدي والمراد ينصرف ، والمقصود يتقاعس عن الحصول وينحرف ، والأيام تحول وتحجز ، وتعـد ولا تنجـز ، والدهـر يشكي ويتكي ، والعقل يضحـك ويبكي ، العجب من تقاصُر همم الـرجـال وفسادها ، وتراجع سوق الفضائل وكسادها ، وتضعضع بنيان الحق وتداعي أركانه ، وتزعزع شأن الباطل وتمادي طغيانه ، وتطاول أيام كلها غضب وعتب ، وعلى الألباب عـول وألب ، تجمع بـين الجفون والسهاد ، وتفرق بين العيون والرقاد ، لا في القول امكان وللتحصيل تأييد ، ولا في قـوس الـرماد منـزع ولسهم النضال تسـديد ، وهلم جـراً إلى أن رماني زمـاني ، وبلاني من الحـوادث مـا بلاني ، وحالت الأحوال دون الأمان بل الأماني ، وأصبح شاني أن يفيض غـروب شاني ، تنـاوبني الأوطان والأوطار ، وتـرامت بي الأقطار والأسفـار ، أقاسي أحـوالاً تـشبيب النواصي ، وأهـوالاً تذيب الرواسي ، أشاهد من أسبـاب انقراض العلوم ، وانتف[illegible] مددهـا ، ما تكـاد له الأنفـاس تتقطع ، والجبال تتصدع ، وقد ملكتها وحشة المضياع ، وخيرة [illegible]زياع ، ووقفت على ثنية الوداع ، لا طلول ولا يفاع ، ولا رسوم ولا رباع ، كلما نويت نشر ما طويت ، وتصديت لاتمامـه أو تمنيت ، عرض من الموانع والقواطع ، وحدث من النوائب والشوائب ، ما يحول أيسـرها بين المرءوقلبـه ، وتصدأ به مرآة فكره وعقله ، ويزول بادونها ريق خاطره وناظره ، ويـذهب رونق باطنـه وظاهـره ، إلى أن تداركني نعمة ربي ، وتماسك بي عودة من فهمي ولبي ، فاقبلت على اتمام الكتاب ، وانتظام تلك الفصول والأبواب . فجاء بحمد الله كنزاً مدفوناً من جواهر الفوائد ، وبحراً مشحوناً بنفائس الفرائد ، في لطائف طالما كانت مخزونة ، [illegible] الاضاعة مصـونة ، مـع تنقيح للكـلام ، وتوضيـح للمرام ، بتقريرات ترتاح لها نفـوس المحـ[illegible] ، وينزاح منهـا شبه المبـطلين ، وتضيء أنوارهـا في =

« التراث والتجديد » وأولى تطبيقاته هذه « من العقيدة إلى الثورة » فإنه يمثل تجربة العمر دون ما تجريد في العرض أو ادعاء لعلم . فالعلم لا يأتي إلاّ من تجربة ، فردية واجتماعية ، تكشف عن تجربة جيل بأكمله ، في عصر معين ، في إحدى

= قلوب الطالبين ، وتطلع نيرانها على أفئدة الحاسدين ، لا يعقل بياناتها إلا العالمون ، ولا يجحد بآياتها إلا القوم الظالمون ، يهتز لها علماء البلاد في كل ناد ، ولا يغض منها إلا كل هائم في واد . من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلله فما له من هاد . وإذا قرع سمعك ما لم تسمع به من الأولين ، فلا تسرع وقف وقفة المتأملين لعلك تطلع بوميض الهي ، وتألق نور رباني ، من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة على برهان لـه جلي أو بيان من آخرين واضح خفي ، والله سبحانه ولي الاعانة والتوفيق ، وبتحقيق آمال المؤمنين حقيق » . شرح المقاصد ص ٣ ـ ٤ . « يا من وفقنا لتحقيق العقائد الاسلامية ، وعصمنا من التقليد في الأصول والفروع الكلامية ، صلِّ على سيدنا محمد المؤيد بقواطع الحجج والبرهان ، المشيد بلوامع السيف والسنان ، وعلى آله وأصحابه الأعيان ، قومه المبشرين بالدخول والخلود في غُرف الجنان . وبعد . فيقول الفقير إلى عفو رب الغنى محمد بن أسعد الصديقي الدواني ، ملكه الله نواصي الأماني إن العقائد العضدية لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية إلا وأتت عليها . ولم تترك من أمهاتها ومهماتها مسألة إلا وقد صرحت بها أو أومأت إليها . ولم أطلع على شرح بها يكشف مقاصدها ، ويبسط فوائدها ، بل لم أر لها ما يعد في عداد الشروح . إذ كل ما وصل إليّ من ذلك مقدوح ومجروح . فحداني ذلك إلى أن أشرحها شرحاً وافياً بحل للعاقد ، وتبين المغالق ، كافياً في تحقيق المقاصد ، والتغضي عن الضائق . ولم أسترسل مع شعب القيل والقال ، على ما هو دأب أهل الجدال ، القاصرين على انتهاج طرق الاستدلال. بل اتبعت الحق الصريح وان خالف المشهور . وأخذت بمقتضى الدليل وإن لم يساعده مقالات الجمهور » شرح الدواني ص ٤ ـ ٩ « الحمد لله على ما هدانا إلى سبيل الصواب . وأرشدنا إلى الحق بالسنة والكتاب ، والصلاة والسلام على نبينا الهادي لأولي الألباب ، وعلى آله وصحبه خير الآل وخير الأصحاب وبعد . . واني كنت قد صرفت جل همتي في عنفوان الشباب في الفنون العقلية والنقلية لحسن المآب ، وحررت ما يتعلق بفنّي المنطق والآداب . وانتهى العمر إلى أواسط الشيب بلا ارتياب ، فكرهت أن تكون الآلات المهيئة مجردة عن الأثر ، بحيث تكون خلاقاً بلا ثمر ، ودار في خلدي أن أكتب بعض ما يتعلق بعلم الكلام ، حسبما يساعده الطاقة في تحقيق المرام . فلما اتفق لي الشروع في تعليم شرح العقائد العضدية للمولى المحقق جلال الدين الدواني البارع في المباحث العقلية والكلامية قصدت أن أجمع ما يتعلق به من كلام الأكابر ، وما سنح في اثنائه للفكر الفاتر ، تذكرة للأحباب وتكملة لأفكار الطلاب ، والمرجو من الاخوان الأمجاد ، أن ينظروا إليه بعين الوداد .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

متوكلاً على هادي السبيل ، وهو نعم الولي ونعم الوكيل » شرح الكلنبوي ص ٤ .

مراحل التاريخ . وموضوعية الفكر لا تنفي حياة المفكر . بل إن حياة المفكر وتجربته هي المحل الذي تنكشف فيه موضوعية العلم وشموله . وأرجو ألا تشغلنا زحمة الحياة ، والخوض في تجارب العصر ، وعيش أزماته عن إعادة بناء العلوم القديمة وتأسيسها من جديد طبقاً لمقتضيات العصر .

كانت تجارب القدماء في أغلبها صوفية وفي أقلها علمية نظرية ، وبالتالي خلت من أي مضمون إجتماعي . وكيف يهتز العالم كله من مجرد تجربة ذوقية شخصية تعتلج في صدر صاحبها ، ويموج بها قلبه ، ويهتز لها وجدانه ؟ وقد يكون الإحساس بخلاصِ العالم على يد الشارح تعويضاً عن إفلاس علمي حقيقي أو تغطية لا شعورية عن هزائم العصر ، وإنهيار الحضارة . إنما تجاربنا نحن فهي اجتماعية بالأصالة ، تجارب ذات مضمون ، وضعناها في التراث ، وقرأنا التراث من خلالها فتحولت إلى فكر ، وتحول التراث إلى تجربة . وتلك هي مقدمتنا لهذا الجزء الأول من « التراث والتجديد » وهو « من العقيدة إلى الثورة » ، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين القديم[٥٢] .

---

(٥٢) يعبر مشروع « التراث والتجديد » عن تجربة العصر من خلال جيلنا على الأقل ، وهو جيل يكشف عن مسار التاريخ المعاصر في أحد مراحله الرئيسية . كما يعكس الصراع الدامي الذي حدث بين « الاخوان المسلمين » التي كانت تمثل الحركة الاسلامية المعاصرة وريثة الاصلاح الديني القديم من الأفغاني إلى محمد عبده إلى رشيد رضا إلى حسن البنا إلى سيد قطب ثم إليّ ، وبين « الثورة المصرية » منذ « عرابي » حتى « عبد الناصر » . كان أول وعيي بالعالم الحرب « العالمية » الثانية (إذ أني من مواليد ١٩٣٥) وكانت عواطفنا ونحن صغار مع دول المحور لأنها كانت ضد بريطانيا التي تستعمرنا ، ولم نكن ندري وقتها ماذا تعني النازية أو العنصرية . وكان وعيي الثاني ابان حرب فلسطين ١٩٤٨ عندما ذهبنا للتطوع في جميعة « الشبان المسلمين » فطلبوا تحويلنا إلى حزب آخر « مصر الفتاة » . ويومها عجبت للفرقة المذهبية في قضية وطنية . ثم دخلت « الاخوان المسلمين » في نفس العام الذي اندلعت فيه الثورة المصرية في ١٩٥٢ . طالبت أن يكون شعار الاسلام مصحفاً ومدفعين وليس مصحفاً وسيفين ، إعلاناً للتحديث وتأكيداً على المعاصرة ، وكنا مع الثورة في صف « محمد نجيب » الذي دعا في جامعة القاهرة إلى الوحدة الاسلامية . ثم اشتعلنا بثورة محمد مصدق بايران وتأميم البترول ، وهرب الشاه ، وكانت أول صدمة تراخي الاخوان في تأييدها بل وتأييد الكاشاني ! ثم حدثت أزمة مارس بين الاخوان والثورة وكان مشروع المعاهدة المصرية البريطانية أقل مما كانت تطالب به الحركة الوطنية المصرية . كما آنضممنا الى الحركة الوطنية

المصرية العامة التي كانت تطالب بالحريات وبالدستور . ثم اشتعلنا من جديد بالثورة المصرية بعد تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ وظهر « عبد الناصر » ليس فقط كمناضل ضد الاستعمار بل كرمز لحركات التحرر في العالم الثالث كله .

بدأت الأفكار الأولى لمشروع «التراث والتجديد» اذن من أتون الصراع بين « الاخوان » و « الضباط الأحرار » أي بين « الاسلام » و « الثورة » أو بين « القديم » و « الجديد » أو بين « الماضي » و « الحاضر » ، خلال أربع سنوات حياتي الجامعية من ١٩٥٢ - ١٩٥٦ واكتشاف توجيه الفكر للواقع ، والطاقة والحركة والتغير والجدة والحياة حتى لقد حسبني أحد الأساتذة كانط أو برجسون ومنه سمعت لأولة مرة تكوين الشعور والاحالة المتبادلة أو القصدية وأنه يمكن لتجارب الشعور (الدينية الصوفية عندي في ذلك الوقت) أن تتحول إلى علم . -'Les methodes d'E) (Xégèse وفي فرنسا في أواخر ١٩٥٦ تمت صياغة «المنهاج الاسلامي العام» الذي يتكون من صورتين : الأولى ثابتة تصور ونظام والثانية حركية طاقة وحركة مما انتهى بعد تعديلات طويلة وتطور في وعي المنهج برسالتي الأولى « مناهج التفسير في علم أصول الفقه » (بالفرنسية) ، أول محاولات التراث والتجديد التطبيقية ، وبعد عودتي من فرنسا في صيف ١٩٦٦ شرعت في كتابة المقدمات النظرية (أزمة الدراسات الاسلامية ، التراث والتجديد ص ٧٥ — ١٢٢) . ثم وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وهنا تحولت من باحث نظري « أكاديمي » إلى باحث اجتماعي ، وانتقلت من « الوعي الفردي » الغالب على الرسالة الأولى إلى « الوعي الاجتماعي » من أجل التصدي للهزيمة كمفكر وباحث وعالم (وكانت حصيلة ذلك قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر ، قضايا معاصرة (٢) في الفكر الغربي المعاصر) لمدة ثلاثة أعوام . بعدها غادرت البلاد رغبة في الهدوء والنسيان ، وتهدئة الخواطر مع السلطات الجامعية والسياسية . وفي الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٧١ - ١٩٧٥) جمعت مادة « من العقيدة الى الثورة » لأول مرة . ثم كتبت «التراث والتجديد» في ١٩٧٦ كمقدمة عامة بعد أن نضجت في ذهني أزمة التغير الاجتماعي . ولكن حدثت في ١٩٧٧ الردة الثانية ، وانقلاب الثورة المصرية الى ثورة مضادة مما جعلني أتحول مرة أخرى من باحث ومفكر وعالم إلى « حارس للمدينة » حرصاً على الثورة ، وحماية لمكتسباتها ، ودفاعاً عن مشروعها . وظل ذلك على مدى أربع سنوات أخرى في هذه المهام العاجلة والشهادات المستمرة على أحداث العصر (وكانت حصيلة ذلك قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية ، قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني) . ثم جاءت مذبحة سبتمبر ١٩٨١ ، وخروج اضطراري من الجامعة مما أعطاني عاماً كاملاً لكتابة « من العقيدة الى الثورة » للمرة الثانية . وبعد خلاص مصر من أسوأ عقد في تاريخها وهو عقد السبعينات كتبت « من العقيدة الى الثورة » للمرة الثالثة في فاس بالمغرب الأقصى خلال عام ١٩٨٣ بعد أن برزت الحركة السلفية في المشرق كوريث للحركة الاصلاحية الدينية وكبديل للثورات العربية وللحركة العلمانية التقدمية بوجه عام ، وبعد رصيدها في تخليص مصر . وعلى =

هـذا النحو يكـون « من العقيدة الى الثـورة » قد استغـرق عشـرة أعـوام مثـل رسـالتنـا الأولى عن « مناهج التفسير » . وكم في العمر من عشرات الأعوام ؟ لـذلك أرجـو أن تتوالى أجـزاء « التراث والتجديد» تباعاً، بعد أن شهدنا على أحداث العصر بما فيه الكفاية . الهدف الآن تنظيرها وإحكامها وتحويلها الى علم محكم . ويكفي «اليسار الاسلامي » كمنبر عام لبيان كيفية الانتقال «من العقيدة الى الثورة» (*) قد أشفعها جميعاً بسيرة ذاتية وقد أترك «التراث والتجديد» يحكي قصة حياتي .

(*) [انظر أيضاً باقي الظروف في « التراث والتجديد » ص ٢١٦] .

الباب الأول
المقدمات النظرية



الفصل الأول

تعريف العلم

أولاً : مقدمة :

لا تحتوي كل المصنفات القديمة على هذه المقدمة العامة للعلم التي يتحدد فيها تسميته ، وحده، وموضوعه ، ومسائله ، ومنهجه ، ومرتبته ، وفائدته ، ووجوبه . أسقطتها كتب العقائد من الحساب إذ لا يهمها الحديث عن العلم بقدر ما يهمها فرض ما يجب على المسلم الاعتقاد به بصرف النظر عن أسس هذا الاعتقاد ومبادئه النظرية. مع أن تحديد العلم جزء من تأسيس العلم[1] . كما تغيب عن كتب « عقائد السلف » التي يهمها أيضاً صياغة العقائد السلفية باعتبارها عقائد الفرقة الناجية[2] . كما أنها لم تظهر في المصنفات الكلامية الأولى قبل القرن الخامس الذي اكتمل فيه بناء العلم ، وقبل أن يأخذ نفسه موضوعاً[3] . ظهرت

(١) كتب العقائد مثل : الفقه الأكبر ، كفاية العوام ، عقيدة العوام ، الجواهر الكلامية ، السنوسية ، العضدية ، الخريدة ، الجوهرة ، العقيدة التوحيدية ، تيجان الدراري ، قطر الغيث ، الطحاوية ، قلائد الفرائد ، وكذلك بعض الشروح مثل شرح ملا القاري على الفقه الأكبر والشروح المختلفة على العقائد العضدية مثل شرح الدواني وحواشي السيالكوني ، والمرجاني ، والخلخالي ، والكلنبوي ، ومحمد عبده .

(٢) كتب عقائد السلف مثل عقائد أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وابن قتيبة ، وعثمان الدارمي ، وعقائد الصابوني (عقيدة السلف) ، والصنعاني (تطهير الاعتقاد) ، والمقريزي (تجريد التوحيد) ، ومحمد بن عبد الوهاب (كتاب التوحيد ، عقيدة الفرقة الناجية ، مفيد المستفيد) ، والشوكاني (التحف) .

(٣) مثل اللمع ، الابانة ، كتاب التوحيد ، التنبيه والرد ، الانصاف ، التمهيد ، المحيط ، شرح الأصول الخمسة ، أصول الدين ، الاعتقاد ، العقيدة النظامية ، لمع الأدلة ، الارشاد ، الشامل ، نهاية الاقدام ، البداية ، أساس التقديس ، المسائل الخمسون ، المحصل ، المعالم .

بعض موضوعات المقدمة مثل وجوب العلم ومنهجه، وأصبح لها مكان الصدارة على باقي الموضوعات كلها[٤] . كما ظهرت مرتبة العلم في ثنايا المقدمات الإيمانية الأولى[٥] . ولكن ظهرت المقدمات كلها إبتداء من القرنين السابع والثامن ، مروراً بالحركة الإصلاحية ، واستمر الحال على هذا النحو حتى الكتب المدرسية المتأخرة[٦] . فإذا ظهرت في المتن فإنها تظهر أيضاً في شروحه وحواشيه[٧] . وقد لا تظهر في المتن ولكنها تظهر في الشروح والحواشي كنوع من التطويل وجمع المعلومات[٨] . وبالرغم من أهمية هذه المقدمة فقد اعتبرها بعض القدماء عارية عن العلم . ولا يوجد علم بلا تحديد . وقد يكون أحد العلوم القديمة بلا موضوع ولا منهج وضارا على الفرد والمجتمع . وهذا هو حال « علم الكلام » فإنه من أكثر العلوم في تراثنا القديم عرضة للهجوم والتحريم . ولا يوجد علم كثر حوله النزاع ، واشتد الخلاف مثل هذا العلم . وقد يكون هذا الغياب أو الحضور العشوائي لتعريف العلم وتحديد موضوعه واختيار منهجه هو ما ترسب في عقليتنا المعاصرة من الحديث عن موضوعات لا وجود لها أو الصمت عن موضوعات موجودة . وقد نتحدث عن أشياء دون حدها فتظل فضفاضة يستعملها الكثيرون بمعانٍ مختلفة . وقد نستعمل أسماء دون أن يكون لها مسميات ، وبالتالي نتعامل مع حدود فارغة بلا مضمون[٩] .

ثانياً : تسميته :

اختلفت آراء القدماء حول تسمية هذا العلم . هل هو «علم الكلام» أو «علم

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد ، الملل جـ ١ ، بحر الكلام .

(٥) غاية المرام ، طوالع الأنوار ، المواقف ، المقاصد ، الدر ، رسالة التوحيد ، وسيلة العبيد .

(٦) طوالع الأنوار ، المواقف ، المقاصد ، الدر ، وسيلة العبيد ، رسالة التوحيد ، التحقيق ، الحصون .

(٧) شرح المواقف، مطالع الأنوار ، شرح المقاصد ، أشرف المقاصد .

(٨) شرح التفتازاني على النسفية ، حاشية الخيالي ، تحقيق المقام على كفاية العوام .

(٩) ويشير إلى ذلك القرآن ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (٥٣ : ٢٣) . وتحليل العصر انما يأتي من التجارب المعاصرة التي يحياها المفكرون ، وكما تظهر في الأعمال الشعرية والأدبية وفي الأمثال العامية . وهي الروح التي نقوم بتحليلها في « قضايا معاصرة » دون الاحالات إليها .

التوحيد» أو علم «الذات والصفات» أو العلم الذي يدور حول « الله والرسول » كما هو واضح في الشهادتين أو «علم أصول الدين » أو « علم العقائد» أو « الفقه الأكبر » ؟ وقد كانت لكل تسمية ظروفها وبواعثها وربما أهدافها . لم ينتشر الاسمان الأخيران كثيراً . «فالفقه الأكبر» كان تسمية القرن الثاني حتى قبل أن يبدأ العلم كبناء نظري وليس كمجرد نظريات متفرقة في بعض موضوعاته المتناثرة طبقاً للظروف والأحداث . و « علم العقائد » تسمية متأخرة متضمنة في « علم التوحيد » . أما الأسماء الثلاثة الأولى فهي الأسماء الأكثر شيوعاً .

١ ـ علم الكلام : بلغت أهمية موضوع « الكلام » الإلهي درجة أنه أصبح الموضوع الأول للعلم ، ولكون صفة الكلام من أكثر الصفات المتنازع عليها[١٠] . والحقيقة أن اعتبار « الكلام » موضوعاً للعلم تجاوز عن موضوع العلم ذاته . فالكلام أحد موضوعات العلم وليس موضوعه الأوحد . ولا يمكن أخذ أحد أجزائه واعتباره موضوع العلم كله وهو التوحيد أو العقائد أو الدين . كما أن « الكلام » ذاته موضوع جزئي من موضوع أشمل وأعم وهو موضوع الصفات . فهو الصفة السادسة من صفات الذات السبع (العلم ، القدرة ، الحياة ، السمع ، البصر ، الكلام ، الإرادة) . أما السؤال الذي من أجله تطايرت الرقاب وقضي على الحريات ، وقاسى المفكرون بسببه أشنع أنواع الإضطهاد وهو : هل الكلام قديم أم حادث ؟ فإنه ينطبق على سائر الصفات . لم يحدث النزاع في الكلام فقط حتى يكون الكلام هو موضوع العلم بل حدث أيضاً في الصفات وفي الأفعال بل وفي

(١٠) يبدو أن أول من استعمل التسمية كعنوان لمصنف هو الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) في «نهاية الاقدام في علم الكلام » حتى محمد الفضالي في القرن الماضي في « كفاية العوام في علم الكلام » بالاضافة إلى الكتب المدرسية المتأخرة مثل « التحقيق التام في علم الكلام » للظواهري في هذا القرن (الرابع عشر). وكان الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) قد استعملها من قبل في « الجام العوام عن علم الكلام » دون مصنف في العلم بل للحديث عن موضوع الشرعية أو الوجوب وحده ، كما استعمله النسفي (ت ٥٠٨ هـ) بالمعنى المجازي في « بحر الكلام في علم التوحيد » وكذلك التفتازاني (ت ٧٩١ هـ) في « تهذيب الكلام » . انظر هذه التسمية في الملل جـ١ ص ٤١ ؛ شرح التفتازاني على النسفية ص ١٠ ـ ١١ ، المواقف ص ٩ ، شرح المقاصد ص ١٢ ، أشرف المقاصد ص ١٣ ، رسالة التوحيد ص ٥ ، اتحاف المريد ص ٢٧ ، تحفة المريد ص ١٣ ، التحقيق التام ص ٣ .

الإلهيات وفي السمعيات كلها بابي العلم الرئيسيين . كما وصل الخلاف إلى حد القتال وشق الأمة إلى فرق متنازعة متحاربة في موضوع الإمامة ، آخر موضوع في السمعيات . فاعتبار « الكلام » موضوعاً للعلم ليس بأولى من اعتبار الموضوعات الأخرى من موضوعات العلم كذلك . فهي ليست أقل أهمية سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العملية(١١) .

ويحتوي « الكلام » على التباس : هل هو صفة الله ، قديمة أم حادثة ، أم هو كلام الله الذي أوحى به إلى الرسول ، وهو القرآن الكريم ؟ والأول لا علم لنا به إلا من خلال الثاني ، وبالتالي يكون الوحي من حيث هو كلام أي قرآن هو موضوع العلم كما هو الحال في العلوم الإسلامية الأخرى خاصة علوم القرآن والتفسير أو حتى العلوم النقلية العقلية مثل علم أصول الفقه وعلوم الحكمة أو علوم التصوف أو العلوم الإنسانية مثل علوم اللغة والأدب . علم الكلام إذن هو علم « وضعي » يدرس ما هو كائن ، وهو القرآن ، كتاب محسوس وملموس . ويخرج من هذا الالتباس الأول التباس ثان وهو أن هذا الكلام هل هو « كلام الله » باعتباره مصدر الوحي أو « كلام الإنسان » باعتباره متلقي الوحي وقارئه بصوته ، فاهمه بعقله ، مدركه بتجربته ، محققه بإرادته ؟ الكلام الأول لا يمكن معرفته معرفة مباشرة إلا من خلال الكلام الثاني . وبالتالي يكون « كلام الإنسان » حديثاً عن « كلام الله » في عقله وقلبه وبلسانه وصوته . يكون حديثاً عن الله Discours sur Dieu وليس حديثاً من الله Discours de Dieu . وفي هذه الحالة يمكن للكلام باعتباره الوحي الموجود أمامنا المقروء بصوتنا ، المتلو بلساننا ، المكتوب

---

(١١) لم يرد لفظ « الكلام » في القرآن إلا ثلاث مرات ، مرتين مضافاً في « كلام الله » بمعنى الكلام المكتوب القابل للتحريف والتبديل مثل ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ (٢ : ٧٥) ، ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (٤٨ : ١٥) . وتعني الثالثة الطاعة مثل ﴿وان أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ (٩ : ٦) . ومرة رابعة مضافاً إلى ضمير المتكلم مثل﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وكلامي﴾ (٧ : ١٤٤) . في حين أن الانسان ذكر خمساً وستين مرة . فعلم « الكلام » اذن مبني على شيء فرعي للغاية وإلا فإن تأسيس علم « الانسان » أولى وأهم . انظر أيضاً الفصل الثاني . « بناء العلم » .

بأيدينا ، المرئي بأعيننا ، المحفوظ في صدورنـا ، المفهوم بعقـولنا والمؤثـر في حياتنا . وليس الكلام كصفة لذات مشخصة بل كموضوع موجـود بالفعـل في وحي ، أي في معطى تاريخي مـدون وملموس ، محـدود ومتعين ــ يمكن لهـذا الكلام أن يكـون موضوعاً للعلم بل لعدة علوم منها : علم النقد التاريخي ، وهو العلم الذي يدرس صحة الكلام في التاريخ ، طرق ضبطه ، ووسائل نقله شفـاهياً كـما حدث في علم الحديث أو كتابة كما حدث في علوم القرآن[١٢] . علم القراءات واللهجات ، وهـو العلم الذي يدرس كيفية قراءة القـرآن وضمان عـدم وقوع اللحن فيـه وهو مـا قد يكـون أولى مراحـل التحريف عمـداً أو عن غير عمـد[١٣] . علوم اللغة من أجـل ضبط الكـلام ومعرفـة التركيب اللغـوي لعبـارات الـوحي حتى يمكن فهم معنـاه . فـاللغة أحـد وسائـل الفهم . واليها تنضم علوم البـلاغـة للتعـرف عـلى النـواحي الجمالية في أسلوب الوحي وتعبيراته ، صوره وخيالاته[١٤] . علوم التفسـير ، وهي العلوم التي تحاول فهم النصوص والعثور على المعـاني إمّا بـالرجـوع إلى اللغة أو إلى أسباب النزول أو إلى حوادث التاريـخ أو إلى تاريـخ الأديان والعقـائد السـابقة . . الخ . لذلك تكون التفسيرات لغوية أو أخلاقية أو فقهية أو فلسفيـة أو عقائـدية أو صوفية أو تاريخية أو علمية أو أدبية أو إجتماعية . كل ذلك يتوقف على غاية المفسـر

---

(١٢) وهذا هو الذي ركز عليه ابن حزم في أول « الفصل » في مناهج النقل عند المسلمين وتـطبيقها عـلى باقي الكتب المقدسـة مثل التـوراة والانجيل . وهـو العلم الذي حـاولنا اعـادة استئنافـه في كتابنـا « اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة » وقبل ذلك في رسالتنا : La Phénoménologie de l'Exégèse. essai d'une Herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament وأيـضـاً في كتـابنـا : .Religious Dialogue and Revolution . وهـو مـوضـوع القسم الثـالث من « التـراث والتجديد » .

(١٣) ويشير القرآن إلى ذلك بقوله ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا ، ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ (٤ : ٤٦) .

(١٤) مثـل « إعراب القـرآن » للزجاج وكـل الدراسـات حول إعجـاز القـرآن مثـل « دلائـل الاعجـاز » للجرجاني .

ومنهجه واحتياجات عصره[١٥] . وإذا كان القدماء قد قاموا قدر طاقتهم وطبقاً لظروفهم بجعل « الكلام » موضوعاً للعلوم القديمة المرتبطة باللغة فإننا قد نكون أقدر على جعله موضوعاً للعلوم الإنسانية الحديثة . فباستطاعة علم النفس البحث عن الأسس النفسية التي يقوم عليها الكلام ، صياغة أو فهماً أو تأثيراً في سلوك الأفراد والجماعات . ويمكن لعلم الإجتماع البحث عن الأسس الإجتماعية التي عليها قام « علم الكلام » ومعرفة الظروف الإجتماعية التي كانت وراء نشأته كما هو معروف في « علم اجتماع المعرفة »[١٦] . ويمكن لعلم السياسة البحث عن نشأة علم الكلام في ظروف سياسية خاصة ، واستعمال الوحي لإفراز إمّا تراث للسلطة أو تراث للمعارضة كما هو واضح في أدبيات الفرق ، ومدى استمرار ذلك حتى الآن في علاقة السلطة بالمعارضة واعتماد كل منهما ، خاصة السلطة ، على الموروث العقائدي القديم . وقد يجد كثير من المشاكل الكلامية حلوله في مثل هذه العلوم الإنسانية فهي موضوعات إنسانية ، دراستها في العلوم الإنسانية وبمناهجها ، وليست موضوعات « لاهوتية » مقدسة تنبع من مصدر قَبْلي وهو النص الديني أو ترتبط بذات مشخصة خارج الزمان والمكان . وقد يكون تاريخ « الإلهيات » وتاريخ التفسير مرآة تعكس الإنسانية عليه ظروف كل عصر تمرّ به أو مشجباً تعلّق عليه آمالها واحتياجاتها وطموحاتها التي تحققت أو التي لم تتحقق . فهي جزء من « تاريخ الأفكار » ، وتاريخ الأفكار جزء من التاريخ الاجتماعي[١٧] .

---

(١٥) أنظر بحثنا « مناهج التفسير ومصالح الأمة » ، قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(١٦) « علم اجتماع المعرفة » علم بديهي خالص لم ينشأ في الحضارة الغربية المجاورة ولم ينقل منها . بل هو موجود في كل الحضارات بل وفي قلب الوحي بدليل تطور النبوة وتطابق مراحلها مع ظروف كل عصر . استعمله القدماء استعمالاً طبيعياً تلقائياً وفي مقدمتهم ابن خلدون .

(١٧) تقتصر مهمة التراث والتجديد على وضع « علم الكلام » داخل « تاريخ الأفكار » . أما وضع «تاريخ الأفكار» في «التاريخ الاجتماعي » وتطبيق كل نتائج ونظريات ومناهج « علم اجتماع المعرفة » فتلك مهمة مجموعة من الباحثين تضم المفكرين وعلماء الاجتماع معاً ، وينوء بها باحث واحد . فهذا ميدان للبحث وليس موضوعاً للبحث . وقد بدأ كثيرون في المساهمة فيه مثل د. محمود اسماعيل (سوسيولوجيا الفكر الاسلامي ، جزءان) ، الأستاذ السيد يسين وغيرهما من أساتذة علم الاجتماع .

وقد يعني « الكلام » المنهج وليس الموضوع ، منهج التفكير أو منهج الحوار أو منهج التأثير أو أسلوب التعبير . فعلم الكلام عند القدماء يورّث القدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم . فالكلام بالنسبة للدين كالمنطق بالنسبة إلى الفلسفة[١٨] . وذلك قد يكون صحيحاً . فالكلام منطق الدين . وفي هذه الحالة تكون تسمية « علم أصول الدين » أفضل لأنها تشير إلى البحث عن أصول العقائد أي الأسس النظرية التي تقوم عليها . ويبقى « علم الكلام » تاريخاً لعلم أصول الدين أي اجتهادات الأصوليين في إيجاد صياغات عصرية للعقائد تعبر عن احتياجات كل عصر . فإذا كان « علم الكلام » هو تاريخ العقائد فإن « علم أصول الدين » يكون هو الجانب النظري فيه . إذا كان الأول أقرب إلى الوقائع يكون الثاني أقرب إلى الماهيات . وقد تشتق التسمية خاصة من منهج الحوار . فالعلم « يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام ، وغيره يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب » . صحيح أن المنهج الغالب على العلم هو الحوار والمناقشة ولكن مادة الحوار مستقاة من الكتب سواء القرآن أو كتب المنطق والفلسفة ، وكتب الحكماء الأولين بالإضافة إلى المنبهات الخارجية من الوقائع الإجتماعية وحوادث التاريخ . كما أن الحوار أحد مظاهر الفكر وليس كل نشاطاته . إذ تسبقه التجربة الحية ، وصياغاتها الفكرية ، ويتلوه التأثير على السامعين ومحاولات فهمه . وقد تكون التسمية من شدة منهج الحوار فأصبح علم الكلام « أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم » . وفي هذه الحالة يتحول الحوار إلى نقاش ، والنقاش إلى خلاف . وهو صحيح أيضاً إلا أن الحوار أيضاً أحد مظاهر نشاط أعم وهو الفكر الحي الذي يقوم على تجارب وتفسير نصوص ، وتحركه بواعث وأهداف ومصالح . كما قد ترجع التسمية إلى قوة الأدلة حتى صار « هو الكلام دون ما عداه من العلوم

---

(١٨) « وقد بلغ من ارتباط الكلام بالمنطق أنه يجوز أن العلم قد سُمي علم الكلام لأن المنطق والكلام مترادفان » الملل جـ١ ، ص ٤١ ، حاشية الاسفرايني ص ١٠ حاشية التفتازاني ص ١١ رسالة التوحيد ص ٥ ولمعرفة هذه الآراء في سبب تسمية علم الكلام انظر شرح التفتازاني على النسفية ص ١٠ ــ ١١ والعبارات بين قوسين منه باستثناء عبارة ابن رشد « لا يفيد الذكي ولا ينتفع به البليد » من « مناهج الأدلة » .

كما يقال للأقوى من الكلامين هـو الكلام » . وهـذا غير صحيـح لأن معظم أدلتـه ضعيفة يسهل الرد عليه ومناقضتها بـأدلة أقـوى منها . وبـالتالي فهـو علم « لا يقنع الذكي ، ولا ينتفع به البليد » . مـا أسهل نقـد أدلة المتكلمـين ، بعضها بـالبعض الآخـر حتى تتكافـأ الأدلة حتى لقـد أصبح من السهـل إثبـات الشيء ونقيضـه من متكلم واحد أو من متكلمين مختلفين طبقاً للمزاج أو للمهارة أو للمصلحـة . وقد تـرجع التسميـة الى اعتماد الأدلـة العقلية عـلى الأدلة السمعيـة وتأثيـرها في القلب وقـدرتها عـلى الإقناع الحسي التخييـلي فسمي بـالكـلام المشتق من « الكَلْم » وهـو الجرح . وهذا صحيح فقط في حالة توافر الإيمان ، وافتراض الإيمان سلفاً بموضوع البرهان . ولكنه غـير صحيح مع البرهان العقلي الخالص الذي لا يبدأ بالإيمان بـل بالعقل وحده والذي لا يعتمد على الحس والتخييل بل على الحجة والـدليل . وقـد تكـون التسمية لأنـه « أول مـا يجب من العلوم التي إنمـا تتعلم وتتعلـم بـالكـلام ثم خص به ولم يطلق على غيره تمييزاً». والحقيقة أن كل العلوم تتعلق بالكلام موضوعاً وحـواراً وتعبيراً . ولا يـوجد دافـع خاص عـلى التخصيص بل إن علوم اللغـة قـد تكون أولى بالتسمية لأنها هي التي أخذت الكلام موضوعاً لها . وقد تكون التسمية « لأن عنوان مباحثه كان قولهم الكلام في كذا وكذا . . . » . والحقيقـة أن هذا هـو أسلوب القدماء في تبويب الفصول سواء في علم الكلام أو في غيره من العلوم . كما أنها عـادة لا يتبعها كـل مصنفي العلم[١٩] . وأخيراً يصعب قبـول هذه التسميـة ، « علم الكلام » ، في حياتنـا المعاصـرة نظراً لسيـادة الكلام عـلى مستوى الشعـوب والقيادات بل وربما التاريخ المعاصر كله ، وهي « العنتريات التي ما قتلت ذبابة » ، حروب الإذاعات ، وصحف المعارضة ، ورفع الشعارات ، والواقع كما هو لم يتغير قيد أنملة حتى ليؤرخ لحياتنا المعاصرة بتاريـخ الخطب السيـاسية والبيـانات الحـزبية والبرامج السيـاسية بـاستثناء بعض مـظاهر المقـاومة للمحتـل في الأرض ، مقاومـة بطولية ، كشهادات في التاريخ ، وكقدوة فعلية للجماهـير والنظم ، وكبلورة ممكنـة لنضـال أوسع ، وكمؤشـر حاضـر على أن عشـرات البيانـات عن حقوق الإنسـان

(١٩) شرح التفتازاني ص ١٠ ، المواقف ص ٩ ، شرح المقـاصد ص ٢٢ ، أشـرف المقاصـد ص ١٣ ، تحفة المريد ص ١٣ ، التحقيق التام ص ١٣ .

والتصريحات عن استنكار الضمير العالمي ، وإعلانات لجان التحقيق لن تمنع طفلاً أو امرأة أو شيخاً من أن يموت ذبحاً . وما زلنا منذ فجر النهضة الحديثة نصرخ « ما أكثر القول وأقل العمل »[20] ، ونتهكم على شعوب الكلام ، وثقافات اللغة ، ومعلقات العصر الحديث على أستار القدس !

٢ ـ علم أصول الدين : وتشير هذه التسمية الثانية إلى أن مهمة العلم هو البحث عن « أصول الدين» ، وهي عند القدماء أصول عقلية يتم الحصول عليها عن طريق تأسيس العقائد في العقل . أصل الدين في العقائد ، وأصل العقائد في العقل . والعقل عند القدماء أيضاً يشمل كل شيء ، الحس والعقل ، الحدس والإستدلال ، الاستنباط والاستقراء، المعرفة العقلية والمعرفة التجريبية ، المعارف النقلية وشهادات التاريخ[21] .

لذلك يُقرن « علم أصول الدين » بعلم آخر هو « علم أصول الفقه » . والعنصر المشترك بينهما هو « الأصل » ، وبلغتنا المعاصرة التأصيل ، وهو البحث عن الأسس النظرية التي يقوم عليها العلم ، وفي نفس الوقت تكون هذه الأسس هي بناء الواقع ذاته وإلاّ كانت مجرد افتراضات نظرية لا أساس لها في العقل أو في الواقع . التأصيل هو البحث عن المبادىء الأولى للعلم Axiomatique وهي في نفس الوقت القوانين التي تتحكم في بناء العلم . والعلاقة بين العلمين عند القدماء ، علاقة أصول النظر بأصول العمل . فأصول النظر موضوع « علم أصول الدين » ، في حين أن أصول العمل موضوع « علم أصول الفقه » . ولما كان الهدف من تأصيل النظر توجيه السلوك يكون علم أصول الدين نظرية السلوك ، ويكون علم أصول الفقه معيار السلوك . علم أصول الدين يحدد التصورات للعالم ، ويحدد رسالة الإنسان في الحياة ، موقفه من العالم ، وعلاقاته بالآخرين . بينما علم أصول الفقه يعطيه مقاييس السلوك ، ويصف له كيفية تحقق الأفعال في مواقف معينة . فهو إذن علم معياري عملي في حين أن علم أصول

---

(٢٠) تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الثاني ، المنشآت .

(٢١) أنظر الباب الثاني : نظرية العلم .

الدين علم نظري خالص ، يكون نظرية المعيار وأساس القياس .

ويكون التقابل أحياناً بين « علم أصول الدين » و « علم الفقه » دون توسط علم أصول الفقه . وفي هذه الحالة تكون مهمة علم أصول الدين النظر ومهمة علم الفقه العمل . فإذا كان الفقه هو العلم العملي الخالص الذي يصف أفعال الناس ، ويقنن سلوكهم ، وكان علم أصول الفقه هو العلم « النظري العملي » الذي يعطينا نظرية العمل ومنطق السلوك ومناهج الفعل فإن علم أصول الدين هو العلم النظري الخالص الذي يضع الأساس النظري للسلوك . هو إذن نظرية «النظرية العملية» أو علم «العلم العملي». وبتعبير أبسط يكشف التقابل بين علم أصول الدين وعلم الفقه عن أن علاقة التوحيد بالشريعة هي علاقة النظر بالعمل . ولما كان النظر أصل العمل فعلم أصول الدين أصل علم الفقه[٢٢] . لذلك تقسم الفرق إلى أهل الأصول وأهل الفروع . وبالتالي يكون علم أصول الدين هو علم الفرق في الأصول ، وعلم الفقه هو علم الاختلاف في الفروع . والأول أخطر من الثاني وأهم[٢٣] . وكان نتيجة فصل العلمين عند القدماء إلى علم للأصول وعلم للفروع أن لم يحدث أن تبيّن أحد كيف تخرج العلوم العملية من الأصول النظرية . بل قد تحول التوحيد إلى عقائد نظرية مغلقة على نفسها وكأنها حقائق مستقلة بذاتها وليست أيضاً دوافع للسلوك وبواعث على العمل كما تحول الفقه إلى مجرد طاعة للأوامر واجتناب للنواهي على نحو عملي خالص يصل إلى حد العادات والأعراف . مع أن المهم في التأصيل أيضاً هو كيفية خروج العمل من النظر ، وتحقق النظر في العمل خاصة وأن كليهما « علم الأصول » . ومن ثم ، تكون تفرقة القدماء بين الإعتقاديات باسم التوحيد والعمليات باسم الفقه قد أدت

---

(٢٢) الملل جـ ١ ، شرح التفتازاني على النسفية ص ١٠ ، حاشية الاسفراييني ص ٤ ـ ٥ ، شرح المقاصد ص ١٢ ، التحقيق التام ص ٢١٣ شرح المقاصد ص ١٢ .

(٢٣) هذه هي القسمة الرئيسية التي يتبعها الشهرستاني في « الملل والنحل » إذ يخصص لأهل الأصول جزءين ، الأول والثاني (٢٥٠ ص) ، ولأهل الفروع المختلفين في الأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية آخر صفحات الجزء الثاني وأوائل الثالث (١٥ ص) مما يدل على أهمية الأصول على الفروع .

إلى جعل الإعتقاديات مجرد إيمانيات منفصلة عن العمليات دون أن يكون لها أي أسس عقلية كما تجعل العمليات مجرد عبادات وشعائر تتم ممارستها بالعادة والتكرار . وكيف تكون العقائد كلها نظر لا صلة لها بالعمل ، ويكون الفقه وحده هو العمل لا صلة له بالنظر ؟ وبالرغم من محاولة القدماء الربط بين الاثنين عن طريق الصلة بين اليقين والظن ، وهي صلة نظرية منطقية خالصة ، فالأصول يقينية يمكن الاستدلال عليها والبرهنة على صدقها ، والفروع ظنية لأنها مجرد اجتهادات عملية لتحقيق مصالح الناس إلا أن الصلة ظلت أيضاً مبهمة . فكيف يخرج الظن من اليقين ؟ وإذا كانت الأصول النظرية يقينية لأنها الأسس التي تعتمد على اتساق العقل وقوانين المنطق ، وكانت التطبيقات العملية ظنية لأنها الفروع التي تقوم على المصلحة التي قد تختلف من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، ومن مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر فكيف يكون أساس العمل يقيناً ويصدر عنه عمل ظني ؟ كيف يمكن من هذه الأسس النظرية الواحدة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا تختلف باختلاف الشعوب والأوطان إستخراج عمليات تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وباختلاف الشعوب والأوطان[٢٤] ؟ .

إن أهمية « الأصل » هو في البحث عن الأساس . والأساس في « العقل المصلحي » الذي يجتمع فيه علم أصول الدين وعلم أصول الفقه أو علم الفقه . العقل المصلحي هو الذي يجمع بين العقل النظري والعقل العملي . لقد أدى الفصل بين العلمين في حياتنا المعاصرة إلى الفصل بين العقيدة والاستدلال وبالتالي غياب التأصيل في العقل وتحول العقائد إلى عواطف إيمانية خالصة تعوضنا عن نقص العمل وانزوائها في دائرة الوجدان ، وانغلاقها وتحولها إلى شيء بدلاً من انفتاحها على العالم كبواعث للسلوك ، ومقاصد للفعل . كما أدى إلى توقف الإجتهاد في العقيدة وحصره في الشريعة وحدها واعتبار أن العقائد لها أسس واحدة ثابتة لا تتغير مما أدى إلى ضمورها وقدمها وعدم تعبيرها عن واقع الأمة وظروفها الراهنة . ثم حدث الفصل بين العقيدة والمصلحة، وتحولت العقائد إلى بدائل عن

---

(٢٤) الملل جـ١ ص ٦٢ ، التحقيق التام ص ٢ ، حاشية الاسفرايني ص ٨ .

المصالح ، وضاعت مصالح الناس ولم ترعها إلا الحركة العلمانية التي نشأت أساساً بسببها وكرد فعل على العقائد الإيمانية اللاعقلية الفارغة من أي مضمون . وقد أدى ذلك كله في النهاية إلى فصل النظر عن العمل ، وبقاء العقيدة دون شريعة فضاعت الشريعة ، ولم تغن عنها العقيدة شيئاً . وما دامت العقائد مقدسة من الله والشريعة لصالح الإنسان فقد انتشر في عقليتنا الفكر « اللاهوتي » وغاب الفكر الإنساني المصلحي ، فتأكدت محورية الله وهامشية الإنسان .

٣ ـ علم التوحيد : وتشير هذه التسمية إلى أول عقيدة وأشهرها ، وهي عقيدة التوحيد . وحينئذ يكون السؤال : هل التوحيد نظر أم عمل ؟ هل هو عدد الآلهة وأنها واحد أم أنه تحقيق لتصور الوحدانية في العالم ؟ الحقيقة أن التوحيد قد يكون علماً وقد يكون عملاً . وعلم التوحيد هو الأساس النظري للعمل . وعمل التوحيد هو توحيد الشعور ثم توحيد المجتمع ثم توحيد العالم في نظام واحد هو نظام الوحي . فالعالم هو نظام العالم . التوحيد فعل من أفعال الشعور يضع ذاته من حيث هو شعور متوحد ومهيء إلى تصور وحداني للعالم . التوحيد إذن ليس عقيدة بمعنى أنه ليس تصوراً نظرياً فحسب بل هو « عملية توحيد » . والاسم نفسه « توحيد » اسم فعل وليس اسماً مجرداً فارغاً أو حسياً يشير إلى شيء ، يدل على عملية ولا يدل على جوهر ثابت كما هو الحال في « واحد » من « فاعل » . التوحيد فعل من أفعال الشعور تتوحد فيه قواه وأبعاده ومستوياته نحو ماهية واحدة مطلقة وشاملة ، عامة ومجردة ، خالصة ومنزهة . وقد حاولت معظم الحركات الإصلاحية الحديثة من قبل إعطاء الأولوية للتوحيد العملي على التوحيد النظري ، وتحويل التوحيد إلى طاقة فعالة لتوحيد الشعور الفردي ولجمع شتات الأمة(٢٥) .

---

(٢٥) يقول محمد بن عبد الوهاب « التوحيد إفراد الخالق بالعبادة ذاتاً وصفة وأفعالاً : قال العلامة ابن القيم في مدارج السالكين التوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ، ونوع في الارادة والقصد . ويسمى الأول التوحيد العملي ، والثاني التوحيد القصدي الارادي لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة والثاني بالتوحيد والارادة » كتاب التوحيد ص ٢ ونفس الفكرة في تحفة المريد ص ١٢ ، اتحاف المريد ص ١٢ ، رسالة التوحيد ص ١٣ ، الحصون الحميدية ص ٥ ، شرح التفتازاني على النسفية ص ٥ ، أنظر أيضاً بحثنا « المقومات الثقافية للشخصية العربية» قضايا معاصرة. (٤) في اليسار الديني وأيضاً Morality and the Integrily of Islam'c Society, New Hamphsire, USA, 1980

ويُقرن باسم « التوحيد » أحياناً اسم « الصفات » فيكون اسم العلم هو « علم التوحيد والصفات » لأن هذا الموضوع أشرف موضوعات العلم ولأن الصفات هي لب عقيدة التوحيد . والحقيقة أن موضوع الذات والصفات عند القدماء هو لب التوحيد ووصف الذات الكاملة وأوصافها المطلقة . ولكن خطأهم وقوعهم في التشخيص والتثبيت والتحجير والتشيؤ والصنمية والسكون والوثنية في حين أن الذات تكشف عن الوعي الخالص والصفات عن المثل العليا التي يحاول الإنسان تحقيقها في حياته العملية ، ومن ثم فالذات والصفات تشير إلى الأسس النظرية للسلوك ، أي الأيديولوجية التي جاء بها الوحي من أجل تطبيقها في الحياة العملية والتي يجد فيها العالم نفسه في نظامه الأمثل المطابق للعقل والطبيعة . وكان نتيجة تشخيص القدماء للذات والصفات وخروجها من الوعي الخالص وقيم السلوك أن ظهر التناقض الصارخ بين التوحيد النظري والسلوك العملي للأمة أفراداً وجماعات الذي يغلب عليه التشتت والتجزيء والتشرذم. ففي حياة الإنسان الفردية انفصم الفكر عن الوجدان عن القول عن العمل فحدث النفاق والجبن وأصبح الفرد مزدوج الشخصية . وبدت مظاهر الإزدواجية في حياتنا الثقافية بين الثقافة الدينية والثقافة العلمانية ، وفي الحضارة بين التقليد والتجديد، وفي السياسة بين الشرق والغرب، وفي الإجتماع بين المحافظة والتقدمية ، وفي الإقتصاد بين الرأسمالية والإشتراكية[٢٦] .

٤ ـ **الفقه الأكبر** : وهي تسمية لم ترد كثيراً إلاّ في نشأة العلم ولم تستمر طويلاً بعد تطوره واكتماله . وتشير إلى العقائد باعتبارها الفقه الأكبر في مقابل الفقه الأصغر وهي العمليات . وهي توحي بأن النظر أكبر من العمل وأن العمل أصغر من النظر . صحيح أن لفظ الفقه يشير إلى الفهم ولكن لفظ الأكبر يشير إلى أن العلم نظري في حين أن الفقه الأصغر علم عملي وذلك يوحي إما بانفصال النظر عن العمل أو بأن النظر أعلى من العمل . كما أن التسمية ما زالت مرتبطة بالفقه ولا تشير إلى استقلال العلم عن باقي العلوم وكأن الفقهاء هم واضعوه كفرع من

---

(٢٦) أنظر أيضاً بحثنا « التفكير الديني وازدواجية الشخصية » قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر .

علم الفقه . بل إن مضمونها لم يعش في عقليتنا المعاصرة كما لم يعش كتسمية فقد توارى الفقه أي الفهم والعقل ، فتوقف الإجتهاد ، وعم التقليد . وتحولت العقيدة إلى إيمان خالص مكتف بذاته . فالأكبر لا يحتاج إلى الأصغر في شيء[٢٧] . تبقى إذن ميزة تسمية « علم أصول الدين » لأن به لفظ علم والتركيز على أننا بصدد العلم وليس الإيمان . كما أن به لفظ « أصل » للدلالة على أننا بصدد تأصيل العلم وتأسيسه وليس مجرد القبول والتسليم بالعقائد .

٥ ـ **علم العقائد** : وهو أقل التسميات ذيوعاً ، ولا توجد إلاّ في المعاهد الدينية التي تقوم على مناهج التسليم والقبول والتي أسقطت النظر من الحساب . لم يَسْتَبْقِها التراث كما استبقى علم الكلام وعلم أصول الدين[٢٨] . والحقيقة أن أهم ما يميز الوحي في آخر مراحله واكتماله هو أنه لا يحتوي على عقائد Dogma أو على نسق من العقائد Crédo كأشياء مستقلة بذاتها لا تقبل التغيير والتبديل ، تطابق حوادث تاريخية وقعت بالفعل كما هو الحال مثلاً في العقائد المسيحية . العقائد في مرحلة اكتمال الوحي تصورات للعالم أو نظريات تكون أساساً للسلوك ، يمكن التحقق من صدقها من خلال التجارب الحية في الحياة اليومية للأفراد والجماعات ، في الحاضر وعلى مسار التاريخ . العقائد أفعال للشعور نظرية وعملية وليست « أشياء » موجودة في التاريخ وحوادث وقعت فيه بالفعل . هي بواعث على السلوك وليست حقائق مستقلة لها وجودها المنفصل عن موجهات السلوك . إن تحويل العقائد كلها من العمل إلى النظر لهو خروج عن القصد من العقائد . فالعقائد ليست نظريات بقدر ما هي دوافع للسلوك ، وبواعث على العمل . العقائد تكوّن نواة أيديولوجية كاملة : نظراً وعملاً ، فكراً وسلوكاً ، يتحول فيها التصور إلى نظام ، والعقيدة إلى شريعة[٢٩] . ومن المستحيل تقنين الإعتقاد أو تحويله إلى

---

(٢٧) وهو الاسم الذي ارتضاه أبو حنيفة في « الفقه الأكبر » ، أنظر أيضاً التحقيق ص ٢ ـ ٣ ، شرح المقاصد ص ١٢ .

(٢٨) شرح الخريدة ص ٩ .

(٢٩) التحقيق ص ٢ ـ ٣ أنظر أيضاً بحثنا الأول الذي كتبناه ونحن في سن الواحد والعشرين كمشروع لرسالة La Méthode Islamique Générale في Dialogue Religieux et Revrlution. II

عقائد . فالاعتقاد ليس غاية في ذاته بل هو وسيلة للتأثير في الحياة العملية . الإعتقاد وظيفة سلوكية لا حقيقة نظرية أو صياغة لغوية أو واقعة تاريخية مستقلة بذاتها . الإعتقاد لا يتحدث عن أشياء بل يوجه سلوكاً . هو الدافع على الفعل ، والباعث على العمل ، والجامع للنية ، والمحقق للقصد ، والمحرك للإنسان . الإعتقاد جهد ، ولا يمكن تصوير الجهد بالعقل أو التعبير عنه بالمنطق . ليست العقائد أشياء ثابتة بل مقاصد عامة تحقق منافع الناس وتدبر معاشهم . لم تكن العقائد في نشأتها ، وبداية إعلانها عقائد نظرية بل بواعث على السلوك . ولم تنتقل من العمل إلى النظر إلا بعد توقف العمل والبدْء في التساؤل النظري عن أساس العمل . ظهر علم العقائد بعد أن توقفت ممارسة العقائد ولم تعد موجهة للسلوك . تظهر ناتئة عنه ، طائرة فوقه . فإذا نقص التوجه نحو الأرض ظهر الإنعراج نحو السماء . والذي يحقق الله في الحياة العملية لا يسأل عن معنى الله . والذي يمارس حريته في التاريخ لا يسأل عن معنى الجبر والاختيار ، والذي يجعل نفسه مسؤولاً عن الخير والشر في العالم لا يفترض مسؤولية الله عنهما . تحضر العقيدة النظرية في غياب الممارسة العملية . ليس العمل إذن هو ضعف في التأمل ولكن التأمل ضعف في العمل[30] . لذلك أدى « علم العقائد » أو علم الكلام إلى نتائج خطيرة

(٣٠) « نعم ، انهم لم يدونوه ، ولم يشتغلوا بتحرير الاصطلاحات ، وتقرير المذاهب ، وتبويب المسائل ، وتفصيل الدلائل ، وتلخيص السؤال والجواب ، ولم يبالغوا في تطويل الذيول والأذناب وذلك لاختصاصهم بصفاء النفوس ، ومشاهدة الوحي ، والتمكن من مراجعة من يفيدهم كل حين مع قلة المعاندين . ولم تكثر الشبهات كثرتها في زماننا بما حدث في كل حين فاجتمع لنا بالتدريج . . . عليكم بدين العجائز »المواقف ص ٦٠ - ٦١ ؛ « ووجه الحاجة إليه أن الأوائل من العلماء كانوا ببركة صحبته ﷺ أو صحبة من صاحبه ، وقرب العهد بزمانه ، وسماع الأخبار منه وعنه ، ومشاهدة الآثار مع قلة الوقائع والخلافات ، وسهولة مراجعته أو مراجعة الثقات مستغنين عن تدوين الأحكام وترتيبها أبواباً وفصولاً ، وتكثير المسائل فروعاً وأصولاً إلى أن ظهر اختلاف الآراء ، والميل إلى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والمواقعات ، ومسّت الحاجات فيها إلى نظر والتفات . فأخذ أرباب النظر والاستدلال في استنباط الأحكام ، وبذلوا جهدهم في تحقيق عقائد الاسلام ، وأقبلوا على تمهيد أصولها وتدوينها ، وتلخيص حججها وبراهينها ، وتدوين المسائل بأدلتها ، والشبه بأجوبتها ، وسموا العلم بها فقهاً وخصصوا الاعتقاديات باسم « الفقه الأكبر » التحقيق ص ٢ - ٣ .

بالنسبة للوحي والإنسان والمجتمع والواقع والتاريخ . تحول التوحيد من مستوى العمل إلى مستوى النظر . وكل تحول من العمل إلى النظر ضمور في التوحيد . كان التوحيد في أول تمثله توحيداً عملياً . ولم تطرح المسائل طرحاً نظرياً إلا بعد أن ضمر الفعل فتصرفت الطاقة في التساؤل النظري . وكلما ضمر الفعل زادت حدة التساؤل ، وتطايرت الرقاب من أجل النظريات في « ذات الله » بعد أن كانت تتطاير من أجل الجهاد في سبيل الله . لم تكن هناك نظرية في التوحيد ساعة تمثله الأول بل كانت هناك « عملية توحيد » أي تحويل الواقع إلى مثال ، وتحويل المثال إلى واقع . فالوحي نظام مثالي للعالم ، والعالم نظام طبيعي للوحي حين تزدهر الطبيعة أو يستوي الواقع . لم يوجد « علم العقائد » في الجماعة الأولى لأن التوحيد كان عملياً لا نظرياً . التوحيد عملية توحيد بين الفكر والواقع وليس نظرية توحيد بين الممكن والواجب . ولا يعني انتشار ثقافات أخرى في الحضارة الناشئة أي تغيير في الجهة ، وتحويل للتوحيد من العمل إلى النظر . فالمعركة الفكرية النظرية ليست بديلاً عن المعارك العملية الإجتماعية والسياسية[٣١] .

والخطورة أكبر إذا ما تم وضع « علم العقائد » في إطار علم تاريخ الأديان أو في تاريخ الفكر البشري ، وبالتالي تضييع خصوصية « علم التوحيد » كنمط جديد لعلم العقائد . فالعقائد لها معنى نمطي في تاريخ الأديان وهي أنها ضد العقل ، فوق العقل ، سر لا يمكن إدراكه بالعقل ، بل انها على نقيض العقل ، تناقض بل وربما أيضاً على نقيض الأخلاق ، وضد الطبيعة ولهذا يؤمن بها الناس . وإلا فلماذا يؤمن الناس بالعقائد إذا كانت مفهومة بالعقل ، معقولة بالأخلاق ، ومدركة بالطبيعة ؟ لها سلطة تقننها لأنها لا تنبع من طبيعة العقل أو من ثنايا الطبيعة ، وهي سلطة يجب التسليم بمقرراتها دون اعتراضها لأنها تعبير عن « الروح القدس » في

(٣١) يقول رشيد رضا ناقداً الاستاذ الامام في « رسالة التوحيد » على تركيزه على التوحيد النظري دون العملي قائلاً « فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا يعتبر ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين أو الأصنام المذكور بهم وغير ذلك كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم . وهذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو إليه كل رسول » . مقدمة الناشر ، رسالة التوحيد ص ٤ .

التاريخ . لها صحة مطلقة خارج التاريخ ، لا تتغير ، ثابتة مهما تغيرت الظروف والأحوال مما أدى بالناس إلى رفضها كلية وإيثار الحقائق المتغيرة التي تعبر عن مصالحهم واحتياجاتهم ومستواهم الإنساني . وهي مقدسة لم يأت بها بشر ، بل من وضع الله الذي أتى بشخصه إلى البشر وجسدها أمامهم عياناً[٣٢] . وهي كلها تصورات خاطئة لمعنى العقائد بعد أن تم اكتشاف أنها من وضع التاريخ ، تعبر عن تجربة الجماعة الأولى التي آمنت بها وعكست فيها انفعالاتها ، آمالها وآلامها . دَاخَلها التعصب الإنساني ، وتحزبت لها الفرق ، وتطايرت من أجلها الرقاب ، ونصبت من أجلها المقصلات، ودبرت بسببها المذابح . وبالتالي نشأت الثورة عليها وعلى وضعها نظراً لإستخدام السلطة السياسية إياها للسيطرة بها على العوام ورفض المثقفين لها وإيثارهم أيديولوجية تعبر عن واقعهم ، مفهومة مدركة ، تتحول إلى نظام سياسي واجتماعي واقتصادي ، ويكون بها الخلاص الفعلي للناس . وإن كل مجتمع ما زالت تسيطر عليه العقائد بهذا المعنى السلبي فإنه ينبىء بطبيعة الحال عن ثورة قادمة ، بدأت بالإصلاح وتنحو نحو النهضة حتى تتحقق شروط الثورة ومقدماتها ، وقد يكون هذا هو حال مجتمعاتنا المعاصرة وانتشار الحركة السلفية فيها حاملة لواء « العقائد » على « المصالح » .

ثالثاً : حدُّه :

١ ـ **نقد التعريف القديم:** يكاد يُجمع القدماء على أن «علم التوحيد» أو «علم الكلام» هو «العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية» أي أنه العلم بالأدلة على صحة العقائد[٣٣] . والصدق هنا نظري خالص، يخضع لقواعد المنطق، ولأساليب البرهان . ومن ثم ينفصل الإعتقاد عن العمل ، وهو الفصل الشائع في كل التسميات . فالمراد بالعقائد هنا « نفس الإعتقاد دون العمل » ، وكأن العقائد موضوعات نظرية صرفة وليست موجهات للسلوك . كما يخصص القدماء العقائد

(٣٢) أنظر تحليلنا لها في رسالتنا الثانية ، الجزء الثاني La Phénomenologie de l'Exégèse .

(٣٣) التحقيق التام ص ٢ ـ ٣ ، المقاصد ص ١٢ ـ ١٦ ، شرح المقاصد ص ١٦ ـ ١٧ ، أشرف المقاصد ص ١٦ ، المواقف ص ٧ ، تحفة المريد ص ١٢ ، اتحاف المريد ص ٢٥ ، شرح الخريدة ص ٩ ، الحصون ص ٥ ، شرح التفتازاني ص ١١ ، حاشية الاتحاف ص ٢٧ .

الدينية بالعقائد « الإسلامية » وحدها في حين أن الأدلة على صحة العقائد تتضمن كل دين . فالعقائد واحدة : وجود الله ، وخلق العالم ، وخلود النفس حتى ولو اختلفت التسميات وتضاربت الآراء . وقد تجاوز القدماء أنفسهم العقائد « الإسلامية » إلى عقائد الديانات الأخرى حتى أصبح « تاريخ الأديان المقارن » جزءاً من العلم . كما أن هذا الحد وضع للمنهج أكثر منه حد للعلم أي الاستدلال على صحة العقائد « بايراد الحجج ، ودفع الشبه » ، وهو المنهج الجدلي ومعاندة الخصوم . والحقيقة أن هذا التعريف يثير عدة تساؤلات رئيسية منها : هل هناك أدلة على صحة العقائد أم أن الأدلة يمكن استعمالها وفقاً لأهداف المستدل لاثبات أن الشيء صواب أم خطأ ؟ فالدليل آلة كالمنطق يتوقف على كيفية استخدامه والهدف منه . ويمكن لنفس المتكلم أن يستدل على صحة الشيء وخطأه في آنٍ واحد طبقاً لمهارته أو مزاجه المتقلب أم مصالحه المتغيرة ، كما أنه يصعب الاقتناع من متكلمين متصارعين ، كل منهما يثبت بالدليل نقيض ما يقوله الآخر ، وكلاهما مقنعان (مثلاً : التشبيه والتنزيه . الجبر والاختيار ، النقل والعقل . . . الخ)[٣٤] . هل هناك نظرية ممكنة يتفق عليها الجميع ما دام الموضوع واحداً ، والعقيدة واحدة أم أننا بصدد فرق ومذاهب متصارعة متناحرة متناقضة تضيع فيها وحدة الموضوع ؟ . وأن هذه الفرق لا تعبّر عن العقائد ولا تستدل على صحتها بقدر ما تستخدمها للتدليل على شيء آخر في الواقع والمجتمع والتاريخ ؟ فالفرق والمذاهب مصالح ، ومواقف عملية وليس النظر عندها إلا غطاء للعمل وأساساً له . هل هناك عقائد صحيحة وأخرى خاطئة كما هو الحال في حديث الفرقة الناجية أم أن هناك عقائد سلطة وعقائد معارضة ، وأن الذي يحدد أحد النمطين من العقائد ، الهالكة أم الناجية هو الموقع من السلطة ومن يحصل عليها ؟ حتى على فرض امكانية إثبات صحة العقائد بالأدلة هل أقنعت أحداً ؟ هل قويت عقائد الناس أو آمن بها العوام ؟ إن الأدلة يمكن الرد عليها بأدلة مضادة فتتكافأ الأدلة ، ويقع الناس في الحيرة والتردد والشك واللاأدرية وبالتالي ينتهون إلى الكفر

---

(٣٤) عُرف عن ابن الراوندي ذلك وغيره من طبقة المتكلمين المهنيين ، ابرازاً للبراعة أو تغيراً للمصلحة طبقاً لاتهام الخياط له ولهم .

بدلاً من الإيمان طبقاً لمقاييس « علم الكلام » نفسه وتصنيفه للفرق[٣٥] . هل هناك عقائد أصلاً أم أنها كلها تعبر عن مصالح وقوى إجتماعية بما في ذلك التوحيد الذي يعبّر عن مصالح المضطهدين والمعذبين والمظلومين والفقراء والعبيد والمساكين من أجل إعادتهم إلى البنية الإجتماعية الموحدة ، والذي يعبر عن القبائل المشتتة التي مزقت شملها الحروب والمنازعات من أجل توحيدها في أمة واحدة قادرة على وراثة الأرض والامبراطوريتين المنهارتين آنذاك ؟ إن العقيدة تعبير عن وضع إجتماعي ، تأصيل نظري لموقف إنساني ، ولما كانت العقائد هي وسائل للحراك الإجتماعي ، وكان الحراك الإجتماعي بالضرورة حراكا لصالح الأغلبية الصامتة كانت العقيدة ثورة ، وكان تاريخ العقائد جزءاً من تاريخ الثورات الإجتماعية ، وكان تاريخ الأديان جزءا من التاريخ البشري . هل حل الصراع العقائدي بالإقناع باستعمال الأدلة على صحة العقائد نظرياً أم حله بالصراع الفعلي على الطبيعة وفي الواقع ؟ لما كان الهدف من العقائد هو التأصيل النظري للأوضاع الإجتماعية والمواقف الإنسانية منها فإن إثباتها لا يكون بالأدلة النظرية من أجل إثبات صحتها النظرية بل يكون بالدفاع عن هذه الأوضاع ، كل من موقفه ، بالفعل . فالتصديق لا يكون بالعقل بل بالممارسة . لا يوجد « علم كلام » مكتبي لاثبات صحة عقائد نظرية بل حركة صراع إجتماعي ، لا يقوم به متكلم من صحن الدار أو المسجد وظهره على عامود ، متكئاً على وسادة وأمامه المؤلفات والمصنفات ، وأمامه التلاميذ ، ويحيط به المعجبون والمحاورون بل يقوم الإمام الفقيه بقيادة هذا الصراع ، وقيادة الجماهير في حركة تاريخية دفاعاً عن مصالحها وتحقيقاً للتوحيد ، من المسجد وفي الشارع ، في الحقل وفي المصنع ، بقوة العقيدة وثقل الجماهير من أجل الثورة .

وربما لا يوجد حد آخر للعلم لأنه لا وجود للعلم على هذا النحو القديم . ومع ذلك يمكن وصفه بعد إعادة بنائه وتصحيحه وإعادته من الوضع الزائف القديم إلى الوضع الصحيح الحالي ، وتحويله ليس فقط من « علم الله » إلى « علم الإنسان » فقد لا يكون هذا التقابل معبراً تماماً عن جوهر الحضارة التي نشأ فيها

---

(٣٥) أنظر الخاتمة : من الفرقة المذهبية إلى الوحدة الوطنية .

هـذا العلم بل من علم « العقـائد الـدينية » إلى علم « الصـراع الإجتماعي » فهـو العلم الذي يتناول العقائد الـدينية كمـوجهات لسلوك الجمـاهير اليـوم ، والتاريـخ شاهد عـلى ذلك منـذ نشأة الـدولة الإسـلامية الأولى في المـدينة حتى انتصـار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران ــ من أجـل المساهمـة في حل قضـاياهم المصيـرية مثـل الإحتـلال ، والقهر ، والتخلف ، والفقـر ، والتغريب ، وسلبيـة الجمـاهـير. هـو العلم الذي يضع الأسس النظرية لسلوك الأمة الفردي والجماعي في مرحلة تاريخية محـددة ، وهي المرحلة التـاريخية الحـالية التي يعيشهـا جيلنا . فـالجماهـير مـا زالت مؤمنة ، تراثية ، عقائدية ولكنها في نفس الوقت في وضع احتلال وقهر وفقر وتجزئة وتخلف وتغريب ولا مبالاة . جـربت مناهـج التغيير الاجتمـاعي والأيديـولوجيـات العلمانية للتحديث ولكن ظلت قضاياها الرئيسية كما هي لم تحل إن لم تـزد صعوبـة بعد أن جُرب التغيير بواسـطة القديم ، وجُـرب التغيير بـواسطة الجـديد كـما جرب التغيير بواسطة التوفيق بين القديم والجديد ، وكـانت النتيجة إما تقوقع القديم في الجماعات الإسلامية الغاضبة ، أو تقوقع الجديد في الجمـاعات السـرية المنتشـرة أو انتهـاء التـوفيق إلى ردة ونفـاق واستعمـال القـديم المتخلف كستـار للجـديـد العميل(٣٦) .

٢ ـ وضع تعريف جديد. كما يلاحظ على هذا الحد القديم «العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية» أنه خال من أي تحديد لمضمون هذه العقائد الدينية. فإذا كانت العقيدة تعني التوحيد أي نظرية في «ذات» الله فقد يكون ذلك متفقاً مع ظروف نشأة العلم القديمة حيث كان التوحيد النظري بهذا المعنى موضع الأخطار ، ومظان الطعان بعد أن انتصر « التوحيد العملي » على الأرض وفُتحت البلدان عندما أراد الأعداء النفاذ

(٣٦) أنـظر « التـراث والتجـديـد » أزمـة التغـير الاجتمـاعي ص ٣٧ ـ ٥١ وأيضـاً « التـراث والتغـير الاجتماعي » . قضايا معاصرة (٣) في الثقافـة الوطنيـة ؛ « اليسار الاسـلامي ومستقبل مصـر » ، قضايـا معاصرة(٤) في اليسار الديني . وأيضاً

Des Idéologies modernistes à L'Islam Revolutionaire, Paris, 1983: The Origines of Modern Concervatism and Islamic Fundementalism, Amsterdam, 1979: Islamic Alternative in Egypt. USA, 1980.

إلى مصدر القوة الجديدة وهي العقيدة . ثم انتصر التوحيد النظري وظهر التنزيه ممثلاً في نظرية الذات والصفات والأفعال ، وتم إثبات وجود الصانع بالعقل ، والبرهنة على صفاته الكاملة ، كما تم إثبات النبوة وامكانها وصدقها . ثم تحول علم التوحيد من الدفاع إلى الهجوم فأثبت وجوه الخطأ في النقل في الكتب المقدسة في الملل الأخرى ، ونقد التجسّد والتثليث، وبين خطأ الشِّرك، وأخطاء الممارسات العملية للكهان والأحبار(٣٧) . ولما أصبحت المباحث الفلسفية العامة هي الأسس النظرية لعلم التوحيد بعد أن توقفت في علوم الحكمة ، وتسربت إليه ، استطاع العلم أن يقضي على آخر ما تبقى من تشبيه وفكر ديني تقليدي أو كاد حتى لم تعد الإلّهيات والسمعيات أكثر من ربع العلم ، واحتوت المقدمات النظرية الخالصة ثلاثة أرباعه(٣٨) . أما اليوم فقد تغيرت مواطن الخطر ومظان الطعان ، وتحولت من ذات الله وصفاته وأفعاله إلى أراضي المسلمين وثرواتهم ، حرياتهم وهويتهم ، ثقافتهم ووحدتهم . قد تتحول أيضاً المقدمات النظرية العامة من نظرية في العلم يغلب عليها الاستدلال ونظرية في الوجود يغلب عليها مبحث الجواهر والأعراض إلى مقدمات نظرية أخرى بها نظرية في العلم يغلب عليها الرؤية المباشرة للواقع والاحصاء الدقيق لمكوناته ،ونظرية للوجود يغلب عليها تحليل الوجود الإنساني الإجتماعي ومفاهيمه الرئيسية مثل الحرية والعدالة والديموقراطية والتقدم والتحرر والنهضة . لقد تغير الواقع الإجتماعي والسياسي كلية عند القدماء وعندنا ، وتحول من دولة منتصرة قديماً وامبراطورية مترامية الأطراف إلى دولة محتلة حديثة متجزئة متخلفة تتكالب عليها الدول العظمى كما الأكلة على قصعتها للقضاء على استقلالها ، ونهب ثرواتها ، ومنع وحدتها ، وتشتيت شملها ، وايقاف تقدمها ، واجهاض نهضتها(٣٩) . ولما كانت أوضاع الناس الإجتماعية هي أساس الواقع ، وكان الواقع أساساً هي الأوضاع الإجتماعية للناس فإن الأمور العامة القديمة (الواحد والكثير ، الماهية والوجود ، العلة والمعلول ، الوجود والعدم ،

(٣٧) يتضح ذلك بوجه خاص في « الفصل » لابن حزم وفي « الملل والنحل » للشهرستاني .

(٣٨) أنظر الفصل الثاني ، « بناء العلم » .

(٣٩) أنظر « التراث والتجديد » ، تغير البيئة الثقافية ، ص ١٥٧ ـ ١٧١ .

الوجوب والإمكان ، القدم والحدوث . . . الخ) بالنسبة لنا هي المفاهيم الحديثة التي تؤثر في عقول الشباب ، مفاهيم الحرية والتقدم والعدالة والمساواة ، والإنسان والمجتمع والتاريخ . والواقع الماضي المهاجم فكراً والمنتصر واقعاً عند القدماء هو بالنسبة لنا الواقع الحالي المهاجم أرضاً والمهزوم واقعاً . وإذا كان العقل عند القدماء أساس نظرية العلم فإن الوعي عندنا هو شرطها . وإذا كان الوجود عند القدماء هو الوجود الطبيعي أو الميتافيزيقي فإن الوجود عندنا هو الوجود الإجتماعي والسياسي والإقتصادي للأمة ، أحوال المسلمين ومصائرهم ، ثرواتهم وأراضيهم ، وحدتهم وقوتهم ، وهو ما فكر فيه المصلحون من قبل ، وما حاوله الضباط الأحرار من بعد[40] . علم « أصول الدين » إذن هو العلم الذي يقرأ في العقيدة واقع المسلمين من إحتلال وتخلف وقهر وفقر وتغريب وتجزئة ولا مبالاة كما يرى فيها مقومات التحرر وعناصر التقدم وشروط النهضة لو تم إعادة بنائه طبقاً لحاجات العصر بعد أن بناه القدماء تلبية لحاجات عصرهم . فقد احتلت الأراضي وفي مقدمتها فلسطين ، ونهبت الثروات من الإستعمار الخارجي أو الإقطاع الداخلي حتى أصبح يُضرب بنا المثل في أعلى درجات الغنى وأحط مستويات الفقر ، غنى الأقلية المترفة ، وفقر الأغلبية المطحونة ، وقضي على الحريات باسم الأهداف القومية والأخطار الخارجية ، وانتشرت المحافظة من ثنايا الثورة المعاصرة وبراثن الحركة التقدمية ، وزاد التغريب ، وضاعت الهوية أو كادت وهي ترزح تحت أكوام المترجمات التي تمنع العقل من الفكر والإبداع ، وتجزأت الأمة وتشتّتت ، وتقطعت أوصالها وأطرافها بعد أن كانت أمة واحدة قلباً وأطرافاً ، محوراً ومحيطاً ، مركزاً ودوائر ، فإذا كان علم أصول الدين يقوم تلبية لحاجات العصر ، وكانت هذه متغيرة من عصر إلى عصر فإننا إذا عددنا حاجات المسلمين اليوم التي يمكن أن تكون مادة لعلم أصول الدين وباعثه الأول على إعادة بناء العقيدة وجدناها :

أ ـ الحاجة إلى وضع أيديولوجية واضحة المعالم وسط هذا الخضم الكبير من

---

(٤٠) « اجهاض العقول » ، « مخاطر السلام » ، « الضباط الأحرار أو المفكرون الأحرار » في قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية .

أيديولوجيات العصر المنتشرة فوق الواقع سواء كانت مستعارة أو محلية متخلفة أو توفيقية بين هذا وذاك . وعلى هذا النحو يمكن حل موضوع « الأصالة والمعاصرة » الذي ما زلنا نتجادل حوله ونبحث فيه منذ فجر النهضة الحديثة حتى الآن وربما إلى عدة أجيال قادمة أخرى إن لم يقدر لمشروع « التراث والتجديد » أن يعيش ويستمر ويؤثر ، وينقل الحضارة من طور إلى طور ، من طور الشروح والملخصات إلى دور النهضة الثانية ، من القرون السبعة الأخيرة (من السابع حتى الرابع عشر) إلى قرون سبعة قادمة (نهضتنا الأولى من القرن الأول حتى السابع) . حينئذ يربط الناس بين ماضيهم وحاضرهم ، ويقومون بحركات التغير الإجتماعي من خلال التواصل لا الانقطاع ، وتنتهي الإزدواجية من حياتنا ويتوارى فصام الشخصية الوطنية بين الحركة الدينية المحافظة والحركة التقدمية العلمانية ، ويكون « علم أصول الدين » قد حقق الهدف المرجو منه وهو إقامة علم نظري من أجل توجيه الواقع ، سداً للفراغ النظري والركود العملي في حياتنا المعاصرة . فيعاد فهم العقيدة ، ويُعاد تصورها وتأصيلها في وجدان العصر ، وخلق ثقافة وطنية مرتبطة بجذورها في القديم ، وقائمة على تحليلات الواقع المعاصر . ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة إحصائية دقيقة لواقعنا المعاصر حتى يمكن فهم العقائد وتفسيرها على أساسها كما يفعل الأصولي القديم في البحث عن العلل الفاعلة والمؤثرة في سلوك الناس ، كما أننا في حاجة إلى تحليل نفسي إجتماعي للجماهير حتى يمكن معرفة موجهات سلوكها وبواعثها ، وإعادة تفسير العقائد حتى تكون موجهات مثالية للسلوك . ويستدعي ذلك تطوير حركات الإصلاح الديني الحديث التي لم تؤت أكلها بعد ، ولم تستنفد أغراضها كلها ، بل واقالتها من عثراتها وردتها وتراجعها من مؤسسها الأول حتى ممثلها الأخير[٤١] . وعلى هذا يمكن الإنتقال من الإصلاح إلى النهضة حتى يمكن الإنتقال بعد ذلك من النهضة إلى الثورة . كما يستدعي إرساء قواعد النظرة العلمية كما كان الحال عند القدماء خاصة في علم أصول الفقه ، وهي النظرة التي تسلم بكل معطيات الواقع المادية والمعنوية . كل ذلك يؤدي بنا

(٤١) أنظر ، « ماذا يعني اليسار الاسلامي ؟ » في « اليسار الاسلامي » ، العدد الأول .

في نهاية الأمر إلى صياغة جديدة لعلم أصول الدين وفروعه مثل « لاهوت الثورة » ، « لاهوت التحرر » ، « لاهوت التنمية » ، « لاهوت التغير الاجتماعي » ، « لاهوت المقاومة » ، « لاهوت التقدم » ، « لاهوت العدالة الإجتماعية » ، « لاهوت الوحدة » ، « لاهوت الجماهير » ، « لاهوت التاريخ » ، . . . الخ . وتلك هي « رسالة التوحيد » .

ب - ليست مهمة علم أصول الدين الجديد نظرية فحسب بل هي أيضاً مهمة عملية من أجل تحقيق الأيديولوجية بالفعل كحركة في التاريخ بعد تجنيد الجماهير من خلال ثورة عقائدها . ومن ثم كان من مهامه القضاء على احتلال أراضي المسلمين المباشر منها مثل فلسطين وغير المباشر منها في صورة قواعد أجنبية أو تسهيلات دفاعية برية أو بحرية لقوى أجنبية شرقية أو غربية أو الأحلاف العسكرية أو المناورات المشتركة أو تبادل المعلومات العسكرية والخبرات الفنية ، تعددت الأسماء والمسميات واحدة . ومن مهامه أيضاً القضاء على نهب ثروات المسلمين من الخارج ونهب الاقطاع لها من الداخل ، وإعادة توظيفها لخدمة جماهير المسلمين ،والقضاء على استغلال هذه الثروات من الخارج أو الداخل من أجل قيام اقتصاد وطني مستقل للأمة . وكذلك أيضاً تنمية موارد المسلمين الطبيعية وعدم تركها نهباً من الخارج أو دون السيطرة عليها وتركها للكوارث والفيضانات . وغريب حقاً عندما يذكر الثروة والغنى فيذكر المسلمون ، الأغنياء الجدد منهم . وعندما يذكر الفقر والجوع يذكر أيضاً المسلمون ، عامة المسلمين . وكأنها ليست أمة واحدة بل أمتان ، المال فيها دولة بين الأغنياء ، والفقر فيها شائع وعام بين الفقراء . ومن مهامه أيضاً القضاء على كل صنوف القهر والتسلط . يضرب بالأمة المثل في وفرة عدد المسجونين السياسيين ، واضطهاد المعارضة ، وهربها من أوطانها إلى الخارج ، والتصفية الجسدية للخصوم ، وصياغة القوانين الإستثنائية والدساتير من أجل التقنين لحكم الفرد المطلق ، واجراء الاستفتاءات الشعبية لانتزاع الناس حرياتهم وهي منزوعة سلفاً . كما يهدف إلى توحيد الأمة ، ولم شتاتها ، وجمع أجزائها المبعثرة ، وتجاوز الحدود المصطنعة التي وضعها الإستعمار بين أجزاء الأمة، وأثار الأحقاد والضغائن بين طوائفها وجعلها أحزاباً وشيعاً « كل حزب بما لديهم

فرحون » . ويكون همه الرئيسي القضاء على كل مظاهر التخلف في الأبنية التحتية والفوقية ، في الهياكل الإجتماعية والتصورات الذهنية حتى يمكن نقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى ، ويتحول من الخلود إلى الزمان ، من الفيض والصدور من الأعلى إلى الأدنى إلى التقدم في التاريخ ، من الأمام إلى الخلف . كما يقضي على التغريب محافظة على الهوية ، ويحجم الآخر إبرازاً لدور الأنا ، ورد الحضارات الغازية إلى حدودها الطبيعية لإفساح المجال لإبداع الحضارات المحلية[٤٢] . وأخيراً تكون المهمة تجنيد الجماهير ، فتكون العقيدة المتحركة ، والتوحيد الحي ، فالتوحيد والجماهير واجهتان لشيء واحد ، والعقيدة والحزب يمثلان النظر والعمل ، يجمعان بين الإيمان والتصديق . ولا يبدو في ذلك أي تجاوز لعلم أصول الدين وإلحاقه بعلم الفقه ، وذلك لأن الفصل بين العلمين غير واقع ، وإن كنا قد ورثناه من التراث . ومهمتنا إعادة بناء التراث من أجل إقامة « لاهوت الفقه» و«عقيدة الثورة» أي تأسيس علم أصول الدين الذي يقوم على الإجتهاد، والذي يجمع بين النظر والعمل، بين الأصول والفروع. وهو «الإسلام السياسيّ» الذي طالما مارسه المصلحون وحاول صياغته النظّار والباحثون[٤٣] .

جـ ـ ليست مهمة علم أصول الدين عملية نظرية فحسب بل عملية فعلية في الواقع أي الدفاع الفعلي وتحقيق التوحيد في العالم الإسلامي ، قلبه وأطرافه بصرف النظر عن الأسماء المحدثة له : العالم الأفريقي الآسيوي ، العالم الثالث ، مؤتمر القارات الثلاث ، دول عدم الإنحياز ، الشعوب المتحررة حديثاً . . . الخ . فمنذ فشل الحروب الصليبية قديماً في الغارة على العالم الإسلامي ، قلباً وبراً ، بدأت المحاولة الثانية بالإلتفاف حوله ، أطرافاً وبحراً . فيموت القلب نزيفاً وتتآكل الأطراف جموداً ، وتتساقط الواحد تلو الآخر . ينتشر سرطان الغزو الصهيوني الإستيطاني في القلب إبتداء من فلسطين وتتآكل الأطراف تحت ضربات الإستعمار في جنوب شرقي آسيا ، ووسط أفريقيا وجنوبها . والحزب الإسلامي الجماهيري

(٤٢) أنظر بحثنا « التراث والنهضة الحضارية » قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية .

(٤٣) نخص منهم بالذكر صديقنا الاستاذ الدكتور أنور عبد الملك في بحوثه العديدة حول « الاسلام السياسي » و « نهضة مصر » و « ريح الشرق » و « الجبهة الوطنية المتحدة » .

قادر على تجنيد المسلمين وطاقاتهم بدلاً من التحزب والتشعب والتشتت في الأيديولوجيات العلمانية أو السلبية واللامبالاة وإيثار موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء . وبالتالي تتأكد وحدة العالم الإسلامي الحالي ، الفكرية والعملية ، العقائدية والتشريعية ، سواء كان ناطقاً بالعربية أم بغير العربية ، تركية أو فارسية أو أردية أو ماليزية . فالروابط الثقافية والتاريخ الحضاري ، والعقيدة المشتركة ، والمخاطر الواحدة أقوى من الحدود القومية . يمكن تكوين جبهة واحدة من دول آسيا وأفريقيا ضد المخاطر التي تهددها والآتية من الإستعمار الغربي القديم والجديد ، ومواصلة النضال المشترك من خلال « ثورة العقيدة » أو « عقيدة الثورة » ، واستئناف التعريب ، والإنتشار الحضاري ، والتعمير البشري والعمراني . هذه الجبهة تكون نواة لتوحيد المسلمين في نظام واحد ، إتحادي أو فيدرالي أو كونفيدرالي أو وحدوي ، وهو ما تصبو إليه الأمة وما يعج في صدرها . تأخذ « الخلافة » إذنْ مدلولها الحديث ، يكون هو إتحاد آسيا وأفريقيا والمتعاطفين معه من دول العالم الثالث أو دول عدم الإنحياز أو دول القارات الثلاث ثم تنفتح على الشرق كما كان الحال قديماً حيث انتشرت الحضارة شرقاً بينما عاداها الغرب حتى الآن وكما دُعي إلى ذلك في حركاتنا الإصلاحية الحديثة من إنشاء « للجامعة الشرقية » بعد أن ربطنا الإستعمار بمنطقته الحضارية ، جغرافيا وثقافة ، وجعلنا امتداداً بحرياً له ، ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وبشرياً . وإمكانيات العالم الإسلامي الحالية النظرية والعملية ضخمة تساعد على تحقيق هذا المطلب . يزيد عليها ربط المؤسسات الإسلامية والمعاهد العلمية ، ومراكز الأبحاث والجامعات الوطنية والتنسيق بين الأحزاب السياسية وتبادل الصحف اليومية والدوريات حتى يمكن توحيد العمل ، وتحقيق ما يمكن تحقيقه من خطة شاملة يتم إنجازها خطوة خطوة ، فالعمل الجماعي هو الوسيلة لخلق إمكانيات جديدة للأفراد . وبالتالي تُحل مشاكل التربية الإسلامية ، وإعادة خلق المسلم الكامل كفرد ثم إعادة بناء الجماعة الإسلامية كأمة من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية ، وخلافة الأمة في الأرض . وهو ما ركزت عليه أيضاً الدعوات الإصلاحية الحديثة . فإذا تم ذلك يمكن للعالم أن يجد قيادة جديدة فكرياً وعملياً ، وريادة إنسانية شابة بعد أن تخلت

القيادات القديمة ، وعلى رأسها القيادة الغربية ، عن مثلها ، وتوارت إلى الخط الخلفي ، وإن كانت ما زالت تصارع من أجل البقاء ، ومن أجل البعث بدماء جديدة ، وتغيير جذري في النظر والسلوك(٤٤) .

رابعاً : موضوعه :

١ ـ ذات الله : يظن القدماء خطأ أن موضوع العلم هو «ذات الله» مع أن «الذات الإلٓهية» لا يمكن أن تكون «موضوعاً» للعلم، فالذات لا تكون موضوعاً. حينئذ يكون السؤال عن الذات : هل يمكن تصوره؟ هل يمكن ادراكه؟ هل يمكن الإشارة إليه من أجل التصديق والتحقق من صدقه ؟ هل يمكن الحديث أو التعبير عنه ؟ هل يمكن أن يتحقق في الحياة العملية ؟ « الله » كما يعرِّفه المتكلمون القدماء ذات ، وذات مطلقة . والذات لا يمكن أن تكون موضوعاً . الذات تندُّ عن الموضوع وتتجاوزه وإلَّا لما كانت ذاتاً سواء الذات الإلٓهية أم الذات الإنسانية . وفي كل مرة تتحول فيها الذات إلى موضوع يخطىء العلم ، ويعم الخلط . فالحديث عن الله إذن خطأ في تصور موضوع العلم ، وجعل الذات موضوعاً في حين أن الموضوع ذات .

وتحتوي العبارة « موضوعه ذات الله » على تناقض داخلي لأن الله هو المطلق . والعلم بطبيعة موضوعه ومنهجه وغايته تحويل للمطلق إلى نسبي لأنه يخضع الظاهرة العامة إلى ظاهرة خاصة في الزمان والمكان ، ويميز بينها وبين غيرها من الظواهر . العلم تحديد للظاهرة في واقعة معينة يمكن السيطرة عليها علمياً وتجريبياً والتمييز بينها وبين غيرها من الوقائع . ولا يعمّم بعد ذلك إلّا بناء على مسلّمات سابقة حول الإطراد ، وهو ما يحتاج إلى برهان . والله ، موضوع العلم ، لا يبدو في وقائع ، ولا يتمايز عن غيره في وقائع . فكيف يمكن للكلي أن يصير جزءاً ؟ وكيف يمكن لعقل الإنسان النسبي ، بحياته ، وإدراكه ، ومصالحه وأهوائه ، ورغباته وميوله ، والموقف الإنساني كله أن يحيط بالذات المطلقة التي لا

(٤٤) وقد كان ذلك أيضاً مشروع « مالك بن نبي » في « فكرة الآسيوية الافريقية » ، « شروط النهضة » .

يعتريها الموت ، ولا يحدها عقل أو إدراك ، ولا تمسها الرغبات والميول ، ولا تنتابها الدوافع والأهواء ، ولا يسري عليها أي موقف إنساني ؟ صحيح أن العقل يتميز بصفات الإدراك ، وأن الحدس قادر على إدراك البديهيات ، وأن أوليات العقل عامة ، مطلقة وشاملة ، ولكن العقل أيضاً موجود في بيئة معينة ، وصاحبه ذو مزاج معين ، مرتبط بالأهواء والإنفعالات ، وتُسيِّره المصالح الخاصة والعامة . إن صفة الإطلاق هذه كثيراً ما تخفي تحتها كثيراً من المواقف الإنسانية النسبية ولكن الغرور الإنساني أو الرغبة في التميز على الآخرين ، وإيثار السلطة وحب التسلط يدفع الإنسان إلى خارج موقفه وبيئته إدعاء وغروراً . حتى إذا استطاع الفيلسوف بقدرته على النظر ، والرياضي بقدرته على التجريد ، والمنطقي بقدرته على الصورية فإن الله لا يمكن أن يدرك كفكرة أو كمفهوم أو كتصور لأنه « إلٰه حي » يسمع ويبصر ويتكلم ويريد ، إلٰه المؤمنين المحتاجين وليس إلٰه الفلاسفة والنظار . أما إدراكه بالوجدان وبالذوق فذاك طريق الصوفية وليس طريق المتكلمين ، مكانه في علوم التصوف وليس في علم أصول الدين . ولا يعني ذلك أن الله سر ، كما هو الحال في المسيحية ، لا يمكن معرفته إلا عن طريق الإيمان . فالله بالنسبة لنا هو كلامه ، والكلام موجود في القرآن ، والقرآن كتاب صح نقله ، ويمكن فهمه وتفسيره بل وتأويله طبقاً لشروط التأويل . وهو موجود أيضاً كمبدأ في المعرفة كفكرة محددة ، وفي الأخلاق كمثل أعلى أو مطلب يمكن إدراكه بالحدس والإستدلال من خلال عناصر الثبات في التجارب البشرية ، وبتحليل الواقع الإجتماعي والتاريخي[٤٥] . وهو أيضاً المعنى الشائع للقول المشهور بأن العقول

---

(٤٥) وهذا هو أيضاً موقف المهندسين في الإلٰهيات في انكارهم أن النظر في الإلٰهيات يفيد العلم « لأن التصديق موقوف على التصور وذات الله غير معقولة ولا جائزة التعقل » طوالع الأنوار ص ٣٠ .
« الطائفة الثانية من منكري النظر المهندسون قالوا إنه يفيد العلم في الهندسيات دون الإلٰهيات . والغاية فيها الظن والأخذ بالأحرى والأخلق . واحتجوا بوجهين :
أ ــ الحقائق الإلٰهية لا تتصور ، والتصديق بها فرع التصور . فامكان طلب التصديق موقوف على تصور الموضوع والمحمول . والحقائق الإلٰهية غير متصورة لنا لما سبق أنا لا نتصور الا ما نجده بحواسنا أو نفوسنا أو عقولنا . وإذا فقد التصور الذي هو شرط التصديق امتنع التصديق أيضاً .
ب ــ أقرب الأشياء إلى الانسان هويته التي يشير إليها بقوله أنا ، وأنا غير معلومة إذ قد كثر =

قاصرة عن إدراك ذات الله أو أنها محدودة أو عاجزة . فيكون العيب في نقص العقل وليس في طبيعة الموضوع ، واتهام الذات بالجهل وليس بأن الموضوع مستحيل أو مجرد وهم ، بإدعاء معرفته[٤٦] . لذلك احتاط القدماء مرتين . الأولى في عدم بحثهم ذات الله مباشرة بل عن طريق غيرها مثل الجواهر والأعراض أي الأمور العقلية العامة المستقلة عن ذات الله ، يدركها العقل كعلم سابق على علم ذات الله . وهي التي أصبحت فيما بعد « المقدمات الضرورية » للعلم خاصة مبحث الجوهر والعرض الذي بلغ أكثر من نصف العلم ، وثلاثة أرباع المقدمات النظرية كلها بنظريتيها ، العلم والوجود ، في القرنين السابع والثامن[٤٧] . وهو ما حدث أيضاً في علوم الحكمة من جعل الحكمة الطبيعية سابقة على الحكمة الإلهية ، وجعل الحكمة المنطقية سابقة عليهما معاً ، أو وضع العلم الطبيعي والعلم الإلهي في علم واحد في تصنيف العلوم[٤٨] . والثاني هو الإعلان المبدئي قبل الإنتقال من مبحث الوجود إلى وصف ذات الله بأن الذات لا يمكن تصورها أو إدراكها وبأن « الله في

الخلاف فيها كثرة لا يمكن معها الجزم بشيء من الأقوال المختلفة . . . وإذا كان أقرب الأشياء إليه كذلك فما ظنك بأبعدها ؟ المواقف ص ٢٦ نفس الحجتين موجودتان في المحصل ص ٢٤ ، طوالع الأنوار ص ٣٠ .

(٤٦) « لأن عقولنا لا يمكن أن تدرك ذات الله ولا كنه صفاته ، وكنه الذات وكنه الصفات العلية خارج عن طور العقول البشرية ، « وما قدروا الله حق قدره » ، « ولا يحيطون به علماً » ، ولذلك ورد « تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا الله حق قدره » . وقال المرتضى :

العجز عن درك الادراك إدراك — والبحث عن سر كنه الذات اشراك

« لا يحسن من أحد أن يقول في الله سبحانه أو يعتقد فيما يتصل بالعدل والتوحيد بظن ولا حدس ولا تقليد ولا توهم ولا تصور . وإن كنا قد بينا في نفي التشبيه أن التصور فيه تعالى يستحيل لنقد الشرائط التي لها يصح التصور » المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ٥٣٢ .

(٤٧) أنظر فيها بعد الفصل الثاني ، بناء العلم ، الفصل الرابع : نظرية الوجود . ويشكك الايجي صاحب المواقف بأن هذه الأمور العامة ليست بينة في ذاتها وبالتالي لا بد لها من العلم . وهذا في الحقيقة تسلسل إلى ما لا نهاية في تأسيس العلم بحيث يكون كل علم في حاجة إلى علم سابق . ولكن « الأمور العامة » أو « المقدمات النظرية » هي البدايات اليقينية العقلية التي جعلها القدماء مقدمة العلم ولا علم قبلها . المواقف ص ٧ .

(٤٨) الأول موقف ابن سينا في « الشفاء » وفي « النجاة » والثاني موقف الفارابي في « احصاء العلوم » .

ذاته » يستحيل معرفته ودون الإقرار في نفس الوقت بأنه سر مجهول . « فذات الله » في حقيقة الأمر هو « الله في ذاته » . وكل ما لدينا هو تقريب وقياس ، وبذل الجهد العقلي قدر المستطاع بالإعتماد على النقل وعدم الخروج عليه لا فرق في ذلك بين عقليين ونقليين ، بين معتزلة وأشاعرة[٤٩] .

وإذا كان « ذات » الله لا يمكن تصوره أو إدراكه فإنه أيضاً لا يمكن الإشارة إليه حتى يمكن أن يتم به تصديق أو تحقق في العلم[٥٠] . ليس هناك شيء في العالم يُسمى « ذات الله » يمكن الرجوع إليها أو تكون مقياساً للتحقق وللصدق . وبعبارة منطقية نقول إن « ذات الله » مفهوم بلا ما صدق . فهو بحسب تعريفه ليس متعيناً في زمان أو مكان ، والعلم لا يكون إلا لموضوعات متعينة وإلا كان علماً صورياً خالصاً لا شأن له بالكثرة وهو ما لا يمكن استعماله لموضوع « ذات الله » التي هي على اتصال بالعالم من خلال « الصفات والأفعال » . لا يدرس العلم إذن إلا موضوعاً موجوداً بالفعل وإلا لكان أدخل في الفلسفة التي تدرس التصورات الشاملة أو في علم النفس الذي يدرس نشأة هذه التصورات وتكوينها في الظروف النفسية أو في علم الإجتماع الذي يحلل الظروف الإجتماعية التي تساعد على ظهور مثل هذه التصورات أو في علم تاريخ الأديان لدراسة التصورات المختلفة للموضوعات الدينية حسب الزمان والمكان ، والملل والنحل ، والشعوب والأجناس ، والبيئات الثقافية والحضارات البشرية على مختلف العصور أو في علم الجمال لدراسة التعبيرات الجمالية والشعر الصوفي والفن الديني الذي يعبر عن التصورات المختلفة لله . الحديث عن « ذات الله » إذن خطأ في نظرية الصدق في المنطق القائمة في أحد معاييرها التقليدية على ضرورة تطابق المفهوم مع الماصدق . حتى ولو أمكن إثبات موجود كامل لا متناه يحوي جميع صفات الكمال كيف يمكن إذن الإنتقال من عالم الأذهان إلى عالم الأعيان ؟ بل إن « الدليل الانطولوجي »

(٤٩) انظر فيما بعد الفصل الخامس : الوعي الخالص (أوصاف الذات) .

(٥٠) يُستعمل لفظ « ذات » مؤنثاً ومذكراً في آن واحد طبقاً للسياق . وكلاهما صحيح مثل لفظ « روح » .

نفسه افتراض محض لأن الإنتقال من الفكر إلى الوجود لا يمكن أن يتم نظراً ، بل لا يتم إلاَّ عملاً من خلال جهد الفرد وفعل الجماعة وتحقيق الأيديولوجية في التاريخ ، وتحويل المثال إلى واقع ، والإمكانية إلى وجوب[٥١] .

وإذا كان « ذات » الله لا يمكن تصوره أو إدراكه أو الإشارة إليه فإنه لا يمكن أيضاً التعبير عنه لأن اللغة الإنسانية لا يمكن أن تعبر إلاَّ عن التصورات أو الإدراكات أو الموضوعات أو المعاني الإنسانية . كيف يمكن إذن التعبير عن المطلق بلغة نسبية ؟ كيف يتم للإنسان التعبير عن شيء لا يقدر على التعامل معه أو ضبطه ولا يمكن العثور له على صياغة ؟ الحديث عن « ذات » الله إذن خطأ في تصور وظيفة اللغة ، فأي دراسة لموضوع « الله » لا بد وأن تقع بالضرورة في التشخيص لأنه لا يمكن الحديث عن « الله » إلاَّ باستعمال اللغة الإنسانية ، وبإعمال الجهد الإنساني والذهن الإنساني . فتصور الله على أنه صانع وعلى أن له أحوالاً وصفات ، إيجابية أو سلبية ، تصور إنساني خالص . وقد تكون لغة الصمت هي أقدر لغة على التعبير عن « ذات » الله هروباً من قضية اللغة[٥٢] . وقد حاول الصوفية حل الإشكال عن طريق الرمز . ولكن اللغة الرمزية أيضاً ينطبق عليها قصور اللغة التقليدية . فمهما كان للرمز من قدرات تعبيرية فائقة فإنه يظل محدوداً بما يثيره في الذهن من معانٍ مرموز إليها ، ويظل الفرق شاسعاً بين الرمز والمرموز ، وبين المرموز وموضوع الرمز . وإن ما يوحي به الرمز من حس وتخييل وتصوير يثبت أنه لا يمكن الحديث عن « ذات » الله إلاَّ بطريق التخييل والتصوير الفني كما

---

(٥١) « وقد اتفق علماء الكلام جميعاً على انكار الوجود الذهني ، ولا يعترفون إلا بالوجود العيني » المقاصد ص ١٩ ؛ « إن موضوع العلم لا يبين فيه وجوده فيلزم اما كون اثبات الصانع بيِّناً بذاته أو كونه مبيناً في علم أعلى والقسمان باطلان » المواقف ص ٧ ؛ كذلك يعترض الايجي على جعل موضوع العلم الموجود بما هو موجود لأنه « قد يبحث فيه عن المعدوم والمحال وعن أمور لا باعتبار أنها موجودة في الخارج كالنظر والدليل . وأما الوجود في الذهن فهم لا يقولون به » المواقف ص ٨ . أنظر أيضاً مقدمتنا لكتاب « الايمان باحثاً عن العقل » لأنسليم في « نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط» ص١١٨ ــ ١٣٤، الاسكندرية١٩٦٨، القاهرة١٩٧٨، بيروت ١٩٨١ .

(٥٢) « التراث والتجديد » ، منطق التجديد اللغوي ، (١) قصور اللغة التقليدية ص ١٢٧ ـ ١٣٥ .

لاحظ ذلك قدماء النقاد والمحدثون المعاصرين[٥٣] . ليس أمام الإنسان إذن ، إذا ما أراد الحديث عن « ذات » الله إلاّ التشبيه والقياس ، التشبيه بنفسه والقياس على العالم ، وإثبات أوصاف الإنسان الإيجابية كصفات ثبوتية لله ، ونفي أوصاف الإنسان السلبية كصفات سلوبية عن الله . وبالتالي يكون كل حديث عن الله هو حديث عن الإنسان . يتوهم الإنسان أنه يتحدث عن الله في حين أنه يتحدث عن نفسه[٥٤] .

لذلك قد تكون اللغة الوحيدة الممكنة للحديث بها عن الله هي لغة الإشارة أو الحركة أي لغة الجسد كما هو واضح في الرقص الديني ومظاهر الطقوس وشعائر العبادات . ولكنها أيضاً لغة رمز تعبر عن مرموز . فالرمز قد يكون باللفظ أو بالحركة . أما الفعل غير الرمزي فهو « الشهادة » أي لغة المقاومة ، وظهور « الذات » الإلهي في الذات الإنساني كحركة ونشاط وفعل ومقاومة وجهاد ونصر[٥٥] . الله إذن ليس موضوعاً للمعرفة أو للتصور أو للإدراك أو للتصديق أو للتعبير بل هو باعث على السلوك ، ودافع للممارسة ، وقصد للإتجاه ، وغاية للتحقيق . الله طاقة حالّة في الإنسان من أجل أن يحيا ويسلك ويعمل ، ويحس ويشعر ويتخيل وينفعل أيضاً . الله طاقة حيوية يحولها الإنسان إلى فعل . الله ليس موضوعاً ثابتاً للمعرفة بل حركة ممكنة تتم من خلال فعل الإنسان ، ومشروع يمكن أن يتحقق بجهده . الله ليس تصوراً بل فعل ، ليس نظراً Logos بل عمل Praxis . الله ليس موضوعاً لنظرية المعرفة إلاّ من حيث وجود مبدأ واحد شامل بل هو باعث سلوكي في علم الأخلاق . الله ليس موضوعاً لفهم العالم بل وسيلة لتغييره . الله ليس موجوداً وجوداً نظرياً يمكن إثباته بالدليل العقلي بل هو عملية

(٥٣) من القدماء عبد القاهر الجرجاني في « دلائل الاعجاز » ، ومن المعاصرين الامام الشهيد سيد قطب في المرحلة الأدبية الاسلامية من حياته في « التصوير الفني في القرآن » ، « مشاهد القيامة في القرآن » وأيضاً « في ظلال القرآن » .

(٥٤) أنظر الفصل الخامس : الوعي الخالص ، الفصل السادس : الانسان الكامل . وأيضاً بحثنا « الاغتراب الديني عند فيورباخ » عالم الفكر ، ١٩٧٩ .

(٥٥) لا يعني ذلك أي تشابه بين وحدة « الذات » الإلهي والذات الانساني وبين الحلول أو الاتحاد عند الصوفية . إنما يعني استمرار الحركة الاصلاحية الحديثة خاصة عند محمد اقبال في تصوره للذاتية .

إيجاد وتحقق وخلق وتقدم . الدليل الوحيد على وجوده هو دليل عملي لا نظري . والبرهان الوحيد على وجوده هو إيجاده بالفعل عندما يحققه الفرد كغاية والإنسانية كمشروع . الحديث عن « ذات » الله إذن خطأ آخر في نظرية السلوك الفردي الإنساني أولاً والإجتماعي التاريخي ثانياً . فتصور الله على أنه موجود كامل هو في الحقيقة تعبير عن رغبة ، وتحقيق لمطلب ، وتمنٍّ لأمل ، ونظرة بعيدة إلى هدف ، وسير حثيث نحو غاية ، وليس حكماً على وجود في الخارج . فنحن بهذا التصور نعبر عن أعز ما لدينا ، وعن أعمق تمنياتنا في أن نكون كاملين عاملين قادرين ، ونبعد عن أنفسنا عيوبنا ونقائصنا من موت وعجز وجهل . فذات الله هو ذاتنا مدفوعاً إلى الحد الأقصى ، ومُثُلنا بعد أن شخصناها ماثلة أمام الأعين . « ذات » الله المطلق هو ذاتنا نحو المطلق ، ورغبتنا في تخطي الزمان وتجاوز المكان . ولكنه تخطٍ وتجاوز على نحو خيالي ، وتعويض نفسي عن التحقيق الفعلي لهذه المثل في الحياة الإنسانية(٥٦). والله ليس موضوعاً عقلياً يمكن أن يوجد أو لا يوجد، يمكن إثباته أو نفيه بل هو مشروع الإنسانية والذي تحاول تحقيقه منذ وجودها حتى الآن. الله هو تقدم التاريخ الذي يساهم البشر في صنعه . الله ليس موضوعاً للبرهنة العقلية على وجوده بل هو تاريخ يتقدم وواقع يتحرك ، وجماهير تثور ، ودول تقوم ، ونهضات تؤسس . الحديث إذن عن « ذات » الله خطأ آخر في تصور التاريخ . وإذا كان من مآسينا المعاصرة غياب البعد التاريخي من وجداننا المعاصر فإن ذلك يرجع إلى ظهور « الله » كبعد رئيسي إن لم يكن البعد الأوحد كما هو الحال في تراثنا القديم . فظهور البعد الرأسي فيه كان بديلاً عن ظهور البعد الأفقي في وجداننا المعاصر : « فالله » بديل التاريخ ، والتاريخ وريث « الله » . الله هو غائية التاريخ كما تبدو في التقّدم . وإن اكتشاف مجتمعات أخرى في حضارات مجاورة للتقدم والتاريخ إنما كان تحولاً طبيعياً لتصورهم لله ، وكما نفعل نحن الآن ، في تراثهم القديم(٥٧) .

---

(٥٦) أنظر الفصلين الخامس « الوعي الخالص » والسادس « الانسان الكامل » .

(٥٧) أنظر كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشري ، المقدمة . وأيضاً « لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم » في دراسات اسلامية .

والتفكير في الله كموضوع خاص في المجتمعات النامية إغتراب بمعنى أن الموقف الطبيعي للإنسان هو التفكير في المجتمع وفي العالم ، وكل حديث آخر في موضوع يتجاوز المجتمع والعالم يكون تعمية تدل على نقص في الوعي بالواقع لو كان الحديث طبيعياً غير مقصود أو على رغبة في التستر والتغطية على ما يدور فيه أو إعطاء لمن يعيشون عليه أماناً وهمياً وتعويضاً نفسياً عما ينقصهم وعما يُسلب منهم لو كان الحديث مصطنعاً مقصوداً . والشواهد في البلاد النامية على ذلك كثيرة عندما نكثر من بناء المساجد في أوقات الهزيمة، وعندما نكثر الحديث عن الله في أوقات الضنك . كما يحدث ذلك أيضاً في النظم الرأسمالية عندما يأخذ الدفاع عن رأس المال صورة الدفاع عن الله ، وعندما يتأكد التفاوت بين الطبقات وحق صاحب رأس المال المطلق في أن يفعل ما يشاء في صورة تأكيد للمراتب الإلهية وتثبيت لسلطة الله المطلقة ، وحقه الذي لا ينازعه أو يشاركه فيه أحد . الحديث عن الله في المجتمعات النامية في الغالب نقص في الوعي بالواقع إذا كان من الناس وتستر على الواقع إذا كان من السلطة السياسية(٥٨) . كما يُستغل الدين أيضاً في تدعيم النظم السياسية الوراثية ، ملك عن ملك أو أمير عن أمير أو ضابط عن ضابط ، فالملك واحد سواء كان الله أو الأمير، فكلاهما «صاحب الجلالة» لتدعيم شرعيتها بعد أن نقصتها الشرعية عن طريق عقد البيعة واختيار الأمة . الدين هنا يستعمل « أفيوناً للشعب » من السلطة الحاكمة وإن لم يستعمل بعد « صرخة للمضطهدين » في تراث المعارضة(٥٩) .

٢ ـ **الصفات والافعال.** وقد يصبح موضوع العلم الذات بعد أن تتشخص أكثر فأكثر، ويصبح لها صفات وأفعال تتعلق بالدنيا وأحوال الناس كما تتعلق بالآخرة وأمور المعاد من حشر وحساب وجزاء. تُسيِّر أمور الدنيا من معرفة وسلوك ونبوة

---

(٥٨) أنظر بحثنا «الأيديولوجية والدين » قضايا معاصرة (١) ؛ «الدين والرأسمالية» قضايا معاصرة (٢) «الاسلام على الطريقة الرأسمالية» قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(٥٩) « اليسار الاسلامي » بوجه خاص والديني بوجه عام يهدف إلى سد هذا النقص أي الدين كتراث للمعارضة .

وسياسة ، وأمور الآخرة من ثواب وعقاب[٦٠] . فتصبح أمور الدنيا والآخرة كلها من الممكنات ، وتصبح الذات وحدها الواجب الأوحد . لم تكتف الذات بأن تكون تشخيصاً لُمثل الإنسان وغاياته التي لم تتحقق بعد ولكنها تضخمت حتى شملت كل شيء ، فيصبح كل ما عداها ممكناً فانياً ، وهي الوحيدة الموجودة الباقية إلى الأبد . وقد يكون ذلك أحد الجذور التاريخية مما نعاني منه في حياتنا المعاصرة من تركيز لأمانينا القومية وتشخيصها في مركز واحد ، يكون هو القادر وكل ما سواه تنفيذ لهذه القدرة . في حين أن البحث في العالم ممكن سواء في حوادثه أو في وضع الإنسان فيه . كما أن البحث في مصير الإنسان ، في موته وبقائه في التاريخ من خلال آثاره وأعماله ممكن أيضاً ولكن باعتباره موضوعاً مستقلاً غير ملحق بموضوع آخر يكون هو الشيء والإنسان ظل له . الحقيقة أن « علم الكلام » عند القدماء علم « لاهوتي » بالمعنى المسيحي الغربي للكلمة Théologie أي نظرية في « الله » أو « علم الله » أو « الإلهيات » بالمعنى الفلسفي . وكل المشاكل الأخرى ، ولو أنها تبدو إنسانية في مظهرها إلاَّ أنها لا توضع إلا في علاقة مع الله . فالله طرف في الطبيعة في صورة معجزة . فقد تصور المتكلم القديم أن الله قادر على خرق قوانين الطبيعة في حين أنها نواميس ثابتة يمكن للعقل إدراكها وللإرادة السيطرة عليها في عالم مسخر للإنسان . والله طرف في الحرية في صورة إرادة . فتصور المتكلم القديم أن الحرية تدخل كطرف مقابل للإرادة الإلهية في حين أن طرفها المحدِّد هو الموقف أو العالم وليست الإرادة الإلهية . والله طرف في العقل في صورة شرع ووحي ونقل . فتصور المتكلم القديم أن النقل هو الطرف المقابل للعقل في حين أن الواقع هو الطرف الآخر للعقل وليس النقل . والله طرف في الخير والشر في صورة خلق شامل لكل شيء بما في ذلك أفعال الإنسان . فتصور المتكلم القديم أن الخير والشر من الله في حين أنهما مسؤولية إنسانية واختيار حر للإنسان كخالق لأفعاله في أوضاع إجتماعية معينة هو مسؤول عنها . والله طرف في المعاد ومستقبل الإنسان . فتصور المتكلم القديم أن الله يتدخل في تحديد مستقبل الإنسان ومصيره في حين أن

(٦٠) الاقتصاد ص ٥ ، المواقف ص ٧ ، المقاصد ص ٢٠ ، شرح المقاصد ص ٢٢ ، أشرف المقاصد ص ٢٠ ، اتحاف المريد ص ٢٤ ـ ٢٥ ، شرح الخريدة ص ٩ .

الإنسان وتحقيق رسالته في الحياة هو الذي يحدد مستقبله وكيفية خلوده . والله طرف في السياسة في صورة تعيين الإمام . فتصور عالم الكلام القديم أن الله يعيّن الإمام ، وأن علاقة الرئيس تتحدد برئيس آخر له ، هو الله ، وليس الشعب الذي يعقد البيعة والذي منه تُستمد السلطة . وهكذا دخل الله بصفاته وأفعاله طرفاً في كل المشاكل الإنسانية والطبيعية . ووُضعت المسائل كلها وضعاً لاهوتياً . فمسألة خلق القرآن مثلاً وُضعت وضعاً خاطئاً بجعل الله طرفاً فيها . في حين أن الوحي كلام موجود ، مقروء ومسموع ، متلو ومحفوظ ، يحتوي على تصور للعالم بعد فهمه ، وعلى باعث على السلوك بعد ممارسته . فهو موضوع مادي وليس صفة مطلقة لذات مشخصة . والخلق في نهاية الأمر صفة إنسانية لفعل إنساني كما هو واضح عند الفنان[٦١] .

علم الكلام إذن مسؤول عن القضاء على النظرة العلمية للظواهر ، وذلك بالقضاء على استقلال الموضوعات وربطها دائماً بطرف آخر هو الله . إذ لا يتحدد أي موضوع مثل الوجود أو الحياة أو الحرية أو السياسة أو الأخلاق . . . الخ إلاّ إذا كان الله طرفاً فيه ثم تفسير هٰذه الظواهر باللجوء إلى العلة الأولى دون العلل المباشرة . ومن ثم يجعل علم الكلام موقف الإنسان في العالم موقفاً مغترباً لأنه يتصور أن أمور الدنيا إنما تتحدد بأفعال ذات مشخصة من خارج العالم وليس بأوضاع العالم الفعلية . يمكن إذن تغيير علاقات الأطراف في المسائل الكلامية وجعل الإنسان في علاقات مع الآخرين ومع الأشياء ، ووصف الإنسان في العالم كطرف فيه . ومن ثم تتغير مادة العلم من مادة لاهوتية إلى مادة إجتماعية ، ومن علاقات غيبية إلى علاقات مرئية . وقد يتغير فهم الدين التقليدي الوارد من تاريخ الأديان من عبادة ومعجزة وتشخيص وطقوس وعقائد وسلطة ، وسحر وخرافة وغيب وأسرار ، ويعود إلى أصله من كونه وصفاً للإنسان في العالم كفعل وشعور وفعل وذات . الوحي نفسه مجموعة مواقف إنسانية نموذجية تتكرر في كل زمان

---

(٦١) أنظر بحثنا La Renaissance du Monde Arabe في Théologie ou Anthropologie, وأيضاً «لماذا غاب مبحث الانسان في تراثنا القديم؟» دراسات اسلامية .

ومكان ، تصف الإنسان في العالم ، فالعالم هو الوطن الأوحد للإنسان . أما علم الكلام فإنه يعرض الوحي في صورة أخرى مخالفة لتلك الصورة التي عرض الوحي بها نفسه . في علم الكلام يضمر الوحي ، ويتحجر ، ويتقوقع على نفسه ، ويصبح لاهوتاً في حين أن الوحي نظرية في الإنسان وقصد نحوه . في علم الكلام ينقلب الوحي من الإنسان إلى الله ويصبح « علماً إلهياً » في حين أن الوحي بناء إنساني ووصف لوضع الإنسان في العالم . بل إن المشكلة الأولى في علم الكلام ، وموضوعه الأول ، وهو ذات الله وتشخيص ماهيته وأفعاله ، موضوعة وضعاً خاطئاً . فالوحي قصد نحو الإنسان ، ووصف لوضعه في العالم ، وليس وصفاً لذات مشخص يدور حول نفسه . يضع المتكلم المشكلة وضعاً خاطئاً ، ويقلب الوضع بتحويل الوحي إلى قصدٍ من الإنسان نحو الله وبتغيير اتجاهه من حيث هو قصدٌ من الله نحو الإنسان إلى قصدٍ من الإنسان نحو الله . الوحي قصد موجه نحو الإنسان ، يعطيه نظاماً لحياته ومعاشه . هو وصف للعالم وللإنسان في العالم ، وصف واقعي حسي ، بديهي وجداني ، وليس قصداً من الإنسان نحو الله يعطي نظرية في الذات والصفات والأفعال على نحو غيبي افتراضي خالص يقع في التشبيه ، وقياس الغائب على الشاهد لا محالة . فما كان في الوحي بداية وهو الله أصبح في علم الكلام نهاية . وما كان في الوحي نهاية وغاية ومقصداً وهو الإنسان أصبح في علم الكلام بداية ومنطلقاً . علم الكلام إذن تدمير للوحي كما أن الوحي تدمير لعلم الكلام . الوحي تعبير عن وضع الإنسان الأمثل في الجماعة ليدرك المسافة بين الواقع والمثال ويقوم بتحقيق رسالته في التوحيد بينهما بالفعل وعلم الكلام اغتراب للإنسان وقذف به خارج العالم من أجل عبور المسافة من الواقع إلى المثال عن طريق التمني والخيال أو بالوهم والخداع . فأيهما موقف صحيح وأيهما موقف مزيف[٦٢] ؟ .

٣ ـ ذات الرسول: وقد يضاف إلى «ذات» الله «ذات» الرسول فيكون موضوع العلم قطبين: الله والرسول. وهو ما وضح أساساً في علم الكلام المتأخر في عصر

(٦٢) « لماذا غاب مبحث الانسان في تراثنا القديم؟» دراسات اسلامية .

الشروح والملخصات وفي كتب العقائد بعد القرن الثامن الهجري[٦٣] . صحيح أن ذات الرَّسول مخلوق بشري فانٍ ولكن التركيز على هذين القطبين ، الله والرسول يوحي بعقائد ملل أخرى تعقد رباطاً جوهرياً بين الشخصين[٦٤] . بالإضافة إلى أن هذين القطبين يمثلان مصدر الوحي ورسول الوحي فقط وغياب المرسل إليهم كلية في هذه العلاقة الثنائية وهم الناس والشعب والأمة وكأن هذا الطرف الثالث لا وجود له كمحور في العقائد كما أن لا وجود له في حياتنا السياسية المعاصرة . إن العلاقة الكاملة ثلاثية : مُرسِل ، ومُرسَل إليه ثم رسول يتم بواسطته التبليغ وحمل الرسالة . والمرسل إليه هم الناس ، والناس يعيشون في عالم ، ويبحثون عن نظام . والرسول ليس له هذه الأهمية التي تجعله محوراً من محاور العلم مع الله كمحور أول . فالرسول ما هو إلَّا مُبلغ ، أي أنه وسيلة وليس غاية ، وما على الرسول إلَّا البلاغ . وإلَّا وقعنا في « علم السيرة » وهو من العلوم النقلية الخالصة كما وقعنا في « علم الكلام » الذي يأخذ المرسِل موضوعاً له أي الله . الغاية هم الناس ، وهم البشر ، وهو العالم . فكيف نُسقط الغاية من الحساب ، ونجعل الوسيلة جزءاً من موضوع العلم ؟ وإذا كان التصوف قد ركز على الوسيلة إلى حد الإطلاق فيما سماه « الحقيقة المحمدية » فإن علم الكلام حتى في حركات الإصلاح الديني الأخيرة يكون قد انتهى إلى مثل ما انتهى إليه التصوف من التركيز على شخص الرسول حتى ضاعت الرسالة وضاع المرسل إليهم . إن الرسول ليس موضوعاً مستقلاً لعلم أصول الدين لأنه وسيلة إيصال الوحي فقط ، ووسيلة تبليغ ، فهو وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف ، وحامل لا محمول . أما الوحي فإنه موضوع مستقل غير مشخص ، وإدخال الرسول كجزء من الوحي تشخيص

---

(٦٣) ويتضح ذلك في التاوية ، والكونفوشيوسية والبوذية ثم المسيحية ، فقد كان لاوتزي ، وكونفوشيوس ، وبوذا ، والمسيح أشخاصاً تاريخيين ، أنبياء ورسل ودعاة قبل أن يتحولوا آلهة .
أنظر رسالتنا الثانية La Phénoménologie de l'Exégèse, essai d'une hermeneutique existentiel-le à partir du Nouveau Testament .

(٦٤) الخلاصة ص ٢ ، تحفة المريد ص ١٢ ، وسيلة العبيد ص ٣، رسالة التوحيد ص ٤ ، ٢٣ التحقيق التام ص ١٥٢ - ١٧٧ .

للوحي ، وتركيز للتشخيص الذي حدث بتحويل الوحي إلى ذات ، في الموضوع الأول وهو « ذات » الله ، والإنتقال من كلام الله إلى ذات الله . وبالتالي تصب علوم الحكمة وعلوم التصوف مع علم الكلام في نفس الإتجاه ، وهو تشخيص الوحي ، والتشخيص هو أحد مآسينا المعاصرة ، التشخيص السياسي في صورة القائد أو الزعيم ، والتشخيص الإجتماعي في صورة الأب أو رئيس المصلحة ، والتشخيص الإقتصادي في صورة اللصوص والمرتشين وبطانة السوء . ويلتحم ذلك كله بالدين « الشعبي » القائم على تشخيص الأفكار والمبادىء والعقائد في الرسول وآل البيت والأولياء[٦٥] . شخّصنا الأفكار في القادة والزعماء ، وحولنا صراع الأفكار والمذاهب إلى صراعات بين أفراد ، وحولنا الإعتقاد بالنظريات إلى إيمان بالأفراد ، وأصبح كل نقد للأفكار هو نقد للأفراد ، والولاء للأفكار هو ولاء للأشخاص. هنا تكمن الجذور التاريخية إذن «لعبادة الأشخاص» وهو العيب الرئيسي في الحياة السياسية لدى الشعوب المتخلفة[٦٦] . إن إدخال الرسول كجزء من موضوع العلم هو تحويل للتوحيد من أساسه الأفقي ــ الوحي في التاريخ ــ إلى أساسه الرأسي ، الصلة بين الله والنبي وذلك بالحديث عن نظرية الإتصال ،

---

(٦٥) أنظر « محمد ، الشخص أم المبدأ » قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني . وقد نبه القرآن على ذلك وكان أول من نقد « عبادة الشخص » في شخص الرسول بقوله « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (٣: ١٤٤) ، كما ركز على صفته البشرية في « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » (٢٥ : ٧ ـ ٨) ؛ « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنّزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً »(١٧ : ٩٠- ٩٥)

(٦٦) الاقتصاد ص ٦ والقرآن أيضاً يشير إلى ذلك بقوله « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أنظر أيضاً الفصل التاسع عن النبوة . أنظر أيضاً حديثنا عن المعجزات في مقدمتنا لرسالة اسبينوزا في اللاهوت والسياسة . ص ٦٥ ـ ٦٩ .

ووسائل الإتصال ، والحجاب ، والملاك ، والمخيلة كما حدث في علوم الحكمة في حين أن ما يهمنا نحن هو الوحي بعد إعلانه ـ وليس قبله ـ وفهمه وتفسيره وتأويله من أجل الإستفادة منه في حياتنا العملية كما حرص على ذلك علم أصول الفقه في تحويل الوحي إلى علم دقيق إبتداء من لحظة الإعلان عنه وليس قبل ذلك حتى لحظة تحققه في الحياة العملية كسلوك للأفراد وكنظام للجماعة ، سواء فيما يتعلق بالصحة التاريخية للنصوص من خلال مناهج الرواية أو الفهم لها من خلال مبادىء اللغة وأسباب النزول أو تحويلها إلى سلوك في الحياة العملية من خلال المقاصد والأحكام[٦٧] . خلط علم الكلام إذن بين النبي والرسول ، وتعرض للنبي كما تعرضت له علوم الحكمة وعلوم التصوف وعلم السيرة ولم يتعرض إلى الرسول من حيث الرسالة كما هو الحال في علم الحديث أو علم أصول الفقه . فإذا كان الدافع على إقامة علم الكلام هو وقوع أخبار تتعلق بحياة الناس فيمكن تحويل هذه الأخبار إلى علم عن طريق التحقق من صدقها كما هو الحال في علم الحديث أو معرفة معانيها كما هو الحال في علوم التفسير أو الإستفادة منها في الحياة العملية كما هو الحال في علوم الفقه أو التصوف . ولا محل لعلم الكلام . هذا بالإضافة إلى أن كل ما وصل إليه علم الكلام في حديثه المنعرج عن النبي هي صفات النبي الأربعة مثل صفات الله السبعة ، وخصال الرئيس العديدة أي التركيز على السمات الرئيسية في الشخص . إذا صلح الشخص انتظم الواقع وصلح الناس فخصال الأفراد هي التي تحدد طبيعة النظم الإجتماعية . وهو تحليل ناقص يغفل دور المؤسسات والشعوب والأفكار ومن ثم فهو غير علمي . النظم الإجتماعية لها استقلالها عن خصال الأفراد حتى ولو كانت خصال الرؤساء . بل إن شخص الرسول سيتدخل في الجزاء ويخرق قانون الإستحقاق عن طريق الشفاعة كخرق الله

---

(٦٧) المقاصد ص ٢١، شرح المقاصد ص ٢٢ ، أشرف المقاصد ص ٢١ ، التحقيق التام ص ٢
ويعترض صاحب المواقف على ذلك باعتراضين أ ـ قد يبحث فيه عن المعدوم والحال وعن أمور لا باعتبار أنها موجودة في الخارج كالنظر والدليل . وأما الوجود في الذهن فهم لا يقولون به .
ب ـ قانون الاسلام هو ما هو الحق في هذه المسائل . وبهذا القدر لا يتخيل العلم . المواقف ص ٨ .

لقانون الطبيعية عن طريق المعجزات . لقد ركز العلم على ضرورة المعجزة لاثبات النبوة وتأييداً للأخبار التي أتى بها الرسول وذلك عن طريق أفعال خارقة للعادة في حين أن الوحي في آخر مراحله ، وهو الوحي الإسلامي ، له يقينه الداخلي ، وصدقه الذاتي ، ولا يحتاج إلى برهان خارجي . فضلاً عن أن المعجزة بمعنى خرق قوانين الطبيعة ربما كانت موجودة في المراحل السابقة للوحي من أجل تحرير الشعور الإنساني من سيطرة الطبيعة أو من سلطة الحاكم المطلق، فالله وحده هو القادر على كسر كل القوانين الطبيعية وعلى كل النظم السياسية القائمة على حكم الفرد المطلق . ولكن في آخر مرحلة من مراحل الوحي تتحول المعجزة إلى إعجاز ، ويكون الفكر والفن ، وهما دعامتا الوحي ، المضمون والصورة ، الموضوع والأسلوب ، هماموضوعا الإعجاز . فالمعرفة الإنسانية مهما تقدمت فإنها ستظل تجد في الوحي نظريات صادقة ، وأن الخلق الفني الإنساني مهما عظم فإنه سيظل يجد في أسلوب الوحي عملاً فنياً باقياً على كل العصور . الوحي في آخر مراحله إعلان لاستقلال الإنسان عقلاً وإرادة دون ما حاجة إلى تدخل خارجي في عقله أو في إرادته من أجل الحصول على معرفة أو تحقيق فعل . مهمة الوحي وضرورته هي في إعطاء مجموعة من الإفتراضات النظرية تسهّل عمليات فهم الواقع بعد التحقق من صدقها بالدليل العملي أو البرهان النظري . كما أنها تقصر الطريق بإعطائها الأساس النظري من أجل أن يكرّس الإنسان كل جهده وطاقته في التحقيق . بالإضافة إلى أن هذا الأساس النظري شامل وعام ومحايد ، لا يخضع لهوى أو مصلحة بل يحقق مصالح الفرد والجماعة أياً كانت ، وذلك بخلاف المعرفة الإنسانية التي قد يطول البحث عنها والتي قد تقع في التجزئة وأحادية الطرف والتحيز والتي قد لا يتم الوصول إليها قبل نهاية حياة الإنسان والتي قد تنعزل وتنحصر عن الواقع ، وتظل في حدود النظرية . وقوع المعجزات الآن إما شعوذة أو سحر أو خرافة أو وهم . ويمكن القضاء على كل ذلك بالنظرة العلمية للواقع ، وبتوجيه الجماعة نحو الثقافة النظرية العلمية . وقد تخلفت حركاتنا الإصلاحية الحديثة عن دعوتها وذلك لاستمرار إيمانها بالمعجزات بمعانيها التقليدية كدليل على صدق النبوة ، وكخبر متواتر ، وإن كانت قد حاولت أن تجعل منها باعثاً

على الفكر والتأمل في الطبيعة ، وكشفاً عن مجاهل العلم . ويظل الخوف قائماً من أن يتحول هذا البحث إلى تسليم بالأسرار طالما ظل الإيمان سائداً على العقل .

٤ ـ **الأمور العامة**: وقد يكون موضوع العلم هو الوجود بما هو موجود على قانون الاسلام وليس بحثاً إلهياً عاماً ودون الوقوع في التشخيص. والموجود هو الذي يمكن إدراكه بالأمور العامة مثل الوجود والماهية، الجوهر والعرض، الوجوب والإمكان ، العلة والمعلول ، الواحد والكثير . . الخ وهي آخر ما وصل إليه علم الكلام من تطور نظري من أجل إدراك معنى الوجود والإستدلال به على مدلوله ، وهو أكثر الموضوعات تجريداً وصورية . لقد استطاعت هذه الأمور العامة تحويل الوحي إلى علم أوليات Axiomatique أي إلى مجموعة من المبادىء العقلية العامة الواضحة بذاتها ، أوليات خالصة لا يسبقها شيء كما هو واضح في نظريتي العلم والوجود[٦٨]. موضوع العلم إذن هو «المعلوم» الذي يمكن معرفته. لذلك اشتمل المعلوم على نظرية العلم اجابة على سؤال كيف أعلم ؟ كما اشتمل على نظرية الوجود اجابة على سؤال ماذا أعلم ؟ ولو أن العلم تطور ولم يتوقف من القرن الثامن حتى الآن لكانت تلك الأمور العامة قد ابتلعت الإلهيات وأصبح العلم صورياً خالصاً . فالإلهيات قد أصبحت عقليات ولم يعد باقياً إلاَّ النبوات أو السمعيات التي عادت من القرن الثامن حتى الآن وابتلعت العلم كله بما في ذلك المقدمات النظرية عن « الأمور العامة » والعقليات وريثة الإلهيات .

وبالرغم من مزايا هذا الموضوع التجريدي إلاَّ أنه يعبر عن إيمان باطني ، ويهدف إلى شيء آخر إما إلى حدوث العالم من أجل إثبات أن الله قديم أو لإثبات أن الوجود متميز عن الماهية في هذا العالم من أجل إثبات أن ماهية الله هو وجوده ،

---

(٦٨) وهي التي سماها الايجي « مسائله التي هي المقاصد وهي كل حكم نظري لمعلوم هو من العقائد الدينية أو يتوقف عليها اثبات شيء منها وهو العلم الأعلى . فليست له مبادىء تبين في علم آخر بل مبادبه اما مبينة بنفسها أو مبينة فيه ، فهي مسائل له ومبادي لمسائل أخرى عنه لا تتوقف عليها لئلا يلزم الدور . فمنه تستمد العلوم وهو لا يستمد من غيره . فهو رئيس العلوم على الإطلاق » المواقف ص ٨ .

وأن وجـوده هي ماهيتـه ، ولإثبات أن هـذا العالم منقسم إلى جـواهر وأعـراض من أجـل إثبات أن الله هـو الجوهـر الخـالص لا أعـراض فيـه . ويحـدث نفس الشيء بالنسبة إلى الوحدة والكثرة والعلة والمعلول(٦٩) . وكلها تصدر عن إحساس مرهف بالإيمان معروضاً عرضاً عقلياً صرفاً . وفي هذا الإحساس قد يختلف النـاس . فقد يرى البعض أن إثبات حدوث العام هو المعبر عن هذا التنزيه العقلي وقد يرى آخـر أن قدم العالم هو الأكثر تعبيراً عن ذلك . قد يرى فـريق أن عدم الـربط بين العلة والمعلول ربطاً ضرورياً تعبير أصدق عنِ التصور الإيماني للعالم بينـما يرى فـريق آخر أن الربط الضروري بين العلة والمعلول هو أصـدق تعبير عن وجـود الله وحكمته . وهكذا يختلف الناس في تعبيرهـم عن إحساسـاتهم الدينيـة بالصـور العقلية . وإنمـا يـرجع إتهـام بعضهم لبعض بالخـروج عن الدين في أحسن الأحوال ، ومـع تـوافـر حسن النية إلى تعدد هذه الصور العقلية أو تضاربها مع أنها كلها صور إيمـانية تعبـر عن عواطف إيمانية بالرغم من اختلاف ظروف نشأتها(٧٠) . هذا بـالإضافـة إلى أن هذه الأمور الصورية العامة ما زالت مرتبطة بالجو العام لبيئة ثقافية معينة هي البيئـة اليونانية ومفاهيمها ، وهي بطبيعتها مثالية ، والمثاليـة والعواطف الـدينية صِنْوان ، والخلاف بينهما في الدرجة وليس في النوع ، فقط في درجة التجريد .

ولما كانت هذه الصور الدينية ليست وليدة البيئة الثقافية المعاصرة فإنه لـزم ملؤها بمادة معاصرة حتى يمكن أن تعبر عن مضمون معاصر ، وإلاَّ ظلت صورية فارغة تعبر عن الطهارة الدينيـة والتقوى البـاطنية التقليـدية . إن «الأمـور العامـة» اليـوم ليست هي أفكار الـوجود والعـدم والماهيـة ، والجـوهـر والعـرض ، الـواحد والكثير ، العلة والمعلول ، الوجوب والإمكان ، القـدم والحدوث . . . الـخ . فقد كانت هي المفاهيم السائدة في الثقافة القديمة بعد ترجمة الثقافة العصرية آنذاك وكان مصـدرها الـرئيسي من اليونـان . أما اليـوم فقد أصبحت أفكـار الحريـة والعدالـة

(٦٩) ويتضح ذلك من تعريف الايجي « هو المعلوم من حيث يتعلق به اثبات العقائد الدينية تعلقاً قريبـاً أو بعيداً » المواقف ص ٧ .

(٧٠) أنظر مقدمتنا لكتاب « الوجود والماهية » لتوما الاكويني في « نماذج من الفلسفـة المسيحية في العصـر الوسيط » ص ٢٣٣ ـ ٢٣٩ .

والمساواة والتحرر والتقدم والنهضة بل والثورة والتغير الإجتماعي هي الأفكار السائدة في ثقافتنا المعاصرة منذ فجر نهضتنا الحديثة والتي أصبحت جزءاً من الثقافة العصرية بعد الترجمات عن الثقافات العصرية الحالية ومعظمها وارد من الغرب. وكما عبرت الأمور العامة القديمة عن مقتضيات ثقافتنا القديمة وحاجتها فإن الأفكار المعاصرة تعبر أيضاً عن مقتضيات ثقافتنا الحالية وحاجات مجتمعاتنا المعاصرة[٧١].

خامساً : منهجه :

لم يُفرد القدماء قسماً للحديث عن منهج العلم بل جعلوه جزءاً من تعريفه وهو إيراد الأدلة اليقينية على صحة العقائد الدينية ودفع حجج الخصوم، ورد شبه المعارضين. المنهج إذن مزدوج: الأول إيجابي وهو «إثبات صحة العقائد الدينية بالأدلة اليقينية»، والثاني سلبي وهو «دفع حجج الخصوم، ورد شبه المعارضين»[٧٢].

١ ـ المنهج الايماني: والمنهج الأول منهج إيماني خالص يقوم على التسليم بالعقائد الدينية تسليماً مسبقاً عن طريق الوحي. وفي هذه الحالة تكون وظيفة العقل مجرد إيراد البراهين على صحة المسلمات المسبقة، وهو المنهج المعروف في العصر الوسيط الأوروبي «أؤمنُ كي أعقل»[٧٣]، أو «الإيمان باحثاً عن العقل». صحيح أن مضمون الإيمان الإسلامي مختلف عن مضمون الإيمان المسيحي لأنه يحتوي على صدقه من داخله في حين يحتاج الإيمان المسيحي إلى صدق خارجي من ألوهية أو نبوة أو معجزة أو إرادة أو إلهام أو سر. وقد وضح ذلك في المقدمات الإيمانية التقليدية وتعبيرها عن الأحكام المسبقة التي يبدأ منها الأصولي المتكلم، وهي عقائد أهل السنة التي يريد البرهنة على صحتها للآخرين وليس لنفسه. وبالتالي تكون نتائجه هي مقدماته، ومكتشفاته هي مسلماته وكأن البحث ذاته ما هو إلاّ لملأ الفراغ بين المقدمات

---

(٧١) هذا هو موضوع الجزء الثاني «فلسفة الحضارة»، من تمثل اليونان الى رفض الغرب.

(٧٢) المواقف ص ٧، شرح المقاصد ص ١٣، اتحاف المريد ص ٢٥، التحقيق التام ص ٢.

(٧٣) أنظر مقدمتنا لكتاب أنسيلم «الايمان الباحث عن العقل» في نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص ١٠٦ ـ ١٠٩.

والنتائج . يقوم منهج علم الكلام عند القدماء إذن عـلى البحث عن الأدلة اليقينيـة لإثبات صحة العقائد المسلم بها سلفاً بعد الإيمان بهـا وهو وقـوع في « الدور » بـين الإيمـان والعقل ، أؤمن كي أعقـل ثم أعقل كي يـزداد إيماني رسـوخاً ولكي أثبت للآخرين صحة إيماني . وهـو على عكس المنهـج في علوم الحكمة الـذي يبحث عن بداية عقلية مطلقة دون افتراض إيمـان مسبق وإن خرجت صـور العقل تعبيـراً عن الـطهارة الـدينية والتقـوى الباطنيـة . يبدأ المنهـج الكـلامي إذن بالتسليم ثم يثني بالبحث عن الأدلة وإيجاد البراهـين على صـدق ما سلمنـا به أولاً . فهـو علم إيماني خالص أكثر منـه علماً عقلياً . وبـالتالي يفتقـد شروط العلم وهـو البحث عن نقطة بداية يقينية يصل إليها العقل من داخله . وهذا لا يعني أن الإيمان لا وظيفة له لأنه يكون أحياناً حدساً مباشراً أو تجربة صادقـة أو عاطفـة نبيلة أو مبدأ مثـالياً ، وكلهـا تدخل ضمن وسائل المعرفة وشروط الإدراك . وأحياناً يقدم الإيمان افتراضـاً نظريـاً لفهم الواقع ثم تكون مهمة العالم التحقق من صحة هذا الفرض بالدليـل العقلي أو البرهان الحسي . وأحياناً يقدم نظرة شـاملة للكون تكـون مهمة العـالم تحويلهـا إلى بناء فردي ونظام اجتماعي وحركة في التاريخ . ذلك يمكن تعميم البراهين والأدلة إلى غيره من المعطيات الدينية خاصة إذا كان الوحي الإسلامي معطى مثاليـاً وليس نوعياً كما هو الحال في المراحل السابقة للوحي التي تمسك بها الوعي الأوروبي[٧٤] .

٢ ـ **المنهج الدفاعي** : والمنهج الثاني الذي يستعمله علم الكلام هو منهج الدفاع عن العقيدة ، والذب عنها ، ضد البدع والشبه التي يروجها الخصوم من المعاندين والمبطلين . فهو علم دفاعي ضد هجوم المنتقدين[٧٥] .

والحقيقة أن الدفاع ليس منهجاً للعلم بل هو مجرد تقريظ وثنـاء ومدح للنفس وثلب وهجوم وتجريح للآخر . ليست مهمة العلم الدفاع أو الهجوم بل تلك مهمة المحاماة . والدفاع والهجوم كلاهما يقومان على التعصب والهـوى والمصلحة ويـدلان

(٧٤) المقاصد ص ٧ ـ ، شرح المقاصد ص ٢٠ ـ ٢١ ، ص ٢٨ ، أشرف المقاصد ص ١٧ وانـظر أيضاً « حكمة الاشراق والفينومينولوجيا » في دراسات اسلامية .

(٧٥) شرح المقاصد ١٣ ، اتحاف المريد ص ٢٥ ، التحقيق التام ص ٢ .

على نقص في العلم والموضوعية والتجرد والنزاهة والحياد . العلم تحليل عقلي للموضوعات أو وصف علمي للظواهر لإدراك الحقائق الصورية أو المادية أو رؤية للماهيات في التجارب الحية وليس تعصباً أو هوى ، دفاعاً عنها وهدماً لنقيضها . الدفاع شيء والتأسيس النظري شيء آخر . الدفاع همه دحض حجج الخصم واستخدام العقل لذلك صواباً أم خطأ . أما التأسيس فمهمته معرفة البناء النظري للعلم . الدفاع والهجوم كلاهما معارك في الهواء ، وتحويل للنضال الحقيقي من الواقع إلى الفكر خاصة إذا كانت موضوعات الجدل لا تؤثر في مجريات الأحداث المباشرة مثل خلق القرآن ، ووجود الملائكة ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، والحوض . الدفاع موقف ينم عن ضعف صاحبه ، وهجوم الخصوم يدل على قوة المعارض .وفي النهاية يرجع الفضل إلى الخصم في التحدي والمعارضة واجبار المتكلم على التفكير والإستدلال . فالخصم ليس شراً بل هو الباعث والدافع والمحرك والمنشط لذهن الأصولي المتكلم . وبالتالي يكون الخصم هو المؤسس للعلم باعتراضاته وليس المدافع عن العلم بأجوبته .

ولا يكون الدفاع عن الدين فحسب بل عن تفسير معين للدين ، ولا عن العقائد الإسلامية بل عن تصور معين لها ، وهو تصور مذهبي لفرقة خاصة هي في الغالب فرقة أهل السنة التي أصبحت ، بعد الصراع على السلطة وحسم الصراع لصالحها ، الممثلة للعقائد الرسمية للدولة ، ضد تراث المعارضة السرية مثل عقائد الشيعة أو المعارضة العلنية من الخارج مثل نظريات الخوارج أو المعارضة العلنية من الداخل مثل أصول المعتزلة . فالدفاع عن المذاهب الكلامية وعقائدها أكثر من الدفاع عن الدين نفسه . وكانت الغاية من تأليف كتب العقائد الدفاع عن عقيدة أهل السنة حتى في علم الكلام المتأخر الذي يظهر فيه العلم مستقلاً عن عقائد فرقة بعينها بادئاً بنظرية العلم ومثنياً بنظرية الوجود ، وتحويل عقائد الفرق إلى مجرد تذييل للإمامة في نهاية العلم[٧٦] . لا عجب إذن أن تكون المصنفات الكلامية في معظمها « سنية أشعرية » إلا فيما ندر دفاعاً عن فرقة بعينها هي الفرقة الناجية!

(٧٦) انظر الفصلين الثالث « نظرية العلم » والرابع « نظرية الوجود » . انظر أيضاً الخاتمة : « من الفرقة المذهبية إلى الوحدة الوطنية » .

الـدفاع عن العقـائد إذن هـو في الحقيقة دفـاع عن المـذهبيـة ، ودفـاع عن الفـرق الـدينيـة ، ودفـاع عن المـوقـع من السلطة ، سلطة الحكم أو سلطة المعـارضـة . والمـذهبيـة والتحـزب كـلاهمـا وقـوع في التعصب ، والانغـلاق ، وضيق الأفق ، والتضحية بمصالح الناس من أجل وهم إنفعالي أو مصلحـة خاصـة . لا يعني ذلك التخلي عن المعارك الفكـرية ، فهي ضـرورية للتصـديق والبرهـان ، وللحوار بـين الفرق لتوعيـة الجماهـير وخلق جو ثقـافي عام قـادر على تحـريك العقـول ، وتنشيط الأذهــان ، دون الإنـتســاب المـسبـق إلى مــذهب مـعــين حتى يـتم اسـتبـعــاد « الـدجماطيقيـة » ، ويبدأ التنـوير ، وتثـار التساؤلات ، وتـطـرح البدائـل ، ويعـاد الاختيـار ، ودون الولاء لفـرقة بعينهـا حتى يتم جمع شمـل الأمة في إطـار الـوحـدة الوطنية دون صراع على السلطة ، إعـداداً للأمـة لمرحلة قـادمة تعـود إليها وحـدتها المفقودة منذ الفتنة الأولى[٧٧] .

وغالباً ما يكون الدفاع دفـاعاً عن النفس وليس دفـاعاً عن الفكـرة ، ويكون الهجوم هجوماً على الآخر وليس هجوماً على الفكرة . وبالتالي يقضى على استقلالية الفكر وشموليته ويتحول إلى فكر متجسد في أفراد وأشخاص . وتتحـول الحجة من حجـة ضد الفكـرة إلى حجـة ضـد الشخص Argumentum Ad Hominem وهـو الشـائع في حيـاتنا الثقـافية المعـاصرة . ولمـا كان كـل فرد يمثـل مصلحة خـاصة أو مصلحة جماعة تحول علم الكلام إلى علم يكشف عن تضارب المصالح والأهـواء ، ويعبر عن القوى الإجتماعية وصراعاتها . فالجدل في نهاية الأمر تبرير نظري لصراع القوى الإجتماعية . إنقلب العلم إلى تجريح . وقد يكون ذلك أحد أسباب تسميـة علم الكـلام من « الكلم » أي « الجرح » أي التـأثير القـوي الذي يصـل إلى حـد الجرح . لذلك أُنشيء علم مستقل هـو علم آداب النظر والجـدل للتقليل من آثـار الجروح والتخفيف من المثالب والطعان على أصحاب الرأي والنظر[٧٨] .

---

(٧٧) الانصـاف ص ١٣ ؛ المقـاصـد ص ٧ ـ ١١ ، أصـول الـدين ص ٢ ؛ أنـظر أيضـاً « التـراث والتجديد » ، اعادة الاختيار بين البدائل ص ١٨ ـ ٢١ .

(٧٨) حاشية الاتحاف ص ٢٧ ، العقائد النسفية ص ١١ المعالم ص ٣ .

فإذا كان القدماء قد وجهوا كل همهم للدفاع عن العقائد القديمة فإننا نوجه جهدنا لإعادة بنائها لأنها ما زالت تعطينا تصوراتنا للعالم وتعمل كموجهات لسلوكنا المعاصر . وقد يكون بعضها سبباً من أسباب الإحتلال والتخلف ، وهما أزمتا العصر، ومعوقاً لجهودنا من أجل التحرر والتنمية . وقد يكون بعضها مانعاً من الإحتلال والتخلف ، ودافعاً للتحرر والتنمية ولكن ظل طاقة مختزنة تتجاهلها القوى العلمانية وتحجرها القوى السلفية . إذا كان القدماء قد دافعوا عن العقائد طبقاً لحاجات عصرهم فإننا نحلل الأفكار لمعرفة آثارها النفسية والإجتماعية ، وقدرتها على تحريك الجماهير طبقاً لقضيات عصرنا . كما نحلل الواقع المعاصر ونصف مكوناته الذهنية والنفسية لمعرفة حاجاته . فالدفاع عن العقيدة عند القدماء يصبح هنا تحليلاً للأفكار ووصفاً للواقع وتنمية للمجتمع ، وتغييراً للأوضاع الإجتماعية ، ودفعاً لحركة التاريخ إلى مرحلة تالية أكثر تقدماً . العقيدة باعث على السلوك ، وليست حقيقة مستقلة قائمة بذاتها إلاّ من حيث قدرتها على التغيير ، وتصوّر بناء يجد فيه الواقع ذاته بصورة أفضل وأشمل وأكمل . العقائد في المجتمعات النامية ــ وذلك لأنها مجتمعات تراثية ـ طريق للتغير الإجتماعي ووسيلة لتحقيق الأهداف القومية(٧٩) .

٣ ـ هل الجدل علم؟ والجدل ليس علماً بل هو أقرب إلى الفن منه إلى العلم . إذ يقوم على المهارة في إفحام الخصوم ، ولا يعتمد إلاّ على الجهد الفردي الخالص . هو فن يعتمد على الكلام كما تعتمد الفلسفة على المنطق . فالكلام آلة للعقائد كما أن المنطق آلة للعلوم . ومن هنا أتت تسمية علم الكلام « فن الجدل والمهاترات »(٨٠) . والغاية من الجدل إفحام الخصم وليس الوصول إلى اليقين الذي يتجاوز الخصمين معاً . غايته نفعية خالصة وليست نظرية في حين أن العلم هو العلم النظري . غايته إقناع الآخرين ليس بالضرورة عن طريق البرهان بل يمكن أن يتم ذلك عن طريق

(٧٩) انظر « التراث والنهضة الحضارية » ، « التراث والتغير الاجتماعي » ، « التراث والعمل السياسي » ، « التخطيط المستقبلي للفكر الاسلامي » في قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(٨٠) المواقف ص ٧ ، شرح المقاصد ص ١٢ ، أشرف المقاصد ص ٣ ، شرح التفتازاني ص ١١ ، حاشية الاتحاف ص ٢٧ ، التحقيق التام ص ٢ ـ ٣ .

الإيهام وأساليب الإيحاء وشتى وسائل الإقناع . الجدل مثل الخطابة ، كلاهما فن يهدف إلى التأثير على النفوس ، الأول بحضور الخصم المجادل والثاني بحضور جماهير الناس[٨١] . ولما كانت الغاية من الجدل ليس الوصول إلى الحق بل إفحام الخصم والانتصار عليه ولو كان على حق استُعملت كل أساليب الإقناع للانتصار عليه ولو كانت تقوم على الباطل . فالغاية تبرر الوسيلة . وبالتالي يصبح الجدل كل المنطق وتمحي التفرقة بين منطق الإقناع(الجدل)ومنطق البرهان (القياس) . ويتحول المنطق من علم معياري إلى علم نفعي . كما يتم الجدل على مستوى إنفعالي خالص ، ولا يستخدم العقل إلاّ للعثور على حجج لتأييد الإنفعال السابق . والحقيقة أن العلم لا يكون علماً إلاّ إذا تحول إلى نظرية ، وقام على أسس عقلية خالصة . والجدل هنا ليس هو جدل الأفكار أو جدل التصورات أو جدل التاريخ بل هو مجرد الحوار بين متخاصمين . قد يفيد في المعارك الفكرية ، في الحوار المعقود بين وجهات نظر مختلفة ولكنه لا يمكن أن يكون أساساً لعلم ، بل يكون نوعاً من توحيد الجهود النظرية للوصول إلى الحد الأدنى من الإتفاق الفكري . ليست الغاية أن يقتنع أحد المتحاورين بوجهة النظر الأخرى والتسليم بها بل إيجاد أوجه الإتفاق كأساس لوحدة فكرية وأوجه الإختلاف وجعلها أقل قدر ممكن تشير إلى الأطر النظرية العامة التي لا أثر لها في المواقف العملية . ولكن دون ذلك لا يؤدي الجدل في النهاية إلى أية نتيجة إذ لا ينهزم أحد ، ولا ينتصر أحد ، ولا يبقى إلاّ التعاند والخصام . فالغاية مجرد إظهار قدرة المجادل وضعف غريمه طلباً للمدح والثناء إما من العامة أو من السلطان[٨٢] .

---

(٨١) « وكان السلف يناظرونهم عليها (الصفات) لا على قانون كلامي بل على قول اقناعي » الملل جـ ١ ص ٤٤ . « لا يكون غرضه (المتكلم) اظهار الحق » شرح الفقه ص ٤ ؛ أنظر أيضاً « التراث والتجديد » ، النزعة الخطابية ص ١٠٨ ـ ١٢٣ .

(٨٢) « وأكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق ، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء . ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ، ورسخت في نفوسهم الاعتقادات الباطلة ، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التي نظروا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة . ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد =

كما يؤدي الجدل إلى النزاع في الحق ، والحق النظري لا نـزاع فيه . ويؤدي إلى تغلب وجهـات نظر فـردية تعبـر عن قصر نـظر أو هـوى أو مصلحة عـلى الحق الـواحد المجـرد الشامـل . وبكثرة الجـدل تتعدد الحقـائق وتضيع وحـدتهـا كمبـدأ مسبق ، كبديهية ومسلمة ، ويكون كل شيء فيه قولان كما هو الحال في الفقـه وكما نسخـر في حياتنـا اليوميـة عنـدمـا نضـرب المثـل بضيـاع الحق من خـلال تضـارب الأقوال(٨٣) . لا يُدافع عن الحق بالجدل . فالحق لا يُدافع عنـه بل يُعـرض ويُحلل عقلاً وواقعاً ببيان أسسه العقلية والواقعية . الحق فكرة بـديهية أو تجـربة إنسـانية أو مشاهدة حسية لا خلاف عليها . وكثيراً ما يتحول الجـدل إلى مهاتـرات خالصـة ، يتحدث المجادل وخصمه في الكل ولا شيء بلا تحديد للألفاظ أو بحث عن المعاني أو إشارة إلى الأشياء ، ويصبح الحوار بين صم ، لا يسمع أحدهما ما يقول الآخر . المتكلمون يتكلمون ، ويفهم الواحد نصف ما يقوله الآخر فهما خاطئا . يُسقط ما لا يريد ، ويزيد على ما يريد ، ويحوّر ما يفهم حتى يتفق مع مقالـه ، فلا يفهـم إلا مـا يـريد ، ولا يـدرك إلاّ ما يفيـده في الرد عـلى الخصوم . وكثيـراً ما يـأتي الـرد قبـل الفهم ، وبالتالي ينتهي الجـدل إلى حوار بـين الذات ونفسهـا وكأنـه حديث النفس بصوت عال لا يسمعه إلاّ صاحبـه أو كمن يصدر أصـواتاً ولا يتلقى إلاّ صـداها . وإذا كان الجدل يهدف إلى إفحام الخصم والقضاء على البدع فإنـه يؤدي إلى عكس ما قصد إليه . فالرد على البـدع نشر لهـا ، وتعريف بهـا . بعدهـا تقوى البـدعة ، ويتحمس الناس لها(٨٤) . لذلك كان التوقف عن الحكم أولاً ثم عـدم الدخـول في

= والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقـاد مستقراً في قلب مجنـون فضلاً عمن لـه قلب عاقـل . والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له . فليحترز المتـدين منه جهـده ، وليترك الحقـد والضغينة ، وينـظر إلى كافـة خلق الله بعين الـرحمة . وليستعن بـالـرفق واللطف في ارشـاد من ضـل من هـذه الأمة . وليتحفظ من الذكر الذي يحرك داعية الضلال . وليتحقق أن مهيج داعيـة الاصرار بـالعناد والتعصب معين على الاصرار على البدعة ومطالب بعهده اعانته في القيامة » الاقتصاد ص ٩ .

(٨٣) كان أبو حنيفة يكره الجـدل على سبيـل الحق وكان يقـول « المنازعـة في الدين بـدعة » شـرح الفقه ص ٤ ؛ « وهو أكثر العلوم خلافاً» شرح التفتازاني ص ١١ ؛ ويقـال انه سمي علم الكـلام لكثرة كلام الخصوم فيه حاشية الاتحاف ص ٢٧ .

(٨٤) هجر أحمد بن حنبل الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعـه بسبب تصنيفه كتـاباً في الـرد على =

علم الكلام ثانياً وسيلة للقضاء على البدعة .

وقد أدرك القدماء أن الجدل يقوم على مسلمات خاطئة . إذ يدافع الجدلي عن معتقداته على أنها مسلمات دون أن يبحثها سلفاً ، ويثبت صدقها . الجدل بهذا المعنى تعصب وهوى . بل لا ضير أن يسلم الجدلي بمقدمات الخصم حتى ولو كانت خاطئة ما دام الغرض من ذلك هو إفحامه أو على معاندة الخصم وذلك بإنكار ما للخصم من مسلمات حتى ولو كانت سليمة . فكما أن الجدل تشبث بالباطل قد يكون أيضاً إنكاراً للحق . لذلك وصفت الفرق الكلامية المختلفة بأنها « أهل الأهواء » ، وتاريخ الفرق بأنه تاريخ « الهوى » ، والهوى يقود إلى الضلالة(٨٥) . وقد تحتوي بعض المقدمات الإيمانية أحياناً على بيان المناهج الجدلية التي يستعملها المتكلم في عرض موضوعاته وإثباتها والبرهنة عليها . وهي مناهج تجمع بين المنطق والأصول والجدل وأهمها :

أ - السبر والتقسيم . وهو حصر الأمور في قسمين ، وعندما يبطل أحدهما يلزم ثبوت الآخر . وهو مستعمل أحياناً في مناهج البحث عن العلة في علم أصول الفقه(٨٦) . وهو منهج ظني خالص ، ولا يوصل إلى اليقين لأسباب عديدة منها . أولاً ، ما الضامن على أن الحصر تام وليس ناقصاً ؟ ما السبب في أن الأمور تنحصر في قسمين اثنين وليس في ثلاثة أو في أربعة ؟ إن القسمة الثنائية ما هي إلا تعبير عن عاطفة دينية في الحق والباطل ، والخطأ والصواب ، ثم يأخذ المتكلم جانب الصواب ويضع الخصم في جانب الخطأ . وإذا كانت القسمة مستفادة من علم آخر

= المبتدعة وقال :« ألست تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في الشبهة فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث والفتنة » شرح الفقه ص ٥ .

(٨٥) يجعل الغزالي معتقدات الخصم جزءاً من مدارك العلوم مع الحسيات والعقل والتواتر والقياس والسمعيات فيقول « أن يكون الأصل مأخوذاً من معتقدات الخصم ومسلماته . فإنه وإن لم يقم لنا عليه دليل أو لم يكن حسياً ولا عقلياً انتفعنا باتخاذه إياه أصلاً في قياسنا وامتنع عليه الانكار الهادم لمذهبه . . . وأما مسلمات المذهب فلا تنفع الناظر ، وإنما تنفع الناظر مع من يعتقد ذلك المذهب » الاقتصاد ص ١٤ - ١٥ .

(٨٦) الاقتصاد ص ١١ .

فما صحة هذا العلم ؟ وما هي هذه المقدمات ؟ المقدمات إذن ما هي إلاّ افتراضات مسبقة لم يبرهن عليها بل يتم التسليم بها . ثانياً ، لا بد من ترتيب المقدمات على شرط مخصوص وأن يندرج الفرع تحت الأصل إستيفاء لشرط الإستغراق . فإن لم يكن الفرع مستغرقاً في الأصل استحالت النتيجة . وفي حالة وجود نتيجة فإنها تكون متضمنة من قبل في المقدمات ، ويصبح الإستدلال عقيماً . ثالثاً ، ما الدليل على بطلان دعوى الخصم ؟ يحتاج المتكلم إذن إلى منهج آخر لإثبات بطلان هذه الدعوى . لماذا يثبت مقدماً أن دعوى الخصم باطلة ، ودعوى المتكلم صحيحة ؟ قد تكون دعوى المتكلم باطلة ودعوى الخصم صحيحة خاصة وأن علم الكلام ما هو إلاّ محاولات للعثور على أسس عقلية للعقائد ، وهي كلها محاولات إجتهادية تخطىء وتصيب . وماذا يحدث لو كانت دعوى الخصم باطلة من وجه وحق من وجه آخر ؟ وما السبب في تصنيف الدعاوى بين الكل أو لا شيء . وكيف يعتمد المتكلم على دعوى الخصم وقد تكون باطلة ولا سبيل إلى التحقق من صحتها ؟ رابعاً ، إن بطلان دعوى الخصم لا يستلزم بالضرورة صدق دعوى المتكلم لأن هذا إثبات الشيء عن طريق نفي الدعوى المضادة . والإثبات عن طريق النفي لا يثبت إلاّ نفي الضد ولكن لا يثبت الشيء المراد إثباته . لذلك كان « اللاهوت السلبي » La Théologie négative عن طريق نفي الضد هو السائد على « اللاهوت الإيجابي » La Théologie positive . خامساً ، إذا كان لا بد أن يقوم الخصم بالتسليم بالفرع حتى يثبت الأصل فما العمل إذا لم يسلم الخصم ؟ السبر والتقسيم إذن منهج جدلي لا يثبت شيئاً يقينياً ولا يمكن أن يكون منهجاً للعلم .

ب ـ ترتيب أصلين تلزم عنهما نتيجة ، فإذا سلم الخصم بالمقدمتين سلم بالنتيجة[٨٧] . وهذا المنهج أيضاً لا يثبت شيئاً لأسباب عديدة منها . أولاً ، ما الدليل على صحة المقدمتين ؟ هنا تبدو مقدمات علم الكلام وكأنها أحكام مسبقة أو بديهيات . فإذا كانت أحكاماً مسبقة فإنه يمكن للخصم رفضها بسهولة . وما دام علم الكلام يقوم على أحكام مسبقة فإنه لا يكون علماً . وإن كانت بديهيات ،

---

(٨٧) الاقتصاد ص ١١ .

فالبديهيات ليس لها خصوم . ثانياً ، إن النتيجة الثالثة التي تلزم من المقدمتين إن سلم بها الخصم لا تكون نتيجة لأنها متضمنة في إحدى المقدمتين أو في كلتيهما . ومن ثم لا يكون علم الكلام علماً منتجاً لأنه مبني على قياسات غير منتجة ، ويكون علماً عقيماً قائماً على قياسات عقيمة . وإن رفضها الخصم فذلك يدل على أن القياس كله لا يؤدي إلى الإقناع . ثالثاً ، يستطيع الخصم أن يتبع نفس المنهج كما يستطيع أي مجادل إتباعه إذ يعرض الخصم مقدمتين إذا سلم بهما المتكلم لزمت منهما نتيجة معارضة له . فهو سلاح ذو حدين يمكن استعماله في الحق والباطل معاً .

جـ ـ اثبات إستحالة دعوى الخصم لأنها تفضي إلى المحال ، وبالتالي تثبت دعوى المتكلم[٨٨] . وهذا المنهج أيضاً لا يؤدي إلى شيء لأنه أولاً قائم على منهج آخر يثبت به استحالة دعوى الخصم ، وثانياً لأن الخصم يستطيع أن يطبق نفس المنهج بإثبات استحالة دعوى المتكلم ، ومن ثم تثبت دعواه ، وتكون النتيجة إثبات دعويَيْن متناقضتين كلتاهما صحيحة جدلاً . ثالثاً إن إثبات استحالة دعوى لا تثبت إمكان دعوى أخرى لأن الإثبات بنفي العكس ليس إثباتاً بالدليل بل بوجود الدليل على نفي الضد وليس بوجود دليل على الإثبات .

ومن الممكن صياغة منهج للجدل من خلال المصنفات الكلامية خاصة الجدلية منها ، ويكون ذلك أقرب إلى منطق الكلام منه إلى علم الكلام[٨٩] . وقد استطاع علماء الكلام تأسيس منطق جدلي للدفاع عن النفس وتفنيد حجج الخصوم حتى أصبح علم الكلام كله علماً للجدل . فإن لم يبق شيء كمادة للعلم فعلى الأقل فإن صورة العلم وهو منطق الجدل باقية . لم يترك علماء الكلام رسائل في الجدل مستقلة عن المادة الكلامية كما أنهم لم يضعوا قواعد للجدل يمكن تطبيقها . ومع ذلك نجد منطق الجدل متناثراً داخل المادة الكلامية يمكن استخلاصه وتصنيفه وتبويبه كنوع من تحليل « المقال » الكلامي إبتداء من « قواعد » الخطاب . ويمكن

(٨٨) الاقتصاد ص ١١ .

(٨٩) يتضح ذلك في رد الخياط على ابن الراوندي في « الانتصار » .

تصنيف أبواب هذا المنطق في أقسام رئيسية ثلاثة[٩٠] :

أ ـ مناهج النقل أو طرق الرواية ، ومهمتها نقد النصوص المنقولة ، وتحديد مدى صحتها ، ونسبة يقينها خاصة فيما يتعلق بالحديث ويشمل : نقد الرواية وصحة نسبتها إلى المتكلم ، مواجهة نص بنص آخر مساو له أو أقوى منه ، مقابلة الإجماع على نص باجماع آخر مساوٍ له أو أقوى منه ، الاتفاق مع التصور الديني العام دون اللجوء إلى نص معين ، تحريف نقل رواية المتكلم عن قصد من أجل الكذب المتعمد والتشويه إما بالنقص أو الزيادة أو التحريف بنقل الألفاظ وتبديلها لإفساد المعنى .

ب ـ فهم الروايات وتأويل النصوص ، فلا يوجد خبر خالص إلاّ بفهم وتأويل . وبالتالي يمكن تصحيح خطأ فهم الخصم واعطاء الفهم الصحيح ، التفرقة بين الجزء والكل وأن ما يقال على الجزء لا يقال على الكل ، وما يقال على الكل لا يقال على الجزء ، تحديد مستوى التحليل هل هو إلهيات أم طبيعيات أم إنسانيات ، التفرقة بين مفهومين ثم الخلط بينهما مثل الإضطرار والطبيعة فكون الأشياء تسير وفقاً لطبيعتها لا تعني أن « المؤلّه » مضطر لمسايرتها ، تحويل الموقف الشخصي إلى موقف عام للمذهب ، إثبات الفكرة والدفاع عنها ، والإبقاء على تعارض وجهات النظر .

جـ ـ تفنيد مواقف الخصم إبتداء من تحليل شعوره ، وارجاع موضوعية الفكرة إلى ذاتية القائل بها ، وإعلان أن هذه الفكرة المنقودة قد تاب عنها صاحبها وأنها لا تمثل مذهبه ومن ثم إدخال بُعد التطور الفكري للمتكلم ، وضرورة نسبة أقواله إليه طبقاً لمراحل تطوره الفكري ، دفع النقد بأنه تشنيع وليس نقداً علمياً أي تحويل موضوعية النقد إلى ذاتية الناقد ، إيقاع الخصم فيما ينقده ، وباختصار تحويل عقائد المتكلم إلى سلوك شخصي وبناء للشعور وإدخالها في دائرة البواعث والدوافع والمقاصد والأهداف .

---

(٩٠) تم تصنيف منطق الجدل في هذه الأقسام الثلاثة طبقاً لأنواع الشعور الثلاثة : التاريخي واللغوي والعملي التي عرضنا لها في رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse .

والجـدل لا يكون منهجـاً لعلم يقيني بـل لعلم ظني محض لأنه لا يـوصل إلاَّ للظن . فـالجدل طـريق ظني لا يوصـل إلى اليقين . لـذلـك وضعـه المنـاطقـة مـع السفسطة والخطابة والشعر منطقاً للظن ، وأخـرجوه من منـطق اليقين . لم يستـطع علم الكلام أن يكون علماً « منحى عن غياهب الشكوك وظلمـات الأوهام » ، بـل كان كل ما انتهى إليه من قبيـل الظن ، والـظن لا يغني من الحق شيئاً . والعلم لا يكـون علما إلا إذا كـان علماً يقينياً مـوصلاً إلى اليقـين على الأقـل من ناحيـة المنهج وليس من نـاحية النتـائـج . وبهـذا المعنى تكـون علوم التصـوف أكـثر استحقـاقـاً لتسميتها بالعلم لأنها ــ عـلى حد قـول الصوفيـة ــ تؤدي إلى اليقين وإن كـان يقيناً ذوقياً يقوم على الكشف الخالص . ومع ذلك ، يرى القدماء أن مهمة علم الكـلام هـو تحـويـل الإيمـان إلى يقـين ، والاستـدلال عليهـا من الأدلـة اليقينيـة من أجـل التصديق . بل إن علم الكلام سمي كذلـك لأنه هـو « الكلام » دون سـائر فنـون الكـلام لأنه هـو الكلام الأقـوى والأيقن ودونه الأضعف والأظن[٩١] ! ولا يـوجـد الظن ــ عند القدماء ــ إلا في العمليات أي الفقه أما النظر فليس فيـه إلاَّ اليقين . والحقيقة أن العمل هو الأولى باليقين من النظر ، وأن النظر أولى بالـظن من العمل فالأطر النظرية لا يمكن الإتفاق عليها بـين الناس في حـين أن الإتفاق عـلى برنـامج عمل موحد ممكن . والأمثل بطبيعة الحال هو اليقين في النظر وفي العمل على السواء فغياب اليقيـن من العمل ، إن حدث ، يكون أيضاً نقصاً في النظر نفسـه لأن النظر اليقيني يؤدي بالضـرورة إلى عمل يقيني . يحـدث الظن في العمـل نتيجة لارتبـاط العمـل بموقف معـين في زمان ومكـان محددين ومن ثم وجب التفسـير والاجتهـاد ، ووجب التعـين والتخصص . وهذا طبيعي ، ولا يخـرج على اليقـين ، ولكنه يقـين التاريخ والممارسة وليس يقين النظر . وفي النهـاية إذا كـان الجدل يؤدي إلى الـظن ويتأسس السلوك على الـظن فإن الجـدل يؤدي إلى السلوك الظنّي ويمحي اليقـين في الأخلاق[٩٢] . وإذا كانت الغاية من علم الكلام تأسيس العقائد على يقين فإنه قـد

---

(٩١) أنظر سابقاً في هذا الفصل ٢ ـ حدُّه .

(٩٢) « وفي منازعتهم ومجادلتهم ولـو كان عـلى الحق لانجراره غـالباً إلى مخـاصمتهم المؤدية إلى الأخـلاق الفاسدة والأحوال الكاسدة » شرح الفقـه ص ٤ ؛ وهناك قصص أخـرى في ذم الجدل في المواقف =

قام بعكس غرضه وأسسها على ظن خالص . بل إن البدعة التي يود علم الكلام نقضها هي التي تتحول إلى يقين بالعجز عن الرد عليها أو بالرد عليها ظناً . وبالتالي يؤدي علم الكلام عن طريق الجدل إلى عكس ما يرمي إليه ، يؤدي إلى تحويل عقائده إلى ظن وعقائد الخصم إلى يقين(٩٣) . وإذا كانت الغاية تأسيس الإيمان على يقين فإن علم الكلام قد انتهى إلى تأسيسه لا على الظن فقط بل على التقليد أيضاً ، تقليد أهل السنة والدفاع عن عقائدهم مع أن التقليد مرفوض في نظرية العلم التي وضعها علم أصول الدين ذاته(٩٤) . وبالإضافة إلى الظن والتقليد أدى علم الكلام إلى الشك والتردد وإلى التعصب والجزم وهما طرفا نقيض . فالشك والتردد مضيعة لليقين النظري ، والتعصب والجزم مضيعة للعقل والبرهان ، وكأن البحث عن اليقين قد انتهى إلى مضادات اليقين : الظن ، والتقليد ، والشك ، والتعصب. وإذا كانت الغاية من علم الكلام إعطاء الأسس النظرية للعقائد فإنه لم يعطنا أساساً نظرياً واحداً متفقاً عليه حتى يمكن إقامة السلوك عليه . وكيف تكون الأسس اليقينية متضاربة، ومختلفاً عليها، وتحتوي على الأساس وضده؟ وكيف يحدث الخطأ في اليقين، ومنها الأساس، والعمل كله قائم عليه، والقائم على الخطأ خطأ؟(٩٥) .

بالرغم من اتفاق القدماء على أن علم الكلام علم بمقاييس عصرهم وطبقاً لظروفه وحاجاته إلاّ أنه في الحقيقة ليس علماً بمقاييس عصرنا ولا طبقاً لظروفه وحاجاته . فكل عمل للعقل في النص لديهم كان علماً . وكل عرض للوحي عرضاً

= ص ٣١ ؛ أنظر أيضاً مقدمة السيوطي في « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » وكذلك الغزالي في « الجام العوام عن علم الكلام » .

(٩٣) « فأما مضرته فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وازالتها عن الجزم والتصميم . وذلك مما يحصل بالابتداء ورجوعه بالدليل المشكوك فيه . وتختلف فيه الأشخاص . فهذا ضرورة في اعتقاد المحق . وله ضرر في تأكيد اعتقاد المبتدعة وتثبيتها في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه . ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور في الجدل » شرح الفقه ص ٤ ؛ « ومنه أنه يؤدي إلى الشك وإلى التردد فيصير زنديقاً بعد أن كان صديقاً » شرح الفقه ص ٥ .

(٩٤) المواقف ص ٨ ، رسالة التوحيد ص ٢٣ .

(٩٥) المواقف ص ٨ ، الفقه الأكبر ص ٤ ، ص ٧ ، ص ٩ ـ ١٠ .

نظرياً كان علماً حتى اتسع نطاق العلم ، وشمل كل جهد عقلي في النص . في حين أن العلم لدينا وصف للظواهر ، وتحليل للتجارب ، وأن النص بالنسبة لنا هو أحد مصادر المعرفة أما العلم فإنه علم بالواقع بعد عمل العقل والحس فيه . النص هو وسيلة للعلم وليس موضوعاً للعلم ، إلا في نظرية التفسير(٩٦) . إن العلم لا يكون علماً إلاّ إذا كان له على الأقل موضوع ومنهج ، وعلم الكلام على هذا النحو الذي وصفنا لا موضوع ولا منهج له .

سادساً : مرتبته :

١ - من حيث الموضوع: يضع القدماء علم الكلام في أعلى الدرجات. فهو أشرف العلوم من حيث الموضوع والمنهج والفائدة والغاية(٩٧) . هو أشرف العلوم من حيث الموضوع لأنه يتناول أشرف الموضوعات وهو «ذات الله وصفاته وأفعاله»(٩٨) والحقيقة أنه ليس هناك علم « أشرف » من علم آخر . فالعلوم كلها على مستوى واحد لأن الموضوعات كلها على مستوى واحد لا تفاضل بينها في الشرف أو القيمة . علم النبات ليس أشرف من علم الحشرات ، وعلم الحيوان ليس أشرف من علم النبات ، والعلوم الإنسانية ليست أشرف من العلوم الطبيعية ، والعلوم الإلهية ليست أفضل من العلوم الإنسانية . وتعبر ألفاظ « أشرف » و « أفضل » عن أحكام قيمة وليس عن أحكام واقع ، كما تعبر عن إسقاط من الإنسان على الواقع وليس عن الواقع ذاته . إن موضوعات الطبيعة لا تتفاوت فيما بينها شرفاً وكمالا بل يقع التفاوت في أعمال الإنسان(٩٩) . وإذا كان لموضوع الذات شرف فهو أنه أول

---

(٩٦) هذا هو موضوع القسم الثالث من « التراث والتجديد » عن « نظرية التفسير » وقد كان موضوع رسائلنا الثلاث Les Méthodes d'Exégèse, L'Exégèse de la Phénoménologie, La Phénoméno- logie de L'Exégèse . انظر « التراث والتجديد » ص ٢١٣ - ٢١٦ .

(٩٧) المقاصد ص ١٧ ، شرح التفتازاني ص ١٤ ، المواقف ص ٨ ، وسيلة العبيد ص ٣ - ٤ .

(٩٨) غاية المرام ص ٤ ، المواقف ص ٤ ، أشرف المقاصد ص ٣ ، الخلاصة ص ٢ ، اتحاف المريد ص ٢٨ ، تحفة المريد ص ١٢ ، القول المفيد ص ٤ ، الحصون الحميدية ص ٥ .

(٩٩) ويشير إلى ذلك القرآن بقوله « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (٦٧ : ٣) بالرغم مما قد يوحي به المعنى من أن التفاوت هنا هو الاختلال في النسب والمقادير والموازين وهو المعنى التقليدي والموجود في آية « انا كل شيء خلقناه بقدر » (٥٤ : ٤٩) .

حقيقة يقينية يبدأ منها الإنسان وهي ذاته وصفاتها وفي مقدمتها الفكر ، فهي ذات مفكرة ، وأفعالها وأولها التغيير والتطوير فهي ذات فاعلة ، أي أن الحقيقة اليقينية الأولى التي يضعها العلم ويبدأ منها هي أن الإنسان نظر وعمل ، وأن الذات فكر وسلوك . وشرف الذات ناتج عن كونها خالصة متعالية مفارقة تشير إلى مستوى لا مادي مثل المعيار في المنطق .فالخالص أساس الشائب ، والصوريّ مقياس المادي . ومن ثم كان علم أصول الدين علماً معيارياً ، نظرياً صورياً خالصاً ، على أساسه يمكن إقامة علوم الطبيعة وعلوم الإنسان . يتميز الموضوع إذن بكل خصائص العلم المجرد مثل الشمول والعلو . موضوع العلم هو الشامل لا المتعين ، والعام لا الخاص ، والمتعالي لا الطبيعي الذي لا يفارق مادته . شرف الموضوع في أنه المبدأ العام الذي ينتسب إليه الإنسان نظراً وعملاً ، وهو ذاته التي تصل إلى حد الإطلاق عند تحقيق رسالتها، وحين تمتدوتنتشر وتحتوي العالم داخلها فتتحول إلى مطلق .

ويضع علم الكلام ذات الرسول مع ذات الله ، كلاهما موضوعان شريفان . وبالرغم مما في هذا الوضع من نقص في التنزيه للذات الإلّهية ومساواتها على نفس درجة الشرف لذات النبي فإن الذوات الإنسانية لا تتفاضل أيضاً فيما بينها . فلا توجد ذات إنسانية أشرف من ذات إنسانية أخرى حتى ولو كانت ذات النبي . الكل بشر ، يتمثل نفس الأساس النظري ، ويحققه بنفس أنماط السلوك . وليس للنبي وظيفة زائدة على وظائف سائر البشر إلاَّ التبليغ الذي يمكن أن يقوم به أي إنسان . أما صلة النبي كمبلغ بمصدر الرسالة فهو خارج نطاق العلم وأدخل في نظرية النبوة والاتصال في علوم الحكمة .

وإذا نظرنا إلى نتائج العلم التي انتهى إليها في أشرف الموضوعات ، وهي الذات الإلّهية والذات النبوية لوجدنا أنها لا تليق بها . فقد حدث تأليه للأشخاص عند غلاة الشيعة كما ظهر تجسيم للذات في عموم الشيعة . كما حدث تشبيه عند أهل السنة ، ولم يظهر التنزيه إلا عند المعتزلة . وبالرغم من أن هذا التنزيه أيضاً هو تجريد إنساني عال ، وإطلاق للصفات الإنسانية إلى أقصى حد إلاَّ أنهم لم يقدر

لآرائهم الاستمرار والبقاء بعد انتصار « الأشعرية » كعقيدة رسمية للدولة . حتى هذا التنزيه الإعتزالي قائم على قدر من التشخيص للذات الإلهية وتصورها على أنها ذات إنسانية لها صفات وأفعال . فما أملنا فيه ، ورغبنا في تحقيقه ولم نستطع جعلناه صفاتٍ إيجابية للذات الإلهية ، وما تصورناأنه نقص وعيب فينا نفيناه عن الذات الإلهية . وما عجزنا عن التعبير عنه قسناه على أنفسنا(١٠٠) . ومن ثم انتهى الحديث عن أشرف الموضوعات إلى حديث الإنسان عن نفسه ورجعنا إلى الموضوع الطبيعي .

وبالإضافة إلى هذا الانتقاص من شأن أشرف الموضوعات بتأليه الأشخاص وتأليه الطبيعة ، والتجسيم والتشبيه والتشخيص ، وهي كلها أخطاء في تصور الألوهية يتدخل أشرف الموضوعات في الحياة الإنسانية ليقضي على كيانها واستقلالها . ففي أفعال الإنسان أدى تصور أشرف الموضوعات إلى القول بالجبر أو بالكسب الذي لا يختلف كثيراً عن الجبر ، ووضعت الحرية الإنسانية موضع الشك . كما أدى في تصور العقل إلى إنكار استقلاله وقدرته على فهم الظواهر ، وجعله تابعاً مبرراً لا بادئاً وناقداً . أدى أشرف الموضوعات إلى إثبات أولوية النقل ، كلام الله ، على العقل وهو كلام الإنسان وفهمه وإدراكه . كما كان من الضروري جعل أشرف الموضوعات مسؤولاً عن الخير والشر معاً في العالم ، وليست مسؤولية الأوضاع الإجتماعية وممارسة الأفراد لحرياتهم . وفي الطبيعة كان من الضروري السماح لأشرف الموضوعات بالتدخل بإرادته المشخصة في سير قوانين الطبيعة وإنكار ثبوتها وإطرادها مما يفسح المجال للأسطورة والخرافة . وفي عمل الإنسان كان من الطبيعي لأشرف الموضوعات أن يرعى الإنسان برحمته ويرجىء عمله عن إيمانه ، وأن يعفو ، وأن يغفر ، وأن يتوب على الناس معطياً الأولوية للإيمان على العمل . ومن ثم خرج الفعل من الإيمان ، وتحول الإيمان إلى إيمان العجائز والضعفاء . وتُرك الفعل الإنساني حتى يفعل الحاكم ما يشاء . وفي السياسة كان من الطبيعي أن يُعيّن أشرف الموضوعات الحاكم ، وأن يطالب الناس

(١٠٠) أنظر الفصلين الرابع « الوعي الخالص » ، والخامس « الانسان الكامل ».

بـالطاعـة والـولاء الـدائم للسلطة القـائمـة عـلى الحق الإلَهي وليس عـلى الاختيـار الإنساني أو العقد الإجتماعي الذي يمكن أن يُفسخ إذا ما خـرج الحاكم عـلى بنوده وشروطه ، وأصبح الحاكم هو المنقذ والمخلص وليس فعل الإنسان وجهـده ورقابتـه على ما يدور حوله وأمامه . صحيح أنه كانت هناك إتجاهـات معارضـة تنكر التـأليه والتشبيـه والتشخيص ، وتؤ ول ذلك كله عـلى أنه مجـاز ، وتثبت حريـة الأفعـال ، وتؤكـد أولويـة العقل عـلى النقـل ، وتجعـل الإنسـان مسؤ ولاً عن الخـير والشـر ، والعمل معبّراً عن الإيمان ، وترى في الطبيعة كموناً وقوانين ثابتة وطبائع الأشيـاء ، وتجعل من مستقبل الإنسان أملاً إنسانياً ونزوعاً نحو الكمال وليس تشخيصـاً لعوالم متخيلة تلعب فيها الذات المشخصـة الدور الرئيسي ، وتصر عـلى الشورى والبيعـة كـأساس للحكم . ولكن هـذه الإتجاهـات ما دامت منقـوضـة بـإتجاهـات أخـرى معارضة فإنها تكون مجرد وجهات نظر لأصحابها إن لم توصف بالخروج عـلى التقليد والإجماع ، وإن لم تتهم بالإلحاد والكفر . فأصبح الخـطأ بديـلاً عن الصواب ، والباطل اختياراً أمام الحق . وقد يتهرب الجميع عن الحق والصواب ، نظراً وعملاً ، بدعوى أن فيهما «قولان» .

٢ ـ **من حيث المنهج**: وإذا كان الشرف من ناحية المنهج ، فالمناهج كلها على مستوى واحد من الشرف . كل منهج له موضوعه ، وكل موضوع له منهجه . ويكون الخطأ في المنهج أساساً باستعمال منهج غير ملائم لموضوعه . فالموضوع التجريبي الحسي يلائمه منهج إستقرائي . والموضوع العقلي الصوري يـلائمه منهـج إستنباطي . والمـوضوع الإنساني الشعوري يلائمه منهج إستبطاني يقوم على تحليل الظواهر الشعوريـة . ولما كانت موضوعات علم الكلام قد عرضها القدمـاء على أنها مـوضوعـات عقلية فقـد استعمل المنهج العقلي في دراستها وفهمها دون المناهج الإستقرائية أو الشعورية . في حـين أن العقائـد الإسلاميـة موجهـات للسلوك تفعل في النـاس ، وتؤثر في مجـرى حياتهم . ومن ثم لزمت المناهج الإستقرائية الإحصائية لمعرفة هـذا الجانب العمـلي من العقائد ، وضرورة الحاق المناهج الإجتماعية بالمناهج العقلية . كـما أن العقائـد الإسلامية تجارب إنسانية عامـة يمكن التحقق من معانيهـا عن طريق تحليـل وإدراك دلالاتها . ومن ثم يمكن الحاق مناهج التحليـل الشعوري بـالمناهـج العقلية النقليـة

التقليدية . وليس هناك منهج أشرف من منهج ، فالمناهج كلها على مستوى الشرف على حد سواء .

ولكن السؤال هو : هل استطاع علم الكلام اعتماداً على المناهج العقلية التي مارسها القدماء الوصول إلى الأسس النظرية للعقائد أي إلى أصول الدين ؟ هل كان استعمال العلم للعقل استعمالاً برهانياً أم استعمالاً جدلياً ؟ هل استطاع العقل أن يوصلنا إلى اليقين أم أنه لم يتجاوز حدود الظن ؟ هل استعمل العقل استعمالاً مستقلاً أم أنه كان قائماً على النقل ؟ الحقيقة أن علم الكلام لم يعطنا إلاّ أسساً ظنية للعقائد بدليل اختلافها وتضاربها ، وكلها تدعي اليقين والصواب[(١٠١)] . صحيح أن علم الكلام حاول العثور على أسس نظرية للعقائد ، وتحويل الإيمان إلى تعقل ، والنص الديني إلى معنى مستقل قائم بذاته ، وتأسيس التوحيد ذاته على العقل وتحويله إلى علم نظري[(١٠٢)] . ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ تضاربت الأسس العقلية وتشعبت الآراء حتى أنه ليستحيل معرفة أي أساس نظري هو أساس الدين ، وحتى أنه يصعب التعرف على « أصول الدين » . ضاع الحق وسط الآراء ، ولم يعد هناك تصور واحد بل تصورات عديدة ، كل منها يدعي أنه أولى بالتمثل والاعتقاد . وكلما وجد الإنسان هواه مع أحدها انتسب إليها ، والحق معه ما دام يجد في النص أو في الرأي سنداً له . فالذي هواه مع التجسيم ينتسب إلى التجسيم ، والذي هواه مع الجبر يكون جبرياً . . . الخ . علم الكلام إذن هو تاريخ الأهواء والأغراض والمصالح أكثر منه تاريخاً للعقل ، ثم ورّث الهوى العداوة والبغضاء في النفوس ، وضاعت وحدة العقل في تكثر الأهواء ، وتلاشت وحدة الوحي في تضارب الرغبات والمصالح[(١٠٣)] . إن العقل بامكانه تنظير كل شيء ،

---

(١٠١) طوالع الأنوار ص ٥ ، مطالع الأنوار ص ٢ - ٣ ص ٦ ، شرح المواقف ص ٢ ، شرح المقاصد ص ٣

(١٠٢) رسالة التوحيد ص ٥ .

(١٠٣) يقول الشافعي « لو علم الناس ما في هذا الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد » شرح الفقه ص ٤ . ويورد الايجي خمس فوائد لعلم الكلام لم تتحقق بل نتج عكسها وهي :

أ - « الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الايقان » وقد انتهى العلم إلى تقليد عقائد السلف .

وإن شئنا تبرير كل شيء . هـو آلة يمكن استخـدامها في كـل اتجاه . فيمكن إيجـاد براهين عـلى التوحيـد كما يمكن إيجـاد براهـين أخرى عـلى التثليث(١٠٤) ، العقل في معظم الأحيان تابع للشعور أو محلل لمضمونه . قد تكون هذه طبيعـة العقل أو قـد يكون هذا هو أسلوب استخدامه أو قد يرجع ذلك إلى مستوى النضج الحضاري أو البلوغ الفكري ، ولكن هذا هو وضع العقل داخل « اللاهوت » أياً كان . فـما من دليـل عقلي إلا ويمكن نقضـه حتى الأدلة عـلى التوحيـد(١٠٥) . وما من بـرهـان إلاّ ويمكن الإتيـان بنقيضه ، ولا يكـون العيب في الموضـوع مثل التـوحيد بـل في أدلـة العقل وبراهينه . وتكون نهاية العقل المستخدم لإثبات قضايا الإيمـان الوصـول إلى ما بدأ منه وكأن العقل لم يفعل أكثر من تكرار ذاته مرة في البداية ومرة في النهايـة . عمل العقل في علم الكلام إذن تحصيل حاصل ، ونتائجه نتيجـة لاستعمال العقـل أيضاً تحصيل حاصل . لم يأت بجديـد بالنسبـة لعقائـد الإيمان ، ولم يـزد شيئاً عـما حوته النصوص . بل إنه أحياناً قال أقل مما قالته النصوص لأنه قاله معاباً ، مهلهلاً منقوضاً عقلاً في حين أن النصوص قد عبّرت عنه في اتسـاق وبشعر وبلغـة إنسانيـة يفهمها كل الناس . قضى علم الكلام على بساطة الوحي ووضوحه ، وقدم عوضاً

= ب ـ « ارشاد المسترشدين بايضاح الحجة والزام المعاندين باقامة الحجة » . وقد انتهى العلم الى الخلط والتشويش ونشر البدع ، ولم يوضح حجة الا ولها حجة مضـادة ، ولم يلزم المعانـدين بل زاد الخصوم .

جـ ـ « حفظ قواعد الدين عن أن تزلها شبه المبطلين » ، وانتهى العلم إلى تحويـل العقائـد إلى ظنيات خالصة لكثرة التنازع حولها ، وتضارب الآراء فيها .

د ـ « أن تُبنى عليه العلوم الشرعية فانه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها » ويستحيل اقامة العمل على الظن أو السلوك على التضارب والاختلاف .

هـ ـ « صحة النية والاعتقاد إذ بها يُرجى قبول العمل ، دعاة ذلك كله الفوز بسعـادة الدارين » وقـد انتهى العلم إلى تدخـل الأهواء والمصـالح ، وخسـارة الأمة ، وضيـاع التوحيـد فكـراً وواقعاً المواقف ص ٨ .

(١٠٤) أنظـر مثلاً كتـاب « التثليث » للقديس أوغسـطين . وقد حـاول المتكلمون القيـام بذلـك ابرازاً للمهارة العقلية .

(١٠٥) هذا ما فعله ابن رشد في « مناهج الأدلة » ونقد أدلة الأشاعرة خـاصة والمتكلمـين عامـة في اثبات وجود الله أو وحدانيته .

عنه تحليلات صعبة عويصة لا يفهمها الجمهور ، ولا يقتنع بها العقلاء . وقدم إلى الوحي مسائل لا يستطيع أن يقول فيها شيئاً وهي المسائل العقلية المحضبة التي قدمتها البيئة الثقافية القديمة المجاورة مثل الحركة ، والزمان ، والجوهر الفرد ، والخلاء ، والملاء . فتحولت قضاياه ومسائله الجوهرية إلى قضايا فرعية لا يمكن الوصول فيها إلى رأي بمقياس شرعي . وكلما ازداد التفريع والتشعيب العقلي ازداد الإبتعاد عن الوحي ، واستعصى الوصول فيها إلى رأي يقيني . فقد تركها الوحي لحكم العقل الخالص أو لحكم التجربة أو لحكم الإنسان العام . لم يؤد علم الكلام إلاَّ إلى الخلط والتشويش ، ومزج الحق بالباطل ، والباطل بالحق، وقول الكل ولا شيء في آن واحد . فإذا كان شرف المنهج هو العقل والبرهان واليقين ، دفاعاً عن العقيدة بالبرهنة عليها فإنه قد انتهى إلى اضعافها وتجريحها . وكثيراً ما مات علماء الكلام على دين العجائز[١٠٦] . ومنهم من انقلب إلى صوفية يؤمنون بالأحوال

---

(١٠٦) « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق لديه ، ومعرفتها على ما هي عليه . وهيهات . فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . وهل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف . . . الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفعك الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الأمور ولكن على الندور » شرح الفقه ص ٤ ؛ « فآل علم الكلام والجدل إلى الحيرة في الحال ، والضلال والشك في المآل كما قال ابن رشد المفيد . ومن الذي قال في الإلٓهيات شيئاً يُعتد به ؟ وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه واقف في المسائل الكبار حائر . وكذلك الغزالي انتهى أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض عن تلك الطرق . وكذلك الرازي حيث قال :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا منه قيل وقالوا

وقال الشهرستاني في أنه لم يحر على الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم حيث قال :

لعمري لقد طُفْتُ المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقنه أو قارعاً سن نادم

وقال الجويني « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام . فلو عرفت أن الكلام يبلغ إلى ما بلغ ما اشتغلت به » . وقال عند موته « لو خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الاسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه . والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني . وهأنذا أموت على عقيدة أمي وعلى عقيدة عجائز أهل نيسابور» وقال الخسروشاهي « والله ما أدري ما اعتقد . . . » =

والمقامات ، وبحدود العقل ، وبإيمان القلب ، وبالعلم اللَّدُنِّي ، وهذه هي « نهاية الاقدام »[١٠٧] .

٣ ـ **من حيث الأولوية** . وإذا كان الشرف من حيث الأولوية والأساس فإن علم الكلام يضع نفسه في أول العلوم ومن ثم فهو أهمها وأعلاها، وأعمهـا وأشرفهـا لأنه العلم النظري الذي يبحث عن أسس العقيدة وقواعد السلوك. ترجع الأهمية هنا إلى أنه علم نظري يبحث في الأمور النظرية، وهو العلم الشامل الذي يضم كل العلوم، والأساس النظري لها جميعاً . وهو الذي يحدد لنا تصور العـالم ، ليس فقط عن طريق معـرفة الحق والاطمئنان النظري إليه بل أيضاً من أجل توجيه السلوك . الشـرف هنا يعني درجـة التجريـد في العلم . فأول العلوم هـو أكثرهـا تجريـداً لأنه يعـطي الأسـاس النظري للسلوك . ومن ثم كان علماً معيارياً بالنسبة لغيره من العلوم النظريـة ، هو محك للسلوك ولتحقيق الأفعال وبالتالي فهـو الأول والأساس . فنـظراً لهذا الشـرف الناتج عن البحث عن الأسس النظرية والمبادىء العامـة كان هـو الكلام ومـا سواه يعتمد عليه . ويكون في تصنيف العلوم أول ما يمكن تعلمه لأنه لا يحتـاج إلى أكثر من الكـلام . علم الكـلام عنـد القـدمـاء هـو أول العلوم لأنـه يبحث في الأسس والمبادىء العامة وهي أوائل العلوم . ومبادؤه بينة بـذاتها ، وغـير مستمدة من علم آخروإلا لما كان أول العلوم .لذلك اتصل علم الكلام عند المتأخرين بمبادىء العلم الطبيعي والعلم الرياضي لأنها أيضاً علوم نظرية أولية[١٠٨] .

= وقال الخونجي عند موته « ما عرفت مما حصلت شيئاً سوى أن الممكن مفتقر إلى مرجح ، والافتقار وصف سلبي ، أموت وما عرفت شيئاً » . وقال آخر « اضطجع على فراشي ، وأضع الملحفة عـلى وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عنـدي منها شيء ، ومن يصل إلى مثل هذا الحال ان لم يداركه الله بالرحمة والاقبال تزندق وسـاء له المآل . . » شرح الفقـه ص ٥ ـ ٦ .

(١٠٧) نهاية الاقدام ص ٣ ـ ٤ .

(١٠٨) شرح الفقه ص ٢ ، غاية المرام ص ٤ ، شرح المـواقف ص ٢ ، أشرف المقـاصد ص ٣ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، المـواقف ص ٨ ، المقاصـد ص ٢ ـ ٢٣ ، شرح المقـاصد ص ٢٣ ـ ٢٤ ، الخـلاصة ص ٢ ـ ٣ ، تحفة المريد ص ١٢ ، الحصون الحميدية ص ٥ ، شرح التفتازاني ص ١١ .

والسؤال الآن : هـل استطاع علم الكـلام بالفعـل أن يكـون أول العلوم ؟ هل استطاع تكوين الأساس النـظري للسلوك ؟ إن أول العلوم هو علم سـابق على علم الكلام وهو علم المبـادىء العامـة للوحي L,Axiomatique de la Révélation. وهو العلم الذي يضع المبادىء العامة في الوحي والتي تحدد الأسس العقليـة العامـة لكل العلوم[١٠٩] . ثم يأتي علم التفسير الذي يضع مناهج تفسير النصـوص حتى لا يخضـع تفسيرهـا إلى هوى فـردي أو مصلحـة شخصيـة . ثم يـأتي علم الإحصـاء الإجتمـاعي الذي يعـطي صـورة للواقـع المـراد تنـظيـره ، والـذي سيكـون مصبـاً للعقائد ، وبعد ذلك يـأتي علم التوحيـد بعد أن تحـددت المبادىء العـامة للوحي ، وبعد أن اكتملت نظرية التفسير ، وبعد أن أدركنا الواقع الذي نعيش فيه . أما إذا قـام علم الكلام عـلى أساس من التعصب وليس عـلى التنظير العقـلي ، وإذا تغلب الهـوى على العقـل ، والانفعال عـلى النظر ، والفـائدة الشخصيـة عـلى المصـالـح العامة ، وإذا قصر العلـم في التأسيس النظري ، ولم يستطع الوصول إلى اليقـين فيه واقتصر على الشك والتردد ، وإذا انقلب الهدف من العلـم وهو تأسيس العقائـد إلى إفساد للعقائد والتشويش عليها وضياعهـا ، وإذا تحول البـرهان إلى غـوامض الكلام وصعـوبة المفـاهيم ، وتعـذر الوسـائل ــ إذا حـدث ذلك كله فـإن علم الكـلام لا يكون أشرف العلوم من حيث تأسيسه وتنظيره وأولويته على كل ما عداه .

٤ ـ **من حيث الغاية** : أما إذا كان الشرف من حيث الغاية والفائدة ، وهي الحصول على السعادة في الدنيا ، ونيل الفوز في الآخرة عن طريق الاشتغال بالمعارف والعلوم والحصول على المعقولات فإن علم الكلام في الحقيقة من أقل العلوم شرفاً لأنه من أخطر العلوم ، ومن أقرب السبل إلى التهلكة[١١٠] . فلا توجد سعادة معروفـة يبحث عنها النـاس بالفعل إلا في هذه الدنيا وليس خارجها . ولا يوجد فوز يبغيه الناس ويسعـون إليه إلا في هذا العالم وليس في عوالم أخرى سابقة على حياته كما هو الحال عند الصوفيـة أو لاحقة على مماته كما هو الحال عند المتكلمين . ليست الغاية من العقائـد تعويض

---

(١٠٩) أنظر بحثنا Hermeneutics as Axiomatics في Relégions Dialogue and Revloution P. .

(١١٠) غاية المرام ص ٣ ـ ٤ ، المواقف ص ٤ ، شرح الكلنبوي ص ٤ .

الإنسان عن مآسيه في العالم ،ووعده بسعادة مستقبلية تعويضاً عن شقائه الحاضر بل توجيه السلوك نحو العالم ، وتحقيق رسالة الإنسان في هذه الدنيا ، وتحقيق غايته على الأرض[111] . تعارضت الأسس في علم الكلام ، وتضاربت الآراء ، وتعددت الحقائق ، وسادت الأهواء ، وعمت المصالح ، وتوهجت الإنفعالات . فعلم الكلام ليس له أية فائدة عملية بل على العكس يؤدي إلى مخاطر جمة وضرر بالغ على الفكر والسلوك ، على الفرد والجماعة ، على الحاضر والتاريخ . هو مضيعة للوقت ، ومذهبة للعمر ، لا تنتج عنه أية فائدة ، واشتغال بما لا يغني أو يفيد[112] . علم الكلام يبعد الجماعة عن مصالحها الفعلية ، ويقدم لها موضوعات وهمية واشكالات خاطئة تصرف فيها طاقات الجماعة ، وتعطيها معركة وهمية تاركة المعركة الحقيقية للسياسة وممارسة الحركة العلمانية أو نضال الفقهاء . علم الكلام لا يزيد عن كونه كلاماً في كلام ، وكأن الكلام غايته ووسيلته . وربما سمي العلم « علم الكلام » لأنه كلام ، بداية وطريقاً ونهاية ، مقدمة واستدلالاً ونتيجة ، لا يحقق فوزاً لأحد حتى لصاحب المصنفات فإنها تضره أكثر مما تنفعه ، ويعصي بها أكثر مما يطيع ، ويعاقب عليها أكثر مما يثاب[113] . يمثل علم الكلام خطورة كبرى على الجماعة فإنه يفرقها أكثر مما يوحدها ، ويدعو إلى الإختلاف أكثر مما يدعو إلى الاتفاق ، ويقوي من ذلك الفكرة الموجهة من افتراق الجماعة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاّ واحدة ! علم الكلام إذن هو تاريخ الفرق

---

(١١١) المقاصد ص ١٢ ، ص ١٦ ؛ الاقتصاد ص ٥ ـ ٦ ؛ المواقف ص ٨ ؛ الخلاصة ص ٢ .

(١١٢) المقاصد ص ١٦ ؛ شرح المقاصد ص ١٦ ـ ١٧ ، أشرف المقاصد ص ١٦ ـ ١٧ ؛ تحفة المريد ص ١٢ ؛ شرح الخريدة ص ١٠ ؛ الحصون الحميدية ص ٥ ؛ التحقيق التام ص ٢ .

(١١٣) « اعلم أن صرف الهمم إلى ما ليس بمهم ، وتضييع الزمان بما عنه بد هو غاية الضلال ونهاية الخسران سواء كان المنصرف بالهمة من العلوم أو من الأعمال . فنعوذ بالله من علم لا ينفع . . . فمثال الملتفت إلى ذلك مثال رجل لدغته حية أو عقرب وهي معاودة اللدغ ، والرجل قادر على الفرار ، ولكنه متوقف ليعرف أن الحية جاءته من جانب اليمين أو من جانب اليسار ، وذلك من أفعال الأغبياء . أعوذ بالله من الاشتغال بالفصول مع تضييع المهمات والأصول » الاقتصاد ص ٥ ـ ٦ . « سبب ذلهم عدولهم عن الأخذ بأصول الاسلام واشتغالهم بما لا يعنيهم في مقام المرام » شرح الفقه ص ٤ .

الدينية التي نشأت إبتداء من وقائع تاريخية معينة يتركـز معظمهـا في حوادث الفتنـة الأولى . ثم انحصرت عناية كل فرقة في اظهار ما تختلف فيـه عن غيرهـا والبرهنـة عليه والتعصب له ، وعدم التنازل عنه ، كما توجهت عناية الباحثين لذلك ، قدماء ومحدثين في بيان « اختلاف المصلين » و « الفرق بين الفِرَق » في حين أن هذه الفرق كلها خرجت من مصدر واحد وهو الوحي أي أنها تجمع بينها نقطة تلاق في المصدر كما أن هناك نقطة تلاق أخرى في الوقـائع التـاريخية التي أصبحت حـالات جديـدة تستدعي حكماً مثل صاحب الكبيـرة . وما دامت الفـرق قد انغلقت عـلى نفسها ، ودافعت عن وجودها مع فكرها ما دامت مهددة في وجودها وفكرها معاً فإن النضال بينها قد تحـول إلى نضال مسلح ، كـل فرقـة تهدد الأخـرى بالاستئصـال . وأصبح الدفاع عن الفرقة هو دفاع عن البقـاء . وقد وصـل التنازع إلى حـد سفك الـدماء وقتل المعارضين . وهو ما استمر حتى جيلنا هذا من اعتقال للمعارضة السياسية بل وتصفيتها جسدياً ، وتجاوز أدبيات الحوار للتقريب بين وجهـات النظر وللجمـع بين الآراء مع الحد الأدنى من الإتفـاق دون قهر الأغلبيـة للأقلية ودون قمع من فـرقة السلطة لفرق المعارضة ، خاصـة وأنها مسائـل نظريـة صرفـة لا تنتج منهـا شرائـع عملية مباشرة . والجماعة حرة في التأويل النظري ، وملزمة بدليل العمـل الجماعي بصـرف النـظر عن اختـلاف الأطـر النـظريـة عنـد مختلف الفـرق . لقـد أدى علم الكلام إلى التشتت والتفـرق وإلى اضطهـاد الفرق بعضهـا للبعض ، وتكفـير بعضهـا للبعض ، واستعداء كل منهـا السلطة على الأخـرى حتى تفوز هي بفـرقـة السلطان . فيعم الاضطهاد ، وتنتشر الرقابة، ويسود الإرهاب ، وتتطاير الـرقاب ! واستعمال السلطة لقهر الناس على الإعتقاد ، ولإجبارهم على الإيمان مضاد لمقصد الوحي الذي أتى معبّـراً عن الطبيعـة ، ومعلناً استقـلال العقل . فـاستعمال القـوة لإجبـار الناس مقـابلة تعصب بتعصب ، وجهل بجهل ، وعنـاد بعناد ، والفكـر لا يسـايره إلا فكـر مثله . الفكر هـو القادر عـلى التغيير . والعنـاد لا يـطول إذ ينتهي بالعزلة ، ولا يقابل إلا بالتسامح . وبالرغم من هذا التشعب والتداخـل العقائـدي والثـراء النظري فـإن السلطة كثيراً مـا كانت تتـدخـل لنصـرة فـريق عـلى فـريق ،

فيحدث الإضطهاد عندما تتدخل السلطة في المعارك الفكرية[١١٤] .

علم الكلام إذن من حيث المرتبة ليس بأشرف العلوم لا من حيث الموضوع ، ولا من حيث المنهج ، ولا من حيث الأولوية ، ولا من حيث الفائدة بل إنه أخطر العلوم العقلية النقلية القديمة من حيث تشويه الوحي والتعمية عن واقع المسلمين .

سابعاً : وجوبه :

١ ـ العامة والخاصة: يكاد يجمع القدماء على قسمة الناس إلى عامة وخاصة ، يستوي في ذلك المتكلمون والفلاسفة والصوفية والفقهاء . فالعامة غير قادرة على الاشتغال بالأمور النظرية ، ولا يجوز ادخال الشك إلى عقائدها بالبحث والنظر ، أو الاستدلال على صحتها بالبرهان كما يقول علماء الكلام . كما أنها غير قادرة على إدراك المعقولات الخالصة والأمور المجردة لأنها تحتاج إلى حس ومشاهدة، وغير قادرة على التأمل العقلي ، فدورها في العبادة ، واقامة الشعائر كما يقول الفلاسفة . والعامة أيضاً غير قادرة على إدراك الحقائق القلبية والعلوم الكشفية ، يكفيها مسطحات الأمور في العقائد والفقه كما يقول الأصوليون ، وهي أيضاً عاجزة عن أن تفتي أو تجتهد يكفيها سؤال المفتي أو المجتهد وتقليده كما يقول الفقهاء . فالعامة

---

(١١٤) « ولكل فرقة مقالة على حيالها وكتب صنفوها ، ودولة عاونتهم ، وصولة طاوعتهم » الملل ج ١ ص ٦٥ ، « لم تظهر الجهمية قولها صراحة بنفي الصفات خوف السيف ! » الابانة ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ ويصنف الغزالي الناس أربع فرق : العامة ، والمتعصبون الجهلة ، والشكاك المقلدون ، والشكاك المفكرون ويقترح استعمال السيف مع الفرقة الثانية وهي طائفة مالت عن اعتقاد الحق كالكفار والمبتدعة .فالجافي الغليظ منهم الضعيف العقل الجامد على التقليد الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء إلى كبر السن ، لا ينفع معه إلا السوط والسيف . فأكثر الكفرة أسلموا تحت ظلال السيوف إذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان. وعن هذا إذا استقرأت تواريخ الأخبار. لم تصادف ملحمة بين المسلمين والكفار إلا انكشفت عن جماعة من أهل الضلال مالوا إلى الانقياد ، ولم تصادف مجمع مناظرة ومجادلة انكشفت إلا من زيادة اصرار وعناد». الاقتصاد ص ٨ ؛ والأمثلة كثيرة على تدخل السلطة السياسية في المعارك الفكرية وأشهرها محنة أحمد بن حنبل في مشكلة خلق القرآن حتى استشهاد حسن البنا ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب في جيلنا المعاصر . انظر مقدمتنا لرسالة اسبينوزا في اللاهوت والسياسة بعنوان « الدين والدولة » وأيضاً « مواطن حر في دولة حرة » ص ٩٥ ـ ١٠٦ انظر أيضاً الخاتمة · من الفرقة المذهبية إلى الوحدة الوطنية .

عند الجميع خارجة عن نطاق العلوم كلها أياً كانت موضوعاتها ومناهجها . يكفيها الإيمان والتصديق والاعتقاد ، يكفيها الإذعان والانقياد والتقليد دون تشويش عليهم بالعلوم العقلية والأمور النظرية(١١٥).

وقسمة الناس إلى عامة وخاصة قسمة ضيزى تقوم على الإقرار بالجهل الاجتماعي والتسليم به دون تغييره والقضاء عليه . فالعامة تحتاج الى تثقيف وتنوير دون أن تُنهر عن العلم أو عن التفكير ، وذلك هي مسؤولية الخاصة . فالخاصة هم طليعة العامة ، ولا تكوّن طبقة مستقلة عنها ، متعالية عليها وأعلى منها ، لكل منها علم أو حقيقة، بل لكليهما نفس العلم، إن لم يكن بصياغاته فعلى الأقل بمحتواه . إن وجود طبقتين في المجتمع ، طبقة جاهلة ، وهي الأغلبية ، وطبقة متعالمة وهي الأقلية لتؤدي بالضرورة إلى سيطرة الأقلية على الأغلبية . إن ترك العوام على ما هم عليه ، وتحريم الفكر والنظر عليهم ضد التنوير ، وتثبيت للأمر الواقع ، ورفض لتغييره . وإيمان على علم خير من إيمان على جهل . العامة ليست طبقة ثابتة ومعطى كائن بذاته بل توجد العامة لنقص في التعليم ، وتتلاشى بالتنوير . يمكن القضاء عليها بتثقيفها ومحو أميتها ، ونقلها من الاعتقاد الأعمى إلى الإيمان المستنير . قسمة العامة والخاصة ليست قسمة مانعة جامعة ، عازلة مغلقة ، بل هي قسمة مفتوحة متحركة ، تسمح بالانتقال منها وإليها . فكثيراً ما تفرز العامة قادتها ، وكثيراً ما ينبغ من العامة مفكروها وعلماؤها وقوادها ، وكثيراً ما يخرج من الخاصة جهالها . ليست كل قسمة دائرة مغلقة على نفسها تحتوي على افرادها بالطبيعة والضرورة . وكيف يُطلب من العامة السلبية التامة وقبول ما يعطى

---

(١١٥) يقسم الغزالي الناس إلى أربع فرق . الأولى العامة وهي التي كتب لها « الجام العوام عن علم الكلام » وجعل مراتب ايمانها سبعاً : التقديس ، والايمان ، والتصديق ، والاعتراف بالعجز ، والسكوت عن السؤال ، والامساك عن التصرف في الألفاظ بلا تفسير أو تأويل أو تصرف أو تفريع أو جمع أو تفريق ، وكف الباطن عن التفكر في هذه الأمور ، ثم التسليم لأهل المعرفة ، « الجام العوام » في « القصور العوالي » ص ٢٤٠.ولم نشأ تحليل كل مضمون هذا المصنف لأنه ليس مصنفاً كلامياً تقليدياً بل هو مصنف يتناول موضوعاً جزئياً فقط وهو وجوب العلم وشرعيته .

لها وعدم تجاوزها ، والإيمان بالتقديس ، والتصديق ، والاعتراف بالعجز ، والسكوت عن السؤال ، والإمساك عن التصرف ، والكف عن التفكير ، والتسليم لأهل المعرفة . إن مأساتنا مع جماهيرنا الحالية هو إيمانها بالمقدسات التي وصلت إلى حد المحرمات Tabous التي لا يمكن تناولها أو التفكير فيها أو التعرض لها بالبحث والتحليل ، وعلى رأسها مقدسات ثلاث : الله ، والسلطة ،والجنس(١١٦) . ولن تتقدم الجماهير إلا بتناول هذه الأمور وعرضها عرضاً عقلياً خالصاً ، وتحليلها تحليلاً علمياً صرفاً حتى تخرج من دائرة الشعور إلى دائرة ما فوق الشعور ، وحتى لا تعمل كدوافع باطنية في الخفاء ، وتكون علناً ظاهراً على مستوى الفكر والافتراض العلمي . وإلاَّ نشأت الحركات الدينية والسياسية السرية وعم المجتمع مظاهر الانحلال والفساد في الخفاء . وإن من مآسينا المعاصرة أيضاً التصديق بما يُقال دون طلب للدليل أو البرهان في حين أن ما لا دليل عليه يجب نفيه كما قال الأصوليون القدماء ، وأن البرهان هو أساس اليقين . التصديق بلا برهان عجز ، وإنكار للعقل ، وإهدار للنظر . وكيف نعترف بالعجز عن الإدراك والتوصل إلى الحقائق العلمية في حين أن قيمة الإنسان مرهونة بثقته بالعقل وبقدرته على الإكتشاف ؟ إن التسليم بالعجز لفيه نهاية للإنسان من حيث هو قدرة على البحث والتحصيل ، وإعلان للهزيمة في معركة لم تبدأ بعد ، وانسحاب من الأرض والعدو لم يحتلها بعد! أما السكوت عن السؤال فهو ضد التفلسف ، وضد التفكير ، وضد تحديد المسؤولية . التساؤل هو الكشف ، ويحتوي على نصف الجواب إن لم يكن الجواب كله . أما الإمساك عن التصريف فهي عبودية للحرف ، وخضوع للنص ، وهدم للعقل أساس النقل ، وإنكار للمعنى الذي هو المقصود من اللفظ . وإلا فكيف يمكن الوصول إلى المعاني العامة ، والنظريات الشاملة دون جمع للألفاظ تحت موضوع واحد ؟ وكيف يمكن فهم الوحي طبقاً لروح العصر دون تفسير أو تأويل ؟ أما الكف عن التفكير فهو أيضاً قهر للذات بلا مبرر ، وطلب المستحيل بالنسبة إلى الإنسان . فالإنسان هو هذه القدرة الباطنة على الطرح والتساؤل ، وعلى التعالي على المستوى المادي ، وتجاوز الأمر الواقع . التفكر الباطني هو أساس

(١١٦) أنظر بحثنا « المحرمات الثلاث » قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

الكشف ، وهو عالم النظر والافتراض . وأخيراً يأتي التسليم لأهل المعرفة إذ يجعل الانسان مقلداً لغيره ، والتقليد ليس مصدراً للعلم أو للمعرفة(١١٧) .

إن أوصاف العامة من جهل وتعصب وتقليد ليست أوصاف الجماهير الواعية التي تقوم بنفسها بالتوجيه والإصدار بل إنها أحياناً تكون أكثر وعياً من الخاصة وذلك لأنها ما زالت على الطبيعة ، تعبّر عن واقعها بصدق من خلال أمثلتها الشعبية وأغانيها التلقائية ، وأساطيرها المتوارثة ، وسير أبطالها في مقابل إنعزالية الخاصة ، واهتمامهم بمصالحهم الشخصية ، وغربتهم عن الجماهير وتراثها ، وميلهم إلى تراث آخر يجدون فيه العلم والمعرفة ، ودورانهم حول الواقع والالتفاف حوله ، والوقوع في التبرير والتنظير لصالح السلطان . إن العامة ذكية بطبعها بحسها الشعبي وإن بدت للخاصة جاهلة ، ومستنيرة وإن بدت للغير عمياء ، تفهم وتقدر ، وتعرف من يتكلم باسمها ومن يتعايش عليها . ولكن ينقصها التنظيم والتخريب والتجنيد من أجل المراجعة على القادة وفرض مصالحها عليهم(١١٨) . لا يقتصر العقل على الخاصة وحدهم دون العامة . فالعقل هو النور الفطري الذي يوجد في كل إنسان . كل إنسان عاقل من حيث هو إنسان . تظهر البداهة عند العامي بحسه الشعبي المرهف ، ومعرفته بالواجب ، بل كثيراً ما يتعلم الخاصة من العامة ، ويتثقفون من تراثها ، وكثيراً ما تُعلِّم العامة الخاصة وتعطيهم نموذجاً للفكر والسلوك والجرأة على الحق والالتحام بالواقع . ليست العامة جاهلة بطبعها ، وليست الخاصة عالمة بطبعها . فالحس البديهي موجود عند كل إنسان . وهو القاسم المشترك بين الناس . وأحيانا تكون الخاصة جاهلة ، والعامة عالمة . فمن جهل الخاصة تصورهم أن هناك ثقافتين وحقيقتين الأولى لهم والثانية لغيرهم . من جهلها هذه القسمة للناس إلى أذكياء وأغبياء ، حكام ومحكومين ، قادة وجماهير ، ثم تنصيب أنفسهم من الفريق الأول وغيرهم من الفريق الثاني فهم الأذكياء والحكام والقادة ، والعامة هم الأغبياء والمحكومون والجماهير . تنصب

---

(١١٧) أنظر الفصل الثالث : نظرية العلم .

(١١٨) وهذا ما أثبتته الثورة الاسلامية في ايران ودور الجماهير فيها .

الخاصة نفسها كقيادة للعامة فتخطط لنفسها وتعمل لحياتها ، وتتصور العالم حسب تكوينها النفسي والاجتماعي وتنسى العامة ومصالحها وإدراكها ، وتصوراتها للعالم ، وبواعثها على السلوك ، وهو ما يُسمى في عصرنا الحالي بأزمة المثقفين . ليست الخاصة هي الوحيدة العالمة والتي تهتم بالثقافة دون العامة بل هي طليعة الجماهير والمسؤولة عن تثقيفها . لا توجد حقيقتان ، الأولى للعامة الدهماء والثانية للخاصة العلماء . هناك حقيقة واحدة ينتمي إليها الجميع ، ويعبرون عنها في ثقافة واحدة ، وبفكرة واحدة ، وبتصور واحد . ومن ازداد وعياً قام بتوعية غيره .

ولا يوجد فريق من الناس كافر بطبعه ، يحيد عن الحق كسلوك دائم لأن العقل ليس هبة فيهم ، ويكون جزاؤه السوط أو السيف ! إن نور العقل قاسم مشترك بين الناس جميعاً . وإن تغليب الهوى أو المصلحة على نور العقل أو جحد الحق دون التسليم به كل ذلك يحدث في مواقف محددة ، وظروف إجتماعية خاصة ، وليس جبلة في الإنسان . الإنسان بطبعه ميال إلى الحق ، فإن لم تتغلب الفطرة عليه سادته الظروف ، وأصبح خاضعاً للموقف . وإننا لنعاني في عصرنا الحاضر من استعمال السيف ضد المفكرين خاصة لو كانوا ممن غلب لديهم نور العقل على ظروفهم الاجتماعية ، وآثروا العقل على الطغيان . ومن يحكم أو يقرر أن هذا الفريق أو ذاك كافر بطبعه لم يهبه الله نور العقل ؟ الحاكم أم المحكوم ؟ السلطة أم المعارضة ؟ من بيده السلطة اليوم أو من سيحصل عليها في الغد ؟ إنه في الغالب إما السلطة السياسية أو السلطة الدينية أو كلاهما معاً نظراً لتواطئهما المتواتر ، ومصالحهما المشتركة[١١٩] . إنه لا يحق لحاكم أو لمحكوم ، لرئيس أو لمرؤوس أن يحكم على أحد أو على فريق بأنه كافر مبتدع ، وإلا عدنا إلى تكفير الفرق بعضها للبعض . الكل مجتهد ، والمحك هو البرهان . لا يمكن قهر الناس بالسيف باسم العناد أو الكفر أو الضلال . ولكن يُترك الناس حتى تأتيهم البينة ويلتزمون بالجماعة طوعاً[١٢٠] .

---

(١١٩) ولهذا السبب قمنا في أول حياتنا العلمية السياسية بترجمة رسالة اسبينوزا في اللاهوت والسياسة . انظر الرسالة خاصة من الفصل السادس عشر حتى الفصل العشرين .

(١٢٠) هذه هي الفرقة الثانية عند الغزالي . ويقول واصفاً إياهم « فأكثر الكفرة أسلموا تحت ظلال =

والشك ليس جريمة ، والتساؤل ليس كفراً ، يُدان صاحبه ، ويُجَرَّح أمام الملأ ، لأن التقليد والإيمان بالسماع لا يقوم على أساس . فإذا كان هناك فريق من الناس يشك ويتساءل ويريد أن يقيم عقائده على أساس من البرهان فهم ليسوا مرضى يجب علاجهم بدواء التسليم والإيمان أو بآية أو حديث . الشك عند بعض المعتزلة أول الواجبات على المسلم قبل النظر(١٢١) . كما يساعد طلب البرهان القلب على الإطمئنان لليقين كما حدث لإبراهيم الخليل(١٢٢) . التصديق جزء من الإيمان ، ولا إيمان بلا تصديق . ليست العقائد الإسلامية معتقدات تعبر عن أفعال إرادة بل هي مبادىء نظرية قائمة على أسس عقلية . العقائد مجموعة من الأسس النظرية التي تقوم عليها كل العلوم ، ومجموع المبادىء العامة التي يقوم عليها تصور العالم . فهي تعتمد على البرهان لا على القرار الإرادي ، أي أنه فعل عقل لا فعل إرادة ، ويتطلب التصديق لا الإيمان . وهناك تكون العقائد الإسلامية والعقائد المسيحية واليهودية في جانب آخر . فالعقائد الأخيرة قرار إرادي مثل ألوهية المسيح (الكنيسة) أو الشعب المختار (المعبد) . في حين أن العقائد الإسلامية لا أسرار فيها كما هو الحال في المسيحية ولا تعسف فيها كما هو الحال في اليهودية . إن وسيلة التخاطب مع المعتقدين بالتقليد والسماع مع ذكاء الفطرة ليس إبعاد الشك عن النفوس وإعادتهم إلى حظيرة التقليد بل تقوية الشكوك حتى يظهر البديل وهو العقل أو العلم . أليس الشك أساس اليقين(١٢٣) ؟ .

= السيوف إذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان » الاقتصاد ص ٨ . وفيهم قال الشافعي :

فمن منح الجهال علماً أضاعه   ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وبعد استعمال سلاح التكفير في عصرنا ظهرت أدبيات السلطة في تكفير المسلم ، وأدبيات المعارضة في تحريم تكفير المسلم اعتماداً على الآيات مثل « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » وأحاديث مثل « من قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها » .

(١٢١) أنظر الفصل الثالث: نظرية العلم.

(١٢٢) يعرض القرآن لذلك في قوله ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (٢ : ٢٦٠) .

(١٢٣) هذه هي الفرقة الثالثة عند الغزالي وينصح « فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم باعادة =

أما المرتابون في عقائدهم فلا تعطى لهم عقائد جديدة بل يُقوُّون في ارتيابهم ، ويُعملون عقولهم كما يشاؤ ون ، ويصلون إلى الحق بمحض بحثهم الحر دون أن تستعمل معهم مناهج التبشير والاستمالة . وقد نشأ ارتيابهم في المقولات الدينية ، وهو ارتياب طبيعي في صور مضمرة ، يكشف عن رغبة في التعقيل وبحث عن البداهة . المنهج القويم أفضل بكثير من النتيجة الجاهزة التي يتلقنها الإنسان دون بحث أو تحصيل(١٢٤) .

٢ ـ **أقسام الواجبات**. وقد تقسم الواجبات على أنواع ثلاثة من الناس: العامة، والخاصة، والسلطان. فإذا كانت مهمة العامة في التصديق والإيمان من ناحية العمل والتحقيق فإن مهمة الخاصة المثقفة التفقه في الدين وفي الأحكام وفي القدرة على الاستدلال والاستنباط في المسائل الجديدة التي طرأت على حياة الجماعة . والحقيقة أن العامة أيضاً تكون قادرة على الاستدلال عن طريق الإتصال المباشر بالواقع ، وطرق الاستدلال الحر والصور المختلفة للمصالح المرسلة . الفلاحون أدرى بقضايا الأرض من فقيه الأرض ، والعمال أدرى بشؤ ون مصانعهم من مفكر المصنع ، والطلاب أدرى بشؤ ون المعاهد والجامعات من الإداريين والقائمين على إصلاح الجامعة . وكثيراً ما لا تهدف الخاصة في استدلالها إلى رعاية مصالح العامة ، فتصدر قراراتها للحفاظ على مكاسبها الخاصة مضحية بمصلحة المجموع . أما واجب السلطان فهو تنفيذي خالص ، يُعهد إليه بتنفيذ القانون ، ولا يُشرع حكماً، هو المنفذ لأحكام الخاصة والعامة على السواء . وكثيراً ما كانت السلطة مع الخاصة ضد العامة ، يشتري السلطان ذمم العلماء وضمائرهم ، ويبيع الخاصة للسلطان فتاويهم وأحكامهم ، وينثرون تحت أقدامه تبريراتهم للأوضاع القائمة ولأحكامه الخاطئة . باستطاعة العامة المشاركة في السلطة التنفيذية بالإشتراك في المحاكم

= طمأنينتهم ، واماطة شكوكهم من الكلام المقنع المقبول عندهم ولو بمجرد استبعاد وتقبيح أو تلاوة آية أو رواية حديث أو نقل كلام من شخص مشهور عندهم بالفضل » الاقتصاد ص ٨ .

(١٢٤) هذه هي الفرقة الرابعة عند الغزالي وينصح أيضاً « فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم الى الحق وارشادهم الى الاعتقاد الصحيح لا في معرض المحاجة والتعصب فإن ذلك يزيد في دواعي الضلال ،ويهيج بواعث التمادي والاصرار » الاقتصاد ص ٨ ـ ٩ .

الشعبية ، وأن تدلي برأيها في التعيين والعزل من خلال المجالس الشعبية ، فالشعب هو الحاكم والمحكوم ، والأمة هي الراعي والرعية[125] .

٣ ـ **الكفاية والعين** : السؤال الآن الذي طرحه القدماء : هل علم الكلام فرض عين أم فرض كفاية؟ فجواب المعاصرين أنه إذا كان علم الكلام هو هذا الذي وصفناه، والذي لا موضوع له ولا منهج ، ولا فائدة منه فإنه لا هو فرض عين.ولا فرض كفاية. لهذا السبب حرّمه الفقهاء . أما إذا كان القصد منه « لاهوت الأرض » و« لاهوت الثورة » و« لاهوت التنمية » و« لاهوت التقدم » و« لاهوت التحرر » و« لاهوت الوحدة الوطنية » أي العلم الذي يتناول مصالح المسلمين بالتحليل والذي يجنّد المسلمين للدفاع عن مصالحهم فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة . أما عند القدماء فقد تفاوتت الآراء في علم الكلام بين التحريم التام فهو بدعة وبين الوجوب ندباً أو إباحة[126] . أفتى القدماء بالتحريم لأنه بدعة لم تظهر إلا متأخراً ، ولم يشتغل الجيل الأول بهذا العلم ولا عرفوه بل أفتوا بتحريمه بقدر ما ظهر منه لديهم[127] . وعدم انشغال الجيل الأول بمباحث علم الكلام لا يعني أنهم كانوا من العوام بل يعني أن التوحيد كان في هذه الفترة من التاريخ توحيداً

---

(١٢٥) الانصاف ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٢٦) شرح الفقه ص ٣ .

(١٢٧) « كيف يكون لها شرف وهو بدعة مذمومة في الشرع غاية الذم حتى بالغ الفقهاء في المنع عن الاشتغال به وطعنوا فيه » حاشية الاسفرايني ص ٩ ؛ والى التحريم ذهب الشافعي ومحمد ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف . وساق الفاظاً عن هؤلاء وأنهم قالوا ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح . فما ترتيب الألفاظ من سائر الخلائق إلا لما يتولد منه من الشبه . ولذا قال الرسول « هلك المتنطعون » أي المتعمقون في البحث . واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به الرسول ، ويعلم طريقه ويثني على اربابه » شرح الفقه ص ٣ ؛ « القول بالرأي والعقل المجرد في الفقه والشريعة بدعة وضلالة فأولى أن يكون ذلك في علم التوحيد والصفات بدعة وضلالة . قال البزدوي في أصول الفقه انه لم يرد في الشرع دليل على أن العقل موجب ، ولا يجوز أن يكون موجباً وعلة بدون الشرع إذ العلل موضوعات الشرع ، وليس إلى العباد ذلك لأنه ينزع أي يسوق إلى الشركة . فمن جعله موجباً بلا دليل شرعاً فقد جاوز حد العباد ، وتعدى عن حدود الشرع على وجه العناد » شرح الفقه ص ٦ ـ ٧ .

عملياً لا توحيداً نظرياً ، وعملية توحيد لا نظرية توحيد[128] . وعندما نشأ علم الكلام اعتبره قدماء الفقهاء مضاداً للدين وآعتبروا المتكلمين وقد خرجوا على الدين ومن ثم لا دين لهم ، لا تجوز الصلاة خلفهم ، ولا تجوز شهادتهم بل ويجب عقابهم بالضرب والجر في الطرقات![129] لم يشتغل الجيل الأول إلا بالفقه وأصول الفقه لأن الفقه هو العلم العملي الذي يظهر فيه التوحيد العملي والذي يرعى مصالح الناس . فقد كانت الحاجة إلى التشريع أمس من الحاجة إلى النظريات إلاّ إذا كانت أسس التشريع . فالحاجة إلى « تفقيه » الأرض والثروات والنظم الإجتماعية والسياسية ألحّ من الحاجة إلى البحث عن الأصل والنشأة أو المآل والمعاد إلا إذا كان في مثل هذا البحث تعميق وجداني للتشريع . ويرتبط بالفقه علوم القرآن والحديث لأنها مصدرا الفقه وأدلة الأحكام[130] . لم يكن المتكلمون

---

(١٢٨) « ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض في هذا الفن لا بمباحثه ولا بتدريس ولا بتصنيف بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة اليها وحمل الخلق على مراشدهم ومصالحهم في أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط » الاقتصاد ص ٧ ـ ٨ ؛ « انه بدعة لم ينقل عن النبي والصحابة الاشتغال به ، وكل بدعة ردة » المواقف ص ٥٩ .

(١٢٩) « قال الشافعي : اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . وعند أبي يوسف أنه لا تجوز الصلاة خلف المتكلم ، وان تكلم بحق لأنه بدعة . وقال بعض السلف : من طلب التوحيد بالكلام فقد تزندق » حاشية الاسفرايني ص ١٤ ؛ « وعنه أيضاً (أبو يوسف) : من طلب العلم بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث فقد كذب . وقال الامام الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على كلام أهل البدعة . ومن كلامه أيضاً : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله . وذكر أصحابنا في الفتاوى أنه لو أوصي لعلماء بلد لا يدخل المتكلمون ، ولو أوصى انسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم فافتى السلف أنه يباع ما فيها من كتب الكلام . . . وقال مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . . . أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا . وقال أحمد بن حنبل : علماء الكلام زنادقة ، ولا يصلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في علم الكلام الا وفي قلبه غل » شرح الفقه ص ٣ ـ ٥ .

(١٣٠) « من أنس من نفسه تعلم الفقه أو الكلام ، وخلا الصقع عن القائم بهما ، ولم يتسع زمانه =

في أول الأمر متكلمين بل كانوا علماء لغة أو حديث أو زهاداً ثم غلبت عليهم صناعة الكلام . علم الكلام إذن علم طارىء سببته الظروف والأحداث ، وليس له أصل في الوحي[131] . إن علم الكلام لم يؤد في النهاية إلاَّ إلى التعصب والجهل ، وإفساد العقائد البسيطة ، والدخول في متاهات الفلسفة . لم يؤد علم الكلام إلاَّ إلى إعمال الهوى في النص ، وإلى تغيير العقائد والخروج على الشرع . إن الجهل بعلم الكلام علم ، والعلم به جهل لأن الجهل به رجوع إلى البديهة وعود إلى مقاصد الوحي ، الإنسان والطبيعة . العلم به انحراف عن الإنسان ، وقلب لمقاصد الوحي أو ترك للعالم ، واستبدال الوقائع بموضوعات جدلية من وضع

= للجمع بينهما ، واستغنى في تعيين ما يشتغل به منهما أوجبنا عليه الاشتغال بالفقه ، فإن الحاجة إليه أعم ، والوقائع فيه أكثر . فلا يستغني أحد في ليله ونهاره عن الاستعانة بالفقه ، واعتوار الشكوك المحوجة إلى علم الكلام باد بالاضافة إليه ، كما أنه لو خلا البلد عن الطبيب والفقيه كان التشاغل بالفقه أهم لأنه يشترك في الحاجة إليه الجماهير . . . ويدلك على أن الفقه أهم العلوم اشتغال الصحابة بالبحث عنه في مشاوراتهم ومفاوضاتهم . ولا يغرنك ما يهول به من يعظم صناعة الكلام من أنه الأصل والفقه فرع له . فإنها كلمة حق ولكنها غير نافعة . فإن الأصل هو الاعتقاد الصحيح والتصديق والجزم . وذلك حاصل بالتقليد والحاجة إلى البرهان ودقائق الجدل » الاقتصاد ص ١٠ ؛ « من العقائد الباطلة الخوض في علم الكلام ، وترك العلم بأحكام الاسلام المستفادة من الكتاب والسنة واجماع الأمة حتى أن بعضهم يجتهد ثلاثين سنة ليصير كلامياً ثم يدرس فيه ويتكلم بما يوافقه ، ويدفع ما ينافيه . ولو سُئل عن معنى آية أو حديث أو مسألة مهمة من الفروع المتعلقة بالطهارة والصلاة والصوم كان جاهلاً عنها وساكتاً فيها مع أن جميع العقائد الثابتة موجودة في الكتاب قطعياً وفي السنة ظنياً » شرح الفقه ص ٥ ؛ وقال الامام الشافعي :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر ذلك بمعناه في الفتاوى الظهيرية ، وهو كلام مستحسن عند أرباب العقول إذ كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول . ولله در القائل في هذا القول :

أيها المفتدى لتطلب علماً ... كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب العلم كي تصحح أصلاً ... كيف أغفلت علم أصل الأصول

شرح الفقه ص ٢ - ٣ .

(١٣١) كان واصل بن عطاء عالم لغة ثم غلب عليه الكلام ، وكان عمرو بن عبيد زاهداً .

العقل الجدلي . لم يؤد الكلام إلا لغير غرضه . فاذا كان غرضه الدفاع عن العقيدة وتثبيت الإيمان فإنه قد أدى إلى إضعاف العقيدة وإلى جعلها أكثر تعرضاً للنقد والتجريح ، كما أدى إلى ضياع الإيمان كلية بما يروّجه العلم من آراء ومذاهب لا ترضي العقل ولا تصلح من الأمور شيئاً(١٣٢) . ولم يحرمه الفقهاء وحدهم بل تناوله بالنقد والتجريح الحكماء والصوفية. فهو علم لا يفيد الذكي ، ولا ينتفع به البليد ، صعب على العامة لا يمكنهم فهمه ، ولا ينفع الخاصة الذين فهموه . هو علم بلا جمهور إلا من الخاصة المتحذلقين نظراً ، العاجزين عملاً ، أو من العامة المتشبهين بالخاصة في الحذلقة والادعاء أو في القدرة الوهمية . لا يوجد شيء في هذا العلم إلا ويمكن للعقل أن يرفضه ، ويرد عليه ، ويفنّده . فلا هو برهن على صدق الإيمان ولا هو ترك الإيمان بالتسليم خاصة إذا كان من علم الكلام الأشعري(١٣٣) . رفضه الحكماء لأنه تفكير نظري بدائي على الدين ، ما زال يستعمل لغة الدين الخاصة ، وليست لغة الفكر العامة ، وما زال يعتمد على الحجج النقلية وليس على الحجج العقلية . ما زال الله فيه ذاتاً مشخصة أو مجردة

---

(١٣٢) « وما نقل عن السلف من الطعن فيه فمحمول على ما إذا قصد التعصب في الدين وإفساد عقائد المبتدئين ، والتوريط في أودية الضلال بتزيين ما للفلسفة من مقال » شرح المقاصد ص ١٧ ؛ « وأما ما ورد عن السلف من النهي عنه فمحمول عند المحققين على ما يكون على وجه التعصب لا على وجه طلب الحق ، وعلى وجه إفساد عقائد المبتدئين بالقاء الشبه بدون حلها ، وعلى وجه تزيين الآراء الفاسدة إفساداً للدين ، وغشاً لعامة المسلمين » أشرف المقاصد ص ١٧ ؛ وأما ما دفع من كراهة أكثر أهل السلف وجمع من الخلق ومنعهم من علم الكلام ، وما يتبعه من المنطق ، وما يقربه من المرام حتى قال الامام أبو يوسف لبشر المريسي : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، وكأنه أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته فاذّ ذلك علم نافع أو أراد به الاعراض عنه ، وترك الالتفات إلى اعتباره فذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار .

(١٣٣) هذا هو نقد ابن رشد لعلم الكلام في « مناهج الأدلة » من وجهة نظره كفقيه إذ يتفق مع نقد الفقهاء له ، ونتائجه تتفق مع نتائج الفقهاء لا مع نتائج الحكماء التي عبر عنها ابن رشد في « تهافت التهافت » وفي « فصل المقال » وفي شروحه على أرسطو . ولم نشأ الافاضة في نقد ابن رشد لعلم الكلام لأننا لم نتناول بالتحليل إلا المصنفات الكلامية دون الأعمال الجزئية . ومحاولة ابن رشد يمكن أيضاً وضعها على حساب موقف ابن رشد الفيلسوف ، وتدخل ضمن نقد الفلسفة لعلم الكلام وتجاوزها له .

وليس كـونـاً أو عـالمـاً . مـا زال « ثيـولـوجيـا » ولم يتـحـول بعـد إلى « أنثروبولوجيا »[١٣٤] . وقد نقده الصوفية من حيث منهجه الذي يعتمد على الجدل وليس على الرياضة والمجاهدة ، ويعتمد على العقل كالفلسفة والأصول وليس على القلب، يستعمل مناهج النظر وليس طريق الذوق. كما نقد الصوفية موضوعه في أنه يتناول كلام الله وليس ذات الله ، ويجعـل الله تصوراً وليس وجـوداً ، منزهـاً وليس مدركاً محسوساً ، ويقع في النهاية في ثنائية الإنسان والله أو العـالم والله دون أن يصل إلى تـوحيد شـامل في أحد صورتي «وحدة الشهود » أم « وحـدة الوجـود »[١٣٥] . فليس هناك علم أجمع العلماء على تحريمه أو نقده أو رفضـه أكثر من علم الكـلام . فقـد رفض الفقهاء والفـلاسفة والصـوفية جميعـاً الاشتغال بـه لتناولـه موضـوعـات خاطئة ، كانت بدعة وفتنة وكفراً . وأفضل رد عليها هو « التوقف عن الحكم » أي إلغـاء المشكلة من أساسهـا ، والعـودة إلى النص الخـام دون التفـريـع أو التنـويـع عليه[١٣٦] . وإذا كان الموقف هو التحريم التام لعلم الكلام باسم الشرع فلا يمكن صياغة عقائد لأهل السنة لأن كل صياغة تعني إعمال الفكـر أو تفسير النصـوص ، وهي كلهـا إجتهادات ظنيـة في حين نجد بعض الفقهاء وقـد حرم علم الكـلام ثم صنف فيه دفاعاً عن عقائد أهل السنة . .

ويفضل بعض القدماء جعل علم الكلام فرض كفاية لا فـرض عين ، يجـوز أن يشتغل به الخواص فقط دون العوام ، إذا قـام به البعض سقط عن الآخـرين . وهـذا البعض هم أهل العلم والفتيـا ، المتفقهون في الـدين الذين يقـومـون بمهمـة الدفاع عن العقائد ضد تشويش أهل البدعـة لها ، ولكن يـظل العلم محجوراً عـلى

---

(١٣٤) هـذا هو نقـد ابن سينا لعلم الكـلام المتناثـر في موسـوعاتـه الثلاث : « الشفـاء » ، « النجاة » ، « الاشـارات والتنبيهات » ، وهـو أدخل في نقـد الفلسفة لعلم الكـلام ، موضـوع الجـزء الثـاني « فلسفة الحضارة » .

(١٣٥) يُعتبر نقد الغـزالي لعلم الكلام في « الجـام العوام عن علم الكـلام » من وجهة نـظره كفقيه مثـل باقي الفقهاء . ولكن نقد الصوفية للعلم فمتناثر في معرض نقدهم لأساليب النظر وضمن نقدهم للفلسفة .

(١٣٦) هذا هو موقف ابن حنبل في توقفه عن القول بخلق القرآن أو قدمه .

العوام . يقوم به الخاصة قدر الحاجة وتحقيق المطلب ، وكل زيادة على ذلك تعتبر من فضول الكلام[137] . ولكن إذا كان علم الكلام ليس هو العلم التقليدي بل هو العلم الذي يمدّ المسلمين بأيديولوجية العصر ، يأخذ مصالحهم في الإعتبار ، يدافع عن أراضيهم وثرواتهم ، يجندهم في حزب ، يكون إذن فرض عين على كل مسلم ومسلمة . ويكون واجب كل فرد هو الفهم البسيط للأمور النظرية حتى يكون على وعي بالعمل ، ولا يكون مجرد آلة للطاعة والتنفيذ . علم أصول الدين فرض عين ، لا بمعنى علم الكلام القديم[138] ولكن بمعنى تأصيل النظر ، وتأسيس القواعد التي يمكن بواسطتها إعادة فهم الإسلام كنظام للحياة الفردية والجماعية . حاجة العصر فكرية وإجتماعية وسياسية ، وعصرنا هو عصر الأيديولوجيات والمذاهب السياسية ، وظيفة علم أصول الدين تأسيس الأيديولوجية الإسلامية ، وبيان وسائل تحقيقها بالفعل ، وبالتالي تمحي التفرقة التقليدية بين علم أصول الدين وعلم الفقه أو بين علم الأصول وعلم الفروع أو بين علوم اليقين وعلوم الظن أو بين علوم النظر وعلوم العمل أو بين علم التوحيد وعلم التشريع . إذا كان التوحيد تشريعاً للواقع، فالواقع توحيد للتشريع ، التشريع توحيد للواقع .

---

(١٣٧) «اعلم أن التبحر في هذا العلم والاشتغال بمجامعه ليس من فروض الاعيان، وهو من فروض الكفايات. إذ ليس يجب على كافة الخلق إلا التصديق الجازم ، وتطهير القلب عن الريب والشك في الايمان . وإنما تصير إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك . ازالة الشكوك في أصول العقائد واجبة ، واعتوار الشك غير مستحيل ، وإن كان لا يقع إلا في الأقل ، ثم الدعوة إلى الحق في البرهان مهمة في الدين . ثم لا يبعد أن يثور مبتدع ويتصدى لاغواء أهل الحق بافاضة الشبهة فيهم . فلا بد ممن يقاوم شبهته بالكشف ، ويعارض اغواءه بالتقبيح . ولا يمكن ذلك إلا بهذا العلم ، ولا تنفك البلاد عن أمثال هذه الوقائع . فوجب أن يكون في كل قطر من الأقطار ، وصقع من الأصقاع قائم بالحق مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة المبتدعة ، ويستميل المائلين عن الحق ويصفي قلوب أهل السنة عن عوارض الشبهة . فلو خلا عنه القطر خرج به أهل القطر كافة كما لو خلا عن الطبيب والفقيه» الاقتصاد ص ٩ ـ ١٠ ؛ «فصل : اعلم أن المناظرة في الدين جائزة . . .» البحر ص ٤ ؛ «تعلم علم الكلام والنظر فيه والمناظرة وراء قدر الحاجة منهي عنه ، وتعلم علم النجوم قدر ما يعلم به مواقيت الصلاة والقبلة لا بأس به ، والزيادة حرام» شرح الفقه ص ٥ .

(١٣٨) «وحكم الشارع فيه الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر وأنثى» التحفة ص ١٣ .

إذا كان الخطر القديم قد أتى من النظر في الحضارات المجاورة، خطر التشويش على العقائد الجديدة ، والطعن في الأنبياء وصدقهم ، وإنكار المعاد والحشر، فإن الخطر الآن على ثروات المسلمين واستقلالهم وأراضيهم وشعوبهم . ومن ثم لزم تغيير مضمون العلم طبقاً لنوعية الخطر واتجاهه ، والانتقال من « علم اللاهوت » إلى «لاهوت الأرض» ، ومن « لاهوت النبوة » إلى « لاهوت التحرر » ومن « لاهوت المعاد » إلى « لاهوت التنمية » أو « لاهوت التقدم » أو باختصار « من العقيدة إلى الثورة » . والعلم قادر على تطوير نفسه بنفسه طبقاً لنوعية الخطر واختلافه من المتقدمين إلى المتأخرين(١٣٩) .

إذا كان علم الكلام قد وضع موضع الإتهام من العلوم التقليدية الأخرى ، ووقع الهجوم عليه من علوم الفقه والفلسفة والتصوف فإنه لم يهاجم أي علم ولم يوضع أي علم تقليدي آخر موضع الإتهام إلاّ في أقل الحدود . ربما لأن علم الكلام كان أولها في الظهور والتكوين فلم يتم التعرف على العلوم الأخرى إلا في وقت متأخر : وفي هذا الوقت انشغل علم الكلام بحروبه الداخلية وبصراع الفرق وهجومها المتبادل أو بالرد على الملل والنحل الخارجية التي غزت الحضارة ، وانتشرت ، وأصبحت تمثل خطراً على الفكر الجديد الناشىء . ربما لأنه لم يكن هناك علم كلام واحد يتحدث باسم التوحيد ضد الأنماط الفكرية الأخرى . فقد اقتربت المعتزلة من الفلاسفة ، واقترب الشيعة من الصوفية ، واقترب الأشاعرة من الفقهاء وأهل السنة ، فوجدت كل فرقة حليفاً في أحد العلوم ضد الفرق الأخرى . ومع ذلك نجد إشارات بسيطة في الهجوم على بعض النظريات الفلسفية وعلى رأسها قدم العالم أو قدم المادة أو وصف الفلاسفة لعالم الأفلاك أو لإثباتهم

---

(١٣٩) « فالحزم ترك التواني ، وفي الكشف عن حقيقة هذا الأمر . فما هؤلاء مع العجائب التي أظهروها في امكان صدقهم بالبحث عن تحقيق قولهم بأقل من شخص واحد يخبرنا عن خروجنا من دارنا ومحل استقرارنا بأن سبعاً من السباع قد دخل الدار فخذ حذرك ، واحترز منه لنفسك جهدك فإنا بمجرد السماع إذا رأينا ما أخبرنا عنه في محل الامكان والجواز لم نقدم على الدخول وبالغنا في الاحتراز ، فالموت هو المستقر والوطن قطعاً فكيف لا يكون الاحتراز لما بعده مهماً » الاقتصاد ص ٦ ؛ « فهذه عبارة المتقدمين ، اما عبارة المتأخرين . . » جامع زبد ص ٢٩ .

وجود التصورات في الخارج . كما نجد أيضاً نقداً للتصوف في نظرياتهم عن الحلول والإتحـاد[140] . ومع ذلـك يـظل علم الكـلام في قفص الإتهـام . ويـظل السؤال قائماً : هل علم الكلام علم؟ وبأي معنى ؟ وتحت أي شروط ؟.

(١٤٠) سنخصص الجزء الثامن «الانسان والتاريخ» من هذا القسم الأول «موقفنا من التـراث القديم» لصراع العلوم التقليدية الأربعة مع بعضها البعض محـاولين ايجـاد وحدة الحضـارة من جديـد من خلال وحدة العلم . انظر أيضاً «التراث والتجديد» ص ١٩٩ - ٢٠٣ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

الفصل الثاني

بناء العلم

أولاً : مقدمة :

يمكن تصنيف مقدمات المؤلفات الكلامية كلها إلى نوعين: الأولى مقدمات تاريخية مهمتها تقديم علم الكلام على أنه تاريخ عقائد أو تاريخ فرق أو تاريخ سياسي خالص ، وهي مقدمات المصنفات المبكرة ، والثانية تقدم علم الكلام على أنه نظرية في العلم أو نظرية في الوجود ، وهي مقدمات المصنفات المتأخرة ، وبالتالي فالمصنفات الكلامية إما مصنفات في تاريخ العقائد والفرق أو مصنفات في موضوع العلم ذاته بصرف النظر عن تاريخه[1] . وبتعبير معاصر نقول : الشعور إما تطوري أو بنائي . الشعور التطوري هو الشعور التاريخي حيث يظهر فيه العلم مرحلة مرحلة إما كموضوع أو كجانب موضوع أو كأصل أو كمجموعة أصول، وهو ما سماه القدماء تاريخ الفرق ، وهو الشعور الذي يسقطه المنهج التاريخي من حسابه عندما يصف المادة الكلامية على أنها تاريخ فرق محضة لا دخل للشعور فيها في حين أن توالد الفرق بعضها من بعض يوحي بأن هناك جامعاً بينها ، هو الشعور التاريخي . أما الشعور البنائي فهو الشعور الذي يظهر فيه العلم كبناء متكامل بصرف النظر عن توالي العصور والأزمنة وأسماء الفرق وتوالدها وتتابعها . ويكون الشعور في هذه الحالة حاملاً لأنماط مثالية توجد في كل حضارة ، ويعود ظهورها

(١) « ولأصحاب كتب المقالات طريقان في الترتيب : أحدهما أنهم وضعوا المسائل أصولاً ثم أوردوا في كل مسألة مذهب طائفة طائفة وفرقة فرقة . والثاني أنهم وضعوا الرجال وأصحاب المقالات أصولاً ثم أوردوا مذاهبهم في مسألة مسألة . وترتيب هذا المختصر على الطريقة الأخيرة لأني وجدتها أضبط للأقسام وأليق بأبواب الحساب » الملل جـ١ ص ١٣ ـ ١٤ .

في كل زمان ومكان . وبلغة ثقافتنا المعاصرة في التقائها مع الثقافات المجاورة يشـار عادة فيها إلى الشعور التطوري بأنه تتـابعـي Diachronique وإلى الشعور البنائي بأنه تزامني Synchronique ولكن كمنهجين لدراسة الظواهر الإنسـانية دون إدخـال الشعور الحي في الحساب واستبدال بناء منطقي للذهن الإنساني به .

وتبعاً لذلك يمكن عرض علم الكلام بطريقتين : الأولى تتبع نشأته التـاريخية وتطوره وتوالـد الفرق بعضهـا عن بعض سواء بـالتبعية أو بـالتضـاد أو بالتفـريع أو بالتطوير . والثانية دراسة الموضوعات الكلامية وعرض الفرق من خلالهـا ، وتكون دراسـة فلسفية خـالصة فيهـا تجتمع المقـالات حول مـوضوعـات أساسيـة[٢] . وقد يؤلف عالم الكلام بإحدى الطريقتين أو يتبع الطريقتين معاً إمـا في مصنف واحد أو في مصنفين مستقلين . ولكن بناء العلم هـو الذي سـاد على تـطوره حتى انتهى إلى تقنينه في كتب العقائد المتأخـرة ، وانزوى تـطور العلم ودخل في نـطاق التاريـخ في حين أنه يمكن الكشف عن تكوين البناء داخل تطور العلم ، وأن التطور ما هـو إلاّ

---

(٢) أمثلة من كتب الفـرق : « مقالات الاسـلاميـين » لـلأشعـري (الجـزء الأول) : « الرد والتنبيه » للملطي الشافعي ؛ « الفَرق بين الفِرق » للبغدادي ؛ « الملل والنحل » للشهرستاني « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازي . أما أمثلة كتب الموضوعات من وجهة نظر الأشاعرة وأهل السنة فهي « الفقه الأكبر » لأبي حنيفة ؛ « اللمع » و« الإبانة » للأشعـري ؛ « كتاب التـوحيد » للمـاتريـدي ؛ « الانصاف » و« التمهيد » للباقلاني ؛ « أصول الدين » للبغـدادي ؛ « الفصل » لابن حـزم ؛ « لمع الأدلـة » و« الارشـاد » و« الشـامـل » للجـويني ؛ « نهايـة الاقـدام » للشهـرسـتـاني ؛ « الاقتصـاد » للغـزالي ؛ « بحر الكـلام » للنسفي ؛ « أساس التقـديس » و« المسائـل الخمسـون » و« المحصـل » و« معـالم أصول الـدين » للرازي ؛ « غايـة المرام » لـلآمدي ؛ « العقـائـد » للنسفي ؛ « طـوالـع الأنـوار » للبيضـاوي ، « العقـائد » و«المـواقف » للايجي ؛ « المقـاصد » للتفتـازاني ؛ « السنـوسيـة » للسنـوسي ؛ « كتاب التـوحيد » لمحمـد بن عبد الـوهاب ؛ « كفـاية العـوام » للفضـالي ؛ « عقيـدة العوام » للمرزوقي ؛ « رسـالة البـاجوري » للبـاجوري ؛ « عقـائد القـزويني » للقزويني ؛ « رسـالة التوحيد » لمحمد عبده ؛ « جـوهرة التـوحيد » للقـاني ؛ « العقيدة التـوحيديـة » و« الخريـدة البهية » للدردير ؛ « جامع زبد العقائد » لولد دحلان ؛ « وسيلة العبيد » للظاهري ، « الحصون الحميـدية » للجسر ؛ « التحقيق التام » للظواهري ؛ ومن كتب الموضوعات من وجهة نظر المعتزلة « الانتصـار » للخياط ؛ « المغني » ، « المحيط » ، « شرح الأصول الخمسة » للقاضي عبد الجبار .

بناء في دور التكوين[٣] . وكما أنه في تاريخ العلم يظهر البناء فإنه في بناء العلم يظهر التاريخ كأحد الموضوعات ، أي أن تطور الشعور يصبح أحد أبنيته ، وأن التاريخ أصبح فكرة أو مثالاً أو نمطاً تتحد جوانبه في التاريخ . فالتاريخ انفصام في وحدة الفكر ، ولكنه يعود إلى وحدته الأولى كجزء من بنائه[٤] .

ولم تدون المصنفات الكلامية التي تحتوي على بناء العلم بطريقة واحدة أو بأسلوب واحد أو من خلال مذهب واحد . بل تتراوح بين عدة فرق ، وعدة أساليب ، وعدة مذاهب على النحو الآتي :

١ ـ مصنفات تحتوي على بناء العلم من وجهة نظر أشعرية ، وهي التي حددت بناء العلم ، وهي الأكثرية حتى ليقال إن بناء العلم بناء أشعري[٥] .

---

(٣) اتبع الأشعري الطريقتين معاً في « مقالات الاسلاميين » عندما خصص القسم الأول من المقالات للاسلاميين وعلى رأسهم الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة ، والثاني « لاختلاف المصلين » حين بوّب علم الكلام حسب الموضوعات وبيّن اختلاف الفرق فيها . كما اتبع البغدادي الطريقتين : الأولى في « الفَرق بين الفِرق » ، والثانية في « أصول الدين » . واتبع الشهرستاني الطريقتين : الأولى في « الملل والنحل » ، والثانية في « نهاية الاقدام » ، هذا إذا كان الجمع في مصنفين مستقلين . وقد يكون الجمع بين الطريقتين في مصنف واحد مثل « الفصل » لابن حزم في عرضه أولاً للفرق الست ثم في عرضه ثانياً للموضوعات الست . ويستحيل عرض الفرق دون الرجوع إلى الموضوعات كما هو الحال في « الملل والنحل » للشهرستاني إذ يقول « هناك اختلافات عديدة في طريقة عرض العلم ، ولما كان كل من له رأي لا يعتبر صاحب مقالة تصنف موضوعات علم الكلام حسب الأصول وهي : أ ـ الصفات والتوحيد . ب ـ القدر والعدل . جـ ـ الوعد والوعيد . هـ ـ السمع والعقل . وبذلك تكون الفرق أربع : القدرية ، والصفاتية ، والخوارج ، والشيعة .

(٤) يظهر التاريخ كفرق اسلامية كجزء من بناء العلم في « نهاية الاقدام » كجزء أساسي من العلم أو كملحق له في « الفصل » لابن حزم ، وفي « الاقتصاد » للغزالي ، وفي « أصول الدين » للبغدادي ، وفي « المواقف » للايجي ، وفي « الدر النضيد » للحفيد . أنظر أيضاً الخاتمة « من الفرق المذهبية الى الوحدة الوطنية » . اما الفرق غير الاسلامية فقد بقيت في باب التوحيد دفاعاً عن الذات والصفات والأفعال .

(٥) « اللمع » ، « الابانة » « كتاب التوحيد » ، « الانصاف » ، « التمهيد » ، « أصول الدين » ، « الفصل » ، « لمع الأدلة » ، « الارشاد » ، « الشامل » ، « الاقتصاد » ، « بحر الكلام » ، « المحصل » ، « المعالم » ، « الغاية » ، « المطالع » ، « المواقف » ، « المقاصد » ، « التهذيب » ، « الكفاية » ، « عقيدة العوام » ، « الباجوري » ، « الحصون » ، « التحقيق » .

٢ ـ مصنفات تحتوي على بناء العلم من وجهة نظر إعتزالية ، وهي تشارك في نفس بناء العلم مع المصنفات الأشعرية مع التركيز على بعض الجوانب مثل العدل ، وهي الأقلية . لم يحفظها التاريخ نظراً لسيادة الأشعرية حتى أصبحت المذهب الرسمي للدولة(٦) .

٣ ـ مصنفات عقائدية من وجهة نظر سنية سواء في بداية العلم أم في نهايته . وفي النهاية هي الأكثرية عندما ضمر العلم وأصبح علماً للعقائد ، وهو حال العلم الآن(٧) .

٤ ـ مصنفات تحتوي على مادة العلم دون بنائه ، وهي كالعقائد إلاَّ أنها معروضة عرضاً عقلياً وكأنها مسائل أصولية(٨) .

٥ ـ مصنفات على أصول مذهبية ، وغالبها إعتزالية لما كان المعتزلة هم الذين صاغوا فكرهم في أصول خمس(٩) .

٦ ـ مصنفات على موضوعات ، وغالبها أشعري نظراً لأهمية موضوعات معينة مثل التنزيه والتشبيه أو الأسماء والصفات أو خلق القرآن أو خلق الأفعال أو الإمامة(١٠) .

٧ ـ مصنفات جدلية خصمية دون بناء ، يغلب عليها الموضوعات المتفرقة ، من جميع المذاهب ، ومعظمها لم يصل إلينا(١١) .

---

(٦) « المحيط » ، « المغني » .

(٧) « الفقه الأكبر » ، « الاعتقاد » ، « النظامية » ، « النسفية » ، « العضدية » ، « السنوسية » ، « التوحيدية » ، « الخريدة » ، « الجامع » ، « الوسيلة » ، ومنها ما يعتمد على النصوص مثل عقائد السلف المتقدمة ومنها عقائد أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وابن قتيبة ، وعثمان الدارمي أو المتأخرة للصابوني ، والمقريزي ، والصنعاني ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والشوكاني .

(٨) « المسائل الخمسون » ، « مسائل أبي الليث » .

(٩) « شرح الأصول الخمسة » أو بعض أصولهم مثل رسائل العدل والتوحيد للبصري ، والقاسم الرسى ، والقاضي عبد الجبار ، والشريف المرتضي ، ويحيى بن الحسين ، والنيسابوري .

(١٠) « أساس التقديس » ، وهو تطوير لعقائد السلف النصية .

(١١) « الانتصار » .

٨ ـ مصنفات إصلاحية إما تعود إلى مصدر العقائد في النصوص وإلى الواقع المباشر لتوجيه النصوص إليها وإما تعيد بناء العلم بحيث يمكن أن يؤدي إلى الغاية المرجوة وهو الإصلاح وذلك عن طريق وصف العلم، وبيان مصادر التشتت أو العودة إلى التاريخ، وتتبع مساره كتقدم حتى ينتهي إلى إستقلال الشعور فكراً وإرادة(١٢) .

٩ ـ مصنفات حضارية تضع علم الكلام مع العلوم الأخرى في وصف شامل للحضارة، تطورها وبنائها(١٣) .

ولم تتحدث المصنفات القديمة التي تضمنت بناء العلم عن تطور هذا البناء وكأنه أتى من لا شيء، وانتهى إلى لا شيء أو أتى من ذهن العالم وتقسيمه العفوي للكتاب(١٤) . كان كل عالم قديم يبدأ من فراغ ، فأتت المصنفات متجاورة في

---

(١٢) هذا واضح في « رسالة التوحيد » ، « كتاب التوحيد » .

(١٣) مثل « الدر النضيد » ؛ « مقدمة » ابن خلدون .

(١٤) تعرض بعض المقدمات التقليدية لأقسام الكتاب فقط . فمثلاً يتحدث الملطي الشافعي في «التنبيه والرد» عن أربعة أقسام ضاع الأول والثاني والرابع ولم يبق إلا الثالث. أما البغدادي فإنه يتحدث في «أصول الدين» عن خمسة عشر قسماً ولكل قسم خمسة عشر قسماً فيكون المجموع ٢٢٥ مسألة ! مبرراً القسمة من الشريعة وليس من تطور العلم أو بنائه (أصول الدين ص ١ ـ ٣) ؛ أما الغزالي فإنه يتحدث عن «تمهيدات» أربعة الثلاثة الأولى منها عن وجوبه والرابعة عن نظرية العلم . ثم يدير العلم كله حول أقطاب أربعة الثلاثة الأولى في نظرية «الذات والصفات والأفعال» والرابع عن الرسول والنبوة ، الأخرويات (الأسماء والأحكام) ، الامامة ، (الفرق) ، (الاقتصاد ص ٤ ـ ٥) ؛ أما الرازي فإنه يضع علم الكلام في «معالم أصول الدين» مع علوم أربعة أخرى قائلاً ، «فهذا مختصر يشتمل على خمسة أنواع من العلوم المهمة أ ـ علم أصول الدين ب ـ علم أصول الفقه جـ علم الفقه د ـ الأصول المعتبرة في الخلافيات هـ ـ أصول معتبرة في آداب النظر والجدل» (معالم أصول الدين ص ٣) ؛ أما الآمدي فإنه اقتصر على الاعلان على اشتمال مصنفه على ثمانية قوانين دون ذكر للأسباب (غاية المرام ص ٥) ؛ ويذكر البيضاوي أنه رتب كتابه على مقدمة (نظرية العلم) وثلاثة كتب (الممكنات ؛ والإلهيات ، والنبوة) والتي يتحدد فيها بناء العلم دون أن يُصرّح بذلك ولكن تظهر فيها تسمية العقليات بدلاً عن الإلّهيات.لأول مرة فلم يعد في العلم موضوعاً لا عقلياً إلا النبوة (طوالع الأنوار ص ٦) ؛ أما الايجي فإنه يرتب المواقف في ست وكل موقف في ست مراصد: نظرية العلم ، والأمور العامة ، والعرض ، والجوهر ، والعقليات ، والسمعيات . أما الجسر فإنه يعقد مقدمة عن علم الكلام وثلاثة أبواب ، الايمان بالله ، والايمان بالرسل ، وورد شبه عن نصوص يوحي بالبناء المزدوج =

الزمان لا رابط بينها في حين أنه يمكن رؤية تطور هذا البناء منذ بدايته واكتماله حتى نهايته ، إذ لم يكتمل بناء العلم في هذه المصنفات مرة واحدة بل تطور البناء إبتداء من الشعور التاريخي حتى الشعور البنائي . وفي كل مرحلة يظهر جانب من جوانب البناء ويمكن تتبع تكوين البناء على النحو الآتي :

ثانياً : ظهور الموضوعات من خلال الفرق ، وظهور الفرق من خلال الموضوعات :

يبحث البناء في هذه المرحلة التكوينية الأولى عن كيانه المستقل عن الفرق . وفي هذه المرحلة يتداخل الشعور البنائي مع الشعور التاريخي فيظهر الشعور البنائي من خلال الشعور التاريخي مرة ، ويظهر الشعور التاريخي من خلال الشعور البنائي مرة أخرى . وقد تمت هذه المرحلة في القرون الخمسة الأولى على النحو التالي :

١ ـ ظهور موضوعات من خلال الفرق (التنبيه والرد) في مقابل ظهور الفرق من خلال الموضوعات (التمهيد) : تظهر الموضوعات من خلال الفرق بلا إحصاء أو تبويب ولكن كموضوعات متفرقة ، تتحدد فيها مادة البناء دون صورته . الفرق ، إسلامية وغير إسلامية ، هي الأساس . ولكن تنبزغ منها الموضوعات معلنة إستقلالها عن التاريخ وهي تشمل حوالي خمس العلم وفي مقدمتها موضوعات مثل : باب ذكر متشابه القرآن ، وباب ذكر الجامعة والنصيحة في الدين . الأول يدل على أن علم الكلام نشأ من تفسير النصوص ، والثاني يشير إلى تربية الجماعة بإرجاعها إلى نصوص الدين كأوامر وليس كنظريات ، مما يدل على أن الإحساس بخطورة علم الكلام كان مصاحباً لنشأته[١٥]. تظهر المادة

= للعلم والدفاع عن بعض الشبهات وهو طابع العلم المتأخر (الحصون الحميدية ص ٤) .

(١٥) بعد أن يعرض الملطي الشافعي في « التنبيه والرد » للفرق الأربع : الروافض ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والخوارج ، وقبل أن ينتقل إلى نقدها يدخل في موضوعين : باب ذكر متشابه القرآن ، وباب في ذكر الجماعة والنصيحة في الدين . في الموضوع الأول تغلب الاشارة إلى الجهمية لانكارها لوقائع المعاد من جنة ونار ، وصراط ونيران ، وحوض وشفاعة . ولانكارها التشبيه من استواء ويد ونزول وصعود لله . والموضوعان معاً يشملان أقل من خمس العلم . التنبيه ص ٥٤ ـ ٩٠ .

الكلامية من خلال تاريخ الفرق ، مختلطة غير واضحة المعالم . فهي تاريخ للفرق ، وتاريخ للجماعة الأولى ، وبيان لعقائد أهل السنة ، ونقد للفرق . يختلط في ذلك كله النقل بالعقل مع الإعتماد أكثر على النقل حتى لتقترب بعض المصنفات من كتب الآثار لكثرة ما ورد فيها من منقول[١٦] .

ولكن في مقابل ذلك ، تظهر الفرق من خلال الموضوعات ، خاصة من خلال موضوعي التوحيد والنبوة . ويتم التركيز على الفرق غير الإسلامية لأنها هي التي تمثل الخطورة من الثقافات المجاورة الغازية حتى أنها تشمل أكثر من نصف العلم[١٧] . ثم تظهر الموضوعات وهي توحي ببناء العلم . فتظهر نظرية العلم ونظرية الوجود كمقدمة للعلم ، وهو ما استقر في بناء العلم حتى قبل مرحلة العقائد الأخيرة . ولكنها لا تشمل إلا جزءاً من سبعة أجزاء من العلم في حين أن هذه المقدمات هي التي ستبتلع العلم كله فيما بعد ، حين اكتمال بناء العلم[١٨] . وفي بناء العلم ذاته ، تفوق السمعيات الإلّهيات (التوحيد والعدل) من حيث الكم مما يدل على أن العلم ما زال في مرحلته الإيمانية ، ولم تصبح فيه بعد العقليات ، وهي الإلّهيات الموضوع الأشمل والأعم . كما تتداخل السمعيات مع الإلّهيات من حيث الأولوية . فأحياناً تكون لها الأولوية إذ تسبق النبوة الحديث عن المجسمة في حين أنها أصبحت تالية للإلّهيات في بناء العلم النهائي مما يدل على أن العلم ما زال في مرحلة تسبق فيها السمعيات العقليات ، وتغلب فيها الموضوعات الإيمانية

---

(١٦) « وشرحت نصاً من المحكم وأيضاً عن الخبر » التنبيه ص ١ .

(١٧) في « التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والروافض والخوارج والمعتزلة » على غير ما يوحي به العنوان من التركيز على الفرق الاسلامية يذكر الباقلاني خمس فرق غير اسلامية دفاعاً عن التوحيد وهي : القائلون بفعل الطباع ، والمنجمون ، وأهل التثنية ، والمجوس ، والنصارى ، وخمس فرق أخرى دفاعاً عن النبوة وهي : البراهمة ، والمجوس ، والصائبة ، واليهود ، والنصارى . التمهيد ص ٥٢ ـ ١٤٨ .

(١٨) نظرية العلم ونظرية الوجود في «التمهيد» ص ٣٤ ـ ٤٦ ؛ الإلّهيات والتوحيد والعدل ص ٤٦ ـ ٩٦ ؛ السمعيات (النبوة والامامة) ص ٩٦ ـ ٢٤١ ؛ النبوة ص ٩٦ ـ ١٤٨ ؛ المجسمة والصفات والأحوال ص ١٤٨ ـ ١٦٠ ؛ التوحيد ص ٤٦ ـ ٩٦ ؛ العدل ص ٥٠ ـ ٥٢ ؛ الامامة ص ١٦٠ ـ ٢٤١ .

على الموضوعات العقلية . وفي الإلهيات ، يفوق التوحيد من حيث الكم العدل حوالي عشرين مرة مما يدل على أن الدفاع عن الله كان هو الغالب على الدفاع عن الإنسان ، وأن إثبات الله في ذاته وصفاته كان أهم من إثبات الله في أفعاله ، وهو ما حدث في العقائد المتأخرة عندما ابتلع التوحيد العدل من جديد ، وضاع العدل لحساب التوحيد ، واختفى الإنسان لحساب الله . ولكن يبقى للعدل ميزتان : الأولى أنه مبحث متميز عن التوحيد ولو أنه قليل من حيث الكم ، والثاني أنه أحياناً يسبق التوحيد من حيث الترتيب والأولوية وأحياناً يتلوه . وتداخل التوحيد مع العدل في موضوع الأفعال يدل على ظهور العدل من خلال التوحيد كموضوع مستقل يبلغ أوجه في المصنفات الإعتزالية عندما يفوق العدل التوحيد على الأقل من حيث الكم إن لم يكن من حيث الترتيب . أما السمعيات فإنها تتركز كلها حول موضوعين اثنين : النبوة والإمامة من موضوعات أربع ظهرت فيما بعد في بناء العلم : النبوة والمعاد ، والأسماء والأحكام (الإيمان والعمل) ، والإمامة . ولكن من حيث الكم تفوق الإمامة النبوة ، وتبلغ أربعة أمثالها مما يدل على أهمية السياسة على الدين نظراً لحداثة العهد بالمشكلة السياسية التي فجرت علم الكلام وعملت على نشأته . وهو ما نفتقده حتى الآن إذ سقطت الإمامة كلية من العقائد المتأخرة التي تركزت حول موضوعي الله والرسول . وإن اختفاء موضوع المعاد ليدل على أن ظهوره كان متأخراً بعد تباطؤ الدفعة الأولى التي أنشأت الحضارة الإسلامية وعلومها العقلية ، وبدأ الناس يفكرون في آخرتهم ودنياهم وهو ما استمر في كتب العقائد المتأخرة ، وما زال يفعل في وجداننا المعاصر ، كما أن اختفاء موضوع الإيمان والعمل يدل على سرعة انتهائه من العقائد المتأخرة ، وتحويله إلى عقائد الإيمان Credo وما يجب على المسلم التسليم به . ولكن تبقى ميزة أخيرة ، وهي تركيز العلم كله حول موضوعي التوحيد والإمامة أي الدين والسياسة ، وإن شئنا الله والشعب ، وأن صوت الله هو صوت الشعب ، وهو ما يمكن تطويره فيما بعد فيما يسمى بلغة عصرنا « الدين والثورة »[١٩] .

(١٩) في « الابانة في أصول الديانة » للأشعري تظهر الفرقتان في ص ٦ - ١٢ ويشمل باقي العلم ص ١٢ - ٦٧ .

٢ - من الفرق إلى الموضوعات أو من الموضوعات إلى الفرق

تظهر الفرق أولاً وعلى رأسها فرقتا «أهل الزيغ والبدعة» و«أهل الحق والسنة» كبابين مستقلين حتى يمكن مقارنة القولين معاً ثم بعد ذلك يتم الإنتقال من عقائد الفرقتين إلى العقائد من حيث هي موضوعات مستقلة تحاول أن تضع نفسها في بناء العلم[٢٠] . أما من حيث موضوعات العلم ذاته فلم تظهر بعد نظرية العلم ونظرية الوجود ، وكأن ظهورهما قد حل محل الحديث عن الفرق . فالعلم بديل عن الإيمان ، والوجود بديل عن العقائد ، وكان ظهور هاتين النظريتين يمثل تقدماً كبيراً في تحديد بناء العلم إجابة على سؤالي : « كيف نعلم ؟ » و « ماذا نعلم ؟ » . ثم تظهر موضوعات العلم الأساسية بلا بناء واضح . ولكن تبدو موضوعات الإلهيات وقد شملت حوالي تسعة عشر جزءاً من العلم ، وتحظى السمعيات بالجزء العشرين مما يدل على أن الإلهيات كانت في ذلك الوقت في خطر عظيم في حين أن السمعيات لم تكن كذلك ، وأن قوة الدفع في الحضارة كانت في أوجها ، فلم تشغل الناس أمور المعاد بل شغلهم أمر التوحيد . وهذا ما تخلفنا نحن عنه الآن عندما سادت السمعيات وجداننا المعاصر من جديد . وفي الإلهيات يفوق التوحيد العدل من حيث الكم ويكون ضعفه ، مما يشير إلى أن المخاطر نحو الله كانت أعظم من المخاطر حول الإنسان . وعلى رأس موضوعات التوحيد يبرز موضوع إثبات الرؤية لله بالأبصار ، وإثبات قدم القرآن ثم إثبات باقي الصفات مما يدل على أن غاية العلم في البداية كانت إثبات الرؤية ضد منكريها ، وإثبات الصفات ضد نافيها . ولكن يبقى العدل متميزاً عن التوحيد ويمثل نصفه . أما السمعيات فلا تتناول إلا موضوعين : المعاد ، والإمامة دون النبوة ، والإيمان والعمل ، ويحظى المعاد بثلاثة أرباع السمعيات ، ولا تحظى الإمامة إلاَّ بالربع الأخير ، وهو ما ساد حتى الآن في العقائد المتأخرة وفي وجداننا المعاصر من سيادة أمور الآخرة ، وهي أمور المعاد ، على شؤون الدنيا ، وهي السياسة . كما أن عدم ظهور موضوع النبوة يدل على إمكانية قيام العلم في بدايته دونها ، وليس كما حدث في العقائد

(٢٠) موضوعات الإلهيات ص ١٢ - ٦٥ ؛ موضوعات السمعيات ص ٦٥ - ٦٧ ؛ موضوعات التوحيد ص ١٢ - ٤٦ ؛ موضوعات العدل ص ٤٩ - ٦٥ ؛ أمور المعاد ص ٦٥ - ٦٧ ؛ الامامة ص ٦٧ .

المتأخرة من قيامها على محور الله والرَّسول ، وهما أيضاً ركيزتان في وجداننا المعاصر . أما سقوط الإيمان والعمل من السمعيات فإنه يدل على أن الموضوع لم يؤخذ مأخذ الجد ، فلا عجب أن توارى من العقائد المتأخرة ، وتحول إلى مضمون الإيمان ، وهي العقائد التي يجب التسليم بها ، وسقطت مقولة العمل ، وهو ما نعاني منه في واقعنا المعاصر(٢١) .

وفي مقابل الإنتقال من الفرق إلى الموضوعات يمكن الإنتقال من الموضوعات إلى الفرق . فلما كانت كل فرقة كلامية إتجاهاً فكرياً أو يغلب عليها موضوع فكري أمكن تقسيم المادة الكلامية حسب الموضوعات ثم إدراج الفرق تحتها ، وكأن الفرق ما هي إلاَّ حلول متعددة لموضوع واحد. الأصل هو الموضوع ، والفرع هو الفرق . ولكن العيب في ذلك أن الموضوع لم يكن إلاَّ رأس موضوع أو عنوان ، والمادة كلها من اختلاف الفرق في هذا الموضوع . فالمادة الكلامية تعطى تاريخ فرق مقنع تحت ستار الموضوعات . ولكن الفضل يكمن في اكتشاف أن الفرق ليست مجرد تاريخ بل تندرج تحت أصول فكرية أو موضوعات مستقلة ، وبالتالي يمكن حصرها ورؤية جدلها فيما بينها . ولو تركت الفرق بلا أصول لما أمكن حصرها أو ضبطها . فبناء العلم سابق على تاريخ العلم ، والموضوعات هو أساس التشعب والآراء . وقد نشأت الحاجة إلى الأصول من أجل ضبط الفرق إلى عيوب المنهج

---

(٢١) « اعلم أن لأصحاب المقالات طرقاً في تعديد الفرق الاسلامية لا على قانون مستند إلى نص ولا على قاعدة مخبرة عن الوجود . فما وجدت مصنفين منهم متفقين على منهاج واحد في تعديد الفرق . ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما في مسألة ما عد صاحب مقالة وإلا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعدد . ويكون من انفرد بمسألة من احكام الجوهر مثلاً معدوداً في عداد أصحاب المقالات . فلا بد إذن من ضابط في مسائل هي أصول وقواعد يكون الاختلاف فيها اختلافاً يعتبر مقالة ، ويُعد صاحبه صاحب مقالة ما وجدت لأحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضابط لأنهم استرسلوا في ايراد مذاهب الأمة كيف اتفق وعلى الوجه الذي وجد لا على قانون مستقر وأصل مستمر » الملل ج ١ ص ٩ - ١٠ ؛ « فإذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد عددنا مقالته مذهباً ، وجماعته فرقة . بل نجعله مندرجاً تحت واحد ممن وافق سواها مقالته ، ورددنا باقي مقالته إلى الفروع التي لا تعد مذهباً مفرداً فلا تذهب المقالات إلى غير النهاية » الملل جـ ١ ص ١٣ .

التاريخي الصرف الذي يكتفي بسرد الفرق وتوالدها عن بعضها البعض . فالتاريخ لا يمكن فهمه بدون الفكر ، والحركات الفكرية لا يمكن إدراكها إلّا بأنماط عقلية مثالية تكون هذه الحركات تجسيداً لها(٢٢) .

والأصول أربع : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والسمع والعقل . فالأصلان الأول والثاني استقرا فيما بعد في بناء العلم . ولكن الأصل الثالث وهو الوعد والوعيد يشمل مسائل عديدة يدخل بعضها في العدل في موضوع « أفعال الشعور الداخلية »(٢٣) ، والبعض الآخر في السمعيات مثل موضوع الإيمان والعمل الذي يأخذ اسم « الأسماء والأحكام » ، وبعض مسائل المعاد ، وأوائلها في الدنيا مثل التوبة والوعد والوعيد دون صورها الفنية من جنة ونار ، وصراط وميزان ، وحوض وشفاعة . . . إلخ . أما الأصل الرابع ، وهو السمع والعقل ، فإنه يشمل موضوع العقل والنقل ، وهو داخل الإلّهيات مع الذات والصفات والأفعال في بناء العلم بعد اكتماله . ويشمل موضوعي النبوة والإمامة وهما من موضوعات السمعيات . لا توجد إذن تفرقة في الأصول الأربع بين الإلّهيات والسمعيات ، تلك التفرقة التي حدثت في بناء العلم فيما بعد . وأصبح موضوعا النبوة والإمامة من الموضوعات العقلية لدخولها تحت أصل السمع والعقل وليس تحت باب السمعيات كما هو الحال في بناء العلم المتأخر . بل إنه لأول مرة يظهر السمع والعقل كأصل مستقل عن التوحيد والعدل . وبالتالي يكون فكرنا المعاصر قد تخلّف بفتحه باباً للسمعيات تبعاً لبناء العلم المتأخر ، وإسقاطه أصل السمع والعقل ، كما تخلفت عقائدنا المتأخرة بإسقاط العدل وابتلاعه في التوحيد حتى لم يعد العدل موجوداً في سلوك الإنسان أو في النظم الإجتماعية(٢٤) . وهنا تبرز أهمية

---

(٢٢) « أهل الأصول المختلفون في التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والسمع والعقل » الملل جـ ١ ، ص ٦١ .

(٢٣) أنظر « أفعال الشعور الداخلية » في الفصل السابع : « خلق الأفعال » .

(٢٤) « فاجتهدت على ما تيسر من التقرير من التفسير حتى حصرتها في أربع قواعد هي الأصول الكبار : القاعدة الأولى ، الصفات والتوحيد فيها ، وهي تشتمل على مسائل الصفات الأزلية اثباتاً عند جماعة ونفياً عند جماعة ، وبيان صفات الذات وصفات الفعل وما يجب لله تعالى وما يجوز عليه وما =

إحدى الحركات الإصلاحية الحديثة بإبرازها أصل العدل وأصل السمع والعقل من أجل إرساء قواعد العدالة الإجتماعية والعقلانية الحديثة ، وبناء على هذه الأصول الأربع تصبح الفرق أربعاً : القدرية ، والصفاتية ، والخوارج والشيعة(٢٥) . ويُعد ذلك انتصار العقل على التاريخ إذا علمنا أن تاريخ الفرق كان باستمرار تاريخاً موجهاً بالنص الذي يجعلها ثلاثاً وسبعين فرقة !

٣ ـ من الفرق ثم الموضوعات بلا بناء إلى الفرق ثم الموضوعات المبنية : في نفس الوقت الذي يظهر فيه علم الكلام على أنه تاريخ فرق يظهر أيضاً على أنه موضوعات مستقلة ، وإن لم تدخل تحت تبويب معين حتى نعلم بناء العلم . يتم عرض الفرق أولاً ثم الموضوعات ثانياً دون أدنى ربط بين الشعور التاريخي والشعور البنائي ، وكأن هناك شعورين مستقلين عن بعضهما البعض لا رابط بينهما . بل إن عرض الفرق لم يتم طبقاً لأصول معينة فكرية أو طبقاً لبناء معين أو حتى طبقاً لموضوعات علم الكلام الرئيسية بل يدور معظمها حول المسائل الطبيعية ، وبعض مسائل أصول الفقه والأحكام ، وبعض مسائل الكلام مثل الإمامة والذات والصفات دون ترتيب أو تبويب بل أحياناً بتكرار وسرد وكأن المعاني ما زالت تتحسس

= يستحيل وفيها الخلاف بين الأشعرية والكرامية والمجسمة والمعتزلة . القاعدة الثانية ، القدر والعدل وهي التي تشتمل مسائل القضاء والجبر والكسب في ارادة الخير والشر والمقدور والمعلوم اثباتاً عند جماعة ونفياً عند جماعة وفيها الخلاف بين القدرية والنجارية والجبرية والأشعرية والكرامية . القاعدة الثالثة ، الوعد والوعيد ، والأسماء والأحكام ، وهي تشتمل على مسائل الايمان والتوبة والوعيد والارجاء والتكفير والتضليل اثباتاً على وجه عند جماعة ، ونفياً عند جماعة . وفيها الخلاف بين المرجئة والوعيدية والمعتزلة والأشعرية والكرامية . القاعدة الرابعة ، السمع والعقل ، والرسالة والإمامة ، وهي تشتمل على مسائل التحسين والتقبيح والصلاح والأصلح واللطف والعصمة في النبوة وشرائط الامامة نصاً عند جماعة واجماعاً عند جماعة ، وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنص ، وكيفية اثباتها على مذهب من قال بالاجماع ، والخلاف فيها بين الشيعة والخوارج والمعتزلة والكرامية والاشعرية » الملل جـ ١ ص ١١ ـ ١٢ .

(٢٥) هي محاولة محمد عبده في « رسالة التوحيد » . « وإذا تعيّنت المسائل التي هي قواعد الخلاف تبينت أقسام الفرق ، وانحصرت كبارها في أربع بعد أن تداخل بعضها في بعض . كبار الفرق الاسلامية أربع : القدرية ، والصفاتية ، والخوارج ، والشيعة . ثم يتركب بعضها من بعض ، ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة » الملل جـ ١ ، ص ١٣ ، الرسالة

طريقاً نحو البناء ، وكأن علم الكلام ما زال في بدايته ، محاولةً لتجميع المعاني ، وتحويل النصوص إلى موضوعات نظرية وإن لم يجمعها جامع واحد[٢٦] .

وفي مقابل ذلك يُعرض علم الكلام أيضاً على أنه فرق ثم يُعرض ثانياً على أنه موضوعات مبنية . ولكن الفرق هي الفرق غير الإسلامية وعلى رأسها اليونان ، والنصارى ، واليهود ، والبراهمة لأن الفرق الإسلامية تُركت في نهاية العلم كما هو الحال في المصنفات التي تحدد فيها بناء العلم النهائي . وذكر الفرق غير الإسلامية أولاً ليس من أجل السرد والإحصاء أو الاخبار والتعريف أو التاريخ والبيان بل تقوم الفرق على أساس فكري ، وتمثل كل فرقة موضوعاً مستقلاً . الفرقة موضوع تاريخي مستقل ولكنه يتحقق في التاريخ . والفرق ست : الأولى مبطلو الحقائق أو السوفسطائية، وهي تشير إلى نظرية العلم كمقدمة أولى في بناء العلم[٢٧] . والثانية القائلون بقدم العالم دون إله ، والثالثة القائلون بقدم العالم وقدم الله ، والرابعة القائلون بحدوث العالم بمدبرين أو أكثر . وهذه الفرق الأربع تتناول نظرية الوجود وهي المقدمة الثانية في بناء العلم النهائي ، إثبات حدوث العالم وأن له صانعاً ومدبراً[٢٨] . والفرقة الخامسة التي تثبت حدوث العالم ووجود الصانع وتنكر النبوات كلها كالبراهمة . والسادسة كالخامسة ولكنها تثبت بعض النبوات وتنكر البعض كاليهود والنصارى . وهاتان الفرقتان تتناولان موضوع النبوة ، وهو أول موضوع في السمعيات بعد بناء العلم[٢٩] . كل فرقة إذن ليست تاريخاً بذاتها بل هي موضوع ، ومجموعها يكون العقائد الإسلامية في بناء العلم[٣٠] .

---

(٢٦) هذا هو ما فعله الأشعري في « مقالات الاسلاميين » ، الجزء الأول عن الفرق ، والثاني عن الموضوعات . وللأشعري أيضاً «مقالات غير الاسلاميين » مثل اليهود ، والنصارى و « مجمل المقالات » وفيه مقالات الملحدين ومجمل أقاويل الموحدين . ولكنهما لم يصلا الينا جـ ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ من مقدمة محيي الدين عبد الحميد .

(٢٧) انظر الفصل الثالث : نظرية العلم .

(٢٨) أنظر الفصل الرابع : نظرية الوجود .

(٢٩) أنظر الفصل التاسع : النبوة (تطور الوحي) .

(٣٠) يشمل الكلام على رؤوس الفرق المخالفة لدين الاسلام وهي الفرق الست عند ابن حزم كل الجزء الأول من « الفصل » والجزء الثاني حتى ص ١٠٥ وهذه الفرق هي : أ ـ مبطلو الحقائق =

أما الموضوعات فهي ست : التوحيد ، والقدر ، والإيمان ، والوعيد ، والإمامة ، واللطائف أي الطبيعيات . تشمل الإلهيات التوحيد والقدر ، وتشمل السمعيات الإيمان والوعيد والإمامة . أما الطبيعيات فتشير إلى بدايات التفكير العلمي في الطبيعة التي استعملت من قبل كسلم للإلهيات كما هو واضح في دليل الحدوث . أما النبوة فقد دخلت من قبل في عرض الفرق غير الإسلامية وإثبات التحريف في الكتب المقدسة . كما دخلت أيضاً نظرية العلم ونظرية الوجود في عرض الفرق غير الإسلامية . وبالتالي يكتمل بناء العلم بالمنهجين التاريخي والموضوعي ، وظهور الشعورين ، التكويني والبنائي . ومن حيث الأهمية ، تفوق السمعيات الإلهيات من حيث الكم إلى درجة الضعف وهو ما زال مسيطراً على وجداننا المعاصر ، ولو أن جزءاً من السمعيات يغلب عليها الطابع العملي مثل الإمامة والمفاضلة . أما من حيث الكم ، فالطبيعيات هو الموضوع الذي يأتي في الدرجة الأولى مع الإمامة وكأن موضوعي الطبيعة والسياسة هما أهم موضوعين أصوليين في العلم . وهو ما تخلفنا عنه بوجداننا المعاصر عندما توارت الطبيعة ، وفتر الناس من قاموس السياسة بعد أن أصبحت حرفة ونفاقاً[٣١] . ثم تأتي مسألتا القدر والإيمان في الدرجة الثانية مما يدل أيضاً على أن موضوعي حرية

= الذين يسميهم المتكلمون السوفسطائية. ب - اثبات الحقائق إلا أنهم قالوا ان العالم لم يزل وأنه لا محدث له ولا مدبر . جـ - اثبات الحقائق وأن العالم لم يزل له مدبر ولم يزل . د - اثبات الحقائق وأن العالم لم يزل له مدبر وبعضهم قال محدث ، واتفقوا على أن له مدبرين وأنهم أكثر من واحد واختلفوا في عددهم (النصارى) هـ - اثبات الحقائق وأن العالم محدث وأن له خالقاً واحد لم يزل وأبطلوا النبوات كلها و - اثبات الحقائق وأن العالم محدث وأن له خالقاً واحداً لم يزل وأثبتوا النبوات إلا أنهم خالفوا في بعضها فأخروا بعض الأنبياء وأنكروا بعضهم (النصارى) » . وفي مقابل ذلك يضع ابن حزم مجموع العقائد الاسلامية المقابلة في تصور عام قائلاً «وأوضحنا البراهين الضرورية على اثبات الأشياء ووجودها ثم على حدوثها كلها جواهرها وأعراضها بعد أن لم تكن ، ثم على أن لها محدثاً واحداً مختاراً لم يزل وحده لا شيء معه ، وأنه فعل لا لعلة وترك لا لعلة بل كما شاء لا إله إلاّ هو ثم على صحة النبوات ثم على صحة نبوة محمد ، وأن ملته هي الحق ، وكل ملة سواها باطل ، وأنه آخر الأنبياء ، وملته آخر الملل » . الفصل ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٣١) انظر مقالنا « القاموس السياسي والثقة المفقودة » قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية . (العنوان الأصلي الذي غيره رئيس التحرير الرقيب كان : فتور الشعب من قاموس السياسة) .

الأفعال والإيمان والعمل يأتيان من حيث الأهمية بعد الطبيعة والسياسة وكأن الإنسان من حيث هو عامل حر هو الذي ينتشر في الطبيعة وفي السياسة ، وهو الذي يفعل في التاريخ وفي المجتمع . ثم يأتي في الدرجة الثالثة موضوعا التوحيد والوعد والوعيد ، وكأن الإنسان الذي يفعل بحرية في التاريخ وفي المجتمع هو الذي يوحد بالله وهو الذي يكون له مستقبل مضمون . التوحيد إذن ليس شرطاً بل مشروط ، والفعل الحر في التاريخ والمجتمع ليس مشروطاً بل شرط . وبالتالي يكون فكرنا المعاصر قد تخلف عندما جعل التوحيد شرطاً لا مشروطاً ، وعندما جعل فعل الإنسان الحر في التاريخ والمجتمع مشروطاً لا شرطاً . وإذا أخذنا موضوعات الفرق غير الإسلامية في الإعتبار وهي نظرية العلم ونظرية الوجود والنبوة ووضعناها مع الموضوعات الأصولية الست ورتبناها من حيث الأهمية نجد الترتيب الآتي : ١ ــ النبوة . ٢ ــ الطبيعيات . ٣ ــ الإمامة . ٤ ــ القدر . ٥ ــ الإيمان . ٦ ــ التوحيد . ٧ ــ الوجود . ٨ ــ الوعد والوعيد . ٩ ــ العلم . وهو ما تخلفنا عن معظمه بتركنا مسألة النبوة ودراستها دراسة علمية تاريخية ، وتركنا إحساسنا بالطبيعة واتحادنا بها ، وفتورنا من السياسة ، وقصورنا عن الفعل الحر ، وتوارى عملنا وراء الإيمان ، وإعطائنا الأولوية المطلقة لله وللأخرويات ، ثم انحسار العلم عن مظاهر الحياة وعدم إقامتها على أسس علمية . فالعلم كان آخر الموضوعات التسع من حيث الأهمية والكم وإن كان أولها من حيث الترتيب . ومن خلال هذه الموضوعات الأساسية تتم الإشارة إلى الفرق الإسلامية وهي خمس : أهل السنة ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والشيعة ، والخوارج[٣٢] .

---

(٣٢) « ونحن نبتدأ من هنا إن شاء الله تعالى في المعاني التي هي عمدة ما استقر المسلمون عليه وهي : التوحيد ، والقدر ، والايمان ، والوعد ، والامامة ، والمفاضلة ، ثم أشياء يسميها المتكلمون اللطائف » الفصل جـ ٢ ص١١٠ ، الكلام في التوحيد ونفي التشبيه جـ ٢ ، ص ١١٠ ـ ١٦٩ جـ ٣، ص ٣ ـ ١٨ ، الكلام في القدر جـ ٣ ، ص ١٨ ـ ١٣٧ ، كتاب الايمان والكف والطاعات والمعاصي والوعد والوعيد جـ ٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٧٤ ، جـ ٤ ، ص ٣ ـ ٦٨ ، الكلام في الوعد والوعيد جـ ٢ ، ص ٦٨ ـ ١٠٦ ، الكلام في الامامة والمفاضلة جـ ٤ ، ص ١٠٦ ـ ١٧٤ ، جـ ٥ ، ص ٧١ ـ ٢١١ ، أشياء يسميها المتكلمون اللطائف جـ ٥ ، ص ٧١ ـ ٢١١ ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

ثالثاً : من المسائل إلى الموضوعات ، ومن الموضوعات إلى الأصول :

بعد أن ظهرت الموضوعات من خلال الفرق والفرق من خلال الموضوعات ، وقبل أن يتحدد بناء العلم النهائي ظهرت أيضاً عدة مسائل كلامية مستقلة عن الفرق ثم ظلت تتحد فيما بينها في فصول ، وتندرج الفصول تحت أبواب ، والأبواب تحت أصول حتى تظهر في النهاية أصول العلم والتي يمكن بعد ذلك من تكوينها في البناء النهائي للعلم . وإذا جاز نمط التقابل الماضي في تحديد الصلة بين الموضوعات والفرق فإن نمط التدرج والتكوين والتجميع هو الذي يساعد على فهم تكوين البناء النهائي الذي يمكن وصفه كالآتي :

١ ـ **من الأقوال المتفرقة إلى الموضوعات المتناثرة :** ظهرت بعض الأقوال المتفرقة أو الكلام ينشأ حولها الجدل ، هجوماً أو دفاعاً . هنا يبدو العلم ناشئاً من الخصام بين المتحاورين ، والصراع بين المواقف المذهبية دون أن يكون له عرض عقلي شامل ، وكما هو الحال أحياناً في بيئتنا الثقافية المعاصرة عندما تغلب عليها الأقوال دون الأصول . في هذه المؤلفات الجدلية في الرد على الخصوم لا يكون للعلم بناء معين بل يدور حول موضوعات متفرقة يجمعها من بعيد البناء العام للعلم . قد يكون للرد على الخصوم بناؤه الشكلي الخاص ، وهو دفاع المؤلف عن مذهبه أولاً ثم هجومه على مذهب الخصم ثانياً أو الهجوم على مذهب الخصم أولاً ثم الدفاع عن مذهبه ثانياً . ويكون ذلك إما بإيراد أقوال الخصم نصاً ثم الرد عليها أو بإيراد مقالته معنى ثم تفنيدها . ويتم ذلك عن طريق تصحيح الرواية حتى تنقل المقالة على الوجه الصحيح أو تصحيح فهم المقال ضد التشويه المتعمد اما بالنقص أو الزيادة أو التحريف أو التأويل . وهذا مجاله منطق الجدل وأساليبه وليس موضوعات الكلام ، ويتعلق بأساليب البيان أكثر من تعلقه بمضمون البيان[٣٣] .

---

(٣٣) هذا هو موقف الخياط في « الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد » . القسم الأول دفاع عن المعتزلة ضد تشويههم من الخصم (ص ٣ ـ ١٠٣) ، والثاني دفاع من المعتزلة ضد ايقاع الخصم لهم فيما أنكروه على خصومهم (ص ١٠٣ ـ ١٧٣) أنظر منطق الجدل في الباب الأول « حد العلم » ٥ ـ منهجه .

كان العلم إذن مجرد مناقشة حول مقالات نظرية دون أن تندرج في بناء نظري للعلم . وكان معظمها يدور حول المعاد والطبيعيات والنبوّة وبعض مسائل الفقه والإمامة . ولكن الغالب على المقالات موضوعات المعاد والطبيعيات والإمامة ، وهي موضوعات النزاع التي تحاول أن تجد نفسها كموضوعات مستقلة قبل البحث عن أساس نظري أو بناء عقلي لها . ولكن تظل هناك ميزة وهو الحوار والنقاش والصراع الفكري ، وهو ما ينقص بيئتنا الثقافية المعاصرة نظراً لغياب التيارات الفكرية والمدارس الفلسفية باستثناء حركات الإصلاح الدينية الحديثة التي لم تؤت كل ثمارها ، بل أوشك صوتها أن يخفت دون صوت بديل .

ثم تظهر المسائل من خلال الأقاويل والآراء والمناقشات ، وتتحدد المعاني والأوصاف . ولكن يبدأ العلم في الظهور من خلال المسألة . والمسائل كلها تشير من بعيد إلى بناء العلم النهائي الذي سيظهر فيها بعد . تشمل المقدمات ــ نظريتا العلم والوجود ــ حوالي عُشْر العلم على خلاف ما سيبدو في النهاية من ابتلاع هذه المقدمات للعلم ذاته حتى أنها بلغت ثلاثة أرباعه . أما الإلّهيات فإنها تشمل حوالي ثلثي العلم ، التوحيد الثلث ، والعدل الثلث الآخر في مقابل السمعيات التي تشمل الثلث الأخير مما يدل على أهمية الإلّهيات قبل السمعيات نظراً لوجود الأخطار التي تواجه التوحيد بصورة أكثر من الأخطار التي تواجه السمعيات . وتتداخل مسائل التوحيد مع مسائل الوجود أعني دليل الحدوث وهو ما زال حاصلاً حتى البناء النهائي للعلم ، وما زال متحققاً في وجداننا المعاصر من ربط بين الوجود والله أو بين الطبيعيات والإلّهيات . كما تظهر الفرق الإسلامية والفرق غير الإسلامية المعارضة مما يدل على أن العلم من حيث هو بناء ما زال مرتبطاً بالعلم من حيث هو تاريخ . أما السمعيات فإنها لا تشمل إلاّ النبوة والمعاد ، والأسماء والأحكام ، وتسقط الإمامة من الحساب ، وكأن السياسة لا أهمية لها ، وهو ما نعاني منه حتى الآن من فتور الناس من قاموس السياسة . والنبوة أهم الموضوعات السمعية لدرجة أنها من حيث الترتيب تأتي بعد التوحيد مباشرة وقبل العدل ، ويتم إثباتها ضد منكريها ، وتظهر الفرق أيضاً ضمن هذا الإنكار . كما أنها تبلغ من حيث الكم أقل من نصف السمعيات كلها ، وضعف الأسماء

والأحكام التي لا تتجاوز خمس السمعيات . كما يعادل المعاد النبوة من حيث الكم ، وهما معاً يشملان أربعة أخماس العلم . وهو ما زال حاصلاً في وجداننا المعاصر من سيادة السمعيات وعلى رأسها أمور المعاد(٣٤) .

ويستمر التصنيف في المسائل إلى ما بعد ظهور الأصول وإلى ما بعد اكتمال البناء وكأن المسألة هي الغاية النهائية من إقامة العلم حتى أن المسائل فيما بعد تحولت إلى عقائد ، وعادت الأمور مثلما بدأت منه ، من العقائد إلى المسائل ثم من المسائل إلى العقائد من جديد ، ففي المسائل المتأخرة يسقط العلم كما سقط في العقائد المتأخرة وكما يغيب في وجداننا المعاصر . ويبلغ الوجود سدس العلم ، أي أن موضوعات العلم الإلهية والسمعية ما زالت هي السائدة على المقدمات النظرية . أما الإلهيات فإنها تشمل أربعة أخماس العلم ، والسمعيات الخمس الأخير . وفي الإلهيات هذه يمثل التوحيد ستة أضعاف العدل مما يدل على تواري العدل وتقهقره عن التوحيد حتى يضيع كلية في العقائد المتأخرة ، ويختفي من وجداننا المعاصر . وفي السمعيات تختلط مسائل النبوة بالمعاد ، وتبدأ الإمامة بالدعوة إلى السلطان كما نفعل في أيامنا هذه ، ويسقط الإيمان والعمل كما يسقط في عالمنا اليوم . وهو ما حاولت الحركات الإصلاحية الوقوف أمامه ، وإبراز موضوع

---

(٣٤) هذا هو موقف الماتريدي في « كتاب التوحيد » . مسائل العلم ص ٣ ـ ١١ ، الوجود ص ١١ ـ ٣٠ ، التوحيد ص ٣٠ ـ ١٧٦ ، النبوة ص ١٧٦ ـ ٢١٠ ، العدل ص ٢١٥ ـ ٣٢٣ ، المعاد ص ٣٢٣ ـ ٣٧٣، الايمان ص ٣٧٣ ـ ٢٠٠ . وكذلك موقف البيهقي في « الاعتقاد » . ما يجب على العاقل ص ٤ ـ ٦ ، ما يستدل به على حدوث العالم ص ٦ ـ ٣ ، في ذكر اسماء الله ص ١٣ ـ ٤٥ ، في الايمان بالقدر ص ٥٣ ـ ٧٩ ، في الايمان ص ٧٩ ـ ٨٨ ، في الشفاعة ص ٨٨ ـ ١١١ ، في النبوة والامامة ص ١١١ ـ ١٩٨ . ويسمي الكل أبواباً ، « باب القول في . . . » ؛ وكذلك موقف الصابوني بالرغم من تأخره (توفي ٥٨٠ هـ) في « البداية » إذ يتحدث عن موضوعات العلم بعبارة « القول في . . » دون فصول أو أبواب أو قواعد أو أصول . القول في مدارك العلوم ص ٢٩ ـ ٣٠ ، القول في حدوث العالم ص ٣٤ ـ ٣٨ ، القول في توحيد الصانع وتنزيهه وصفاته ورؤيته وارادته ص ٣٩ ـ ٨٤ ، القول في الرسالة والنبوة والكرامة ص ٨٥ ـ ٩٩ ، القول في الامامة ص ١٠٠ ـ ١٠٥ ، في مسائل التعديل والتجوير ص ١٠٦ ـ ١٤٨ ، في الايمان ص ١٤٠ ـ ١٥٧ ، فيما وجب الايمان به بالسمع ص ١٥٨ ـ ١٦٠ .

الإيمان والعمل من جديد مع إعطاء الأولوية للعمل على الإيمان(٣٥) .

وفي دوائر المعارف المتأخرة ، يعود العلم من جديد إلى الظهور من خلال الكلام أي حتى ما قبل المقالات والمسائل ، ولكن يوحي مجموع الكلام بالبناء العام للعلم الذي بدأ يتوارى أيضاً حتى يفسح المجال للعقائد . فالمقدمات التي تشمل نظريتي العلم والوجود تغطي ربع العلم . أما الإلهيات فإنها تعادل نصف العلم ، والسمعيات تمثل ضعف الإلهيات ، وهو ما زال سائداً في وجداننا المعاصر مع ضنك العيش ، وتأزم الحياة . وفي الإلهيات يضم التوحيد العدل ويحتويه في الأفعال ويكون ضعفه . أما السمعيات فإن الإمامة تسقط منها مما يشير إلى انحسار السياسة من فكرنا الديني المتأخر ، ونفورنا منها في واقعنا الحالي بعد تحولها إلى تجارة ومهنة وربح ومكسب . ويعود تاريخ الفرق في الظهور في ختام السمعيات ، وفي موضوع الإيمان(٣٦) . ولكن من خلال المقالات والكلام والمسائل تظهر الفصول التي تدل على بعض الموضوعات المستقلة وليس على بناء العلم ككل ، مثل موضوعات خلق القرآن ، والقدرة ، والرؤية ، والشفاعة . يشير الأول والثالث إلى التوحيد ، ويشير الثاني إلى العدل ، وكلاهما أصلان في الإلهيات . وتشير الشفاعة إلى المعاد ، وهو أصل في السمعيات . ومع ذلك تشير هذه المسائل إلى بناء العلم . فتظهر نظريتا العلم والوجود لأول مرة دون أن يكونا مقدمتين للعلم . بل يظهران متواريين أمام الإلهيات والسمعيات ، ولا يجاوزان جزءاً من أربعة عشر جزءاً من العلم ذاته . ومن ثم يكون العلم المتأخر قد تقدم بالفعل عندما فاقت المقدمتان العلم ذاته . ولو تطور العلم فيما بعد لابتلعت المقدمات كلها ما تبقى من الإلهيات

---

(٣٥) هذا هو موقف الرازي في « المسائل الخمسون » التي كان يمكن عرضها أيضاً مع العقائد المتأخرة . ويشمل الوجود المسألتين الأوليين ، والتوحيد المسائل ٣ - ٣٣، والعدل المسائل ٣٤ - ٣٨، والمعاد والنبوات المسائل ٣٩ - ٤٦ ،والامامة . المسائل ٤٧ - ٥٠ .

(٣٦) هذا هو موقف الهروي الحفيد في « الدر النضيد » ، وكان يمكن عرضه أيضاً مع العقائد المتأخرة إلا أننا هنا نعرض لبناء العلم أكثر من عرضنا لتاريخ العلم ص ١٣٣ - ١٤٠ ، الوجود ص ١٤٠ - ١٤٣ ، التوحيد ص ١٤٣ - ١٥٢ ، العدل ص ١٤٨ - ١٥٠ ، النبوة ص ١٥٢ - ١٥٩ ، الايمان ص ١٥٩ - ١٦٦ ، المعاد ص ١٦٦ - ١٧٤ .

والسمعيات . ويكون فكرنا المعاصر الآن قد تخلف عن هذا التقدم السابق بتواري نظريتي العلم والوجود أمام الإلهيات والسمعيات . ومن حيث الكم تفوق السمعيات الإلهيات إلى حد ما مما يدل على أهمية السمعيات وأمور المعاد في بدايات العلم . وتكون سيادة السمعيات في وجداننا المعاصر عود إلى بدايات العلم وقضاء على تقدمه . وفي الإلهيات ، يتميز العدل عن التوحيد ، ويساويه في الأهمية ، ولم يتم ابتلاعه داخل التوحيد كما هو الحال في العقائد المتأخرة وفي وجداننا المعاصر . وفي السمعيات تكون للإمامة وللإيمان والعمل الأولوية على المعاد والنبوة من حيث الترتيب إذ أنهما يبدآن السمعيات ، ومن حيث الكم إذ أنهما يبلغان ثلاثة أرباع العلم . ويكون فكرنا المعاصر متخلفاً عن هذا النمط القديم عندما أصبحت الأولوية للنبوة وللمعاد كما هو الحال في بناء العلم المتأخر . بل إن الإمامة لها الأولوية على الإيمان والعمل من حيث الترتيب والكم مما يدل على أهمية السياسة في بدايات العلم وتخلف واقعنا المعاصر عن هذا النمط القديم بإخراجنا السياسة كلية من بناء العلم كما هو الحال في العقائد المتأخرة أو على أقصى تقدير إعتبارها ملحقاً للعلم وليس داخلاً فيه كما هو الحال في بناء العلم النهائي ، ومما يدل أيضاً على أولوية العمل الجماعي على العمل الفردي كما هو واقع في حياتنا المعاصرة من إعطاء الأولوية للعمل الفردي على العمل الجماعي ، أي عمل الزعيم على ممارسة الجماهير ، وبطولة القائد على إشراك الشعوب . ثم تظهر الموضوعات الأربعة المستقلة من خلال المسائل ، وهي الموضوعات التي ما زالت مثاراً للجدل وللخلاف : القرآن ، والقدر والجرح والتعديل ، والشفاعة ، والرؤية . القرآن والرؤية في التوحيد ، والقدر والجرح والتعديل في العدل ، والشفاعة في السمعيات . ولكن الترتيب من حيث الكم هو في الحقيقة : خلق القرآن ، الإرادة ، الرؤية ، الشفاعة مما يدل على أن موضوع خلق القرآن كان من أولى موضوعات الجدل والنزاع ، وهو الأولى بالإحياء في فكرنا المعاصر بمدلول حديث في اعتبار الوحي تعبيراً عن واقع ومن ثم فهو حادث أكثر منه تنزيلاً من فكر ومن ثم فهو قديم . تعني حادث أنه يتغير في فهمه وتفسيره طبقاً لمتطلبات الواقع وتعني القديم أنه سابق على التجربة لا يتغير بتغير الواقع وتطور التاريخ . ويعادل موضوع خلق

القرآن أربعة أضعاف الرؤية من حيث الكم ، وهو ما يحدث في فكرنا المعاصر عندما تثار قضية الرؤية في الدين الشعبي وفي الطرق الصوفية دون إثارة قضية خلق القرآن بمدلولها الحديث . وتدل هذه الموضوعات الأربعة على سيادة الإلهيات ، خلق القرآن ، والرؤية ، والإرادة على السمعيات في موضوع الشفاعة وهو أيضاً ما يحدث في فكرنا المعاصر . ولكن في الإلهيات ، يبلغ التوحيد أربعة أضعاف العدل من حيث الكم ، وهذا ما حدث في علم الكلام العقائدي عندما ابتلع التوحيد العدل كلية حتى ضاع العدل من وجداننا المعاصر . وفي السمعيات لا يظهر إلاّ موضوع الشفاعة وهو ما يحدث في فكرنا المعاصر من استمرار للشفاعة الدينية والدنيوية معاً كموجّه لسلوكنا القومي(٣٧) .

٢ ـ من الموضوعات إلى الفصول ، ومن الفصول إلى الأبواب : ثم تتحول هذه الموضوعات إلى فصول ، والفصول إلى أبواب . وقد تم ذلك أيضاً في القرنين الرابع والخامس . وإن ظهور الموضوعات في فصول كثيرة دون تبويبها في موضوعات أقل ودون إحصاء لهذه الفصول ليدل على أن بناء العلم لم يكتمل بعد في حين أن الموضوعات قد أخذت إستقلالها النهائي . فتظهر نظرية العلم مع شرعيته في حين تختفي نظرية الوجود . وذلك يدل على أن انفصاله عن التوحيد فيما بعد يمثل تقدماً ملموساً للعلم وتبرز الطبيعة ولو أنها ما زالت سلماً لله . وتمثل نظرية العلم حوالي عشر العلم ، وبالتالي يكون علم الكلام المتأخر قد خطا خطوات حاسمة باتساع موضوعي العلم والوجود حتى أنهما أصبحا ثلاثة أرباع العلم . ويكون وجداننا المعاصر قد تخلف عن بناء العلم باسقاطنا من حياتنا العلم والوجود أو المعرفة والطبيعة نظراً لسيادة الإلهيات وابتلاعها الطبيعة ، والسمعيات كبديل للمعرفة . ثم تتعادل الإلهيات والسمعيات من حيث الكم إن لم تَفُقِ الأولى الثانية

---

(٣٧) هذا هو موقف الباقلاني في « الانصاف » ، نظرية العلم ص ١٣ ـ ١٥ ، ص ١٩ ـ ٢٣ ، الوجود ص ١٥ ـ ١٨ ، التوحيد ص ٢٣ ـ ٤٥ ، العدل ص٤٥ ـ ٥١ ، المعاد ص ٥١ ـ ٥٤ ، الايمان والعمل ص ٥٤ ـ ٦٠ ، النبوة ص ٦١ ـ ٦٤ ، الامامة ص ٦٤ ـ ٧٠ ، خلق القرآن ص ٧٠ ـ ١٤٣ ، الخلق والارادة ص ١٤٤ ـ ١٦٧ ، الشفاعة ص ١٦٨ ـ ١٧٦ ، الرؤية ص ١٧٦ ـ ١٩٤ .

بقليل . وفي الإلهيات يختلط موضوع العدل بالتوحيد مما سهل ابتلاع التوحيد للعدل في علم الكلام العقائدي ، ومما يسبب رسوخ تواري مقولة العدل من وجداننا المعاصر . بالإضافة إلى أن التوحيد يفوق العدل من حيث الكم ، أكثر من خمسة أضعاف ، مما يدل على طغيان التوحيد على العدل في نمط فكرنا القديم ، واستمرار هذا النمط حتى الآن باستثناء الأصول الإعتزالية عندما فاق العدل التوحيد . أما السمعيات فتختلط بعض مسائلها مثل الإيمان والعمل مع بعض مسائل العدل . كما تظهر بعض مسائل العدل مع الإمامة مما يدل على تشتت العدل وضياعه بعد أن ابتلع التوحيد جزءاً منه ، وتشتت الباقي في السمعيات ، مرة في المعاد ، ومرة في الأسماء والأحكام ، ومرة في الإمامة . كما تختلط في السمعيات بعض مسائل الإيمان والعمل مع بعض موضوعات المعاد ، وسيادة المعاد على الإيمان والعمل وهو ما يحدث في فكرنا المعاصر حتى الآن . وتدخل بعض موضوعات النبوة في الإمامة مما يدل على سيادة التفكير الديني على الفكر السياسي ، وهو ما يحدث حتى الآن . كما تظهر الإمامة كموضوع إلّهي أكثر منه كموضوع سياسي ، وإنتهاء الإمامة بالهجوم على الروافض من أهل الإباحة وأهل النجوم أي على الصوفية والفلاسفة مما يشير إلى اتصال العلوم القديمة بعضها ببعض ، وبداية ظهور موضوع التاريخ كملحق للإمامة[٣٨] .

وقد تختفي نظرية العلم ، وتظهر نظرية الوجود لأن الربط بين العلم والمعلوم لم يكن ضرورياً بعد ، كما حدث في بناء العلم . ولا يمثل الوجود إلاّ حوالي جزءاً من عشرين جزءاً مما يكوّنه العلم ، وهو ما يحدث في وجداننا المعاصر من ربط للعلم بالإشراقيات أو ترك المعلوم بلا علم . ويظهر العلم ذاته من عدة فصول دون عد أو إحصاء ولكن تبدأ الأبواب في الظهور ، على الأقل باب واحد في ذكر ما يستحيل في أوصاف الباري، وأصل واحد في حدوث العالم ووجود الصانع . ومن

(٣٨) هذا هو موقف النسفي في « بحر الكلام » . العلم وشرعيته ص ٢ - ١٤ ، التوحيد ص ١٥ - ٣٤ ، العدل ص ٣٥ - ٣٧ ، الايمان والعمل ، والمعاد ، والعدل ص ٣٨ - ٥٣ ، النبوة والمعاد ص ٥٤ - ٧٨ ، الامامة ص ٧٩ - ٩٧ .

ثم ، تبدأ الفصول المتفرقة في التجمع تحت أبواب أكبر ، وفي أصول أشمل حتى يظهر بناء العلم فيما بعد . وتبلغ الإلهيات ثلاثة أضعاف السمعيات مما يدل على استمرار النمط القديم في فكرنا الديني المتأخر وفي وجداننا المعاصر . وفي الإلهيات يظهر التوحيد ثم العدل مختلطاً ببعض مسائل التوحيد وكأن العدل ما هو إلا تطبيقات للتوحيد ، وليس باباً مستقلاً عن فعل الإنسان وعقل الإنسان . ومن حيث الكم يفوق التوحيد العدل ، ويبلغ ثمانية أضعافه مما يدل على سهولة ابتلاع التوحيد للعدل في فكرنا الكلامي المتأخر ، وضياع العدل كلية من وجداننا المعاصر . وفي السمعيات تبتلع النبوة باقي الموضوعات مثل المعاد والإيمان والعمل ، وتظهر مسألة العقل والنقل مع النبوة وهي في الحقيقة إحدى مسائل التوحيد . وتبلغ النبوة ثلاثة أرباع السمعيات ، ولا تترك للإمامة إلا الربع الأخير . فالتوحيد هو الموضوع الأول ، وما سواه ملحق له . وهو الموضوع الوحيد الذي ظهر على أنه أصل ، وهو الموضوع الوحيد الذي ظهر في باب مستقل هو الباب الوحيد ، وما سواه فصول . مما يدل على أن علم الكلام كله قائم على أصل واحد هو التوحيد ، وهو ما ظهر في إحصاء الأصول قبل بناء العلم الكامل[٣٩] .

ثم تظهر الفصول في أبواب أكثر ، ويتحدد بناء العلم ولو أنها أبواب في القول . وتظهر نظريتا العلم والوجود معاً مما يشير إلى بداية استقرار العلم من حيث مقدماته النظرية ، ولكنها تشمل من حيث الكم جزءاً من خمسة عشر جزءاً تكون مادة العلم كله ، وبالتالي يكون علم الكلام المتأخر قد خطا خطوات واسعة بإعطاء الأولوية للمقدمات النظرية على مادة الكلام ذاتها . ونكون نحن قد تخلينا عن مكاسب العلم المتأخرة بإسقاطنا العلم والوجود من وجداننا المعاصر . وتمثل الإلهيات أكثر من ضعف السمعيات ، وهو ما زال أيضاً في فكرنا المعاصر عندما تتبادل الإلهيات والسمعيات معاً كمحاور في فكرنا القومي . وفي الإلهيات يفوق التوحيد العدل ، إذ يمثل التوحيد ثلاثة أخماس الإلهيات ، والعدل الخمسين

(٣٩) هذا هو موقف الجويني في « لمع الأدلة » . الوجود ص ٧٦ ـ ٨١ ، التوحيد ص ٨٢ ـ ١٠٥ ، العدل ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ، النبوة ص ١٠٩ ـ ١١٣ ، الامامة ص ١١٤ ـ ١١٦ .

الباقيين ، وهو ما استمر في علم الكلام المتأخر باختفاء العدل في بطن التوحيد ثم ضياعه كلية من وجداننا المعاصر . وفي السمعيات تعادل النبوات من حيث الكم الموضوعات الثلاث الأخرى ، المعاد ، والإيمان والعمل ، والإمامة مما يدل على استمرار هذا النمط حتى الآن في فكرنا المعاصر بتركيزنا على النبوة ، وبتفكيرنا في النبي . ويكون موضوع الإيمان والعمل أقل الموضوعات كما هو واضح في حياتنا المعاصرة بالرغم من محاولة الحركات الإصلاحية من تغيير ذلك . وتتداخل بعض مسائل الإمامة مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المعاد والإيمان والعمل . وكذلك تبرز بعض مسائل العدل مثل الآجال والأرزاق والأسعار في السمعيات بين النبوة والمعاد[٤٠] .

وقد تظهر مع الأقوال والفصول والأبواب الكتب ، مجموعة من الأقوال تكوّن فصلاً ، ومجموعة من الفصول تكون باباً ، ومجموعة من الأبواب تكون كتاباً . وبالتالي يتحدد بناء العلم أكثر فأكثر في عدة جوانب تكون أساساً للعلم . وتظهر نظريتا العلم والوجود في خمس العلم تقريباً مما يدل على بدايات ابتلاع المقدمات النظرية للعلم . ولكن الوجود يفوق العلم من حيث الكم إذ ينحو نحو الإستقلال بذاته ، وتتداخل مباحثه مع التوحيد حتى أنه بقدر ما يظهر الوجود يختفي التوحيد ، وبقدر ما يظهر التوحيد المشخص يختفي الوجود ، وكأن تحويل « الثيولوجيا » إلى « أنطولوجيا » عملية فكرية وتاريخية طبيعية . وتظهر مباحث جديدة في الوجود مثل مباحث العدل ومباحث الأحوال . وتبدو الإلهيات وقد تجاوزت من حيث الكم السمعيات وكأن السمعيات لا تكون جزءاً أساسياً من بناء العلم ، حوالي الثمن ، والإلهيات سبعة أثمان العلم ، على خلاف الحال الآن في وجداننا المعاصر المفتوح على السمعيات بلا تردد . وفي الإلهيات لأول مرة تفوق مسائل العدل مسائل التوحيد نظراً لبلوغ التيار الإعتزالي قمته ، ومحاولة الأشاعرة

(٤٠) هذا هو موقف الجويني في « الارشاد ». العلم ص ٣ - ١٧، الوجود ص ١٧ - ٣٠، التوحيد ص ٣٠ - ١٨٧، العدل ص ١٨٧ - ٣٠٢، النبوة ص ٣٠٢ - ٣٥٨، المعاد ص ٣٥٨ - ٣٩٦، الايمان والعمل ص ٣٩٦ - ٤١٠، الامامة ص ٤١٠ - ٤٣٤.

صده ، والوقوف أمامه ، إذ تبلغ مسائل العدل ثلاثة أرباع الإلهيات ، والتوحيد الربع الأخير . وتكون خسارة كبيرة ما حدث فيها بعد في بناء العلم الأشعري عندما ابتلع التوحيد العدل في نظرية الذات والصفات والأفعال ، وعندما ضاع العدل كلية من وجداننا المعاصر بالرغم من محاولات بعض الحركات الإصلاحية من إحيائه من جديد . وتتفصل مسائل العدل إلى الإرادة ، والقدر ، والتولد ، والطبائع ، والتعديل والتجوير . أما السمعيات فلا تشمل إلّا موضوعاً واحداً هي النبوات دون المعاد أو الإيمان والعمل أو الإمامة ، مما يدل على استمرار هذا النمط حتى الآن في وجداننا المعاصر خاصة بتواري الإيمان والعمل والسياسة(٤١) .

وقد تختفي الفصول كلية ، ويتحول العلم كله إلى أبواب محصاة ، ومن ثم يبدأ بناء العلم في الظهور . فالأبواب تحتوي على الموضوعات ، وإن لم تتحول الموضوعات بعد إلى أصول نظراً لأن عدة موضوعات تكون أصلاً واحداً . فتختفي نظرية العلم ونظرية الوجود باعتبارهما مقدمتين نظريتين للعلم مما يدل على أن ظهورهما يعد تقدماً أساسياً في بناء العلم خاصة بعد أن اتسعا في فكرنا الكلامي المتأخر ، ومما يدل على مقدار التخلف بسقوطهما في فكرنا المعاصر . وقد تبدو بعض مسائل الوجود في التوحيد وكمقدمة له مما يدل أيضاً على أن ظهورها في النصف الثاني من القرن الرابع يمثل تقدماً أساسياً في بناء العلم خاصة بعد تمددها في علم الكلام المتأخر وابتلاعها نصف العلم تقريباً حتى أصبحت تمثل ثلاثة من مباحثه الستة ، ومما يدل على مدى التخلف الذي وقع فيه فكرنا المعاصر باختفائها وتواريها تماماً . وتظهر أبواب عشر ، تشمل الإلهيات السبع الأولى، والسمعيات الثلاث الباقية . فالإلهيات من حيث الكم تمثل تسعة أعشار العلم ، والسمعيات العشر الأخير مما يشير إلى تخلف فكرنا المعاصر الذي قلب الآية ، وتجاوزت السمعيات

---

(٤١) هذا هو موقف الجويني في « الشامل » . ولسوء الحظ لم يُنشر إلّا كتاب النظر ، وكتاب التوحيد ، وكتاب العلل . أما باقي الكتب فمفقودة . ولكن لها مختصر في « الكامل » يشير إلى الكتب الناقصة وهي : كتاب الصفات ، كتاب الارادة ، كتاب القدر ، كتاب النبوات ، كتاب إبطال القول بالتولد ، كتاب الرد على الطبائعيين ، كتاب التعديل والتجوير . الشامل ص ٨٧ ؛ نظرية العلم ص ٩٧ - ١٢٣ ، الوجود ص ١٢٣ - ٣٤٣ ، التوحيد ص ٣٤٥ - ٦٢٥ ، العلل ص ٦٢٩ - ٧١٦ .

الإلهيات من حيث الكم من كثرة ما يُنشر ويُذاع في السمعيات . وفي الإلهيات يتميز التوحيد عن العدل ، هذا التمييز الذي اختفى في علم الكلام المتأخر والمعاصر حيث سادت نظرية الذات والصفات والأفعال ، وحيث ابتلع التوحيد العدل ، مما يدل على تخلفنا عن بعض مواطن فكرنا القديم ، ومن حيث الترتيب كان للتوحيد الأولوية على العدل ، وهو ما ساد العلم منذ بدايته حتى نهايته ، وهو أحد أسباب ابتلاع العدل في التوحيد ، وأحد أسباب تخلف فكرنا المعاصر . ومن حيث الكم يساوي التوحيد العدل ، مما يدل على أن فكرنا القديم قد ركّز عليهما معاً وعلى خلاف ما حدث في علم الكلام المتأخر وفي فكرنا المعاصر من اختفاء العدل لصالح التوحيد . وقد فصلت مسائل العدل في ثلاث : القدر ، والاستطاعة ، والتعديل والتجوير . لم يكن العدل مسألة كلية فحسب بل ازداد تفصيلاً وبناء وتكويناً . وفي السمعيات تظهر موضوعات ثلاث فقط : الإيمان والعمل ، والمعاد ، والإمامة . ولم تظهر مسألة النبوة مما يدل على أنها لم تكن أساساً في العلم منذ البداية ، ومما يشير إلى مقدار تخلف فكرنا المعاصر بتركيزنا على النبوات . ويدل ترتيب المسائل الثلاث على أهمية الإيمان والعمل على المعاد ، وهو أيضاً ما تخلفنا عنه بتواري موضوع الإيمان والعمل وظهور مسائل المعاد في وجداننا المعاصر(٤٢) .

٣ ـ من الفصول والأبواب إلى القواعد والأصول : وبعد ذلك ينتقل البناء من الفصول والأبواب إلى القواعد والأصول التي تكون دعامة البناء النهائي . فيظهر علم الكلام مندرجاً تحت عشرين قاعدة . تختفي نظرية العلم مما يدل على أهمية الوجود على العلم . وهو ما سيتضح أكثر فأكثر عندما يبلغ الوجود ثلاثة أرباع العلم في القرون الثلاثة التالية ، السادس والسابع والثامن . ومما يدل أيضاً على عدم رسوخ نظرية العلم كجزء من علم الكلام ، ومما يفسر أيضاً غياب نظرية في العلم من وجداننا المعاصر . ولكن تبدأ نظرية الوجود ، بالإضافة إلى تذييل في الجوهر الفرد في نهاية العشرين قاعدة . والكل يبلغ عشر العلم مما يدل على وجود

(٤٢) هذا هو موقف الأشعري في «اللمع» ولو أنه متقدم تاريخياً عن الباقلاني والجويني والنسفي والرازي والهروي . التوحيد ص ١٧ ـ ٦٨ ، العدل ص ٦٩ ـ ١٢٢ ، السمعيات ص ١٢٣ ـ ١٣٦ .

بوادر لفصل الفكر العلمي في الوجود عن الفكر الديني ، فقد كان الوجود دائماً مقدمة للإلهيات ، حول دليل الحدوث أو الإمكان ، وانفصال الجوهر الفرد عن البحث يوحي ببدايات التفكير العلمي المستقل ، وهو ما نصارع من أجله في فكرنا المعاصر ، من أجل استقلال فكرنا العلمي عن فكرنا الإلهي . ويتركز مبحث الوجود على رفض الفيض بعد أن أصبحت نظرية الفيض خطراً على علم الكلام آتياً من علوم الحكمة . ونظراً لهذا الغزو الداخلي فإن علم الكلام أصبح هو الجانب الإيجابي في مقابل رفض الفلاسفة الحكماء الذي يمثل الجانب الهدمي . فبعد تأسيس علم الكلام على عشرين قاعدة يمكن هدم فلسفة الحكماء الإلهيين أيضاً على عشرين قاعدة . وتبلغ الإلهيات من حيث الكم قدر السمعيات باثنتي‌عشرة مرة أي أن الإلهيات هي كل العلم تقريباً وان السمعيات لا تمثل إلاّ جزءاً من اثني عشر جزءاً من العلم ، على خلاف فكرنا المعاصر الذي تسوده السمعيات والإلهيات على قدر سواء . وفي الإلهيات تختلط مسائل التوحيد والعدل فيظهر العدل أولاً مركزاً على حدوث الكائنات ، ويختفي ضمن إثبات الحدوث بإحداث الله . ثم ينتهي التوحيد أيضاً ببعض مسائل العدل مثل العقل والنقل . يبدأ التوحيد إذن بمسألة خلق الأفعال وإنكارها وينتهي بموضوع العقل والنقل ، وإعطاء الأولوية للنقل على العقل ، ويشمل التوحيد أربع عشرة قاعدة تتخللها بعض مباحث الوجود مثل الأحوال والمعدوم والشيء والهيولى والصورة مما يدل على تآكل التوحيد لصالح الوجود كما حدث في علم الكلام المتأخر ، فقد ابتلع التوحيد نصف العدل في أول التوحيد ، وهو خلق الأفعال . ومع ذلك يشمل التوحيد أكثر من نصف العلم ، وأصبح يوازي العدل أكثر من ست مرات مما يدل على تواري العدل في علم الكلام المتأخر ، واختفائه كلية في وجداننا المعاصر . أما السمعيات فلا تظهر إلاّ في القاعدة الأخيرة ، القاعدة العشرين ، في موضوعات النبوة ، والأسماء والأحكام ، والمعاد ، والإمامة ولكنها لا تشمل إلا جزءاً ضئيلا من العلم دون تفصيل لمسائلها[٤٣] .

(٤٣) هذا هو موقف الشهرستاني في « نهاية الاقدام » . الوجود ص ١ ـ ٥٣ ، العدل (حدوث الكائنات) ص ٥٤ ـ ٨٩ ، التوحيد ص ٩٠ ـ ٣٦٩ ، العدل (العقل والنقل) ص٣٧٠ ـ ٤١٦ ، =

ثم تتناقص القواعد والأصول من عشرين قاعدة إلى خمسة عشر ، وهو العدد الكامل في الشريعة ، خمس عشرة سنة أو يوماً أو آذانـاً أو درهماً أو دينـاراً أو إبلاً أو بقـراً أو بعيراً ! ولـو أخذنـا الأعداد من الشـريعـة لأعـطتنـا كـل الأعـداد ، خمس صلوات ، ستين مسكيناً ، ستين يومـاً صيامـاً كفارة ، سبعـة أيام ، سبـع ليالٍ ، سبع سموات ، الشفع والوتر ، الواحد ، والاثنين ، والثلاثة ، والأربعة ، والعشرة والسبعين . . . الخ. مما يدل عـلى أن العدد خمسـة عشر ليس من داخـل العلم بل من خارجه ، مستعاراً من الفقه . تـظهر نـظريتا العلم والـوجود في الأصلين الأول والثاني ، ويمثلان معاً خمس العلم أو سدسه تقريباً . ويكون الـوجود أكبـر قليلاً من العلم ممـا يشير إلى تقـدم المقدمـات النظريـة واحتوائهـا للعلم ذاته تـدريجيـاً . أمـا الإلٓهيات فإنها تبلغ نصف السمعيات ، وتبلغ السمعيات ضعفهـا ، وهو مـا يتضح أيضاً في وجداننا المعاصـر . وتشمل الإلٓهيـات أربعة أصـول (الثالث ، والـرابع ، والخامس والسادس) ، وتتركز على نظرية الذات والصفات والأفعال بـالإضافـة إلى الأسماء ، وهو مـا سيتضح أيضـاً فيما بعـد في بناء العلم الشـامل . ويـظهر العـدل متميزاً عن التوحيد ، وهو ما افتقدناه فيما بعد . ولكن يفوق التوحيد العـدل بأكـثر من ثلاثة أضعاف ، وهو ما استمر في فكـرنا المعـاصر حتى اختفـاء العدل في بـطن التـوحيد في العقائـد المتأخـرة وفي وجداننـا المعاصـر . أما السمعيـات فإنها تشمـل الأصلين السـابع والثـامن عن النبوات والكـرامـات والمعجـزات زيـادة في تفصيـل النبوات ، وإضافة أصلين جديدين (التاسع والعاشر) عن الإسلام ومعرفة أحكـام التكليف بـاعتباره آخـر مرحلة من مـراحل النبـوة واعتمـادهـا عـلى العقـل في فهم الأحكام . وهو ما بدأ يتضح في الحركات الإصلاحية بحديثها عن الإسلام كشريعة وتاريخ بدلاً من الحديث عن النبوة كعقيدة ودين . ويشمـل المعاد (الحـادي عشر) والأسـماء والأحكام (الثـاني عشر) والإمـامة في الأصـول الثلاثـة الأخيرة ومـا يتبع

= السمعيات ص ٤٤٦ ـ ٥٠٥ ، تذييـل (الجوهر الفرد) ص ٥٠٥ ـ ٥١١ . وقـد تنجز غـرضنا من عشرين قاعدة في بيان نهايات اقدام أهل الكلام وان تنفس الأجل وأمهل العمر شرعنـا في عشرين أخرى في بيان نهايات أوهام الحكماء الإلٓهيين .

الإمامة من أحكام العلماء والأئمة وتاريخ الفرق(٤٤) .

وقد يدور العلم كله حول أساس واحد يكون هو بناء العلم ، ويكون هو التوحيد بلا مقدمات نظرية من علم أو وجود ، وبلا عدل كمحور ثان للإلهيات وبلا سمعيات كمحور ثان للعلم ، وذلك من أجل نفي التجسيم والتشبيه والحيز والمكان ، وإثبات التنزيه على الطريقة الأشعرية . ويدور العلم حول أربعة أقسام : الأول في اثبات التنزيه ، والثاني في تأويل المتشابهات ، والثالث والرابع في تقرير مذاهب السلف ، وكأن العلم إذا أراد أن يختار له موضوعاً واحداً هو الله دون العدل، وهو فعل الإحسان، ودون السمعيات التي تشير إلى ماضي الإنسان في النبوة ومستقبله في المعاد ، ومحله في الأسماء والأحكام ، ومجتمعه في الإمامة . هذا التركيز على الله هو مأساتنا حتى الآن . وقد انغرس في وجداننا المعاصر باعتباره هو الموضوع الأول والأخير في الفكر والسلوك(٤٥) .

(٤٤) هذا هو موقف البغدادي في « أصول الدين » إذ يقول « وقد جاءت في الشريعة أحكام مرتبة على خمسة عشر من العدد . وأجمعت الأمة على بعضها واختلفوا في بعضها . فمنها على اختلاف سن البلوغ لأنها من الشافعي في الذكور والاناث خمس عشرة سنة بسني العرب دون سن الروم والعجم ، ومنها مدة أكثر الحيض عند الشافعي وفقهاء المدينة خمسة عشر يوماً بلياليها ، ومنها أول الطهر الفاصل بين الحيضتين فإنه عند الأكثر خمسة عشر يوماً ، وهذا كله على أصل الشافعي وموافقيه . فأما على أصل أبي حنيفة واتباعه فإن كلمات الأذان عندهم خمس عشرة ، ومقدار حد الاقامة التي توجب عندهم الصلاة خمسة عشر يوماً . وأجمعوا على وجوب خمسة عشر درهماً في زكاة ستمائة درهم ، وخمسة عشر ديناراً في زكاة ستمائة دينار . فإذا بلغت الابل الستمائة وجب فيها خمسة عشر نبت لبون . وإذا بلغت البقر السائمة ستمائة وجب فيها خمسة عشر سنة . فإذا كانت أربعمائة وخمسين بقرة وجب فيها خمسة عشر تبيعاً أو تبيعة . وأجمعوا على أن الواجب في منقلة الرجل الحر خمسة عشر من الابل وفي ثلاثة من اسنان الرجل الرحل خمسة عشر بعيراً ، وفي سنة من أسنان المرأة خمسة عشر بعيراً ، وفي ثلث أصابع المرأة الحرة خمسة عشر بعيراً . ومثل هذا كثير من أحكام الشريعة . ولأجلها لم يكره لتقسيم قواعد الدين على خمسة عشر أصلاً ، وتقسيم كل أصل منها خمس عشرة مسألة » . الأصول ص ٢ - ٣ ، العلم ص ٤ - ٣٣ ، الوجود ص ٣٣ - ٦٨ التوحيد ص ٦٨ - ١٢٠ ، العدل ص ١٢٠ - ١٥٣ ، النبوة ص ١٥٣ - ٢٢٨ ، المعاد ص ٢٢٨ - ٢٤٧ الايمان ص ٢٤٧ - ٢٧١ ، الامامة ولواحقها ص ٢٧١ - ٣٤٢ .

(٤٥) هذا هو موقف الرازي في « أساس التقديس » . التنزيه والجسمية ص ٤ - ٧٩ ، تأويل المتشابهات ص ٧٩ - ١٧٣ ، تقرير مذهب السلف ص ١٧٣ - ١٩٧ .

وفي مقابل علم الكلام على الطريقة الأشعرية ومحاولاته لاحصاء الموضوعات من أجل تحديد بناء العلم ، كانت هناك محاولات لعلم الكلام على الطريقة الإعتزالية ابتداء من الرسائل في العدل والتوحيد عن القدر ضد المجبرة إلى ظهور معظم موضوعات العدل والتوحيد[٤٦] في عشرين جزءاً يعبر عنها بالقول والكلام والفصول . تشمل المقدمات مع الإلهيات ثلاثة أرباع العلم ، والسمعيات الربع الأخير . ويبدو أن المقدمات النظرية أعني نظريتي العلم والوجود لم تتجاوز جزءاً من عشرين جزءاً من العلم لأن نظرية العلم تدخل في مسائل العدل ، الحسن والقبح أو النظر والمعارف . والوجود هو المبحث الذي اعتمدت عليه الأشاعرة لصياغة دليل الحدوث أكثر من اعتماد المعتزلة عليه . وما دام العلم ذاته عقليا فلم يكن هناك داع لتصديره بمقدمات نظرية كما هو الحال عند الأشاعرة عندما ظل العلم لديهم عقائدياً . ولفظ الإلهيات لفظ أشعري يغطي مباحث التوحيد والعدل . ولكن المعتزلة لا يضمون الأصلين ، التوحيد والعدل ، تحت مبحث واحد ، هو الإلهيات ، من أجل الإشارة إلى ضرورة التمييز بين هذين الأصلين حرصاً على عدم ابتلاع التوحيد للعدل كما حدث في علم الكلام على الطريقة الأشعرية ، وكما نقاسي منه الآن من اختفاء العدل كلية كأصل مستقل في وجداننا القومي . ولأول مرة يكون التوحيد نصف العدل ، ويكون العدل ضعف التوحيد . إذ يشمل التوحيد مع المقدمات النظرية الأجزاء الخمسة الأولى في حين يشمل العدل الأجزاء العشرة التالية . بل إن بعض مسائل التوحيد التقليدية دخلت في مبحث العدل مثل خلق القرآن . وتفصلت مسائل العدل فشملت الإرادة ، والتعديل والتجوير ، والمخلوق ، والتوليد ، والتكليف ، والنظر والمعارف ،

(٤٦) هذا هو موقف الحسن البصري في « رسالة في القدر » ، والقاسم الرسي في كتاب « أصول العدل والتوحيد » ، والقاضي عبد الجبار في « المختصر في أصول الدين » ، والشريف المرتضي في « انقاذ البشر من الجبر والقدر » ، والامام يحيى بن الحسين في « الرد على المجبرة والقدرية » ، « كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد ، وتصديق الوعد والوعيد ، واثبات النبوة والامامة في النبي وآله » ، « كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية في الجبر ، واثبات الحق ، ونقض قوله » ، « كتاب الجملة ، جملة التوحيد » ، « الرد على أهل الزيغ من المشبهين » . وكذلك موقف أبي رشيد سعيد النيسابوري في « ديوان الأصول » .

واللطف ، والأصلح ، واستحقاق الذم ، والتوبة أي أنها تشمل الموضوعين الأساسيين للعدل ، خلق الأفعال ، والعقل والنقل أي فعل الإنسان الحر ، وعقل الإنسان المستقل ، كموضوعات مستقلة ، وليس مجرد تطبيقات للتوحيد . فإذا كان التوحيد يشير إلى حق الله ، والعدل يشير إلى حق الإنسان فإن علم أصول الدين الإعتزالي قد أعطى الصدارة لحق الإنسان ، وهو ما لم يحافظ عليه علم الكلام على الطريقة الأشعرية عندما ابتلع التوحيد العدل حتى اختفى العدل كلية من وجداننا المعاصر . ويكون علم الكلام الأشعري هو المسؤول الأول عن تخلفنا الحالي . وقد حاولت بعض الحركات الإصلاحية قلب الآية ، ومعاودة علم أصول الدين الإعتزالي من أجل إعطاء الصدارة للعدل ولكنها لم تؤت أكلها ، ولم تؤثر في الناس ، فقد ظل نصفها أشعرياً في التوحيد ، ونصفها الآخر معتزليا في العدل . وتكون هذه الحركات أكثر جذرية وأشد فاعلية إذا ما حاولت أن تكون إعتزالية في التوحيد والعدل من أجل اتساع المجال لحق الإنسان المطلق وإلاّ قامت حركات الإصلاح بخطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف ، وتكون واقفة وهي تسير أو سائرة وهي واقفة[٤٧] . أما السمعيات فإنها تشمل النبوات ، والامامة ، وربما المعاد ، والأسماء والأحكام . وتشمل النبوات نصف السمعيات نظراً لأهمية إعجاز القرآن ، وإلحاق الشرعيات بالنبوة من أجل التركيز على دور الوحي في المجتمع والتاريخ ، وليس في علاقاته بالنبي وبالله فمهمة الوحي أفقية لا رأسية ، بلاغ من النبي إلى الناس وليس بلاغاً من الله إلى النبي[٤٨] .

---

(٤٧) هذه هي محاولة محمد عبده في « رسالة التوحيد » ، وهي آخر محاولة جادة وشاملة لاعادة بناء علم أصول الدين .

(٤٨) هذا هو موقف القاضي عبد الجبار في « المغني في أبواب التوحيد والعدل » . ولم نشأ أن نجزم بكم المقدمات النظرية لأن الأجزاء الثلاثة الأولى مفقودة . ويبدأ الجزء الرابع عن الرؤية والخامس عن الفرق غير الاسلامية ، موضوعات التوحيد . كما لم نشأ أن نجزم باشتمال السمعيات على موضوعي المعاد والأسماء والأحكام لأن الجزءين الثامن عشر والتاسع عشر مفقودان . وتبدأ السمعيات بالجزء الخامس عشر عن النبوات والمعجزات ، والسادس عشر عن اعجاز القرآن ، والسابع عشر عن الشرعيات ، وتنتهي بالعشرين عن الامامة . أما العدل فيشمل الأجزاء العشر التالية للتوحيد ، ولا ينقصها إلا العاشر الذي يصعب تحديد موضوعه . وموضوعات العدل كالآتي =

وعلم أصول الدين الإعتزالي هو الوحيد الذي حاول أن يقيم ذاته على أصول ، ويحدد بناء العلم عقلياً دون ترك ذلك لفعل التطور والعمل والتاريخ ، جيئة وذهاباً . ومن ثم أمكن تحويل العشرين جزءاً الماضية إلى أصول خمسة مشهورة هي التي تحدد بناء العلم الشامل مرة واحدة وإلى الأبد . فالمقدمات النظرية الأشعرية عن العلم والوجود موجودة في مقدمات الأصول الخمسة . وبالتالي يشترك الإتجاهان في أن بدايات العلم هي في مقدماته النظرية إجابة على سؤالي : كيف أعلم ؟ وماذا أعلم ؟. ومن حيث الكم تشمل هذه المقدمات النظرية عن أول الواجبات وهو النظر المؤدي إلى معرفة الله حوالي ثمن العلم . أما التوحيد ، وهو الأصل الأول ، فإنه يشمل خمس العلم تقريباً ولكنه بالإضافة إلى العدل ، الأصل الثاني ، فإنهما يشملان أكثر من نصف العلم ، وذلك لأن التوحيد نصف العدل، والعدل ضعف التوحيد . فلأول مرة أيضاً في علم أصول الدين يفوق العدل التوحيد ، ويتميز عنه في أصل مستقل ، وهو ما لم نستطع المحافظة عليه بسيادة علم الكلام الأشعري ، وابتلاع التوحيد للعدل ، واختفاء العدل كلية من وجداننا المعاصر . وتتفصل في نهاية الأصل الخامس مسائل العدل ، القضاء والقدر ، أفعال العباد ، العون واللطف والمصلحة والتوفيق والعصمة ، والآجال ، والأرزاق ، والاسعار . أما السمعيات باللفظ العشرين فإنها تشمل الأصول الثلاثة الباقية ، الأصل الثالث عن الوعد والوعيد أي المعاد ، والأصل الثاني عن المنزلة بين المنزلتين أي الأسماء والأحكام ، والأصل الخامس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الامامة . وهي كلها تبلغ نصف العدل من حيث الكم أي أنها تعادل التوحيد . ويظل العدل هو نصف العلم ، والتوحيد والسمعيات نصفها الآخر . وهذا يعني أن العدل ، وهو الأصل الثاني ، يعادل من حيث الكم الأصول الأربعة الأخرى ابتداء من التوحيد ، الأصل الأول ، ماراً بالوعد والوعيد ، وهو الأصل الثالث ، والمنزلة بين المنزلتين ، وهو الأصل الرابع ، والأمر بالمعروف والنهي عن

= ٦ أ ـ الارادة ٦ب ـ التعديل والتجوير ٧ ـ خلق القرآن ٨ ـ المخلوق ٩ ـ التوليد ١١ ـ التكليف ١٢ ـ النظر والمعارف . ١٣ ـ اللطف ١٤ ـ الأصلح ، استحقاق الذم ، التوبة .

المنكر ، وهو الأصل الخامس . صحيح أن الإلهيات بالمعنى الأشعري تشمل أصلين : التوحيد والعدل ، والسمعيات بالمعنى الأشعري تشمل ثلاثة أصول : الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن يظل العدل ، وهو ضعف التوحيد ، يوازي العلم كله ، إلهياته وسمعياته . أما مسائل التوبة التي تنتهي بها الأصول الخمسة فهي أدخل في الأصل الثالث : الوعد والوعيد[49] .

وقد يدور العلم كله على بابي التوحيد والعدل أي يقتصر العلم على الإلهيات بالمعنى الأشعري دون السمعيات مما يدل على أن السمعيات ليست جزءاً جوهرياً من العلم . ولو شئنا الاختيار بين محور واحد للعلم لأبقينا الإلهيات ولأسقطنا السمعيات . فالإلهيات عقلية ، وبالتالي فهي يقينية في حين أن السمعيات نقلية ومن ثم فهي ظنية ، والظن لا يغني من الحق شيئاً . كان علم أصول الدين على هذا النحو الإعتزالي يمثل تقدماً خطيراً في الفكر الديني باستيفاء محوري التوحيد والعدل أي الأصلين الأولين دون السمعيات أي الأصول الثلاثة الأخيرة . ليس معنى ذلك التضحية بالعمل وبالسياسة أي بالفرد والتاريخ لأنه يمكن اللحاق بهما من خلال العدل . بل إن مبحثي التوحيد والعدل كليهما يدخلان تحت اسم « التكليف » . تكليف الله للإنسان مما يشير إلى أن علم أصول الدين على هذا النحو يدور حول محوري الله والإنسان ، وصلة التكليف بينهما وهو تحقيق رسالة الإنسان . فإذا كان العلم ، وهو التكليف ، يشمل تسعة أسفار فإن المقدمتين النظريتين عن العلم والوجود يشملان السفرين الأولين ، وهما حوالي خمس العلم ، مما يدل على أهمية المقدمات النظرية وإن لم تبتلع بعد العلم كله كما حدث في علم

---

(٤٩) هذا أيضاً هو موقف القاضي عبد الجبار في « شرح الأصول الخمسة » . أول الواجبات النظر المؤدي إلى معرفة الله ص ٣٧ ـ ١٤٩ ، التوحيد ص ١٤٩ ـ ٢٩٨ ، العدل ص ٢٩٩ ـ ٦٠٨ ، الوعد والوعيد ص ٦٠٩ ـ ٦٩٤ ، المنزلة بين المنزلتين ص ٦٩٥ ـ ٧٣٨ ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٧٣٩ ـ ٧٧٠ ، مسائل تتعلق بالعدل مثل القضاء والقدر ، أفعال العباد ، المعونة واللطف والمصلحة والتوفيق والعصمة والآجال ، والأرزاق ، الإسعار ص ٧٧٠ ـ ٧٨٩ ، ومسائل التوبة ص ٧٨٩ ـ ٨٠٤ .

الكلام المتأخر ، ثم هوت واختفت من وجداننا المعاصر . ولكن الوجود يمثل ثلاثة أضعاف العلم مما يدل على أهمية مبحث الوجود ، وكيف أنه الوريث الوحيد للتوحيد ونهايته ، وليس فقط مقدمة أو سلماً له . ثم يأتي التوحيد في الأسفار الثلاثة التالية ، الثالث والرابع عن الصفات ، والخامس عن الذات . وينتهي الخامس بالكلام في العدل الذي يشمل آخر الخامس والأسفار الأربعة التالية من السادس حتى التاسع عن الحسن والقبح ، وخلق الأفعال ، والمخلوق ، والتولد . وبالتالي يمثل التوحيد نصف العدل ، والعدل ضعف التوحيد ، ومع أنهما متمايزان إلا أنهما متداخلان . إذ يأتي الكلام على العدل بعد الذات والصفات أي مع الأفعال ثم يأتي موضوعا الإرادة والكلام مع مباحث العدل ، وكأن صفة الإرادة ، وهي من صفات الله عند الأشاعرة هي من مباحث العدل عند المعتزلة لأن المقصود هو الدفاع عن إرادة الإنسان ، وليس إثبات إرادة الله . كما أن مبحث الكلام عند المعتزلة من مباحث العدل لأنه إثبات لخلق القرآن ، وليس إثباتاً لصفة قديمة كما هو الحال عند الأشاعرة . أما من حيث الأصول الأربعة ، فيشمل الأصل الأول المقدمات النظرية ، والثاني والثالث التوحيد ، ذاتاً وصفاتاً ، والرابع بيان ما لا يجوز عليه . وهنا يظهر العدل متداخلاً مع التوحيد . فالعدل دفاع إيجابي عن الإنسان ووصف سلبي لله في حين أن التوحيد دفاع إيجابي عن الله ووصف سلبي للإنسان . ويشمل العدل أكثر من ضعف العلم كله ، المقدمات النظرية والتوحيد معاً . ويُخص العدل بالتفصيل ليس فقط عن طريق الفصول والأبواب ولكن بالكلام . فهناك الكلام في الأفعال ، والكلام في الإرادة ، والكلام في القرآن ، والكلام في المخلوق ، والكلام في التولد مما يدل على أن هذه الموضوعات التي تكوّن مسائل العدل ما زالت تكوّن بطريقة لا شعورية البناء الأساسي للعلم الإعتزالي . ولكنه للأسف لم يظهر في صورة بناء شعوري كما ظهر بناء العلم الأشعري . ومحاولتنا هذه « من العقيدة إلى الثورة » هو انتقال من بناء العلم الأشعري إلى بناء العلم الإعتزالي عن طريق اكتشاف العدل وراء الإلهيات والسمعيات معاً ، واضعاً القرون العشرة الأخيرة « بين قوسين » وعائداً إلى القرن الرابع القديم ، مطوراً بناء علم أصول الدين الإعتزالي ، ولاحقاً بالحركات الإصلاحية الحديثة ، دافعاً إياها

خطوة أخرى إلى الأمام نحو بناء العلم الإعتزالي بعد أن تركت نصفه إعتزالياً ونصفه الآخر أشعرياً . ويكون هذا تطويراً وتحقيقاً لمعنى نهاية الكتاب « في ذكر من ذم القدرية »(٥٠) .

رابعاً : من الأصول إلى البناء :

بعد تحول الموضوعات إلى أصول كان من السهل تركيب الأصول في بناء ، يكون هو البناء النهائي للعلم ، وذلك عن طريق ادخال مجموعة من الأصول معاً في أصل واحد أعم وأشمل بحيث يكون عددها أقل ونطاقها أوسع . وقد تم ذلك تدريجياً على النحو الآتي :

١ ــ **نظرية الذات والصفات والأفعال** : بدأت نظرية الذات والصفات والأفعال في الظهور على أنها المحور الرئيسي للعلم الذي يضم التوحيد والعدل معاً ، التوحيد في الذات والصفات ، والعدل في الأفعال ، ثم إضافة محور آخر هو النبوات أو السمعيات يضم مسائل النبوة والمعاد والإيمان والعمل والإمامة . وقد

(٥٠) هذا هو أيضاً موقف القاضي عبد الجبار في « المحيط بالتكليف » ، السفر الأول ، العلم ص ١١ - ٥٥ ، السفر الثاني ، الوجود ص ٥٥ ـ ١٠٤ ، السفر الثالث ، التوحيد (الصفات) ص ١٠٤ - ١٥١ ، السفر الرابع ، التوحيد (الصفات) ص ١٥١ -١٩٦ ، السفر الخامس ، التوحيد (الذات) ص ١٩٦ ـ ٢٣٩ ، السفر السادس ، العدل ص ٢٣٩ ـ ٢٨٣ ، السفر السابع ، العدل ص ٢٨٣ - ٣٣٣ ، السفر الثامن ، العدل ص ٣٣٣ ـ ٣٨٠ ، السفر التاسع ، العدل ص ٣٨٠ ـ ٤٢١ . ومن حيث الأصول ، الأصل الأول عن العلم والوجود ص ١١ ـ ٧٥ ، الأصل الثاني في التوحيد ص ٧٥ ـ ١٠٤ ، الأصل الثالث في الصفات ص ١٠٤ ـ ١٩٣ ، الأصل الرابع في ما لا يجوز عليه ص ١٩٣ ـ ٤٢٠ . ومن حيث الكلام ، الكلام في العدل ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ ، الكلام في الأفعال ص ٢٣٠ ـ ٢٦٣ ، الكلام في الارادة ص ٢٦٣ ـ ٣٠٦ ، الكلام في القرآن ص ٣٠٦ ـ ٣٤٠ ، الكلام في المخلوق ص ٣٤٠ ـ ٣٨٠ ، الكلام في التولد ص ٣٨٠ ـ ٤٢٠ ؛ والنهاية « في ذكر من ذم القدرية » ص ٤٢١ ـ ٤٢٣ . و « المحيط بالتكليف » لم يُنشر كله بل نشرت تسعة أسفار منه . وفي نسخة خطية أخرى أربعة وثلاثون سفراً . ومع ذلك ، ما قيل عن التوحيد والعدل يظل صحيحاً من حيث التمييز بينهما كأصلين ، وأولوية العدل على التوحيد من حيث الأهمية والكم . وما قيل عن امكانية اقامة علم أصول الدين بلا سمعيات يُخفف بوجود سمعيات لا تزيد على ربع العلم كما هو الحال في « المغني » أو « شرح الأصول الخمسة » .

تسمى هـذه الإضافـات أو تترك بـلا تسمية كـما حـدث في أول بنـاء العلم . هـذا بالإضافة إلى المقدمـات النظريـة عن العلم والمعلوم . وقد حـدث هذا التـركيب في القرنين السادس والسابع على وجـه الخصوص ، وإن كـانت بداياته قـد ظهرت في القـرن الخـامس ، وامتـدت حتى القـرن الثـامن . وكـان العـالم عـلى وعي بهـذا التركيب ، يبرزه ويوضحه في مقدماته ، ولم يتركه على مستوى اللاشعـور ، يدركـه الباحث بعقله أو يركبـه بالاستعـانة ببنـاء العلم المتقدم . وقـد استمرت المقـدمات النـظرية في تمهيـدات أربع تقيم أسـاساً نـظرية العلم بـالإضافـة إلى شرعيـة العلم ودرجة وجوبه مما يدل على أن التسـاؤل حول شـرعية علم الكـلام قد بـدأ يدخـل ضمن مقدماته النظرية ، وهو مـا قد سقط أيضـاً في فكرنـا الكلامي المتـأخر ، وفي وجداننا المعـاصر بـالتسليم بعلم العقائـد دون تساؤل حـول شرعيـة هذا العلم في وقت تضيع فيه مصالح الأمة ، وتتغير مظان الأخطار ، من الفكر إلى الواقع ، ومن العقيدة إلى الشريعـة ، ومن التوحيـد إلى الأرض . أما الـوجود فـإنه يعتبـر مقدمـة للذات في صيغـة دليـل الحـدوث ، وإثبـات العلم بـالصـانـع . ولا تشمـل هـذه التمهيـدات أكثر من عشـر العلم مما يـدل على أن قلب العلم هي نـظريـة الـذات والصفات والأفعال، كل منها تدلّ على قطب، وتشمل ثلاثة أرباع العلم، وهي كلها في التوحيد . أمـا القطب الـرابع فـلا اسم له ولكنـه يشمل النبـوة والمعاد والأسـماء والأحكام والامامة ، وهو ما سمي فيما بعد بالسمعيات. وفي النهـاية يـأتي ملحق في تاريخ الفرق عندما يتحول التاريخ ذاته إلى جزء من البناء[٥١] . هناك إذن محـوران للعلم بعد التمهيدات وقبل الملحق ، وهما الإلّهيات والسمعيات كما سُمِّيا فيما بعد . من حيث الكم تبدو الإلّهيات ثلاثة أضعـاف السمعيات ، وهـو ما زال مستمـراً في وجداننا المعاصر . ويبدو العدل وقد أصبح جزءاً من التوحيد في قطب الأفعال التي تمثل ربع التوحيد من حيث الكم . وبالتالي يتوارى العدل داخل التوحيـد حتى يتم القضاء عليه كلية كما هو الحال في فكرنا الـديني المعاصـر . أما القـطب الرابـع فإن النبوة أهم مباحثه وأكبرها ، فهي تمثل نصفه . ويظهـر المعاد ، والأسـماء والأحكام

(٥١) أنظر، الخاتمة : من الفرق المذهبية إلى الوحدة الوطنية .

في موضوع واحد ، والكل مع الإمامة لا يزيد على ربع العلم . أما التاريخ فإنه لا يزيد على خمس السمعيات التي لا تزيد على ربع العلم مما يشير إلى غياب التاريخ كلية من علم الكلام العقائدي المتأخر ، ومن وجداننا المعاصر على السواء[٥٢] .

ثم تتحول نظرية الذات والصفات والأفعال إلى بناء للعلم يدور حول عشرة أبواب . الأول في العلم والثاني في الوجود . وكلاهما يبلغان سدس العلم كله ، ولكن يفوق الوجود العلم بحوالي ستة أضعاف مما يدل على أن المعلوم أصبح أهم من العلم ، وأن الوجود بدأ يرث التوحيد حتى تمدد الوجود ، ووصل إلى أكثر من نصف العلم بمفرده . والأربعة التالية في الإلّهيات ثم الأربعة الأخيرة في السمعيات ، وبالتالي تكون الإلّهيات نصف السمعيات ، والسمعيات ضعف الإلّهيات كما هو حادث في فكرنا المعاصر من تبادل السيادة بين الإلّهيات والسمعيات . وتشمل الإلّهيات التوحيد في الأبواب الثلاثة الأولى عن إثبات العلم بالصانع ثم الذات ثم الصفات ثم العدل في الباب الرابع بعنوان « القدر » . وتختفي مسألة العقل والنقل داخل خلق الأفعال . فالعدل يتمايز عن التوحيد ولكنه نصفه كما أن التوحيد ضعف العدل مما سهّل فيها بعد ابتلاع العدل في التوحيد ثم اختفاءه كلية في وجداننا المعاصر . أما السمعيات فتشمل الأبواب الأربعة

(٥٢) هذا هو موقف الغزالي في « الاقتصاد » إذ يقول « باب ، ولنفتح الكلام ببيان اسم الكتاب وتقسيم المقدمات والفصول والأبواب وهي مشتملة على أربعة تمهيدات تجري مجرى التوطئة والمقدمات وعلى أربع أقطاب تجري مجرى المقاصد والغايات » . الاقتصاد ص ٤ . التمهيد الأول « في بيان أن الخوض في هذا العلم مهم في الدين » ص ٥ ـ ٧ ؛ التمهيد الثاني « في بيان أن الخوض في هذا العلم وإن كان مهم فهو في حق بعض الخلق ليس بهم ، بل المهم لهم تركه وفيه أربع فرق » ص ٧ ـ ٩ ؛ التمهيد الثالث ، « في بيان الاشتغال بهذا العلم من فروض الكفايات » ص ٩ ـ ١٠ ؛ التمهيد الرابع « في بيان مناهج الأدلة التي استنهجناها في هذا الكتاب ، ثلاثة مناهج ، مسألة خلافية »ص ١٠ ـ ١٥ ، القطب الأول « في النظر في ذات الله » وفيه عشر دعاوى ص ١٥ ـ ٤٤ ؛ القطب الثاني « في الصفات السبعة وما به تختص آحاد الصفات وما تشترك فيه» ص ٤٤ ـ ٨٣ ؛ القطب الثالث « في أفعال الله وأنها جائزة وفيه سبعة دعاوى » ص ٨٣ ـ ١٠٣ ؛ القطب الرابع ، وفيه أربعة أبواب : أ ـ « في اثبات نبوة محمد » ص ١٠٣ ـ ١٠٧ . ب ـ « في بيان وجوب التصديق بأمور ورد الشرع بها » ص ١٠٧ ـ ١١٨ جـ ـ « في الامامة » ص ١١٨ ـ ١٢٤ د ـ « في بيان من يجب تكفيره من الفرق » ص ١٢٤ ـ ١٢٩ .

الأخيرة ، النبوات ، والنفوس الناطقة وأحوال القيامة (المعـاد) والامامـة . فالمعـاد إذن يشمـل بابـين ، النفس الناطقـة وأحوال القيـامة ، حـوالي نصف العلم أو أقل قليلاً ابتداء من المـوت وتميز النفس عن البـدن ثم يتلوه من حيث الكم الإمامـة ثم النبـوة . ولا يظهـر مبحث الإيمان والعمـل أو الأسماء والأحكـام في باب مستقـل . وهذا هو أول بنـاء صريـح للعلم يظهـر في القرن السـادس من مقدمتـين نظريتـين وأبواب ثمان . إلاَّ أن التوحيد جار على العدل في باب الإلّهيـات كما أن المعـاد جار على الإيمان والعمل في باب السمعيات[٥٣] .

ويستمر هذا البنـاء المثمن للعلم بالإضـافة إلى المقـدمتين بـطريقة أو بـأخرى فيـدور العلم مثلاً عـلى ثمانية قـوانين . الأول في نـظرية الـوجود ، ويـدخل العلم معه . فالأولوية للوجود على العلم ، وهو ما اتضح فيما بعـد من تمدد الـوجود حتى أصبح نصف مادة العلم كلها . ومع ذلـك لا تشمل المقـدمتان أكـثر من واحد من عشرين جزءاً من مادة العلم كله في القانون الأول ، ثم تظهر الإلّهيات في القـوانين الأربعة التالية في إثبات الصفات ، وفي وحدانية الباري ، وفي إبطال التشبيه ، وفي أفعال واجب الوجود . وتظهر السمعيات في القوانين الثـلاثة الأخيـرة ، في المعاد ، وفي النبوات ، وفي الامامة . وتمثل الإلّهيـات ضعف السمعيات من حيث الكم ممـا يدل على استمرار هذا النمط حتى الآن في فكـرنا المعـاصر . ويمثـل التوحيـد أربعة أضعـاف العدل ، إذ يشمـل التوحيـد قوانـين ثلاثـة في حين يشمـل العدل قـانونـاً واحـداً ، يـدخـل أيضـاً ضمن أفعـال واجب الـوجـود وليس أصـلاً مستقـلاً عن التوحيد . وتـظهر في العـدل لأول مرة مـادة جديـدة تعادل المـوضوعـات التقليديـة

(٥٣) هذا هو مـوقف الرازي في « معـالم في أصول الـدين » : البـاب الأول العلم ص ٣ ـ ٩ ؛ الثـاني ، المعلومات ص ٩ ـ ٢١ ؛ الثالث، اثبات العلم بالصانع ص ٢١ ـ ٣٨ ؛ الرابع، الصفات ص ٣٨ ـ ٥٩ ؛ الخامس، الصفات ص ٥٩ ـ ٧٢ ؛ السادس، القدر ص ٧٢ ـ ٩٠ ؛ السابع، النبوات ص ٩٠ ـ ١١٣ ؛ الثـامن النفوس النـاطقة ص ١١٣ ـ ١٢٨ ؛ التـاسع، أحـوال القيـامـة ص ١٢٨ ـ ١٥٣ ؛ العـاشر، الامـامة ص ١٥٣ ـ ١٨٢ . وهـذا البناء هـو الذي اتبعنـاه مع اضـافة مقـدمتـين نـظريتين أخـريين عن « حـد العلم » (الفصل الأول) ، « بنـاء العلم » (الفصل الثـاني) فيكون المجموع اثني عشر فصلاً ، أربعة في المقدمات النظرية ، وأربعة في الإلّهيات (الانسـان) ، وأربعة في السمعيات (التاريخ) .

للبحث ذاتـه مثل خلق الأفعـال ، والحسن والقبح ، والغـاية والمصلحـة من أجـل رفض نظرية الفيض ، ورفض قدم العالم ، وإثبـات الحدوث ممـا يدل عـلى خطورة نظرية الفيض في القرن السابع بعد غزو علوم الحكمة لعلوم التـوحيد . وقـد كانت هذه المادة من قبل أدخل في نظرية الوجود. أما السمعيات فإنها تشمل موضوعات ثـلاثة فقط: النبـوة والمعاد، والامـامة دون الأسمـاء والأحكام ممـا يفسـر تـواري موضوع العمل والالتزام السياسي عن حياتنا المعاصرة . وتشمل النبوة والمعاد ثلاثة أرباع السمعيات ، والامامة الربع الأخير مما يفسر أيضاً تواري المسألة السياسيـة في حياتنا المعاصرة أمام التفكير في الأنبياء وفي أحوال الآخرة[٥٤] .

٢ ـ **المقـدمـات ، والإلهيــات ، والسمعيـات** : وبعـد البنـاء المثمن للعلم بالإضافـة إلى المقدمتـين ، والذي بلغ ذروتـه النظريـة في نظريـة الذات والصفـات والأفعال بالإضافة إلى أبـواب النبوة والمعـاد والامامـة يكتمل بنـاء العلم في القسمة الأساسية للعلم إلى إلهيات وسمعيات ، بالإضافة إلى المقدمتين النظريتين عن العلم والوجوداللذيْن يصبحان معاً نظريـة واحدة في أحكـام العقل الثـلاثة : الـوجوب ، والجواز ، والاستحالة ، تضم العلم والوجود معاً ، وهي النظرية التي أصبحت فيها بعد المقدمة النظرية لعلم الكلام العقائدي . وتشمل هذه النظرية جـزءاً ضئيلاً من مـادة العلم كله ، جزءاً من أربعـة عشر جـزءاً . وتشمل الإلهيـات ثـلاثـة أخماس العلم ، ومن ثم تفوق مع السمعيـات الخمسين . وكـلتاهما تتبادلان الأولويـة حتى الآن في فكرنا المعاصر ، ولكن في الإلهيات يتميز التوحيد عن العدل ربما لجـدل بين الأشـاعرة والمعتـزلة ، ومحـاولة الأشـاعرة الـرد على المـوقف الاعتزالي الـذي يعطي الأولوية للعدل على التوحيد ، ويحدث التميز باقصار التـوحيد عـلى الإلهيات . أمـا

---

(٥٤) هذا هو موقف الأمدي في « غاية المرام» . القانون الأول « في اثبات الواجب لذاته» ص ٧ ـ ٢٣ ؛ الثـاني «في اثبات الصفـات وابطـال تعـطيل من ذهب الى نفيهـا» ص ٢٧ ـ ١٤٧ ؛ الثـالث، « في وحـدانية البـاري» ص ١٥١ ـ ١٥٥ ؛ الرابـع « في ابطال التشبيـه وبيان مـا يجوز عـلى الله ومـا لا يجـوز » ص ١٥٩ ـ ٢٠٠ ؛ الخامس ،«في أفعـال واجب الوجـود» ص ٢٠٣ ـ ٢٨٢ ؛ السـادس ، « في المعاد ، وبيان ما يتعلق بحشر الأنفس والأجسام » ص ٢٨٥ ـ ٣١٣ ؛السابـع ، «في النبوات والأفعال الخارقة للعادات » ص ٣١٧ ـ ٣٦١ ؛ الثامن ، « في الامامة » ص ٣٦٣ ـ ٣٩٢ .

العدل فإنه يدخل في أصل ثانٍ هي « العبودية والصفات المرعية في ثبوت الطلبات التكليفية » . ويتساوى حينئذ التوحيد والعدل أو الإلهيات والعبودية من حيث الكم ، ولو أن العدل موضوع تحت شعار « العبودية » ، مما يدل على الخسارة التي أدى إليها اختفاء العدل كلية ، وابتلاعه في التوحيد ، وضياعه من وجداننا المعاصر . أما السمعيات فإنها تتبادل اسمها مع النبوات ، ويظل هذا التأرجح حتى المصنفات المتأخرة باستثناء المصنفات الأساسية في بناء العلم . فالنبوة هي حلقة الوصل بين الإلهيات والعبودية من ناحية وبين السمعيات من ناحية أخرى . فهي بعد الإلهيات والعبودية وقبل السمعيات . وتمثل النبوة والسمعيات تقريباً ستة أسباع العلم ، ويبقى السبع الآخر للإيمان والعمل ، والسياسة . وهذا ما يتضح أيضاً في حياتنا المعاصرة من سيادة الفكر النبوي والأخروي على الفكر العلمي والسياسي . ويتساوى قدر النبوات وأمور المعاد من حيث الكم ، وهما يوجهان فكرنا المعاصر على التبادل . ويحدث هذا التحول في بناء العلم عن وعي تام بالبناء دون أن يكون ذلك متروكاً لاستنباط الباحث أو لعقلنة المادة[٥٥] .

ويتحدد بناء العلم في النهاية كبناء كامل ينسج على منواله معظم المؤلفين الأشاعرة في المقدمتين النظريتين ، العلم والوجود ، والمحورين الأساسيين ، الإلهيات والسمعيات . فيقوم العلم مثلاً على أركان أربعة : المقدمات ، وأحكام

(٥٥) هذا هو موقف الجويني في « العقيدة النظامية » إذ يقول « فصل في ترتيب تراجم العقائد بعد تمهيد حدوث العالم. محصول الكلام بعد ذكره تحصره ثلاثة أبواب. ثم ينقسم كل باب فصولاً . باب في العلم بأحكام الإله ، باب في مناط التكليف من صفات العباد ، باب في النبوات التي بها تتصل الأوامر التكليفية بالعباد ، وبها ترتبط الأمور السمعية في الحشر والنشر ، والوعد والوعيد ، المشعرين بالثواب والعقاب إلى غيرهما مما أنبأ عنه المرسلون وأخبر الصادقون . ويجتاز قواعد الدين مجاز هذه الأبواب . ثم الامامة ليست من العقائد ، ولو نقل المرء عنها لم تضره ، ولكن جرى بالرسم باحكام علم التوحيد بها . ونحن نذكر منها طرفاً مع اثبات الاختصار والاقتصار على ما فيه مقنع وبلاغ يشفي العليل ، ويوضح السبيل ان شاء الله » ص ١٣ ؛ النظر في أحكام العقل ص ٤؛ العلم والوجود ص ٨ ـ ١٣ ؛ باب في الإلهيات ص ١٣ ـ ٣٠ ؛ باب في العبودية والصفات المرعية في ثبوت الطلبات التكليفية ص ٣٠ ـ ٤٧ ؛ النبوات ص ٤٧ ـ ٥٧ ؛ السمعيات ص ٥٧ ـ ٦٩ .

الموجودات ، والإلهيات ، والسمعيات . ولأول مرة تكون المقدمتان أكثر من نصف مادة العلم كله مما يدل على مدى تأخر فكرنا المعاصر باختفاء المقدمات ، وتحويلنا العلم إلى مجرد عقائد يجب التسليم بها عن طريق الإيمان . وتبلغ نظرية الوجود وحدها أكثر من ضعفي نظرية العلم مما يشير أيضاً إلى مدى تخلف فكرنا المعاصر من اختفاء بُعد الوجود منه ، وضياع الطبيعة ، وطمس الواقع في وجدانه . أما الإلهيات فإنها تشمل موضوعات أربعة : الذات ، والصفات ، والأفعال ، والأسماء . ولأول مرة يضاف إلى نظرية الذات والصفات والأفعال مبحث رابع هي الأسماء . وتشمل الأفعال مبحث خلق الأفعال ، والحسن والقبح ، وهما المبحثان الرئيسيان في أصل العدل . وتعادل الإلهيات السمعيات مرة ونصف مما يدل على استمرار هذا النمط حتى الآن في فكرنا المعاصر . أما السمعيات فإنها تشمل لأول مرة بوضوح الموضوعات الأربعة : النبوات ، والمعاد ، والأسماء والأحكام ، والإمامة . ولكن النبوة والمعاد يشملان ثلاثة أرباع العلم ، في حين يشمل الإيمان والعمل مع السياسة الربع الأخير ، مما يدل على تواري العمل والسياسة في حياتنا المعاصرة أمام التفكير النبوي والأخروي . وتتعادل النبوة والمعاد من حيث الكم ، وهو ما يحدث بالفعل في فكرنا المعاصر من تبادلهما الظهور فيه . أما أقل الموضوعات كماً فهو موضوع الإيمان والعمل ، مما يوضح ما نحن فيه الآن من تواري العمل الفردي والجماعي(٥٦) .

وقد يقوم العلم على بناء ثلاثي مع مقدمة واحدة تشمل نظرية العلم وحدها والتي تبلغ من حيث الكم ثمن العلم . أما نظرية الوجود فإنها لأول مرة تدخل في بناء العلم وتمثل أكثر من نصف مادة العلم كله ، إلهياته ونبواته مما يدل على أن فكرنا المعاصر قد سار على هذا النمط في اختفاء نظرية العلم لأنها لم تكن داخلة في بنائه بل ظلت مقدمة نظرية له . وتخلف عن هذا النمط أيضاً بإسقاطه الوجود من

---

(٥٦) هذا هو موقف الرازي في «المحصل». الركن الأول، المقدمات ص ٢ - ٣٢؛ الثاني، أحكام الموجودات ص ٣٢ - ١٠٦؛ الثالث، الإلهيات ص ١٠٦ - ١٥١؛ الرابع، السمعيات ص ١٥١ - ١٨٢.

حسابه بعد أن أدخله بناء العلم القديم كجزء منه . فبعد المقدمة النظرية عن العلم يكـون العلم ذا بنـاء ثـلاثي في ثـلاثة كتب : الأول في الممكنـات ، والثـاني في الإلهيات ، والثالث في النبـوة . الممكنات هي المعلومـات ، والموجـودات والإلهيات هي ذات الله وصفاته وأفعاله ، وهي تعادل النبوة من حيث الكم . ويختفي العـدل كـما هي العادة في الأفعـال . أما النبـوة فإنها تكـون الاسم المفضل عن السمعيـات نـظراً لأهمية النبـوة . وفيها تـظهـر مـوضـوعـات ثـلاثـة فقط : النبـوة ، والمعـاد ، والامامة . وتتعادل فيما بينها من حيث الكم ، وتسقط الأسماء والأحكام مما يدل على تواري العمل من فكرنا ومن وجداننا المعاصر[٥٧] .

وقـد يقوم العلم عـلى بناء سـداسي ، وهو مـا وصـل إليـه البنـاء من اتفـاق واستقرار . يشمل البناء ستة مواقف ، الأربعة الأولى منها في المقدمـات النظريـة ، والإثنان الأخيران في العلم ذاته أي في الإلهيات والسمعيات . ولأول مرة ، يـدخل العلم والوجود معاً كجزأين من بناء العلم ، وليسـا فقط كمقدمتـين نظريتـين له . وفي نفس الوقت يفوقان العلم ذاته من حيث الكم إذ يبلغـان ثلاثـة أرباع العلم . ولا يبقى لـلإلهيات والسمعيـات إلاَّ الربـع الأخير . ولـو أن العلم تطور في مسـاره الطبيعي الارتقائي منذ القرن الثـامن حتى الآن لكانت المقـدمات النـظرية هـذه قد ابتلعت العلم كله خـاصة مـا تبقى منه ، الإلهيـات والسمعيات ، خـاصة بعـد أن تحولت الإلهيات إلى عقليات . وبالتالي لا يبقى إلاَّ السمعيات . وإن محـاولتنا هـذه « من العقيـدة إلى الثورة » هـو استئناف طبيعي لتـطور العلم المتـوقف منـذ القـرن الثامن حتى الآن باستثنـاء « رسالـة التوحيـد » في القرن الثـالث عشر ، وجعله كله عقليـات تقـوم هي ذاتهـا عـلى التجـارب الحيـة أي الـوجـدانيـات التي تنكشف «الواقعيات» من خلالها أي واقع العصر، وقضاياه المصيرية، وأحداثه التاريخية. إن الذي حدث منذ القرن الثامن حتى الآن هو أن العلم نكص راجعاً إلى الوراء ،

(٥٧) هـذا هـو مـوقف البيضـاوي في « طوالـع الأنـوار » . المقـدمـة ص ٧ ـ ٣٥؛ الكتـاب الأول، في الممكنات ص ٣٥ ـ ١٥١؛ الثاني، في الإلهيات ص ١٥١ ـ ١٩٨؛ الثالث، في النبـوة ص ١٩٨ ـ ٢٤٠.

فاختفت المقدمـات النظريـة ، العلم والوجـود . وتحولت الإلّهيـات والسمعيات إلى محوري العلم الأساسي ، الله والنبي . فضاع العلم وضعنا معـه . ويفوق الـوجود العلم بحوالي خمسة أضعاف مما يدل على أن تحليل الوجود الذي يـأخذ وحـده أكثر من نصف العلم ، ويشمـل ثلاثة مـواقف من ستة ، هـو الـوريث الـوحيـد لعلم أصـول الدين ، وأن « الانـطولوجيـا » هي النهايـة الـطبيعيـة لـ « الثيـولـوجيـا » . فـالإلّهيات مـا زالت مشخصة في وثنيـة عقلية في حـين أن تحليل الـوجود العـام هو أقصى درجـات التنزيـه . وقـد تفصـل مبحث الـوجـود حتى احتـاج هـو ذاتـه إلى مقدمات نظرية ، هي « الأمور العامة » بدل أن كان هو مقدمة نظرية للعلم ذاته ، بـالإضافـة إلى مبحثي « الاعراض والجـواهر » بعـد أن كـانـا مبحثـاً واحـداً . أمـا الإلّهيـات فإنها تتعـادل من حيث الكم مع السمعيـات ، وتشمل الـذات والصفات والأفعال والأسماء . ويختفي العـدل بمسألتيـه ، خلق الأفعال ، والعقـل والنقل من الأفعال . أما السمعيـات فإنها تشمـل الموضـوعات الأربعة : النبوات ، والمعـاد ، والأسماء والأحكام، والامـامة . وهـو ما يحـدث في فكرنـا المعاصـر من تركيـزه على النبوة والمعاد ثم يأتي العمل في النهاية . ثم يُضاف تذييل في الفرق ، وذلـك عندمـا يتحول تاريخ الفرق إلى موضوع بنائي كنواة للتـاريخ الـذي لم يقدر لـه الظهـور في بناء العلم إلا على هذا النحو الإضافي(٥٨) . ويتحدد بناء العلم السداسي هـذا عن وعي من المصنف الذي يحاول تعقيل البناء طبقاً للتحليل العقلي الخالص(٥٩) .

---

(٥٨) أنظر الخاتمة : من الفرق العقائدية إلى الوحدة الوطنية .

(٥٩) هذا هو موقف الجرجاني في « شرح المواقف » إذ يقول « والكتاب مرتب عـلى ستة مـواقف . اما أن يجب تقديمه في علم الكلام وهو المـوقف الأول في المقدمـات أو لا يجب. وحينئذ امـا أن يبحث فيه عما لا يختص بواحد من الأقسـام الثلاثة للوجود، وهو الموقف الثاني في الأمور العامة أو عما يختص، فإمـا بالممكـن الذي لا يقوم بنفسه بل بغيره . وهو الموقف الثالث في الاعراض أو بـالممكن الذي يقوم بنفسـه وهو الموقف الرابع في الجواهر . واما بالواجب تعالى فإما باعتبار إرسـاله الـرسل وبعثة الأنبيـاء ، وهو المـوقف السادس في السمعيـات أوْ لا باعتبـاره وهو المـوقف الخامس في الإلّهيـات . والوجه في التقديم والتأخـير أن المقدمـات يجب تقديمهـا على الكـل. والأمور العـامة كـالمبادىء لمـا عداها . والسمعيات متوقفة على الإلّهيات المتوقفة على مباحث الممكنات . وأما تقديم العرض على الجوهر فلأنه قد يستدل بأحوال الأعراض على أحوال الجواهر كما يستدل بأحوال الحركـة والسكون =

وقد يدور بناء العلم أيضاً على ستة أبواب على نفس المنوال السابق حيث يدخل العلم والوجود معاً في بناء العلم في البابين الأولين . وهما يشملان معاً ثلاثة أخماس العلم ، ومادة العلم ذاته الخمسان الباقيان . ولكن يتوارى العلم من المقدمتين ، ولا يبلغ أكثر من جزء من أربعة عشر جزءاً في حين أن الوجود يشمل الثلاثة عشر جزءاً الباقية . يشمل العلم الباب الأول في حين يشمل الوجود الثلاثة أبواب التالية مما يدل أيضاً على تواري العلم في حياتنا المعاصرة بالإضافة إلى تواري الوجود أيضاً إلاّ من الاحساس به كضنك وأزمة تنتظر الفرج أو نتكالب عليه لاحتوائه دون أن نراه أو نتصوره . ويُفصل مبحث الوجود إلى مقدمة عن الأمور العامة ثم ينفصل مبحثا الأعراض والجواهر ، كل منهما في مبحث مستقل . أما الإلّهيات فإنها تعادل السمعيات من حيث الكم ، ولكنها بدأت تتخلى عن الذات والصفات والأفعال . وظهرت المسائل في مطالب وكلام وفصول يجمعها الأصلان ، التوحيد والعدل ، ويتساويان من حيث الكم أي أن مسائل العدل عادت للظهور كصحوة أخيرة قبل الموت النهائي في علم الكلام العقائدي . أما السمعيات فإنها تشمل الموضوعات التقليدية الأربعة ، النبوة ،والمعاد،والإيمان والعمل،والامامة . ويبلغ الإيمان والعمل نصف السمعيات من حيث الكم ، وتلك صحوة أخرى قبل النهاية . وذلك لأن هذا الموضوع كان يأتي باستمرار في النهاية من حيث الأهمية والكم . بل كثيراً ما كان يتم إسقاطه ، وإقصار السمعيات على موضوعات ثلاثة فقط . وبعد الإيمان والعمل في الأهمية والكم يأتي المعاد ثم النبوة . وتأتي الإمامة في النهاية ، ولا تمثل إلا ثمن العلم مما يدل على ضعف أهمية السياسة في وجداننا المعاصر[٦٠] .

على حدوث الأجسام وبقطع المسافة المتناهية في زمان متناه على عدم تركبها من الجواهر الأفراد التي لا تتناهى . ومنهم من قدم مباحث الجوهر نظراً إلى أن وجود العرض متوقف على وجوده » شرح المواقف ص ١٠ - ١١؛ الموقف الأول إلى المقدمات ص ١١ - ٨١ ؛ الثاني ، في الأمور العامة ص ٨١ - ١٩٠؛ الثالث في الأعراض ص ١٩٠ - ٣٥٠؛ الرابع ، في الجوهر ص ٣٥٠ - ٤٦٥؛ الخامس، في الإلّهيات ص ٤٦٥ - ٥٤٤؛ السادس في السمعيات ص ٥٤٥ - ٦٦٨؛ تذييل في ذكر الفرق ص ٦١٩ - ٦٣٤.

(٦٠) هذا هو موقف التفتازاني في « تهذيب الكلام » . الباب الأول في مقدمة علم الكلام جـ ١ ، ص =

ويستمر البناء على ستة مقاصد على نفس المنوال الذي استقر فيه العلم في النهاية في القرنين السابع والثامن . فتدخل المقدمتان النظريتان كجزء من بناء العلم في المقصدين الأول والثاني ، وكلاهما يشملان حوالي ثلثي العلم ، والعلم ذاته الثلث الأخير ، مما يدل على أن نظريتي العلم والوجود هما كل العلم تقريباً ، وهما اللذان سقطا من وجداننا المعاصر ، في حين بقي الثلث الأخير بإلهياته وسمعياته . ولا تشمل نظرية العلم إلا واحداً من أربعة وعشرين جزءاً من العلم أو واحداً من خمسة عشر جزءاً من المقدمات في حين أن الوجود يشمل نصف العلم وأربعة عشر جزءاً من خمسة عشر من المقدمات مما يدل على أهمية الوجود ، وكيف أنه أصبح هو البديل الوحيد لعلم الكلام ، وهو ما أضعناه في القرون الستة الأخيرة من القرن الثامن حتى الآن قبل الإنهيار التام للبناء في علم الكلام العقائدي . وتتفصّل أيضاً مباحث الوجود إلى الأمور العامة ، والعرض ، والجوهر ، كل منها بحث مستقل بذاته . أما الإلهيات فإنها لأول مرة تسمى العقليات مما يدل على أن تطور العلم بالقرن الثامن كان قد شارف على ابتلاع الإلهيات بجعلها عقليات خالصة ، ومن ثم يمكن ضمها إلى المباحث النظرية الأولى . وكان بالإمكان فيما بعد ضم السمعيات أيضاً إلى العقليات أو العمليات أو المستقبليات أو السياسيات أو التاريخيات وذلك لأن النبوة هي تاريخ الوحي ، والمعاد هو مستقبل الإنسان ، والإيمان والعمل هو حاضر الإنسان وفعله في الزمان ، والإمامة هي السياسة والمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان . ولكن لسوء الحظ توقف هذا التطور الأخير ، وانهار البناء في علم الكلام العقائدي إلا من ومضة إصلاحية في الحركات الإصلاحية الدينية الأخيرة التي لم تؤت كل ثمارها بعد . وهذا المصنف « من

= ٧ ـ ٣٣؛ الثاني في الأمور العامة جـ ١ ، ص ٣٣ ـ ٢٦٧؛ الثالث في الاعراض جـ ١ ، ص ١٦٧ ـ ٢٨٠ ؛ الرابع في الجواهر جـ ٢ ، ص ٢ ـ ١٠٣ ؛ الخامس، في الإلهيات جـ ٢ ، ص ١٠٣ ـ ٢٢١ ؛ مسائل التوحيد جـ ٢ ، ص ١٠٣ ـ ١٦٦ ؛ ومسائل العدل جـ ٢ ، ص ١٦٦ ـ ٢٢١ ؛ السادس ، في السمعيات ص ٢٢١ ـ ٣٣٥؛ النبوة جـ ٢ ، ص ٢٢١ ـ ٢٤٠؛ المعاد جـ ٢ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٧٠؛ الايمان والعمل جـ ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ٣٢١ ؛ الامامة جـ ٢ ، ص ٣٢١ ـ ٣٣٥ .

العقيدة إلى الثورة » محاولة لاستئناف هذه الومضة الإصلاحية وتحويلها من أشعرية في التوحيد واعتزالية في العدل إلى إعتزالية في التوحيد والعدل[٦١] . ولكن يبقى البناء النظري هي المقدمات النظرية ، والإلهيات والسمعيات . وهي تعادل ما توصلت إليه علوم الحكمة أيضاً من قسمة الحكمة إلى منطق وطبيعيات وإلهيات . فالمنطق هي نظرية العلم ، والطبيعيات هي نظرية الوجود التي شملت الأمور العامة ومبحث الأعراض ومبحث الجواهر ، والإلهيات هي الإلهيات والسمعيات معاً[٦٢] .

٣ ـ الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات . وبعد اكتمال بناء العلم بدأ يهتز البناء إما لضياع التحليل العقلي الذي يقوم عليه البناء أو طبقاً لمقتضيات ظروف حتمت عليه التفكك والضعف . وأول مظاهر هذا التهدم هو اختفاء المقدمات النظرية التي بلغت أحياناً ثلاثة أرباع العلم ، والتي بلغ فيها الوجود وحده نصف العلم ، وإقصار العلم على محاور ثلاثة : الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات . فقد تعدد المحور الثاني وازدوج وأصبح بديلاً عن المقدمات النظرية . وفي غياب العلم والوجود تحل الأخرويات ، وفي غياب العقل يحضر الخيال ، وبضياع الواقع يحل الوهم . فبدل أن كانت السمعيات والنبوات في البداية مترادفتين في القرن الخامس أصبحتا الآن منذ القرن الثاني عشر متمايزتين ، وأصبحت النبوات وسطاً بين الإلهيات والسمعيات لأن السمعيات تؤخذ من النبوات . كان بالإمكان أيضاً أخذ النبوات وتحويلها إلى عقليات ، ولا تبقى إلاّ السمعيات بمعنى الأخرويات[٦٣] .

---

(٦١) هذه محاولة محمد عبده في « رسالة التوحيد » .

(٦٢) هذا هو أيضاً موقف التفتازاني في «المقاصد». المقصد الأول، في المبادىء جـ١ ، ص ١١ ـ ٢٩٦ ؛ الثاني ، في الأمور العامة جـ ١ ؛ ويشمل المجلد الثاني باقي الأمور العامة والمقصد الثالث في العرض والرابع في الجوهر والخامس في العقليات والسادس في السمعيات .

(٦٣) وقد انقسمت مباحث هذا الفن ثلاثة أقسام أ ـ إلهيات ، وهي المسائل التي يبحث فيها عن الأدلة . ب ـ نبوات ، وهي المسائل المبحوث فيها عن النبوة وأحوالها جـ ـ سمعيات ، وهي المسائل التي لا تتلقى أحكامها إلا من السمع ولا تؤخذ إلا من الوحي . الاتحاف ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات بيان ذلك أنهما جولتان من شرح الخريدة ص ٦٧ .

ويستمر العلم في محاولة التكيف في بنائه مع الظروف الجديدة ، ويغلب عليها طابع التجميع . ففي نفس الوقت الذي يدور فيه العلم حول محوري الإلهيات والسمعيات ، تشمل المقدمات تعريف العلم وموضوعه وثمرته وفضله ووجوبه ، وهو التساؤل القديم حول أساس العلم وشرعيته من جديد . وهو أيضاً تساؤل العصر الحاضر في محاولته أخذ موقف من العلوم التقليدية القديمة بالإضافة إلى مباحث الإيمان ، وما يجب الإيمان به ، والإسلام ، وما ينافي الإيمان ، وأحكام العقل الثلاثة ، مما يدل على أن العلم قد أوشك على التحول إلى علم عقائد إيماني يقوم على التسليم . ولا تشمل هذه المقدمات على أكثر من جزء من عشرين جزءاً تكوّن مادة العلم ، مما يدل على أن تواري المقدمات والإقلال منها قد أدى إلى ما نحن فيه الآن من ضياع للمقدمات النظرية كلها لأي أمر من الأمور . أما الإلهيات فإنها تبلغ نصف السمعيات ، والسمعيات ضعف الإلهيات ، مما يدل على توجه وجداننا المعاصر نحو السمعيات أكثر فأكثر ، وهو ما يحدث حتى الآن . وتبتلع الإلهيات مسائل العدل ، فلا يظهر العدل إلاّ في موضوع واحد داخل الإلهيات وهو موضوع ما يجوز على الله . أما السمعيات فإنها تشمل النبوة والمعاد دون الأسماء والأحكام لأن العلم كله أصبح موضوعاً للإيمان دون العمل . والحقيقة ان الإلهيات والسمعيات كتعبيرين لا يوجدان بل يوجد الإيمان بالله ، والإيمان بالرسل ، فموضوعات العلم كلها موضوعات للإيمان . أما الإمامة فتظهر في الخاتمة أي أنها خرجت عن كونها أساساً للعلم أو ملحقاً به ، وأصبحت مجرد دعوة في وجوب نصب خليفة يقوم بأمر الإسلام والمسلمين ، يحمي كيانهم ، ويصون ثغورهم ، ابان الخلافة العثمانية وهي على وشك الإنهيار ، تدعيماً لها ، ودفاعاً عنها . وتفوق النبوة المعاد من حيث الكم إلى ثلاثة أضعاف مما يدل على تركيز فكرنا الحاضر على النبوة والمعجزة تشخيصاً للوحي وليس «توقيعاً » له أي تحويله إلى نظام في الواقع . ولكن الجديد هو زيادة محور ثالث مع الإلهيات والسمعيات عن « التأويل » من أجل بيان اتفاق العقل والنقل في الموضوعات الطبيعية والأخرويات ، والجغرافيا والتاريخ ، وهي العلوم الجديدة المنقولة عن الغرب أو التي تفتح الذهن عليها في واقعه الخاص . فرضت مسألة العقل والنقل ، دون

تسميتها ، نفسها على العلم من جديد حتى أنها بلغت ربع مادة العلم مما يدل على أن مهمة عالم الكلام الآن هي في أن ينحو نحواً عقلياً في تحليله للموضوعات بل وإعطاء الأولوية لموضوع العقل والنقل على غيره من الموضوعات(٦٤) .

وتبدو بعض مظاهر التجديد الأخرى عن طريق زيادة موضوع على النبوة أو بتعبير أدق تطوير النبوة باضافة الرسالة حيث يبدو الاسلام نظاماً عاماً للحياة ، ويتحد علم أصول الدين مع الفقه ويمحي الفرق بين النظر والعمل . هذا بالاضافة إلى بناء العلم التقليدي الذي يشمل المقدمات النظرية ، العلم والوجود ثم تقسيم العلم ذاته على محورين ، الإلٰهيات من ناحية والنبوة والرسالة من ناحية أخرى . ويبدأ العلم بتجديد ذاته وموضوعه وغايته والاحتياج إليه مما يشير إلى أن التساؤ ل الفقهي القديم قد أثير من جديد إحساساً بأن علم الكلام يحتاج إلى إعادة نظر . تبدأ نظرية العلم ثم نظرية الوجود التقليديتين ، وتشملان معاً ربع العلم ، أي أنهما توارتا قليلاً عن علم الكلام المتأخر ، وعادتا إلى حجمهما الطبيعي . أما الإلٰهيات فإنها تمثل ثلاثة أرباع السمعيات مما يدل على عظم حجم الإلٰهيات في فكرنا المعاصر . ويبتلع التوحيد العدل في نظرية الأفعال . ولكن يظهر موضوع الحسن والقبح من جديد مثل باقي الحركات الإصلاحية من أجل احياء بعض التيارات العقلية القديمة ، ومن أجل إرساء قواعد العقلانية في حياتنا المعاصرة ضد مظاهر الخرافة والسحر والشعوذة . وتبدو مسائل العدل من حيث الكم نصف

---

(٦٤) هذا هو موقف الأستاذ صاحب الفضيلة الشيخ حسين أفندي الجسر مؤلف الرسالة الحميدية « كتاب الحصون الحميدية لمحافظة العقائد الاسلامية » الذي تقرر تدريسه بالمدارس والمكاتب المقدمات ص ٢ ـ ٩ ؛ الباب الأول ، في بيان الايمان بالله ص ٩ ـ ٣٢؛ الثاني في بيان الايمان بالرسل والأنبياء والملائكة واليوم الآخر ص ٣٢ ـ ٩٩؛ الثالث، في رد شبه عن نصوص شرعية لتلك النصوص ص ٩٩ ـ ١٢٨؛ الخاتمة ، في وجوب نصب خليفة يقوم بأمر الاسلام والمسلمين ، ويحمي كيانهم ، ويصون ثغورهم ص ١٢٨ . أما استعمال مادة جديدة من العلوم الطبيعية كما وردت في الغرب فإن ذلك يوحي بضرورة تجديد المادة نظراً لاختلاف الظروف . فقد واجه القدماء مادة من اليونان وفارس والهند ونحن الآن نواجه مادة جديدة من الغرب . ويكون الأمر أكثر الحاحاً في علوم الحكمة . وهذا هو موضوع الجزء الثاني « فلسفة الحضارة » .

الإلهيات دون أن يبرز كموضوع مستقل . ويسقط لفظ السمعيات ويحل محله النبوة دون ذكر للمعاد أو الأسماء والأحكام أو الامامة، مما يدل على امكانية تطوير علم الكلام باسقاط مادة وزيادة أخرى . ولكن اسقاط الايمان والعمل واسقاط المسألة السياسية لا يتفق مع ظروف العصر التي تتطلب البداية بالعمل الفردي والجماعي ، خاصة وأن اضافة الرسالة على النبوة يتطلب تحقيقها بالفعل . ومن الذي سيحققها ان لم يكن العمل الفردي والجماعي ؟ وقد ظهر لفظ « الرسالة » كعنوان أكثر من ظهوره كمادة اضافية على علم الكلام مما يستدعي تطويراً باضافة مادة جديدة حتى يصدق العنوان عليها[٦٥] .

ويتم التجديد على نفس المنوال السابق باظهار مسائل العدل من بطن التوحيد ، وبتحويل النبوة الى مسار تاريخي وليس الى اتصال رأسي ، وبالتالي يختفي أصل السمعيات بالاضافة الى استبدال نظرية العلم الأولى بوصف تاريخي لنشأة علم الكلام ، وكيفية حدوث الفرقة بين المسلمين ، فالوصف التاريخي وبيان النشأة والتكوين أحد مصادر تأسيس العلم . تشمل المقدمات حوالي عشر العلم ، وتعيد كتابة تاريخه لمعرفة ماذا حدث ؟ وكيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ وكيف تكون ؟ فاعادة التفسير والوصف هي الوسيلة للتصفية واعادة البناء عن طريق الاحكام التاريخية التي هي أحكام فكرية ضمنية من أجل اعادة الوحدة الأولى بين الفكر والواقع قبل انفصالها الى فرق منذ الفتنة . فوحدة الفكر تخلق وحدة الأمة[٦٦] . أما نظرية الوجود فإنها أيضاً تظهر في نظرية أحكام العقل الثلاثة التي يمحي فيها الفرق بين العلم والوجود ، وبالتالي تدور المقدمة حول موضوع واحد ، هو الفكر والواقع ، إما من الناحية التاريخية الوصفية أو من ناحية الحكم والمنطق . وهو ما نحتاجه حتى الآن من اعادة تقييم لتراثنا القديم ، وتحديد لصلة الفكر بالواقع . وفي مادة العلم ذاته يسقط اللفظان معاً اللذان يشيران إلى محوري العلم ، الإلهيات

---

(٦٥) هذا هو موقف الظواهري في « التحقيق التام » ؛ تعريف التوحيد ص ٢ ـ ٤ ؛ شرح ماهية العلم ص ٤ ـ ٢١ ؛ تقسيم المعلوم ص ٢١ ـ ٤٨ ؛ الكلام في الإلهيات ص ٤٨ ـ ١٠٢ ؛ مباحث النبوة والرسالة ص ١٠٢ ـ ١٧٦ .

(٦٦) أنظر « التراث والتجديد » ، موقفنا من التراث القديم ص ١٦٥ ـ ١٦٨ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٤ .

والسمعيات . وتظهر موضوعاتها بلا تبويب لأصول متميزة . ولكن تتركز موضوعات التوحيد حول الصفات . وتشمل خمس الإلهيات في حين أن موضوعات العدل ، خلق الأفعال ، والحسن والقبح ، يشملان الثلاثة أخماس الأخرى . وبالتالي تظهر مسائل العدل بعد أن اختفت من قبل ضمن باب الأفعال في التوحيد . أما الرسالة ، وهي الوريث للنبوة التي هي بدورها الوريث للسمعيات فإنها تفوق موضوعات التوحيد والعدل الى درجة الضعف ، ويتحدد فيها مسار الوحي في التاريخ . ولكن يُضاف بُعد جديد هو أخذ موقف من التراث الغربي عن طريق الدفاع ضد هجماته التي قام بها الاستشراق ضد التراث وقيمه ، وبالتالي يكون موقفنا من التراث الغربي جزءاً من دراستنا للتراث الحالي في المرحلة التاريخية الحالية ، نهاية الثانية وبداية الثالثة ، بعد أن أصبح مفتوحاً على التراث الغربي ناقلاً أو مقلداً ، مترجماً أو عارضاً ، مدافعاً أو مهاجماً(٦٧) . وتسقط موضوعات المعاد والايمان والعمل والامامة مما يدل أيضاً على أن العمل السياسي الفردي والجماعي لم يدخل بعد كجزء أساسي في علم التوحيد إلا عند الشيعة مشخصاً في الامام مع أن أول التوحيد أي الذات والصفات لا يجد له تفسيراً إلا في آخره أي الايمان والعمل والامامة . فالتصور الوحيد لله ، وهو الموضوع الأول في علم الكلام لا يوجد إلا في السياسة ، وهو الموضوع الأخير ، وأن « الذات » لا تتحقق إلا في الأمة ، وأن الله بداية والدولة نهاية(٦٨) . ورسالة « التوحيد » ليست رسالة مكتوبة ، تعني مقالاً أو كتاباً أو مصنفاً بل تعني مسؤولية التوحيد ، وغايته ، وتحقيقه ، ومهمته ، ودعوته(٦٩) .

---

(٦٧) هذا هو موضوع القسم الثاني من « التراث والتجديد » ، موقفنا من التراث الغربي . أنظر مؤقتاً قضايا معاصرة (٢).

(٦٨) وقد تحقق ذلك بالفعل في الثورة الاسلامية بإيران ، الله أكبر قاصم الجبارين ، الاسلام دين المستضعفين. . . الخ أنظر نشراتنا لكتابي «الحكومة الاسلامية»،«جهاد النفس» للامام الخميني.

(٦٩) هذا هو موقف محمد عبده في «رسالة التوحيد»؛مقدمات عن تاريخ العلم ص ٢ ـ ٢٣ ، الوجود ص ٢٤ ـ ٣٠ ؛ التوحيد (الصفات) ص ٣١ ـ ٥٣؛ العدل (الأفعال) ص ٥٣ ـ ٥٩ ؛ أفعال العباد ص ٥٩ ـ ٦٦ ؛ حسن الأفعال وقبحها ص ٦٦ ـ ٨٠ ؛ النبوة ص ٨٠ ـ ٨٣ ؛ الرسالة العامة ص ٨٣ ـ ٢٠٦ .

وقد يغيب بناء العلم كلية ولكن يظل موضوعه قائماً مدعماً بالنصوص ، ويظل موضوعه الأساسي التوحيد الموجه نحو العمل في مقابل التوحيد القديم الموجه نحو التشبيه والتشخيص ، وهو التيار الغالب على جميع التيارات الاصلاحية التي تنقل الموضوع من مستوى الفكر الى مستوى الواقع ، ومن جانب النظر إلى جانب العمل . التوحيد موجه للسلوك وليس تصوراً ذهنياً . ومع ذلك ، لم تؤت هذه التيارات كل ثمارها بعد لأن التوحيد ما زال تصوراً مشخصاً بل وعقيدة إيمانية في حين أن محاربة البدع والخرافات ووسائل التقرب والشفاعة ، كل ذلك عمل التوحيد الذي هو عملية حركية ، وليس جوهراً ساكناً . ومصنفنا هذا في علم التوحيد « من العقيدة إلى الثورة » ما هو إلا صهر لهذا التيار في صورة أكثر عقلانية ، وبأسلوب تحليلي ، يجمع فيه بين التحليل العلمي للموضوع والالتزام العملي بالواقع[٧٠] .

خامساً : من بناء العلم إلى عقائد الايمان :

بالرغم من المحاولات الاصلاحية الأخيرة التي تمت في بناء العلم من أجل إعادةُ ربطه بالواقع الجديد ، وبالتغيرات التي طرأت على حال المسلمين فإن بناء العلم ذاته الذي تم تكوينه في القرون الثمانية الأولى قد انهار بانهيار المسلمين ، وتخلف بتخلفهم ، فتحول من بناء للعلم إلى عقائد للإيمان . تحولت الأصول النظرية إلى عقائد إيمانية ، وتوارى التحليل العقلي أمام التسليم والتقليد . وظهر الإسلام على أنه مجموعة من العقائد Crédo ، والإسلام ذاته أبعد الأديان عن هذه الصياغة وإلا كان مسيحية . الوحي الإسلامي مجموعة من الأصول العقلية التي هي أيضاً بناء الواقع ، وكلاهما يمكن التدليل عليه ببرهان العقل وتجربة الواقع . أما العقائد فهي مسلمات إيمانية لا تتضمن التصديق بها بل مجرد التسليم اما عن طريق التقليد أو بفعل ارادي . وان من أسباب ضياعنا الحالي هو هذا الانهيار في بناء العلم ، وضياع جهد عقلي استمر على مدى ثمانية قرون . وإن من مقومات نهضتنا الحالية هي إعادة بناء العلم التقليدي آخذين في الاعتبار أوضاعنا الحالية ،

---

(٧٠) هذا هو موقف الأفغاني ، واقبال ، ومحمد بن عبد الوهاب في « كتاب التوحيد » .

ومطورين الحركات الاصلاحية الأخيرة ، معطين لها دفعة جديدة ، ناقلين لها من الاصلاح إلى النهضة ، ومن الدين إلى الحضارة ، ومن الوحي إلى التاريخ ، ومن العقيدة إلى الثورة .

وقد بدأ الكلام أيضاً في أوله بعلم العقائد . وكأن تاريخ العلم في نهايته يعود إلى ما بدأ منه ، وكأن نهاية الحضارة شبيهة بأولها من حيث الضعف ، وغياب البناء العقلي . وإذا كانت البداية تتطور وتتكون حتى يظهر البناء العقلي للعلم وكيان الحضارة فإن النهاية انهيار ونكوص وردة ورجوع إلى البداية ، لا مستقبل لها ولا أمل أمامها إلا البداية من جديد عن طريق احياء القديم ، واعادة تفسير بنائه ثم اعادة البناء وتطويره طبقاً لظروف العصر ومتطلباته . ففي كتب العقائد المتقدمة لا يوجد بناء نظري بل يوجد فقط ما يجب على المؤمن اعتقاده والتسليم به ، وكأن المقدمات النظرية هي الوريث الوحيد لوجوب الإيمان والتسليم بالعقائد . فلما اختفت هذه المقدمات عاود الايمان بالتسليم إلى الظهور كمقدمة للعلم بديلاً عن المقدمات النظرية . وقد غلب على موضوعات العقائد المتقدمة أيضاً مسائل الإلهيات والسمعيات دون ترتيب أو تبويب كبناء العلم المتأخر ودون احصاء أو عد للعقائد كما هو الحال في علم العقائد الآن . تتداخل المسائل فيما بينها بادئة بالتعبير عن مضمون الإيمان ثم متناولة موضوعات الصفات وعلى رأسها الكلام والصفات الخبرية ، ثم خلق الأفعال ، والإيمان ، والنبوة ، والإمامة . ثم تعود مسائل الإيمان والوعد والوعيد ، والمعجزات ، والصفات ، وعلى رأسها الرؤية والمسائل الأخروية . كان المهم هو الدفاع عن العقائد ، والإعلان عنها وليس بناؤها النظري أو عدها الإحصائي لأن العقائد لم تكن قد استقرت بعد في بناء أو في إحصاء . فوجودها سابق على البحث عن النظرية أو عن قياس الكم . وقد تم هذا الاعلان المبكر عن العقائد كرد فعل على المحاولات الأولى التي قام بها المعتزلة لتنظير العقائد دفاعاً عنها ضد المعتقدات والمذاهب والآراء الغازية . فإذا كانت العقائد الأولى رد فعل على التعقيل والتنظير فإن العقائد المتأخرة كانت نتيجة لغياب التعقيل والتنظير[٧١] .

---

(٧١) هذا هو موقف أبي حنيفة في « الفقه الأكبر » .

١ ـ أحكام العقل الثلاثة وإحصاء العقائد حول الله والرسول : في العقائد المتأخرة ابتداء من القرن السابع انقلبت المقدمات النظرية عن العلم والوجود إلى مقدمة واحدة عن أحكام العقل الثلاثة ، الواجب والممكن والمستحيل التي يتحد فيها العلم والوجود معاً . تقلص العلم إلى أحكام العقل كما تقلص الوجود إلى مقولات ذهنية تشير إليه . كما تحولت الإلهيات (العقليات) والسمعيات (الظنيات) إلى محوري الله والرسول وتشخص البناء المزدوج للعقائد في قطبين رئيسين . وبالتالي كان علم العقائد هو ما يجب وما يستحيل وما يجوز على الله ، وما يجب وما يستحيل وما يجوز على الرسول . وبدأ العلم في احصاء عدد العقائد وحصرها كمّا فيتفاوت عددها ، مرة ثمان وأربعون ، ومرة خمسون ، لا أقل من ذلك ولا أكثر ! ولما كان الله أهم من الرسول وأعظم فقد حاز على واحد وأربعين عقيدة ولم يبق للرسول إلا سبع عقائد . يشمل الله ستة أسباع العلم ، والرسول سُبعه الأخير مما يؤكد تركيز فكرنا القومي على الله متبادلاً مع الرسول في حين أن ما ينقص شعورنا المعاصر محوران غائبان هما : الانسان والتاريخ ، حاولنا العثور عليهما داخل بناء علم أصول الدين ، الانسان في الإلهيات ، والتاريخ في السمعيات(٧٢) . وقد بلغت العقائد في الله واحداً وأربعين عقيدة لأن ما يجب له عشرون وما يستحيل عليه عشرون ، وما تجوز له واحدة . وقد بلغ ما يجب له عشرون لأن أوصاف الذات ست : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وأنه ليس في محل ، وأنه واحد . وصفاتها سبع : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والارادة . فيكون المجموع عندئذ ثلاث عشرة صفة . ولكن امعاناً في اثبات الصفات ضد منكريها ، مع أن نفي الصفات لم يُقدر له أن يستمر تاريخياً ، ومن ثم لم يعد خطراً على العقائد كي تحدد عددها درءاً له ، تكررت الصفات مرة للذات ، أوصاف الله الست ، ومرة للفعل، صفات

---

(٧٢) أنظر دراستينا « لماذا غاب مبحث الانسان في تراثنا القديم ؟ » ، « لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم» دراسات اسلامية . وانظر أيضاً خاتمة الباب الثاني عن «الانسان» وخاتمة الباب الثالث عن « التاريخ » ، وهما البابان الرئيسيان في مصنفنا هذا ، وريثا بابي « الإلهيات » و « السمعيات » عند القدماء .

الله السبع . لم يعد يكفي العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والارادة بل أضيف امعاناً لاثبات الصفات : أن يعلم ، وأن يقدر ، وأن يحيي ، وأن يسمع ، وأن يبصر ، وأن يتكلم ، وأن يريد وبالتالي أصبح الله عالماً بعلم ، وقادراً بقدرة ، وحياً بحياة ، وسميعاً بسمع ، وبصيراً ببصر ، ومتكلماً بكلام ، ومريداً بإرادة ، فانقسمت كل صفة على نفسها أو ازدوجت وأصبح مجموعها أربع عشرة صفة تكوّن مع أوصاف الذات الست عشرين صفة أضيف إلى صفات الذات السبع صفات فعل سبع وأصبح المجموع مع أوصاف الذات الست عشرين صفة . فإذا أتينا باضداد هذه العشرين صفة ونفيناها حصلنا على عشرين أخرى وهي ما يستحيل له من صفات الذات مثل الجهل ، والعجز ، والموت ، والصمم ، والعمى ، والبكم ، والكراهة ؛ ومن صفات الفعل وهي : أن يجهل ، وأن يعجز ، وأن يموت ، وأن يصم ، وأن يعمى ، وأن يبكم وأن يكره . فيكون الله عالماً بعلم وليس جاهلاً بجهل ، قادراً بقدرة وليس عاجزاً بعجز ، حياً بحياة وليس ميتاً بموت ، سامعاً بسمع وليس أصماً بصمم ، بصيراً ببصر وليس أعمى بعمى ، متكلماً بكلام وليس أبكم ببكم ، مريداً بإرادة وليس كارهاً بكراهية . فيكون المجموع ثمان وعشرين صفة،صفة الذات وصفة الفعل وأضدادهما ، أي سبعة مضروبة في أربعة ! فإذا قمنا بنفس التمرين العقلي ، الفصل ثم القلب ، التمييز ثم العكس ، الازدواج ثم التضاد في أوصاف الذات الست وجدنا القدماء قد قاموا بعملية عقلية واحدة وهي التضاد والقلب والعكس دون الفصل والتمييز والازدواج . فأضافوا إلى أوصاف الذات الست : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وأن لا في محل ، والوحدانية ــ أضافوا إليها أضدادها وهي : العدم ، والحدوث ، والفناء ، والمشابهة للحوادث ، والحلول ، والتعدد من أجل نفيها . فأصبح الله وجوداً لا عدماً ، قدماً لا حدوث ، بقاء لا فناء ، مخالفاً للحوادث لا شبيهاً لها ، لا في محل وليس حالاً ، واحداً وليس متعدداً ، فيكون المجموع اثنتي عشرة صفة .وباضافتها إلى الصفات الثماني والعشرين فيكون المجموع أربعين صفة في الله .ولكن يبقى السؤال لماذا لم يقم القدماء بالعملية العقلية الثانية،عملية الفصل والتمييز والازدواج أيضاً في

أوصاف الذات بين أوصاف الذات وأوصاف الفعل وأبقت أوصاف الذات وحدها ؟ لماذا لا تكون أوصاف الذات أسوة بصفاتها أيضاً مزدوجة فيكون الله موجوداً بوجود ، قديماً بقدم ، باقياً ببقاء ، مخالفاً للحوادث بمخالفة للحوادث ، لا في محل بلا في محلية ، واحداً بوحدانية . ولماذا لا ينقلب كلاهما إلى الضدين فيكون الله : موجوداً بوجود وليس معدوماً بعدم ، قديماً بقدم وليس حادثاً بحدوث ، باقياً ببقاء وليس ـ فانياً بفناء ، مخالفاً للحوادث بمخالفة للحوادث وليس شبيهاً للحوادث بمشابهة للحوادث ، لا في محل بلا في محلية وليس حالاً بحلول ، واحداً بوحدانية وليس متعدداً بتعدد . فيكون المجموع حينئذ أربعاً وعشرين وصفاً للذات ، ست منها أولى مضروبة في أربعة . ويكون المجموع النهائي ثمان وعشرين صفات للذات وأربعاً وعشرين أوصافاً لها فيكون المجموع الكلي اثنتين وخمسين عقيدة في الله وحده على المسلم أن يؤمن بها ! سبحان الله ! تعالى الله عما يصفون ! لا يخضع الاصحاء إذن لتحليل عقلي صارم ، جامع مانع بل هو تنظير كمي صرف للصفات القديمة في صورة عقائد ، يعتمد أساساً على عمليات عقلية صرفة ، فارغة بلا مضمون ، عندما تعيش العقائد على نفسها ومن ذاتها وكأنها ليست تعبيراً عن واقع ، وليست موجهات للسلوك ، ولا تعطي تصوراً للعالم .

فإن كان ما يجب لله وما يستحيل عليه كأول حكمين من أحكام العقل يشيران إلى الشيء وضده أي إلى الصفة وضدها ، وهي عند القدماء أربعون في الله ، واثنتان وخمسون طبقاً للاحصاء العقلي الكامل ، فإن الحكم العقلي الثالث وهو ما يجوز لله فإنه عند القدماء شيئان : الأول ما يمكن فعله أو تركه ، وهنا يظهر العدل كملحق للتوحيد ، ولا ينال إلا صفة واحدة بعد الأربعين في الله ، ويكون أيضاً صفة لله ، والثاني رؤية الله ، رؤيته لفعله ضمن ما يجوز له أي من جانب موضوع الرؤية وليس من جانب ذات الرائي ، بل ويظهر الموضوع الثاني ، وهو رؤية الله ، مزاحما للموضوع الأول وهو ما يجوز فعله وما يجوز تركه ، وهو أصل العدل بتعبير المعتزلة ، حتى يصبح العدل عند الأشاعرة نصف صفة بعد أن شاركتها الرؤية ، ومن ثم لا يزيد العدل عندهم على أكثر من واحد في المائة من مادة العقائد كلها حتى أن العدل ليختفي كلية من العقائد المتأخرة كما هو مختف

حتى الآن في وجداننا المعاصر. بل انه لم يصبح أصلاً عقلياً أو مصلحة واقعية بل تحول إلى حيِّز الإمكان، جواز الفعل والترك، وخرج من حيز الوجوب ، وجوب العدل ، أو حيز الاستحالة ، استحالة الظلم . وإذا كان القدماء قد طبقوا قسمة الصفات إلى صفات ذات وصفات فعل ثم قلبها إلى أضدادها ونفيها فإنهم قد فعلوا ذلك في حكمي العقل الأولين ، ما يجب لله وما يستحيل عليه ، ولكنهم لم يفعلوه مع ما يجوز له ، وتركوها صفة واحدة تشمل صفتين ، جواز الفعل والترك ، وجواز الرؤية . في حين أنها طبقاً لمنطق القسمة والتضاد تصبح يجوز بجواز حرصاً على التمييز بين صفة الذات وصفة الفعل ، سواء انطبق ذلك على الفعل والترك أم على الرؤية . ولكن يصعب قلب الصفة ، صفة الجواز إلى ضدها ، فضدها إما الوجوب أو الاستحالة وهما الحكمان الأولان للعقل . وبالتالي تنقسم الصفة الواحد والأربعون إلى اثنتين ، ويُصبح مجموع الصفات نظراً وافتراضاً اثنتين وخمسين في الوجوب والاستحالة واثنتين في الجواز على فرض اعتبار جواز الفعل والترك وجواز الرؤية صفة واحدة ، فيكون المجموع أربعاً وخمسين . وإذا أردنا فصل الصفتين في الجواز فيجوز الفعل والترك بجواز، وتجوز الرؤية بجواز يكون مجموع العقائد في الله ستاً وخمسين ! والبقية تأتي ! وهل تنتهي عمليات العقل ؟ وهل الصفات متناهية ؟.

أما الرسول ، وهو القطب الثاني مع الله ، فإنه يحظى عند القدماء بسبع عقائد . تجب له ثلاث : الصدق والأمانة والتبليغ ، وتستحيل عليه ثلاث: الكذب والخيانة والكتمان . وتجوز عليه واحدة وهي الاعراض البشرية ، ومن ثم يبلغ مجموع العقائد كلها عند القدماء ثمان وأربعين عقيدة ، واحدة وأربعون في الله وسبع في الرسول ، وتكون الإلّهيات هنا حوالي خمسة أسداس العقائد والسمعيات سدسها الأخير . ولم تظهر مشكلة صفات الذات وصفات الفعل في صفات الرسول من أجل قسمتها ثم قلبها إلى أضدادها من أجل نفي الصفات ، فإن قضية إثبات الصفات ونفيها تتعلق فقط بالله وليس بالرسول . ولكن بقيت مشكلة أخرى في صفات الرسول وهي أنها كلها صفات نظرية من أجل أداء مهمة التبليغ . فأين الصفات العملية التي استطاع الرسول من خلالها أن يحول رسالته إلى واقع ،

وفكره إلى نظام ، وشريعته إلى مؤسسات ، ودينه إلى دولة ؟ لذلـك زادت العقائـد المتأخرة صفة رابعة هي « الفطانة » وضـدها « البـلادة » ، وهي أيضاً صفـة نظريـة أكثر منها عملية لأنها تعبر عن قدرة الرسول في التعبير والفهم أكثر منها عن قـدراته في القيادة واصدار القـرار . وإذا أخذنـا « علم السيرة » في الحسـاب كأحـد مصادر علم أصول الدين من حيث صفات الرسول لوجدنا أنها أيضاً غير متناهية نـظرياً أو عمليـاً . فـأين صفـات التضحيـة ، والشجـاعـة ، والأثـرة ، والكـرم ، والعفـة والتقوى ، والرحمة ، والتعاطف إلى آخـر هذه الصفـات غير المتنـاهية خـاصة وأنـه أكمـل البشر صفـاتاً عنـد القدمـاء وبنص القرآن[٧٣] ؟ وهـل هي صفات خـاصـة للرسول أم صفات عامة يشارك فيها النـاس جميعاً بمـا في ذلك الصفـات الثلاث أو الأربع الأولى ، الصدق ، والأمـانة ، والتبليـغ والفطانـة ؟ ألا يشارك فيهـا أيضاً الرواة والنقلة وكل من يحمـل رسالـة يبلغها للنـاس ؟ لقد انتهت العقـائد الإيمـانية المتأخرة إلى تشخيص الله وإلى تشخيص الـرسول ممـا كان لـه أبلغ الأثر في تـرسيخ التشخيص في حياتنا القـومية . فـما زلنا نعـدد خصال النـاس ، خصال الـرئيس ، وخصال الكبار ، وخصال المديـرين ، ونستزيـد منها كـل يوم حتى نصـل إلى درجة التأليه للأشخـاص ، والتأليه للرسل والأنبياء[٧٤] .

٢ ـ إستغنـاء الله عن كل مـا سواه وافتقـار كل مـا عداه إليـه : وبعـد أن تستمـر العقائد على هذا النحو شعراً أو نثراً يسقط منها العد والاحصاء ولا تبقى إلا مجموعة عقائد للتسليم بها دون أي تحليل عقلي للشيء وضده وهو ما تبقى من عقل في علم العقـائـد ولكن يبقى القـطبـان الأسـاسيـان ، الله والـرسـول ، يلخصـان الشهادتين « لا إله إلّا الله ، محمد رسـول الله » ومن ثم يعود العلم كـما بدأ وينتهي العلم إلى تكرار مقدماته ، وتصبح نتائجـه من جديـد هي المطلوب إثبـاته ، وكـأن الجدل لم ينته إلى شيء أو انتهى إلى كل شيء إذ أن مقدمـات الجدل هي نتـائجه ،

(٧٣) « وانك لعلى خلق عظيم » (٦٨ : ٤) وكذلك أحاديث كثيرة مثل « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

(٧٤) هذا هو موقف « العقائد النسفية » لأبي المعين النسفي (ثمان وأربعون عقيدة) ، « كفاية العـوام » للفضـالي ، « عقيـدة العـوام » للمـرزوقي ، و « رسـالـة البيجـوري » ، « العقيـدة التـوحيـديـة » للدردير ، « جامع زبد العقائد » لولد عدلان .

ويكون الجدل قد أصبح موضوعاً للعلم كما كان منهجه، ويقع العلم في دائرة مفرغة من المنهج للموضوع ومن الموضوع إلى المنهج . ويتجلى ذلك في نظرية « الاستغناء والافتقار » ، استغناء الله عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما سواه إليه وهي التي تجعل العلم كله يدور حول قطب واحد وهو الله الذي يصبح محور الكون ، وقمته ، وركيزته الأولى ، وكل ما سواه قاعدته ومحيطه يدور حوله ، وهو ما استقر في وجداننا المعاصر وفي تصورنا الهرمي للعالم . فأثبتنا الله وأضعنا العالم ، ودافعنا عن الذات الإلهية ، واسقطنا من حسابنا الذات الانسانية ، وحرصنا على القمة دون القاعدة ، ووضعنا كل شيء في المركز دون المحيط ، وركزنا على القلب دون الأطراف ، وهو ما يفسر مأساتنا المعاصرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون ، وما ترتكز عليه نظمنا الحالية ، الاقطاع والرأسمالية ، والتسلط والطغيان ، والبيروقراطية والمركزية ، والحرفية والصورية . وانصب كل ذلك في وجداننا المعاصر ملتحماً بالتراث الفلسفي من علوم الحكمة ، نظرية الفيض والاشراق ، وبالتراث الصوفي في نظرية الفناء ، حتى طُرد كلية علم أصول الفقه الذي كان يمكنه إيجاد التعادل في وجداننا القومي بين الله والعالم ، بين التأويل والتنزيل ، بين المركز والمحيط ، وبين القلب والاطراف(٧٥) . والعجيب أن نظرية الاستغناء والافتقار كانت أحد روافد الحركة الاصلاحية الحديثة عن طريق اصلاح العقائد وشحذ الهمم ، واطلاق التوحيد الحبيس من عقاله ، وتفجير طاقاته لولا أن ذلك كله كان على حساب العالم والانسان(٧٦) .

---

(٧٥) أنظر مقالنا « تراثنا الفلسفي » ، فصول ، مجلة النقد الأدبي ، العدد الأول .

(٧٦) هذا واضح في « جوهرة التوحيد » للقاني ، « الخريدة البهية » للدردير ، « وسيلة العبيد » للطاهري . « بيان ذلك جملتان أ ـ لا إله إلاَّ الله ، هو المعبود بحق . فالمعنى لا معبود بحق موجود أو في الوجود إلا الله . فقد دلت هذه الجملة على نفي الألوهية التي هي استحقاق المعبود للعبادة كما عرفت من كل ما سواه منطوق على ثبوتها له وحده مفهوماً . وهذا يستلزم استغناؤه عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما سواه إليه . أما استغناؤه عن كل ما سواه فيوجب له الوجود والقدم والبقاء ومخالفته للحوادث وقوامه بنفسه إذ لو ماثل شيئاً منها للزمه ما لزمها من الافتقار وهو محال ، ولو قام بغيره لكان مفتقراً إلى ذلك الغير ويوجب له أيضاً التنزه عن النقائص ، وهو يستلزم وجوب السمع والبصر والكلام والتنزه عن الأغراض في الأفعال والأحكام وإلا لكان مفتقراً إلى ما يتكمل به من =

٣ ـ **سقوط الإلهيات والاستسلام التام للسمعيات** : وأخيراً انتهى علم العقائد بأن أصبحت العقائد ذاتها مجرد مسائل يجب التسليم بها والاستسلام النهائي لها حتى يضيع آخر ما بقي من العلم ، وهو الجانب النزوعي الارادي في العقيدة كما ضاع الجانب العقلي من قبل . تختفي المقدمات النظرية كلها حتى أحكام العقل الثلاثة ، ويحل محلها الإيمان الكامل . وتدور معظم المسائل حول السمعيات التي فاقت الإلهيات ، تلك التي كانت تمثل قدراً من العقليات ، وكأن العدل ذاته قد أصبح من أمور المعاد ، ليس من شؤون الدنيا بل من اختصاص الآخرة ، وانتهت اليقينيات الممثلة في الإلهيات ولم يبق إلا الظنيات الممثلة في السمعيات ، فتحولت « العقيدة » إلى ظن أي على نقيض مضمونها تهدم ذاتها بذاتها ، وتحتوي في باطنها على جرثومة فنائها . ويتضخم موضوع النبوة ، ويتشخص في النبي ، ويسقط الإيمان والعمل والسياسة كلية ، ويغرق العلم في متاهة الإيمان بالغيبيات . يضيع العقل ، ويختفي الواقع ، ونضيع نحن ونختفي معه[٧٧] .

وهكذا يدل بناء العلم النظري ، نشأة وتطوراً وتكويناً على مسار العلم المواكب لمسار الحضارة ، والمؤشر على قيامنا ونهضتنا ثم كبوتنا ونكوصنا . لم يعد

= ذلك الغرض وعدم وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه وعدم كون شيء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها الله فيه وإلا لم يكن مستغنياً عن كل ما سواه . كيف وهو الغني بالاطلاق عن كل ما سواه . وأما افتقار كل ما سواه إليه فهو يوجب له القدرة والارادة والعلم والحياة والوحدانية لما تقدم من أن التعدد يوحد العجز ، يؤخذ منه حدوث العالم بأسره ، ونفي تأثير شيء منه بالطبع أو بالعلة . وإذا وجب شيء واستحال ضده . هذا حاصل ما بينه السنوسي . ب ـ محمد رسول الله : فقد دلت على ثبوت الرسالة له . وذلك يستلزم صدقه في كل ما أخبر به ، وأمانته وتبليغه للعباد كل ما أمر بتبليغه من الأحكام ، وفطانته إذ الرسول لا يكون إلا معصوماً ، واستحالة أضدادها عليه ، وجواز كل ما لا يؤدي إلى نقص في علو مرتبته من الاغراض البشرية ، وجوب صدقه يستلزم الايمان بكل ما جاء به ومن ذلك ارسال الرسل ، وهو يستلزم ما يجب في حقهم وما يستحيل وما يجوز الايمان بسائر الكتب السماوية واليوم الآخر والحساب وما عليه مما مر من جميع السمعيات ولتضمنها جميع عقائد الايمان جعلها الشارع ترجمة على ما في القلب، ولم يقبل من أحد الاسلام إلا بها ومن ثم كانت أفضل الأذكار » . شرح الخريدة ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٧٧) يتضح هذا الموقف مثلاً في « مسائل » أبي الليث التي تبدأ بالايمان وتنتهي بالايمان .

هنـاك فرق بـين علم الكلام وعلوم الحكمـة وعلوم التصوف فقـد انتهى الكـل إلى التسليم والاستسلام وإلى أن الله هو الغني الوحيد ، وأننا نحن الفقراء ، وكـأننا في حاجة إلى من يدلنا عـلى مصائبنـا ، ومن يذكـرنا بـأننا نعيش خـارج العالم ، وعـلى هامش التاريخ . وبالتالي تكون مسؤولية علماء أصول الدين من جيلنا في إعادة بناء العلم طبقاً لمقتضيات العصر وأن تُقلب نظرية الاستغناء والافتقـار رأساً عـلى عقب آخر ما وصل إليه العلم وأن تعود المقدمات النظريـة إلى ابتلاع العلم كله وأن تبتلع العقليات اليقينيات وريثة الإلهيات ، السمعيات ، حتى يعود إلينا العقل ، وبالتالي نعود نحن إلى العالم وإلى مسار التاريخ .

سادساً : المصنفات القديمة .

من العسير استيعاب كل ما قاله القدماء في علم أصول الدين خـاصة خـارج المصنفات الكلامية ذاتها والتعرض له من أهل السنة والفقهاء والمحدِّثيـن بالتحليـل والنقد والتحريم . فذاك مجاله الفكر الفقهي[٧٨] . ولكننا حاولنا الاعتماد عـلى كل مـا أمكننا العثـور عليه من مؤلفـات منشورة في علم الكـلام ذاته والتي أعـطينـاهـا الأولوية على غيرها من مؤلفات الفقهاء العامة التي يتعرضون فيها للعلم كتعرضهم للفلسفـة والتصوف . وهي عينـة مميزة تعـطي صورة عن تـاريخ علم الكـلام منـذ نشأته حتى العصر الحاضر . وكان مقياس تمثيل العينة هو تكـرار المادة المعـروضة في معظم المؤلفات ، بحيث كان الاطلاع على مؤلفات أخـرى لا يعطي مـادة جديـدة إلا في أقل الحدود التي لا تؤثر على البناء للعلم وطرق تطويره . فكثير من المؤلفات يغلب عليهـا طابـع التكرار والتقليـد للسابقـين . وكثير منهـا تجميع وتحصيـل المادة السابقة من مؤلفات قديمة في حين أن التقليـد ليـس من أصول الايمـان . وقد كـان هـذا هو طـابع عصـر الشروح والملخصـات حفـاظـاً عـلى العلم وتـذكيـراً للنـاس

---

(٧٨) أعني مؤلفات ابن تيمية مثل « منهاج السنـة في الرد عـلى الشيعة والقـدرية » أو « مـوافقة صحيـح المنقـول لصـريـح المعقـول » أو ابن القيم في « اجتمـاع الجيـوش الاسـلاميـة عـلى غـزو المعـطلة والجهمية » .

بنائه(٧٩) . كما أننا لم نلجأ كثيراً إلى المخطوطات لنفس السبب ، وهـو تكرار المـادة القديمة بعضها لبعض . قد يعطينا المخطوط دلالة من هذا النوع على ذلك التحليل أكثر أو أقل دون أن يخل الجهل به من بناء العلم ذاته وصدق التحليل بالاضافة إلى الصعوبات العملية في الحصول عليها أو في تناولها . وإذا فهمنا المنشـور أولاً بحثنا عن غـير المنشور . وفهم الأقـرب إلينا خـير من ادعاء البحث عن المجهـول . ليس المهم هو تكرار المادة وعرضها بل اعـطاء منهج للتحليـل ، وطريقـة لاعادة البنـاء ، وتحديد موقف معاصر(٨٠) . فزيـادة المادة تعـطي تحليلات أكـثر ولكن بنفس المنهج ولعـرض نفس المـوقف ، ودون أن تغـير من المنهـج أو من المـوقف أو من النتـائـج شيئاً . لو لم نستطع الاطلاع على كل المادة المنشورة في علم الكلام أو لو أننا لم نطلع بما فيه الكفاية على المادة غير المنشورة فـإن ذلـك لن يغـير شيئاً من المنهـج المتبع أو من الموقف المحدد . ولما كانت العلوم تتحدد ببنائها ، ولا ترتبط بأشخاصها فإنه لا يهم كثيراً نقص المادة لأنها مكررة . وزيادة المادة قد لا تعني زيادة في التحليل كما أن نقص المـادة قد لا يعني نقصـاً مماثـلاً في التحليل . وليس ذلـك مجرد افتـراض بـل نتيجـة لتجارب عـديدة في تحليـل المادة ثم قـراءة مادة جـديـدة بعـد ذلـك دون أن تضيف جديدا إلى التحليل أو تنقص منه .

وقـد اعتمدنـا على المؤلفـات الكـلاميـة « الشـاملة » التي تتحـدث عن علم الكلام وتضع رسالة فيه Traité ، عارضـة مادتـه وموضـوعاتـه ، فهي مؤلفات في العلم . وأعطيناها الأولوية على المؤلفات الجزئية الأخرى التي تتنـاول جانبـاً واحداً من العلم أو التي تشير إلى موضوع واحد منه أو التي تتعرض له بالنقـد والتحريم . فهـذه تتضمن حكم القـدمـاء ، ولا تحتـاج إلى إعـادة بنـاء كـالمؤلفـات الكـلاميـة الشـاملة . هي مجرد دلائـل وقـرائن عـلى وضـع هـذا العلم وشـرعيتـه في التـراث

(٧٩) « فإني بحول الله وقوته ، أريد أن أضع رسالة في التوحيد ، أجمع فيها مـا حصلته من دراستي لهـذا الفن الذي مارست دراسته مدة ليست بالقصيرة » التحقيق ص ١ .

(٨٠) أنظر « التراث والتجـديد » ٢ ـ النـزعة الخـطابية أ ـ التكـرار أو تحصيل الحـاصل ص ١٠٩ ـ ١١١ وأيضـاً رابعاً ـ طـرق التجديـد ص ١٢٣ ـ ١٧١ ، خامسـاً ـ « موضـوعات التجـديد (اعـادة بناء العلوم) » ص ١٧١ ـ ٢١٦ .

القديم ، ومؤشر على شرعية التساؤل حول شرعية هذا العلم[٨١] .

وكثير من المؤلفات لها شروح وحواشٍ . وقد ساد هذا اللون من التأليف في العصور المتأخرة حين جدب الفكر لانفصاله عن الواقع ، وكرر ذاته ، وعاش على نفسه ، كما تأكل الرأس الذيل في النهاية . يوافق كل شارح المؤلف الأصلي ، ويزيد عليه من الحجج أو يضيف إليه من المادة التاريخية أو يعبر عن نفس الفكرة في عبارة أخرى دون أن ينقد أو يعدل أو يغير أو يرفض أو يبدأ من جديد. يزيد من النصوص النقلية أو من الحجج العقلية أو من ذكر أسماء الاعلام أو النصوص من مؤلفات أخرى أو إعراباً للكلام ان لم يجد شيئاً ! الذهن الشارح والذهن الخالق إذن على طرفي نقيض ، والذهن التابع غير الذهن البادىء. لم تضف الشروح جديداً بل عبرت عن اجترار الحضارة لذاتها في فترة تؤرخ فيها الحضارة لذاتها ، تقدم لنفسها الحساب أمام التاريخ . ويحدث هذا الاجترار دائماً عندما تكون الحضارة في موضع الخطر ، وعندما تضيع الأرض ، وتريد الجماعة المحافظة على نفسها ، فتدون تاريخها ، وتخلد نفسها في الفكر أمام تهديدات استئصالها في الواقع كما حدث لقدماء العبرانيين أثناء الأسر البابلي[٨٢] . والشروح والحواشي أكثر شيوعاً من التلخيص لأنها أكثر إيفاء بالغرض، وأكثر تعبيراً عن طاقة خاوية تتصرف في فراغ . ومع أنها لا تضيف جديداً إلا أن أهميتها ترجع إلى أنها مادة خصبة لدراسة العمليات العقلية ، والأساليب الفكرية التي أدت إلى التخلف أو التي أدى التخلف إليها كما هو الحال في مؤلفات الباحثين المعاصرين العارضين لمادة القدماء سواء في العلم أو في السياسة عندما يشرح المعاصرون أقوال الزعيم ويفسر المنظرون خطبه وأقواله وكأنها الدرّ في أحشاء البحر كامنة . قد تحتوي بعض الشروح والملخصات على بعض الانتقادات الجزئية ولكنها لا تغير من المضمون شيئاً . لا تؤثر في قصد العلم أو في بنائه مما يدل أيضاً على مدى تخلف العقلية الشارحة والملخصة

---

(٨١) وقد اتبعنا ذلك أيضاً في رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse .

(٨٢) أنظر اسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة .

« بتمحكه » في الجزء وترك الكل[83] . ولما كان الشرح في حاجة إلى مادة يشرح بها فقد استعار علم الكلام جزءاً من مادته من العلوم الأخرى كالفلسفة ، والتصوف ، وأصول الفقه ، وعلوم القرآن ، والحديث ، والتفسير ، واللغة ، مما يشير إلى وحدة الحضارة في نهايتها وكأنها تود لمَّ شملها في وحدة واحدة كما بدأت وحدة واحدة[84] . ولا يهمنا في الشروح والملخصات التي يقوم أصحابها بتفنيد آراء مؤلفي المتون أو بيان أغلاطهم أو الحكم فيما نشأ بينهم من خلاف أو حتى رصده بل يهمنا أخذ المادتين معاً من أجل التعرف على وضعهما في بناء العلم أي الارتفاع بالحاجة إلى الموضوع نفسه الذي نود أن نعرف بناءه القديم أو نقله على البناء النفسي المعاصر . وعلى هذا النحو ، يفقد اختلاف أوجه النظر دلالته . والحقيقة أن « التراث والتجديد » كله ما هو إلاَّ شروح على الماضي . ولكن لا يعني الشرح هنا مجرد تحصيل حاصل ، شرح عبارة بعبارة ، ولفظ بلفظ مرادف أو إعراب جملة أو زيادة مادة قديمة تالية على تاريخ النص المشروح أو حتى التأييد أو التفنيد بل هي إعادة بناء القديم كله على أساس نظرة متكاملة ، والبحث عن الموضوعات ذاتها ،

---

(٨٣) هذه بعض أمثلة من الشروح والملخصات مرتبة ترتيباً زمانياً : « مطالع الأنوار » ، شرح الأصفهاني على طوالع الأنوار للبيضاوي ، شرح التفتازاني على العقائد النسفية ، حاشية التفتازاني على شرحه ، حاشية الاسفرايني على شرح التفتازاني ، « أشرف المقاصد » شرح المقاصد للتفتازاني على مقاصده ، حاشية التفتازاني على شرحه ، حاشية المكناسي على شرح المقاصد للتفتازاني ، شرح الدواني على العقائد العضدية ، حاشية السيالكوني على شرح الدواني ، حاشية المرجاني على شرح الدواني ، حاشية الخلخالي على شرح الدواني ، حاشية الكلنبوي على شرح الدواني ، حاشية محمد عبده على شرح الدواني ، شرح الجرجاني على المواقف للايجي ، شرح ملا على القاري على الفقه الأكبر لأبي حنيفة ، تلخيص الطوسي للمحصَّل للرازي ، « لُباب المحصل » تلخيص ابن خلدون للمحصل للرازي ، شرح عبد السلام على جوهر اللقاني ، شرح البيجوري على الجوهرة ، حاشية الأمير على شرح عبد السلام ، شرح العقباوي على العقيدة التوحيدية للدردير ، حاشية العقباوي على شرحه ، شرح الدردير على خريدته البهية ، شرح الأنصاري على متن السنوسية ، شرح أبي حجاب على متن السنوسية ، شرح المطيعي على وسيلة العبيد للظاهري ، حاشية البيجوري على كفاية العوام للفضالي ، شرح النووي على عقيدة العوام للمرزوقي ، شرح النووي على رسالة البيجوري ، شرح البيجوري على السنوسية ، حاشية الأنبابي على البيجوري . . . الخ .

(٨٤) انظر « التراث والتجديد » جـ ـ التراث والتجديد وقضية توحيد العلوم ص ١٩٩ ـ ٢٠٣ .

وكيف أن أبنيتها تعبر عن بناء نفسي قديم ، ثم إعادة بناء هذه الموضوعات ذاتها على أساس من أبنيتنا النفسية المعاصرة .

وفي نفس الوقت الذي يكون فيه الشرح مجرد شرح داخلي يصيب الانسان بالاغماء والدوار ويبعث في النفس الخواء إذ لا يزيد الشارح شيئاً إلا العبارات الشارحة التي لا تفيد جديداً يأتي التلخيص كتقييم للمصنف السابق وكمبرز لثمينه دون غثه ، ومصلح لحججه وبراهينه ، ويكون له دور إيجابي في أحكام العلم إن لم يكن من حيث البناء فعلى الأقل من حيث الحجج[٨٥] . ومع ذلك فالشروح والحواشي على المتون أكثر بكثير من التلخيصات . فالشرح أو الحاشية مجرد جمع مادة ، واضافة تاريخ في حين أن التلخيص تركيز على الجوهر ، وإخراج للب من الشروح والحواشي . فهو يمثل جهداً أكبر ، ويدل على فكر ما زال قادراً على استخلاص اللباب . لذلك كان التلخيص أقل بكثير من الشروح والحواشي من حيث الكم . هذا بالإضافة إلى أن الحضارات في لحظات الشكوك أو الخطر تجمع وتستوعب أكثر مما تلفظ وتستبعد ، فمهمة المفكر الحفاظ على كل شيء ولو لفظاً أو عبارة في حين أن الملخص يحتفظ بالجوهر ، ويحمل معه « ما خف حمله وغلا ثمنه » ، وكلاهما طريقان لدرء الأخطار والمحافظة على التراث في لحظة التدوين .

والمصنفات الكلامية ليست فقط مراجع للدراسة بل هي ذاتها موضوع للدراسة

---

(٨٥) « ولم تبق في الكتب التي يتداولونها من علم الأصول عيان ولا جزء من تمهيد القواعد الحقيقية عين ولا أثر سوى كتاب « المحصل » الذي أسمه مطابق لمعناه ، وبيانه غير موصل إلى دعواه ، وهم يحسبون أنه في ذلك العلم كاف ، وعن أمراض الجهل والتقليد شاف . والحق أن فيه من الغث والثمين ما لا يحصى . والمعتمد عليه في اصابة اليقين بطائل لا يُحظى . بل يجعل طالب الحق بنظره فيه كعطشان يصل إلى السراب . وتصيِّر المتحير في الطرق المختلفة آيسا من الظفر بالصواب ، رأيت أن أكشف القناع عن وجوه ابكار مخدراته ، وأبين الخلل في مكان شبهاته ، وأدل على غثه وسمينه ، وأبين ما يجب أن يبحث عنه من شكه ويقينه ، وإن كان قد اجتهد قوم من الأفاضل في ايضاحه وشرحه ، وقوم في نقض قواعده وجرحه . ولم يجرأ أحدهم على قاعدة الانصاف ، ولم تخل بياناتهم عن الميل والاعتساف » . التلخيص ص ٣ ؛ انظر أيضاً لباب المحصل ص ١ - ٣ ؛ والشرح الذي لا يفيد جديداً مثل شرح المواقف للجرجاني ، وشرح المقاصد للمكناسي . فلا يزيدان في مقدمتيهما شيئاً على الاعجاب والثناء والمدح والاطراء على الكتاب .

لأنها تكوّن التراث ، وهو موضوع الدراسة الأول . ليس الأمر فقط مجرد أخذ مادة منها لموضوع معين بل تحليل هذه المادة ذاتها إلى موضوعات . كل عبارة فيها لها دلالة حتى العنوان والمقدمات والتسليمات والصلوات والتحميدات والبسملات والنهايات والدعوات والاشارات إلى « مصر المحروسة » أو إلى « مصر المحمية » . فهي تعبر عن عقلية القدماء ومستواهم الثقافي . المؤلفات الكلامية ما هي إلا مادة تكشف عن البناء الشعوري التي صدرت هذه المادة عنه ، وهو المطلوب الكشف عنه ، وإعادة بنائه . المادة ليست هي الظاهرة ، بل الظاهرة تكمن فيما وراء المادة أو فيما تحت المادة أو فيما هو أدخل في المادة ، وهو البناء الشعوري الذي خرجت هذه المادة منه . ويحتاج إدراكه إلى الذهاب إلى ما وراء الألفاظ ، والاحساس بالمضمون الحق وراء الفصول والأبواب ، وذلك باشتراك الباحث في نفس التجارب ، ولو أنها من نوع مخالف ، تعبر عن موقف حضاري متقدم ، ومن ثم لزم على الباحث أن يكون مجدداً ، خالقا ، واضعاً للعلم ، وليس مجرد ناقل أو عارض أو شارح له . إذا اتحدت التجارب بين القديم والجديد تمَّ إدراك البناء القديم بالحدس والتجربة المباشرة وكأن الباحث يتحدث عن نفسه ، ويحلل شعوره الخاص ، وهو لم يكتمل بعد ، في إحدى لحظاته التاريخية الماضية .

ولا يهمنا في طريقة الاشارة إلى المصنفات ارجاع كل فكرة إلى مصدرها بل أخذ الفكرة ذاتها من المرجع ثم اكمالها من مرجع آخر ، وأخذ الزيادة من مصنف واكمال ما بها من نقص من مصنف آخر ثم وضع المصنفات كلها معاً ، كل منها يشير إلى جانب من الفكرة . الأفكار موضوعات مستقلة عن قائليها وعن مصنفاتها . ولكننا راعينا الترتيب الزمني قدر الامكان لرؤية تكوين الفكرة نشأة وتطوراً ، وإلا فالترتيب الموضوعي المستقل عن الترتيب الزماني والذي يتحول التاريخ فيه إلى مضمون لملْء صورة[٨٦] . موضوع التحليل هو الموضوع كفكرة وليست أفكار المؤلفين ، والفكرة مستقلة عن مؤلفها بل ولا يهمنا من هو صاحبها

---

(٨٦) أنظر مقدمة هذا الفصل عن « تاريخ الفرق ونسق العقائد » وأيضاً الخاتمة « من الفرقة المذهبية إلى الوحدة الوطنية » .

أو أول القائلين بها بقدر ما تهمنا الفكرة . لا يهمنا إن كان قائلها هـو هـذا أو ذاك بل تهمنا الفكـرة ذاتها . المهم هو القضاء عـلى « تشخيص الأفكار » الـذي نشأ من تخلفنا مثل تشخيص النبوة في الأنبياء ، والذي نشأ أيضاً بفعل الاستشراق الغربي ، عندما ارتبط المذهب في الغرب بشخص المعلن عنه بعد القضاء على استقلال الفكر والموضوعات في العصور الحديثة[٨٧] . وقـد اتبع تـراثنا القـديم هذا الأسلوب فلم يهتم لمن تكـون « أثولـوجيا » ارسـططاليس ، لأرسطو أم لأفلوطـين ، هذه المشكلة التي من أجلها حُكم على التـراث القديم بـالخلط والتشويش . ولا يهمنـا لمن تكون الأفكار لأفلاطون أم لأرسطو فالأشخاص إن هي إلا حوامل للفكـر وليست خالقـة للفكر . ولا يهمنا حتى ان كانت الأفكار منتحـلة أم تاريخية فالفكر له بناؤه المستقل عن التاريخ وان كان يظهر في التاريخ كحركة ومسار وقـانون . ومن ثم ، فـإن أي نقد لهذا المصنف يستعمل المنهج التاريخي لن يهـدف إلى قلبه ، بـل ولن يلمس حتى أطرافه . وإن أي نقد حتى ولو صـدق تاريخيـاً فإنـه لن يزيـد التحليل إلا عمقـاً أو اضافة لمادة جديدة تثبت صدق التحليل .

ولا يهمنا تضارب المقالات ، ونسبة فكرتين متعارضتين إلى شخص واحـد أو ذكر فكرة واحدة لشخصين مختلفـين سواء حـدث في مؤلف واحد أو في مؤلفـين أو أكـثر . ليس الغرض هـو التحقق التاريخي من صحة إحدى الـروايتين بـل المهم هو تحليـل المقـالتـين فكـريـاً ، وبيـان نشـأتهـا في الشعـور ، وفي الـظروف النفسيـة والاجتماعية التي حددت لحظة النشأة . ليست هناك قضية نسبة مقالة خـاطئة لغـير صاحبها بل المهم هو تحليل المقالات ذاتها بصرف النـظر عن أصحابهـا . وقد فعـل الحكماء ذلك أيضاً عندمـا حللوا نظريـة الفيض ، ولم يهتموا بصـاحبها أفلوطـين أم أرسـطو . ففي كثير من الأحيـان تكون الـروايات غـير صحيحـة ، وغـير مـطابقـة للواقـع . ولكن ذلك عمـل مستقل يقـوم به المؤرخ للتحقق من صـدق الروايـة . ولكن فيما يتعلق بالبـاحث فإنـه يحلل المادة في الشعـور بصرف النـظر عن قائلهـا .

---

(٨٧) أنظر الفصل الأول « تعريف العلم » ٣ ـ موضوعه وأيضـاً « التراث والتجـديد » ، المنهـج التاريخي ص ٨٢ ـ ٩٥ .

الأشخاص يعرضون موضوعات ولا يضعون فكراً . هم مجرد وسائل تظهر الحضارة من خلالها دون أن يكون لهم الفكر خلقاً وابداعاً . فسواء كان المعبّر عن الفكرة هذا أم ذاك فإن الفكرة هي موضوع البحث ، والحضارة ليست تاريخ أشخاص بل مجموعة أفكار يهمنا تحليلها ومعرفة دلالتها بالنسبة للفكر وأثرها في الواقع . وفي علم الكلام خاصة ، يستحيل وضع فرقة معينة في نظرية معينة أو شخص محدد تحت رأي محدد لأنه لا توجد فرقة واحدة متجانسة . كل فرقة تضم عشرات الفرق الصغيرة . ولكل منها رأي مستقل وأحياناً رأي مضاد . كما أن الشخص الواحد قد تكون له عدة آراء مختلفة حسب كل مسألة . قد يكون في التوحيد معتزلياً ، وفي العدل أشعرياً ، وفي الامامة شيعياً . هناك مثلاً أهل التوحيد والعدل، وأهل التوحيد والامامة . ولا توجد فرقة إلا ولها نقيض ، ولا توجد فرقة لها نقيض إلا ولهما فرقة ثالثة تحاول التوسط بينهما ، وكذلك الحال في الآراء والمذاهب . وبالتالي فإن معرفة « من قال ماذا » من أصعب الأمور تاريخياً في علم الكلام خاصة وأن العلماء لم يكتبوا بأنفسهم بل رُوي عنهم من أصدقائهم وأعدائهم على السواء . ويضيع الجهد في تصحيح نسبة المقالات أكثر من ضياعه في تحليل الأفكار[٨٨] .

وليست مهمتنا نقد العلماء وبيان عوراتهم وتناقضاتهم . فما أسهل ذلك . ليست المعركة معهم بل مع بناء فكري قديم نشأ في ظروف تاريخية قديمة ويُعاد بناؤه من جديد طبقاً لظروف تاريخية جديدة . المعركة مع البناء الحي الذي ما زال يؤثر فينا لا مع البنائين الذين واراهم التراب . ومن منا ليس له أخطاء أو عورات ؟ ومن منا لم يقع في تناقضات ؟ المهم هو إعادة بناء القديم ، واستقامة المعوج . بل إن فكرة الخطأ من الناحية الحضارية لا وجود لها . كل مفكر ما هو إلا معبر عن موقفه الحضاري ، والمواقف الحضارية تتغير بفعل التاريخ ، ويكون الخطأ فقط هو أخذ موقف حضاري مخالف للحظة التاريخية التي يوجد فيها المفكر أي أن يعبر عن موقف حضاري سابق (الحركة السلفية) أو عن موقف حضاري قادم (الحركة العلمانية) . الصواب في التاريخ هو التعبير عن الموقف الحضاري الحالي (التراث

(٨٨) ويتضح ذلك في كتاب « الانتصار » للخياط في الرد على ابن الراوندي الملحد!

والتجديد أو اليسار الاسلامي) . يكون الخطأ هنا بمعنى الجمود ، والتأخر ، وتخلف الفكر عن الواقع ويكون الصواب هي الحركة ، والتقدم ، ومواكبة الفكر للواقع . أما الخطأ بمعنى غياب الاتساق الداخلي فهو خطأ صوري خالص لا يهمنا في شيء . لسنا أمام مقدمات نستنتج منها نتائج بل أمام واقع حي نحاول المساهمة في تطويره ، وفي القضاء على معوقات تقدمه . مهمتنا عملية لا نظرية ، وغايتنا اجتماعية لا صورية ، ومنطقنا منطق التغيير لا منطق الاتساع ، أي مطابقة بناء الفكر مع حركة الواقع وليس مجرد مطابقة الفكر الصوري مع الواقع الأبدي . بل ان تغيير الواقع هو أقصى محاولات تحقيق اتساق الفكر مع الواقع ، والغاء المسافة بين نظام العالم ونظام الوحي الذي هو نظام الطبيعة وهي تنحو نحو الكمال ، نحو التحقق والغاية . بل إن الغاية ليس حل المسائل الكلامية بل ارجاعها واحدة تلو الأخرى إلى ظروفها النفسية والاجتماعية الأولى التي نشأت منها ثم ردها إلى الأسس النفسية والاجتماعية الحالية لمعرفة مدى فاعليتها سلباً أم إيجاباً ثم اختيار أحد الحلول من البدائل القديمة المطروحة والتي يفرضها بناء الشعور المعاصر طبقاً لحاجات الجيل ومطالبه . فلا توجد هناك حلول نظرية صائبة وأخرى خاطئة بل توجد حلول فعالة ومؤثرة تهدف لصالح فئة أو لصالح مجموع الأمة ، تحقق مطلب السلطة في الشرعية والطاعة أو مطلب المعارضة في الرفض والثورة[٨٩] .

ولم نقتف أثر رسالة أو كتاب ، شرحاً أو تلخيصاً بل اتبعنا بناء العلم ذاته ، تكملة من جميع المذاهب والفرق . ولم ننتسب إلى فرقة دون أخرى أو مذهب دون آخر بل حاولنا تحليل جميع المذاهب والفرق تحليلاً علمياً موضوعياً ، لا هدف لنا إلا نشأة الأفكار وآثارها في السلوك والتوجيه مع أن وجداننا معتزلي ، وهدفنا تطوير الاتجاه الاعتزالي خطوة نحو عقل الثورة من أجل إقامة « لاهوت » شامل للثورة . وقد احتفظ التاريخ لنا بمؤلفات الأشاعرة أكثر من مؤلفات المعتزلة . كان المعتزلة قليلي الكتابة ، وأهل مناظرة ورأي . كانوا أقرب إلى قادة الفكر ، ومؤسسي

---

(٨٩) أنظر «التراث والتجديد» ، اعادة الاختيار بين البدائل ص ١٨ - ٢١ انظر أيضاً الخاتمة «من الفرقة المذهبية الى الوحدة الوطنية» .

الحركات ، مما لا يسمح لهم ذلك الموقف بالتأليف كما كانوا أهل معارضة علنية من الداخل ، ومواقف مشهودة ، وقيادة أمة ، وانارة فكر ، وهذا أيضاً قد يمنع من التأليف على عكس تراث السلطة وتجنيد النظار ، وحشد الاقلام وتفرغ المنظرين له(٩٠) . هذا بالاضافة إلى قصر عمر المعتزلة بعد أن انهتهم المحنة ، فضاعت كتبهم واندثرت ، وبعد أن سادت الاشعرية وراجت كتبهم ، خاصة وأنهم كانوا يمثلون التراث والسلطة في آن واحد ، وكانت العقيدة الرسمية السائدة منذ محنة المعتزلة حتى اليوم . كما أن تعبير الأشاعرة عن إيمان العوام والعقائد الشعبية والفكر الشائع جعلهم أقرب إلى الاستمرار والدوام في مقابل تعبير المعتزلة عن مواقف فكرية تستلزم وعياً وبصيرة لا تتوافر في كل عصر ولا توجد عند كل الناس . وقد استمر « علم الاشعرية » بعد اكتمال العلم في الشروح والملخصات تعبيراً عن الواقع المستتب ، وسكون الفكر ، والركود الحضاري العام(٩١) . لم نستعمل مؤلفات شيعية لأن الفكر الشيعي ليس موجهاً لسلوك الجماهير ، وليس مخزوناً فكرياً عندها بالرغم من حب آل البيت ، وتقديس ولاة الله الصالحين في الدين الشعبي . كان يجوز الاعتماد على مصنفات شيعية لو كان المؤلف ايرانياً أو لو كان الفكر الشيعي سائداً وموجهاً سلباً أم إيجاباً . ولا يعني هذا الانقطاع عن الفكر الشيعي والانعزال عنه وذلك لأنه نمط مثالي يوجد في كل عصر ، ويظهر في كل حضارة ، ويتكرر في كل زمان ومكان . ربما لو شئنا اقامة حوار بين الفكر الشيعي والفكر السني الآن لجاز تناول الفكر الشيعي ولكن مهمتنا ليست اجراء مثل هذا الحوار الذي يفصمه التاريخ وتمنعه الاحقاد والضغائن المتوارثة بل الرجوع إلى وحدة

---

(٩٠) مثل المسيح وسقراط قديماً ، والأفغاني حديثاً . ومع ذلك يحفظ لنا التاريخ بعض أسماء كتبهم مثل « الرد على القدرية » لعمرو بن عبيد ، « أصناف المرجئة » لواصل بن عطاء ، « المنزلة بين المنزلتين » ، « معاني القرآن » ، « الخطب في التوحيد والعدل » ، « ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد » ، « السبيل إلى معرفة الحق » ، « الدعوة » ، « طبقات أهل العلم والجهل » ، وكل ذلك لواصل بن عطاء أيضاً .

(٩١) « علم الأشعرية » تعبير ابن رشد في الهجوم على الأشاعرة خاصة في شروحه على أرسطو كما هو واضح في « تفسير ما بعد الطبيعة » .

الفكر الأولى وربطه بواقع المسلمين الحالي . فالوحدة تأتي من الفكر ومن الواقع وليست من توحيد العقائد التاريخية أو إجراء حوار بينها لا يتعدى بعض المتخصصين المتفيهقين ، ولا يتجاوز اهتمام الساسة ، وأهل المراسيم .

ولم نشأ التركيز على صلة الكلام بالعلوم الأخرى فذلك موضوع آخر(٩٢) . ولكننا أشرنا إليها بمقدار إشارة علم الكلام إليها اما عرضا في نقد بعض التصورات الفلسفية خاصة بقدم العالم والمادة أو بعالم الأفلاك أو بعض مدارك العلوم في التصوف فيما يتعلق بالإلهام أو بعض الأحكام الشرعية فيما يتعلق بالنسك . والإشارة إلى أصول الفقه أوضح لأن علم أصول الدين وعلم أصول الفقه كلاهما علم للأصول . أما الاشارات إلى علم الكلام من العلوم الأخرى فذلك أدخل في هذه العلوم منها في علم الكلام . فذكر علم الكلام في علوم الحكمة يبين موقف علوم الحكمة من علم الكلام وليس موقف علم الكلام من علوم الحكمة . وكذلك الإشارة إلى علم الكلام في علوم التصوف تبين موقف علوم التصوف من علم الكلام أكثر مما تبين موقف علم الكلام من علوم التصوف . هذه المادة الكلامية لا تدخل في بناء علم الكلام بل تدخل في أبنية العلوم الأخرى(٩٣) .

ولم نشأ الاعتماد على منهج النص ، وذكر كل النصوص الدينية التي تعتمد عليها هذه الفرقة أو تلك . فبالرغم من أن هذه النصوص أصل للفرقة ولنشأة الاتجاه إلا أنها أصل واحد ، وهو الأصل الفكري أو العقائدي . وهناك أصل ثان وهو الدوافع النفسية والمصالح الشخصية والظروف الاجتماعية التي امتلأت النصوص بها ففسرتها وأوّلتها . النصوص مجرد قوالب يمكن ملؤها حسب مقتضيات كل موقف ، فالموقف هو الأصل المحدد لا النص ، وهو ما نريد إعادة

---

(٩٢) هذا هو موضوع الجزء الثامن « الانسان والتاريخ » ، محاولة في بناء وصف الحضارة الاسلامية وتطورها .

(٩٣) يظهر موقف الفلسفة من علم الكلام مثلاً في « مناهج الأدلة » لابن رشد كما يظهر موقف التصوف في « الجام العوام عن علم الكلام » للغزالي ، وموقف الفقهاء مثلاً في « ذم الهوى » للهروي . انظر صورة باقي العلوم الاسلامية في علم أصول الفقه كنموذج لذلك في رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse .

بنائه لمعرفة الدوافع النفسية والظروف الاجتماعية التي من خلالها نشأت الفرقة وخرج المذهب . الاعتماد على النصوص وحدها هو تفسير للفكر وللواقع من خارجها وكأن الأفكار والوقائع توجد فقط بوجود النصوص ، وكأن الألفاظ لها الأولوية على المعاني والأشياء . صحيح أن النصوص نفسها أساس جميع المذاهب ولكن لا يمكن من خلال النصوص وحدها معرفة تنوع هذه المذاهب وتفرقها وتشعبها بل وتضاربها وصراعاتها حتى الموت . هذا بالإضافة إلى انه لا يوجد نص لا يمكن تأويله ، ولا يوجد نص صريح الدلالة إلا وله نص صريح مقابل . النصوص إذن لا تفسر نشأة فرقة على التحديد بل تفسر جميع الفرق وجميع الاتجاهات مهما بلغ تضاربها وتشتتها . كما أن الاعتماد على النصوص يكسر اتساق تحليل الواقع كما يكسر اتساق الخطاب النظري . ان تحليل الواقع يعتمد على تحليل الوقائع نفسها وعلى وصف الأشياء على ما هي عليه . ولن يلغي النص الواقعة إذا كانت موجودة كما أنه لن يوجد واقعة إن لم تكن موجودة . كما يقضي النص على استقلال الخطاب ، ويجعل الفكر قائماً على براهين خارجية عنه وهي ظنية في حين أن الدليل أساساً هو الدليل العقلي أي الدليل اليقيني الداخلي . ولما كانت الأدلة العقلية كل منها يصدر عن الآخر فإن الموضوع يتحدد ببداهة العقل ، والنص لن يغني عن الدليل العقلي إن غاب ، ولا ينقض الحجة العقلية إن وجدت[٩٤] . والنصوص نفسها إما عقل أو واقع . هي عقل لأنها قائمة على العقل ، فلا يوجد شيء في النص إلا ما اعتمد على العقل أولاً . العقل أساس النقل على ما هو معروف في تراث القدماء . والنص هو الواقع على ما هو معروف من « أسباب النزول » وهي الوقائع الأولى التي جاء النص واصفاً ومشرعاً لها ، وكذلك « الناسخ والمنسوخ » اللذان يدلان على تكيف الوحي طبقاً لتغيرات الواقع وقدرات الإنسان وامكانيات التحقيق[٩٥] . الرجوع إلى العقل والاعتماد على الواقع إذن رجوع إلى

(٩٤) أنظر الفصل الثالث : نظرية العلم . وسيكون موضوعاً للجزء الثالث بأكمله من «التراث والتجديد » وهو « نظرية التفسير » .

(٩٥) أنظر « ماذا يعني أسباب النزول» ؟ وأيضاً « ماذا يعني « الناسخ والمنسوخ »؟ في قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

مصدر النص والتقاء معه من حيث أصوله من أجل فهمه وحمايته من أي تأويل مغرض. وإن استعمال النصوص كحجة يقتضي إيماناً مسبقاً بها سواء من الباحث أو من القارىء . وذلك يقلل من درجة شمولية البحث وعلميته ودرجة استقبال جماهير القراء له . في حين أن تحليل العقل لا يتطلب أي إيمان مسبق بشيء ، ولا يتطلب إلا العقل الصريح أو رؤية الواقع الموصوف . ولا يعني ذلك أننا نلجأ إلى استعمال الحجج العقلية التي تتشعب في عديد من التقسيمات حتى تخرج على مستوى الفهم ، فتتحول إلى جدل عقيم أي إلى دلائل أصعب في الاقناع من الموضوع ذاته . وقد حولنا هذه الأدلة قدر الامكان إلى خبرات شعورية حتى يمكن أن تكون أكثر اقناعاً ، وأوضح مضموناً ، وأيسر فهماً . حولنا العلم من علم جدلي إلى علم برهاني ، ومن علم صوري إلى علم حي . هذه الحجج العقلية المتشعبة هي في الحقيقة الجوانب المختلفة للواقع معروضة عرضاً صورياً خالصاً . الاحتمالات الصورية في حقيقة الأمر هي امكانيات واقعية . وإذا اقتضت الضرورة ، وحتى نبيّن مصدر الفكر ووحدته الأولى في النصوص الدينية قد نذكر بعضاً من الحجج النقلية في الهوامش السفلى واعادة تفسيرها حتى تتفق مع الحجج العقلية ورؤية الواقع . والقدح في التفسير لا يكون قدحاً في العقل . ولو عورض التفسير بتفسير آخر فإن حجج العقل تظل باقية لأننا نحتكم إلى مقياس ثالث يشمل العقل والنقل معاً وهو الواقع الذي نعيش فيه . اليقين من العقل من حيث الاستدلال ، والنقل يأخذ يقينه من العقل ، والاختلاف في تفسير المنقول راجع أساساً إلى اختلاف في فهم المعقول . ولكن الواقع هو الذي يعطي مادة اليقين التي يحللها العقل في التجربة المباشرة . وسنشير إلى الحجج النقلية ليس باعتبار تفسير صوري لها بل لتحليل أثرها عند سامعيها ، ومدى تعبيرها عن متطلبات الواقع من أجل العثور على البناء النفسي الاجتماعي الذي قد تكشف عنه الحجج النقلية من أجل توجيهها نحوه بالتغيير أو استدعاء حجج نقلية أخرى تعطي هذا البناء دفعاً وقوة وشرعية .

ومع ذلك فقد اعتمدنا على كثير من المادة الكلامية ووضعناها أحياناً بين قوسين . ولا يعني ذلك أنّنا نستشهد بها بل نعطي عيّنة من مادة نحلّلها . قد

نسقط عبارة أو عبارتين من الوسط لا تخل بالفكرة أو تحدث اضطراباً في السياق. ووضعنا كل ذلك في هوامش الصفحات حتى لا ينكسر الإتساق الداخلي للفكر وبالتالي يكون الجديد في صلب الصفحة والقديم أسفلها. ووجود النصوص في الهوامش أسفل الصفحات، بالرغم من ثقلها وإرهاقها للقرّاء، ضروري. فهذا هو « التراث »، وتحليلنا لها في أعلى الصفحة هو « التجديد ». وبذلك يستطيع القرّاء أن يحكموا ويقارنوا بأنفسهم بعد أن يقرأوا « التراث والتجديد » سواء في جزئه الأول «من العقيدة إلى الثورة» أو في أجزائه التالية. فغالباً ما لا تتاح لهم فرصة الحصول على نصوص دالّة من القديم إما لصعوبة المحل أو لضياع وسط النصوص غير الدّالة. النصوص من التراث تسمح للقرّاء، العامة منهم أو الخاصة بالاحتكاك بالتراث وأخذ انطباعات منه بالموافقة أو المخالفة، بالقبول أو بالرفض، بالارتياح أم بالغضب، وهي المادة الشعورية التي يقوم «التجديد» بتحليلها. وبذلك أكون قد خفّفت عن القرّاء عناء البحث والتمحيص عن القديم، وأكون قد قدّمت لهم، ما لم تتح لهم الفرص للتعرّف عليه، وأكون قد أبرزت التراث وقدّمته، ووضعته في شعور القرّاء المعاصرين بدل انزوائه وانزوائهم. أي أنّني أكون قد قمت بمهمة تقديم الطرفين بعضهما للبعض الآخر بعد تباعد وتجاهل ونسيان. والنصوص المذكورة ثلاثة أنواع: الأولى نصوص مخالفة تبعث على الغضب حتى يغضب القرّاء معي على القديم ويشاركونني في الهمّ، ويعطونني الحق، ويعذرونني، ويفهمون موقفي[٩٦]. والثانية نصوص موافقة يمكن أن يثق بها القرّاء، تساعدهم على النقد والرد والتطور وحتى يعلم القرّاء أن مواقفي لم تأت من فراغ، وليست مجرّد هوى، بل لها ما يدعمها أيضاً عند القدماء، ولكنها انزوت واختفت باختفاء المعارضة واستتباب النظام. والثالثة نصوص محايدة يمكن إعادة بنائها، وتكون نموذجاً لعينات من التحليل، يعاد صياغتها من جديد أو ينسج على منوالها بتحليلات جديدة في المناهج أو في الموضوعات. ولكن الغالب هو النصوص المخالفة فالغضب أهم من الرضى، والحزن أجدى من الفرح، على الأقل في لحظة الهزائم الحالية،

(٩٦) مثال ذلك النصوص الأولى الواردة في المقدمة لبيان اتحاد الدعوة لله بالدعوة للسلطان.

والثورة على القديم أوجب من الإيمان به. ربّما استكثرنا من النصوص، وربّما تكرّرت لدرجة أنها قد تصبح نصف الدراسة أو على الأقل ربعها حتى تتضخّم الدراسة وتصبح صعبة على القرّاء في عصر لا يودّ إلا السرعة ولا يتحمّل إلا العرض السريع المقتضب[٩٧]. والحقيقة أنّنا أردنا الدراسة شاهداً على التراث والتجديد معاً، وصورة للماضي والحاضر في آن واحد، وذلك حتى يرى القرّاء كيف يخرج القديم من الجديد، وكيف يخرج الجديد من القديم، وحتى تكون عوناً لكل طالب علم أو قائد أمّة. من أراد القديم وجده، ومن أراد الجديد وجده، ومن أراد الاثنين معاً وجدهما معاً. وقد سبّب هذا ربّما طولاً لا فائدة منه ولكنه ضروري. فالدخول في أعماق التراث هي الخطوة الأولى لاكتشاف الجديد. ولا ينفع مسّ التراث على نحو سطحي بإشارات عابرة لأنه موضوع البحث والتحليل. «التراث والتجديد» فيه غناء عن التراث الماضي لأنه يجمع ويعرض التراث كله كشاهد على التحليل وكمصدر له حتى تتمّ المقارنة بينه وبين الجديد حتى يكون القارىء حَكَماً ويكون قاضياً. وقد تكون هناك عدم دقّة في فهم النصوص أو خطأ في فهم التحليلات، ولكن ذلك يحدث في كل بحث. وحتى على افتراض وقوع خطأ في فهم نصف المادة وفي نصف التحليلات يبقى المنهج سليماً، ويظل الموقف صحيحاً يكشفه النصف الآخر من الفهم والتحليل الصحيحين. قد نتخلّى أحياناً عن دقة التعبيرات، ونسقط الفروق الدقيقة عن قصد لأن المقصود ليس البحث عن الدقيقات بل عن أمهات المشاكل، كيف نشأت؟ وما دلالتها؟ هل تفيد معنى أم أنها تحصيل حاصل؟ هل تعبّر عن وقائع أم هي تعبيرات إنشائية خالصة؟ لا تحتوي الدراسة على معلومات، فالمعلومات محفوظة في القديم بوضوح وتمام وكمال، ولكنها تحتوي على تحليلات، وإعادة وضع للمشاكل وضعاً صحيحاً، وإعادة بناء لها طبقاً لروح العصر. ولذلك فهي تحتاج إلى مشاركة من القارىء الذي بإمكانه إقامة هذه التحليلات بنفسه. إن وجدها صحيحة وافق واتّفق وإن وجدها مخالفة

(٩٧) وقد اتبع هذا المنهج الشيخ مصطفى عبد الرازق في «التمهيد لتاريخ الفلسفة في الاسلام» مع طلابه وليس مع الجماهير العريضة ، وفي وسط الصفحة وليس فقط في الهامش .

خالف ورفض، وذلك لأن هذه التحليلات تعبّر عن حياته وعن موقفه، وعن وجوده، في هذا العالم، وعن مساره في حركة التاريخ.

وقد كان القدماء على وعي بالكم. فكثيراً ما كان الدافع على التأليف هي مؤلفات مطوّلة مسهبة أو مختصرة مخلّة، ثم يأتي المؤلّف الجديد لتحديد الكمّ المتناسب بين التطويل الممل والإيجاز المخل. وفي الغالب لا يتحقق الغرض فالذي يريد الاختصار يطيل، والذي لا يريد التكرار يكرّر. وقد يقصد المؤلّف التكرار من أجل البيان، أو لأجل حيادالعرض أولاً ثم صدق النقد ثانياً[98]. ويطيل المؤلف إذا كانت مصنّفاته إملاء أو تدويناً من تلميذ أو مريد، ومن ثم يحتاج الى تلخيص وتركيز أو إذا كان جامعاً لمادة سابقة فإنه يحتاج إيضاً إلى تركيز لأن الجمع كثيراً ما يتكرّر أوإذا كان جدلاً أو تفنيداً أو رداً وذلك أنه يحتاج إلى إبراز رؤ وس الموضوعات التي تكون البناء الرئيسي للعلم. قد تكون الإطالة بلا مبرّر، مجرّد إسهاب، وقد تكون تشويشاً على المذهب حتى تفقده أساسه العقلي. وقد يكون الاختصار مخلاً بالمذهب غير منصف له ودون تبرير كاف لأسسه العقلية خاصة لو كان المؤلّف من خصومه فإنه يبخسه حقه. ولكن معظم المؤلّفات تركز على ضرورة الاختصار[99]. فهو أكثر قدرة على التعبير عن القصد ومضمون الفكر، وإبراز البناء الكلّي

---

(٩٨) « رسمت لكم كتابنا هذاالملقب بكتاب « التنبيه » ما فيه دليل يغني ، وكفاية تقنع متدبرها وشرطي فيه الاختيار ، وليس تكراري للبيان بمخرجي فيه إلى تطويل ، فلا تنسبني فيه إلى ذلك ، وإنما تكراري للبيان ، وجمعي له في موضع ، وتلويحي به في آخر الألفاظ ترد مختلفة ، وأشياء لا وجه لتركي لها ملقاة على سبيل الحذر من التطويل » . التنبيه ص ١ .

(٩٩) « فحداني ما رأيت من ذلك على شرح ما التمست شرحه من أمر المقالات واختصار ذلك وترك الاطالة والاكثار » مقالات جـ ١ ، ص ٣٣ ؛ « لا آلو جهداً في الاختصار ، وتحرير المعاني والأدلة والألفاظ » التمهيد ص ٣٤؛ « وأشرنا في كل مسألة منها إلى أصولها بالتحصيل دون التطويل . . . وأشرنا فيها إلى نصرة الحق بدليل يكشف منه على الايجاز من غير تطويل . . . فهذه أصول النظر لا يشذ منها عن مقاصد النظر شيء أتينا فيها بالمقاصد ، وأضربنا عن التطويلات والتكريرات » . الشامل ص ٢٢٣ ؛ « أما بعد ، فقد التمس مني جمع من أفاضل العلماء وأماثل الحكماء أن أصنف لهم مختصراً في علم الكلام ، مشتملاً على أحكام الأصول والقواعد دون التفاريع والزوائد. فصنفت لهم هذا المختصر » المحصل ص ٢ ؛ « أمليته أوان الدعة والاستراحة عن فتور المطالبة ، سالكاً فيه جادة الايجاز ، من غير تعمية والغاز » حاشية التفتازاني ص ٢ .

الشامل للعلم. وبعد ذلك يمكن ملؤه فيما بعد بأية مادة تحليلية ومن أي عصر(١٠٠). للتطويل عيوب كبيرة إذ أنه يمنع من الاتصال الوجداني بين القارىء والكاتب، ويفقد القارىء حماسه، كما يفقد الكتاب دلالته، وكل كتاب له هدف أو هدفان يتمّ التركيز عليهما من أجل التعبير عن دعوة العصر وحتى يكون للكتاب فائدة. الإطالة سيحان لهذا التركيز، وطمس لهذه الدعوة. ونظراً لأهمية هذا الموضوع، العلم من حيث الكمّ، تعقد له مسألة خاصة في نهاية الكتاب من أجل التنبيه عليها(١٠١).

ونادراً ما تأتي المصنفات من أجل التطويل. وفي نفس الوقت يضيف البعض منها زيادات إما لمادة قديمة أو لتحليلات من مادة العصر التي ازدهرت وأصبحت

---

(١٠٠) « وإذا الأصول التي تكلم فيها الأفاضل من المسلمين قد سقتها، ومنها ما قد أوضحته شرحاً، ومنها ما قد اكتفيت عن شرحه بما أعدت من ذكره فجاز في موضعه على كماله، وفي موضع على بعضه أن يدرك ما فاته من كماله. فإلى هذا عزوت، وإليه أشرت، فلا يقولن أحد ينظر في كتابنا هذا إنه قد كرر فيه ما قد أتى به في موضع قد كفى ذلك عن تكراره. وإني أحب الايجاز في الأمر كله ». التنبيه ص ١٣ - ١٤.

(١٠١) « ودع عنك ما سودت به أوراق كثيرة من تطويلات، وترديد عبارات لا تشفي غليل طالب، ولا تسكن نهمة متعطش. ولن يعرف قدر هذه الكلمات الوجيزة إلا من انصرف خائباً عن مقصده بعد مطالعة تصانيف كثيرة، فإن رجعت الآن في طلب الصحيح إلى ما قيل في حد النظر دل ذلك على أنك لم تخلص من هذا الكلام بطائل ولن ترجع منه إلى حاصل » الاقتصاد ص ١٢؛ « والذي هداني على ايراد هذه الأبحاث أمران: معرفة اصطلاح القوم، وتحقيق ما ذهبوا إليه في حقيقة الأكوان تسلقاً إليها مما قالوه به من لوازمها. وأن لا تظن بكتابنا هذا عوازة لها قصوراً وإلا فلا تجدي في المطالب المهمة زيادة طائل. ولولا هاتان الغايتان لم نطول الكتاب، وليس من دأبي الاسهاب. وأذكر هذا القدر لدى ما عسى تعثر عليه في غير هذا الموضع فتكف لائمتك عني » شرح المواقف ص ٣٢١ - ٣٢٢ والملاحظة في آخر الكتاب وليس في المقدمة. « وشرحتها شرحاً جمع خلاصة مباحث الفن سلكت فيه طريق الايجاز مع سهولة في العبارة مقتصراً على ايضاح العقائد وحل المواضع المشكلة » القول ص ٢. ويمكن التعبير عن ذلك شعراً مثل:

لطيفة صغيرة في الحجم ... لكنها كبيرة في العلم
تكفيك علماً إنْ ترد أن تكتفي ... لأنها بزبدة الفن تفي

الخريدة ص ٨ - ١٠

جزءاً من الثقافة العامة. وغالباً ما يحدث ذلك في الشروح. وإلّا من أين يأتي الشارح بمادة شرحه إن لم يكن من داخلها عن طريق الشرح اللغوي والعقائدي أو من خارجها عن طريق الزيادات والإضافات من مادة خارجية كلامية أو غير كلامية[102] ؟ ومع ذلك، تنحو معظم المصنّفات نحو رفض الخطأين معاً: الإختصار المخل والتطويل الممل خاصة فيما يتعلق بحجج الخصوم حتى تتحقق الأمانة في عرضها ونقلها مستوفاة لقوة الحجج وضرورة الإقناع. ويحدّد كل مصنّف منذ البداية الهدف من مصنّفه وأسلوبه المتّبع، وعيوب التأليف في عصره، وأوجه نقص المصنّفات التي أمامه، من اختصار أو تطويل أو نقص في الحجة والبرهان واكتفاء بالخطابة والإقناع أو إشارة إلى المقاصد من بعيد أو زيادة وإسهاب في السؤال والجواب، وكثرة الاستدلال أو الاعتماد على الأغاليط لترويج الرأي أو الاحتواء على تناقض داخلي في الاستدلال وترتيب المقدمات واستنتاج النتائج أو الازدحام بالمادة المكرّرة كتحصيل حاصل أو تجميع لكل شيء دون تمحيص أو تدقيق. يأتي مصنّف جديد ويتخلّى عن كل هذه العيوب، ويأتي بأضدادها محاسناً[103].

---

(١٠٢) « هذه فوائد بل موائد، قربت بها من أراد أن يطلع على شرح العقائد، ويجمع زوائد عوائد هي أتم الزوائد، وهي التي تعود إلى تدقيق النظر وتحديد البصر نعم القائد، ولتوارد أبكار الفكر حبذا الصائد». حاشية الاسفرايني ص ٢.

(١٠٣) « فإن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً. فبعضهم أطال وأسهب، وأكثر وهجر، واستعمل الأغاليط والشغب فكان ذلك شاغلاً عن الفهم قاطعاً دون العلم. وبعض حذف وقصّر واختصر وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات فكان في ذلك غير منصف لنفسه من أن يرضى لها بالغبن في الابانة، وظالماً لخصمه في أنه لم يعرفه حق اعتراضه، وباخساً حق من قرأ كتابه إذ لم يغنه عن غيره » الفصل جـ ١، ص ٣ ؛ « واني قد طالعت ما وقع إليّ من الكتب المصنفة في هذا الفن فلم أر ما فيه شفاء لعليل أو رواء لغليل سيما والهمم قاصرة والرغبات فاترة، والدواعي قليلة، والصوارف متكاثرة، فمختصراتها قاصرة عن افادة المرام، ومطولاتها مع الأسآم، مدهشة للافهام. فمنهم من كشف عن مقاصده القناع. وقنع من دلائله بالاقناع، ومنهم من سلك المسلك السعيد، لكن يلحظ المقاصد من بعيد، ومنهم من غرضه نقل المذاهب والأقوال، والتصرف في وجوه الاستدلال، وتكثير السؤال والجواب، ولا يبالي إلام المآل. ومنهم من يلفق مغالط لترويج رأيه، ولا يدري أن النقاد من ورائه، ومنهم من ينظر في مقدمة مقدمة، ويختار منها ما يؤدي إليه بادىء برأيه، =

والحركات الإصلاحية الحديثة تنسج أيضاً على نفس المنوال، وترفض الإيجاز والتطويل، وتؤثر التركيز على وحدة الفكر وترك الإختلافات بين المذاهب، والجمع بين القديم والجديد طبقاً لحاجات العصر مع التركيز على الوضوح والبساطة في الفهم(١٠٤)، كما أشارت المقدمات الإيمانية إلى حجم المؤلف ونسبته من الاختصار

= وربما يكر بعضها على بعض بالابطال ، ويتطرق إلى المقاصد بسببه الاختلال ، ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ليظن أنه بحر زخار ، ومنهم كمن هو حاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ينقله نقلاً ، ولا يستعمل عقلاً ، ليعرف أغث ما أخذه أم سمين ، وسخيف ما ألغاه أم متين ، فحداني الحدب على أهل الطلب ، ومن له في تحقيق الحق أرب إلى أن كتبت هذا كتاباً مقتصداً لا مطولاً مُملاً ، ولا مختصراً مُخلاً ، أودعته لب الألباب ، وميزت فيه القشر من اللباب ، ولم آل جهداً في تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وتركت الحجج تتبختر اتضاحاً ، والشبه تتضاءل افتضاحاً ، ونبهت في النقد والتزييف ، والهدم والترصيف على نكت هي ينابيع التحقيق ، وفقر تهدي إلى مظان الدقيق ، وأنا أنظر من الموارد إلى المصادر ، وأتأمل في المخارج قبل أن أضع قدمي في المداخل ثم أرجع القهقرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر كرة بعد أخرى هل أرى من فتور ، حافظاً للأوضاع ، رامزاً مسبقاً في مقام الرمز والاشباع حتى جاءت كما أردت ، ووفق الله وسدد في اتمام ما قصدت ، جاء كلاماً لا عروج ولا ارتباب ، ولا لجلجة ولا اضطراب ، متناسباً صدوره وروافده ، متعانقاً سوابقه ولواحقه ، بكراً من أبكار الجنان ، لم يطمثها من قبل أنس ولا جان » المواقف ص ٤ ـ ٥ ؛ « فهذا شرح لطيف على مقدمتي المسماة بالخريدة البهية التي نظمتها في العقائد التوحيدية ، يوضح معانيها ، ويشيد مبانيها ، اجتنبت فيها الاختصار المخل ، وأعرضت عن التطويل الممل ، واقتصرت فيه على تحرير البراهين مع الفوائد التي يزداد بها اليقين » شرح الخريدة ص ٣ .

(١٠٤) « رأيت المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من افادة التلامذة والمطولات تعلو على أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم . فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أمس بحالهم . فكانت أماليّ مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية المطالب ما أملي على الفرقة الأولى في أسلوب لا يصعب تناوله وإن لم يُعهد تداوله تمهيد مقدمات ، ويسير منها إلى المطالب ، ومن غير نظر إلى صحة الدليل ، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد . . . قد يحتاج إليه القاصر ، ولا يستغني عنه المكاثر على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد القول محدود ، قد سلك مسلكاً في العقائد ، مسلك السلف ، ولم يُعب في سيرة آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب بُعد مُمليه عن أعاصير المشاغب . لكن وجدت فيه إيجازاً في بعض المواضع ربما لا ينفذ منه في ذهن المطالع ، واغفالاً ببعض ما تمس الحاجة إليه ، وزيادة عما يجب في مختصر مثله =

والتطويل، والإيجاز والإطناب. فمنها المختصر ومنها المطوّل، ومعظمها يحاول أن يبتغي بين ذلك سبيلاً. وبالرغم ممّا يبدو على مصنّفنا هذا من طول إلاّ أنه حاول الجمع بين «التراث والتجديد»، وبيان الجذور التاريخية لأزمات العصر في التراث القديم، قراءة للماضي في الحاضر، ورؤية للحاضر في الماضي. فلا يوجد تحليل قام به القدماء إلاّ وتمّت الإشارة إليه، قدر الوسع والطاقة، ليظل وسطاً متناسباً بين إيجاز كتب العقائد والأصول وإطناب كتب الحوار والجدل. وقد يكون أحد أسباب الإطالة أيضاً ضرورة وضع بعض النصوص القديمة في الهوامش حتى يشعر القرّاء بالتجارب التي نحلّلها، وحتى يروا معنا الجذور التاريخية لأزمات العصر في التراث القديم. فإذا ما عاش القرّاء تجارب القدماء فإنهم قادرون على مراجعة تحليلات المعاصرين لها، والتحقق من صدقها، وإلاّ فإنهم يحصلون على المعاني دون تجارب، وعلى الصورة دون مضمون(١٠٥). لذلك نرجو ألا يُقرأ البحث كله دفعة واحدة، بل فصلاً فصلاً، وموضوعاً موضوعاً. فكل فصل يضع مشكلة مستقلّة، وكذلك كل باب يحتاج إلى مناقشة وتدبّر. وقد تكون إحدى الفقرات أو العبارات أولى من الأخرى وأدل. لذلك كانت سهولة الأسلوب مطلبي في التأليف. فليس العلم هو التعقيد والتصعيب حتى يظن السامع أنه أمام عالم عويص، بل إن أسلوب العلم هو الأسلوب السهل البسيط الذي يستطيع أن يفهمه كل الناس، وهو أسلوب «التراث والتجديد». ليس العلم هو وعورة الأسلوب وصعوبة المفاهيم، وتعقيد الألفاظ، فذلك هو التعالم. إنما العلم هو المدوّن بأسلوب سهل بسيط، يفهمه العامة قبل

= أن يقتصر عليه، فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته، وزدت ما أغفل، وحذفت ما فضل» الرسالة ص ٢ - ٣.

(١٠٥) تشير كثير من المقدمات إلى موضوع الاختصار والتطويل، وتكاد تجمع كلها على ضرورة الاختصار والايجاز، (المعالم، المحصل ص ٢)، «دون اختصار أو تطويل» (غاية المرام ص ٥)؛ «هذه فوائد غزيرة، وعجالة وجيزة» (قلائد الخرائد ص ٣٧). ومع الايجاز أحياناً تُرفق سهولة اللفظ والعبارة (طوالع الأنوار ص ٦)؛ «قريبة المأخذ للأفهام، جعلتها على طريق السؤال والجواب، وتساهلت في عباراتها تسهيلاً للطلاب» (الجواهر الكلامية ص ٢). نفس المعنى في اللمع ص ١٧، الانصاف ص ١٣؛ الاعتقاد ص ٤، الارشاد ص ١، البداية ص ٢٩.

الخاصة، وهو ما سمّاه علماء البلاغة «السهل الممتنع». هذه السهولة هي أحد دوافع الشروح والملخصات التي تحاول شرح العويص المعقّد مع أنها أحياناً أخرى تشرح البسيط السهل زيادة في السهولة والإيضاح! وتوخي البساطة في الفهم التي يبغيها البعض إنما تحدث بعرض المادة الكلامية عرضاً عقلياً خالصاً، فالبداهة هو مقياس الفكرة. وعلم أصول الدين يقوم على اليقين العقلي، وكل ما هو داخل في الظنيات ليس من صميم العلم. ومن مقتضيات البساطة التخلّي عن المصطلحات العويصة كما حاولت بعض الحركات الإصلاحية الحديثة[١٠٦].

أما روح العصر فهي التي نحتويها بين ضلوعنا، وهي تجاربنا المعاشة، وواقعنا المضني، وسلوكنا اليومي. هي أساساً هذه المادة الحيّة غير المدوّنة والتي قد نختلف في تفسيراتها ولكننا لا نختلف في وجودها. هي المنهل الذي منه يأخذ الأدباء والشعراء والفنانون والمفكرون الإجتماعيون مادتهم. قد تستلهم في الأعمال

---

(١٠٦) « وهو مع وجازة لفظه يحتوي على معاني كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، مسومة المبادىء والمطالع ، مقومة العوالي والمقاطع » الطوالع ص ٩ ؛ « وكلهم ، الا نحلة القسم ، عقد كلامه تعقيداً ، يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم ، وحلق على المعاني من بعد حتى صار ينسى آخر كلامه أوله ، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم ، فكان هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله . . . وبالغنا في بيان اللفظ وترك التعقيد . . . » الفصل جـ ١ ، ص ٣ ؛ « هذا ولما رأينا أدلة التوحيد عصاماً للتسديد ، ورباطاً لأسباب التأييد ، وألفينا الكتب المبسوطة المحتوية على القواعد الساطعة ، والبراهين الصادقة لا تنهض لدركها همم أهل هذا الزمان ، وصادفنا المعتقدات عريّة عن قواطع البرهان رأينا أن نسلك مسلكاً يشتمل على الأدلة القطعية والقضايا العقلية، متعلياً عن رتب المعتقدات ، منحطاً عن جلة المصنفات . . . » الارشاد ص ١ ؛ « فشرعت في تأليف هذا الكتاب منبهاً على مواضع مواقع زلل المحققين ، رافعاً بأطراف استار عوارت المبطلين ، كاشفاً لظلمات تهويلات الملحدين كالمعتزلة وغيرهم من طوائف الإلهيين على وجه لا يخرجه زيادة التطويل إلى الملل ولا فرط الاختصار إلى النقص والخلل ، تسهيلاً على طالبيه ، وتيسيراً على راغبيه . . . » . الغاية ص ٤ ـ ٥ ؛ « فحاولت أن أشرحه شرحاً يفصل مجملاته ، ويبين معضلاته ، وينشر مطوياته ، ويظهر مكنوناته . . . » شرح التفتازاني ص ٥ ـ ٦ ؛ « ولولا ذكره في أولها من الاصطلاحات الكلامية لكان نفعها أكبر واقبال القراء عليها أكثر . فإن أكثر أهل هذا العصر لا يفهمون تلك الاصطلاحات بل أصبحت عندهم من المنفرات . وقد قلت هذا للمؤلف فاعترف بصحته » . مقدمة الناشر (رشيد رضا) ص ن .

الأدبية، والمصنفات الفنية كما قد تدوّن بطريقة تلقائية في الأمثال العامية والحكم والأساطير والمأثورات الشعبية بوجه عام. لم نشأ الإعتماد على ذلك حتى لا نضع بجوار التراث شيئاً أقل منه علمية ودقّة وإحكاماً، ويختلف عنه مصدراً ورافداً، وحتى لا نقع في انتقائية الامثلة أو اختلاف تفسيراتها. تركنا ذلك لدراسات أخرى هامشية على «التراث والتجديد» لمخاطبة الجمهور العريض من خلالها، بحيث تكون أقرب إلى تحليل روح العصر، ووصف الواقع وتنظيره تنظيراً مباشراً دون الرجوع إلى التحليل العلمي الصارم القديم[١٠٧].

ولا يوجد عصر إلا وظهر فيه مؤلّف في علم أصول الدين. فالتأليف فيه ضروري في كل عصر. لكل عصر مشاكله ومطالبه، وعلم التوحيد إن لم يستجب لمطالب العصر فإنه يظل متخلّفاً عن واقعه. فيذهب الواقع إلى أفكار ومذاهب أخرى أكثر عصرية، وينشأ الفصل بين الفكر وواقعه، وتنشأ مشكلة «التراث والتجديد» أو القديم والجديد أو التقليد والخلق أو الإتّباع والإبداع أو الإستعراب والإستغراب إلى آخر ما يقال بلغة عصرنا. لم يتخلّ الوحي من قبل عن اللحاق بالواقع فكان به الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والعقيدة والشريعة. وظهر بأصول الفقه الاجتهاد كعامل للتطوير. وبقي أصول الدين متخلّفاً عن أصول الفقه. وبالتالي كانت مهمة «التراث والتجديد» تطبيق الإجتهاد ونقله من علم أصول الفقه إلى علم أصول الدين. مهمة التأليف في أصول الدين إذن تحريك الهمم، وحثّها على التفكير في العقيدة، فهو عمل فكري بالأصالة، يعمل في التجارب الشعورية حتى تحيا عقائد الناس فتوجّه سلوكهم توجيهاً نظرياً بدلاً عن التوجّه الأحادي الطرف بالدوافع والحاجات وحدها، وترشيد سلوكهم نحو تلبية هذه الحاجات على نحو جذري ودائم، وليس عن طريق الحقن المسكنة، والحلول الوقتية والترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى[١٠٨]. مهمة «التراث والتجديد»

---

(١٠٧) هذه مهمة « قضايا معاصرة » التي نشهد فيها على أحداث العصر. جـ ١ ، في فكرنا المعاصر ، جـ ٢ ، في الفكر الغربي المعاصر ، جـ ٣ ، في الثقافة الوطنية ، جـ ٤ ، في اليسار الديني .

(١٠٨) « وأنه في زماننا هذا قد اتخذ ظهريا، وصار طلبه عند الأكثرين شيئاً فريا ، لم يبق منه بين الناس =

الشـرح والتلخيص، الزيـادة والنقصـان ، زيـادة مادة لم يلتفت إليهـا القدمـاء مثل المعاني القرآنية للألفاظ الكلامية مثل تنـزيه، تشبيـه، تجسيم، آخرة، دنيـا، وعد، وعيد، نقل، عقل، إمامة، خلافة، إيمان، عمل، وكذلك كل موضوعات الطبيعـة من جبـال وأنهار وطيور وأنعـام وأشجار(١٠٩). وأهم من ذلـك كله الإنسان الـذي ذكر في القرآن خمسا وستين مرة ، ولم يدخل في بناء علم الكلام كموضـوع مستقل(١١٠). مهمة «التراث والتجديد» نقصان مادة عن طريق اختصار كل مادة لا تعبّر عن مطالبنا المعاصرة مثل مباحث الجوهـر والعرض، وزيـادة مادة أخـرى أكثر تعبيراً عن مطالب العصر مثل العقل، والعمل، والـطبيعة، والسيـاسة، والثورة ، والتنميـة، والتقدم، والتـاريخ(١١١). صحيـح أن من عيوب «التـراث والتجديـد» التـطويل والإكثـار من التحليلات. فـلا توجـد فكرة قـديمة إلاّ وقـد تمّ تحليلها ثم عـرضهـا عـلى العصـر، ولا تـوجـد مشكلة عصـريـة إلاّ وكـانت محكّاً للتمحيص والاختيـار بين البـدائل. يـدخل «التـراث والتجديـد» إذن ضمن المؤلّفات المطوّلة ويكون بذلك خليفة «المُغْني في أبواب التوحيد والعدل» أو «المحيط بالتكليف» ما دام

= إلا قليل ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل . فوجب علينا أن نرغب طلبة زماننا في التدقيق ونسلك بهم في ذلك العلم مسالك التحقيق » المواقف ص ٤ .

(وبعـد)، فـالعلم بـأصـل الـدين عـمـتـهـم يـحـتـاج . للتـبـيـين
لـكن مـن التـطويـل ملت الـهـمـم فـصـار فـيـه الاخـتـصـار مـلتـزم

« وفي هـذا الزمـان ، لما انصـرفت الهمم عن تحصيل الحق بـالتحقيق ، وزلت الاقدام عن سـواء الطريق ، بحيث لا يوجد راغب في العلوم ولا خاطب للفضيلة ، وصارت الطبـاع وكأنها مجبـولة على الجهل والـرذيلة . اللهم إلا بقية يـرمون فيـها يرمـون رمية رام في ليلة ظلماء ، ويخبـطون فيها ينحون نحوه خبط عشواء » التلخيص ص ٣ .

(١٠٩) أنظر بحثنا :

Human Subservience of Nature. An Islamic Model, in Natural Resources in a Cultural Perspective, The Committee for Future Oriented Research. Sweedich Council For Planning and Coordination of Research, Stockholm. 1982.

(١١٠) أنـظر دراستنـا « لمـاذا غـاب مبحث الانسـان في تـراثنـا القـديم » دراسـات اسـلاميـة

(١١١) أنظر مقالتينا « نحن والتنوير » ، « من التقاليـد إلى التحرر » في قضـايا معـاصرة (٣) في الثقـافة الوطنية .

أنه تطوير للتيار العقلي الطبيعي الإعتزالي مع إدخال عنصر الثورة والتحرر عليه، وهي مكتسبات في حياتنا المعاصرة. ونرجو من خلفائنا اختصاره وتركيزه[١١٢].

وإذا كنّا قد درسنا في مقتبل العمر «علم أصول الفقه» فإننا بعد حوالي عشرين عاماً من صدور «مناهج التأويل»، محاولة في علم أصول الفقه ، نصدر محاولتنا الثانية «من العقيدة إلى الثورة»، محاولة في بناء علم أصول الدين.

(١١٢) هذه الخاتمة هي بمثابة قائمة تفصيلية بالمراجع مع شرحها ووصفها . وقد تعلمنا ذلك من استاذنا المرحوم الدكتور علي سامي النشار الذين ندين له بتعلم ذلك منه كما فعل في « مناهج البحث عند مفكري الاسلام ونقد المسلمين للمنطق الارسططاليسي » . وقد قمنا بذلك من قبل في رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse.

الفصل الثالث

أولاً : نشأة نظرية العلم وتطورها :

١ ـ مصطلح « نظرية العلم » : يشير مصطلح « نظرية العلم » إلى المقدمات النظرية التي غالباً ما تكون في مصنفات علم أصول الدين التي تعرض لموضوعات العلم دون الفرق[1] . ولكنها قد تظهر أيضاً في تلك المصنفات التي تجمع بين موضوعات العلم وتاريخ الفرق . هي ليست إذن مقصورة على المؤلفات النظرية وحدها بل قد تكون مقدمة نظرية لتاريخ الفرق التي تُعرض الموضوعات من خلالها[2] . ويمكن القول إنه في المؤلفات المبكرة عندما كان العلم أقرب إلى تاريخ الفرق منه إلى البناء المستقل لنسق العقائد تظهر نظرية العلم كمقدمة لتاريخ الفرق ، وكأن تاريخ العلم لا يمكن تناوله إلا بعد مقدمة نظرية عن العلم نفسه ، وفي المؤلفات المتأخرة عندما يختفي تاريخ الفرق تماماً ، ويظهر بناء العلم مستقلاً عن التاريخ ، تظهر نظرية العلم أيضاً باعتبارها مقدمة للعلم ذاته من حيث هو بناء[3] . نظرية العلم إذن هي المقدمة الضرورية لعلم أصول الدين سواء من حيث هو تاريخ أو من حيث هو بناء . ويبدو أنه نظراً لأهمية هذه النظرية فإن بعض المؤلفات التي تجمع بين التاريخ والبناء تبدأ بنظرية العلم ، وتنتهي بنظرية

(١) وذلك مثل ، الانصاف ، كتاب التوحيد ، أصول الدين ، الارشاد ، الشامل ، الاقتصاد ، البداية، المحصل، المعالم، غاية المرام، العقائد النسفية، طوالع الأنوار، المواقف، المقاصد. . . الخ .

(٢) وذلك مثل « التمهيد » للباقلاني .

(٣) ويتضح ذلك في « الفصل » لابن حزم .

العلم ، ويكون العلم ذاته تطبيقاً لهذه النظرية الخالصة في تأسيس العلم[٤] .

ومصطلح « نظرية العلم » يعبر عن هذه المقدمات النظرية التي لم تستقر على مصطلح لها إلا في المصنفات المتأخرة[٥] . ففي المؤلفات المتقدمة نجد حديثاً عن العلم أو التكليف . كما نجد كلاماً في العلم والنظر والمعارف وتكافؤ الأدلة . ونجد أيضاً تحليلاً لمناهج الأدلة وبياناً للحقائق والعلوم . ولكن تحولت هذه الموضوعات في المؤلفات المتأخرة إلى أبواب مستقرة تحت اسم « أحكام النظر » أو « المبادىء » أو « المقدمات » ، وأصبحت المدخل النظري للعلم إجابة على سؤال : « كيف أعرف ؟ » أو « كيف أعلم ؟ » . وهي الأبواب التي سميناها « نظرية العلم » . العلم مصطلح من القدماء ، ونظرية مصطلح من المحدثين والقدماء على السواء . فقد تحدث القدماء عن العلوم النظرية ، كما تحدث المحدثون عن «نَظَرية في كذا » . ولما كنا نحاول أن نصوغ هذه المقدمات باعتبارها مدخلاً نظرياً لعلم أصول الدين فقد سميناها « نظرية العلم » .

٢ ــ غياب نظرية العلم : في المؤلفات المتقدمة قد لا تظهر نظرية العلم وكأن علم أصول الدين قد بدأ أولاً دون مقدمات نظرية بل كان مجرد عرض لقواعد الايمان ومبادىء العقيدة . لم تكن الحاجة قد نشأت بعد إلى ضرورة عرض العلم عرضاً نظرياً دون افتراض إيمان مسبق بالعقائد أو حتى بالوحي[٦] . فقد قام الايمان مقام العلم أولاً . فإذا ما ظهرت نظرية العلم فإن ظهورها يكون تطوراً طبيعياً للإيمان وتحويلاً له إلى مستوى النظر . الايمان في الحقيقة هو نظرية العلم ، ونظرية العلم هي التطور الطبيعي للإيمان . فلما ظهر « المعارض » العقلي في الحضارات الأخرى ، موجهاً ضد العقيدة الجديدة ، الفاتحة أرضاً ، والمنتصرة

---

(٤) هذا هو موقف ابن حزم أيضاً في « الفصل » عندما ينهي الجزء الخامس أيضاً بالكلام في المعارف ، والكلام على من قال بتكافؤ الأدلة . الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٤ - ٢٠٦ .

(٥) نعني بالمؤلفات المتقدمة تلك التي ظهرت حتى القرن الخامس ، وبالمؤلفات المتأخرة تلك التي ظهرت ابتداء من القرن السادس حتى القرن الثامن .

(٦) هذا هو الموقف في : الابانة، اللمع، النهاية، لمع الأدلة، النظامية، المسائل الخمسون، الانتصار، مسائل أبي الليث .

جنداً ، والمقوضة عروشاً ، والهازمة جيوشاً اضطر علم أصول الدين إلى اللجوء إلى المستوى النظري في التحليل للرد على المعارض ودرء الأخطار النظرية ورد الهجوم بالمثل . فتحول الإيمان التقليدي إلى نظرية في العلم . ودخلت مسائل النظر والعلم والمعرفة والدلالة كأساس مشترك بين العلم الجديد الناشىء وبين علوم الحضارات الغازية . إذ لا تقل أهمية المنهج عن أهمية الموضوع . كان الحوار بين الحضارات هو التطور الطبيعي للذات الحضارية الجديدة البازغة . لم ينغلق علم الأصول على ذاته ، واستبقى الإيمان بل انفتح على الحضارات الغازية ، وتعامل معها بأسلوبها وبلغتها ، واستعمل مناهجها وطرق استدلالها . وعلى هذا النحو تأسست نظرية العلم تأسيساً حضارياً[7] .

وعندما تغيب نظرية العلم ، يبدأ العلم بنظرية الوجود مباشرة أي بتحليل العالم ، وهو ما عُرف فيما بعد باسم دليل الحدوث ، وكأن موضوع المعرفة سابق على الذات العارفة ، ويمكن معرفته مباشرة دون ما حاجة مسبقة إلى معرفة وسائل المعرفة أو مناهجها . تلجأ الذات مباشرة إلى العالم ، موضوع المعرفة دون أن تتساءل كيف تعرف أو كيف تعلم ، وقبل أن تجيب على سؤال ماذا تعرف أو ماذا تعلم ؟ والحقيقة أن افتراض العالم مسبقاً دون رؤية منهجية له مخاطر غير محسوبة العواقب قد تكون من أسباب خلطنا المعاصر ، وتخبيطنا في الواقع دون رؤية أو بصيرة وكأننا نعيش في عالم الأشياء المصمتة بلا ترشيد أو تعقيل أو تنظير ، في عالم لا يحكمه الفكر . فالواقع لا يتحدث عن نفسه ، والوجود ليس علماً . ولا يُقال إن

---

(7) « وإنما احتاج إلى البيان لأن كلام الأوائل كان مقصوراً على الذات والصفات والنبوات والسمعيات . فلما حدثت المبتدعة ، وكثر جدالهم مع علماء الاسلام ، وأوردوا شبهاً على ما قرره الأوائل ، والزموهم الفساد في كثير من المسائل ، وخلطوا تلك الشبه بكثير من القواعد الفلسفية ، تصدى المتأخرون لدفع تلك الشبه فاحتاجوا إلى إدراجها في كلامهم ليسهل عليهم تميز صحيحها من فاسدها فصعب لهذا تناوله «الاتحاف» ص ٢٥ - ٢٧ ؛ « ولما كان اثبات العقائد ، وهي مقاصد التوحيد ، متوقفاً على ثبوت العلوم الضرورية التي إليها المنتهى ، وهذا يتقدمه حتماً معرفة معنى العلم وانقسامه إلى ضروري ونظري ، وبيان معنى النظر وافادته للعلم . إن بهذه المباحث يتوصل إلى اثبات العقائد ، واثبات المباحث التي يتوقف عليها اثبات العقائد كان لا بد للتعرض لهذه المباحث» التحقيق ص ٣ .

لذلك الغياب ، غياب نظرية العلم ، والبدء بالوجود مباشرة دلالة أعمق في جعل الوجود هو المعرفة . والبداية بالوجود هي في حد ذاتها نظرية في المعرفة ، وكأن الوجود في العالم هو وجود تنشأ منه المعرفة والمعرفة تالية على الوجود وليست سابقة عليه(٨) . لا يُقال ذلك لأن مجتمعاتنا الحالية تحتاج أولاً إلى تأسيس النظر ، وإعمال العقل ، واكتشاف الواقع من حيث هو فكر . فمأساتنا هو حضور الأسطورة مكان العلم ، والخرافة بدل العقل ، والوهم كبديل للنظر . ونحن لم نتعب من عمل العقل بعد ولم نملّ منه ولم نرنخاسره ولا مثالبه فكيف نرفض ما لا نملك ؟ وكيف نهدم ما نريد بناءه؟(٩) إن العيش في الواقع مباشرة يتم عن طريق العمل والجهد ، وهو ما نحن فيه بجهادنا من أجل لقمة العيش ، ومحاولتنا للتغلب على الضنك ، وصراعنا من أجل البقاء . ويكون ذلك أيضاً في حالة الاسترخاء التام أو السعادة القصوى أو اللذة اللحظية بعد عناء الجهد ومشاق العمل ، وتأدية الرسالة(١٠) . إنما المهم هو التنظير والفهم ، وإدراك مسار الأمور حتى يكون صراعنا مجدياً ، قائماً على أساس وليس أهوجَ فردياً إنفعالياً ، مجرد تعبير عن صرخة الحياة والرغبة في البقاء . ولا يُقال إن الاختصار هو المسؤول عن غياب نظرية العلم ، فالاختصار لا يصل إلى حد القضاء على الأساس المعرفي للوجود وعلى تحليل العقل للواقع وعلى تأسيس العلم .

٣ ــ ظهور نظرية العلم كنظرية في المعرفة : تظهر نظرية العلم في المؤلفات المتقدمة مرتبطة بالإلّهيات عندما ينقسم العلم إلى علم الخالق وعلم الخلق ، العلم

---

(٨) حدث في الوعي الأوروبي بعد أن يئس من احتمال وجود نسق معرفي سابق على الوجود بعد اكتشاف زيف الانساق الموروثة أن فضل الانحياز التام إلى الوجود مباشرة وجعل المعرفة تالية عليه كما هو الحال في التيار التجريبي . ولم يجد التيار المثالي أمامه إلاتبرير المعطيات القديمة من جديد ، وايثار الصورية او النزعة الفردية الباطنية الاخلاقية . وهذا هو موضوع القسم الثاني من « التراث والتجديد » « موقفنا من التراث الغربي » .

(٩) أنظر مقالنا « أزمة العقل أم انتصار العقل » قضايا معاصرة (٢) في الفكر الغربي المعاصر .

(١٠) هذا هو ما سماه الفقهاء « المباح » أو « الحلال » عندما تكون الشرعية في الوجود . أنظر رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse.

القديم والعلم الحادث ، العلم الإلهي والعلم الإنساني . تظهر نظريـة العلم منبثقة عن الإلهيات كمولود جديد حتى تأخذ شكلها الكامل المستقل كنظرية في المبادىء أو الأحكام في المؤلفات المتأخرة . وبالتالي يكون كل عود إلى العلم الإلهي رجوعاً عن هذا الإنبثاق الجديد وإرجاعاً للعلم إلى مرحلة ما قبل النشأة والظهور . في حين أنه يمكن تأسيس العلم الإلهي نفسه باعتباره علماً إنسانياً وذلـك لأن الوحي قـد نزل في زمان معين ومكان محدد ، ولدى شعب بعينه ، فهمتـه العقول ، وتمثلتـه الأذهان ، وطبّقته الإرادات ، وحققته الأفعال . وبالتالي فهـو علم إنساني كـما حدث في علم أصول الدين وعلم أصول الفقه خاصة[١١] . والعلـم الإنساني بتحليلاتـه الصوريـة قادر على الحفاظ على صفات العمومية والشمول والموضوعيـة التي يتصف بها العلم الإلهي ألا وهو الوحي ، كما أنه قـادر على صيـاغة علم صـوري خالص يقـوم على المبادىء الأولى في لا زمان . وقد أصبحت الإلهيات نفسها جزءاً من نظرية العلم ، ودخلت ضمن المعرفة الإستدلالية[١٢] .

ثم يـظهـر انقســام العلم الإنسـاني إلى ضــروري واستـدلالي . وفي العلم الضـروري تثبت المعرفـة الحسية والبـداهـة العقليـة . وفي العلم الإستـدلالي يثبت النظر . ثم يبدو النـظر كأول واجبـات المكلّف خاصـة عند المعتـزلة الـذين يجعلون النظر أول الواجبـات[١٣] . وأصبح الإيمـان جزءاً من النـظر وليس مصدراً مستقـلاً للمعـرفة . ويـدخل النـظر ، لأهميته وبـاعتباره أول الـواجبات ضمن نسق كـامـل لنـظرية الـواجب ، ويصبح إحـدى الواجبات أو أولها[١٤]. بـل يتحـول الـواجب

(١١) أنـظر بحثنـا « لـماذا غـاب مبحث الانسـان في تـراثنـا الـقـديم » ، دراسـات اسـلاميـة وأيضـاً : Theologie ou Anthropologie, La Renaissance du Monde Arabe
وقد كانت هذه أولى محاولتنا أيضاً لتأسيس علم أصول الفقه على أساس إنساني خالص كنظريـة في الشعور في رسالتنا « مناهج التأويل » .

(١٢) Hermeneutics as Axiomatics, An Islamic Model, Religious Dialogue and Revolution

(١٣) لا تعني المعتزلة والأشاعرة هنـا أسماء الفـرق الكلاميـة بل نشـير بها إلى تيـارات فكريـة خالصـة . فالمعتزلة تشير كما هو معروف إلى التيار العقلي والأشاعرة إلى التيار الايماني .

(١٤) أول الـواجبات النـظر المؤدي إلى معرفـة الله ، شـرح الأصـول ص ٣٧ ـ ١٤٩ ؛ بـاب في جـمـل التكليف في بيـان مـا يجب أن يتفق من التكليف ، ومـا يجـوز أن يختلف فيـها يلزم المكلف أولاً . =

العقلي إلى واجب شرعي فتظهر بذلك نظرية الوجوب أو التكليف على ثلاث جماعات : العامة ، والعلماء ، والسلطان ، وكأن واجب المواطن ، وواجب العالم ، وواجب الحاكم نفس الواجب ، خاصة واجب العالم الذي عليه إرشاد المواطن والرقابة على السلطان . ليس واجب العالم التمويه على المواطن وتبرير أفعال السلطان كما يحدث حالياً في عالمنا هذا في أغلب الأحيان[١٥] .

ثم تكتمل نظرية العلم شيئاً فشيئاً . فتظهر مضادات العلم : الشك ، والوهم ، والجهل ، والتقليد ، والإلهام ، فالعلم لا يتأسس إلا بعد رفض المعارض ، وتطهير الشعور الإنساني من معوقات العلم ، ويبدأ تفنيد نظريات الشك وإثبات الحقائق وامكان معرفتها . هناك شيء موجود يمكن معرفته سواء كان مادياً أو صورياً[١٦] . ثم يظهر النظر باعتباره شرط العلم وتكون الصلة بينهما صلة الشارط بالمشروط ، والعلة بالمعلول . وينقسم إلى صحيح وفاسد . الصحيح هو القائم على الدليل ، والفاسد هو الذي لا يقوم على دليل أو الذي يقوم على دليل خاطىء. النظر هو الاستعمال الصحيح أي أنه هو النظر السليم ، يحتوي على معيار صدقه من داخله . كما يظهر التمييز بين النظر الجلي والنظر الخفي ، وبالتالي تبدو نظرية العلم على أنها أساساً نظرية في الوضوح . ثم يظهر النظر مرتبطاً بالدواعي والخواطر مما يدل على ارتباط العلم أساساً بالشعور وبسكون النفس . وبالتالي أصبح حد العلم هو العلم الشعوري أو حالة العالم ، مرتبطة بحياته ، ومنتهية بمنيته . كما ترتبط المقاصد والدواعي بالمنفعة والضرر الناشئين عن فعل النظر أو تركه[١٧] . وأخيراً تبدو محاولات أولى لتحديد العلم باعتباره نظرية شاملة ، يشمل النظر والعلم ، ومقدمات النظر وطرقه ونتائجه وكأن العلم يتأسس

= المحيط ص ١١ ـ ١٧ ؛ ص ٢٣ ـ ٣٣؛ الشامل ص ١٢٠ ـ ١٢٢؛ الانصاف ص ١٣ ـ ١٥ .

(١٥) في تقسيم فرائض الدين إلى ثلاثة أقسام ، الانصاف ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٦) الارشاد ص ٣ ـ ١٢؛ المحصل ص ٢٥ .

(١٧) « القول فيمن اخترمته المنية اثناء النظر » ، الشامل ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ « في أن العلوم معان قائمة بالعلماء غير العلماء » ، أصول الدين ص ٧ ـ ٨ ؛ وهذا هو معنى الحديث : إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً ولكنه ينتزع العلم بانتزاع العلماء .

في العقـل ، ويقوم عـلى الواقـع ، ويسكن في الشعور ، وتسكن النفس إليـه . ثم تظهر مادة العلم الضروري مثـل المسلمات العقليـة ، وبداهـات العقول . فتـظهر نظرية العلم بـاعتبارهـا نظريـة في العقل . العقـل هو وسيلة العلم وآلتـه ، والعلم نتيجته وثمرته . كما تظهر أيضاً الحدسيات والحسيات كجزء من المعرفة الضرورية . ويظهر التواتر أيضـاً كنموذج للمعـرفة الضـرورية يعتمـد على الـرواية ، ومشـروط بالبداهة الحسية والعقليـة . وأخيراً تـظهر الأدلـة متأرجحـة بين علم أصـول الدين وعلم أصـول الفقه وعلوم اللغـة . فالأدلـة ثلاثـة : العقل ، والسمـع ، واللغة . يظهر الجانب اللغوي كما يظهر جانب الـوحي ، وجانب العقـل في نظريـة العلم . وعندما تتسع الأدلة فـإنها تشمل الأدلـة الشرعيـة الأربعة في علم أصـول الفقه مـع التركيز على الإجماع والقيـاس أكثر من التـركيز عـلى الكتاب والسنـة أي أن نظريـة العلم تنشأ في الجماعة وتقوم على الاجتهاد[١٨] .

٤ ــ تداخل نظريتي العلم والوجود : تظهر نظرية العلم في المؤلفات المبكرة على أنها هي المقدمـات النظريـة الوحيـدة دون نظريـة الوجـود التي يُستعاض عنهـا بدليل الحدوث كمقدمة للإلَهيات . أما في المؤلفات المتأخـرة فتظهـر نظريـة الوجـود مساوية لنظرية العلم ثم تتجاوزها وتسودها كي تبتلعها في النهاية[١٩] .

وأثناء نظرية العلم قد تظهر بعض مسـائل نـظرية الـوجود حتى أنـه ليصعب التمييـز بينها في المؤلفـات المبكـرة حيث يتـداخـل العلم في المعلوم، والـوجـود في الأدلـة[٢٠] . ففي بدايـات تكوين نـظريـة العلم تمتـد النـظريـة وتضم الـوجـود ، ويصعب الفصل بينها . ويـظل التأرجـح من الأولى إلى الثانيـة مما يـوحي بصعوبـة التمييز بين الذات العارفة وموضوع المعرفة . ولا يعني ذلك ضرورة الفصل بينهما ،

(١٨) يـذكر البـاقلاني الأدلـة الخمسة : الكتـاب ، والسنة ، والاجـاع ، والقياس ، وحجـج العقـول . الانصاف ص ١٩ ـ ٢٠ ؛ أصول الدين ص ٢٠ ـ ٢٤ .

(١٩) ويتضـح ذلك من تقسيم المعلوم إلى ضـربين : مـوجود ومعـدوم ، وتقسيم الموجـودات إلى قسمين قديم ومحدث ، وتقسيم المحدث إلى ثلاثـة أقسام ، جسم وجـوهر وعـرض . الانصاف ص ١٥ ـ ١٩ .

(٢٠) يذكر الباقلاني الأدلة الخمسة وسط نظرية الوجود . الانصاف ص ١٩ ـ ٢٠ .

فالموضوع ينكشف من خلال الذات ، والذات تضم الموضوع وتحتويه كاشفة عنه ومتحدة به . هناك إذن حقيقة واحدة ، « شيء » واحد ، ذات من حيث هي معرفة ، وموضوع من حيث هو معروف . ومع ذلك تتحدد نظرية العلم أولاً قبل أن ينكشف موضوع العلم ثانياً ، خاصة في حضارةٍ ناشئة تكوّن أولاً تصورها النظري للعالم كما كان الحال عند القدماء أو لدى شعب ناهض كما هو الحال في عصرنا ، يحاول أن يؤسس نظرية للعلم يدرك بها واقعه . أما الخلط بين الذات والموضوع ، والتوحيد بين المعرفة والوجود كما يحدث أحياناً في الحضارات في نهاية عمرها أو في لحظات الهزائم ، والرغبة في النصر عن طريق الخيال فهو إما عود إلى العالم الحسي ، والعيش من جديد على مستوى الطبيعة[٢١] أو انغلاق الروح على ذاتها فتصبح فارغة من أي مضمون كما هو الحال في التصوف .

وقد تظهر نظرية العلم داخل نظرية الوجود عرضاً دون أن تكون مقدمة لها وكأن بعض المسائل في نظرية الوجود فيما يتعلق بالاستدلال مثلاً لا تحل إلا بنظرية العلم . ينكشف العلم هنا من خلال الوجود ، ويكون أحد أنماطه . وقد حدث ذلك في بعض المؤلفات المتأخرة حين قاربت نظرية العلم على الانتهاء وسادت نظرية الوجود[٢٢] .

وفي بعض الموضوعات ، يصعب التمييز بين المعرفة والوجود مثل تصنيف العلوم بين العام والخاص ، كل علم يعبر عن احدى مراتب الوجود حتى لا يتم الخلط بين العلوم أو بين مستويات الوجود . يعبر العلم الشامل عن الوجود الكلي بينما يعبر العلم الخاص عن الموجود المتعين[٢٣] .

---

(٢١) هذا هو ما حدث في الوعي الأوروبي في بداية العصور الحديثة في التجريبية المادية . وذلك موضوع القسم الثاني من « التراث والتجديد » ، موقفنا من التراث الغربي .

(٢٢) هذا هو موقف الآمدي في « غاية المرام » إذ يقول « ومبدأ النظر ومجال الفكر ينشأ من الحوادث الموجودة بعد العدم » ص ٩ أنظر أيضاً اعتبار المعرفة فرعاً للوجود ص ١٥ - ١٦ وهو أيضاً موقف الايجي في « العقائد العضدية» جـ ١ ص ١٧١ - ٢٢٦ .

(٢٣) المحيط ، باب في ذكر أقسام ما كلفنا به من العلوم ص ١٩ - ٢١ ؛ باب في ذكر ترتيب هذه العلوم ص ٢١ - ٢٣ .

٥ ـ نظرية العلم كنظرية في المنطق : وفي المؤلفات المتأخرة ، تطورت نظرية العلم وأصبحت نظرية في المنطق ، وبالتالي تكون نظرية العلم في آخر صورها هي نظرية في المنطق أو تكون نظرية المنطق في بدايتها نظرية في العلم . فالمنطق وريث العلم ، وهو ما ظهر بوضوح في علوم الحكمة التي أصبح المنطق فيها بديلاً عن نظرية العلم وسابقاً على الطبيعيات والإلهيات ، بل وآلة للعلوم كلها . وتشمل نظرية المنطق عند القدماء نظرية في الاستدلال ونظرية في الإدراك ، الأولى تعنى بصورة الفكر ، والثانية تتناول مادة الفكر[٢٤] . وابتداء من القرن السادس عندما تسربت مسائل علوم الحكمة إلى علم أصول الدين تحددت نظرية المنطق أساساً كنظرية في التصورات والتصديقات ، وكأن علم أصول الدين أصبح ممثلاً لعلم حضاري شامل يضم علوم الحكمة كما سيضم فيما بعد في مرحلة توقف الحضارة علوم التصوف[٢٥] . بدأت نظرية المنطق في التخلي عن الحجج النقلية ، واعتبرت هذه الحجج غير مفيدة لليقين ، وأنها لا تفيد إلا الظن لاعتمادها على اللغة نقلاً وتفسيراً . أصبحت الحجج الوحيدة هي الحجج العقلية كما أصبحت نظرية العلم نظرية في العقل الخالص[٢٦] . وفي دوائر المعارف المتأخرة ، ظهرت نظرية العلم أيضاً متداخلة مع نظرية المنطق . فبعد تحديد العلم وتعريفه باعتباره نظرية في المنطق قلّ الفصل بين العلم والوجود ، وأصبح المنطق هو علم الوجود ، وأصبح لدينا علم صوري واحد يتحدد في المنطق باعتباره نظرية في

---

(٢٤) التمهيد الرابع ، في بيان مناهج الأدلة التي استنتجناها في هذا الكتاب، الاقتصاد ص ١٠ ـ ١٥ ؛ ويحيل الغزالي القارىء، إلى « محك النظر » و « معيار العلم » ، الاقتصاد ص ١٠ .

(٢٥) يتحدث الرازي في « المحصل » عن العلوم الأولية ، التصورات والتصديقات (ص ٢ ـ ٢٣) ثم عن أحكام النظر (ص ٢٣ ـ ٣١) . كما يتحدث في « معالم أصول الدين » في الباب الأول عن المباحث المتعلقة بالعلم والنظر ، وعن قسم العلمَ إلى تصور وتصديق (ص ٣ ـ ٩) . ويتحدث التفتازاني في « المقاصد » عن المبادىء والمقدمات ، وقسمة العلم إلى تصور وتصديق (ص ١١ ـ ٥٣) ؛ ونفس الشيء في « الطوالع » (ص ٧ ـ ٢٨) ، وفي « الدر النضيد »

(٢٦) «في الدليل واقسامه ، في أن الدليل اللفظي لا يفيد اليقين ، وأن النقليات بأسرها مستندة إلى صدق الرسول » المحصل ص ٣١ ـ ٣٢؛ « في أن الدلائل النقلية لا تفيد اليقين لأنها مبنية على نقل اللغات » المعالم ص ٨ ـ ٩ .

العلم ، وفي الوجود باعتباره نظرية في المنطق . وظهر ذلك أساساً في أحكام العقل الثلاثة : الواجب والممكن والمستحيل[٢٧] .

وقد شملت نظرية العلم في المؤلفات المتأخرة تحليلاً للعقل وللوجود . والعقل هنا يشمل الحس والوجدان ، والوجود يضم المنطق والوجود العام . لقد حاول كثير من علماء أصول الدين من قبل التعرض إلى مشاكل العلم وتأسيس نظرية عقلية يقوم عليها العلم . فخرجت مرة عقلية ، ومرة أخرى وجودية ، وثالثة نفسية ، ورابعة جسمية ، وخامسة علمية . ولكنها تمت جميعاً باسم العقل وكأنها كانت جميعاً تحليلات للعقل ولصور العقل . ظهر العقل إذن في أكثر من صورة . فهو في نفس الوقت نظرية في العلم ، ونظرية في الوجود ، وهو الغالب[٢٨] .

وأحياناً يتجاوز تحليل العقل كونه مقدمة عامة للعلم كله إلى أن يصبح مقدمة لكل موضوع كلامي . فالحديث مثلاً عن مراتب العلوم ، والعلة والمعلول ، والشرط والمشروط ، والحقيقة والحال ، وصفات النفس وصفات المعنى يمكن أن يدخل ضمن المقدمة العامة للعلم كما يمكن أن يدخل كأساس نظرية لمسألة الصفات[٢٩] . وأحياناً يتسع تحليل العقل حتى يطغى على الموضوعات الكلامية ذاتها ، ويصبح علم أصول الدين مجرد نظرية في العلم ونظرية في الوجود . ويتحول علم « اللاهوت » إلى « أنطولوجيا » عقلية خالصة ، وكأن هذا التحول هو مصير كل علم إنساني . فإذا تتبعنا المؤلفات الكلامية لمعرفة نسبة المقدمات النظرية إلى الموضوعات الكلامية نجد أن المؤلفات المبكرة تبدأ كتاريخ للعقائد أو كعرض لها دون مقدمات نظرية تُذكر . ثم تبدأ المقدمات النظرية في الظهور تدريجياً حتى تكون في نسبة مساوية للموضوعات الكلامية في المؤلفات المتوسطة . ثم تبدأ المقدمات النظرية في التمدد والانتشار على حساب الموضوعات الكلامية التي تبدأ في الاختفاء تدريجياً حتى تصبح هذه المقدمات النظرية التي تشمل على تحليل العقل هي

---

(٢٧) أنظر الفصل الرابع : نظرية الوجود .

(٢٨) وهذا هو الحال في العقائد النسفية ، والعقائد العضدية ، والمقاصد ، والطوالع .

(٢٩) وهذا هو الموقف في « الشامل » للجويني .

العلم كله ، وكأن « اللاهوت » لا يظهر إلا في مرحلة مبكـرة في بناء العلم ، ولكن بعـد أن يتـطور العلم ويكتمـل يتـلاشى الـلاهـوت ، ويـظهـر التحليـل العقـلي الانـطولوجي الخـالص[٣٠] . وفي آخر مـا وصل إلينـا من مؤلفات كـلامية بـدأت الإلهيـات في الاختفـاء تمـاماً وأصبحت تسمى « العقليـات » أو الـواجب ، وهـو الوجوب العقلي ، ولم يتبق من علم أصول الدين القديم إلا السمعيات[٣١] . ولولا توقف العلم في القرون الأخيرة لتطور ولابتلعت المقدمات الـنظرية ــ نـظريتا العلم والوجود ــ الموضوعات الكلامية كلها ، وتحـول علم أصول الـدين إلى علم إنساني خالص .

والسؤ ال الآن : لمـاذا سـادت علوم الحكمـة أولاً ثم علوم التصـوف وعلوم الفقه ثانياً علم أصول الدين المتأخر؟ هل تم ذلك لتوحيد العلوم الإسلامية في علم حضاري واحد يجمع بين التنـزيل والتـأويل بـين النظر والـذوق أم أنه هـزيمة لعلم الكلام الأشعري الـذي ساد منـذ القرن الخـامس حتى الآن بما في ذلـك الحركـات الاصلاحية الحـديثة ، والـذي كان بـطبيعته قـابلاً للتـأقلم مع بـاقي العلوم النقلية العقلية ؟ فالفلسفة اشراقية ، والتصوف أشعري ، والفقه يقوم على الطاعة المـطلقة للإرادة الإلهية ، والنظام الاجتماعي السياسي نظام تسلطي يهمـه الإبقاء عـلى هذا التراث طالمـا أنه يحث عـلى طاعـة أولي الأمر[٣٢] . ومـع ذلك يـظل لعلم الكـلام المتأخر الفضل في تأسيس نـظرية العلم عـلى أسـاس أن مبادىء العلم بينـة بذاتهـا دون التوحيد التام بين النظرية العقلية والموضوعات الكلامية . واعتماد علم الكلام

(٣٠) يدور « المحصل » للرازي عـلى أركان أربعـة : الأول عن أحكام النـظر أي نظريـة العلم ، والثاني عن أحكـام الموجـودات أي نظريـة الوجـود ، والثالث عن الإلهيـات ، والرابـع عن السمعيـات . تشمل المقدمات النظرية على هذا النحو نصف علم الكلام . كما خصص التفتازاني في « المقاصد » لنظرية العلم المقصـد الأول كله بعنـوان« المبـادىء»بفصـولـه الثـلاث ؛ المقـدمـات ، والعلم ، والنظر . كما تشمل المقدمـات النظريـة في « العقائـد النسفية » ثـلث الكتـاب ، وفي « الطوالـع » نصف الكتاب ، وفي « المقاصد » ثلثي الكتاب !

(٣١) هذا هو أيضاً موقف التفتازاني في « المقاصد » .

(٣٢) أنظر بحثنا «حكمة الاشراق والفينومينولوجيا» في دراسات اسلامية وأيضاً «التراث والتجديد» ، التراث والتجديد وقضية توحيد العلوم ص ١٩٩ ـ ٢٠٣ .

على النظرية العقلية كاعتماد أصول الفقه على اللغة العربية اعتماداً لا ينفي استقلال موضوع علم الكلام أو موضوع الأصول . ومن ثم تكون مبادىء الشرعي في غير الشرعي دون أن يؤدي ذلك إلى وقوع في الدور لأن مبادىء غير الشرعي بينة بذاتها . النظرية العقلية هي في نفس الوقت نظرية في البداهة ، وبالتالي يمكن تأسيس العلم لأن هناك نقطة يقينية أولية هي البداهة العقلية خاصة إذا كان الشرعي نفسه يقوم عليها[٣٣] .

٦ ـ **اختفاء نظرية العلم** : وتبدأ نظرية العلم في الاختفاء حتى في المؤلفات المتأخرة التي يكتمل فيها العلم . ففي زحمة الموضوعات الكلامية وفي مقدمتها موضوع التنزيه والذي يبتلع ما دونه من الموضوعات تختفي نظرية العلم وكأنها مقدمة غير ضرورية أمام الإلهيات[٣٤] . وفي عصر الشروح والملخصات تبدو نظرية العلم وكأنها تجميع بين نظرية المعرفة ونظرية المنطق دون أن تأتي بجديد باستثناء عرض بعض المسائل التي ظهرت من قبل ودون أية مساهمة في الكشف عن أحد جوانب البناء أو إعادة البناء كله من جديد . فنظرية العلم التي بدأت كمسائل متفرقة عادت أيضاً كما بدأت بضع مسائل متفرقة ، وفقدت رابطها الداخلي وعنفوانها النظري الذي استطاعت به أن تؤسس الإلهيات[٣٥] . ثم تحول الوجوب العقلي والوجودي الذي صاغته نظرية العلم بعد اكتمالها إلى الوجوب الشرعي . وأصبح على المسلم أن يؤمن بالواجب الشرعي الذي أصبح بديلاً عن الواجب النظري . اختفى النظر ، وأصبح الإيمان بالعقائد بمثابة إقامة الشعائر ، كلاهما تسليم بنظر أو بعمل ، وتقبل للواجب دون أي إعمالٍ للعقل ، وهو ما عرف باسم كتب العقائد والثناء عليها ، والاكثار منها ومن شروحها ، وتدريسها في المعاهد الدينية والكليات الأزهرية حتى الآن بل لقد عرفت العقائد باسم واضعها نظراً لأنها

---

(٣٣) المقاصد ص ٢١ ـ ٤١ ؛ التحقيق التام ص ٧ ـ ٨ .

(٣٤) هذا هو ما حدث في « أساس التقديس » للرازي .

(٣٥) هذا هو ما حدث في « التحقيق التام » للظواهري ، شرح ماهية العلم ص ٤ ـ ٢١ ، تقسيم العلوم ص ٢١ ـ ٢٨ .

لا تتمايز بينها في شيء إلا باسم عارضها[٣٦] . ويُستعاض عن النظر بالتقليد الذي رفضه علم أصول الدين المتقدم حتى للجمهور . وتستمر نظرية العلم في التواري حتى يتحول علم أصول الدين إلى علم إيماني خالص ، يحل فيه الإيمان محل العلم ، والتسليم محل العقل ، والتقليد محل النظر[٣٧] . بل إن موضوعات العلم ذاتها لم تصبح نظرية خالصة تتأسس بالعقل بل أصبحت قضايا نظرية شرعية إعتقادية ، وبالتالي فقد النظر مهمة التأسيس[٣٨] .

وفي الحركات الإصلاحية الحديثة ، لم تظهر محاولات لإعادة نظرية العلم من جديد ، وصياغة المدخل النظري لعلم أصول الدين كما كان الحال من قبل ، بل استمرت نظرية العلم في الاختفاء وحل محلها وصف لتطور العلم في التاريخ لمعرفة ما هو أصيل منه وما هو دخيل عليه . الغاية من تحديد مسار العلم في التاريخ هي معرفة كيفية الانتقال من الوحدة إلى التشتت ، ومن الجماعة إلى الفرقة حتى يمكن تجاوز الحالة الراهنة ، حالة التشتت والفرقة ، إلى الحالة الأولى ، حالة الوحدة والجماعة . وبالتالي يعود علم أصول الدين إلى ما كان عليه من توجيه لسلوك الناس نحو العمل[٣٩] . وتنتهي « الرسالة » أيضاً بنفس الهدف ، وصف مسار الوحي في الواقع وتوجيهه له ، والعودة إلى هذا التوجيه ، وهنا يتحول التاريخ إلى قيمة ، والنظر إلى عمل ، ويعود علم التوحيد كما كان في بدايته حركة في التاريخ ، يغير الواقع ، ويبني المجتمعات ، ويؤسس الدول قبل أن يتحول إلى علم حضاري

---

(٣٦) هذا ما حدث مثلاً في « كفاية العوام » الذي يبدأ بـ « اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يعرف خمسين عقيدة » ص ١٢ - ١٦ .

(٣٧) هذا هو الموقف في « الحصون الحميدية » إذ تشمل المقدمات بعد تعريف علم التوحيد وثمرته وفضله وافتراض تعلمه على كل مكلف حقيقة الايمان ، وحقيقة الاسلام ، وبيان ما اعتبره الشرع منافياً للايمان ومبطلاً والعياذ بالله . الحصون ص ٥ - ٦ .

(٣٨) « ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية » المقاصد ص ١٦ ؛ شرح المقاصد ص ٢٦ ؛ أشرف المقاصد ص ١٦ .

(٣٩) هذا هو موقف محمد عبده في « رسالة التوحيد » في المقدمة بالحديث عن تاريخ علم العقائد

نظري ، وكأن الإنسان لا يؤسس النظر إلا بعد أن يتوقف العمل[٤٠] . وفي حركة اصلاحية أخرى ، تختفي المقدمات النظرية ولا يُستعاض عنها بأي بديل في وصف التاريخ بل يتحول التوحيد إلى عمل مباشر وذلك بتوجيه النصوص الدينية مباشرة نحو الواقع وكأنها سهام موجهة إلى الأوضاع المتردية التي تعيش فيها الجماعة . التوحيد هنا ليس هو التوحيد النظري بل التوحيد العملي[٤١] . فالحركات الاصلاحية الحديثة جعلت العمل بديلاً عن النظر . وظلت تدعو إلى ذلك حوالي أكثر من قرن ونصف ، وما زالت الدعوة قائمة ، يكررها كل مصلح حسن النية ، وكل راغب في التغيير . ولكن السؤال هو الآتي : هل يمكن الدعوة إلى العمل دون نظرية في العمل ؟ هل يمكن التغيير دون نظرية في التغيير ؟ هل يمكن تحقيق التوحيد العملي دون التوحيد النظري ؟ قد يكون أحد الأسباب في أن حركاتنا الاصلاحية الحديثة لم تؤت أكلها بعد . إنها أرادت تحويل النظر إلى عمل دون تأسيس للنظر . لذلك ظل الاصلاح مجرد وعظ وارشاد ، حاثاً الناس على العمل . والناس لا تعمل بالمواعظ بل بتغيير تصوراتها للعالم ، ونظرتها إلى الكون . ومن ثم فالعودة إلى تأسيس العلم ، وتحويل التوحيد إلى نظرية هو السبيل إلى اصلاح جذري ، والانتقال من الاصلاح الى ثورة تتأصل أولاً في شعور الجماهير ، وتمدهم بتصور ثوري للعالم قبل أن تتحقق الثورة بالفعل[٤٢] . نظرية العلم هي البناء الايديولوجي اللازم لثورة الجماهير[٤٣] . .

٧ ــ **بناء نظرية العلم** : إن أهم شيء في البناء الفكري هو البداية الأولى . بعد ذلك يتم بناء الموضوع في نسق عقلي يكشف جوانب الموضوع بحيث يكون النسق العقلي وجوانب الموضوع شيئاً واحداً . وهذا ما حدث في تراثنا القديم ،

---

(٤٠) وفي ذلك يقول محمد اقبال :

قوة كان في الحياة على الأرض   فصار التوحيد علم الكلام

(٤١) هذا هو موقف محمد بن عبد الوهاب في « كتاب التوحيد » . والتفرقة لابن القيم .

(٤٢) انظر مقالنا « الضباط الأحرار أم المفكرون الأحرار؟» قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية .

(٤٣) تتداخل مع نظرية العلم في المقدمات النظرية أحياناً مسائل موضوع العلم وثمرته وغايته ووجوبه وأهميته وضرورته . ولكننا عرضنا لذلك من قبل في الفصل الأول ، « تعريف العلم » .

وعُرف باسم القسمة العقلية التي يتم بواسطتها بناء الموضوع في نسق عقلي ، وبالتالي يتوحد فيه المنطق بالوجود .

البداية اليقينية الأولى هو أني حي ، أشعر وأعتقد ، وفي شعوري واعتقادي يبدأ وجودي ككائن معتقد . الاعتقاد صفة من صفات الكائن الحي . الاعتقاد هنا عام ، العنوان الشامل للفكر والنظر والعلم وكل أفعال الشعور وأنماط اعتقاده . لذلك جعل علماء أصول الدين العلم والحياة صفتين من صفات « الله » مع القدرة لأن الحياة شرط العلم ، والعلم هو الاعتقاد اليقيني(٤٤) . البداية اليقينية الأولى إذن هو الاعتقاد أو التصديق ، الاعتقاد لأنه لا يمكن لانسان أن يتحدث إلا وقد اعتقد شيئاً ، والتصديق لأن أي اعتقاد هو تصديق ضمني أو حكم صريح تقوم به أفعال الشعور قبل أن يتم بتحليل العقل لصورته أو مادته . الاعتقاد مجموعة من الأمور يجدها الانسان في نفسه بالضرورة ، يتوحد فيها الذات والموضوع كواجهتين لشعور واحد يعطي النسق العقلي ، ويكشف عن جوانب الموضوع ، ويعطي البناء الذي يصبح منطقة في الشعور يتحد فيها العقل والواقع معاً(٤٥) .

ويتحدد الاعتقاد عن طريق القسمة كالآتي : الاعتقاد اما أن يكون جازماً أو متردداً . ولا توجد قسمة ثالثة يتوقف فيها الشعور عن أخذ موقف أو اصدار حكم لأن ذلك تردد أيضاً . والاعتقاد المتردد إذا تساوى فيه الطرفان كان شكاً ، وإذا غلب أحد الطرفين الآخر فأصبح الأول راجحاً والثاني مرجوحاً ، فالراجح هو الظن والمرجوح هو الوهم . أما الاعتقاد الجازم فإن كان غير مطابق فهو الجهل (والمطابقة هنا مع الفكر والواقع على السواء فهناك اتساق فكري وواقعي يشمل كل جوانب الموضوع) ، وإن كان مطابقاً بلا سبب فهو التقليد ـ فالتقليد مطابقة مع القديم بلا سبب ـ أو عن سبب إما بتصور الموضوع والمحمول معاً في لحظة واحدة وهي البديهيات أو بالاحساس وهي الضروريات أو بالاستدلال وهي

(٤٤) أنظر الفصل الخامس « الوعي الخالص » أو الذات .

(٤٥) هذه تحليلاتنا الخاصة وليس فيها أي أثر من الظاهريات الأوروبية التي كتبنا فيها من قبل رسالتنا L'Exégèse de la Phénoménologie .

النظريات . المطابقة عن سبب هو العلم . والبداهة العقلية تسبق الضرورة الحسية ، وكلاهما يسبق الاستدلال النظري . وبالتالي يكون تعريف العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق عن سبب بديهي عقلي أو بديهي حسي أو نظري استدلالي[٤٦] . استطاع القدماء إذن صياغة نظرية في العلم تقوم على قسمة المنطق إلى منطق يقين ومنطق ظن . يشير منطق اليقين إلى المعرفة اليقينية ، العقليات ، والحسيات ، والتجريبيات ، والحدسيات ، والعقليات ، والمتواترات . ويشير منطق الظن إلى المعارف الظنية : الجدل ، والمغالطة ، والخطابة ، والشعر . ويظهر هنا الاحتواء — احتواء قسمة الحضارة المجاورة — في وضع المتواترات كجزء من منطق اليقين ، وفي وضع المشهورات كجزء من منطق الظن ، وفي ذلك لا يختلف علم أصول الدين في احتواء قسمة المنطق القديم عن علوم الحكمة[٤٧] .

ويمثل هذا التقسيم الذي صاغه القدماء تقدماً بالنسبة لعقليتنا المعاصرة . لقد استطاع القدماء التمييز بين الاعتقاد والعلم ، بين الاعتقاد الجازم وغير الجازم ، وبين الاعتقاد الجازم المطابق وغير المطابق . ولكننا في حياتنا المعاصرة

(٤٦) يقول الرازي « ومنها (صفات الحي) الاعتقادات ، وهي أمور يجدها الحي من نفسه ، ويدرك التفرقة بينها وبين غيرها بالضرورة . وهي اما أن تكون جازمة أو مترددة . أما الجازمة فإن لم تكن مطابقة فهي الجهل ، وإن كانت مطابقة فإما أن لا يكون عن سبب وهو اعتقاد المقلد أو عن سبب ، وهو اما نفس تصور طرفي الموضوع والمحمول ، وهو البديهيات أو الاحساس وهو الضروريات أو الاستدلال وهو النظريات . وأما الذي لا يكون جازماً فإن كان التردد على السوية فهو الشك ، وإن كان أحدهما راجحاً عن الآخر فالراجح هو الظن ، والمرجوح هو الوهم » المحصل ص ٦٨ ـ ٦٩ ؛ ونفس النص تقريباً في « المعالم » إذ يقول : « التصديق اما أن يكون مع الجزم أو لا مع الجزم . أما القسم الأول فهو على أقسام : أحدها التصديق الجازم الذي لا يكون مطابقاً وهو الجهل . وثانيها التصديق الجازم المطابق لمحض التقليد وهو كاعتقاد المقلد . وثالثها التصديق الجازم المستفاد من احدى الحواس الخمس ، والرابع التصديق الجازم المستفاد ببديهة العقل لا التصديق الجازم المستفاد من الدليل . وأما القسم الثاني وهو التصديق العاري عن الجزم فالراجح هو الظن والمرجوح هو الوهم ، والمساوي هو الشك » المعالم ص ٤ ؛ وأحياناً تكون القسمة جزئية مثل « حقيقة المعرفة هي الجزم المطابق للحق عن دليل . وقوله الجزم احترازاً من الشك والظن والوهم فإنها لا تكفي في العقائد بل هي كفر » الأنصاري ص ٨ .

(٤٧) الحضارة المجاورة قديماً هي الحضارة اليونانية كما أن المجاورة حديثاً هي الحضارة الغربية .

خلطنا بين هذه التمييزات بين العلم والاعتقاد . فكثيراً ما « نعتقد » أو « نظن » أننا نعلم بل وكثيراً ما يسود الاعتقاد حياتنا دون العلم نظراً لغياب المطابقة مع الفكر أو مع الواقع . لذلك غاب التحليل العقلي من حياتنا كما انعزلت اعتقاداتنا عن واقعنا الذي نعيش فيه . كما أننا لا نفرق بين الاعتقاد الجازم وغير الجازم لأننا أقرب إلى الجزم في كل شيء ، ونخشى من الشك والتردد في مواقف تحتم النظرة النقدية كما هو الحال بالنسبة للموروث أو اننا نشك أو نتردد في مواقف تحتم الجزم والحسم كما هو الحال في مواجهة السلطة ، وحق الشعب في الرقابة عليها ، وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضرورة التصدي للقضايا المصيرية ، وعقد حوار وطني شامل حولها ، قضايا تحرير الأرض ، واسترداد الحريات المغتصبة ، وإعادة توزيع الثروة ، والوحدة والتجزئة ، والتخلف والتقدم ، والهوية والتغريب ، وتجنيد الجماهير . كما لا نفرق بين الاعتقاد الجازم المطابق وغير المطابق . فكثير من اعتقاداتنا الجازمة غير مطابقة تعارض العقل والواقع والتاريخ ، ونسلم بها تقليداً . أصبحت إعتقاداتنا متخلفة عن حركة الواقع وتطور التاريخ مما دعا البعض منا إلى لفظ هذه الاعتقادات كلية من أجل اللحاق بحركة الواقع ومسار التاريخ . لم يكن أمامهم إلا هذا الخيار . ولا نفرق بين المطابق عن غير سبب مثل التقليد والإلهام والذي هو عن سبب وهي البديهيات العقلية والحسية والاستدلال النظري . فكثير من اعتقاداتنا الجازمة المطابقة تقوم على التقليد والإلهام . وتغفل البداهة العقلية والحسية والاستدلال النظري . وكثير مما نظنه بداهة عقلية أو حسية يصدر عن الذائعات وهي الشائعات أو المشهورات والمظنونات التي تروج لها أجهزة الاعلام تضليلاً للشعوب ومحواً لرؤيتها المباشرة للواقع ، وكثيراً مما نظنه استدلالاً نظرياً هو في الحقيقة تبرير يقوم به العلماء المأجورون لما تريده السلطة فيبيعون علمهم في سوق السياسة ، ويتبارى العلماء في الصياغة وفي المهارة وهي تقوم كلها على المغالطات . ما زال يمثل النسق العقلي القديم بالنسبة لحالتنا الراهنة تقدماً ، ويظل مقياساً لحياتنا العقلية المعاصرة[٤٨] .

(٤٨) تبدأ المقدمات التقليدية بالحديث أولاً عن الاعتقاد الجازم المطابق عن سبب وهو العلم. ثم تعتني بالاعتقاد المتردد، وهو الشك أو الظن، والاعتقاد والجازم غير المطابق وهو الجهل أو المطابق لا =

فقد سادت في حياتنا مضادات العلم أكثر من العلم أي الظن والوهم والجهل والتقليد باستثناء الشك لأن ما فينا من قطعية وجزم يمنعان ظهوره . وغاب منا النظر وطرقه .

ثانياً : تعريف العلم :

لما كان علم الكلام « علماً » فإن السؤال يكون وما هو العلم ؟ وما تعريفه؟[٤٩] . وبالرغم مما يبدو على التعريفات من مسائل نظرية خالصة إلا أن أهميتها ترجع إلى أنها ضرورية لتعريف العلم قبل تأسيس علم الكلام . وهو ما حدث أيضاً في علم أصول الفقه وعلوم التصوف بتحديد كلمة « علم » دون علوم الحكمة التي جعلت المنطق مدخلاً لها وآلة للعلوم جميعها . ولا يمكن الحديث عن تعريف « علم الكلام » دون معرفة أولاً بتعريف العلم ، أقسامه ، وشروطه وطرقه . البحث عن إمكانيات المعرفة الإنسانية إذن سابق على تأسيس هذه المعرفة ذاتها . وربما لا تسمح قدرات العلم الإنساني بإقامة «علم إلهي» يدعي أنه يصدر أحكاماً على الله في ذاته وهو في الحقيقة يتحدث عن طريق القسمة والمثال أو عن طريق التشبيه والقياس ، قياس الغائب على الشاهد . معرفة امكانيات العلم إذن مطلب أساسي لتأسيس العلم وقبل الحديث عن أي علم . وقد أسقطنا نحن

= عن سبب وهو التقليد . فهي تبدأ بتحليل الجانب الايجابي أولاً ثم السلبي ثانياً . ونحن هنا نبدأ بالجانب السلبي أولاً ثم بالجانب الايجابي ثانياً . فالرفض قبل القبول ، والنفي يسبق الاثبات [كتب هذا الجزء من « التراث والتجديد » حتى هنا في ١٩٧٦ وما بعده في ١٩٨٢ - ١٩٨٣ . وقد حدث هذا الانقطاع لانشغالنا بالشهادة على أحداث العصر وأخذ موقف من الواقع كما هو واضح في « قضايا معاصرة » ، (٣) في الثقافة الوطنية (٤) في اليسار الديني] .

(٤٩) في«المواقف»تعريف علم الكلام هو المرصد-الأول من الموقف الأول عن المقدمات النظرية ص ٧ - ٩ . وهنا يبدو موقف الأشاعرة الذي يوحد بين العلمين أكثر تقدماً من موقف الفقهاء الذين يفصلون بينهما . وليس لتخوف الفقهاء من مساواة الله بالانسان بعد مساواة العلم الإلّهي بالعلم الانساني ما يبرره لأننا نتحدث في نظرية العلم وليس في نظرية الوجود » « وذهبت الأشعرية إلى أن علم الله واقع مع علمنا تحت حد واحد وهذا خطأ فاحش إذ من الباطل أن يقع ما لم تزل النهايات وعلم الله ليس هو غير الله » الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٥ .

في حياتنا المعاصرة هذا الجزء من علم الكلام وبدأنا بالذات والصفات والأفعال كما هو الحال في علم الكلام المتأخر دون حديث عن امكانية العلم بمثل هذا الموضوع وشروطه .

وعندما يُعرَّف العلم فإن الذي يُعرَّف هو العلم الانساني ، وليس « العلم الإلهي » موضوع الذات والصفات والأفعال لأننا لا نعلم علماً آخر سوى العلم الانساني بل ان الوحي ذاته بعد نزوله وفهمه يصبح علماً إنسانياً سواء كان أصول دين أو أصول فقه، علوم حكمة أو علوم تصوف. والعلم الانساني لا حدود له. وكل عصر يضيف إلى العلم علماً . تقدم العلوم إذن غير محدود . لقد استطاع العقل الانساني أن يدرك التنزيه وأن يتصور اللانهائي ويتمثل اللامحدود . وان تصور العلم الانساني محدوداً والعلم « الإلهي » غير محدود لهو تصور يقوم على احتقار الذات وتملق الغير ، وتعذيب النفس والرضا بالغير . ليس العلم الانساني محدوداً ، ولن يزداد « الله » فرحاً بأن نجعل علمه لا محدوداً . تعبر هذه الثنائية عن تخلف ثقافي واجتماعي حيث تكون الجماعة أقرب إلى الجهل منها إلى العلم ، وتجد تعويضاً عن جهلها بنسبة العلم إلى قوة خارجية عنها تكون الوصية عليها والملهمة لها سواء كانت مشخصة أو غير مشخصة ، دينية أم سياسية، عاقلة أو أسطورية. هل العلم ضروري لا يحتاج إلى تعريف ؟ فكل إنسان يعلم بوجوده ، والعلم بالوجود شرط العلم وأساسه . كما أن العلم لا يعرف إلا بالعلم وهو ما يستلزم الدور ، وبالتالي وجبت البداية بعلم ضروري ليس في حاجة إلى تعريف . العلم مساوقٌ لوجود الانسان ، ومطابق لفطرته كما أن الجهل مضاد لطبائع الأمور . العالم موجود ، والجاهل غير موجود ، والأمة العالمة موجودة ، والجاهلة لا وجود لها . لذلك قد يرفض البعض حد العلم باعتباره لا ضرورة له . فكيف يُحد العلم وهو أمر بديهي يعلمه كل إنسان ويشعر به من نفسه . كما أنه يصعب تحديد العلم لأنه يتحدد بعلم ، وهذا العلم بآخر إلى ما لا نهاية . لا بد إذن من علم بديهي لا يحتاج إلى حد فيكون العلم حينئذ لا حد له . ولا تمنع التفرقة بين تصور العلم وحصوله من الوقوع في الدور لأن تصور العلم ، وهي المقدمة غير حصوله وهي النتيجة . وذلك لأن تصور العلم أيضاً يحتاج إلى تصور آخر ، وهذا إلى ثالث إلى

ما لا نهاية(٥٠) . والحقيقة أن العلم بناء نظري ، العلم الضروري أولى خطواته . والنظر والاستدلال يفيدان العلم ، والرؤية المباشرة للواقع ، كما أن الاحصاء الكمي للظواهر يفيد العلم . ومن ثم فتعريف العلم ممكن بل ضروري حتى يتأسس العلم فالبداهة أحد جوانب العلم وليست العلم كله .

والعلم وان عسر تعريفه إلا أن كل إنسان يشعر به ، ويحصل عليه ، ويجاهد في سبيله ، ويفهمه ويقتنصه ، ويرتقي الانسان في مداركه . ولا يهم تعريف الشيء بقدر ما يهم الحصول عليه . قد تأتي صعوبة العلم من أنه يشمل كل أفعال الشعور ابتداء من النظر ومقدماته حتى العلم ونتائجه . وبالتالي يكون من الأفضل إذن تحديد العلم مجازاً أو تشبيهاً لصعوبة الحصول على حد حقيقي للعلم . أو على الأقل يكون العلم بديهياً لا مكتسباً ومثال ذلك علم الانسان بوجود نفسه . والحقيقة أن العلم البديهي أحد مراحل العلم وليس كله . وجعل العلم كله بديهياً ضرورياً ردّ للعلم كله إلى أحد مراحله مع إغفال الاكتساب والاستدلال وتحليل العقل، وعمل الشعور(٥١) .

ومع ذلك يمكن تعريف العلم عن طريق القسمة ابتداء من الاعتقاد غير الجازم الذي يجعل الانسان متردداً بين شيئين وهو موقف الشك أو قادراً على الترجيح بينهما فيكون الراجح هو الظن والمرجوح هو الوهم . ويكون ذلك تعريفاً للعلم عن طريق السلب أي بنفي مضادات العلم ، وما ليس بعلم ابتداء من الشك ثم الظن والوهم والجهل والتقليد . وقد أوفى القدماء الحديث في كل منها وكأنه موضوع مستقل نظراً لأهميته وخطورته على العلم .

---

(٥٠) وهو موقف الرازي ، المواقف ص ٩ ؛ شرح التفتازاني ص ٤٢ ؛ الانصاري ص ٥ ؛ الخلاصة ص ٦ ؛ الارشاد ص ١٤ ؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ٢٥ ، ص ٣٤٥ ؛ المقاصد ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥١) المحصل ص ٦٩ ؛ المعالم ص ٥ ؛ المقاصد ص ٢٤ - ٢٨ ؛ شرح المقاصد ص ٢٧ - ٢٩ ؛ أشرف المقاصد ص ٢٤ - ٢٨ ؛ حاشية الاتحاف ص ٢٢ ؛ التحقيق التام ص ٥ - ٦ ؛ شرح الأصول ص ٤٧ .

١ ـ **الشك والظن والوهم** : فالشك هو تردد بين معتقدين دون ترجيح لأحدهما على الآخر. ويعتبره القدماء مذهب السوفسطائيين وهـو على ثـلاثة أنـواع : اللاأدريـة ، والعنادية ، والعندية . وهي في حقيقة الأمر إتجاهات في المعرفة الإنسانية قبل أن تكون فرقاً القدماء مـذهب السوفسـطائيين وهـو على ثـلاثة أنـواع : اللاأدريـة ، والعنادية ، والعنديـة . وهي في حقيقة الأمر إتجاهات في المعرفة الإنسانيـة قبل أن تكـون فرقـاً كلامية أو مذاهب تاريخية . لا يهمنا رصد أسماء الفرق القديمة واتجاهاتها وآرائها من الناحية التاريخية الخالصة بل يهمنا وجود هذا الاتجاه الفكري في كل عصر ، وتعبيره عن موقف معرفي خاص وكشفه عن بناء فكري عام .

الـلاأدرية هـو الشك المبـدئي ، الشك في الشـك إلى ما لا نهايـة حتى تنتفي الحقائق ويستحيل العلم. وقد صاغ القدماء حجتين لهدم هـذا الموقف الأولى جدليـة مؤداها أن نفي الحقائق هو نفسه حقيقة والثانيـة تجريبيـة تعتمد عـلى إثبات الحـركة بالسير ، وإثبات الألم بالضرب . ولا تنفع المناظرة أو الأدلة والبراهـين لاثبات العلم مـع الشكاك عـامة والـلاأدرية خـاصة لأن إمكـانية العلم مستحيلة . إذ لا يحـدث العلم إلا بـالانتقال من معلوم إلى مجهـول ، والشك ينفي إمكـان قيام أي معلوم . الدليل الوحيد هو تجارب الألم واللذة ، حرق الاصبع للشكاك مثلاً من أجل إثبات المعارف الحسية لهم[٥٢] . فـالانسان لا يشعـر بحقيقة إلا في مـوقف ، ولا يثور إلا عندما تهدد حياته . التجربـة أصدق من الجـدل العقلي. يتطلب الجـدل العقلي التسليم بامكانية المعرفة ووجوب النـظر في حين أن المـوقف اللاأدري لا يسلم بـأية حقائق لأنه موقف إرادي خالص . لـذلك منـع القدمـاء مكالمتهم لعـدم وجود أي أساس مشترك بينهم . الشك اللاأدري تقصير في النظـر ، وانكـار لعمل العقـل ، ونفي لقدرة الانسان على البحث والكشف ، وتحليل الواقع ورؤ ية مكوناته . هناك حقـائق يمكن معرفتهـا مثل وجـود النفس الذي لا يمكن نفيـه ، وجود نفس الـذي

---

(٥٢) المواقف ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ الارشاد ص ٥ ؛ ص ١٤ ـ ١٥ ، المقاصد ص ٤٦ ـ ٥٢ ؛ شرح المقاصد ص ٥٢ ؛ شـرح التفتازاني ص ٢٠ ـ ٢٣ ؛ التحقيق التـام ص ١٣ ؛ الفصل جـ ١ ص ٧ ـ ٨ ، جـ ٥ ، ص ١٢٤ ؛ أصـول الـدين ص ٦ ؛ المغني جـ ١٢ النـظر والمعـارف ص ٤١ ـ ٤٥ ؛ المحصل ص ٢٢ ـ ٢٣ .

يشك . فالشك فعل من أفعال النفس . لذلك جعل علماء أصول الدين أول أركان نظرية العلم إثبات الحقائق والعلوم[٥٣] . هناك حقائق تسكن إليها النفس ضرورة ، لا مجال فيها للإيهام أو الخداع مثل إني موجود الآن ، جالس وأكتب ، أفكر فيما أكتب فيه ، وإني محتل ومتخلف ، وأعيش في عصر يسوده النفاق . الشك مضاد لسكون النفس . ولما كانت النفس تطلب سكونها فإنه يستحيل الشك[٥٤] . يمكن تفنيد الشك ليس فقط بالرجوع إلى بداهات الحس وأوليات العقل التي تحدث عنها القدماء بل إلى بداهات الموقف الإنساني حيث تبرز الوقائع التي يحيا بينها الإنسان . فمثلاً نحن نعيش في العالم ، نتعامل مع الآخرين ، نحن شعب أرضه محتلة، وبلده نام ، تعيش جماهيرنا في ضنك ، تصارع من أجل لقمة العيش . هناك حقائق الحياة المرة التي نعيشها ، وانكارها هو اثبات لوجودها ، وابعاد الشعب عنها وتجاهل أجهزة الاعلام لها عمداً ابعاد للجماهير عن المشاركة في صنع القرار والوعي بها اتقاء لحركتها . نعاني من الفقر يومياً ، ونقاسي من الاستغلال كل لحظة . البيروقراطية مأساتنا ، والتسلط يجثم على صدورنا ، والنفاق يلف ويدور حولنا ، والسخط يعمينا ، والاضطهاد موجه ضدنا ، والعيون تقف لنا بالمرصاد . هذه هي الحقائق اليومية التي نعاني منها ليل نهار والتي هي مثار حديث الناس في الطرقات علنا أو في الدور همسا والتي تكمن وراء هموم المواطنين. أدرك ذلك بحياتي، وأعيشه بوجودي، أراه وألمسه، أسمعه وأشعر به، ولا أكاد أخطىء في أي منها لأنها تتحول إلى ثورة ساخطة عارمة ، وانتفاضة شعبية لا ينكرها إلا متسلط يعمل لصالح طبقة تستغل الشعب وتثري على حسابه . وأنضم إلى حزب سياسي يعمل على استرداد حقوق الفقراء من الأغنياء ، ويعد لتحرير الأرض وتوحيد المنطقة . الحس يدرك ، والوجدان يشعر ، والعقل يحلل . ولا يشك في ذلك كله إلا ضال أو مضلل ، يريد أن يبقي الوضع القائم كما هو عليه ، ويريد أن يقضي على مشاركة الجماهير ، وأن يستمر في سلبها حقوقها والتنكر لها ، يظهر غير ما يبطن . يظهر الشك ، ويبطن اليقين . يدعو الناس إلى الريبة ، وهو جازم

(٥٣) أصول الدين ص ٦ ـ ٧ ؛ الفرق ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨ ؛ النسفي ص ١٥ .

(٥٤) المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ٢٣ ، ص ٣٢ ـ ٤٣ .

بما يهدف إليه . فالشك زعزعة لمعتقدات أصحاب الحقوق ، وتثبيت لمعتقدات سالبي الحقوق . الشك ضياع للنظر وبالتالي ضياع للأساس الواعي للسلوك ، فلا يبقى إلا الهوى والمصلحة . حينئذ تركن النفس إلى الدنيا ، ويترك الإنسان رسالته . العمل هو أكبر رد فعل على الشك ، واسترداد الحقوق بالفعل أكبر اثبات للحقائق النظرية . لذلك كان الشهداء هم الدليل على إثبات وجود الحقائق ، وكانت ثورات الشعوب أكبر دليل على إثبات وجود المبادىء . يمثل الشك اذن خطورة على الحياة الاجتماعية وتاريخ الشعوب وذلك برفض المبادىء أي رفض الالتزام والانتهاء إلى العدمية أو الفوضوية أو اللامبالاة أو السلبية المطلقة . ومرحلتنا التاريخية التي نمر بها الآن لم تصل إلى هذا الحد . بل إن مأساتنا هي اللامبالاة التي تنشأ عن عدم الاحساس بالرسالة ، وعدم تحمل الأمانة وليس من عدم تمثل مبدأ والعمل على تحقيقه[55] . ولا يعني اثبات الحقائق الوقوع في « الدجماطيقية »، وإثبات حقائق مستقلة عن الواقع ، لا تتغير بتغيره . فالحقائق هو هذا الواقع نفسه على مستوى الادراك . إذا تخلف الادراك عن الواقع تحول الفكر إلى صورية خالصة . وإذا سبق الفكر تطور الواقع تحول إلى طفولة ومراهقة . ولكن تحويل الواقع إلى فكر ثم العود إلى الواقع للتأثير فيه هي حقيقة ثابتة . لا إثبات إلا لحركة الواقع وصياغتها بالفكر . التاريخ حقيقة أولى ، مساره وحركته وتطوره ، مثل حقيقة وجود النفس .

والعنادية مذهب من يعترف بوجود الحقائق ، وبالتالي يكون أقل شكاً من مذهب اللاأدرية الذي ينكر وجود الحقائق أصلاً ، وينفي إمكان معرفتها . وهو المذهب القائل بتكافؤ الأدلة واستحالةُ الوصول إلى اليقين حيث تتعادل المواقف كلها ، وتتساوى الحجج ، وتختلف الآراء وتتضارب الأقوال دون امكانية ترجيح أحدها على الآخر . كل الدلائل ينفي بعضها بعضاً . ليس هناك دليل إلا وله دليل مضاد ، ولا توجد حجة إلا ولها حجة مناقضة . ومن ثم تساوت الآراء في الحق

---

(٥٥) الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ أنظر أيضاً دراستنا « عن اللامبالاة » بحث فلسفي ، قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر .

والباطل . فهي إما كلها باطل وإما كلها حق . ولما استحال أن تكون كلها حق ، فالحق لا يناقض الحق ، فهي إذن كلها باطل لاستحالة تغلب حجة على أخرى أو دليل على آخر . وبالتالي ليس هناك رأي أو مذهب أصح من الرأي أو المذهب المعارض[٥٦] .

والحقيقة أن القول بتكافؤ الأدلة نفي لبداهات الحس وأوائل العقول ومعطيات الوجدان مثل وجود النفس ووجود العالم بصرف النظر عن إثبات حدوثه أو نفيه . فالأدلة لا تهدم بعضها البعض لأن بداهات الحس واوائل العقول ومعطيات الوجدان لا يختلف عليها اثنان بل إنها مقاييس للخطأ والصواب . والقول بتكافؤ الأدلة اثبات لعلم يقيني لا يتساوى مع نقيضه وهو هذا القول نفسه . وذلك يثبت وجود حقيقة يمكن معرفتها . وهي حجة جدلية يقدمها القدماء لتفنيد رأي الخصم. وإن افتراض خطأ كل رأي يعني أن القول بتكافؤ الأدلة باعتباره رأياً خطأ وبالتالي ينهزم المذهب لعدم وجود دليل ، وهي حجة جدلية لتفنيد رأي الخصم . ولا يمكن أن تصدق الأحكام المتناقضة كلها على شيء واحد كما لا يمكن أن تكون كلها صحيحة لأنها متناقضة أو باطلة . لكل شيء حكم معين هو الحكم الصحيح وما سواه باطل . الأحكام المتناقضة على الشيء الواحد لا تصدق معاً ولا ترتفع معاً على رأي المناطقة بل بها صواب وخطأ ، إذا صح أمرها بطلت الأحكام الأخرى . والسبيل إلى التمييز بينها هو البرهان . لا يوجد دليل يهدم دليلاً آخر بل هناك تفسيرات مختلفة تتنازع واقعة معينة . لا يوجد التناقض إلا على المستوى الصوري أو المادي . أما على المستوى الانساني فيمكن الاحتكام إلى الواقع العملي لمعرفة أي التفسيرات أصدق . تدل الأحكام المتناقضة على اختلاف وجهات النظر أكثر مما تدل على تساوي الحق والباطل وتعادلهما . تشير إلى البعد الذاتي أكثر مما تشير إلى البُعد الموضوعي[٥٧] ، وتغيير الانسان لوجهة نظره لا يعني تغيير الحق أو

---

(٥٦) الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥٧) الفصل جـ ٥ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ، ص ١٩٥ ـ ١٩٧ وقد أفاض ابن حزم في مذاهب الشك لأنه يجمع بين علم أصول الدين وتاريخ الفرق .

إنكار وجود حقيقة ثابتة بل يعني تغيير الظروف والأحـوال والمادة تقييم الحكم طبقـاً للأدلة الجديدة وذلك على مستـوى تعين المبـدأ في الواقـع وليس على مستـوى المبدأ ذاتـه . إن كـل حكم إنسـاني هـو حكم تقـريبي مشـروط بـدقـة البحث وسـلامـة الادراك . وقد ينتقل الانسان من خطأ إلى خطأ حتى يعثر في النهاية على الصواب . ويرجع الخطأ والصواب في الاحكام إلى شمول الحكم واتسـاعه . الحكم الضيق لا يصدق على واقع أشمل ، والحكم الشامل قـد لا يصدق عـلى واقع أضيق إذا كـان متفرداً . قد يكون الانتقال من رأي إلى آخر هو انتقال من رأي أقل صواباً إلى رأي آخر أكثر صواباً ، وهذا الانتقال ذاته إقرار بوجود الصـواب . وطريق الانتقـال هو البرهان حتى يتم الوصول إلى اليقـين . يمكن إذن الانتقال من رأي إلى آخـر بشرط توافر حسن النية إذ ينضج الانسـان مع تقـدم العمر ، وتصـح آراؤه بدقـة البحث وتغـير المناهـج ومستويـات التحليل وربمـا لاختلاف اللغـة والمصطلحـات . وذلـك طبيعي نظراً لما يحـدث في حياة الانسـان من تطور فكـري ونضج علمي ، ووعي اجتماعي . إن ثبوت الحقائق لا يعني جمودها من حيث الصورة أو المضمـون[٥٨] . ولا يعني تفـاوت البراهـين دقة ووضـوحـاً أنها لا تثبت شيئـاً فـالنـاس متفـاوتـة في الإدراك . ويمكن أن يتضـح الخفي ، وأن يفصل المجمـل ، وأن يحكم المتشـابـه . لذلك كان العلم أساساً نظريـة في الايضاح[٥٩] . وإن تفـاوت الناس في المـدركات الحسية لا يعني انتفاء الحقائق وعدم امكان معرفتها ، فذاك راجع إلى اختلاف دقـة الحواس وتفاوت عملها وطريقة تحويلها إلى تصورات ثم أحكـام . كما يتـوقف على درجة تيقظ الشعور ، وهو شرط إدراك الحـواس[٦٠] . ويتوقف عـلى حياد الشعـور وعـدم تحيزه أو خضـوعه لهـوى أو مصلحة . ولا يضـير المعرفـة الانسانيـة احتمـال الخطأ ، فالخطأ كالصواب طرفان لها . وقد يحدث الخـطأ في فهم الوحي وتحويله إلى

---

(٥٨) الفصل جـ ٥ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ص ١٩٦ .

(٥٩) انـظر سابقـاً ــ أولاً ــ نشأة نـظرية العلم وتـطورها ٧ - بنـاء نظريـة العلم وأيضاً رسـالتنا الثـانية L'Exégèse de la Phénomenologie, La Clarification PP.

ونظرية الايضاح مستقلة تماماً عن التراث الغربي لها أصولها في مناهج الأصوليين .

(٦٠) الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٦ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ انظر أيضاً لسنج : تربية الجنس البشري .

علوم عقلية أو إنسانية . والمعرفة لا يضيرها البحث ودقة النظر وشدة الخصومة وتوالي الأجيال فتلك مهمة الانسان وشرفه وعظمته . وقد يكون البحث عن الحق أولى من الحصول عليه[٦١] . ولا يعني كون البرهان اجمالياً العجز عن الاتيان بالبرهان التفصيلي . فالعقل قادر على اعطاء أكثر الاستدلالات دقة وتفصيلاً . قد يؤدي البرهان الاجمالي إلى التأويل كما تفعل الباطنية وقد يحدث بعد التصديق وليس قبله . وقد لا يخضع للبحث الدقيق فيكون أقرب إلى التمويه والمغالطة منه إلى البرهان ولكنه قد يؤدي أيضاً إلى العلم إذا امتنع التأويل وكان سابقاً على التصديق وخضع لمناهج البحث المحكمة كالسبر والتقسيم[٦٢] . وإذا استحال الترجيح بين معتقدين أو تصورين نظراً لنقصان الدليل فإنه يمكن أخذ أنفعهما للناس وأقلهما ضرراً دفاعاً عن المصلحة العامة والأقرب إلى تحقيق مصالح الأغلبية . إن وجود شيء حقيقي تتمثله الجماهير أو تسعى لتحقيقه لهو الشرط الضروري لأي تغير اجتماعي . وإلا فلماذا يضحي الانسان ؟ ولماذا يستشهد ؟ إن ضرورة العمل وثقل الحياة تستلزم أخذ المواقف . وبدلاً من أن تؤخذ بالبخت والمصادفة فتكون عشوائية عابثة يلزم الترجيح إن لم يكن بالدليل النظري فبالمصلحة العامة. وقد نشأ علم بأكمله في علم أصول الفقه لهذا الغرض وهو « علم التعارض والتراجيح » بين الروايات والأدلة . موقف الشك إذن بالإضافة إلى أنه مستحيل عملاً لأن الحياة تسير وفقاً للاعتقاد مستحيل نظراً لما تقدمه الحياة من بواعث ودوافع ولما تقوم عليه من مقاصد وغايات ، تعمل كلها كمرجحات .

ولا يعني اختلاف الآراء وتضاربها وعناد الناس عدم وجود الحقائق أو إمكانية معرفتها أو إنكار شرعيتها أو صدقها إذ يمكن معرفة كل ذلك بالبرهان . وهو أقل في العلوم الصورية والعلوم المادية منه في العلوم الانسانية نظراً لتداخل الأهواء والمعتقدات والمصالح . كما ينشأ هذا الاختلاف والتضارب نتيجة للتكاسل عن طلب البرهان أو الوقوع في التقليد والتسليم بالموروث دون نقد أو تمحيص . كما

---

(٦١) يتضح ذلك في كثير من الآيات القرآنية عن الحواس الخمس مثل « فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) .

(٦٢) الفصل جـ ٥ ص ٢٠٦ .

ينشأ من اختلاف مناهج التحليل ومستوياته ولغته وأسلوبه بين الخطابة والجدل والبرهان . ولا يعني عدم اتباع الناس للحق انتفاء الحق واستحالة معرفته بل يدل على الجهل أو نقص في الوعي أو تغليب المصالح والأهواء على المبادىء العامة . كما لا يدل تخلف العمل عن النظر على استحالة النظر بل يدل على الخوف وإيثار السلامة . ولا يعني اختلاف العلماء فيما بينهم انتفاء وجود الحقائق واستحالة معرفتها بل يشير إلى تعدد التفسيرات طبقاً لمكونات الواقع وحركة التاريخ . وكلها مشروعة طبقاً للحاجة . إذ يتحول الوحي بمجرد نزوله في زمان ومكان معينين ولدى شعب بعينه وفي مرحلة تاريخية محددة ــ يتحول إلى حضارة . والحضارة لها بناؤها الانساني ، ونشأتها طبقاً للحاجات البشرية . لا يعني التعدد في التفسيرات إذن التضارب والتناحر بل الاجتهادات المختلفة طبقاً للصالح العام وما تستطيع أن تحققه من نفع للناس . والرأي غير الهوى . الرأي له برهانه أما الهوى فانفعال ومزاج . لذلك كتب الفقهاء في « ذم الهوى » . الرأي قول يقوم على دليل ، والهوى دعوى بلا دليل . إن القول بتكافؤ الأدلة ثم الاعتراف بأن أحدها حقٌ والآخر باطلٌ دون التعيين والتخصيص هو اقتراب من اليقين وترك الشك دون أن تكون هناك ثقة بالعقل وقدرته على تعيين الحق والتمييز بينه وبين الباطل سواء التعيين النظري أو الترجيح العملي طبقاً للصالح العام . إن القول بتكافؤ الأدلة فيما دون « الله » اعتراف بتعيين واحد هو وجود مبدأ أو حقيقة يعقلها الجميع ويُترك تفسيرها بعد ذلك طبقاً للمجتمعات وحسب مراحل التاريخ . والقول بتكافؤها فيما دون « الله » و « النبوة » أي في أقوال البشر وتفسيراتهم هو أيضاً نزول إلى تعينات الواقع درجة أكثر والاتفاق على وجود فكر انساني متكامل ونظام اجتماعي يصلح للناس في كل زمان ومكان . إن القول بتكافؤ الأدلة نظراً لا يمنع من اليقين عملاً وذلك لأن الانسان بموجب عقله يلتزم بمبدأ ينتج عنه إدراك الفضائل وممارستها ، ويمكن إدراك هذا المبدأ بالعقل ولكنه يقين عملي خالص(٦٣) .

(٦٣) الفصل جـ ٥ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ ؛ وبالنسبة لتعدد التفسيرات ، هذا هو معنى الحديث المشهور « أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » أو « اختلاف الأئمة رحمة بينهم » أنظر رسالتنا Les Méthodes D,Exégèse,

وخلاصة القول إن القول بتكافؤ الأدلة يؤدي إلى إنكار عدة أشياء منها : قدرة العقل على الوصول إلى حقائق الأشياء وبداهة الحس وأوليات العقل ومعطيات الوجدان ، قدرة العقل على وصف الواقع وتحليل الأوضاع الاجتماعية وهموم الناس التي تجثم على الصدور ، دور الآخرين في امكانية اطراد التحليل والوصف ولأهمية رأي الجماعة والتجربة المشتركة ؛ حاجة الواقع إلى بناء والعمل إلى نظر ، فالترجيح والتفضيل أولى من العشوائية والمصادفة ؛ قدرة الانسان على الاختيار بين المواقف وتفضيل مصلحة على أخرى ، وحرية الحركة في الممارسة ؛ وجود قوى اجتماعية وراء الأدلة تحسم الصراع لمصلحة الأقوى والأدل ؛ وجود حركة التاريخ وقانون الأغلبية وحق الشعوب ، فاليقين التاريخي لا يقل اهمية عن اليقين النظري والعملي .

أما « العندية » وهو المذهب الثالث في الشك فلم يفصل فيه القدماء تفصيلهم للاأدرية والقول بتكافؤ الأدلة . ومع ذلك ترى العندية ، ان كل الآراء صحيحة عند قائليها ومن هنا جاءت تسميتها بالعندية وهي على نقيض العنادية التي ترى الآراء كلها باطلة . والحقيقة أن اعتبار الاعتقادات كلها صحيحة نفي لمعيارية العلم وامكانية إثبات حقيقة واحدة والتمييز بين الحق والباطل ، ووقوع في النسبية المطلقة . وقد قلب القدماء الحجة الجدلية ضد المذهب ، فالعندية مذهب باطل لأنه عندنا باطل وباالتالي يكون بطلانه حقيقة . العندية إنكار للصفات الموضوعية للأشياء ، وإرجاعها إلى مجرد انطباعات ذاتية وأمزجة فردية ، وإحساسات خاطئة . لا توجد صفات متناقضة في الطبيعة بل في إدراك الناس لها . كما توجد حقائق موضوعية إجتماعية مثل ضرورة الثورة استرداداً لحقوق الفقراء من الأغنياء ، وحصولاً على الاستقلال الوطني ضد المحتل الأجنبي ، ودفاعاً عن الحرية والديمقراطية ضد التسلط والطغيان ، وتوحيد الأمة بعد التجزئة والتشرذم ، وحفاظاً على الهوية ضد التغريب ، وتجنيداً للجماهير حتى تكون بثقلها الضمان الوحيد لنيل حقوقها . لا يعني اختلاف التعبيرات ضياع الحقيقة . هناك عدة مستويات لتحليل الواقع وللقدرة على الفعل ولدرجة الوعي ولصراحة التعبير ،

والقدرة على التعبير عن الصالح العام[٦٤] .

الشك إذن بمذاهبه الثلاثة لا يمكن أن يكون أساساً لنظرية في العلم تقوم على إنكار الحقائق أو على استحالة معرفتها أو على نسبيتها . وهذا لا يعني ألا يكون الشك مقدمة للنظر وشرطه . بل انه عند البعض أول الواجبات على المكلف حتى يخف التقليد ويُقضى على التبعية .

والظن أعلى درجة من الشك وأقرب إلى المعرفة والعلم لأنه قد تحول من اعتقاد غير جازم إلى اعتقاد جازم يتجاوز التردد إلى الترجيح . ولما كان المرجح ليس دليلاً برهانياً يظل الظن في مرتبة الاعتقاد غير الجازم ولا يرتقي مطلقاً إلى درجة العلم . فإذا كان الراجح هو الظن فالمرجوح هو الوهم وهو قياس أمر غير محسوس على أمر محسوس وهو أساس قياس الغائب على الشاهد الذي هو أساس الفكر « الإلهي » كله . وقد يقوم على المخيلات أي على الصور الشعرية ترغيباً للنفس أو تنفيراً لها . والحقيقة أن القياسات الشعرية قد تكون صادقة نظراً لإحساس الشاعر وصدقه وبالتالي لا تكون النموذج الأمثل للوهم . فالوهم اصدار حكم على واقع غير مطابق له في حين أن الشعر لا يهدف إلا إلى التأثير على النفوس وإيصال تجربة إنسانية تطابقها مع نفسها ومع تجارب الآخرين بالمشاركة .

وبالرغم من أن القدماء لم يتوسعوا كثيراً في وصف الشك والظن والوهم إلا أن لها أبلغ الأثر في حياتنا المعاصرة . فنحن لا نفرق بين منطق الظن ومنطق اليقين بل نخلط بينهما . فكثيراً ما نستعمل منطق الظن على أنه منطق لليقين . كما أننا لانميز بين أنواع الحجج ، البرهاني والخطابي والجدلي . فكثيراً ما نخطب ونظن أننا نبرهن ، وكثيراً ما نجادل ونظن أننا نستدل . تمثل قسمة القدماء لأنواع الحجج تقدماً أكثر مما نحن عليه الآن . بل إن بعض الجوانب في فكرنا المعاصر يقوم على الوهم والمخيلة أكثر مما يقوم على العقل ، ويعتمد على المغالطات أكثر مما

---

(٦٤) الفصل جـ ١ ، ص ٨ ـ ٩ ؛ التلخيص ص ٢٣ ؛ شرح التفتازاني ص ٢٠٠ ؛ التحقيق التام ص ١٣ ؛ الارشاد ص ٧ ؛ أصول الدين ص ٧ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٤٥ ـ ٥٣ ؛ تحفة المريد ص ٣٣ . وأبو هاشم الجبائي هو الذي يجعل الشك أول الواجبات .

يعتمد على الحجج والبراهين . نستعمل القياسات الظنية ونظن أنها برهانية . وكثيراً ما نسلم بالمشهورات التي تروجها أجهزة الاعلام فتصبح بمثابة معتقدات للناس بكثرة ترديدها ، وتصبح جزءاً من ثقافتهم تعمية لهم عن الحقائق البرهانية . كما أننا في حياتنا الثقافية نجادل الخصم دون التسليم بمقدماته بل نشغل أنفسنا بتفنيدها ومن ثم يتحول جدلنا إلى تناطح وتنازع وخصام . لذلك يستحيل الحوار ، ولا يكون هناك مجال إلا للتقاذف والاتهامات والسباب . وكثيراً ما تغلب المغالطات على ثقافتنا الوطنية ، وتغليب المرجوح على الراجح . كما أننا غالباً ما نقيس غير المحسوس على المحسوس ، خطأ في أمور لا تقاس مثل فكرنا الإلهي ، وتصوير الله غير المحسوس بالانسان المحسوس ، والوقوع في التجسيم والتشبيه أو بالنسبة إلى أمور المعاد وقياسها على النعيم والعذاب في الدنيا في حين أنه يمكن استعمال المحسوس لتفسير نشأة غير المحسوس من حيث الصور الأدبية والنشأة . فلا يوجد تصور في الذهن إلا ما ينشأ في الواقع أولاً سواء كفعل أو كرد فعل . ولا نقيس غير المحسوس على المحسوس بطريقة صائبة على نحو ما يفعل أصوليو الفقه في قياس الغائب على الشاهد . كما تغلب على فكرنا القومي الخيالات الشعرية والأساليب الخطابية بغية التأثير على النفوس ، تأييداً لشخص أو هجوماً على آخر حتى اتهمت عقليتنا على مسار التاريخ بأنها عقلية إنشائية لا خبرية ، وبأن لغتنا غنائية وليست تقريرية ، فنحن نعيش في هذا العالم خطباء وشعراء دون أن نعيش مفكرين وعلماء(٦٥) .

٢ ـ **الجهل** : والجهل اعتقاد جازم غير مطابق . والاعتقاد الجازم قطعية مضادة للعلم ونقيض النظر ، وينقصه البرهان . ويكون عدم المطابقة مع الواقع ، فمقياس العلم مطابقة الاعتقاد للواقع ، إن كان مطابقاً كان علماً ، وإن لم يكن مطابقاً كان جهلاً . ويصاحبه سكون النفس وغياب التردد والريبة وبالتالي غياب الظن والوهم . ويمر التطابق بالشعور ، وليس مجرد تطابق آلي صوري مادي بين الفكر والواقع أي تطابق بين المفهوم والماصدق .

---

(٦٥) أنظر مقالنا « التفكير الديني وازدواجية الشخصية » قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر .

وبالرغم من أن القدماء لم يفصلوا في الجهل إلا أنه يغلب أيضاً كالظن على حياتنا المعاصرة ، لا بمعنى عدم العلم أو بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة أي الأمية ــ التي نتحدث كثيراً عن محوها ونعقد لها البرامج والندوات ــ فقد يكون غياب العلم علماً ، وهو الجهل العالم كما هو الحال لدى الأمي العالم . وقد يكون حضور العلم جهلاً وهو العلم الجاهل كما هو الحال لدى المتعلم الجاهل[٦٦] . فالأمي بصدق فراسته ، وبأمثاله العامية ، وباحساسه بالواقع ، بنكاته الشعبية ، وبوجدانه التاريخي ، وبتراكم آلاف السنين قد يكون أعلم من المتكلم من حيث الوعي والانتباه ، والقدرة على الرؤية المباشرة للواقع بلا تدليس أو إيهام . كما أن المتعلم باغترابه ، وانفصاله عن الواقع ، وباستخدامه جعبة من الألفاظ للتضليل والتعمية يكون أجهل من الجاهل ، بل ويكون جهله مركباً لأنه لا يعلم أنه جاهل . قد يكون الجهل في حياتنا المعاصرة ماثلاً في عدم الوعي بأنفسنا ، وبالمرحلة التاريخية التي نمرّ بها ، وفي غياب مشروع قومي تحققه الأمة ، وتجند له قواها ، وتحشد له امكانياتها ، بعد أن كان لها واحد وانتكس بعد أن فُرِّغ من مضمونه فأصبح مثل كرة الهواء بلا ثقل من التراث وبلا أساس من الجماهير . قد يكون الجهل في تخلف مؤسساتنا القومية عن درجة تقدم الواقع وحركته وفي عدم تمثيل السلطتين الدينية والسياسية لحركة الواقع العريض ومحاصرتها لطلائع هذه الحركة ومحاولة عزلها عن الواقع ومن وسط الجماهير . الجهل هو هذا التفاوت الشديد بين ما يدور في الواقع من قوى للتغير والحركة وبين النظم الاجتماعية والسياسية القائمة التي تحاول ايقاف هذه القوى والقضاء عليها ، وهو في الحقيقة جهل بالتاريخ وبمساره . والانسان مسؤول عن هذا الجهل ولكننا في حياتنا المعاصرة جعلنا الله مسؤولاً عنه ، وبرأنا أنفسنا من تبعة هذا الجهل بدعوى أن علمنا محدود أمام العلم « الإلهي » ، وادراكنا قاصر عن ادراكه ، وعقلنا ضعيف لا يقدر على تجاوز الحدود التي رسمها الله له . نتوقف أمام الغيب لأنّ الانسان ذو علم محدود والله ذو علم مطلق . وبالتالي نكون أكثر تخلفاً في تحليلنا لأسباب الجهل وتحديد المسؤول عنه . في حين أن الجهل لدينا له أسبابه المباشرة في مضمون

(٦٦) للامام الشهيد سيد قطب تعبير مشهور هو « الجهل الذي يحمل الدكتوراه » .

ثقافتنا التي هي أقرب إلى الاعتقاد الجازم غير المطابق للواقع أو للفكر أو للتاريخ . لذلك سادت حياتنا المعاصرة القطعية ، وهدم العقل ، وإنكار النظر ، وإسقاط الواقع من الحساب ، وغياب التاريخ كبُعد شعوري وكميدان للعمل والتحقيق .

٣ ـ التقليد: لقد أفاض القدماء في التقليد كما غصنا نحن فيه إلى الأذقان. فالتقليد اعتقاد جازم مطابق ولكن دون سبب للمطابقة . ومن ثم فهو لا يؤدي إلى العلم . هو قطع وجزم دون نظر . هو اعتقاد أي حكم أو تصديق ، وجازم لأنه لا شك فيه ولا تردد ، ومطابق لأنه يتماثل مع شيء آخر قد يكون تراثاً قديماً أو معاصراً حديثاً أو شخصاً ميتاً أو شخصية حية ولكن دون سبب وبلا برهان قطعي من حس أو عقل أو استدلال . التقليد تبعية للآخرين من غير مطالبتهم بالبرهان . لا يرتقي إلى اليقين ، ولا يفيد الظن . ولا يمكن اختيار أحد الاحتمالين عن طريق التقليد بلا سبب للتفضيل[٦٧] .

ويقوم التقليد على بعض الحجج ، هي في الحقيقة ضد النظر ، فإذا بطل النظر ثبت التقليد اتباعاً لبرهان الخلف ، نفي الشيء لاثبات نقيضه ، وهو برهان سلبي خالص لا يثبت شيئاً لأن النظر والتقليد ليسا هما الاحتمالين الوحيدين كطريقين للمعرفة إذ يضع الصوفية الذوق والالهام . ان مجرد انكار القياس لا يثبت التقليد ، وإنكار الشيء لا يثبت ضده ، وبرهان الخلف يدخل ضمن منطق الظن لأنه يقوم على حجة جدلية . ليس التقليد هو البديل الوحيد على فساد القياس. فهناك بداهة الحس وأوائل العقول ومعطيات الوجدان . وكل الحجج مستقاة من قصة ابليس وصراعه مع آدم . فقد قاس ابليس النار على الطين ، «خلقتني من نار وخلقته من طين » فأخطأ وهي حجج ضعيفة لعدة أسباب . فالهدف من القصة هو التأثير على النفس وليس اصدار حكم ، والحث على العمل اكثر من الوصف

---

(٦٧) شرح الأصول ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ المحصل ص ٢٧ ؛ شرح التفتازاني ص ٤٢ ؛ المقاصد ص ١٢ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، شرح المقاصد ص ١٣ ، الأنصاري ص ٨ ؛ تحفة المريد ص ٣١ ، شرح الخريدة ص ١٣ ؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ؛ المحيط ص ٣١ .

والتقرير ، والإيحاء إلى النفس وليس مصدراً للأحكام الشرعية . فهي صورة شعرية أكثر منها حادثة تاريخية ، والقصص والمجاز ليسا مصدراً للأحكام . وحتى على فرض صحة استنباط أحكام من القصص فإن أشخاصاً كثيرة تقيس وتصيب ، وليس كل من قاس فقد أخطأ . ولا يمكن اصدار حكم كلي على واقعة جزئية وكثير من المؤمنين يقيسون ويصيبون . كما تقيس الأنبياء وتصيب ، وكما بين الفقهاء ذلك في كتب « أقيسة الرسول » . بل إن الله ذاته يقيس ويصيب ، والوحي مملوء بالأقيسة الصائبة على ما بيَّن الفقهاء. ليس الخطأ من القياس في ذاته بل من طرق الاستدلال الخاطئة . وتقوم مناهج الأصوليين على القياس ، والقياس الشرعي يصيب ، وهو مصدر من مصادر التشريع . إن أقصى ما تستطيع هذه القصة أن تقدمه هو أنها تنبه على القياسات القائمة على مقدمات خاطئة فتقيس الكم على الكيف وليست تلك التي تقوم على المقدمات الصحيحة . هذه الحجج كلها يمكن في نفس الوقت استعمالها دفاعاً عن القياس كأحد أشكال النظر وليس فقط ضد التقليد .

وقد صاغ المعتزلة عدة حجج عقلية ضد التقليد لبيان استحالته النظرية والعملية ، وضرورة الاستدلال . فالمقلد لا يستطيع تقليد المذاهب كلها لتعارضها ولحاجة السلوك إلى مذهب واحد . ولا يمكن أن يكون الاختيار بينها مصادفة عشوائية أو بالمزاج والهوى بل بالنظر والاستدلال . كما أن المقلد لا يقلد غير العالم لأنه جاهل بل يقلد العالم الذي له علم عن طريق غير التقليد وإلا تسلسلنا إلى ما لا نهاية . وعلم العالم اما من العلم الضروري أو العلم النظري . والعلم الضروري مشاع عند الناس جميعاً يستطيعه المقلد وبالتالي فلا حاجة له إلى التقليد ، والعلم النظري هو طريق العلم لأن النظر يفيد العلم . هذا بالاضافة إلى أن التقليد يؤدي إلى الخطأ النظري والخطأ العملي على السواء لأنه خال من اليقين في حين أن العلم يقيني في النظر وبالتالي يقيني في العمل .

ولا يمكن تقليد الأكثرين لأن الكثرة حجة كمية والعلم كيف . وقد كان الأنبياء أقلية في قومهم وهم الأغلبية . وكان الدعاة والمصلحون والعلماء أقلية في

أقوامهم[٦٨] . وكان أهل الحق باستمرار أقل عدداً من أهل الباطل . وهذا لا يعني التنكر لدور الأغلبية أو اهمال مصالحها أو الاقلال من شأنها فالأغلبية الصامتة يدافع عنها الأنبياء والدعاة والمصلحون ، ويعبرون عن مصالحها ، ويبعثون فيها النظر وحس العلم حتى تستنير وتستقل فتصبح قادرة على الدفاع عن حقوقها بنفسها وحتى تفرز طليعتها من ثناياها وهم العلماء والفقهاء والأئمة ، وتكون قادرة على قيادتها وحمايتها . وهذا لا يعني أيضا إنكار دور الأغلبية النظري في الاجماع والنزول على رأيها ، فالاجماع أحد مصادر التشريع ودرءاً لمخاطر الفردية والتسلط والاستبداد بالرأي . ولا يقوم الاجماع على تقليد بل هو أخذ بالدليل النقلي أو العقلي أو المصلحي الذي يعلمه الجميع[٦٩] .

كما لا يجوز تقليد الأزهدين لأن الزهد لا يعني العلم بالضرورة بل قد ينشأ عن خطأ في الحكم وعلى جهل بالوحي وانحراف بالدين كما هو الحال عند الصوفية وفي باقي الديانات . كما لا يعني الفضل بالضرورة بل قد يكشف عن طمع مقنع ورغبة فيما هو أكثر مما في أيدي الناس . هذا بالاضافة إلى أن الزهد ليس حقيقة نظرية وبالتالي فهو ليس دليلاً أو برهاناً[٧٠] .

ولا يمكن تقليد السلف لأن التقليد إنكار لدور العقل ولضرورة التصديق وللمسؤولية الفردية ولمهمة الانسان في التجديد والتطوير والتغيير . تقليد السلف

(٦٨) يرفض القرآن حجة الأكثرية في النظر والعمل على السواء في كثير من الأيات مثل : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث » (٥ : ١٠٠) ؛ « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » (٦ : ١١٦) ؛ « وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد » (٥٧ : ٢٠) ؛ « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه » (٤ : ١١٤) ؛ وتظهر النواحي العملية في القتال مثل « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت » (٨ : ١٩) ؛ « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً » (٩: ٢٥) ؛ « كم من فئة قليلةغلبتفئة كثيرة باذن الله » (٢ : ٢٤٩) ويشير القرآن إلى الكثرة بأن أكثر الناس فاسقون ، لا يشكرون ، كافرون ، جاهلون ، جاحدون ، لا يعلمون، للحق كارهون. . . الخ .

(٦٩) شرح الأصول ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ المغني جـ ١٢النظر والمعارف ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٧٠) شرح الأصول ص ٦١ المغني جـ١٢النظر والمعارف ص ١٢٣ ، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ .

قضاء على الحاضر والمستقبل باسم الماضي ، وايقاف لمسار التاريخ على إحدى مراحله الماضية فيتحدّب التاريخ وتتقوس حركته ويتحول إلى كهف يغلف الانسان ، ويعيش فيه تحت قبوه ، وكلما ازداد تمسك الانسان بالقديم ازداد التحدب حتى ينهار التاريخ ، ويتخلف الانسان ، ويلفظ أنفاسه خارج المسار ، ويتحول إلى كائن من الحفريات يعيش في طي النسيان . ثم يزداد الأمر سوءاً بتدخل التعصب نظراً لغياب العقل والحس والاتصال المباشر بالواقع فتقع الفتن ويحدث الشقاق. قد تكون النشأة الاجتماعية على دين الأسلاف نقطة البداية ولكنها لا تكون نقطة النهاية بالضرورة نظراً لتطور الوعي ونضج الانسان وادراكه لما يحيط به من أمور ، وما يأخذه من مواقف . فالحياة تسير نحو الأفضل . إن تقليد السلف هو قول بتكافؤ الأدلة نظراً لاختلاف أقوال السلف وعدم وجود مقياس للاختيار بينها أو للتحقق من صدق أحدها . وقد رفض القدماء تقليد السلف بحجة جدلية تقوم على القسمة لمصدر التقليد ، الله أو الرسول أو العقل ، والمصادر الثلاثة تحرم التقليد ، بنص القرآن ، وبنص الحديث ، وبنظر العقل . حتى إذا صعب على الانسان الحصول على اليقين النظري فهناك اليقين العملي ، يقين السلوك القائم على الطبيعة والصالح العام . التقليد إذن ضد العقل النظري وضد العقل العملي على السواء . والانسان قادر بعقله وبعمله الصالح أن يسير وفقاً لهداه[٧١] . التقليد ضد الفطرة ، وانكار لمعطياتها من حقائق وعلوم . والوحي فطري في الانسان . حتى العامي يدركه بنفسه دون نظر ، ببداهة الحس ، وأوليات العقل ، ومعطيات الوجدان . تقليد العامي إذن إنكار لفطرته حتى ولو لم يستطع استعمال مصطلحات العلماء . يمكنه أن يعبر تلقائياً عن تصوره للحياة دون تقليد الغير . المعرفة إذن طبيعية سواء الفطرية منها أو الاستدلالية . والتفكير أي طلب الدليل فطري في الانسان سواء من بلغته الرسالة أو لم تبلغه . تقوم الرسالة على العقل ، والعقل قائم في الانسان قبل أن تأتي الرسالة ، الاستدلال إذن فرض كفاية على من لم تبلغه الرسالة وفرض عين على من بلغته . لذلك جعل بعض القدماء موضوع التقليد

---

(٧١) الفصل جـ ٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٩ أنظر أيضاً الفصل الثامن العقل والنقل .

لفظياً خالصاً لأن جميع الناس لا تعرف عن طريق التقليد بل عن طريق النظر والاستدلال(٧٢) .

وتحريم التقليد ينطبق على كل الموضوعات ، لا فرق بين دينية ودنيوية ، بل من حيث هو موقف في الحياة نظريٌّ أو عمليٌّ لأنه مجرد تبعية واعتقاد جازم بلا دليل . وخطورته في أن المقلد لا يرجع عن تقليده حتى ولو رجع العالم بعد إعماله النظر . تحريم التقليد إذن عام وشامل بصرف النظر عن المقلِّد سواء كان فرداً أم جماعة . بل لقد تجرأ القدماء ، وحرموا تقليد الرسول باعتباره فرداً . أما إذا كان التقليد إتباعاً لدلالة فإنه لا يكون تقليداً . لذلك قبل بعض القدماء تقليد القرآن والسنة القطعية باعتبارها قطعية الدلالة ولو أن ذلك أيضاً خاضع لقواعد اللغة والتفسير . ولا يجوز تقليد الرسول لظهور المعجزة عليه لأن المعجزة ليست دليلاً بل هي نفسها في حاجة إلى دليل من الحس أو العقل أو الوجدان . التقليد هنا لا يتعدى كونه استرشاداً بالتجارب السابقة كقدوة ونموذج ولكن بعد نظر واستدلال . ومن ثم فإنه لا يكون تقليداً(٧٣) . كما يُحرم التقليد على العامي للعالم من حيث هو فرد . أما إذا كان سؤالاً عن دلالة واسترشاداً برأي فإنه لا يكون تقليداً . فالعامي قادر بفطرته على ادراكها . وغالباً ما يكون هذا الاسترشاد عملياً عن طريق القدوة وليس نظرياً . بل ان طريق التطور ومسار التقدم في الغاء هذه القسمة للجماعة إلى عامة وخاصة وهي لا توجد إلا في المجتمعات المتخلفة التي تتسم بأمية الأغلبية وبعلم الاقلية مما يسبب تضليل الأغلبية وحجب الحقائق عنها أو تشويهها ، وشراء الأقلية لحساب الأقلية وهي في الغالب السلطة السياسية، دفاعاً عن مصالحها ضد مصالح الأغلبية وحقوقها .

وبالرغم من سقوط المقدمات النظرية، واختفاء نظرية العلم وضمورها إلا أن رفض التقليد ظل قائماً باعتباره الجانب السلبي في نظرية العلم . فإيمان المقلد لا

---

(٧٢) هو التاج السبكي ، تحفة المريد ص ٣٣ .

(٧٣) المغني جـ١٢ النظر والمعارف ص ١٢٤ - ١٢٦ ؛ شرح الخريدة ص ١٣ ؛ شرح الأصول ص ١٦١ - ٦٣ .

يجوز ، والتقليد ليس مصدراً من مصادر العلم ولا أصلاً من أصوله . كما حرص الفقهاء على نقد التقليد في علم الأصول بفرعيه علم أصول الفقه وعلم أصول الدين . فقد قام الوحي ذاته على البرهان والنظر ولم يكتف بدعوى الرسول ، وبالتالي يكون عدم الاكتفاء بالتقليد أولى. دعا الوحي إلى إعمال النظر وترك التقليد حتى تثبت المسؤولية وتصح المساءلة[٧٤] .

ويتفاوت حكم المقلد بين الايمان والعصيان والكفر على سبيل الاطلاق أو على سبيل التقييد[٧٥] . والحقيقة أن القول بصحة ايمان المقلد وتحريم النظر لم يتبناه إلا القليل لأنه لا يقوم على دليل نقلي أو عقلي . ويخرج على الاجماع الذي يرى أن التقليد إثم وعصيان بشرط وجود الأهلية وهي القدرة على النظر . ولقد أخذ القدماء حكم الوسط لأن التوازن بين التقليد والنظر كان قائماً في حياتهم ، ولم تكن خطورة التقليد ماثلة في حياتهم كما هي الآن ماثلة في حياتنا . أما الآن ، والناس تؤمن بالتقليد ، وتمارسه في حياتها ، ولا تستدل على صحة إيمانها أو تطلب اليقين فيه فإن اعتبار المقلد كافراً أكثر ايقاظاً للناس ، وأقوى صدمة لهم . ان المحك في الحكم هو حالنا الراهن ، ومأساتنا هي التقليد ، وعدم اعمال النظر كحكم شرعي أو كوضع اجتماعي . والحكم بكفر المقلد يعبر عن ضرورة اجتماعية . وقد أصدره القدماء والمحدثون لايقاظ المقلدين وحث الهمم على النظر والاستدلال كما حدث في فكرنا الاعتزالي القديم وفي فكرنا الاصلاحي الحديث ، وهو أقوى من

---

(٧٤) المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ١٢٦ ؛ والآيات التي تدل على رفض التقليد في القرآن كثيرة منها آيات مثل « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (٤٣ : ٢٣). والآيات التي تشير إلى المسؤولية الفردية أيضاً لا حصر لها مثل « كل نفس بما كسبت رهينة » (٧٤ : ٣٨) وكل آيات الكسب وهي ٦٧ آية . أما آيات الدعوة إلى العقل مثل « أفلا تعقلون » أو النظر مثل « أفلا تنظرون » أو البرهان والحجة فهي أيضاً لا تحصى مثل « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٢٧ : ٦٤) .

(٧٥) هناك احتمالات ثلاث : المقلد اما مؤمن غير عاصٍ على الاطلاق لأن النظر شرط كمال وليس شرط وجود أو هو العاصي نظراً لتقييد الحكم بشرط الأهلية للنظر أو هو المؤمن بشرط تقليد الدليل القطعي تحفة المريد ص ٣١ - ٣٢ ؛ الأنصاري ص ٨ ، شرح الخريدة ص ١٣ ؛ شرح العقيدة ص ١٧ - ١٩ .

حكم المكروه لأن طبيعة المرحلة التاريخية التي نمر بها تجعل التقليد أكبر عائق على التقدم وعلى أعمال العقل . ففي المجتمعات الغارقة في التقليد مثل مجتمعاتنا المعاصرة يكون اصدار الحكم على التقليد بالتحريم أقوى صوتاً وأشد ايقاظاً للمقلدين . التقليد مظهر من مظاهر التخلف وأحد أسبابه في آن واحد ، وسبب مباشر لطغيان السلطتين الدينية والسياسية وسيطرتها على رقاب الناس . لا تهم أحكام التقليد من ثواب أو عقاب خارج الدنيا بل الذي يهم فاعليتها لإيقاظ الهمم في هذه الدنيا . للاحكام الشرعية غايات عملية وصدق مادي في الدنيا . ولما كانت حياتنا المعاصرة يغلب عليها التقليد بل وأشنع أنواع التقليد ، تقليد الرؤساء الذين لا هم بالعلماء ولا بالفضلاء ولا الأنبياء ، بل وتعدى التقليد إلى النفاق والمدح وأصبح رياء ومداهنة ، وأصبح الدافع على التقليد ليس طلب النصح والاسترشاد برأي الآخرين بل تحقق مصلحة عاجلة أو درء خطر حقيقي أو متوهم ـ فإن تحريم التقليد واجب قومي وشرعي . وقد كان القدماء على وعي بذلك فأجمعوا على رفضه ، وكانوا أكثر تقدماً مما نحن عليه الآن بدفاعنا عنه واتهامنا لكل من يخرج على التقليد بالخروج والمادية والالحاد والتبعية والعمالة(٧٦) .

٤ ـ **المطابقة في العلم** : وبعد أن رفض القدماء مضادات العلم من شك وظن ووهم وجهل وتقليد لم يبق إلا العلم . ومهما عسر تحديد العلم فإن الإنسان قادر على أن يصل إليه حتى ولو بأبسط الطرق وهو طريق القسمة والمثال مما يدل على أن تأسيس العلم ممكن وأن اقامة نظرية في العلم ممكنة(٧٧) . والعلم عن طريق القسمة والمثال هو أحد طرق العلم المستعملة في علم الكلام إذ تؤدي القسمة إلى التمييز بين المستويات ، في

---

(٧٦) قال بكفر المقلد من المعتزلة أبو هاشم الجبائي ، ومن القضاة ابن العربي ، ومن المصلحين السنوسي اتحاف المريد ص ٣٠ ـ ٣٨ ؛ كفاية المريد ص ١٦ ـ ١٩ ؛ شرح الخريدة ص ١٣ ؛ حاشية العقيدة ص ١٦ ـ ١٨ ، تحفة المريد ص ٣٣ . ومن القدماء قال بتكفير المقلد ابن حزم الأندلسي .

(٧٧) هذا هو موقف امام الحرمين والغزالي . المواقف ص ٩ ؛ التحقيق التام ص ٥ ـ ٦ ؛ شرح المقاصد ص ٢٩ ؛ أشرف المقاصد ص ٢٨ ـ ٣٢ ؛ حاشية العقيدة ، ص ١٦ .

الغالب بين الأعلى والأدنى كما يؤدي المثال إلى القياس والتشبيه ، ومع ذلك فطريق القسمة والمثال ليس منهجاً علمياً يؤدي إلى تأسيس نظرية في العلم ، بل أقصى ما يستطيعه هو التصنيف ، وقياس الشبيه بالشبيه . وعلى هذا النحو تستحيل معرفة « الله » معرفة نظرية لأن الله لا شبيه له وإلا وقعنا في التشبيه لا محالة . وهو ما حدث بالفعل في علم الكلام . حتى التنزيه لم يسلم من التشبيه أو على الأقل من ألفاظه وتصوراته ومعانيه . هذا بالاضافة إلى أن التحديد بالقسمة تحديد خارجي محض وليس تحديداً داخلياً من بناء الموضوع وماهيته . وهو في حقيقة الأمر ليس حداً بل ترتيب وتصنيف وبناء لعلاقات الموضوع مع غيره دون وصف لبناء الموضوع ذاته . وعلى هذا النحو يكون العلم « كل اعتقاد جازم مطابق لسبب » . فيتميز عن الظن والشك وهما ليسا اعتقادين جازمين . كما يتميز عن الجهل وهو اعتقاد جازم غير مطابق . كما يتميز عن التقليد الذي هو اعتقاد جازم مطابق لغير سبب . التعريف عن طريق التصنيف والترتيب وصف خارجي وليس تحليلاً داخلياً لمضمون الشيء . وقد تستكمل القسمة بالمثال ويتحدد العلم حينئذ عن طريق المثال فيقال مثلاً العلم مثل ادراك البصر ، وحدوث العلم مثل حدوث الصورة في المرآة . ولكن المثال أو ضرب المثل ليس حداً تاماً على ما تقول المناطقة بل حد ناقص . وقد لا تكون الصورتان مطابقتين تماماً من كل ناحية . كما قد يُغفل أحد جوانب الصورة أو يُقرّب بين جانبين مختلفين أو يُباعد بين جانبين متشابهين . ليس التشبيه حداً بل هو تقريب للافهام ، ويكون أقرب الى البلاغة والأدب منه إلى المنطق والعلم . والتمثيل على ما تقول المناطقة أقل يقيناً من القياس لأنه يقوم على تشبيه الخاص بالخاص دون منطق البرهان على ما هو الحال في القياس ، وشروط القياس المنتج والفرق بينه وبين القياس غير المنتج . وقد استمر التعريف عن طريق القسمة والمثال في عقليتنا المعاصرة وكما هو واضح في الامثال العامية من قولنا « العلم نور » أو « العلم في الصغر كالنقش على الحجر » أو غيرها من الأمثال .

وقد يُعرف العلم بالمعرفة . فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكلاهما دراية تقوم على سكون النفس .

وهنا يتم التحديد عن طريق التعريف بشيء يحتاج إلى تعريف ، وبالتالي لا يمنع من الوقوع في الدور حيث يكون الموضوع محمولاً ، والمحمول موضوعاً . العلم والمعرفة مترادفان ، وكلاهما يتم في الشعور في نسق عقلي واحد . وكلما كانت المعرفة دقيقة لها منهج وموضوع وغاية كانت أقرب إلى العلم منها إلى مجرد الآراء والنظريات المتناثرة . لذلك كان العلم أو المعرفة واقعاً لكل شيء بشرط الاعتقاد بالشيء على ما هو عليه بالاعتماد على شهادات الحس وأوائل العقول(٧٨) . وقد حدث هذا الترادف في عقليتنا المعاصرة عندما وحدنا بين المعارف والعلوم بالرغم من أن معارفنا لم تتحد بعد في مناهج دقيقة . فنظن أن كل عارف عالم ، وكل عالم عارف مع أن العلم ليس هو المعارف بل بناء نظري يتأسس في الشعور . هو نظرية في العقل وفي الواقع وفي الشعور أكثر منه نتائج ومكتشفات لتطبيقها في الحياة العملية .

ولا يمكن أن يكون العلم هو « اعتقاد الشيء على ما هو به(٧٩) » فقط لأنه إذا كان علماً مطابقاً فقد ينشأ هذا التطابق عن التقليد وليس عن النظر . والنظر منهج العلم وطريقه . لذلك كانت المطابقة في العلم قائمة على الضرورة أو الدليل أي المطابقة مع الحس أو مع العقل . وقد يكون التعريف « معرفة المعلوم على ما هو به » أي مطابقة الحكم للواقع أو كما يقول الحكماء « مطابقة عالم الأذهان مع عالم الأعيان » . الحق والباطل في الاحكام ، والصدق والكذب في الأقوال. والواقع في هذه الحالة ليس هو العلم « الإلهي » أو « اللوح المحفوظ » بل الواقع العريض ، التجربة الانسانية من الحياة ومن التاريخ . العلم « الإلهي » هو الوحي الذي

---

(٧٨) وهذا هو تعريف القاضي أبي بكر والكعبي . الأنصاف ص ١٣ ؛ التمهيد ص ٣٤ ؛ المواقف ص ١٧ ؛ شرح التفتازاني ص ٤١ ؛ تحفة المريد ص ٢٩ ؛ شرح الخريدة ص ١٢ - ١٣؛ شرح الأصول ص ٤٦ ؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ١٦ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٥ .

(٧٩) هذا هو تعريف بعض المعتزلة . المواقف ص ١٠ ؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ١٧ - ٢١ ، ص ٥٢٥ - ٥٣١ ؛ شرح المقاصد ص ١٩ ؛ أشرف المقاصد ص ٢٨ - ٣٢ ؛ التحقيق التام ص ٥؛ شرح التفتازاني ص ١٥ - ١٩ ؛ الانصاف ص ١٣ ؛ التمهيد ص ١٣ ؛ التمهيد ص ٢٤ ؛ الارشاد ص ١٢ ؛ اتحاف المريد ص ١٥ ؛ ص ٢٣ - ٤٠ ؛ تحفة المريد ص ١٦ - ١٧ ، ص ٢١ ؛ شرح العقيدة وحاشيتها ص ١٦ .

تكيف طبقاً للواقع كما هو الحال في « الناسخ والمنسوخ » والذي هو نداء للواقع كما هو الحال في « أسباب النزول »(٨٠) . قد يكون اللوح المحفوظ هو قوانين التاريخ وقد تحققت من قبل أي صدقت في الواقع . العلم البسيط هو المطابقة للواقع ، والعلم المركب هو العلم بهذه المطابقة أي العلم بالعلم . ويكون الجهل البسيط هو عدم المطابقة والجهل المركب هو الجهل بهذه المطابقة . لا يتعلق العلم بالمستحيل ، فالمستحيل ليس شيئاً أي غير ثابت في نفسه والعلم علم بالأشياء ، ومن ثم لا يتعلق العلم إلا بالأشياء الممكنة . والممكن هو الشيء الذي يمكن التحقق من صدقه فإذا كانت معرفة الله مستحيلة فإنها تكون خارج موضوع العلم . فإذا كان العلم هو « معرفة المعلوم على ما هو به » يخرج « علم الله » لأنه ليس معرفة ، ولا يمكن معرفته « على ما هو عليه » ، ولا يمكن ذلك إلا عن طريق التقريب والتشبيه أو طبقاً لقياس الغائب على الشاهد أو طبقاً لتأويل النصوص وهي كلها لا تكوّن نظرية عقلية في العلم . كما يتضمن هذا التعريف نفس الدور السابق وهو أن العلم معرفة ، والمعرفة علم . وهذا يدل على صعوبة تعريف العلم النظري . أما الرؤية المباشرة للواقع ، وحدس الماهيات ، وادراك البداهات ، وهو طريق المطابقة ، فإنه يحدد منهج العلم وليس نظرية العلم مما يدل على أن منهج العلم هو الذي يحدد نظرية العلم كما حدد منهج علم الكلام تعريف علم الكلام . ولا يختلف في ذلك الأشاعرة عن المعتزلة إلا في اتهام المطابقة عند المعتزلة بأنها تجعل العلم شاملاً للتقليد . لذلك أضاف المعتزلة « المطابقة عن ضرورة أو نظر » مع استبعاد العلم بالمستحيلات أو بوجود الله . وهو اعتراض لا يقوم على أساس لأن العلم لا يكون إلا علماً بالممكن وليس بالمستحيل ولأن « وجود الله » ليس موضوعاً للعلم بشخصه بل بعلمه وهو الوحي ، والوحي علم وموضوع للعلم(٨١) .

وكما يرتكز العلم بالمطابقة على أساس نظري في العقل فإنه يقوم أيضاً على

---

(٨٠) أنظر مقالينا « ماذا تعني أسباب النزول ؟» ، « ماذا يعني الناسخ والمنسوخ ؟ » ، في قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(٨١) عند الجبائي العلم « اعتقاد الشيء على ما هو به عن ضرورة أو دلالة » . انظر أيضاً الارشاد ص ١٣ ، شرح الأصول ص ٤٦ ـ ٤٨ ؛ الشامل ص ٤٣٠ .

أسـاس شعوري في النفس ، وبـالتالي تـظهر الصفـات أو المعاني العقليـة في النفس حتى تتمايز وتتضح . وفي هذه الحالة يكون العلم «صفة توجب لمحلها التمييز بين المعاني لا يحتمل النقيض »(٨٢) . العلم موضوع أي صفة ومعنى متميز عن غيـره . العلم هو المعنى القائم بالنفس والقادر على التمييز بين المعاني المتنـاقلة . العلم علم للمعاني ومنهجه الايضاح ، وكل نقيض له هو نقص في التمييز(٨٣) . ترتبط الصفـة بالنفس ، ويصبح العلم هـو ما يحـدث في النفس من الواقـع من خلال التجـربة . ومن ثم لا يمكن اخراج الحواس من المعاني فالحـواس طريق الحصـول على المعـاني، والتجارب موطن لها. العقل هـو الرصيـد النهائي للمعـاني ولكن المعاني تنشـأ من التجارب الحية في العالم. لا تتحقق المعاني الكليـة إلا في تجارب جـزئية. التقـابل بين الكل والجزء تقابـل في المنطق الصـوري لا وجود لـه في تحليل التجـارب الحية لادراك معـانيها المستقلة. لا يـظهر المعنى إلا في مـوقف، والمـوقف لا يمكن إلا أن يكون موقفاً انسانياً خاصاً قد يتكرر بعد ذلك في الزمان والمكان. وعـلى هذا النحـو يكـون العلم هو الـذي يوجب كـون من قام بـه عالمـاً(٨٤) . فرغمـاً من قيام هذا التعريف على الدور، تعريف العلم بـالعالِم الآن يـظهر المـوضوع من خـلال الذات نظراً لأنه لا وجود لعلم بلا عالم. فإذا غاب العالم غـاب العلم . مما يشـير إلى أهمية العلم في الصدور وأهمية موقف العالم. صحيح أن العلم بناء نـظري، لكنه مـوجود في شعور العالم، ويتحدد ببنائه، ويتحقق ببواعثه . فالبناء النظري للعلم لا ينفصـل عن تحققه العملي. لذلك ارتبط العلم بالعلماء. إذا حضر العلماء حضر العلم، وإذا غاب العلماء غـاب العلم. إذا فسد العلمـاء انهار العلم، وإذا صلح العلمـاء قام العلم. ترتبط إذن الصفة أو الحال بالإنسان هل هما نفسه أم غيره أم لا هما نفسه ولا غيره بصرف النظر عن ارتباطها بالصفات والأحوال «الإلهيـة» فإنها تعبـر عن البناء

---

(٨٢) هذا هو تعريف الايجي ، المواقف ص ١١؛ انظر أيضاً المغني جـ ١٢ النـظر والمعارف ص ٩؛ ص ١٣ ، ص ٢٦ ـ ٣١ الشامل ص ١٠٩ ، التحقيق التام ص ٤ .

(٨٣) أنظر رسالتنا الجزء الخامس عن منهج الايضاح L'Exégèse de la Phénoménologie p.

(٨٤) هذا هو تعـريف الاشعري ، بنـاء على حـديث « إن الله لاينتزع العلم انتـزاعاً ولكنـه ينتزع العلم بانتزاع العلماء » المواقف ص ١٠ ، مقالات الاسلاميين جـ ٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الإنساني والاجتماعي لنظرية العلم، دور العلماء في تأسيس العلم[85].

وبالاضافة إلى وجود العلم كحالة للشعور كما يركز المعتزلة إلا أنه أيضاً صفة ومعنى كما يركز الأشاعرة[86] . والحقيقة أن كون العلم حالاً لا يقضي على موضوعية العلم . فالعلم علم بالدليل . وبالتالي لا خوف من الوقوع في الذاتية النسبية . يظل النظر الصحيح حالاً مختلفاً عن النظر الفاسد ولا سبيل إلى التماثل بين الحالين . النظر حال للناظرين . وهناك فرق بين تصور العلم وحصوله . فقد يتصور المؤمن الإيمان دون أن يكون مؤمناً . التصور عقلي وحصوله نفسي . ويدل الدليل بصيغته النفسية ويمحو كل شبهة . الدليل أيضاً دليل وجداني . فإذا كان الدليل هو ما يتوصل إليه بصحيح النظر فإن السبيل المفضي إلى العلم بوجوب النظر « اختلاج الخواطر في النفس القارّ من الجائزات في الحدس » . النظر علم شعوري . لذلك كان العلم صفة للحي أي حالة له وصفة للعالم . تعريف العلم إذن « اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس إليه » . فإذا كانت الصفة للكائن الحي فالحياة شرط العلم إذ لا علم للأموات وللجمادات . والصفة هي التي يمكن ادخالها بعد ذلك في منطق اليقين تصوراً وتصديقاً . فسواء كانت نقطة البداية الحالة أو الصفة فكلتاهما تنتهي إلى تحليل العقل . ويبدو أن اثبات العلم كصفة هو انعكاس لمسألة الصفات في « الإلٓهيات » حين أثبت الأشاعرة الصفات وأثبت المعتزلة الأحوال . كما أن المسألة انعكاس للطبيعيات فاثبات الصفة موجه ضد نفاة الأعراض والذين يعتبرون الصفات أجساماً .

وقد ارتبطت نظرية العلم أيضاً بالعمل والممارسة . فإذا كان العلم حالة

(٨٥) وهو التعريف الذي بقي في الحركات الاصلاحية الحديثة . إذ يضيف محمد بن عبد الوهاب إلى الحديث السابق « سبب فقد العلم موت العلماء » كتاب التوحيد ص ٤٦ ويذكر أيضاً « البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى بل لا نزاع عليه . طائفة الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خالفهم. حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين» كتاب التوحيد ص ٤٦ ص ٦٤ .

(٨٦) يعرف أبو هاشم العمل بأنه «اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس إليه» ويقول القاضي عبد الجبار «لأن كثيراً من الأمور لا يمكن بيانه إلا بالرد على النفس» المغني جـ ٦ التعديل والتجوير ص ٢٢٦ .

شعور فالارادة أيضاً حالة شعور ومن ثم يكون الشعور مصدر العلم والارادة معاً ومنبع النظر والعمل سواء . وقد يُرمز لهذا التوحيد أيضاً في الذات المشخصة في الإلهيات عندما يُوحد فيها بين العلم والارادة . يشمل العلم القدرة . فعل النظر وفعل الاتقان كلاهما مكونان للعلم . لذلك فضل البعض جعل العلم « ما يصح ممن قام به اتقان الفعل » وبالتالي تدخل القدرة على تحقيق العلم . ولا يمكن الاحتجاج على هذا التعريف بعلم الانسان بنفسه وبالله فذاك أيضاً ممكن التحقيق ، إذ يحقق الانسان ذاته بتحقيقه رسالته وغايته في الحياة ، ومشروع عمره كما يحقق الانسان علمه بالله عن طريق تحقيق مقاصد الوحي في العالم ، وتحويل الوحي إلى نظام مثالي للعالم ، وتحويل العقيدة إلى شريعة ، والتصور إلى نظام . فالتوحيد ليس نظراً فقط بل عمل أيضاً ، إدراك وسلوك ، فكرة وفعل[87] .

أما تعريف العلم بأنه « اعتقاد جازم مطابق لموجب »[88] فإنه يخرج التصور من تعريف العلم لأن التصديق هو الذي يطابق أو لا يطابق . كما أن الجزم في الاعتقاد قد يحيله إلى تعصب وهوى ورفض للحوار ، وإذعان للمعارض ، والتوقف عن التغير والاتساع طبقاً للقرائن الجديدة . العلم ليس اعتقاداً جازماً بل معرفة نظرية مفتوحة . لذلك عرف الحكماء العلم بأنه « حصول الشيء في العقل » أو « تمثل ماهية المُدرَك في نفس المُدرِك »[89] . وهو تعريف صوري خالص يقوم على اثبات الوجود الذهني للأشياء وتحويلها إلى صور ومعقولات ، وينكر دور الحس والمشاهدة والتجربة بل وينكر وجود الأشياء المادية ذاتها والتأثير عليها وتحريكها وتغييرها والعيش معها ، ورؤيتها رؤية مباشرة . هو تعريف تطهري خالص يقوم على عالم المعقولات كبديل عن الإيمان ، كما أنه لا يبين مستوى اليقين

---

(٨٧) هذا هو تعريف ابن فورك ، المواقف ص ١٠ ؛ أنظر أيضاً الأصول ص ٦ .

(٨٨) هذا هو تعريف الرازي ، المواقف ص ١٠ ؛ التحقيق ص ٥ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣ - ١٩ ، ص ٣٣ ؛ الارشاد ص ١٢ - ١٣ ؛ الأصول ص ٥ - ٦ ؛ شرح المقاصد ص ٥٥ - ٥٧ ؛ المقاصد ص ٥٤ - ٥٦ ؛ الشامل ص ١٢٢ - ١٢٣ ؛ طوالع الأنوار ص ٣١ .

(٨٩) هذا هو تعريف الحكماء ، المواقف ص ١٠ - ١١ ؛ المقاصد ص ٢٨ - ٣١ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢١ ، التحقيق التام ص ٤ - ٥ .

في هـذا الإدراك ، هل هـو الشك أم الـظن أم الوهم أو الجهـل أو التقليـد . فقـد تحصل الصور في النفس باحدى هذهالمراتب في اليقين، وقد تكون علماً وقد لا تكون علماً ، قـد تكون صـورة ذهنية وقـد تكون تخيـلاً . فبالـرغم من أن تعـريف العلم بالمطابقة يشير إلى الذهن فإن التطابق يكون مع وجود الأشياء في الذهن ، أي تطابق العقـل مع نفسـه . العلم هنا بنـاء الذهن أو صـورة الشيء في العقل وبـالتـالي لا يختلف العلم عن باقي مكونات الحياة العقلية من تخيل وتذكر. ونظراً لهذه الصـورية في تحديد العلم فقد يعني العلم أيضاً عدم النقيض طالما أن التحليل الصـوري يقوم عـلى الاتساق . والنقيض يحـدث في العلوم الجـزئيـة ولكن مـطلق العلم لا نقيض فيـه . وإذا كان هـذا التحديـد العقلي للعلم يتجـاوز الانـطبـاع الحسي والسكـون النفسي فإنه يصل إلى تحليل المعاني الكلية الخالصة . والحقيقة أنه لا يتحدد العلم بهذا المستوى الصوري الخالص إلا بعد نشأة العلم في الشعور ثم تحويل منـاطق الشعور إلى « انطولوجيا » خالصة . حينئذ يمكن الاستغناء عن العالم الحسي والتجربة الحيـة وأفعال الشعور . ولا تجعـل المطابقـة مع الذهن العلم مجـرد صورة بـل هو معنى أو صفة أو موضوع . وهو ما سيصبح في علم أصول الدين المتأخر نظرية في المنـطق ، تصوراً وتصديقاً ، فإذا ما أحدث العلم انكشافاً في الشعور فإنـه يتحول بعـد ذلك إلى قضايا عقلية .

تتجـه التعريفـات السابقـة كلها نحـو المطابقـة . وتظهـر المطابقـة في العقـل وبـالشعور ومـع الواقـع . لذلـك تفاوتت حـدود العلم في ثـلاث : المـطابقـة مـع الواقع ، والمطابقة في العقل ، والمطابقة في النفس . المطابقة مع الواقع تمنع أن يكون العلم وهماً أو خيالاً . والمـطابقة في العقـل تجعل العلم متسقـاً مع نفسـه قائـماً على البرهان ، والمطابقة في النفس تجعل العلم تمثلاً واعتقاداً ويقيناً . العلم إذن مـطابقة الشعور مع نفسه أو هو سكون النفس وتوطينها واطمئنانها وذلك لأن العقل والواقع مجالان للشعور وقطبان لـه . العلم في الشعور ، والشعـور مركـز اللقاء بـين العقل والواقع . لم تجد التعريفات السابقة للعلم بالمطابقة في العقـل ومع الواقـع مناصـاً من التعرض لأفعال الشعور في صورة أنماط للاعتقاد وعمليات التـوضيح والبيـان . فأصبح العلم هـو الاعتقاد الجـازم أو التبيين والاستبصـار أو الفهم والفقه والفـطنة

والاحـاطة والادراك حتى يصـل في النهـايـة إلى سكـون النفس والاطمئنـان إليـه . فالعلم أوسع نطاقاً وأشمـل من المطابقـة مع الـواقع فحسب . إذا وقـع العلم بعد الشك كان التبين والتحقق والاستبصار . وإذا كـان عملاً للعقـل سمي فهماً وفقهـاً وفطنة . قد يكون العلم هو العقل أو الاحاطة أو الوجود طبقاً للحظة العلم وبنـائه في الشعور . ولا يدخل هنا مـوضوع العلم ، القـديم أو المستحيلات ، بـل أفعال الشعـور المؤدية إلى العلم . ولا يعني وجـود العلم في الشعـور إتجاهـاً سلبيـاً أمـام الأشياء ، مجرد الحصول على انطباعات حسية منها وأن الشعور لا يكـون إلا محصلاً مكتسباً مستقبِلاً بل هو اتجاه ايجابي نحوها لانارتها وادراك دلالتها وتعقيلها وتنظيرهـا وفهمها . يشمل العلم سكـون النفس بالنسبـة لشيء ما مـع ادراك دلالته . الشعـور موطن السكون ، والواقع به الأشياء ، والـدلالة يحللهـا العقل . وعـلى هذا النحـو يحمي العلم نفسـه أولاً من الوقوع في الصورية والتجريد لارتباطه بـالشعـور الحي وبالواقع الملموس ، كما يحمى نفسه ثانياً من التجريبية الفجة لارتباطه أيضاً بالشعور الحي وبالعقل . كما يحمى نفسه ثالثاً من الـوجدانيـة الانفعاليـة الخالصـة لارتباطـه بالواقع الحسي وبالعقل النظري . للعلم إذن كيانه الـذاتي والموضـوعي ، الصوري والمادي بفضل بنائه الشعوري .

ثالثاً : أقسام العلم :

١ ـ العلم الانسـاني : كما أن تعـريف العلم لا يكـون إلا للعلم الانسـاني فـالـعـلم الإلـهـي لـيس صـفـة مـشـخـصـة لـلذات بـل هـو الـوحـي المـنـزل الـذي أصبـح عـلمـاً إنـسـانـيـاً بـمـجـرد كـتـابـتـه وقـراءتـه وفهمـه وتفسيـره فكـذلـك أقسـام العلم لا تكـون إلا للعلم الانسـاني إلى ضروري ومكتسـب أو إلى تصـور وتصديق أو إلى بـديهي واستـدلالي . لا يُقسم العلم إذن إلى إلٓهي وإنساني ، قديم وحادث ، علم خالق وعلم مخلوق فهذه قسمة دينيـة تقوم عـلى التشخيص بالنسبـة إلى العلم الإلٓهي وعلى احتقـار الـذات بـالنسبـة إلى العلم الانساني . كما أنها قـد تقوم عـلى التملق والمداهنـة والنفاق فتجعـل العلم الانساني محـدوداً والعلم الإلٓهي غير محـدود وتكون غـايـة الانسـان التقـرب إلى الله وسؤالـه

العطاء المعرفي أولاً ثم الشيئي ثانياً . الأول ينقسم إلى ضروري واستدلالي في حين أن الثاني لا ضرورة فيه ولا استدلال لأنه يتعالى على ذلك ويجاوز هذه القسمة. ويصل حد احتقار الذات إلى وضع العلم الانساني مع علم الحيوان ! كما يصل حد التملق إلى وضع العلم الإلهي مع علم الملائكة والجن !.

والحقيقة أننا لا نعلم إلا علماً واحداً هو العلم الإنساني. ولا ندري عن علم الحيوان إلا ما يعلمه الانسان عن الحيوان . ولا ندري عن علم الملائكة أو علم الجن إلا ما يعلمه الانسان عن هذه العلوم بعد اثبات وجود مثل هذه المصادر للعلم . ولا نعلم عن « علم الله » إلا ما هو موجود في كتاب مدون بلغة معروفة وبعقل يفسر ويفهم ويعقل ويتمثل ويحقق وهو الانسان المكلف . لا يوجد إذن في هذه العلوم الثلاثة ، لو وجدت ، الا العلم الانساني كطريق لها . نحن لا نعلم عن هذه العلوم الثلاثة شيئاً إلا من خلال العلم الانساني . وقد تكون أدخل في مضادات العلم في الشك أو الظن أو الوهم أو الجهل أو التقليد منها إلى العلم . فهي اعتقاد جازم غير مطابق أو هي اعتقاد جازم مطابق من غير سبب . لا يمكن الحديث عن علم الملائكة أو علم الجن لأنه ليس لدينا تجارب عن هذه العلوم .وعلم الحيوان أقرب إلى لغة التخاطب منه إلى علم يقوم على التصورات والتصديقات ، ويعتمد على النظر والاستدلال . ولا يُقال إن هذه العلوم الثلاثة مذكورة في القرآن[٩٠] وذلك لأن الوحي بمجرد نزوله يصبح علماً إنسانياً ، ويتحول بمجرد قراءته وفهمه إلى علوم إنسانية مثل علوم القرآن وعلوم التفسير وعلم القراءات وعلوم أخرى جزئية متضمنة في علوم القرآن مثل علم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم المكي والمدني ، وعلم المحكم والمتشابه . . . الخ . وذلك من حيث التدوين أو التفسير . أو يتحول إلى علوم عقلية شرعية مثل علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلوم الحكمة، وعلوم التصوف. أو يتحول إلى علوم عقلية خالصة مثل العلوم الرياضية والطبيعية أو إلى علوم إنسانية خالصة مثل علوم

---

(٩٠) وهي القصة المذكورة في القرآن عن منطق الطير الذي علمه سليمان وكذلك اشارات عديدة إلى أن الجن يعلم ويريد ويستمع إلى القرآن .

الجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب[٩١] . العلم إذن ليس قديماً أو حادثاً بل هو العلم الانساني الذي ينشأ في الشعور ، يحلله العقل ، ويصدقه الواقع . هو حادث بحدوث الشعور وقديم بقدم الشعور إذا كان مختزناً فيه واستدعته الذكريات أو إذا كان مسلمات في العقل لم ينشأ من التجربة في مقابل العلم الحادث الذي ينشأ من التجربة أو إذا كان « انطولوجيا » خالصة تكشف عن مناطق مثالية للشعور أو أنماط نموذجية فيه . العلم القديم هو الذي يعتمد على التاريخ وعلى المعلومات المتراكمة وعلى خبرات الماضي ، أما العلم الحادث فينشأ في العصر ويحدث في الجيل . إن افتراض أن علومنا محصورة في مقابل علوم « إلهية » لا يمحوها حصر مزايدة دينية وقول مجاني لا يهدف إلا إلى الاعلان عن الذات ولا يعبر إلا عن إيمان طفولي ، ولا يهدف إلا إلى السيطرة على العامة وفرض الوصاية عليها وذلك لأنه فوق كل ذي علم عليم ! والعلم الانساني في حقيقة الأمر ليس محصوراً ولا محاصراً فالعقل قادر على إيجاد أنساق شاملة يضع فيها موضوعاته كما أن الشعور قادر على رؤية المعاني والدلالات كماهيات مستقلة . والواقع نفسه عريض ومتسع وشامل ، يعطي وقائع لا حصر لها كحوامل للمعاني . وإن فكرة وجود علم غير محدود فكرة إنسانية خالصة لها وظيفة معرفية في الاستمرار في البحث ، والاستكشاف المستمر لقوانين الطبيعة ، ورفض الجمود المذهبي والقول النهائي في العلم[٩٢] .

٢ ـ العلم بديهي ضروري أو استدلالي نظري؟ لما كان العلم «القديم» افتراضاً محضاً خارجاً عن نظرية العلم[٩٣]، وهو أحد صفات الله التي لم تدخل بعد كموضوع للعلم، فالعلم لم يتأسس بعد، لم يبق إلا قسمة العلم الإنساني إلى علم ضروري بديهي فطري ، وعلم استدلالي نظري مكتسب . الأول علم اضطراري يجده الانسان بنفسه ، ويشعر به دون أدنى شك ودون أن يستطيع له دفعاً . يأتي الانسان

---

(٩١) أنظر « التراث والتجديد » . الخطة العامة لمشروع التراث والتجديد ص ٢٠٣ ـ ٢٠٩ .

(٩٢) الانصاف ص ١٤ ؛ التمهيد ص ٣٥ ؛ الأصول ص ٨ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ الارشاد ص ١٣ ؛ التحقيق ص ٧ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٩٣) ولهذا أخرج صاحب المواقف قسمة العلم إلى قديم وحادث من نظرية العلم وقسمته ؛ شرح الأصول ص ٥٠ ـ ٥١ .

مهاجماً له ولا يمكن الشك فيه . أما الثاني فإنه يحتاج إلى روية وتدبر ، ويقوم على فكر وطريقة للنظر ، ويعتمد على الحجة والبرهان . يمكن الشك فيه ثم الانتقال فيه من الشك إلى اليقين . لا يقع العلم الضروري بفعل قدرة خارجية بل يحدث من طبيعة النفس وبقدراتها الخاصة . ولا يحدث العلم الاستدلالي بقدرة خارجية كذلك بل هو كسب للإنسان بإعمال الجهد والنظر . وإذا كان الانسان لا يحتاج في العلم الضروري إلى جهد واعمال نظر فإنه يحتاج في الاستدلالي إلى الجهد والنظر[٩٤] . وقد يسمى العلم الضروري العلم البديهي ويعني ما لا يقترن بنفع أو ضرر أي المعرفة الخالصة في حين أن المعرفة الضرورية قد تقترن بنفع أو ضرر لأنها المعرفة الحسية المباشرة ، والوجدانية التلقائية التي قد تؤدي إلى اللذة والألم والتي قد ينتج عنها الفرح والحزن . وقد يكون البديهي أخصّ من الضروري إذ أن البديهي أقرب إلى المعرفة العقلية الخالصة في حين أن الضروري يشمل الضروري الحسي والعقلي معاً ، المادي والصوري في آن واحد[٩٥] . وكما يكون الضروري بديهياً يكون الإستدلالي مكتسباً. العلم الضروري فطري ، والعلم الاستدلالي كسبي . وقد آثر القدماء لفظ الضروري على لفظ الفطري فليس المهم «نشأة» العلم بقدر وجوده .

ولكن إلى أي حد تكون هذه القسمة فاصلة حادة بين العلمين ؟ ألا يوجد علم ضروري فطري بديهي يكون في نفس الوقت ، على الأقل في نشأته ، مكتسباً من التاريخ وتراكم المدركات الحسية ، ومحاولات الصواب والخطأ التي عبر بها الفرد وتتالت على الجماعة والتي تحدد في النهاية تصورات العالم وخصائص الشعوب ؟ «أنا حر» تجربة ضرورية ولكن أكتسبها كل يوم بالممارسة حتى تتحول عندي إلى علم ضروري[٩٦] . والعلم الفطري ليس فردياً فحسب بل هو علم جماعي وتاريخي يظهر في الأمثال العامية ، وحكمة الشعوب ، وهي فطرة الناس التي تتراكم ، وتتوارثها الأجيال[٩٧] . وإذا كان كل علم كسبي هو علم نظري استدلالي فالكسب

---

(٩٤) الانصاف ص ١٤ ؛ التمهيد ص ٣٥ ؛ المقاصد ص ٣٤ .

(٩٥) الارشاد ص ١٣ - ١٤ ؛ التحقيق ص ٦ - ٧ .

(٩٦) الأصول ص ٨ ؛ الارشاد ص ١٣ - ١٤ ؛ شرح التفتازاني ص ٤٠ - ٤١ .

(٩٧) وهو ما يسميه القرآن فطرة أو صبغة في عديد من الآيات مثل « صبغة الله ومن أحسن من الله =

لا يأتي إلا بالنظروالاستدلال. ألا يمكن للكسب أيضاً أن يأتي من الحس والمشاهدة والتجربة والعادة؟[٩٨] . وقد يمتد السؤال إلى بناء العلم كله متوجهاً إلى هذه القسمة الحادة الفاصلة فيكون: هل يمكن أن تتحول العلوم الضرورية إلى استدلالية والعلوم الاستدلالية إلى ضرورية؟ ليس السؤال من الفاعل، هل هو فاعل خارجي «الارادة الإلهية» إذ أنها لا تثبت إلا بعد تأسيس نظرية العلم أو بفعل داخلي في الشعور نتيجة النشأة والتكوين في نظرية العلم، وهو أمر ممكن إثباته؟ مما لا شك فيه أن الحد الفاصل بين العلوم الضرورية والعلوم الاستدلالية صعب المنال إذ لا يمنع العلم الضروري من نظر إذ تختلف الضروريات في الوضوح والخفاء . لذلك يمكن تصور كل علم ضروري علماً استدلالياً وكل علم استدلالي علماً ضرورياً[٩٩] . ولما كان العلم الضروري هو الأساسي فيمكن للعلم الاستدلالي أن ينقلب إلى ضروري دون أن ينقلب العلم الضروري إلى استدلالي بالضرورة . الحقائق المطلقة ضرورية ، والحقائق الانسانية قد تكون ضرورية أو استدلالية . وإذا كانت ضرورية تصبح حقائق مطلقة . ولكن لا يمكن أن تصبح الحقائق المطلقة استدلالية وإلا كانت حقائق إنسانية عرضة للخطأ والصواب[١٠٠] . وهناك شواهد عديدة تثبت وجود علم ضروري في أمور يُظن أنها استدلالية مثل وقوع الحوادث على وتيرة واحدة ووفقاً لقانون أو نظام لا يعني أنه علم نظري بل قد يكون علماً ضرورياً مطرداً في الطبيعة البشرية . أو مثل حدوث المعرفة الضرورية طبقاً للدواعي والمقاصد فهي أدعى إلى أن تكون ضرورية منها إلى نظرية . لا يوجد إذن حد فاصل بين المعرفة الضرورية والمعرفة الاستدلالية . فإن ما يعرفه البعض ضرورة قد يعرفه الآخر استدلالاً ، وما يعرفه البعض استدلالاً قد يعرفه البعض الآخر ضرورة . هذا بالاضافة إلى أن العلوم الضرورية هي المبادىء

= صبغة » (٢ : ١٣٨) ؛ « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » (٣٠ : ٣٠) .

(٩٨) التحقيق ص ٦ ـ ٧ ؛ المقاصد ص ٣٣ .

(٩٩) لذلك يضع البغدادي ضمن العلوم النظرية الاستدلالية العلوم بالتجارب والرياضيات كعلم الطب في الأدوية والمعالجات وكذلك العلم بالحروف والصناعات . الشامل ص ١١١ .

(١٠٠) الأصول ص ١٤ ـ ١٦ .

اليقينية التي يقوم عليها العلم الاستدلالي . فهما لا يكوّنان نوعين من العلوم بل هما درجتان للمعرفة وفعلان متمايزان للشعور(١٠١) .

وقد تحولت هذه القسمة للعلم إلى ضروري واستدلالي في علم الكلام المتأخر إلى قسمة منطقية نظراً لسيادة علوم الحكمة على علم أصول الدين ، ونظراً لأن المنطق في علوم الحكمة آلة للعلوم وبالتالي فهو يعادل نظرية العلم في علم أصول الدين . فالعلم اما تصور أو تصديق . التصور هو العلم الضروري البديهي ، والتصديق هو العلم الاستدلالي الكسبي(١٠٢) . التصور بديهي لأنه « مشعور » به قبل طلبه ، والتعريف بالماهية تعريف للشيء بنفسه أو تعريف يستلزم تعريفاً آخر يقوم على تصور . فإما أن نقع في الدور أو نسلم بوجود تصورات بديهية ليست في حاجة إلى تعريف . لا يطلب التصور إذن لأنه بديهي ، وإذا طلب تصور للنفس أو للروح فإنما ذلك تفسير لفظ أو طلب برهان وكلاهما تصديق . وعلى هذا النحو قد يصبح العلم الضروري هو تعريف مطلق العلم(١٠٣) . ويظل السؤال الأول قائماً : هل يوجد تصور كسبي استدلالي نظري وهل يوجد تصديق ضروري بديهي فطري ؟ قد تحتاج بعض التصورات إلى نظر مثل الجزء والكل ، والوجود والعدم كما تحتاج بعض التصديقات إلى استدلال مثل وجود الله . وقد لا تحتاج بعض التصديقات إلى استدلال إذا أمكن تصور المقدمتين معاً والانتهاء إلى النتيجة مباشرة . هناك إذن تصوران : تصور بسيط ساذج وتصور يتضمن تصنيفاً . كما أن هناك تصديقين : تصديق بسيط ساذج ، وتصديق يقوم على أحكام متتالية . هناك تصور بسيط وآخر مركب ، وتصديق بسيط وآخر مركب . والحقيقة أن التصورات والتصديقات ليست مقولات مستقلة للعلم بل أفعال للشعور تتفاوت بين البساطة والتركيب . وقد تكون بعض التصورات

---

(١٠١) هذا هو رأي أبي القاسم البلخي ، فما يعرف استدلالاً لا يعرف إلا استدلالاً وما يعرف ضرورة لا يُعرف إلا ضرورة . شرح الأصول ص ٥٧ ـ ٦٠ .

(١٠٢) هذا هو موقف الرازي ، المواقف ص ١١ ـ ١٢ .

(١٠٣) المقاصد ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ص ٣٥ ـ ٤٠ ؛ شرح المقاصد ص ٣٣ ؛ اشرف المقاصد ص ٣١ ـ ٣٢ ؛ المحصل ص ٣ ـ ٥ ؛ المعالم ص ٥ .

السمعيـة كسبية مثـل « الجن » و« الملائكـة » . وفي هذه الحـالة يجب أن تتفق مـع شهـادة الحس وبداهـة العقل والـوجدان ، وبـالتالي تـرجـع إلى الضـروريـة . أمـا التصديقات البديهية فهي إدراكات حسية يمكن الاستدلال عليها مثل قوانـين الفكر الأولية[١٠٤] . قسمة العلم إذن إلى تصور وتصديق قسمة منطقية أي صورية خالصة تجعل العلم مجرد تصورات وأحكام مع أن التصورات نفسها تنشأ من طبيعـة الذهن وهي البديهيات والأوليـات ، والبعض الآخر ينشـأ من الحس والمشاهـدة . التصور أحد مراحل بناء العلم . أمـا الأحكام فبعضهـا فطري ضـروري وبعضها مكتسب نـظري ، قد تصـدر بالعقـل وقد تصـور بالـوجـدان وقـد تكـون نتيجـة للعـادات الاجتمـاعية . تنشـأ التصورات في مـواقف إنسانيـة معينة وتتحكم في التصـديقات البواعث والمصالح . لا يوجد إذن بناء منـطقي صوري خـالص . وقد تبلغ قسمـة المنـطق إلى تصـور وتصـديق من الأهميـة بحيث تصبـح هي ذاتهـا نـظريـة العلم . وتصبح نظرية المنطق الجامع بين علم أصول الدين وعلوم الحكمة ، ويكون التمييز بين التصور والتصديق هو الحكم المنطقي إثباتاً ونفياً . وهنا لا يكون المنـطق منطقـاً بل بحثاً في المبادىء العامة أي في أوليات العلم[١٠٥] . والحقيقة أن قسمة العلم إلى ضروري واستدلالي إنما ترجع في نهاية الأمر إلى شهادة الحواس ومعطيات الوجـدان أي إلى الرؤ ية المباشرة للواقع وإدراكه ابتداء من مقاصد الوحي وقياس المسـافة بـين الواقع والمثال فالرؤ ية المبـاشرة للواقـع والتنظير لـه هي أساس العلمـين الضروري والاستدلالي .

٣ ــ اثبات العلم الضروري : العلم الضروري هو العلم الفـطري البديهي الذي يعتمد على الحس والعقل والوجدان . يجده كل إنسـان في نفسه دون تعلم أو تكسب مثـل الحسيات والبـديهيات والـوجـدانيـات . هـو مـوجـود في استعـدادات الفـطرة . ولا يمكن القول في هـذه المرحلة من تـأسيس العلم إنـه من خلق « الله » لأن الله لم يثبت بعد ولم يظهر بعد كموضوع في بنـاء العلم . فما زال الحـديث قائـماً

(١٠٤) المعالم ص ٣ ـ ٤ ؛ شرح المقاصد ص ٣٥ ؛ التحقيق ص ٦ ـ ٧ .

(١٠٥) هذا هو موقف الرازي ، المحصل ص ٢ ـ ٣ ؛ التلخيص ص ٣ ؛ المعالم ص ٣ .

عن امكانية قيام نظرية في العلم . لا يمكن إذن جعل العلم كله نظرياً بدعوى خلو النفس من الأفكار الضرورية وحدوث العلوم كلها من خلال الكسب لأن نقصان الاستعداد لا يعني غياب العلم الضروري(١٠٦) . ولا يزول العلم الضروري بالغفلة والنوم لأن الحياة واليقظة والوعي شروط للعلم . فإن لم تحدث المعرفة الضرورية عند شخص ما فإن ذلك قد يعني أن شعوره كان غافلاً أو أنه قد فقد التوازن بين مستوياته وفقد القدرة على البيان والإيضاح . وإن عدم وجوده عند البعض لا يعني عدم وجوده مطلقاً. ولا يعني اختلاف العلماء فيما بينهم انتفاء العلم الضروري بل تعني فقدان الشعور شروطه كالحياة أو التجرد أو التوازن . فالعلم الضروري عام ومشترك بين العقلاء جميعاً ، واختلافهم لا يدل على انتفائه بل قد يشير إلى وجود بعض معارف موروثة تمنع من حدوث المعرفة الضرورية . كما لا تعني ضرورة الشك وأوليته على المعارف الضرورية نفيها لأن وظيفة الشك في نقد الموروث وتأسيس اليقين وإثبات المعارف الضرورية . فإذا ما توافرت الشروط العادية له وُجد العلم . إذا وُجد إنسان يحيا له حس وعقل وقلب يكون له بالضرورة علماً ضرورياً ، شهادة الحس ، وأوائل العقول ، وبداهات الوجدان .

فالعلم الضروري هو القائم على الحس والمشاهدة وتعني أصلاً حاسة البصر ثم امتدت حتى شملت الحواس الخمس عند القدماء . فلا يمكن إنكار ضرورة الحس دفاعاً عن ضرورة العلم النظري بحجة أن الحس لا يمكن أن يكون مصدراً للحكم على الكليات إلا عن طريق الافتراض والاطراد والتعميم . كما أن الحس قد يقع في الخطأ في إدراك الجزئيات إذ نرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، ونشعر بالحار بارداً وبالبارد حاراً ، ونرى الثلج أبيض وهو ليس كذلك كما أن الحس لا

---

(١٠٦) ترفض بعض الجهمية العلم الضروري وترى أن كله نظري . فالنفس خالية من كل علم . ولا يوجد علم فطري ثم يحصل العلم بالتدريج عن طريق الكسب . وهو أيضاً رأي ابن حزم عندما يظن أن النفس عند الولادة لا تعرف شيئاً ثم تنشأ المعارف من خلال الحواس . الفصل جـ ١ ، ص ٥ ـ ٧ . أنظر أيضاً المواقف ص ١١ ـ ١٤ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٩ ؛ شرح الأصول ص ٥١ ـ ٥٢ ؛ شرح التفتازاني ص ٤١ .

يميز بين الأمثال(١٠٧) . وكذلك يرى الانسان صعوبة في التفرقة بين النوم واليقظة. والحقيقة أن الاطراد أساس القانون العلمي ، والتعميم يقين عقلي تندرج تحته كل الجزئيات . أما خطأ الحواس في إدراك الجزئيات فإنه لا يحدث إلا إذا تجاوز الحس امكانياته ، ولم تتحقق شروط الادراك مثل مسافة الرؤية ، واعتدال المزاج ، والشعور المحايد . واليقين الحسي لا يقل عن اليقين العقلي . ليست كل الرؤى عمى ألوان ، وليس الادراك الحسي كله خداع . والحس قادر على التمييز بين الأمثال لأنه قادر على إدراك الجزئيات ، والعقل قادر على تصور أوجه الشبه بينها . كما أنه يمكن التفرقة بين اليقظة والنوم مهما كان الانسان مستغرقاً في النوم ، تضغط عليه الأفكار والرؤى . فإنه بمجرد أن يستيقظ يدرك الفرق بين اليقظة والنوم . ومهما استغرق الانسان في أفكاره وأحلامه وهو يقظ فإنه يدرك بمجرد عودته إلى الوعي بالواقع أنه كان في لحظة استغراق . إن الحواس لا تخطىء إذا كانت بريئة من الآفات ، وإذا كانت تعمل في مداها الطبيعي ، وإذا كانت تؤدي وظائفها المحددة(١٠٨) . والعقل قادر أن يفرق بين الصواب والخطأ في المدركات الحسية ، كما أنه يمكن اللجوء إلى مجرى العادات للتفرقة بين النوم واليقظة . إن الحس السليم لا يخطىء ، وخطأ الحواس راجع إلى آفة فيها وليس إلى طبيعتها . ولا يوجد برهان على شهادات الحس لأنها معارف ضرورية ، والمعارف الضرورية لا تحتاج إلى برهان . كما يستحيل البرهان نفسه دون مقدمات ضرورية لا تحتاج إلى برهان وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل إلى ما لا نهاية . هذا بالاضافة إلى أن خطأ الحواس هو الفرع والبداهة الحسية هي الأصل ، خداع الحواس هو الاستثناء وسلامة الادراك هي القاعدة . هناك حقائق حسية لا يمكن أن تكون خداعاً أو وهماً مثل إني جالس الآن ، اكتب ، والقلم في يدي وإني أتنفس وأحيا وأفكر أو إنك الآن تقرأ وتفهم وتستوعب وتحيا وتتنفس

---

(١٠٧) هذا هو رأي أهل السنة في الألوان والنظام في الأجسام . أنظر الفصل الرابع نظرية الوجود ؛ المواقف ص ١٤ ـ ١٦ ؛ المحصل ص ٦ ـ ١٣ ؛ المقاصد ص ٤٦ ـ ٥٢ ؛ التحقيق ص ١٠ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٤ ، ص ٦٣ .

(١٠٨) الفصل جـ ١ ، ص ٨ ؛ شرح التفتازاني ص ٢١ ـ ٢٢ .

وتفكر . أو كأني محتل ، مقهور ، متخلف ، وأن أمامي فقر وتغريب وفتور . هذه الحقائق الوجودية شهادات حسية لا يمكن إنكارها[109] . قد تكون الأسباب في إنكار العلوم الضرورية اجتماعية صرفة لا شأن لها بنظرية العلم مثل الغفلة والاعراض عن الحق ، والاشتغال بطلب المعاش أو بزيادة جاه أو مال أو سعياً وراء منصب وهذا يمكن تجاوزه عن طريق التجرد ، واعتبار العلم غاية وليس مجرد وسيلة للمعرفة . وقد يكون تقليد العلماء طبقاً لحسن الظن أو الاستحسان أو الهوى مع رفض البرهان وسماع هواجس النفس ، والتقليد ليس علماً بل علم مضاد . وقد يكون الانكار باللسان لما يصدقه القلب طمعاً في رئاسة أو منصب أو جاه أو خوفاً من فقد ميزة . وهذا ناشيء عن موقف العالم وليس عن نظرية العلم وعن ارتباط العلم بموقف العالم واتجاهه ، وارتباط النظرية بالبواعث والدوافع والرغبات . كما يصعب إنكار المعارف الضرورية من الخصوم لأنهم ينكرونها بمعارف ضرورية وليست معارف الانكار بأولى من معارف الاثبات . وإذا كانت هناك براهين يقينية على إنكار المعارف الضرورية فاثبات العلم بها أولى . وهو نفس الحجة التي تقال أيضاً ضد مواقف الشكاك المنكرين للعلوم على الاطلاق . إن إنكار المعارف الضرورية هو انكار لامكانية تأسيس العلم وهدم له مع أن الغاية من تأسيس نظرية العلم اقامة « نسق » للعقائد وبالتالي تستحيل إقامة العقائد . وفي هذه الحالة يكون « الكفر » ضرورياً ما دام ليس هناك علم ضروري لاثبات « الايمان »[110] .

والعلم الضروري هو مطلق العلم بصرف النظر عن موضوع العلم مثل العلم « بالله » . ليس العلم هو العلم الخاص بل هو العلم العام من حيث هو

---

(١٠٩) يشير الايجي إلى أفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس ولا يشير إلى اتجاهات اسلامية داخل الحضارة مما يدل على انفتاح علم الكلام على الحضارات الأخرى فلا يهم الرأي من أين أتى . يهم فقط انتشاره ومعرفته كأحد الآراء المستقلة عن التاريخ . وفي هذا السياق نشير أيضاً إلى أمثال هذا المذهب في الحضارة الغربية التي بدأت تروج في ثقافتنا المعاصرة (لوك ، وهوبز ، وهيوم) . ويدافع الطوسي عن الحكماء بأنهم لم يشككوا في يقين المعرفة الحسية ويذكر قول أرسطو « من فقد حساً فقد فقد علماً » التلخيص ص ٦ - ٧ .

(١١٠) الفصل جـ ٥ ص ٩٠ ، ص ١٨٩ - ١٩٢ .

معرفة دون تحديد موضوع معين مثل معـرفة « الله » . مـع ذلك لا تمتنـع مثل هـذه الموضوعات أن تكون موضوعـات معرفيـة مثل البحث عن الخـالص أو الشامـل أو المـطلق أو الفكرة المحـدِّدة . ولكن يتم ذلك في نـطاق التصورات وعمـل الشعـور وليس بطريقة التشخيص(١١١). وهو العلم الضروري الذي يقوم على شهادة الحس في هـذا العالم وليس في عـالم آخر بعـد الموت أو قبـل الميلاد ، مشـاهدة في الحـاضر وليس رؤ يـة مستقبلية لما لم يقـع بعـد . يمكن معـرفـة المـاضي بـالعلوم التـاريخيـة والمستقبل بالعلوم المستقبلية . وكلا العلمـين يتمان في الحـاضر طبقـاً لشهادة الحس والعقل والوجدان . يمكن معرفة الله ضرورة من حيث هـو مبدأ معـرفي أو أخلاقي أو كمساواة إنسانية وبناء اجتماعي فتلك بداهات وجدانيـة واجتماعيـة(١١٢) . ولا يمكن أن تكـون معارف الـوحي مثل « اثبـات الصانـع وصفاتـه النبوات » نمـوذجـاً للمعـارف الضروريـة لأن الـوحي يقـوم عـلى الاستـدلال ، والجـاهـل بهـا مكلف بالنظر . وأن الغـاية من العلم إثبـات العقائـد بالنـظر . لا يوجـد إلا علم ضرورة بالمشاهدة بعد انقضـاء زمن المعجزات . فقـد أدت المعجزات دورهـا في التاريـخ ، وهـو تحريـر الشعور من أسـر الـطبيعـة ، وإبـراز التـوحيـد ــ التعـالي ــ في شعـور الانسان . بعد أن تحقق ذلك ، واستقل الشعـور والعقل والفعـل أصبح العلم قـائماً عـلى شهادة الحـواس وبـداهـات العقـول وليس فقط عـلى إثـارة المشـاعـر والهـاب الخيال(١١٣) . وهناك فرق بين المعـارف الضروريـة والأفعال الاضـطرارية . الأولى ضرورية تتعلق بأفعال الشعـور الداخليـة ، والثانيـة تتعلق بإرادة الانسـان وأفعالهـا الخارجية . الأولى لا يستطيع لها الانسان دفعاً لأنها مرتبطة بحياة الانسان الشعورية

---

(١١١) لا يجوز أن يعرف الله تعالى بالمشاهدة ضرورة . « وعندنا أنه تعالى لا يعرف ضرورة في دار الدنيا مـع بقـاء دار التكليف لأن المحتضـر وأهـل الآخـرة يعـرفـون الله ضـرورة » . ويُحكى عن بعض المتأخرين ربما هو المؤ يد بالله أنه يجوز أن يكون من المكلفين من يعرف الله ضـرورة في دار الدنيـا مع بقاء التكليف كالأنبياء والأولياء والصالحين . شرح الأصول ص ٥١ ـ ٥٢ .

(١١٢) أنظر بحثنا « المقومات الثقافية للشخصية العربية » ، قضايا معاصرة (٣) ، في الثقافة الوطنية .

(١١٣) أنـظر : اسبينوزا رسالة في الـلاهوت والسيـاسة ، المقـدمة عن المعجـزة ص ٦٥ ـ ٦٩ ، وأيضاً لسنج : تربية الجنس البشري ، المقدمة عن تطور الوحي وفلسفـة التاريـخ . أنظر أيضـاً الفصل التاسع عن النبوة وأيضاً التمهيد ص ٤٤ ـ ٤٦ .

والثانية أفعال إرادية خالصة يكون الانسان فيها مخيّراً بين الفعل والترك(١١٤) .

ولا يمكن إنكار البديهيات العقلية بحجة أنها أضعف من الحسيات فهي فرع لها ولأن « من فقد حساً فقد فقدَ علماً » أو بالاعتماد على عدة حجج كلها لا تثبت للنقد ، وقابلة للتفنيد(١١٥) . فإن قيل : إن أجلى البديهيات مثل إن الشيء إما أن يكون أو لا يكون غير يقيني ، فبين الوجود والعدم هناك الحال وهو التوسط بينهما كما أن هناك أشياء لا هي وجود ولا عدم . ومثل ما يقال في البديهيات المشهورة ، الكل أعظم من الجزء فهناك جزء آخر معتبر وغير معتبر أو أن الأشياء المساوية لواحد متساوية ، فهي واحدة وليست واحدة أو أن الجسم الواحد لا يكون في آن واحد في مكانين ، فالألم في جسمين ، والجسم الآخر معتبر وغير معتبر . كما أنها تتوقف على تصور المعدوم وتصور المعدوم يجعله ثابتاً وهذا تناقض . كما يتوقف على تميز المعدوم عن الموجود . وكذلك يستحيل ثبوت الشيء وعدمه في نفسه أو لغيره . والحقيقة أن ذلك نقل صوري للبداهة من مستوى العقل النظري إلى مستوى الميتافيزيقا الخالصة التي يكون فيها العقل محللاً للتجارب الانسانية وليس عقلاً بديهياً صورياً خالصاً . البديهيات أمور بديهية ، والقدح فيها افتعال غير بديهي . والعلوم الرياضية كلها تقوم على البديهيات ، والقدح في البديهيات هدم لأسس العلوم الرياضية . وإن قيل : هناك صعوبة في التمييز بين البديهيات العقلية وبديهيات العاديات لاستنادهما إلى « القادر المختار » الذي أوجبهما عند المتكلمين أو للأوضاع الفلكية عند الحكماء، وهذا أيضاً شك في البديهيات، فإنه بالامكان التمييز

---

(١١٤) الفصل جـ ٥ ص ١٩٣ .

(١١٥) المواقف ص ١٦ - ٢٠ ؛ المحصل ص ١٣ - ٢٢ ؛ التحقيق التام ص ١٠ - ١٣ . لما كانت الحواس خادعة استحال الوصول إلى معرفة يقينية حسية أو عقلية لأن المعرفة الحسية قد تكون خاطئة ، والمعرفة العقلية تقوم على المعرفة الحسية . فالذي يخطىء أولاً يخطىء ثانياً . وإذا كانت هناك معرفة عقلية مستقلة عن الحس فما المانع من وجود ملكة أخرى لدى الانسان تثبت خداع العقل كما أثبت العقل خداع الحواس . وهي نفس الحجة التي يرددها الصوفية لاثبات النور الباطني كوسيلة للمعرفة اللدنية أعلى من الحس والعقل . وبالتالي يلتقي الشكاك مع الصوفية على هدم المعرفة الانسانية مرة من أسفل باسم خداع الحواس ، ومرة من أعلى باسم النور الرباني . المحصل ص ٢٢ - ٢٣ .

بين بديهيات العقل ومجرى العادات . وكلاهما في نهاية الأمر بديهي بصرف النظر عن نشأتها . ولا يمكن إدخال احتمال تدخل « القادر المختار » في هذه اللحظة من تأسيس العلم لأنها لم تكتمل بعد . وما زال موضوع « ذات الله وصفاته وأفعاله » مطلوباً إثباته بعد تأسيس نظرية العلم إجابة على سؤال ماذا أعلم ؟ وتأسيس نظرية الوجود إجابة على سؤال ماذا أعلم ؟[116] . وحتى على فرض الانتهاء من هذا الاثبات فإن « الله » لا يكون مخادعاً ، وليس من صفاته ولا أفعاله التمويه والايهام والايقاع في الخلط بين بديهيات العقل وبديهيات العادات . كما أن افتراض الأوضاع الفلكية عند الحكماء لم يثبت بعد في نظرية العلم تحت التأسيس . وهو أقرب إلى أن يكون افتراضاً أسطورياً خالصاً لا يتحول إلى فرض علمي إلا في علوم الفلك والأرصاد الجوية . وإن قيل : أن للأمزجة والعادات تأثيراً في الاعتقادات مما يمنع وجود بديهيات مستقلة ، فمع ذلك ، العقل البشري قادر على تجريد البديهيات وعلى الادراك المباشر وحدس الماهيات ، وإلا لكان الفكر البشري كله نتاج الأمزجة والعادات . ولما أمكن التخاطب بين البشر والاتصال بين المجتمعات والتفاهم بين الأجيال على مختلف العصور ، ولما كانت هناك حكمة واحدة للشعوب وخبرة مشتركة للجنس البشري . وإن قيل : كثيراً ما تتعارض البديهيات فيما بينها فأيها نصدق ؟ يُقال إنه يستحيل أن يتعارض القطعيان . وان تعارضا فلربما لخطأ في المقدمات أو في تصور البديهيات أو لكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً . لا تعارض إذن بين البديهيات العقلية كما أنه لا تعارض بين المتواترات . وقد نشأ علم بأكمله « علم التعارض والتراجيح » لحل التعارض بين القطعيات المتواترة . ولا تختلف البديهيات حسب الزمان والعصر والتطور واختلاف المصالح والأهواء لأنها توجد على مستوى العقل الخالص . ربما يحدث تدخل للزمان والتطور في التعبير عنها وتأويلها وتحقيقها ولكنها تبقى دون تغير بالرغم من تغير الظروف والأحوال . كما تتجاوز البديهيات حدود المذاهب والعقائد والملل والنحل . فالخلاف بين المعتزلة والأشاعرة حول حسن الصدق وقبح الكذب ، بالعقل أم

---

(١١٦) انظر الفصل الخامس « الوعي الخالص » أو الذات ، والفصل السادس «الانسان الكامل» أو الصفات .

بالشرع خلاف مذهبي ولا يرجع إلى البديهيات بقدر ما يرجع إلى المواقف المذهبية . وكذلك الخلاف حول خلق الأفعال والرؤية وبقاء الأعراض والوجود والعدم بين الحكماء والأشاعرة أو بين أنصار التجسيم وأنصار التنزيه حول الوجود إما مقارن للعالم أو مباين له ، وبين الحكماء والمتكلمين حول نهاية الأجسام إلى ملاء أو خلاء أو بين أنصار الحدوث وأنصار القدم حول قدم الزمان أو بين الحكماء والمتكلمين حول الخلق من عدم أو حول الترجيح بمرجح أو حول محل الألم الانسان أم الجسم كل ذلك خلافات مذهبية وليست بديهيات عقلية ، تكشف عن المذهب وليس عن ضرورة العقل . والمذهب بناء عقلي يعبر عن انتماء فلسفي ، وموقف اجتماعي وسياسي . إن العقل البديهي قادر على ادراك أوائل العقول . وهو مرتبط بصفاء النفس وتجرد الشعور وحياده منعاً للهوى . العقل ليس وسيلة مستقلة للعلم بل أحد وظائف الشعور العاقل(١١٧) .

إنكار البديهيات إذن هدم للعلم ، وقضاء على العقل ، ووقوع في الشك المطلق . بديهيات الحس ، وأوائل العقول ، وشهادات الوجدان ، وتواتر الأخبار ، ومجرى العادات كلها بديهيات . وهي المبادىء التي يتصورها العقل بلا واسطة ، معرفة واحدة لا تختلف من فرد إلى فرد أو من مجتمع إلى آخر أو حتى من زمان إلى آخر . يدركها كل ذي عقل . وإن شك فيها أحد أو استعصى عليه إدراكها فالعيب به لا بها ، ويكون ذا آفة(١١٨) . هي مقدمات مغروزة في النفس فطرية فيها . وإذا نشأ الخلاف عليها فبسبب القرب أو البعد عنها . البديهيات واحدة ، من طبيعة العقل الخالص ، وكل المعارف اليقينية واحدة تستلزم وجود إنسان حي ذي حس وتجربة وحدس وعقل وتواتر ووجدان . فالعقل ليس هو العقل الصوري بل هو الجامع للحس والوجدان والفكر والعادة . هو أحد قوى النفس مثل الحس والادراك والخيال . بل إن كثيراً من المباحث مثل « الوحدة والكثرة » في نظرية

---

(١١٧) لا يمكن انكار الحقائق العقلية بدليل الحقائق الرياضية البسيطة وأن ١ + ١ =٢ وما سماه الفلاسفة الأفكار الفطرية أو مسلمات العقل وأولياته . المحصل ص ٢٢ - ٢٣ ؛ شرح التفتازاني ص ٢١ ؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ٤٢ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٢ .

(١١٨) الفصل جـ ١ ، ص ٦ - ٧ ؛ شرح التفتازاني ص ٣٨ .

الوجود من عمل العقل والخيال معاً ، العقل لادراك الوحدة والخيال لادراك الكثرة . العقل هنا شامل لكل شيء ، شامل لقوانين الطبيعة وقوانين العقل ذاته وهي قوانين النطق. ومعرفة أوائل العقول في حد ذاتها نظرية في العلم[119] .

ولا يمكن استبعاد الوجدانيات من العلم . فضرورة الوجدانيات مثل ضرورة الحس والعقل . وهي ليست « قليلة النفع في العلوم لأنها غير مشتركة فلا تقوم حجة على الغير » لأنها أساس العلوم ومشتركة بين العلماء والأساس الذي تقوم عليه وحدة العلم . فالعلم مشروط بحياة الوعي ، والوجدان أحد مظاهره . العلم ليس صفة لموضوع بل حالة للذات وبناء للشعور[120] . لم يفصل القدماء كثيراً هذا النوع من البديهيات نظراً لوجودهم في بيئة ثقافية كان العقل فيها يمثل أحد مظاهر التحدي الحضاري كما يمثل الوجدان بالنسبة لنا في الدورة الثانية للحضارة تحدياً بالنسبة للحضارات المجاورة . وليست الوجدانيات مجرد عواطف وانفعالات ذاتية فردية نسبية بل هي تجارب حية تظهر فيها الماهيات التي يمكن ادراكها بالعقل . وفي نفس الوقت ينكشف فيها الواقع العريض . تشمل الوجدانيات الاجتماعيات والسياسيات والاقتصاديات وكل الانسانيات لما كان الوجدان أساساً تعبيراً عن وجود الانسان في العالم .

٤ ـ اثبات العلم النظري : وكما أنه لا يمكن انكار العلم الفطري البديهي فإنه أيضاً لا يمكن جعل العلم كله ضرورياً فطرياً بديهياً وانكار العلم النظري الاستدلالي الاكتسابي كما هو الحال عند أصحاب المعارف القائلين بالعلوم الضرورية أو أصحاب الطبائع . فالضروري أساس الاستدلالي ، والفطري مقدمة للكسبي ، والبديهي شرط النظري . لا يمكن أن تكون التصورات كلها ضرورية وإلا لاستحال البحث والنظر ، ولم يطلب أحد شيئاً من العلوم والمعارف . لا

---

(١١٩) الانصاف ص ١٤ ـ ١٥؛ التمهيد ص ٣٧؛ الارشاد ص ١٥ ـ ٢٦؛ الاقتصاد ص ١٤؛ النسفي ص ٣٦ ـ ٤٠؛ شرح التفتازاني ص ٣٦ ـ ٣٧؛ المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ٦٦ المقاصد ص ٢٨٤ .

(١٢٠) عند ابن حزم « المعلومات قسم واحد وهو ما اعتقد عليه المرء بقلبه وتيقنه » الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٩ .

يمكن جعل التصورات فطرية دون اكتساب فكثير من التصورات تنشأ من الأوضاع الاجتماعية والثقافات السائدة[١٢١] . واثبات العلم الضروري كشرط للعلم وكنقطة بداية يقينية أولى « لأن المطلوب اما مشعور به فلا يطلب أو غير مشعور به فلا يطلب » يجعل العلم كله درجة واحدة من اليقين . قد يكون المطلوب في البداية شعوراً عاماً أو افتراضاً أو ظناً أو وهماً أو شكاً أو تخيلاً ثم يتحقق بعد العلم النظري ويصبح علماً يقينياً . فالشيء قد يكون معلوماً من وجه ومجهولاً من وجه . إن اثبات العلم الضروري وحده كبداية أوْلى لأن الماهية لا تعرف إلا بنفسها ، وهذا يتطلب تصورها مسبقاً أو بأجزائها وهي لا تعرف إلا بعد معرفة الكل الذي تنطوي تحته أو في الخارج وهو لا يمكن معرفته إلا إذا كان شاملاً لكل الأفراد مما يحتاج إلى تصور مسبق ، افتراض خالص يقوم على تركيب الماهية في حين أنها كل بسيط لا وجود له في الخارج إلا على سبيل الاختصاص . كما أن معرفة الماهيات أحد أنواع المعارف بالاضافة إلى بناء الماهيات الذي يحتاج إلى استدلال وعلم نظري . إن إثبات العلوم الاستدلالية ضد أصحاب المعارف القائلين بالعلوم الضرورية والمعارف القطعية إنما يتم من خلال العلوم الضرورية ذاتها . فلا يوجد علم بلا مبادىء أولية وبالتالي ينتفي الجهل . وإذا انتفت المبادىء، كان الجهل ضرورياً ونُفي العلم . كما يقتضي التكليف العلم بالمبادىء الأولية فلا يكلف على جهل . والتكليف بالمعرفة قائم على العلم بها ولا يمكن العلم بها نظراً لاحتياج ذلك إلى تكليف يوجب العلم بها ضرورة وبالتالي تستحيل المعرفة ويستحيل التكليف. العلم الضروري وحده بلا علم نظري يدور حول نفسه ، ويقع في الدور ، ويغلق الذهن معه ، ويتحجّر العلم[١٢٢] . يمكن الجمع بين المعارف الضرورية والنظرية .

---

(١٢١) يرى الرازي أن العلم ضروري ، وأن التصور لا يكتسب . وهو مذهب الأشاعرة أيضاً. المواقف ص ١٢ ـ ١٤ ؛ الانصاف ص ١٤ ؛ التمهيد ص ٣٥ ـ ٣٧؛ الارشاد ص ٣٧؛ « العلوم كلها ضرورية لأنها اما ضرورية ابتداء أو لازمة منها لزوماً ضرورياً » المحصل ص ٧١ .

(١٢٢) شرح الأصول ص ٥٦ ـ ٥٧ ؛ قال بعض أصحاب المعارف إنها تحصل بطبع المحل عند النظر . من قال بالمعارف ينكر وجوب النظر . المحصل ص ٢٨ ـ ٣١ ؛ تحفة المريد ص ٣٠ ؛ شرح الخريدة ص ١٢ وذهب أبو اسحق الاسفرايني أن العلم المقدور المستدل يجوز إثباته من غير تقدم نظر واستدلال . الشامل ص ١١٢ .

فالأولى « بطبع المحل » ، والثانية بكسب الجهد والارادة . ولا يعني القول بـالأولى الانتفـاء للثـانيـة بـل وجود مقـدمات أوليـة للنظر . المعـارف الضروريـة جزء من العلم وليست كل العلوم إذ يقوم العلم على النظر ابتداء من المقدمات الضرورية . النـظر وسيلة البرهـان ، وتحليل الـواقع تحليـلاً معرفيـاً . يتوقف العلم الاستـدلالي الكسبي على العلم الضروري وبالتالي فهو يحتاج إلى روية وتدبر بعد بدايته اليقينيـة في العلم الضروري . لا استدلال بغير ضرورة ولا ضرورة بغير استدلال بل يكـون الاستـدلال ضـرورة إذا تـوفـرت لـه المقـدمـات الضـروريـة الـلازمـة . والعلم الاستدلالي ، أيضاً علم شعوري . فالفكر، والرويـة ، والنظر ، والحجـة ، وامتناع الشك في مُتَعلقه كلها أفعال شعورية . ليس الاستدلال عملاً عقلياً صورياً بل هـو نظر القلب أو عمل الوجدان فيما غاب ، من ضرورة الحس(١٢٣) . تـحدث المعرفة الاستدلالية بالقياس وهي المبادىء التي يتصور العقل طرفيها بواسطة . وهي تعادل الفطريات التي يحكم فيهـا بواسـطة لا تغرب عن الـذهن ، وهي قضايـا قياسـاتها معها . واثبات الأصل بقياس يقوم على الحسيات أو العقل أو التواتر .

وكـما أن العلم « الإلهي » لا يدخـل كنموذج للمعـارف الضـروريـة في هـذه المرحلة من تأسيس العلم فإنه لا يـدخل أيضـاً كموضـوع للعلم النظري من أجـل إثبات ضرورته . فإذا كانت المعارف الضرورية هي المعارف الفطرية التي يجدها كل إنسان من نفسه فإنها تكون بمثابة أوليـات العلم والتي تقوم عليهـا نظريـة العلم فيما بعـد بالنظر كفعـل من أفعال الشعـور . صحيح أن هـذه الفـطرة تحتـاج إلى بيئـة طبيعية تظهر فيها دون تغليب للهوى والمصلحة . ولكن يظل أيضاً هـذا الاستعداد الطبيعي للفطرة أيضاً نتيجة للأفعال الحرة للشعور . وإذا كان العلم الفطري عنـد البعض دون البعض الآخر ليس نتيجة لتدخل إرادة خارجية فكذلك العلم النظري

---

(١٢٣) « وتسمى العبارة المسموعة التي تنبىء عن استدلال القلب ونظره وتأصله استدلالاً مجازاً واتساعاً لـدلالتها عليـه » . التمهيد ص ٤٠ ؛ وكـلا من التصور والتصـديق بعضه ضـروري بالـوجدان المواقف ص ٢٢ ؛ الارشاد ص ١٠ ؛ الانصـاف ص ١٤ ـ ١٥ ؛التمهيـد ص ٣٦ ؛ الشـامل ص ١١١ ـ ١١٢ ؛ المحصل ص ٦ .

نظراً لضرورة وجود مقياس للاختيار وإلا كان الاختيار عشوائياً . لا يمكن أن يكون إلا طبقاً لاختيار عادل مما يجعل « الارادة الخارجية » نفسها تخضع لمبدأ العدل خاصة إذا نتجت عن هذه المعارف الضرورية أو النظرية التكاليف فيكون من لديه هذه المعارف مكلفاً والآخرون غير مكلفين ، فيخرق مبدأ العدل مرة ثانية . لماذا لا تخلق المعارف الضرورية للبعض وينتج عنها تكليف وتُخلق للبعض الآخر ولا يكون لديهم تكليف ؟ وإن كان للذين لم تخلق لديهم المعارف الضرورية « تكليف » فإنهم يكونون أسوأ حظاً ممن لديهم مثل هذه المعارف . وتفعل « الارادة الخارجية » إيماناً عند البعض وسلباً عند البعض الآخر بلا مقياس للاختيار أو للاستحقاق . إن المعارف الضرورية والنظرية شاملة وعامة لا تعرف تميزاً ولا محاباة أما العمليات والشرعيات فإنها مشروطة بالارادة الحرة وبخلق الأفعال وبقانون الاستحقاق . وهذه كلها تالية على مرحلة تأسيس العلم وليست جزءاً منه . ولا يمكن أن تدخله في هذه المرحلة من تأسيس نظرية العلم[١٢٤] .

وإذا كانت المعارف الضرورية لاتحدث إلا بعد نظر واستدلال فذلك ما يجعلها خاضعة لأفعال الانسان الحرة مثل أفعال النظر ، وبالتالي لا تكون ضرورية إلا من حيث الاستعداد والامكان . والقول بأنه ما دامت المعارف تقع بالطبع لا

(١٢٤) عند « صالح قبة » المعارف كلها ضرورية . يبتدؤها الله في القلوب اختراعاً من غير سبب يتقدمها من نظر واستدلال وأن الانسان غير مأمور بالمعرفة ، لكن من عرف الله ضرورة صار بالاقرار والطاعة مأموراً . وعند « الجاحظ » و« ثمامة » المعارف ضرورية وأن الله ما كلف أحداً بمعرفته وإنما الواجب على من عرف طاعته . وعند « غيلان » القدري معرفة الانسان بأنه مصنوع وأن صانعه غيره ضرورية . فقد طبع الانسان عليها في خلقته . وهو مأمور بعد ذلك في المعارف ، في العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والشرعيات . وعند « أبي الهذيل » معرفة الله ، ومعرفته بالدليل الداعي إلى معرفته بالضرورة وما بعدهما من العلوم الحسية والقياسية هو علم اختيار وجائز أن يجعله الله ضرورياً على نقض العادة . أما « الروافض » فالمعارف لديهم كلها ضرورية إلا أن الله لا يفعلها في العبد إلا بعد نظر واستدلال . ومن لم يخلق الله له المعرفة لا يكون مأموراً ، ومن خلق له المعرفة صار بالطاعة مأموراً وعند اضداده مزجوراً . ومن لم يعرف الله بالضرورة فإنه غير مكلف . وعند آخرين المعارف ضرورية ومن لم يعرف الله مأمور بالاقرار والطاعة! الأصول ص ٣١ - ٣٢، المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٦١ .

يجوز التكليف بها يفترض أن التكليف يقع فقط من خارج الطبع مع أنه ما دامت المعارف طبيعية يجوز التكليف بها طبيعياً أي عن طريق التكليف الذاتي . الطبع لا يناقض التكليف ، وكلاهما لا يناقضان حرية الأفعال . المعارف الطبيعية مثل المعارف « بالتوليد » تعتمد أساساً على طبيعة النفس البشرية وقدرتها على كشف الحقائق المباشرة كالبديهيات أو المتولدة كالاستدلاليات(١٢٥) . كما لا يعني القول بالطباع رفض الدواعي والمقاصد . فالطبع لا يفعل إلا بعد التنشيط والفاعلية . البواعث حياة الشعور ، والقصد بناؤه ، والدوافع محركاته . فلا نظر بلا غائية ، والطبع ليس حتمية أو ضرورة عمياء بل مقدمة للنظر وبداية للغائية . لذلك لا يعني القول بالطباع اتباع الشهوات والغرائز والميول فالطبيعة خيّرة ، خاصة إذا ظهرت المعارف الطبيعية مع صدق النفس ، والتوحيد بين الداخل والخارج ، والاحساس بالغاية والهدف ، والالتزام بموقف . يعني القول بالطبائع رفض كل ما هو آت من خارج الطبيعة والمناقض لها سواء في المعارف أو في الأفعال ، سواء في الانسان أو في الطبيعة . القول بالمعارف الضرورية إذن مقدمة للنظر وليس نفياً له . ولا فرق في ذلك بين التمكن من النظر واتيان النظر بالفعل ، بين اتيانه مرة واحدة على الانقطاع أو مرات عديدة على الاستمرار. وغالبا ما يكون النظر مستمراً في الأوقات ، الأول ، والثاني ، والثالث . . . إلى ما لا نهاية ما دام « متولداً في الشعور » . قد يكون المانع من النظر أحياناً الظروف النفسية والاجتماعية التي يتكون فيها الانسان ، ويكون ذلك في وقت محدود فحسب . فالنظر قادر على اختراق الظروف ، وادراك الحقائق .

رابعاً : النظر يفيد العلم :

لما كان العلم قسمين : علم ضروري وعلم استدلالي أصبح النظر طريقاً للعلم . فالاستدلال يقوم على النظر . وشهادة الحس وأوائل العقول ومعطيات الوجدان كلها تستخدم في الاستدلال والنظر . فما النظر ؟ .

---

(١٢٥) المغني جـ ٢. النظر والمعارف ص ٣٠٦ ـ ٣٨٥ أنظر أيضاً الفصل السابع : خلق الأفعال ، الأفعال المتولدة .

١ ـ تعريف النظر : أعطى القدماء تعريفات عديدة للنظر . فالنظر هو « الفكر الذي يطلب به علم أو غلبة ظن » . وقد أثيرت حول هذا التعريف عدة اشكالات خاصة بالظن لأن الظن غير المطابق جهل ، والجهل لا يطلب ، ولأن الظن غير أصل الظن ولأن هذا التعريف ليس للماهية بل لأقسامها . والفكر لفظ زائد يمكن الاستغناء عنه . والحقيقة أنه تعريف مقبول لأن باقي التعريفات مذهبية خالصة مثل « اكتساب المجهول بالمعلومات السابقة » أو « ترتيب أمور معلومة أو مظنونة للتأدي إلى آخر » وهو تعريف غير جامع كما أنه يصح لمطلق النظر وليس للصحيح منه ، ويكون أشبه بالاستدلال . وقد تحول هذا التعريف في علم أصول الدين المتأخر إلى تعريف منطقي فأصبح احضار أصلين في الذهن وطلب التفطن إلى حصول أمر ثالث منهما أي ترتيب تصورات للحصول على تصديقات . وقد يكون هو مجرد التوجه اما بتجريد الذهن عن الغفلات أو بتحديق العقل في المعقولات . الأول تعريف عدمي والثاني وجودي . وهو وصف لنشاط الذهن وتجرد الشعور وليس للنظر ذاته إذ أن النظر لغة هو الابصار . الأول موجه نحو الداخل والثاني نحو الخارج . الأول تنبيه للذات ويقظة لها من غفلتها والثاني توجيه لها نحو الموضوع وقصدها إليه . والانتظار لا يعني حضور الشيء من الخارج بل قد يعني حضوره في الشعور . وقد يعني العطف والرحمة لا بمعنى خلقي بل بمعنى معرفي . وقد يعني المقابلة ، مقابلة الذات للموضوع أو التفكر بالقلب أي اكتشاف الموضوع في الشعور . النظر إذن تحول الموضوع من البصر إلى الشعور ، ومن الرؤية الخارجية إلى الرؤية الداخلية . النظر حياة الشعور ، والموضوع الخارجي ما هو إلا الباعث على النظر وليس جزءاً من النظر بعد أن يتحول الموضوع الخارجي إلى موضوع داخلي . النظر حركتان للنفس . الأولى نحو المطلوب قصداً وغاية أي اتجاه من الذات نحو الموضوع ، والثانية من المطلوب ترتيباً ومراجعة اتجاهاً من الموضوع نحو الذات . الأولى من أجل الحصول على المادة ، والثانية من أجل الحصول على الصورة . العلم الحاصل من النظر علم شعوري يتم في الشعور . ويشمل الشعور الحس للحصول على المادة ، والعقل لتحليلها . النظر إذن هو حال الناظر وعمل شعوره كما أن العلم حالة العالم وعمل شعوره ، وكما أن الارادة حال المريد ،

والفعل حال الفاعل . ولا يعني الحال مجرد حديث داخلي للنفس بل يعني خروج هذا الحديث على مستوى التأمل والتفكر ، حال طمأنينة النفس وسكونها إلى ما تعتقد بعد البحث والبرهان(١٢٦) .

٢ ـ **قسمة النظر** : ينقسم النظر إلى صحيح وفاسد . ولما كان لكل نظر صورة ومادة أي كيفية ترتيب المقدمات ثم المقدمات ذاتها فقد يفسد النظر من خطأ في الصورة أو من خطأ في المادة أو من خطأ في كليهما . والنظر الصحيح هو كل ما يؤدي إلى العثور على الوجه الذي منه يدل الدليل . فصحة النظر من صحة الدليل . وكل فساد يطرأ على الدليل يطرأ على النظر . وفي علم أصول الدين المتأخر عندما تتحول نظرية العلم إلى نظرية في المنطق يصبح النظر صحيحاً بصحة مادته وصورته . يصح النظر إذا ما أدى إلى معرف في التصور وإلى دليل في التصديق . وصحة مادة التصور أي المعرف أن يكون الجنس جنساً والفصل فصلاً ، وأن يكون الحد التام من الجنس والفصل القريب ، وهي شروط الحد التام . وصحة الصورة أن يتقدم الأعم على الأخص . ويصح النظر في التصديق إذا كانت المقدمتان في حادثة متناسبتين للمطلوب قطعاً أو ظناً أو فرضاً . ويصح في صورته إذا كانت على ما هو موصوف في أبواب القياس والاستقراء والتمثيل . وهنا تتحول نظرية الصدق في العلم إلى نظرية الصدق في المنطق فيحتوي علم المنطق ، وهو من علوم الحكمة ، علم العقائد وهو علم أصول الدين . واحياناً تُستعمل لغة المطابقة دون تحديد طرفي التطابق هل هما الفكر مع نفسه أم الفكر مع الواقع(١٢٧) .

---

(١٢٦) التعريف الأول للباقلاني والثاني لأصحاب التعليم . الارشاد ص ١ ؛ غاية المرام ص ١٥ ؛ التحقيق التام ص ١٣ ـ ١٤ ؛ اتحاف المريد ص ٣٨ ـ ٤١ ؛ التلخيص ص ٢٤ ؛ الاقتصاد ص ١٢ ؛ المعالم ص ٥ ـ ٨ ؛ المواقف ص ٢١ ـ ٢٢ ؛ تحفة المريد ص ٣٥ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠ ؛ المحصل ص ٢٣ ، ص ٣٠ ؛ شرح الأصول ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ المغني ج ١٢ ، النظر والمعارف ص ٤ ـ ٨ ؛ ص ٦٩ ـ ٧٤ ؛ المقاصد ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(١٢٧) المواقف ص ٢٢ ـ ٢٣ ؛ الارشاد ص ٣ ؛ الشامل ص ٩٧ ؛ المقاصد ص ٥٦ ، ص ٧٣ ، التحقيق التام ص ١٥ ـ ١٦ ؛ التلخيص ص ٣٠ ؛ المحصل ص ٣٠ .

وقد ينقسم النظر إلى خفي وجلي ، وبالتالي يكون النظر في حاجة إلى منهج في الايضاح[١٢٨] . تتفاوت مراتب النظر في الوضوح . هناك الجلي الواضح الذي يلوح من غير بحث ، يدركه الناظر البعيد والقريب . وهناك النظر الخفي وهو ما يدق ويتخصص ، ولا يدركه إلا الناظر الداني . وهي القسمة الأصولية المعروفة للقياس إلى الجلي والخفي . وذلك طبيعي في حركة العلم في الشعور وسكون النفس إليه . قد يكون هناك نظر خفي يحتاج إلى تدقيق ، وهنا تأتي مهمة الايضاح كفعل من أفعال الشعور لتوضيح الخفي ، وتحويله إلى جلي . والخفاء والجلاء مقولتان للشعور من حيث درجة البداهة ومستوى الحدس . الجلي يستند إلى الضروري استناداً مباشراً ، والخفي يستند إليه استناداً غير مباشر ، ويحتاج إلى مزيد من النظر والبحث والاستدلال . ويوجد الجلاء والخفاء إما في الصورة أي في طرق الاستعمال وإما في المادة أي في مقدمات الاستدلال ، وتفاوتها في مستوى التجريد . ومع ذلك أنكر بعض القدماء قسمة النظر إلى جلي وخفي لأن النظر لا يكون جلياً أو خفياً . النظر مجرد آلة أو وسيلة تؤدي إلى نتيجة أو غاية . الجلاء والخفاء يوجدان في الدليل أو في الشبهة دون البحث والنظر . وكما لا يوصف النظر عند القدماء بالجلاء والخفاء كذلك العلم لأن العلم ضد الخفاء . ولا يوجد علم أبين من علم ، لا فرق في ذلك بين العلم الضروري والعلم النظري أو بين علوم الأنبياء وعلوم الصديقين وعلوم البشر . ومع ذلك ، لما كان العلم يشمل بداية وهو التصور ، ونهاية وهو التصديق ، ومساراً وهو سكون النفس فإن حركة العلم تتم باستمرار بأفعال الشعور ، ويتراوح بين الجلي والخفي . وتكون من مهام الشعور عملية الايضاح المستمرة من أجل الحصول على الجلي الدائم فيحدث اليقين في العلم وتطمئن النفس . لا يكون الخفاء والجلاء في العلم من حيث هي نتيجة بل من حيث سكون النفس إليه ومن حيث بداهة الرؤ ية . فالمقصود هنا نظرية العلم أو علم العلم وليس العلم في ذاته من حيث هو مجموعة من النتائج والقوانين . قد يتفاوت الخفاء والجلاء من لحظة إلى أخرى ، ومن تجربة إلى أخرى ومن فرد إلى آخر . وفي العلوم الضرورية تتفاوت البداهة الحسية والعقلية والوجدانية بين القوة

---

(١٢٨) طوالع الأنوار ص ٣١ ؛ الشامل ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .

والضعف أو بين الوضوح والخفاء ، ويكون التفاوت هنا في الدرجة لا في النوع .

٣ ـ النظر الصحيح يفيد العلم : بالرغم مما يبدو على ذلك من تحصيل حاصل إلا أنه في حاجة إلى إثبات نظراً لأن العلم ضروري ونظري . ورداً على احتمال الوقوع في الدور نظراً لاثبات العلم النظري بالنظر(١٢٩) . وقد يتحول إلى سؤال عن طريق القلب فيصبح : وهل النظر الفاسد يستلزم الجهل؟ وتكون الاجابة : إذا كان النظر الصحيح يفيد العلم فالنظر الفاسد يستلزم الجهل مطلقاً سواء كان الفساد من المادة أو من الصورة(١٣٠) . لا يورث النظر الفاسد علماً أو رأياً من مضاداته مثل الشك والظن والوهم والجهل والتقليد سواء كان الفساد في صورة الدليل أم في مادته . وذلك لأن الجهل اعتقاد جازم غير مطابق في حين أن النظر الفاسد نقص في معرفة الدليل أو وجه الدلالة أو وقوع في شبهة . واعتبار النظر الفاسد يفيد الجهل تأكيد على أهمية النظر الصحيح وتحذير من الوقوع في النظر الفاسد الذي لا يكون فقط سبيلاً إلى نقص في العلم بل إلى وجود الجهل . هو حماس للنظر الصحيح وحرص عليه . أما اعتبار النظر الفاسد لا يؤدي إلى الجهل فهو تحليل موضوعي لعلاقة النظر بالعلم . النظر آلة والعلم نتيجة . وعيب الآلة لا يؤدي إلى النتيجة المضادة. الجهل سابق على النظر ولكنه لا يتلو النظر الفاسد . النظر الفاسد خطأ يمكن تصحيحه ، وإعمال النظر في حد ذاته جهد بصرف النظر عن نتائجه . أما اعتبار النظر الفاسد مؤدياً إلى الجهل من حيث المادة وليس من حيث الصورة لأن الصورة يمكن تصحيحها دون المادة فذاك إعلاء من شأن الصورة على المادة وتحويل نظرية العلم إلى نظرية صورية خالصة كما هو الحال في المنطق القديم في حين أن المادة أيضاً يمكن تصحيحها باكمالها وجعلها ممثلة للمجموع ، ومن ثم تتأسس نظرية العلم بجانبيها الصوري والمادي على السواء .

والحقيقة أن هذه القضية ، أن النظر الصحيح يفيد العلم ، موجهة عند القدماء ضد مذاهب وفرق معينة تنكر أن يكون النظر مؤدياً إلى العلم وهي

---

(١٢٩) هذا هو موقف الرازي والآمدي وامام الحرمين ، المواقف ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(١٣٠) هذا هو موقف الرازي ، المواقف ص ٣٣ ؛ المعالم ص ٢٦ ؛ طوالع الأنوار ص ٣٠ .

السمنية التي تجعل المعرفة مقصورة على الحس[١٣١] ، والمهندسون في الإلهيات الذين يجعلون النظر مفيداً للعلم في الهندسيات وحدها ، والقائلون بالمعلم دون النظر ، والصوفية القائلون بالإلهام ، والفقهاء أهل الأثر الذين يرون في الوحي بديلاً عن النظر .

أ ـ وقد وجهت السمنية ثلاث حجج ضد النظر . الأولى أن العلم الحاصل بالنظر ان كان ضرورياً بان خلافه وإن كان نظرياً لزم التسلسل . وبعبارة أخرى إن العلم الضروري لا يحتاج إلى نظر وإن احتاج إلى نظر لزم الدور لاثبات العلم النظري . والحقيقة أن العلم الضروري لا يحتاج إلى اثبات من العلم النظري وإلا لما كان ضرورياً . فهناك بداهة الحس وأوائل العقل ومعطيات الوجدان التي لا خلاف عليها . أما العلم النظري فهناك اتفاق على وجوده باجماع العقلاء ، يستند إلى الضروري الذي لا يحتاج إلى نظر وبالتالي فلا وقوع في الدور . والثانية أن المطلوب إذا كان معلوماً فلا طلب له وإن لم يكن معلوماً فكيف نعرفه ؟ . وبتعبير آخر ، إذا كان المطلوب معلوماً فلا فائدة في طلبه فإن وُجد فكيف يُعرف أنه المطلوب؟ والحقيقة أن المطلوب يُعلم كافتراض ثم يُطلب التحقق من صحته أو يُعلم بصرف العموم ويُطلب التخصيص أو يُعرف المبدأ النظري العام ويطلب كيفية التحقيق العملي له . والثالثة أن الذهن لا يقوى على استحضار مقدمتين وبالتالي يستحيل النظر والحقيقة أن العلم بحضور مقدمتين لا تستلزم نتيجة إلا بعمل الشعور وحصول تجربة . إذ لا تحصل النتائج من المقدمات حصولاً آلياً حتمياً بمجرد حضور المقدمتين . لا بد من توجيه الوجدان ، فالذهن والوجدان شيء

---

(١٣١) يشير النسفي إلى أنها فرقة السوفسطائية الذين ينكرون ثبوت حقائق الأشياء وامكان العلم . والحقيقة أنهم ليسوا سوفسطائيي اليونان لأن علماء الكلام أساساً لا يتعاملون في العقائد مع حضارات أجنبية بل مع الحضارة الناشئة . وإن أشاروا إلى بعض فلاسفة اليونان فلأن مؤلفاتهم قد تُرجمت إلى العربية وأصبحت جزءاً من الثقافة المحلية كما أفعل الآن أحياناً وبقدر محدود مع الحضارة الغربية . والبعض يعتبرهم الدهرية التي تقول « لا أقضي إلا بما أشاهده » أو «الحواس تقضي على العقول » أو « للحواس عمل وللعقول عمل » . المغني جـ١٢ ، النظر والمعارف ص ٥٤ ـ ٥٨ ، فالمادية (الدهرية) تقوم على الحسية .

واحـد مع المـوضوع . الـذهن مجرد قـدرة على تحليـل الموضـوع في الشعور ورؤ يـة حدسية له . وهناك حجـج أخرى عـديدة للسمنيـة تفصيلاً لهـذه الحجج الـرئيسية الثـلاث . منهـا مـا يعتمـد عـلى ضعف الأدلـة في حـين أن ضعف الأدلـة لا يعني خطأها . فهناك أدلة يقينية برهانية . ومنها ما يعتمد على وجود المعارض لأن النـظر يفيـد العلم فقط في غيـاب المعـارض لا في حضـوره مـع أن النـظر يقتضي غيـاب المعارض والرد عليه . والمعارضة في نهايـة الأمر جـزء من النظر أو النـظر المقابـل . ومنها أنه إذا وجب النظر المؤدي إلى العلم وجب التكليف ، والتكليف غير مقـدور وهـذا إعلان لعجـز العقـل وضعف الارادة . فـالانسـان مكلف بعقله عـلى النـظر وبارادته على الفعل وفي حقيقة الأمر إن معظم الحجج التي تقـدمها السمنيـة حجج صورية خالصة هدفها اثبات القضية والدفاع عن المذهب ، وتعبر عن موقف مسبق ولا تؤسس نظرية متكاملة في العلم . فلا تعني المعرفة الحسية اقصار المعـارف كلها عـلى الحس . بل إن الحس نفسـه يشمل العقـل والبديهـة والـوجـدان والمشـاهـدة والحـدس والتواتـر ومجرى العـادات وليس فقط ما يـأتي من الحواس الخمس . كـل البـراهين الجـامعة المـوصلة إلى معرفـة الحق في كل مـا اختلف الناس فيـه منشؤها الحس . إن الاقتصار على المعرفة الحسيـة والشك في المعـرفة العقليـة انكار لليقـين الحسي والعقـلي والوجـداني في آن واحد . وانكـار ليقين التـواتر الـذي يقـوم عـلى شهادات الحس والعقل والوجدان . هناك أوليات العقل التي تمنع من التسلسل إلى مـا لا نهايـة ، وهنـاك العلم الضـروري الـذي لا يحتـاج إلى نـظر ، وهنـاك العلم الحدسي الضروري والعلم النـظري الاستدلالي المـوصل إلى اليقـين . ويثبت يقين العلوم باجتماع المعارف الحسية والعقليـة والحدسيـة والوجـدانية والمتـواترة إن كـان الذهن لا يقوى على استحضار المقدمات أو نشـأ منه خـلاف . والشك في المعـارف اليقينيـة الأخرى في نهايـة الأمر ليس من قبيـل المعرفـة الحسية بـل معرفـة تثبت أن المعارف ليست كلها معارف حسية[١٣٢] .

(١٣٢) المحصـل ص ٢٤ ؛ غايـة المرام ص ١٥ ـ ٢٠ ؛ طـوالع الأنـوار ص ٢٨ ـ ٢٩ ؛ المقاصـد ص ٥٩ ـ ٧٠ ؛ شرح المقاصد ص ٥٧ ؛ المغني ج ١٢ ، النظر والمعـارف ص ٥٤ ـ ٥٨ ؛ التحقيق ص ١٨ ـ ٢١ .

ولم يقتصر القدماء بالرد على حجج السمنية بل وجهوا إليهم حججاً ، شافعين الدفاع بالهجوم ، ومكملين السلب بالايجاب . فالعلم بفساد النظر ليس من قِبل المحسوسات بل يحتاج إلى نظر . والعلم بفساد النظر اما ضرورة أو بالنظر . ولما امتنعت الضرورة لم يبق إلا النظر . ومهاجمة النظر نظر . إما أنه لغو لا يعتد به أو أنه يتم بالنظر وهذا إثبات للنظر . كما أن مهاجمة النظر يحتاج إلى نظر ، ومعارضة الفاسد للفاسد يحتاج إلى نظر . ولا يمكن أن تتم مهاجمة النظر عناداً وإنما تتم بالنظر . والشك في النظر أنه مؤدٍ للعلم يذهب بالدليل ويعتمد عليه ، والدليل يؤدي إلى النظر ، والنظر يفيد العلم . ومن ثم فإذا ثبت بالدليل أن النظر يفيد العلم ثم وقع إنكار لذلك فإنما يكون مجرد عناد(١٣٣) .

قد يكون هدف السمنية من حصر المعرفة في الحسية وحدها وإنكار أن النظر يفيد العلم هو اثبات استحالة ثبوت « الصانع » . فالصانع ليس موضوعاً حسياً حتى يُدرك بالحس ، والنظر لا يفيد العلم وبالتالي لا يمكن معرفة الصانع أو اثباته . وإذا ثبت بالوحي مثلاً ظل متوقفاً على الدليل العقلي . وبالتالي فرض المذهب العقائدي نفسه على نظرية العلم فبترها . ليس لدى الانسان إلا تأسيس نظرية في العلم ، وبعد ذلك لا يهم الموضوعات التي تتأسس في هذه النظرية . وقد يثبت العلم النظري ويظل إثبات الصانع مستحيلاً فلا صلة بين إثبات العلم النظري وإثبات الصانع ضرورة . و« الصانع » الذي لا يثبت بالنظر الذي يفيد العلم يكون خارج نطاق العلم الانساني. وإن توقف « الصانع » على العلم بالدليل توقف انساني . ليس لدى الانسان وسيلة لاثبات أو لنفي إلا النظر المفيد للعلم ، والعلم بالدليل وبوجه الدلالة . الموضوعية خارج نطاق العلم ادعاء خالص ، وهدم للعلم ، وافساح المجال للايمان ، وبالتالي ترسب الجهل ثم الطغيان(١٣٤) .

ب ـ أما المهندسون في الإلٰهيات فإنهم يثبتون أن النظر يفيد العلم في الهندسيات خاصة والعلوم الرياضية عامة ولكن قد لا يفيده في الإلٰهيات . وإن

---

(١٣٣) هذه هي حجج الامام الجويني ضد السمنية ، الارشاد ص ٣ ـ ٥ .

(١٣٤) المواقف ص ٢٤ ـ ٢٦ ؛ الأصول ص ١٠ ـ ١١ .

أقصى مـا يستطيـع النظر أن يفيـده في الإلهيات هـو الظن والأخـذ « بـالأحـرى أو الأخلق » أي بـالأولى وبالمقـارنة والأجـدى وهي براهـين نفسية خـالصة تقـوم عـلى التعالي أو المفارقة وهي تجربة شعورية أصيلة للتجاوز والبحث عن الصـوري والعام والشامل . إذا كان موضـوع الإلهيات هـو « ذات الله » فإن أقصى مـا يستطيـع أن يصل إليه النظر هو الظن إما عن طريق التشبيه لاثبـات شيء أو عن طريق التنـزيه لنفي شيء آخـر . ولهم في ذلـك حجتـان . الأولى أن الحقـائق الإلهيـة لا تتصـور وبالتالي يستحيل التصديق . وكل ما يمكن تصوره هي اعراضهـا وصفاتهـا وآثارهـا وتجلياتها . وبالتالي ليس أمامنا إلا الظن والتقريب ، وقياس الغائب على الشاهد إن شئنا معرفـة إيجابيـة تقريبيـة أو عن طريق التنـزيه إن شئنـا معرفـة مجردة خـالصة . الأولى معـرفة أدبيـة تقوم عـلى التشبيه والقيـاس ، والثانيـة معرفـة عقلية تقـوم على التنزيه ورفض القيـاس . الأولى تقرب بين المتشابهين والثانية تفرق بين المتمـايزين . الأولى تقوم على التقريب والمحايثة أو الحلول والثانيـة تقوم عـلى الابعاد والتعـالي أو المفارقة . بل إن « قياس الأولى » الذي يدل عـلى التعالي والمفـارقة هـو قياس يقـوم على التعظيم والتبجيل والاحترام وهي العـواطف الانسانيـة التي تكمن وراء عملية التـأليه والتي تكشف عن مـوقف اجتماعي هـو التقديس لـلأشخـاص وعن وضـع سلوكي في العالم وهو التحقيق عن طريق التزلف وليس عن طريق الفعل . والثـانية أن أقرب الأشياء إلى الانسان وهي هويته غير معلومة بحيث كثر عليهـا الخلاف ولم يعـد من الممكن الجزم بـأحد الأقـوال المتنازعـة فما بـالنا بـأبعد الأشيـاء عنا؟ . وإن مقـالات الاسـلاميـين وغـير الاسـلاميـين في « ذات الله » قـد اختلفت وتبـاينت وتضاربت حتى لم يعد الانسان قادراً على التمييز بـين الحق منها والبـاطل . ويشهـد على ذلك علم الكلام نفسه . والكل يدعي النظر والحجة ويقدم الدليل والبرهان بينما الاتفاق على العلوم الرياضية وارد وموجود يتفق عليها العقلاء والناظرون . وبالتالي فالنظر لا يؤدي إلى علم واحد في الإلهيات . والحقيقة أن ذات الانسان ليست مجهولة فكل منا يشعر بوجوده ، ونفسه أقرب الأشياء إليه . أما ذات الله فإنها لم تدخل بعد في نظرية العلم حتى يمكن الحديث عنها . فإذا ما تأسست نظريـة العلم يمكن الحديث

بعد ذلك عن « الوعي الخالص » أو الذات وليس قبلها[١٣٥] . والوعي الخالص إذا ما تم اثباته يكون أقرب الأشياء إلى النفس لأنه وعي الوعي أو الوعي بالنفس . فإذا كانت « ذات الله » صورة تشبيهية لوعي الانسان بذاته فإن معرفتها تتم بالرجوع إلى هذا الوعي . وإذا كانت ذات الانسان مضاعفة إلى ما لا نهاية فإنها تكون معروفة لديه قدر معرفته بذاته . يكفيه استرداد ما خرج منه دفعاً أو قصراً . ويمكن للناظرين والعقلاء الاتفاق على الوعي الخالص وصفاته وأفعاله مهما تباينت بشرط العود إلى الوضع الشرعي للانسان في العالم والقضاء على اغترابه فيه[١٣٦] .

جـ ـ أما القول بالمعلم كبديل عن النظر فإنه لا يؤدي إلى تأسيس العلم[١٣٧] . وقد اعتمد القدماء لرفضه على حجة جدلية وهي أن المعلم يحتاج إلى معلم وهذا إلى ثالث حتى يتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية أو ينتهي إلى مصدر للعلم هو العقل أو الوحي . وافتراض عقل كامل لا يحتاج إلى تعليم هو نفسه افتراض النبي أي الوحي وليس المعلم . ولما كان الوحي يُعلم بالعقل كان العقل نقطة البداية في نظرية العلم وليس المعلم . القول بالمعلم إنكار لقدرة العقول على الوصول إلى الحقائق وإنكار للنظر مع أن الوحي قد حث على النظر ورفض اتباع أي شخص حتى ولو ادعى العلم والإلهام وبلغ به الأمر حد ادعاء الألوهية . إن القول بأن

---

(١٣٥) أنظر الفصل الأول ، تعريف العلم ، ٣ ـ موضوعه وأيضاً الفصل الخامس ، « الوعي الخالص » أو الذات .

(١٣٦) وهو أيضاً موقف القرآن بقوله « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (٥٠ : ١٦) ؛ « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (٥١ : ٢١) ؛ وهو ما يكشف عنه الصوفية جيعاً وبعض المصلحين المعاصرين مثل محمد اقبال في ديوان « أسرار النفس » . تشير بعض المصنفات إلى أنه نقل عن أرسطو قوله إنه لا يمكن تحصيل اليقين في المباحث الإلّهية إنما الغاية القصوى فيها الأخذ بالأولى والأخلق ، شرح المقاصد ص ٥٧ ؛ ويُعزى ذلك أيضاً إلى الدهرية ومن يقول بأنه يقضي بما يشاهد وبما يفعل ويدل عليه الدليل . المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٥٤ ـ ٥٧ أنظر أيضاً لموقف المهندسين في الإلّهيات المواقف ص ٢٦ ؛ المقاصد ص ٤٦ ـ ٥٢ ؛ المحصل ص ٢٤ .

(١٣٧) هذا هو موقف أصحاب التعاليم . يسميهم الايجي « الملاحدة » أي الذين ينكرون النظر طريقاً للعلم . وهم الشيعة الامامية عامة والاسماعيلية خاصة .

النجـاة لا تتم لا بمعلم بدليـل وجود النبي عن طـريق الايمان يستلزم صـدق المعلم كصـدق النبي . فإذا كـانت المعجـزة ـ وهي دليـل صـدق النبي ليست أصـلاً من أصول العلم ، فالعلم لا يقوم على حوادث تاريخية في الدليل على صـدق المعلم ؟ . والوحي الذي أتى به النبي يدعو إلى النظر والايمان عن طريق البرهان ، وهو طريق المعلم ان اراد التشبّه بالنبي . والالهام ليس طريقاً لمعرفـة صدق المعلم لأن الالهـام ذاته في حاجة إلى تصديق وبالتالي لا يكون أساساً للعلم[١٣٨] . وإن حاجـة الناس إلى المعلمـين في العلوم العويصـة لا يمنع من وجـوب النظر . فمهـما أوتي المعلم من مهـارة دون نـظر من المتعلم فلن يحـدث العلم ، ولن يتعـدى العلم التقليــد دون الفهم ، والنقـل دون الابداع ، والحفظ دون الاجتهـاد . إن الخـلاف في النـظر لا يُقدح فيه لأن هناك مقاييس للصواب والخطأ . كما أن الخلاف بين المعلمين لا يقـل شأناً عن الخلاف بين النظار خاصة وأنه لا توجد مقاييس للاختيار بين المعلمـين إلا التقليد .إن الخلاف في النظر سواء كان في أسهل الأمور أم أصعبها لا يدحض النـظر لأن النظر الصحيح لا يؤدي إلى الخلاف . والبرهان قادر على حسم التعارض بـين الآراء والتمييز فيها بـين الصواب والخـطأ . وصعوبـة النظر لا تنفي النـظر . يمكن للمعلم أن يزيح بعض أسباب الشكوك وأن يوضح بعض جـوانب الصعوبـة ولكنه لا يُعلّم من الألف إلى اليـاء وإلا كان الانسـان مجرد متلقٍ للعلم . ومن أين يـأتي علم المعلم ؟ لا يأتي من وحي خاص فذاك طريق النبوة ولا من تفسير الوحي فذاك مشاع للجميع بالعلم بقواعد اللغة وأسبـاب النزول ، ولا من الالهـام فذلـك ليس طـريقاً للعلم . لم يبق إلا النقـل والتقليد والـوراثة وهـو ما يغيب عنـه التحقق من صدقه . والعلم بلا نظرية في التحقق أو الصدق لا يكون علماً . صحيح أن النـظر وحده قد لا يكون نجاة ، ولا بد من معلم عملي يهدي ويرشد . ولكن النظر ليس هو النظر الخـالص بل هـو مقدمـة للعمل ، فـالعمل جـزء من النظر . وكـان كبار معلمي الانسانية من النـظار الذين يـوحدون بـين النظر والعمـل[١٣٩] . قد يكـون

---

(١٣٨) ويتضح ذلك أيضاً في علم أصول الفقـه في رفض التقليد والالهـام وقول الامـام المعصوم (المعلم كأساس لنظرية العلم) .

(١٣٩) يتضح ذلك في كل الحضارات مثل كونفوشيوس في الصين ، وبوذا في الهنـد ، وحمورابي فيـما بين

المعلم عاملاً مساعداً على النظر ولكنه لا يكون بديلاً عنه وإلغاءً له . التعليم أقرب إلى الإرشاد والتوجيه نحو الحقائق منه إلى إعطاء هذه الحقائق نفسها . مهمته مساعدة الانسان على كشف الحقائق بنفسه دون أن يعطيها له جاهزة بالتلقين . وقد يكون ما نعاني منه في مناهج تعليمنا وتربيتنا من تلقين وفرض للوصايا على العقول من آثار هذا التصور للمعلم مع أنه ليس هو التصور « السني »(١٤٠) . ولكن يبدو أن طبيعة المجتمع المتخلف تتفق مع هذا التصور « الشيعي التاريخي » الذي كانت له ظروفه الخاصة في مجتمع المضطهدين . إن اتباع الامام في كل ملة فيما يتعلق بنظرية العلم وكبديل عن النظر لدليل على التخلف ، ويمثل التيار المحافظ الموجود في كل جماعة . وكلما جهلت الجماعة قوي احتمال ظهور المعلم . تظهر وظيفة المعلم في جماعة تقسم أفرادها بين الدهماء الجاهلة والمعلم الواحد الملهم المعصوم ، الرئيس القائد الزعيم المجاهد . وقد تسرب هذا التصور أيضاً إلى علوم الحكمة من الفكر « الشيعي التاريخي » . فهو أقرب إلى الامام المعصوم من الولاية العامة في الفكر « السني النمطي » . وقد تتقدم المجتمعات « السنية » تاريخياً برفض سلطة الامام المعصوم الذي يظهر في صورة رئيس ملهم ، ورفع الوصايا النظرية والعملية عن الناس كما حدث في كثير من حركات الاصلاح الديني في كل الديانات والملل . إن طاعة الناس للقائد الامام ليس لأنه معلم معصوم بل لأنه يمثل قيادة ثورية تقود نضال الشعوب ، وتعبر عن مصالح الجماهير ، وتحقق أهدافها القومية . اتباع المعلم أو الامام المعصوم تقليد ، وتعويض عن غياب اليقين بالتبعية ، واستبدال اليقين الداخلي ، يقين التصديق ، بيقين خارجي ، يقين الاتباع ، وبالتالي ترك النظر والبحث إلى الطاعة والتبعية وهو ما تقوم عليه كل أنظمة الحكم التسلطية باسم السلطة الدينية تدعيماً للسلطة السياسية . إن التقليد من مضادات العلم مثل الجهل وليس أساساً لنظرية في العلم . يؤدي إلى التهلكة إذا ما أخطأ المعلم ما دام

النهرين ، وحكمة مصر القديمة ، وسقراط ، وموسى ، والمسيح ، وماركس والأفغاني وتوريز . . . الخ .

(١٤٠) أنظر مقالاتنا « مناهج التدريس والعلاقات الداخلية في جامعاتنا » ، « رسالة الجامعة » في قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر.وأيضاً « تراثنا الفلسفي » فصول ، العدد الأول .

لا توجد مراجعة عليه . ولا يبقى أمام الناس إلا الثورة عليه ، والانقلاب من الطاعة المطلقة إلى العصيان المطلق . أما النظر فإنه طريق النقد وبالتالي سبيل التحرر على عكس المعلم الذي يؤدي إلى التسليم والقبول ثم إلى الطاعة والاذعان[١٤١] .

د - أما أصحاب الالهام مثل الصوفية فإنهم ينكرون أيضاً أن يكون النظر مفيداً للعلم ويجعلون الالهام طريقاً للمعرفة . ويعنون به فيض المعرفة على القلب دون اعمال نظر أو تدبر أو روية . ولم يظهر في علم أصول الدين إلا مؤخراً عندما ازدوجت الأشعرية بالتصوف نظراً لتوحيد بعض العلماء المتأخرين بين العلم والمعرفة[١٤٢]. والحقيقة أن الالهام قول بلا برهان ، وذاتية خالصة فارغة لا تعتمد على أوائل العقول بل على نقائضها . كما لا يمكن التعبير عنه أو البرهنة عليه أو إيصاله إلى الآخرين أو التحقق من صدقه أو مراجعته وتكراره واطراده . يمكن اعتبار ما يأتي من الالهام على أقصى تقدير مجرد افتراض يمكن التحقق من صحته بالبرهان عن طريق النظر . لذلك فنّده القدماء بحجة جدلية مؤداها أنه لا يمكن معرفة الالهام بالالهام وإلا تسلسل ذلك إلى ما لا نهاية وهي نفس الحجة الموجهة ضد المعلم . لا يُعرف الالهام إلا بالنظر وذلك إثبات للنظر طريقاً للعلم . ولما كان الالهام كل ما يفيض على القلب دون نظر أو رؤية فهل كل ما يحدث في قلب الانسان من جحود وانكار للحقائق وخيانة وعمالة وبيع للبلاد يكون الهاماً؟ وبالتالي يؤدي الالهام إلى انكار الحقائق بدلاً من اثباتها . وان كثيراً مما أصابنا من شكوك في

---

(١٤١) المواقف ص ٢٦ - ٢٧ ؛ المحصل ص ٢٥ - ٢٩ ؛ طوالع الأنوار ص ٣٣ ؛ المقاصد ص ٧٤ ؛ شرح المقاصد ص٧٥ - ٧٧ ؛ ص ٨٢ ؛ التحقيق التام ص ٣٨ ؛ الفصل ج ٥ ، ص ١٩٥ ؛ حاشية العقيدة ص ١٧ .

(١٤٢) « وقد خالفنا في ذلك أصحاب المعارف إلا أنهم افترقوا . فمنهم من قال أن المعارف كلها تحصل الهاماً وهؤلاء لا يوجبون النظر البتة » شرح الأصول ص ٩٧ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٤٤ - ٣٤٦ ؛ أصول الدين ص ١٥ ؛ النسفي ص ٤١ ؛ المحصل ص ٢٧ ؛ شرح التفتازاني ص ٤١ - ٤٢ ؛ شرح المقاصد ص ٨٢ - ٨٣ ؛ التحقيق التام ص ٣٨ ؛ العضدية جـ ١ ، ص ١٧١ - ٢٢٦ أنظر أيضاً دراستنا « حكمة الإشراق والفينومينولوجيا » دراسات اسلامية .

مبادئنا الوطنية ومشروعنا القومي إنما حدث نتيجة لدعاة الالهام والأنوار الربانيـة في الوادي المقدس وأثناء الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضـان أو فوق قمم الجبـال بالقرب من السماء . وهو حتماً خداع في خداع . فكثيراً ما تتم الحوادث بالزيـارات والترتيبات والتنسيق والتدبير بالفعل ويكون الالهام آنذاك أشبه بالسحر الـذي يخفي الحقائق الفعلية من أمام المشاهدين وان وجود الشك والتردد والظن في حياة الانسان ليمنع من الالهام لأن الالهـام لا يأتي إلا بـالصواب فهـو اعتقاد جـازم ويقين ثـابت أقرب إلى مضادات العلم منه إلى العلم . وإذا كان الانسان قادراً عـلى التمييز بـين الخـطأ والصواب في المعتقـدات فإنها لا تكـون إلهامـاً يقذفـه « الله » في القلب ، لا يقف أمـامه تـريث أو رؤ ية أو قـدرة على التمييـز بين الأشيـاء . وإذا بطلت بعض المعتقـدات مثـل التجسيم والتشبيـه فـإنها لا تكـون إلهـامـاً لأن الالهـام لا يـأتي إلا بـالصواب طبقـاً لمدعيـه . يصعب إذن التمييز بـين الايهـام والالهـام . وإن ارتـداد الانسان كلية عن موقف إلى موقف مناقض أو ترجيح أحدهما على الآخر لا يمكن أن يحدث بالإلهام لأن الإلهام لا يتغير في حقائقه المعطاة . ولما كان الإلهام يأتي من أعلى فإنه يجعل الانسان مجتث الجذور في الواقع ، إذ يجعل مصدر معرفته خارج العـالم ، وبالتالي يعمى عن الواقع وعما يحدث فيه ، ويعيش الانسان مغترباً في العالم ، نافياً وجوده ، ومصدر علمه ، جاهلاً بقوانينه . أما استعمال العقل فإنه عود إلى الواقـع واكتشاف لقوانينه ، واستعمال لمنهج التحليل والمراجعة والاحصاء . وهذا ما يحدث في حياتنا المعاصرة التي يسودها الالهام كمصدر رئيسي للمعرفة إن لم يكن مصـدرها الأول حتى في قمـة السلطة السياسيـة التي بيدهـا قرار السلم والحـرب والتي عليهـا مهمـة تحريـر الأرض . وهو أقـرب إلى الارتجال والعشـوائيـة ونقص العلم وادعـاء البطولة منه إلى الالهام الشعـري أو الصوفي . بـل يوجـد الالهام عنـد كل صـاحب امارة وعند كل رئيس مصلحة . وهنا يكون الإلهام تعويضـاً عن نقص في المعرفـة أو رغبة في التسلط على رقـاب الناس . إن رفض الالهـام كطريق للمعـرفة ووسيلة للعلم وبـديل عن النـظر هو في نفس الـوقت استمرار لمـوقف القدمـاء وتأكيـد على ضرورة النظر في حياتنا المعاصرة درءاً لأخطار الوهم والايهام ـ ورفضاً لكـل الوصـايا النظرية والعملية عن الجماهير ، وانهاء لتبعيتها لغيـرها وردهـا إلى ذاتها ، وأخـذها

لمصائرها بيدها . وعلى هذا النحو تعود الجماهير إلى الوحي الذي يقوم على النظر ، ويكون الوحي قد عاد إليها ، وهي القادرة على النظر فيه .

ولا يعني ذلك إنكار الحدوس من حيث هي رؤى مباشرة للواقع تؤدي إلى نوع من المعارف الضرورية وذلك لأن الحدس يقوم على الاهتمام بالموضوع والتركيز عليه وليس مجرد فيض في القلب بلا مقدمات . ويمكن تحليله بعد حدوثه بالعقل ، والتحقق من صدقه بالحس ، ومطابقته للواقع بالرؤية . الحدس احدى وظائف العقل الرئيسية من داخله وليس من خارجه ، ابتداء من الحس المباشر إلى الحدس وما بينهما من مدركات حسية وتصورات عقلية واستدلالات نظرية . العقل هو الحياة الواعية للشعور . كما لا يعني ذلك انكار المعارف الضرورية أو العلوم الذوقية والأدبية كالشعر والتصوف . فالتجربة الشعرية تعطي معرفة مباشرة . وللشعر قدرة على تصوير الواقع ورؤيته . ولا تقل التجربة الشعرية صدقاً عن الاستدلال النظري . بل إن الشعراء أحياناً أصدق رؤية من كثير من المنظرين . ومع ذلك يأتي علم العروض والأوزان ليحول هذه التجربة الشعرية إلى علم عقلي استدلالي له قوانينه ومقاييسه المحددة . تجد التجربة الشعرية أحكامها في فن الشعر وصناعة الألحان . كما أن التجربة الصوفية لم تحدث بغتة بل سبقتها مقدمات هي الرياضات والمجاهدات حتى يتحقق شرط العلم . ومع ذلك ، تجد التجربة الصوفية كمالها في تنظيرها وتحويلها إلى علم عقلي . لذلك اجتمعت علوم الذوق وعلوم النظر معاً في « حكمة الإشراق » . يمكن للتجربة الصوفية أن تكون موطناً لظهور الدلالات ، وتكون حينئذ التجربة الانسانية العامة الفردية والاجتماعية والتاريخية وليس فقط التجربة الخلقية . بل إنه يُخشى من التجربة الخلقية أن تكون قائمة على أساس مَرَضيّ ، ونقص في الشجاعة ، وضعف في السلوك أو على حرمان وكبت غالباً ما يكون جنسياً أو سياسياً نظراً لحاجة الانسان إلى الحب والثورة . قد تعني التجربة الصوفية تصفية القلب ، وسلامة الطوية ، وحسن النية ، وظهور عاطفة نبيلة تجعل الانسان قادراً على إدراك الدلالات نظراً لما تحدث المشاعر النبيلة من ارهاف للحس ، وتبصرة بالمدركات مثل عواطف الحب والاخلاص والتضحية والوفاء . هناك إذن فرق بين

الالهام الصوفي وحدس الشعور أو تجربة الوجدان . الأول تجربة ذاتية خالصة لا يمكن التحقق من صدقها إلا باعادة التجربة ذاتها من الآخرين في حين أن حدس الشعور موضوعي يمكن التحقق من صدقه . الالهام الصوفي لا عقلي ولا يخضع لتحليل العقل في حين أن الشعور حدس عقلي يمكن تحليله بالعقل لأن موضوعه معان ودلالات مستقلة وماهيات . يحدث الذوق الصوفي نتيجة للمجاهدة والرياضة في حين يحدث حدس الشعور نتيجة للشعور اليقظ وتوفر الدواعي والمقاصد والاهتمام والصدق مع النفس والالتزام بموقف اجتماعي وحركة التاريخ .

هـ ـ أما نفي النظر بدعوى النقل والأثر والوحي والنبوة والنص والحكم والأمر فإن ذلك هدم للوحي ذاته وقضاء للنبوة ذاتها . فالعقل أساس النقل ، ومن يقدح في العقل يقدح في النقل . وطالما اثبت الفقهاء « اتفاق صحيح المنقول لصريح المعقول »[١٤٣] . لا يعني اكتمال الوحي انتفاء النظر بل يعني نهاية الوحي بعد تطور طويل ، ومراحل متعددة حتى تحقق استقلال الانسان عقلاً وإرادة . أصبح قادراً بعقله على الوصول إلى الحقيقة ومستقلاً بارادته على تحقيق فكره ومثله ، ورفضه جميع الوصايا عليه من السلطتين الدينية والسياسية باسم الايمان مرة وباسم الزعامة مرة أخرى . كما يعني ثانياً وضع الشريعة باعتبارها نظاماً للحياة ، دائماً ، وليس لمكان معين أو زمان محدود أو لفترة تاريخية بعينها أو لشعب خاص أو دفاعاً عن مصالح طبقة ضد أخرى . ويكون دور العقل استنباط هذه الشريعة من أدلتها الشرعية وتفصيلها طبقاً للمجتمعات المختلفة ، لقد أعطى الوحي الأسس العامة وترك التفصيلات لعمل الأجيال واجتهاداتها . كما يعني ثالثاً بداية عملية الفهم والتفسير والتأويل . الوحي صامت لا يتحول إلى فكر أو سلوك إلا بالفهم والعمل . الوحي ذاته يتأسس في العقل وفي الواقع وفي الجماعة وفي التاريخ . ومن ثم كان الفهم هو موطن الوحي ومحله . ومن خلال الفهم يتحول الوحي إلى واقع ، وبناء اجتماعي ، وحركة تاريخ .

ولا يعني بيان الوحي لكل شيء انتفاء النظر بل يعني أن الوحي قد حوى

(١٤٣) هذا هو المؤلف المشهور لابن تيمية الحراني .

كل الأسس العامة التي يمكن عليها اقامة نـظام في الحياة ، وأنـه لم يترك أسـاساً إلا بيَّنه . وقد يعني البيان أيضاً إعمال النظر وحـدوث البيان بـالعقل . وظيفـة العقل تحـويل هـذه الأسس العامـة إلى نظام معـين لجماعـة معينة في عصـر معين . وتلك وظيفة الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة. بيان الأصـل يتطلب استنبـاط الفرع ، ولا استنباط بغير نـظر . لا يعني اثبات النـظر أي تطاول عـلى النبوة . صحيـح أن النبـوة تفصيل للوحي وتبيـان له كنمـوذج أول وكنمط يمكن الاسترشـاد بـه . لكن الواقع يتغير ، ويحتاج كل عصر إلى تفصيـل أكثر نـظراً لما يحتـويه الـواقع من جـدة مستمرة . فإذا كان للوقائع الجديدة ما يشابهها في الـوقائـع النمطيـة في الوحي ، في الكتاب أم في السـ ـنة أخذت أحكامها . ولا توجد واقعة جـديدة إلا ولهـا أصل في الوحي . النظر إذن زيادة بيان وتفصيل بالقيـاس إلى بيان النبـوة وتفصيلها بـالنسبة إلى الوحي ، خاصة وأن الوحي ذاته يقوم على النظر ، والنبوة أيضاً تقوم على النظر قيـاساً عـلى الوحي . ليس النـظر إذن تعديـاً على النبـوة بل هـو قياس عليهـا وعلى الوحي في آن واحد(١٤٤) . ولا يعني ما يبدو في الوحي أحياناً من إشارات إلى خـطأ بعض الأقيسة خطأ كـل قياس وبـالتالي انتفـاء النظر بـل يعني رفض النظر الفـاسد والدعوة إلى النظر الصحيح(١٤٥) . وهناك مقاييس لصـدق النظر وصحتـه . بل إن الحجج النقلية ذاتها مدعاة للخطأ نظراً لارتباطهـا بالنقـل والروايـة وباللغـة والفهم وبأسباب النزول وبالناسخ والمنسوخ وبعدم وجـود المعارض العقـلي(١٤٦) . وكما أن مناهج تفسير النصوص تؤدي إلى ضبط استعمـالها فكـذلك منـطق النظر يؤدي إلى ضبط النظر .

ولا يعني عدم معرفة الثواب بالعقل عدم وجوب المعـرفة بـالعقل وذلـك لأن الوجوب العقلي وجوب مبدأ وليس وجوب نتيجة أو واقعة ، وجوب في ذاته بصرف

---

(١٤٤) أنظر « أقيسة الرسول » .

(١٤٥) أخطأ داود القياس وصح حكم سليمان في قول القرآن « وداود وسليمان إذ يحكمـان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكـلاً آتينا حكـماً وعلماً» . (٢١ : ٧٩).

(١٤٦) أنظر سابعاً : الأدلة النقلية .

النظر عما يترتب عليه من نتائج . ويمكن معرفة نتائج الأفعال ، ثواباً أم عقاباً ، بالحس والمشاهدة ، وبأوائل العقول ، وباستقراء حوادث التاريخ . كل من يعمل النظر يكون واعياً حراً ، وكل من يتخلى عنه يكون غافلاً عبداً . يؤدي وجوب النظر إلى العلم وفهم العالم وتقدم الجماعة في حين يؤدي انتفاؤه إلى الجهل والغفلة والتخلف . يحتوي النظر على ثوابه من داخله وهي حياة العقل والحرية والتقدم كما يتضمن انتفاؤه جزاءه من داخله ، حياة الجهل والعبودية والتخلف . كما لا يعني الرجوع إلى الأوامر الإلهية إنكار النقل لأنه لا يمكن تنفيذها قبل فهمها ولا يمكن فهمها إلا بالنظر . وتنفيذ الأوامر بلا نظر يجعل الانسان مجرد آلة صماء في حين ان الوحي أتى للافهام وللامتثال قبل أن يأتي للتكليف على ما يقول علماء أصول الفقه(١٤٧) . الوحي قائم على النظر ، يعطي معرفة وسلوكاً ، ولما كان النظر أساس العمل وجب النظر .

لا يعني تحريم السؤال تحريم النظر بل تحريم أنواع معينة من موضوعات النظر لا يُرجى منها فائدة . ولا يمكن الوصول فيها الى يقين . بل على العكس ينتج عنها ضرر ، ولا تؤدي إلا إلى التشعب والتشتت والتضارب والمحن أو على أقل تقدير إلى الشك والريبة والتردد والظن . وفي كلتا الحالتين يُترك العمل ، ويصبح النظر مطلباً في ذاته وليس وسيلة لتحقيق العمل . القصد من التحريم هنا توجيه الانسان إلى الحياة العملية بعيداً عن التشعبيات النظرية التي لا ينتج منها أي أثر عملي . إن كراهية السؤال في موضوعات متعالية إنما هو من أجل توجيه الجهد إلى العمل ، وترك التفكير فيما وراء العالم إلى ما في العالم . النظر موجه إلى العمل ، والفكر متجه إلى الواقع بعيداً عن الموضوعات المتعالية التي لا ينتج عنها أثر عملي أو لا تكون منطقة لوجود أو تصور لتحليل خبرة(١٤٨) . تشير النصوص التي تفيد هذا التحريم إلى هذا المعنى أي توجه

(١٤٧) هذه هي مصطلحات الشاطبي في « الموافقات » في مقاصد الشريعة ، مقاصد الشارع .

(١٤٨) يوجد نوعان من التساؤل في القرآن الأول مرذول وهو التساؤل حول الموضوعات المتعالية التي لا يأتي منها نفع عملي مثل السؤال عن الروح : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ (٨٥ : ١٧) أو السؤال عن الساعة : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ (٧٩ : ٤٢) ؛ ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما

الانسان نحو العمل ووقايته ضد كل اغراق في العالم واغتراب عن الواقع . رفض الحديث عن القدر تأكيد لحرية الانسان وتحقيق لها من حيث هي قوة فاعلة وليس من حيث هي مسألة نظرية ترتبط بشيء خارج عنها يكون طرفاً لها مثل ارادة « الله » في حين أن العالم هو طرفها وميدانها ، والعقبة مانعها وحدها(١٤٩) .

ولا يعني وجود المتشابه من الآيات نفي النظر لأن التشابه له قواعد تحيله إلى محكم فتسكن النفس إليه . ليس التشابه إنكاراً للنظر بل دعوة لإعمال النظر من أجل ترجيح المعنيين طبقاً لحاجات العصر ومقتضيات الواقع ولاختيار الانسان للأفضل والأصلح . وليس ارباكاً للعقل وتحذيرا له عن مواطن الشبهات . التشابه له دور إيجابي في إبراز دور العقل وليس في إيقاف نشاطه . والانسان قادر على احكام المتشابه بما لديه من قرائن . فما الفائدة من متشابه لا يعلمه الانسان ؟ إن القدح في النظر لوجود المتشابه هو أيضاً قدح في المحكم لأن المحكم لا يمكن فهمه إلا بالنظر ولا يمكن التمييز بينه وبين المتشابه إلا بالنظر والفهم .

علمها عند الله ﴾ (٣٣ : ٦٣) ؛ ﴿ يسألونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عند الله ﴾ (٧ : ١٨٧) ؛ أو رؤية الله : ﴿ تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ (٢ : ١٠٨) ؛ والنهي واضح فيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾ (٥ : ١٠١) . أما السؤال المباح فحول الموضوعات ذات النفع مثل الأهلة : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ (٢ : ١٨٩) ، أو عن الشهر الحرام : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ (٢ : ٢١٧) ؛ أو عن الأنفال ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ (٨ : ١) ؛ أو عن حيض النساء ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء ﴾ (٢ : ٢٢٢) ؛ أو عن الحلال ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ (٥ : ٤) ، أو عن الحرام ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير﴾ (٢ : ٢١٩) ؛ أو عن الاحوال الاجتماعية مثل ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم وخير ﴾ (٢ : ٢٢٠) ، أو عن الانفاق ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (٢ : ٢١٩) ، ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين ﴾ (٢ : ١٥) . وقد يكون السؤال حوال التاريخ للعلم مثل ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ﴾ (١٨ : ٨٣) ؛ أو عن الطبيعة ﴿ ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً ﴾ (٢٠ : ١٠٥) .

(١٤٩) أنظر الفصل السابع ، خلق الأفعال .

ولا يعني الرجوع إلى النص كحكم بين وجهات النظر المختلفة إنكار النظر لأن النص نفسه الذي نحتكم إليه لا يُفهم إلا بالنظر ، ويتأسس في العقل بمعناه الواسع الذي يشمل الحس والمشاهدة بل إن مقياس فهم النص هو مدى تطابق هذا الفهم مع العقل والحس . النص مرتبط باللغة وبأسباب النزول ولا يمكن فهم معناه إلا بالرجوع إليهما ، وذلك لا يتم إلا بالنظر . لا يعني تعدد وجهات النظر نفي النظر لأن هذا التعدد يمكن التحقق من مدى صحته بالرجوع إلى الحس والمشاهدة . فالعقل أحد أطراف المطابقة . إذا ما تعددت وجهات النظر من حيث العقل فإنه يمكن اختيار أكثرها تطابقاً مع الحس . يضع العقل عديداً من الآراء والواقع يختار أصلحها له .

ولا يعني الوقوع في الخطأ نتيجة النظر نفي النظر . فالنظر يؤدي إلى الخطأ كما يؤدي إلى الصواب النظر أداة للصواب والخطأ على السواء . والخطأ في القياس لا يهدم القياس بل يصحح القياس الفاسد كي يصبح صحيحاً . والنظر قادر على تصحيح أخطاء النتائج بمقاييس الصدق المعروفة في المنطق . لذلك جعل علماء أصول الفقه للمخطىء أجْراً وللمصيب أجْرَيْن لأن المخطىء أعمل العقل ومارس النظر . ليس النظر قولاً بلا علم أو دليل بل هو أساساً نظرية في الدلالة ، في سكون النفس للدليل . وفيما لا دليل عليه يجب نفيه . ليس النظر اتباعاً لهوى أو مصلحة ، وليس قولاً بظن أو رجماً بغيب بَل بداية للعلم اليقيني . لا يؤدي النظر إذن إلى أي مخاطر أو يوهم الوقوع في الخطأ واعتقاد الكذب فالاقدام على النظر خير من الاحجام عنه بل إن نفي النظر هو الذي يؤدي إلى الوقوع في الخطأ . ولا صواب في التقليد أو التسليم . وإذا كان في الاقدام على النظر خطورة الوقوع في الخطأ فإن الامتناع عن النظر فيه خطورة أكبر وهو عدم الوصول إلى اليقين على الاطلاق إلا مصادفة أو عشوائياً . ولكن الاقدام على النظر فيه احتمال الوصول إلى اليقين دون الامتناع عن النظر ، وبالتالي فالاقدام على النظر خير من الاحجام عنه .

ولا يدل تغيير الرأي أو المنهج أو المقدمات أو النتائج على انتفاء النظر بل يدل على أن النظر هو البحث الدائب عن الدليل . إذا تغير الدليل أو كانت هناك أدلة

معارضة أو زادت الأدلة وضوحاً فقد تتغير النتائج وإلا وقع الانسان في الدجماطيقية أي الاعتقاد بشيء مع وجود أدلة مناقضة لما يعتقده ، وجحد الدليل ، وبدأ بمقدمات خاطئة ، وانتهى إلى استنتاجات باطلة . لا يدل السعي وراء الدليل حيثما كان على انتفاء النظر بل على تأكيد النظر . بل إن تغيير الرأي هنا ترك للباطل ورجوع إلى الحق واستبعاد للخطأ والانتهاء إلى الصواب . لا يعني الانتقال من مذهب إلى مذهب انتفاء النظر بل انتقال المكلف من الباطل إلى الحق بعد العلم بوجه الدليل ، وإذا انتقل من باطل إلى باطل فإنه يحدث لاستمرار الشبهة وغياب الدلالة . لا يعني الرأي حدوث تغير طبقا للهوى أو المزاج أو المصلحة وإلا كانت المواقف الانسانية كلها لا عقلية تقوم على الارادة والنزوع أكثر مما تقوم على العقل والروية . وللانسان علم ضروري يقوم على البداهة الحسية وأوائل العقول ومعطيات الوجدان . ولديه سكون النفس إلى الدليل وبالتالي القدرة على التمييز بين الحق والباطل وإلا وقعنا في تكافؤ الأدلة والشك وهما من مضادات العلم وليسا من مكوناته(١٥٠) .

إن كل ابطال للنظر اعتماداً على الحجج العقلية إنما يثبت وجوب النظر لأنه لا يمكن نفي النظر إلا بنظر . وإذا بطل النظر بالحجج النقلية فإنه لا يمكن فهمها إلا بالنظر . فالنظر واجب في كلتا الحالتين . كما انه يمكن قلب الحجج النقلية فيثبت النظر . فلا يُعقل وجود وحي يستعصي على الافهام ، يتجاوز حدود العقل ولا يعلمه إلا « الله » بالرغم من وجود قرائن يمكن معرفته بها . النظر شرط في فهم الكتاب والسنة . ولولا النظر لظل الوحي صامتاً . إن كثيراً من الحجج النقلية التي توحي ببطلان النظر إما خاصة ترد مورد العموم أو عامة ترد مورد الخصوص . وإن ظاهرها ليدل على غير ما استعملت فيه . لذلك كانت الحجج النقلية عند علماء أصول الدين ظنية لتوقفها على اللغة والاستعمال ، ووجود حجج نقلية أخرى

(١٥٠) فصل القاضي عبد الجبار الحجج ضد النظر وفندها بالتفصيل نظراً لخطورة التصوف الذي انتهى الغزالي بالدعوة إليه فكان آخر صيحة دفاعاً عن النظر من المعتزلة قبل صيحة ابن رشد في القرن السادس باسم علوم الحكمة . المغني جـ ١٢ النظر والمعارف ص ١٦٦ - ١٩٦ ؛ التحقيق التام ص ٣٤ - ٣٩ ؛ القول المفيد ص ١٣ ؛ الارشاد ص ٨ - ٢١٠ التلخيص ٢٨ .

معارضة يثبت بها النظر وتستعمل في محلها طبقاً لقواعد اللغة وأسباب النزول ولا يمكن قلبها إلى ضدها ، واضحة لا تحتمل التأويل أو التخريج[١٥١] .

لا يترك النظر إلا عندما يترك الانسان نفسه عن وعي أو عن غير وعي إلى التقليد أو الهوى أو المصلحة طلباً للرئاسة أو سعياً وراء منصب أو ايثاراً للسلامة والسكون ، ودرءاً للمخاطر التي قد يتعرض لها الناظر من قوى التسلط والطغيان . قد يُترك النظر عناداً للحق أو حباً في شخص أو جهلاً بالسمع أو اعتقاداً بتكافؤ الأدلة أو تحرزاً عن الدخول في المعارك الفكرية . إن ترك النظر قد تكون له أسباب سياسية صرفة لدى الحكام الذين يهمهم إبعاد الشعوب عن النظر أو من الشعوب لايثارها السلامة وحرصها على لقمة العيش تمثلاً واستشهاداً لبعض الأمثال العامية التي تكون دينها الشعبي تكوين النصوص الدينية له[١٥٢] .

خامساً : كيف يفيد النظر العلم ؟

وهو سؤال نظري خالص أقرب إلى « ميتافيزيقا » العلم منه إلى نظرية العلم لأنه يبحث في البناء النفسي للعلم ويحوله إلى عمليات إرتباطية خالصة ويغرق فيها مع التضحية بكل بناء العلم العقلي الواقعي . وقد اشتد الخلاف حول أمور ظنية خالصة لا يمكن فيها الوصول إلى يقين إلا عن طريق الاستبطان . هذا بالاضافة إلى أن الخلاف في النتائج لا يؤدي إلى انهيار نظرية العلم لأنه خلاف في التفسير وليس في الشيء .

١ - **نظرية التوليد:** وقد انحصرت النظريات في كيفية إفادة النظر للعلم في أربعة . كل اثنتين منها متصارعتان ولكن الصراع الثاني بين الأثنتين الأخريَيْنْ أهم وأشد من الصراع الأول بين الأثنتين الأوليين .

أ - يفيد النظر العلم عن طريق إعداد النفس لتقبل الفيض أو الالهام . النظر يعد الذهن والنتيجة تفيض عليه وجوباً . وفي حقيقة الأمر أن هذا الافتراض

---

(١٥١) أنظر سابعاً : الأدلة النقلية .

(١٥٢) مثلاً « الباب اللي يجي منه الريح سده واستريح » .

خروج على النظر ودخول في الفيض والالهام الذي هو انكار للنظر . ويجعل مصدر العلم من خارج الشعور وليس من داخله . ويقلل من دور الذهن والنظر . فقد يحدث النظر ويبخل « صاحب » الفيض . وما دام صاحب الفيض كريماً فلماذا النظر ؟ صحيح أن هناك معارف حدسية ولكنها تتم من خلال النظر ومن داخله قفزاً على المقدمات وليست مستقلة عنه وتتم من داخل الشعور وليس من خارجه. وهذا هو تصور الحكماء الذي يجمع بين تصوري المعتزلة والأشاعرة لأنه يقوم على الوجوب مثل المعتزلة أي وجوب افادة النظر للعلم ضرورة ولكنه وجوب من « العقل الفعال » الذي منه يفيض العلم إلى داخل الشعور نقشاً عليه بدل أن ينشأ من داخل الشعور نَبْتاً فيه : صحيح أن الشعور به استعداد وتهيؤ ولكن العلم لا ينشأ من « العقل الفعال » الذي حوى كل العلوم . وهو افتراض يجعل نظرية العلم أقرب إلى الأسطورة أو التشبيه الأوّلي منها إلى تحليل العلم . أين « العقل الفعال » ؟ ما هي العلوم المخزونة فيه ؟ من الذي وضعها ؟ هل هي مدونة (اللوح المحفوظ) أم شفاهية ؟ وكيف تنزل إلى عالم الأرض ؟ وكيف تدخل في شعور الانسان ؟ وكيف تنقش فيه ؟ وهل هي مقولات (تصورات) أم ألفاظ أم معانٍ ؟ وكيف يتم الحصول عليها ؟ وهل هناك اتفاق عليها كماً وكيفاً ، فهماً وتفسيراً ؟ إذا كان المقصود وجود الحقائق كأبنية مستقلة في العقل فإن « العقل الفعال » يكون داخل الشعور وليس خارجه(١٥٣) .

ب ـ وقد يفيد النظر العلم عن طريق الوجوب لا عن طريق التولد . يعني الوجوب لزوم النتائج عن المقدمات ضرورة ويعني عدم التولد أن تكون هذه الضرورة خارجية وليست داخلية لأن الممكنات كلها مستندة إلى « الله » والله لا يجب عليه شيء. يقوم هذا الافتراض ، في واقع الأمر ، بخطوة إلى الأمام في الربط

(١٥٣) هذا هو رأي الحكماء . المواقف ص ٢٨ ؛ التحقيق التام ص ١٧ ؛ ونظرية الفيض أقرب إلى الفلسفة . ولم يتعرض لها علماء أصول الدين إلا في العصور المتأخرة بعد احتواء علم أصول الدين لعلوم الحكمة . والموضوع كله فلسفي وجزء من نظرية المعرفة في علوم الحكمة وسيعرض له بالتفصيل في الجزء الثاني « فلسفة الحضارة » .

الضروري بين النظر والعلم ثم بخطوة إلى الخلف في رفض أن يكون هذا الارتباط داخلياً في الشعور . كما أنه يدخل افتراضاً أكبر لا حاجة له حتى الآن في بناء نظرية العلم وهو اسناد هذا الارتباط الممكن إلى « الله » والله لم يثبت بعد كذات أو صفات أو أفعال . ما زال في هذا الافتراض حساسية ضد الاعتراف بالطبيعة وقوانينها المستقلة وبالتالي فإنه يعبر عن نظرة متطهرة دينياً مدمرة للعالم علمياً . وكل قضاء على الضرورة الداخلية في العالم هدم لنظرية العلم . وقد شاء هذا الافتراض أن يقدم حلاً وسطاً بين الوجوب والتوليد فقال بالوجوب غير المتولد، والحلول الوسط لا تؤدي إلى حل الاشكال المنهجي أو إلى اعطاء نظرية جديدة تبين نسبة النظر إلى العلم . القول بالوجوب مع نفي التوليد قول بالوجوب العقلي الصوري دون الوجوب الطبيعي المادي ، وهو الوجوب المنطقي الخالص عن طريق احضار مقدمتين في الذهن ولزوم نتيجة ثالثة منها . ولكن هذا الوجوب الصوري الآلي يغفل التيار الحي للشعور . كما أنه يجعل العلم قضايا تتداخل فيما بينها عن طريق الاستغراق ، وليست دلالات أو معاني جديدة تحدث في الشعور . كما أنه يغفل نظرية الحدس والرؤية المباشرة للدلالات . إن القول بافادة النظر للعلم وجوباً ثم اسناد هذا الوجوب إلى « الله » هو تحويل هذا الوجوب إلى امكان خالص وبالتالي القضاء على الوجوب ذاته وهو المقصود ويتفق مع مذهب الأشاعرة(١٥٤) . ولكن الافادة بلا وجوب لا تعني هدم الضرورة بين النظر والعلم بل تعني أن العلاقة بينهما غير لازمة أو لازمة بالضرورة فقد يحدث النظر دون العلم لأن النظر ما زال جارياً ولأن الدلالة لم تنكشف بعد . وقد يحصل العلم بأقل قدر ممكن من النظر ، وتنكشف الدلالة بسرعة وربما سابقاً لأوانها . يتم النظر والعلم في الشعور ، وعمل الشعور أوسع بكثير من النظر والعلم . النظر مقدمات الشعور ، والعلم نتائجه ، وبينهما تحدث الرؤية التي لا تحدد متى يحدث العلم بالنظر والتي قد تجعل العلاقة بين النظر والعلم علاقة غير ضرورية من حيث الكم أو من حيث الضرورة . ولكن

(١٥٤) هذا هو رأي الرازي ، المواقف ص ٢٨ ؛ وذكره الغزالي على أنه المذهب عند الأشاعرة ، عند أبي بكر وامام الحرمين والطوسي ، شرح المقاصد ص ٥٩ .

العلاقة الكيفية ممكنة ومحتملة . لا يعني ذلك إنكار النظر وإثبات حصول العلم بالالهام بل ادخال رؤية الشعور لادراك الدلالة . ليس عمل الشعور النظر والعلم فقط ، الوسيلة والغاية ، المنهج والقانون فهناك الدلالة وإدراك الدلالة(١٥٥) .

جـ - يفيد النظر العلم عن طريق العادة ، بمعنى الاعداد أو الافادة أو التضمن أو الاقتضاء . طالما مارس الانسان النظر أفاد العلم . فارتباط النظر بالعلم عن طريق العادة والتكرار(١٥٦) . والحقيقة أن ذلك ينفي وجود حقائق علمية مستقلة عن تكوينها ويخلط بين مستوى النشأة والتكوين ومستوى الماهية والدلالة ، ويرد الثاني إلى الأول مع أن التعالي أو المفارقة له وظيفة علمية هو الحرص على التمييز بين المستويات . أما افتراض أن « الله » هو سبب العادة وأنه هو الخالق للاقتران بين النظر والعلم فهو افتراض سابق لأوانه عن تأسيس نظرية العلم لأن « الذات » لم يتم إثباتها بعد . كما أنه خلط بين موضوع تأسيس العلم وموضوع خلق الأفعال ، وتصور كل واجب ممكن واسناده إلى « الله » وبالتالي القضاء على استقلال قوانين الطبيعة . وكيف يمكن المحافظة على التنزيه و « الله » يقرن بين النظر والعلم كما يقرن بين الاحتراق والنار ؟ وقد يكون هذا الاقتران عادة صرفة أو عادة مع الكسب مما يدل على الخلط بين موضوعي العلم وخلق الأفعال . وقد يكون لزوماً عقلياً محضاً ولكن أيضاً بخلق « الله » وليس عن طريق قوانين العقل . وبالتالي يكون هذا الافتراض هدم لقانون العلية وهدم لأوائل العقول .

وقد تصور الأشاعرة أن القول بالتوليد يعني القول بالوجوب أي وجود علاقة ضرورية بين العلة والمعلول أي بين النظر والعلم ، وبالتالي النيل من « الارادة

---

(١٥٥) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٠، ص ٨٤، ص ٩٣، ص ١٤٥ - ١٤٦، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(١٥٦) هذا هو رأي الأشعري المواقف ص ٢٧ ؛ والحقيقة أن نظرية الأشاعرة ليس لها اصطلاح خاص لأنها رد فعل على نظرية المعتزلة في « التوليد » . وبالتالي تكون هناك نظرية واحدة بالفعل هي نظرية « التوليد » اثباتاً عند المعتزلة ونفياً عند الأشاعرة المقاصد ص ٥٧ - ٥٨ ؛ مطالع الأنوار ص ٣١ . ومما يدعو للتأمل اقتران المذهب الحسي بالدين وبالايمان بالله مع أنه معروف أنه مضاد له !.

الإلهية » التي لا يجب عليها شيء فأنكروا التوليد وجعلوا النظر يتضمن العلم ولا يولده أو يوجده ، هو شرط وليس علة موجبة على عكس التوليد عند المعتزلة الموجب للعلم ايجاب العلة إلى معلولها . وهنا ينشأ الصراع بين نظرية العلم كتحليل للعقل بصرف النظر عن « الإلهيات » وبين نظرية العلم التي تريد أن تكون مقدمة للإلهيات . إن إنكار توليد النظر للعلم وايجاب وجود العلة للمعلول هو في الحقيقة تفكير « إلهي » مقنع إذ لا يجب على « الله » شيء حتى في العلم ؛ في حين أن الوجوب في العلم ضروري لأنه ربط النظر بالعلم عن طريق الدليل هو أيضاً وجوب . لذلك كانت المشكلة جزءاً من خلق الأفعال وليست مسألة علمية خالصة . وسواء كان النظر بفعل الارادة القديمة أو كسباً للعبد فإن إحداث النظر للعلم يتم بفعل إرادة خارجية عند الأشاعرة ــ بالرغم من أن الكسب اقتراب من أفعال الشعور الداخلية ــ وليس بأفعال الشعور . وبالتالي فإن إدخال افتراض « الله » لتأسيس نظرية العلم سابق لأوانه بل وهدم للعلم لأنه أوسع بكثير من موضوع العلم وما زال السؤال: هل النظر يفيد العلم «بالله»؟ لم يطرح بعد داخل نظرية العلم . ومن ثم فكل استباق للفكر « الإلهي » قبل تأسيس نظرية العلم هدم للعلم[١٥٧] .

فضل الأشاعرة ــ بدافع الايمان ودون نظر لتأسيس العلم ما دام الايمان يعطي اليقين والعلم ما هو إلا مبرر سطحي له لترويجه وسط العامة ــ فضلوا إفادة النظر للعلم عادة وخلقاً . كلما حدث النظر أفاد العلم . وبالتكرار تنشأ العادة على ربط النظر بالعلم وعلى وقوع العلم بعد النظر . وهو تصور آلي خالص ينكر عمل الشعور الداخلي . أما الخلق فإنه يحدث بتدخل ارادة خارجية تجعل النظر يفيد العلم وهو التصور المعارض للعادة. يؤدي انكار التوليد إذن إلى التصور الآلي الذي ينكر حياة الشعور ، ويجعلها قاصرة على الانطباعات الحسية أو إلى التصور الإرادي الخارجي الذي يجعل الشعور محلاً لأفعال أخرى خارجية عنه . وكلا

(١٥٧) الشامل ص ١٠٥ ـ ١٠٧ ؛ ص ١١٢ ـ ١١٣؛ الارشاد ص ٦ ؛ التحقيق التام ص ١٦ ـ ١٧ ؛ أنظر أيضاً الفصل السابع ، خلق الأفعال .

التصورين إنكار لحياة الشعور واستقلاله . التصور الآلي تصور ميت لا حياة فيه ، يجعل الشعور في حالة من السلب الدائم لا ينفعه تدخل إرادة خارجية لاحيائه لأنه لا يقوى على ردها . ما هو إلا مستقبل لها ، عاكس لما تريد . وكأن الشعور أصبح محاصراً بين طبيعة ميتة وإرادة خارجية لا تفعل إلا في الأموات ، والانسان نفسه لا وجود له كحياة وشعور وأفعال(١٥٨) .

إنكار التوليد هدم للعلم وللرابطة الضرورية بين المقدمات والنتائج وإلا فإنه يمكن سماع الخبر دون حدوث العلم . ولما كان الوحي قد أتانا بالخبر فإن إنكار التوليد يؤدي إلى إنكار العلم بصحة الكتاب وبصدق الوحي . إيجاب النظر إذن إيجاب للعلم ، ولا وجود للسبب دون المسبب. كمال النظر بتوليد العلم ، وكلاهما مقدور للانسان حسب الدواعي . ولو لم يكن الانسان قادراً على النظر والعلم لما كان قادراً على أضدادهما من النظر والشك . وإذا كان النظر واجباً بالاضطرار فإن المعرفة واجبة بالاستدلال . وجوب النظر ليس متعذراً فهو في الأول مناط التكليف وفي الثاني مولد للعلم(١٥٩) .

ولا ينفي وقوع التوليد بطريقة لا شعورية وقوع التوليد لأن إدراك التوليد يتطلب قلب النظرة من الخارج إلى الداخل ورؤية عمل الشعور رؤية مزدوجة . ومع ذلك فالعلم بالعلم ممكن اضطراراً بل إن العلم بالعلم أساس العلم . يمكن معرفة وجوب النظر للعلم ، وهي نظرية العلم ذاتها ، وتتبع أحوال الشعور ووصف أفعاله التي بها يتأسس العلم . توليد النظر للعلم هو علم العلم ويحتاج إلى نظر واستدلال ، ولا يكون بالضرورة علماً ضرورياً(١٦٠) .

ولا يعني ارتباط العقل بالحس ونشأة جزء من مادة النظر من الحس الشك في

---

(١٥٨) شرح المقاصد ص ٥٨؛ المحصل ص ٢٨ - ٢٩؛ التلخيص ص ٢٩ - ٣٠؛ شرح التفتازاني ص ٢٥؛ التحقيق التام ص ١٦ .

(١٥٩) المعالم ص ٨ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٨٤ - ٨٧ ، ص ١٩٦ - ١٩٨، ص ٢٠٨ - ٢٠٩، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(١٦٠) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٩٥ ، ص ١٤٤ - ١٤٦ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

توليد النظر للعلم فالنظر قادر على احضار الغائب ، وهو ما لا يستطيعه الحس ، وقادر على تأمل ما يغيب عن الحس . والعقل قادر على تصحيح أي خطأ في المادة الحسية ، وهو قادر كماً وكيفاً على تجاوز الحس . ويصعب الشك في صحة الادراك الحسي لأن الحس أحد مصادر المعرفة وأحد وظائف الشعور والشك فيه يفصله عن عالم الشعور ، ويصبح الشعور مجرد وعي فارغ بلا عالم . ولا يمكن رد كل النظر العقلي إلى الحس لأنه أوسع نطاقاً وأشمل منه . وكلاهما من أفعال الشعور مع معطيات الوجدان . والكل داخل الشعور المعرفي الذي هو في نفس الوقت احساس بموقف وادراك لطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها الجماعة[١٦١] .

ولا ينفي الوقوع في الخطأ توليد النظر للعلم إذ يمكن معرفة أسباب الخطأ وتصحيحها ومراجعة النظر في مقدماته واستدلالاته . الخطأ شائع ويمكن تصحيحه بمقاييس الصدق مثل سكون النفس ، والمطابقة مع الواقع واتساق الفكر مع نفسه وانكشاف ماهيات الأشياء في الشعور . قد يحدث الخطأ من الحواس أو العقل أو الوجدان ولكن حدوث خطأ في وظائف الشعور يصحح بعضها بعضاً وبالتالي لا تنفي توليد النظر للعلم[١٦٢] .

ولا ينفي افادة القياس الظن توليد النظر للعلم لأنه على قدر المقدمات تكون النتائج . التوليد عملية استخراج المعاني بصرف النظر عن درجة يقينها . وقد يتحول الظن إلى يقين بعد النظر في الأدلة من أجل الحصول على البرهان[١٦٣] . ولا يعني تفاوت العلم بين الخفاء والجلاء أو الضعف والقوة أو القلة والكثرة أن النظر لا يولد العلم فالنظر بطبيعته نتيجة لأفعال الشعور أو فعل له . والشعور حالات متغيرة ، وتيار حي دائم ، يتفاوت النظر فيه بين الخفاء والجلاء . وتكون مهمة الايضاح هي الانتقال من الخفاء إلى الجلاء ، ومهمة أنماط الاعتقاد الانتقال

---

(١٦١) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٥٦ ـ ١٥٧، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ أنظر أيضاً سابقاً ، ثالثاً : أقسام العلم والرد على خداع الحواس .

(١٦٢) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٥٣ ـ ١٥٦ ، ص ١١٩ ـ ١٢٢ .

(١٦٣) التلخيص ص ٢٩ ـ ٣٠.

من الظن إلى اليقين حتى يتأسس العلم في الشعور . والوضوح والجلاء في النظر والعلم يكتسبان أثناء عملية التأسيس ولا يحدثان في البداية . فإذا كان اليقين في العلوم الرياضية صورياً بتطابق العقل مع نفسه ، وفي العلوم الطبيعية مادياً بتطابق العقل مع الواقع فإنه في العلوم الانسانية ، في علوم الشعور ، تتفاوت المراتب طبقاً لحالاته . بالإضافة إلى أن نظرية العلم هي في الحقيقة تحليل لعلم العلم أو تأسيس للعلم السابق على كل علم خاص ، تحليل لأفعال الشعور في العلم من حيث هو علم ووصف لحركة الشعور الداخلية(١٦٤) .

والنظر لا يفسد الشعور لأن الشعور محل النظر ويعطيه أساسه ومادته وتولده الذي هو خلق العلم وابداعه . كما أن الشعور لا يفسد النظر بل يحميه من التشعب والصورية ويحرص عليه من الوقوع في التجريد والشكلية . ولا ينفي الاجهاد الناشىء من النظر صحته وتوليده للعلم فالاجهاد يتم في الحس والعقل والوجدان والسمع (الخبر) . ولكن يتم النظر في حدود الطاقة الانسانية وعلى قدر الجهد الانساني . ويمكن التخفيف من حدة الاجهاد بالنظر في أوقات متفاوتة بعد راحة البدن ومع حدوث الاطمئنان في النفس ، وبوجود البواعث ، وبالاحساس بالغاية ، والالتزام بالموقف ، والعمل من خلال الجمعيات المتخصصة ، والعمل السياسي المنظم ، والعمل الجماهيري بدعوة الناس إلى استرداد الحقوق ، والعمل اليومي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتجرد والنقاء والعطاء الكلي للهدف القومي . كل ذلك يجعل النظر حاضراً دائماً نشطاً خلاقاً مولداً للعلم دون اجهاد أو ملل ، بحسن نية ، وبلحظات صدق ، وبتذوق للجمال ، وبمشاعر حب للناس ، وبضم للعالم كله(١٦٥) .

ولا يعني حدوث العلم لفرد دون آخر بالرغم من ممارسة كليهما للنظر نفي التوليد لأن شعور كل فرد متميز عن غيره بدرجة في اليقظة والانتباه والتوتر وسرعة ادراك الدلالة . فاختلاف العقلاء في العلم لا يقضي على توليد النظر للعلم .

(١٦٤) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ص ١٥٣ - ١٥٦ .
(١٦٥) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٥٧ - ١٦٠ .

والاختلاف بين الناظرين لا يقضي على موضوعية العلم . إذ يرجع الاختلاف إلى تباين القراءات أو الفهم أو التحصيل أو التعبير أو حتى المصالح والأهواء التي يصعب التجرد منها أو ظروف العصر أو القدرة على اكتشاف وجه الدلالة أو طرق الاستدلال من المقدمات إلى النتائج أو إدراك العلوم الضرورية أو درجات الاكتساب للعلوم النظرية . ينشأ الاختلاف بين العلماء نظراً لاختلاف أنظارهم في الأدلة ، وتفاوتها لديهم بين الغموض والوضوح ، والضعف والقوة ، والظن واليقين ، والشك وسكون النفس ، والقدرة على دفع الشبهات ، والتفريق بينها وبين الحجج . ولا يختلف العقلاء على شهادة الحس وأوليات العقل ومعطيات الوجدان . ومقاييس الصدق واحدة عند الجميع(١٦٦) .

وأخيراً فإن القول بأن إعمال النظر بالرغم عن توافر كل الشروط لا يولد العلم إنكار للنظر وللعلم على السواء ، وهدم للعقل وللحقائق معاً ، ووقوع في اللاأدرية والشك أو في السر كموضوع للالهام أو في التقليد والتسليم . إذا ما توافرت الدواعي على النظر يتم النظر ، وإذا ما حدث القصد إلى النظر وتوافرت الأدلة تولد العلم . وإن لم يتولد العلم يكون العيب في غياب الدلالة . النظر نظر في الدليل ، وإدراك لوجه الدلالة والاستدلال بها على المطلوب . لذلك كان في النظر ما يولد وما لا يولد طبقاً للنظر في الدليل والعثور على وجه الدلالة(١٦٧) .

د ــ لم يبق إلا أن النظر يفيد العلم عن طريق التوليد أي أن فعلاً يوجب فعلاً آخر . النظر فعل للانسان يتولد منه فعل آخر هو العلم . النظر فعل من أفعال الشعور الداخلية ، القصد إليه فعل الانسان ولكن النظر كفعل من أفعال الشعور لا دخل للارادة فيه إلا من حيث القصد والنية والتوجه والفعل(١٦٨) . والتوليد حادث في الشعور ، فالشعور تيار مستمر ، تتوالى أفعاله فيتولد العلم . وهو الاستنباط الصوري القديم ، استنباط النتائج من المقدمات ولكن على مستوى

(١٦٦) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٣٧ ـ ١٥٠ .

(١٦٧) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٥٣ ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(١٦٨) هذا هو رأي المعتزلة ، المواقف ص ٢٧ ـ ٢٨ .

أفعال الشعور . أما التذكر فبالرغم من أنه يبدو غير مولد للعلم لأن التذكر ليس فعلاً إرادياً مباشراً إلا أنه في الحقيقة كالنظر ، كلاهما فعلان من أفعال الشعور ومولدان للعلم . فالقصد إلى التذكر ممكن وبالتالي يكون فعلاً إرادياً كالنظر حين التوجه إليه والنظر قد يكون مثيراً للتذكر ، يأتي النظر بمادة المعرفة من الحاضر ، ويأتي التذكر بمادة المعرفة من الخبرات المختزنة ، وكلاهما يشترك في الدلالة . النظر يستدعي التذكر كما يستدعي الحاضر الماضي ، وكلاهما يتحرك بالبواعث وينشط بالمقاصد والغايات . إذن قد يولد التذكر العلم فبالتذكر يمكن العثور على دلالات كانت غائبة ثم حضرت . وينشأ قياس النظر على التذكر أو قياس التذكر على النظر من أن كليهما من أفعال الشعور التي تحضر الدلالات وتولد العلم . ولا يعني القياس هنا افادة الظن أو اليقين بل يعني التماثل في أن كليهما من أفعال الشعور . التذكر نوع من النظر المفاجىء إذ يتذكر الانسان بغتة أو ينظر إلى الوراء إذا ما استرجع ذكرياته ورأى دلالاتها . ولا تتزاحم الذكريات فيكون أحدها أولى بالتوليد من الآخر ، لأن الذاكرة لا تعمل إلا بالدواعي ، والدواعي أساس التكليف . لا يتذكر الانسان إلا ما هو مدفوع نحوه ، وما هو في حاجة إليه ، وما يحياه في شعوره الحاضر من تحقيق المطالب أو تطلعه نحو المستقبل مثل الخوف من ترك النظر . وطالما أن العلم لا يتولد إلا بتذكر الأدلة وعدم نسيانها فذلك يدل على أن التذكر كالنظر ، كلاهما يولد العلم(١٦٩) .

والمتولدات لا تروك لها بل تتسم بالاستمرارية والتواصل وإلا استدعى الأمر تولداً جديداً في كل حالة وانقطاع الذاكرة . وباصطلاح القدماء يولد الاعتماد الاكوان . النظر إذن واجب حالاً بعد حال ويولد العلم ، ويستحق المكلف الثواب بفعله والعقاب بتركه . الزمان متصل ، والواجب أيضاً متصل ولا حاجة إلى تجديد التكليف . الأمر على الدوام وليس على الانقطاع . تتوالد المعارف من بعضها البعض حتى ولو بدت منقطعة في لحظات . إن التصور الاشعري لأفعال الشعور

---

(١٦٩) المحصل ص ٢٩ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٨٤ ـ ٨٧ ، ص ١٢٧ ـ ١٣٧ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

الداخلية والخارجية يحتاج إلى تدخل إرادة خارجية مشخصة في كل لحظة من لحظات الشعور وهو يقوم بأفعاله لأنه غير قادر بطبيعته على الاستمرارية والدوام . لا يتوقف الواجب إلا بوجود الموانع ، وامتناع الشروط مثل الغفلة والنوم أو الجنون والبله والاخترام (الموت) ، وعدم توافر الدواعي ووجود الصوارف . لا يعني ذلك وقوعاً في الجبرية ، إذا حدث السبب حدث المسبب بل يعني الاعتراف باستمرارية أفعال الشعور من البداية إلى النهاية . الارتباط وجوبي وجودي وليس ارتباطاً علياً مادياً فحسب . الارتباط الأول هو الأساس والجوهر والثاني هو الفرع والظاهر . لا يعني ذلك « وجوب توبة الرامي قبل أن تصل الرمية » بل وجوبها عن قصد الرماية وهو قصد موجود . إذا كان المكلف قادراً على النظر فهو فاعل النظر ، وهو القاصد إليه بحسب إرادته ودواعيه . بل إن أفعال الشعور مرتبطة بالدواعي والمقاصد . فالسهو طارىء ، والترك عرضي[١٧٠] .

ليست علاقة النظر بالعلم إذن علاقة صورية خارج الزمان بل علاقة تنشأ في الزمان . يحتاج التوليد إلى زمان حتى يُحدث النظر العلم . قد يحدث التوليد في اللحظة ، وقد يحدث في التأني أو باصطلاح علماء أصول الفقه قد يحدث على الفور وقد يحدث على التراخي . ويرتبط الزمان بالاستعداد الطبيعي . يحتاج الشعور اليقظ إلى زمان أقصر مما يحتاجه الشعور البليد . كما يختلف احساس كل منهما بالزمان من حيث الشدة والتوتر[١٧١] . ولما كان النظر يتم في الوقت فإنه قد يقع في الحال بعد حدوث الخاطر دون أن يكون محدداً بوقت التكليف مثل الصلاة حاضراً أو قضاء ، على الفور أو على التراخي ، في الوقت المضيق أو الوقت الموسع . لا يعني ذلك أنه يحدث في أي وقت بل في الوقت الأول للوجوب وفي الوقت الثاني لتوليد العلم وفي الوقت الثالث للممارسة والفعل . ومع ذلك فقد يكون الأفيد للشعوب التي لا تشعر بوجوب النظر عليها أن يجب عليها في الحال ، على الفور

(١٧٠) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٨٤ ـ ٨٧ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٥ ، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ ، ص ٤٦٧ ـ ٤٧٠ .

(١٧١) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٤٧ ـ ١٥٠ .

دون التراخي، وحاضراً دون قضاء ، وفي الوقت المضيق دون الوقت الموسع حتى يتم ايقاظها من سباتها .

ليست صلة النظر بالعلم إذن صلة آلية ، بمجرد وجود النظر يحصل العلم بل لا بد من التوليد وهي الحالة الشعورية التي يحصل فيها النظر ، ويتولد منها العلم إذا توافرت شروط التوليد . ليس كل من علم قواعد الشعر شاعراً ، ولا كل من علم قواعد اللغة كاتباً ، يمكن معرفة كيفية التوليد ولو أن ذلك ليس شرطاً ضرورياً لتوليد النظر العلم . ولكن يستطيع فيلسوف العلم أو مؤسِّسه وصف أفعال الشعور ويبين كيفية التوليد . قد لا يعلم الشاعر ضرورة كيفية حدوث عملية قرض الشعر ولكن عالم الفن قادر على ذلك بوصفه لعمليات الخلق الفني . وقد لا يتم هذا الوصف قبل توليد النظر العلم . الوصف هو وصف لشيء . يحدث الشيء أولاً ثم يتم وصفه ثانياً . لا يعني ذلك أن النظر لا يولد العلم لأن العلم بكيفية التوليد قد يحصل بعد التوليد ذاته عن طريق الاستبطان . ولكن عدم العلم بكيفية الشعور لا ينفي حدوث التوليد(١٧٢) .

التوليد إذن هو طريق الحصول على الدلالة بعد النظر في الدليل . الدلالة بداية اليقين واستبعاد مضادات العلم من شك وظن ووهم وجهل وتقليد . ولا تحدث إلا في الشعور اليقظ المنتبه دون شعور النائم والغافل ، ولا تقع إلا في الشعور العاقل دون شعور الطفل أو الصبي أو المجنون . لا يعني التوليد ارتباطاً عِلّياً بين النظر والعلم دون أي شروط بل يعني انكشاف الدلالة في الشعور ورؤية الماهية بتوافر الشروط . الشعور خالق للمعاني وواهب للدلالات ، يتولد فيه العلم . لا يوجب النظر العلم آلياً بل بواسطة الدليل . النظر في الدليل يؤدي إلى العلم بالمدلول . وإذا ما عثر الناظر على المدلول فعليه إعادة النظر حتى يعثر على الدليل فلا مدلول بلا دليل(١٧٣) .

---

(١٧٢) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .

(١٧٣) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٦٩ ، ص ٧٧ ـ ٨٤ ، ص ٩٢ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٣ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٧ .

والتوليد شرط صحة النظر . إذا طال النظر ولم يحدث العلم فإنه يكون حتما قد توجه بعيداً عن الأدلة . ولا يمنع وقوع الشبهات في النظر نفي التوليد فالشبهات تجيء وتذهب ، والناظر قادر على التمييز بين الشبهة والدليل وذلك بسكون النفس إلى الدليل وطردها للشبهة . كما تنبه الدواعي والخواطر على صحة النظر وتوليده للعلم . إن الوعي الدائم بوجوب النظر يولد العلم ضرورةً بالحدس أو الاستدلال . ولا يؤدي عدم النظر إلى الجهل لأن عدم النظر ليس فعلاً بل تركاً ، والترك لا يتحول إلى فعل . كما لا يولد النظر الشبهات . فالتوليد طريق العلم ونفي الجهل عن طريق الدلالة ، والدلالة محو للشبهة ولا يتضمن بالضرورة توجيه الشك والظن فالجهل عدم العلم ، وهو إدراك العلم ابتداء ولو بطريق النفي . والشك لا يولد العلم . ولا يعني احتمال أن يؤدي النظر إلى جهل انتفاء النظر ، فالنظر لا يولد الجهل لأن الجهل اعتقاد جازم غير مطابق يحدث من غير نظر بل لمجرد الاعتقاد ، وهو ضد العلم(١٧٤) .

وهناك فرق بين العلم الضروري في التوليد والعلم الضروري في الالهام . يتم العلم الأول بأفعال الشعور الداخلية بعد النظر في حين أن الثاني يحدث بالإلهام الناتج عن الطبيعة دون نظر . ويتم الأول بطريقة الرؤية والحصول على الأدلة في حين يتم الثاني فجأة وبلا مقدمات ودون حاجة إلى دليل. ويمكن مراجعة الأول والتحقق من صدقه في حين لا يمكن مراجعة الثاني أو التحقق من صدقه بل يكون تعبيراً عن طبيعة ، ويكون صدقه مرهوناً باطراد الطبيعة(١٧٥) .

٢ ـ **شروط النظر** : لا يحدث النظر إلا بشروط هي نفسها شروط العلم من حياة ويقظة وانتباه ونظر . فالحياة شرط العلم لأن العلم حالة للشعور(١٣٦) .

---

(١٧٤) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٦٩، ص ١٠٤ ـ ١١٣، ص ١١٦ ـ ١١٨، ص ١٢٧ ـ ١٣٧ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨ ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(١٧٥) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٩٠ ، ص ٩٦ .

(١٧٦) المواقف ص ٢٨ ؛ انظر أيضاً في هذا الفصل تعريف العلم . أطلق القاضي اسم الشرط على النظر . الشامل ص ١١٠ ـ ١١ .

وكذلك شرط النظر مطلقاً هو الحياة . لا نظر بدون حياة ، وانتهاء الحياة معناه انتهاء النظر . الأحياء الذين لا يُعملون النظر أموات، والأموات الذين ما زلنا نتعامل مع نظرهم أحياء . ليست الحياة فقط شرط النظر بل نتيجته، ليست فقط مقدمته بل ثمرته ، وليست الحياة فقط شرطاً للعلم بل هو الشرط العام الشامل لليقظة والانتباه والنظر والعلم والمعرفة . هي شرط القدرة والسمع والبصر والكلام والارادة . وقد دعا ذلك البعض إلى اخراج هذا الشرط من حد العلم . ومع ذلك تظهر الحياة كشرط للعلم في الإلّهيات كما تظهر في الطبيعيات . ففي الإلّهيات الحياة شرط العلم والقدرة في صفات الذات . وفي الطبيعيات الحياة شرط وجود الأجسام(١٧٧) .

وقد يتميز شرط النظر أكثر فيصبح العقل . فالنظر يتم بالعقل ، ومن له عقل له نظر ، ومن لا نظر له لا عقل له . وقد يتميز شرط العقل بشرطي الانتباه واليقظة لما كان العقل هو حياة الشعور اليقظ المنتبه . الانتباه من الغفلة ، واليقظة ضد النوم . فالعلم مظهر من مظاهر الحياة ، والحياة هي اليقظة والانتباه . لا علم لميت أو نائم أو غافل . والعلم أيضاً يبعث على الحياة واليقظة والانتباه . هناك إذن علاقة متبادلة بين الشرط والمشروط . لا يحدث العلم إلا بالحياة واليقظة والانتباه وفي نفس الوقت يبعث العلم على الحياة واليقظة والانتباه . وما يحدث في عالمنا هذا من تجاور العلم والغفلة يجعلنا نشك في صحة العلم . لو كان العلم صحيحاً لما حدث إلا باليقظة ولأحدث الانتباه(١٧٨) .

وقد يجعل البعض النظر ليس فقط شرطاً للعلم بل مضاداً له لأنه عدم

(١٧٧) اشترط المعتزلة في وجود الحياة في الشيء أن يكون ذا بنية مخصوصة أقل أجزائها ثمانية أو ستة أو أكثر حسب اختلافهم في عدد أجزاء الجسم . وأجاز الصالحي منهم وجود العلم والقدرة والادراكات في الأموات . واشترط الأشعري الحياة في وجود الكلام فيما ليس بحي وأجاز القلانسي من أهل السنة وجود الكلام فيما ليس بحي . ولم تجز الكرامية وجود القدرة إلا في حي . المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٥ ، الشامل ص ١١٠ ، الأصول ص ٢٨ - ٣٠ .

(١٧٨) شرح المقاصد ص ٧٤ ؛ الارشاد ص ١٥ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٢٠ - ٢٢٥ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٨ .

حصول العلم . والحقيقة أن التضاد هنا غياب وليس تعارض وجود . ومن ثم كان النظر أقرب إلى الشرط منه إلى التضاد . العلم يحدث بالنظر ، والـذي يضاد العلم هو الشك والظن والوهم والجهل والتقليد . وقد يجعل البعض الآخـر النظر مؤديـاً إلى العلم دون أن يكون شرطاً له . فشرط العلم هو الحياة مقارنـاً للمشروط ، ولا يتصور مقارنة النظر للعلم . والحقيقة أن هذا اما اقلال لشأن النظر أو مجـرد خلاف لفظي واستبدال لفظ شرط بلفظ آخر هـو مؤدى ، الأول يدل عـلى الثبوت والثـاني يدل على الحركة ، الأول يدل على عدم وجود الضد مثل غياب الادراك والثاني يدل على ضرورة وجود المنهج وهو النظر(١٧٩) .

ولا يحتـاج النظر إلى علم مسبق إذ أنـه سـابق عـلى أي علم . بـل أن عـدم العلم شرط صحة النـظر لأن النظر يؤدي إلى العلم . وإذا كـان هناك نـظران بعد العلم بالمنظور الأول فإنه يدرك وجهاً آخر من الدليـل لم يدركـه النظر الأول . فـلا يمتنع وجود فكرين في حالـة واحدة . وعنـد من يمنع ذلـك يقضي النظر الثـاني على ذهول الناظر عن العلم بالنـظر الأول . وإذا أمكن العلم بالمـدلول دون نـظر يكون النظر ضرورياً لايجاد البرهان ، ويكون النظر هنا تراجعياً من النتائـج إلى المقدمـات أو من الحدس إلى البرهان . والحدس أحد مراحل النظر وكذلك التأمل البـاطني أو الانتبـاه المستمر أو رؤ يـة الواقـع ، كلهـا لحـظات للنـظر بشـرط ألا يؤدي الجـزم بـالمطلوب أو بنقيضـه إلى تحجر البحث وتعـثر النظر فـالجزم اعتقـاد قـاطـع مضـاد للنظر(١٨٠) . في حين يرى البعض الآخر أن العلم بـالمطلوب أو الجهـل المركب بـه يبطل النظر . إذ كيف يتم النظر فيما علم من قبل ؟ وعلى هذا النحو يُبطِلُ النظرُ في وجود « الله » ممن يعلمه مسبقاً صحةَ النظر . وادخال « الله » كافتراض مسبق قبـل اثبات وجوده في أي نظرية في العلم يبـطل النظريـة . كما أن الجهـل المركب يبـطل

---

(١٧٩) الارشاد ص ٥ ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ الشامل ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(١٨٠) الشامل ص ٩٧ ـ ٩٩ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ المعالم ص ٨ ؛ المقاصـد ص ٧٢ ؛ شرح المقـاصد ص ٧٣ ـ ٧٤ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١١ ـ ١٢ وهذا هو معنى قـول المسيح « لن تبحث عني إن لم تكن قـد وجدتني من قبـل » . أنظر أيضـاً بحثنـا عن هـذا المنهج في « حكمـة الاشراق والفينومينولوجيا » ، دراسات اسلامية .

النـظر أي عدم العلم بـالعلم أو عدم العلم بـالنظر ومن لا يعـرف أن النـظر يفيـد العلم فإنه لن ينظر . والجهل المركب هو ألا يعلم الانسان أنه لا يعلم .

ونـظراً لقسمـة النـظر إلى صحيـح وفـاسـد ، هنـاك شـروط خـاصـة للنـظر الصحيح . وعلى رأسها اثنان : الأول أن يكون النظر في الدليل دون شبهـة والثاني أن يكون النظر في الدليل من جهة الدلالة وهذا كله أدخـل في نظريـة الاستدلال . أما البحث في الدليل والمدلول والدلالة ووجه الدلالة هل هي شيء واحد أم أشيـاء متغـايرة فـذلـك كله مـا يخـرج عن نـطاق نـظريـة العلم ويـدخـل في ميتـافيـزيقـا العلم[181] . وهي أقرب إلى المشكلات الميتافيزيقيـة الخالصـة التي تنشأ من خـارج نـظرية العلم مثـل هل صفـة الشيء هي الشيء أم غيـره أم لا هـو الشيء ولا هـو غيـره . يكفينا في نـظرية العلم أن يكـون وجه الـدلالـة هـو الـرابط بـين الـدليـل والمدلول . أما قضية هل يقتضي الاثبات بـالدليـل اثبات المـدلول أم اثبـات العلم بالمدلول (أو بتعبير لاحق على نظرية العلم وأدخل في نـظرية الـوجود : هـل يؤدي الدليل على حدوث العالم إلى حدوث العـالم نفسه أم إلى العلم بحـدوث العالم ؟ أو بتعبير لاحق على نظرية الوجود وأدخل في نظريـة الذات : هـل يؤدي الدليـل على وجود « الله » إلى اثبات وجود الله أم إلى إثبات العلم بـوجود الله ؟) فـإن الأمر مـا دام يتعلق بنظرية العلم وحدها فالدليل يؤدي إلى المدلول من حيث هو علم لا من حيث هو واقع . ومن ثم لا ينقسم المدلول إلى وجود وعدم أو قـدم وحدوث . ولا يمكن أن تتحول نظريـة العلم إلى نظريـة وجود ، أو تكـون تقسيمات الـوجود هي تقسيمات العلم أي أحكام عقلية عن المعلوم . إن الانتقال من الـدليل العقـلي إلى المدلول الواقعي يقوم عـلى حكم مسبق هو تـطابق عالم الأذهـان مع عـالم الأعيان ، وهو الموقف الأشعري وموقف الحكماء الذي يفتـرض الدليـل الانطولـوجي العام في صلة الفكر بالواقع على عكس الموقف الأعتزالي وموقف الفقهـاء الذين يميـزون بين

---

(١٨١) هناك ثلاثة أمور: أ ـ العلم بذات الدليل ب ـ العلم بذات المدلول جـ ـ العلم بكـون الدليل دالاً علـى المـدلول، والأول مغاير للثاني والثالث . المواقف ص ٣٤ ؛ المحصـل ص ٣٠ ؛ الشامـل ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ المقاصد ص ٧٣ ؛ شرح المقاصد ص ٧٤ ؛ الخلاصة ص ٧ .

عالم الأذهان وعالم الأعيان ، بين مقولات الذهن وبين الأشياء في العالم ، بين بناء الذات وتكوين الموضوع(١٨٢) .

لقد اكتفى القدماء بمطالبة الناظر بالدليل الاجمالي دون التفصيلي بينما اشترط البعض الآخر التفطن لكيفية الاندراج ، وتركيب المقدمات ولزوم النتائج منها ومنعه آخرون إلا بتصديق ثانٍ وهو ما يلزم بالتسلسل أو لأنه متفاوت في الجلاء والخفاء(١٨٣) . والحقيقة أن ترتيب المقدمات ولزوم النتائج وكيفية الاندراج كل ذلك جزء من نظرية العلم ولكن في طرق النظر وليس في النظر ذاته الذي يفيد العلم . ومنهج الايضاح أحد طرق النظر . ونظراً لأهمية الأساس الشعوري للعلم أصبح من شروطه هذا التفطن لكيفية الاندراج والترتيب .

سادساً : وجوب النظر .

النظر واجب اجماعاً . ولكن الخلاف في طريق ثبوته سمعاً أم عقلاً(١٨٤) . لا خلاف إذن على وجوب النظر ، وكل من لا نظر له فقد أخل بالواجب الذي أقره الاجماع بصرف النظر عن موضوع النظر(١٨٥) . ويرتبط موضوع الوجوب السمعي أو الوجوب العقلي بموضوع الحسن والقبح العقليين نفياً أو اثباتاً . فالوجوب السمعي يقوم على انكار الحسن والقبح العقليين . الحسن ما حسّنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع في حين أن الوجوب العقلي يقوم على اثباتها ، فالنظر حسن في ذاته وعدم النظر قبيح في ذاته . يعلم المكلف حسن النظر وقبح عدم النظر كما يعلم حسن المعرفة وقبح الجهل . يقوم وجوب النظر إذن على صفة في النظر ، فهو وجوب موضوعي . وهذا لا يعني الوجوب الجبري لأنه قائم على الدلالة وهو حسن النظر(١٨٦) .

---

(١٨٢) أنظر تحليلنا لهذا الدليل في « نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط » ص ١١٨ - ١٣٠ .

(١٨٣) هذا هو رأي ابن سينا . وقد عارضه الرازي وأيده الايجي .

(١٨٤) الوجوب بالسمع هو موقف الأشاعرة ، والوجوب بالعقل موقف المعتزلة .

(١٨٥) موضوع النظر هو موضوع الفصل الرابع « نظرية الوجود » .

(١٨٦) تحفة المريد ص ٢٩ ؛ القول المفيد ص ١٣ ؛ التحقيق التام ص ٣٥ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر المعارف ص ٢٤٣ - ٤٨٩ ، انظر أيضاً الفصل الثامن .

١ ــ الوجوب السمعي : تشهد له آيات كثيرة تحث على النظر والتفكر وكذلك الأحاديث العديدة[١٨٧] . ولكن هذه الشواهد النقلية معارضة بشواهد أخرى يوردها المنكرون للنظر ، حجة بحجة ، ونقلاً بنقلٍ وسمعاً بسمع . كما نقلت روايات عن النبي تنهى عن الخصام والجدل في مسائل القدر تقابلها روايات أخرى تحث على النظر[١٨٨] . والحقيقة أن وجوب النظر يختلط بموضوع النظر فليس السؤال عن موضوع النظر، « الله » أم القدر بل النظر ذاته كمنهج أو كطريق للمعرفة بصرف النظر عن موضوع المعرفة .

والحقيقة أن جعل الوجوب الشرعي متوقفاً على النبوة ، والنبوة على المعجزة يجعل الدليل كله متوقفاً على التبليغ الذي لا يتم إلا عن طريق التواتر . ومن ثم أصبح الدليل خارجياً ثلاث مرات . يتوقف الوجوب على النبوة أولاً وعلى صدقها بالمعجزة ثانياً ، وعلى صحة نقل المعجزة ثالثاً . أما افتراض الوجوب كمجرد امكانية قبل التبليغ فهو افتراض ما لا يطاق[١٨٩] .

كما يقوم الوجوب السمعي على أساس النظر والفهم . فانكار النظر انكار للوجوب السمعي ، والعقل أساس النقل باجماع الأصوليين . ولا يمكن الدفاع عن الوجوب السمعي بأن الوجوب لا يتوقف على العلم بالوجوب حتى يلزم الدور ويتوقف على الادراك وسلامة الآلات لأن العلم بهذا الوجوب عقلي خالص إذ لا

---

(١٨٧) يذكر الايجي عدة آيات منها ﴿ قل انظروا ما في السموات والأرض ﴾ ، ﴿ فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ، ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ، ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ﴾ ، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ وأحاديث الرسول مثل « ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها » ، المواقف ص ٢٨ ـ ٣١ .

(١٨٨) يذكر الايجي بعض الآيات القرآنية مثل ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق بل هم قوم خَصِمون ﴾ ، ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ ؛ ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ؛ ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ . كما يذكر بعض الأحاديث النبوية مثل « من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد » وأيضا « عليكم بدين العجائز » .

(١٨٩) الارشاد ص ١٠ ـ ١١ ؛ الشامل ص ١٩ .

يدرك الانسان الوجوب إلا بالنظر أي بالعقل . كما لا يمكن الدفاع عنه على أساس أن الوجوب العقلي يعتمد على مقدمات لا يمكن الوصول إليها بالعقل لأن الوجوب العقلي لا يحتاج إلى نظر سابق يُعرف به وجوب النظر ، وذاك إلى نظر آخر إلى ما لا نهاية لأن النظر بداية أولى وحكم بديهي ، وبرهان وجداني . وافتراض أن يقوم النظر على مقدمات غير نظرية هو تسليم بأن مضمون النظر سابق على النظر ومضمون النظر عند الأشاعرة هي العقائد الدينية فكيف تكون هي المقدمات الأولى ، وهو المطلوب تأسيسها ؟ ألا يكون ذلك مصادرة على المطلوب . هذا بالاضافة إلى أن هذه المقدمات النظرية الأولى مثل «ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب»مقدمات يعتمد عليها الأشاعرة أيضاً في اثبات الوجوب السمعي ، وانكارها انكار لبدايات العقول ، واعتبار العقل « صفحة بيضاء » إلا من مضمون الايمان أي العقائد الدينية . إن حكم العقل من حيث المبدأ ليس حكماً باطلاً لأن هذه هي بدايات العلم كما أنه ليس مستحيلاً لأن امكانية العلم مرهونة بحكم العقل . ولا يهم تحديد بداية لحكم العقل في الزمان قبل البعثة أو بعدها ولكن بعد انتهاء آخر مرحلة من مراحلة الوحي واعلان استقلال الشعور الانساني عقلاً وارادة يتوحد فيه العقل والوحي ويصبح زمان البعثة أو بعدها بغير ذي دلالة ، فحكم العقل هو حكم الوحي(١٩٠) .

لا يتم الوجوب الشرعي إلا بالعقل وذلك لأن الانسان لن ينظر الوجوب الشرعي ما لم يعلم ذلك بالنظر ، فالنظر هو أول الواجبات . وما دامت المعرفة واجبة شرعاً وتحصل أولاً بالنظر فإن الوجوب الشرعي يكون للنظر وليس للمعرفة الواجبة شرعاً ، وتكون المعرفة مشروطاً والنظر شارطاً(١٩١) . ولا بد من معرفة مصدر الوجوب ، وكيف نشأ ، بالعقل أو بالسمع لأن الاكتفاء بالوجوب وحده بصرف النظر عن مصدره تسليم بحجة السلطة دون مبرر ، وبالتالي فهو موقف

---

(١٩٠) التحقيق التام ص ٣٤ ـ ٣٩ ؛ القول المفيد ص ١٣ ؛ أنظر أيضاً مقدمتنا لكتاب لسنج : تربية الجنس البشري .

(١٩١) التحقيق التام ص ٣٧ ـ ٣٨، القول المفيد ص ١٣ .

تعسفي يؤدي إلى هدم الوجوب من أساسه سواء كان عقلياً أم سمعياً . يقوم الوجوب على التأسيس ، ولا وجوب بلا أساس وإلا خدم الوجوب أوضاع التسلط والطغيان التي نشأت في القرون الأخيرة إثر الخلط بين الواجب الديني وطاعة السلطان(١٩٢) . إذن لا يمكن أن يكون النظر واجباً شرعاً لأن وجوب الشرع لا يتم إلا بالنظر وإلا تسلسل الأمر إلى ما لا نهاية ، ومن ثم ، لزم الوجوب العقلي .

وكما يكون الوجوب الشرعي بالسمع يكون بالاجماع . وكما أن الوجوب السمعي خاضع للنظر لأن النص يحتاج إلى فهم وتفسير وذلك لا يتم إلا بالنظر مع افتراض صحته وتواتره وهو ما لا يثبت أيضاً إلا بالنظر، فإن الاجماع لا يتم إلا فيما لا نص فيه . وما دام النظر قد وجب بالسمع أي بالنص فدور الاجماع هنا زائد لا لزوم له . وما دام النظر كطريق للمعرفة قد علم بالعقل فتركيب قياس يدخل فيه النص والاجماع تركيب زائد لأن معرفة النظر كطريق للعلم بالعقل يجعل النظر واجباً بالعقل . هذا فضلاً عن أن الاجماع ليس حجة عقلية بل هو مجرد حجة تعتمد على السلطة ، سلطة الجماعة ، وأن الاجماع غالباً ما يكون له معارض من داخل الجماعة ، ويتغير من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل إلى آخر ما هو معروف من نقد لحجية الاجماع في علم أصول الفقه وعند أصحاب المعارف الضرورية في علم أصول الدين . لا يوجد اجماع مطلق بل اجماع منقوض ، بل ويوجد اجماع مضاد . هذا بالاضافة إلى خضوع الاجماع لمناهج النقل والرواية إما استحالةً نظراً لانتشار المجتهدين في كل مكان أو احتمالاً للخطأ وهو وارد في النقل(١٩٣) .

---

(١٩٢) القول المفيد ص ١٣ .

(١٩٣) الارشاد ص ١١ ـ ١٨ ؛ الشامل ص ٩٧ ، ص ١١٥ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ اتحاف المريد ص ٢٤ ، ص ٣١ ؛ تحفة المريد ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ص ٣٢ ؛ الخريدة ص ١٣ ؛ شرح الخريدة ص ١٢ ـ ١٣ ؛ التلخيص ص ٢٧ ، المقاصد ص ٧٧ ـ ٨٢ ؛ شرح المقاصد ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ شرح العقيدة ص ١٤ ـ ١٥ ؛ القول المفيد ص ١٢ ـ ١٣ ، التحقيق التام ص ٣٥ ـ ٣٨ ، والناقدون للاجماع من علماء أصول الفقه مثل ابن حزم ومن علماء أصول الدين مثل النظام . يورد الأشاعرة أحياناً النظر بالحجة الآتية لاثبات وجوبه باجماع الأمة :

أجمعت الأمة على وجوب معرفة الباري =

وأحياناً يكون الوجوب الشرعي بالنص والاجماع معاً . وفي هذه الحالة يظل النص ظنياً ولا يتحول إلى يقين إلا بالاجماع . الدليل السمعي ظني لأن الحجج النقلية حتى لو تكاثرت وتضافرت فإنها تظل ظنية ولا تتحول إلى يقين إلا بالحجج العقلية ولو واحدة(١٩٤) . ومن ثم فالوجوب السمعي ليس وجوباً بل هو مجرد ظن . والوجوب لا يكون إلا يقينياً ، ولا يقين إلا وأساسه العقل . إثبات معرفة « الله » لا تتم إلا بالنظر ، والنظر هو الأصل ، ومعرفة « الله » هو الفرع . ومن ثم يحتاج دليل الأشاعرة إلى اثبات الأصل أولاً قبل إثبات الفرع . فإذا كانت معرفة « الله » تتوقف على افادة النظر العلم وأنه لا يمكن معرفة وجوب النظر سمعياً إلا بالنظر وهو سابق على السمع فإن النظر يكون أول الواجبات . ولما كانت المعرفة بالدليل تتطلب النظر يكون الدليل تحصيل حاصل لأنه يثبت النظر للناظر أو يكلف غير الناظر بالأمر ولا يثبت له النظر بالدليل . الوجوب إما للذات وهو تحصيل حاصل أو لغيره وهو تكليف لا يتم إلا بالنظر حتى يفهم الفهم أو بالطاعة العمياء دون فهم وهو أيضاً ما يتطلب الفهم من أجل الطاعة . كما أن المعرفة لا تحصل بالنظر ضرورة بل قد تحصل بوسائل أخرى سواء كانت مؤدية إلى العلم أم مضادة لها مثل التعليم والتصفية . والدليل كله يقوم على افتراض النظر في حين أن النظر منقوض لاحتمال الشك والظن والوهم والجهل والتقليد كمضادات للعلم . كما أن الدليل يقوم على مسلمة «ما لا يتم إلا به الواجب فهو واجب» وهي مسلمة لا يقبلها الأصوليون لأن الواجب تكليف وليس استدلالاً وإلا وصلنا بالواجبات إلى ما لا نهاية ، ونرزح تحت عبء الواجبات(١٩٥) . كما أن هذا الدليل يدخل في مقدمته الأولى معرفة «الله»، وموضوع « الذات » لم يثبت بعد في هذه المرحلة من تأسيس نظرية العلم . يقفز على نظرية العلم ويستبق الموضوع وبالتالي فهو دليل ايماني لأن

تبين بالعقل أنه لا تكتسب المعارف بالنظر

ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب . الشامل ص ٩٧ .

(١٩٤) أنظر سابعاً : الأدلة النقلية .

(١٩٥) طوالع الأنوار ص ٣٣ - ٣٤ ؛ التحقيق التام ص ٣٥ - ٣٨ ؛ المقاصد ص ٧٧ - ٧٨ ؛ شرح المقاصد ص ٨٢ - ٨٣ .

المقدمة الأولى ما زالت ايمانية[١٩٦] . وقد رفض بعض القدماء هذا الدليل لأسباب منها أن تكليف الغافل غير واجب، وصعوبة اطراد الاجماع نظراً لتفرق المجتهدين، وعدم سلامة النقل ، ووجود اجماع مناقض . كما لا يمنع أن تتم المعرفة بالنظر دون الالهام أو التعليم أو التصفية . كما أن الدليل منقوض بعدم المعرفة وبالشك ، وأن القول «بأن ما لا يتم الواجب إلا به فهوواجب» حكم صوري عقلي وليس حكماً شرعياً . وهي كلها حجج تخضع لضعف الحجج النقلية من النص أو من الاجماع .

وقد حاول بعض القدماء الجمع بين الوجوب السمعي والوجوب العقلي ولكن ظلت الأولوية للوجوب السمعي . وتقتصر وظيفة العقل هنا على تبرير السمع ، ويكون الموقف كله أقرب إلى الوجوب السمعي من الوجوب العقلي . لا يكون الوسط في المنتصف الحسابي بل يكون أقرب إلى طرف منه إلى الطرف الآخر ، كما هو الحال في الوسط في الحياة الاجتماعية وفي المواقف التاريخية عندما يكون أقرب إلى الفعل أو إلى رد الفعل . إن قبول الوجوب العقلي والوجوب السمعي معاً دون تفضيل أحدهما على الآخر يقضي على فاعلية كلا الحكمين ، ويغفل طبيعة المرحلة التاريخية التي يمر بها كل مجتمع وأي الحكمين أصلح له . لذلك يتبع هذا الجمع انكار اعتبار النفع والضرر مقياساً للوجوب[١٩٧] .

لقد أفاض علم الكلام المتأخر في مرحلة الركود والتوقف في تحليل هذا الموضوع دفاعاً منه عن نفسه ، وتأكيداً لموقف الأشاعرة القديم . وقولهم بالوجوب الشرعي تثبيتاً للأمر الواقع في انكار النظر حتى تستمر السلطة الدينية والسياسية في ترؤسها وحتى تظل الجماهير العريضة في طاعتها مع أنه لم يأخذ كل هذا الاهتمام

---

(١٩٦) أنظر الفصل الخامس ، « الوعي الخالص » أو الذات .

(١٩٧) هذا هو موقف الماتريدية الذي يبدو أحياناً أقرب إلى الوجوب العقلي عند المعتزلة وأحياناً أخرى أقرب إلى الوجوب السمعي عند الأشاعرة . فوجوب المعرفة بالعقل تعني أنه لو لم يرد بالشرع لأدركه العقل . ومع ذلك لا يثاب الناظر على الفعل ولا يعاقب على الترك إلا بعد ورود الشرع . فللوجوب طريقان : السمع والعقل كما أن الأدلة نوعان . الارشاد ص ٨ ـ ٩ ؛ تحفة المريد ص ٢٩ ؛ القول المفيد ص ١٣ ، كتاب التوحيد للماتريدي ص ٣ ـ ١١ .

من القدماء عندما كان الحوار ما زال مفتوحاً بين الاتجاهات الفكرية المختلفة بين الوجوب العقلي والوجوب السمعي(١٩٨) .

٢ - الوجوب العقلي : النظر إذن واجب بالعقل . وقد اعتمد القدماء لاثبات هذا الوجوب اما على تفنيد الحجج النقلية أو العقلية المعارضة أو على ايراد حجج جدلية جديدة أو على مقاييس النفع والضرر ، ما ينتج عن وجوب النظر من نفع وعن عدم وجوبه من ضرر .

لا يعني وجوب النظر عقلاً انكار النبوات والمعجزات بل القول بأقصر الطرق الذي يتفق عليه كل الناس ، وهو العقل وعدم اللجوء إلى السمع إلا إذا دعت الحاجة إليه . هذا بالاضافة إلى أن يقين النبوة يقين خارجي عن طريق المعجزة وليس يقيناً داخلياً عن طريق التصديق ، لأن التصديق بالنبوة يحتاج إلى نظر . ومن ثم كان وجوب النظر سابقاً على وجوب التصديق بالنبوة . لا يعني وجوب النظر إذن إنكار النبوة بل يعني البداية بالأساس أولاً وهو النظر قبل ما يتأسس عليه وهي النبوة موضوع التأسيس(١٩٩) .

ولا يؤدي الوجوب العقلي للنظر إلى إفحام الأنبياء . فليس طريق اثبات النبوة هو انكار وجوب النظر بل إن النبوة يمكن أن تثبت بطرق أخرى تقوم على اثبات ضرورة الوحي . النبوة ما هي إلا طريق الوحي ، وليست غاية في ذاتها . بل إن وجوب النظر بالشرع فيه افحام للأنبياء إذ يقول المكلف : « لا أنظر ما لم يجب ، ولا يجب ما لم يثبت بالشرع ، ولا يثبت بالشرع ما لم أنظر » فالنظر إذن واجب عقلاً(٢٠٠) .

---

(١٩٨) من المصنفات المتقدمة : الارشاد، المحصل الطوالع، المقاصد؛ ومن المتأخرة: القول المفيد . اتحاف المريد ، تحفة المريد ، شرح الخريدة ، وسيلة العبيد ، التحقيق التام ، الحصون الحميدية ، شرح العقيدة .

(١٩٩) تتهم الأشاعرة المعتزلة بأنها تنفي النبوة وتنكر المعجزة . المواقف ص ٣١ - ٣٢؛ الارشاد ص ١٠ - ١١ .

(٢٠٠) طوالع الأنوار ص ٣٣ - ٣٤ ؛ الارشاد ص ٨ - ١٠ ؛ المقاصد ص ٨٣ - ٨٥ ؛ شرح المقاصد ص ٨٥ ؛ أنظر الفصل التاسع « تطور الوحي » أو النبوة .

ولا يؤدي الوجوب العقلي قبل البعثة إلى أن يجعل البعثة زائدة لا لـزوم لها . فالعقل أساس النقل والطريق إلى فهم الرسـالة ومعـرفة الـوجود الشـرعي . كما لا يقتضي القـول بالـوجوب العقـلي للنظر بـوجوب التكليف قبـل البعثـة في حـين أن الـوجوب السمعي ينفي وجـوب مثـل هـذا التكليف لأن العقـل أسـاس النقـل . والقول بالوجوب العقلي قائم على التسليم بوجود معارف ضرورية في الذهن بصرف النظر عن بعثة الرسل . في حين أن الوجوب السمعي للنظر ينكـر وجود مثـل هذه المعارف ويجعل الذهن صفحة بيضاء قبل بعثة الرسل(٢٠١) .

ويمكن إثبات وجوب النظر عقلاً ببعض الحجج الجدلية التي تعتمد كلها على برهان الخلف . منها : لو كان النظر باطلاً لما كان واجباً ، والنظر واجب بـالفعل . لو كان النظر باطلاً لما كـان كافيـاً في معرفـة « الله » والنظر كـاف في معرفـة « الله » بالعقل والسمـع ، وهذه حجـة تدخـل موضـوع النظر سـابقاً لأوانـه وتفترض أنـه « الله » مع أنه لم يثبت بعد(٢٠٢) . لو كان النظر بـاطلاً لاستحـال إثبات ذلـك لأن هـذا الحكم يحتاج إلى نـظر ومن ثم واجب بفعـل النـظر . وهي نفس الحجـة التي توجه ضد مذهب الشك اللاأدري . لـو كان النـظر باطـلاً لما استحق غيـاب النظر العذاب والخوف . فالخوف من ترك النظر دليـل على وجـوبه . وهي حجـة تقترب من النفع والضرر عن طريق البُعد النفسي أولاً(٢٠٣) .

ولا ضير أن يكون الحكم على وجوب المعرفة بالعقل حكماً بالوجوب العقلي .

---

(٢٠١) يعترض الأشاعرة بآية : ﴿ وما كنا معـذبين حتى نبعث رسولا ﴾ واستحالة أن يكون الرسول هو العقـل ، والحقيقة أن المقصـود هنا هـو التكليف الشرعي وليس النـظر العقلي أي اعمـال العبادة وليس النظر . حاشيـة العقيدة ص ١٤ ؛ التحقيق التـام ص ٣٤ ؛ القول المفيـد ص ١٢ : وقد قال بعض الفقهاء أيضاً بالـوجوب العقـلي فليس كل الفقهـاء أشاعـرة . وقد حكي عن القفـال الشاشي من أصحاب الشـافعي وعن بعض فقهاء الحنفيـة مع كـونهم من أهل السنـة أنهم قالـوا بوجوب المعرفة عقلاً . التلخيص ص ٢٨ .

(٢٠٢) موضوع العلم في الفصـل الرابـع ، « نظريـة الوجـود » ، وموضـوع « الله » في الفصل الخـامس « الوعي الخالص » أو الذات .

(٢٠٣) الارشـاد ص ٨ ـ ١٠ ؛ الشـامـل ص ١٢٥ ؛ التلخيص ٢٧ ؛ التحقيق التـام ص ٣٥ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٦ .

فالحكم العقلي هو نقطة البداية من داخل العلم . والعقل قادر على أن يكون ذاتاً وموضوعاً في نفس الوقت . ليس الوجوب العقلي استحالة من حيث الحكم أو من حيث المبدأ أو من حيث امكانيات العقل . الحسن والقبح العقليان أمران مبدأيان في العقل . لايحتاج المكلف إلى معرفة مسبقة بحسن الحسن وقبح القبح وإلا تسلسلنا إلى ما لا نهاية . لا يبدأ المكلف إذن بالبحث أو المصادفة أو الاختيار العشوائي لوجوب النظر بل يبدأ ببداهات العقول . ولا مانع من وجوب النظر على المكلف وهو يعلم بالوجوب وذلك لأن التكليف يقوم على الوجوب العقلي وليس على الأمر الإلهي الذي لا سند له ولا أساس في العقل . وليس ذلك تحصيل حاصل بل تأكيد لأوليات العقل وتأسيس للوحي . من شرائط التكليف إذن أن يكون هناك أساس للتكليف ، والأساس في العقل أو في الواقع ، للفهم أو للنفع ، وهو أساس يقيني يقوم على مسلمات العقول ، وبداهات الحس ، ومعطيات الوجدان . ليس من الضروري أن يرد التكليف بصيغة الأمر بل يمكن أن يكون شرط أداء الواجبات ، وشرط الواجب واجب . هذا بالاضافة إلى أن الأمر صيغة لغوية للأمر ذاته الذي قد تكون له صيغ أخرى مثل الحث والإيحاء والاستعجاب والدهشة(٢٠٤) .

وتتفاوت درجة الوجوب بين الاجمال والتفصيل طبقاً للحاجة ، وطبقاً للاستعدادات الفطرية للانسان ، وطبقاً لاتساع المدارك عند كل فرد ومعرفته بقوانين الحياة . فالنظر الاجمالي واجب على الجميع لأنه هو الذي يعطي التصور العام للحياة ، ويجعل الانسان يعيش في هذا العالم ناظراً ومفكراً أي واعياً ودارياً . أما النظر التفصيلي فقد يتفاوت من فرد إلى فرد وطبقاً لدرجة التفقه والقدرة على النظر ، وحاجة الانسان إلى البيان . وفي علم أصول الدين المتأخر ، في مرحلة التوقف والركود أصبح الدليل المجمل دون المفصل قائماً على قصر العقل وحدود المعرفة الانسانية وليس على مدى الحاجة إليه . كما تحول الدليل الاجمالي إلى مجرد إيمان بالنص الديني . فإذا استطاع البعض البحث عن الدليل التفصيلي فإنه يكفي الجماعة الدليل الاجمالي . ولكن بزيادة الوعي ، ونشر العلم ، يمكن لكل فرد أن

(٢٠٤) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٣٨ - ٢٤٣ ، ص ٢٨٤ - ٢٩٢ .

يقدر على الدليلين معاً ، الاجمالي والتفصيلي ، على حد سواء . وتمحي التفرقة بين فرض العين وفرض الكفاية ، وتصبح الخاصة هي العامة ، والعامة هي الخاصة . ويمكن ذلك بسهولة إذا كان موضوع البحث يخص عامة الناس ، وما يعانون منه ليل نهار أي أحوال معاشهم وليس موضوعاً متعالياً لا يقدر عليه إلا قلة منعزلة أو مترفة لا صلة لها بالجماهير وواقعها إن لم تتكسّب من ورائها وتدعي لنفسها العلم ، وتعطي لنفسها حقّ الأمر ، وللجماهير واجب الطاعة(٢٠٥) .

ويعلم كل عاقل وجوب النظر كما يعلم أن ترك النظر قبح يجب تجنبه لما ينشأ عنه من أضرار ومفاسد. قد يحصل العلم إذن بوجوب النظر عن طريق الاكتساب إذا ما ترك المكلف النظر مرة فأصابه الضرر وإذا ما قام به مرة أخرى فعاد عليه بالنفع . فيكتسب العلم بوجوب النظر إن لم يعلم وجوبه ضرورة . يقوم وجوب النظر على تحقيق المصلحة ودفع الضرر . وأي مصلحة في دعوة الناس الآن إلى إبطال النظر ؟ إذا كنا نعاني من غياب النظر وسيادة التقاليد ، والتسليم بالأمر الواقع فإن وجوب النظر يحث الناس على التفكير ويدعوهم إلى رؤية واقعهم والمطالبة بحقوقهم . إذا غاب النظر ساد التسليم ورسخت التقاليد ، وانتشرت الخرافة ، وعم الجهل ، وقويت شوكة السلطة فتجبرت وطغت . فما أسهل قيادة الجماهير المستسلمة والشعوب المقلدة والجماعات الجاهلة(٢٠٦) . الوجوب العقلي إذن ليس وجوباً صورياً خالصاً بل هو أيضاً وجوب واقعي مادي ، تحقيق المصلحة والفائدة للناظر إذ لا تستقيم الحياة بدون نظر . ومن لا يشعر بفائدة النظر يكون عديم الشعور والاحساس . فائدة النظر فائدة فعلية وليست متوهمة . إن كل من يتوهم ضرراً من النظر وفائدة من منعه يكون خاطئاً جاهلاً ظاناً أو متعمداً . إن منع النظر يعني أن الأبله والمجنون والصبي والغبي أفضل حالاً من العاقل الفاهم المستنير المدرك . وما أحلى عند السلطة القاهرة أو الشعوب الغافلة من نعيم الجهل

(٢٠٥) اتحاف المريد ص ٢٤، ص ٣٥ ، ص ٣١ - ٣٢ ؛ وسيلة العبيد ص ٩ ؛ القول المفيد ص ٩ - ١٢ ؛ الحصون الحميدية ص ٥ ؛ المحيط ص ٢٠ ، ص ٢٦ - ٣٣ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٤٨ - ٣٥١؛ تحفة المريد ص ٢١ .

(٢٠٦) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .

وجحيم المعرفة ! لا ينشأ الضرر من الخوف من العقاب في عالم آخر بترك النظر بل مما يلحق الانسان في حياته الدنيوية من أخطار ناجمة عن غياب النظر مثل تسلط الآخر عليه ووضع الوصايا على الجماعة وتسييره كالأنعام . الخطر هو فقدان الحرية وضياع الشخصية المستقلة . إن رفض مقياس المصلحة والمفسدة ضياع للأساس الموضوعي للوحي ولعلة وجود الشرع ، وإن تصور ضرورة البعثة على غير أساس المصلحة هو جعل البعثة مجرد عطاء لا أساس له ولا غاية ، مجرد عبث يسهل بعد ذلك اجتزازه ، وتبقى مصالح الناس بلا أساس .

والسؤال الآن : أي المواقف أصلح للبلاد النامية ؟ الوجوب السمعي بشرط العقل أم الوجوب العقلي للنظر وحده دون سائر الأحكام أم الوجوب العقلي على الاطلاق[٢٠٧] ؟ .

إن ثبوت الأحكام كلها بالشرع ولكن بشرط العقل يجعل دور العقل هنا هو فهم الشرع وتفسيره أو تبريره والدفاع عنه دون أن يكون هو المشرع والمنظر والموجب . وإذا كانت البلاد النامية تعاني من وظيفة العقل في التبرير والدفاع عن شيء آخر يتم التسليم به عن طريق السلطتين الدينية والسياسية فإن هذا الموقف الأول يكون تثبيتاً للوضع القائم في البلاد النامية وهو جعل العقل تابعاً لا متبوعاً ، وفرعاً لا أصلاً[٢٠٨] . وثبوت النظر وحده دون سائر الأحكام بالفعل موقف نسبي يريد إثبات النظر كحقيقة أولى وترك باقي الأحكام كمسلمات يمكن للنظر فهمها وتفسيرها أي تبريرها والدفاع عنها . قد يكون الهدف من هذه الازدواجية استقلال النظر ووجوبه حتى يحدث أثره المرحلي ثم تأتي أجيال أخرى فتجعل باقي الأحكام واجبة بالنظر بعد أن تكون الجماعة قد تعودت عليه . وبالتالي يتحول الاصلاح إلى نهضة ، والنهضة إلى ثورة ، وهو المنهج الاصلاحي في التغيير[٢٠٩] . أما وجوب

(٢٠٧) المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة وهو أن الأحكام كلها تثبت بالشرع ولكن بشرط العقل . والثاني مذهب الماتريدية وهو أن وجوب المعرفة تثبت بالعقل دون سائر الأحكام . والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها تثبت بالعقل . تحفة المريد ص ٢٩ .

(٢٠٨) أنظر مقالنا « مخاطر في فكرنا القومي » ، قضايامعاصرة (٣) في الثقافة الوطنية .

(٢٠٩) انظر مقالنا « جمال الدين الأفغاني » قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر .

الاحكـام كلها بـالعقل بمـا في ذلك النـظر فإن من شـأنه احـداث يقظـة في البـلاد النامية ، وثـورة فكريـة تحدث هـزة في النفوس ، وتـدفع بـالجماعـة إلى الطفـرة ، والانتقال من التقليد إلى النظر . ولما كانت مجتمعاتنا تغلّب الشرع على العقل نـظراً لسيادة الأشعرية منذ القرن الخامس وإزدواجه بالتصوف حتى الآن ، كـان البديل العقلي يكاد يكون معدوماً . القول بالوجوب العقلي إذن ايقـاظ للجماهـير ورد فعل طبيعي على سيادة الـوجوب الشـرعي . في حين أن المـوقف الاصلاحي الـوسط لا يحدث نفس الأثر الفوري في الجماعة لأنه يخدم الوضع القائم باستثناءات الأحكـام من النظر كما يخدم التغيير في المستقبـل بجعله النظر واجبـاً عقلاً . أمـا الانحياز إلى الوجوب العقلي فما هو إلا رد فعل عـلى الانحياز إلى الـوجوب الشـرعي . ولا يغير من الانحياز إلا الانحياز المقابل حتى يحدث التوازن في الأجيـال القادمة . أما الحلول الوسط في المواقف التي تستدعي انحيازاً فإنها تنفصل إلى طرفين إذ يجذب كل طرف الوسط لصالحه . ولا وجود للوسط إلا بعـد أن يتحقق الطرفـان في الجماعـة كفعل وكرد فعل ثم يأتي الوسط وقد اثبت كل من الطرفين وجوده(٢١٠) .

وتتحول نظرية الوجـوب إلى نظريـة في التكليف . فالانسـان لا يقوم بـالنظر فقط بـالـوجـوب العقـلي ولكنـه مكلف بـه بـالتكليف الشـرعي . النـظر جـزء من التكليف ، والتكليف هنـا معـرفي خـالص أي النـظر المؤدي إلى المعـرفـة أو النـظر المؤدي إلى العلم . إذا حصل النظر حصل العلم بالمنظور . وهنا تبدو نظرية العلم كنظرية في التكليف . وجوب النظر يجعله تكليفاً لأن الوجـوب تكليف أي التزام . النظر واجب أي تكليف مثل الصـلاة والصيام . وإن حصـر الواجب أي التكليف في الصلاة والصوم هو أخذ جزء من الواجبات الشرعية ، وهو الأسهل ، وترك جزء آخر منها ، وهو الأصعب . وهو ما تحاول السلطتان الدينية والسياسية التركيـز عليه

(٢١٠) هذا هو موقف الماتريدية عندمـا انتهى على أيـدي الشراح إلى إنتسـابه إلى الأشعـرية وبُعـده عن المعتزلة . ففي حاشية العقيدة مثلاً « يجب بـالشرع (معـرفة الله) وهـذا مذهب الأشـاعرة وجمع الماتريدية وقال جمع من الماتريدية : وجبت المعرفة بالعقل بمعنى أن ايجاب المعرفة مستفاد من ارسـال الرسل لكن لو لم يرد رسول لكان العقل يستقل بفهم ذلك لوضوحه . فهذا غير قـول المعتزلة» . حاشية العقيدة ص ١٤ .

في المجتمع المتخلف . يقوم أداء الـواجبات الشـرعية عـلى الطاعـة ويؤدي إليها في حين يقوم واجب النظر والتكليف به على الوعي ويؤدي إليه . وإذا ما وعى النـاس فكروا في أوضاعهم الاجتماعية والسياسية ، وشعروا بمدى القهر الذين هم واقعون تحته .

ويتضمن التكليف جهداً ومشقة ومن ثم فهو عمل عقـل وإرادة معاً . عقـل للفهم والامتثال وإرادة للعمل والالتزام . والنظر أيضاً به جهد ومشقة . فهو معاناة للفكر ، ومقاومة للتقاليد الموروثة ، ودفع للشبه ، وترك للشكوك ، ودفع للظنون والأوهام ، وابتعاد عن الجهل ، وسعي وراء العلم(٢١١) . التكليف علم وعمـل ، العلم أسـاس التكليف ، والتكليف قـائم عـلى العلم . وهـذا لا يعني أن العلم لا يحدث أثناء العمل ، وهو العلم عن طريق الممارسـة ، من خلال تجـارب المحاولـة والخطأ . فالعلم النظري الأول الذي يقوم على يقين صوري علم عمـلي يقوم عـلى يقين عملي . التوحيد أساس نظري للسلوك ، وهـو المبدأ الـذي على أسـاسه تقـوم وحدة الذات بـين الداخـل والخارج ، ووحـدة الجماعـة بلا تمـايز طبقي ، ووحـدة الانسـانية بـلا تفرقـة عنصريـة . يمثل التـوحيد مجمـوعة من القيم ، يعمـل الفـرد والجمـاعة عـلى تحقيقها(٢١٢) . التـوحيد بـين العلم والعمل أي بـين وجوب النـظر والتكليف بالنظر ، هو تحقيق لهذا العلم وتحـويله إلى أثر في الحيـاة ، وهو مـا سماه القدماء الثواب . وهو أيضاً سبيل التعلم . إذ يتعلم الانسان من العمل قدر تعلمه من النظر ، ويعمل في النظر قدر عمله في العمل . وهو أيضاً تبليغ للعلم ونشـر له ليس فقط عن طـريق الكلام سمـاعـاً بـل أيضـاً عن طـريق العمـل رؤ يـة . تحب الجماهير أن تسمع وترى ، وتنصت وتشاهد ، والعلم الـذي لا يتحقق يدخـل من أذن ويخرج من الاذن الأخرى(٢١٣) .

والمكلف هو البالغ العاقل الذي بلغته الدعـوة احترازاً عن الصبي والمجنـون

---

(٢١١) المحيط ص ١١ ـ ١٥ .

(٢١٢) أنظر بحثنا « المقومات الرئيسية للشخصيـة العربيـة » قضايـا معاصـرة (٣) في الثقافـة الوطنيـة . وأيضـاً . Morality and the Integrity of Islamic Society in: Religion ,Development and Revolution

(٢١٣) المحيط ص ١٥ ـ ١٦ ، ص ٣٣ .

ومن لم تبلغه الدعوة من أهل الفترة أي الذين لم يلحقوا بالنبي الأول أو الثاني . لا فرق في ذلك بين ذكر أو أنثى ، بين غني أو فقير ، بين رئيس أو مرؤوس ، حاكم أو محكوم . يعم التكليف إذن كل إنسان على هذه الأرض . أما أصحاب المعارف الضرورية فإن معرفة « الله » لديهم ضرورية لا يحتاجون فيها إلى نظر . وهذا لا يمنع من أن استدلال الأنبياء وحوارهم مع غيرهم يكون من أجل اثبات المعرفة ودحض الجهل(٢١٤) .

اما الذي اخترمته المنية أثناء النظر فقد حكم عليه القدماء بالعصيان في حين أنه قصد إلى النظر ، ونوى البحث ، وسعى إلى المعرفة ، والأعمال بالنيات . لا يهم الوصول إلى المعرفة بقدر ما يهم السعي إليها . فلو كان صادق العزم وحسن النية في البحث والنظر ، وكان النظر هو أول الواجبات فإنه يكون مؤمناً . فإن امتد به العمر ووصل إلى المعرفة فقد اجتهد وأصاب فهو مؤمن وإن لم يصل فإنه يكون قد اجتهد وأخطأ فيكون أيضاً مؤمناً . العبرة بالاجتهاد . هذا بالاضافة إلى أن الذي اخترمته المنية لم يعد موضوعاً للتساؤل لأن الأحياء هم المكلفون بالنظر ، والحال أولى من المآل ، وايقاظ الأحياء أولى من احياء الأموات(٢١٥) .

ولما كان النظر تكليفاً فإنه يأخذ أحكام التكاليف من ثواب وعقاب . النظر به مشقة ، وكل عمل فيه مشقة يقع تحت قانون الاستحقاق . ولا يعني وقوع النظر بطريقة التجريب من خلال المحاولة والخطأ نفي قانون الاستحقاق . النظر بطبيعته ليس شيئاً يوجد أو لا يوجد بل هو قصد للنظر ثم اعمال للنظر بأفعال الشعور . النظر عملية نظر وليس واقعة نظر ، عملية تقوم على أفعال الشعور من شك وظن ويقين ومطابقة وإيضاح وبداهة . . الخ . وينطبق قانون الاستحقاق دائماً طالما أن النظر فعل أو ترك قائم . إذا وجد السبب وجد المسبب . لا ينطبق قانون

---

(٢١٤) تحفة المريد ص ٣٣ ؛ الخلاصة ص ٣ ، ص ٦ ؛ اتحاف المريد ص ٢٩ - ٣١ ؛ التحقيق التام ص ٣٩ ؛ ويتكلم القدماء عن التكليف للانس والجن ، وعن المعارف الضرورية عند الأنبياء والملائكة وهو خارج عن نظرية العلم في هذه المرحلة من التأسيس .

(٢١٥) الشامل ص ١٢٢ ؛ المواقف ص ٣٣ .

الاستحقاق على أول النظر فقط سواء كان قصداً أم فعلاً نظراً لوجوب استمرارية الأفعال وإلا كانت الأفعال مجرد بدايات أفعال أولى لا تستمر ولا تنتهي إلى شيء . وذلك لأن الأفعال للتكرار كما قال علماء أصول الفقه . قد يعني الثواب والعقاب مجرد الكمال الانساني ، فالنظر يؤدي إلى الكمال ، وغيابه يؤدي إلى النقص . ليس الدافع على الوجوب إذن الذم أو المدح أو الثواب والعقاب بل هو عمل العقل ذاته وما يحققه من كمال إنساني بالاضافة إلى ما ينتج عنه من تحقيق للمصلحة العامة . ثواب النظر هو الحياة التي يسودها العقل ، وعقابه هي الحياة التي يسودها التخبط والضياع(٢١٦) .

٣ ـ **أول الواجبات** : إذا كان النظر واجباً سمعاً أو عقلاً فهل النظر أول الواجبات ؟ تتراوح الاجابة بين مقدمات النظر وحركة النظر ونتائج النظر أي ما يأتي قبل النظر ، وما يقع مع النظر ، وما يحدث بعد النظر ابتداء من أفعال الشعور الداخلية إلى عمل العقل ثم إلى أفعال الشعور الخارجية ، وابتداء من الخارج إلى الداخل . يبدو النظر وكأنه الحلقة المتوسطة بين أفعال الشعور الخارجية كالعمل والقول حتى أفعال الشعور الداخلية كالاعتقاد والخاطر والدافع والقصد .

ليس أول الواجبات وظيفة الوقت كصلاة ضاق وقتها فتقدم . هذا واجب عملي يسبقه واجب نظري وهو الاحساس بالزمان . وهذا لا يأتي إلا بالنظر الذي يكشف للانسان تحمله للرسالة . تقوم الواجبات العملية على الواجبات النظرية . ولما كان علم أصول الدين يهدف إلى تأسيس النظر في حين أن علم أصول الفقه يهدف إلى تأسيس العمل فإن جعل وظيفة الوقت الضيق أول الواجبات هو تأسيس للعمل قبل تأسيس النظر . أما إذا كان المقصود هو الشعور الداخلي بالزمان ، والشعور بالذات من حيث هي وجود في الزمان فإننا نتجه بالأفعال الخارجية للشعور إلى الأفعال الداخلية ، ونكون أقرب إلى المقدمات منا إلى النتائج . وإذا كانت مأساتنا في البلاد النامية عدم الاحساس بقيمة الزمان وعدم إحساسنا بالتاريخ ، وضياعنا للحاضر في سبيل الماضي العريق أو المستقبل البعيد في الدنيا أو

(٢١٦) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٤٤٤ ـ ٤٥٥ ؛ القول المفيد ص ٤ ـ ٥ .

خارجها قد يكون في اعتبار الاحساس بالوقت الضيق كأول الواجبات نفع وصلاح . ويكون في هذه الحالة مقدمة للنظر ، وشرطاً للمعرفة . وإذا كان المقصود بالصلاة هو الاتيان بفعل الوقت ، وكانت مأساتنا في تأجيل الأفعال إلى الغد فإن اعتبار الفعل في الوقت أو وقت الفعل أول الواجبات فيه أيضاً خير وصلاح لما نحن فيه(٢١٧) .

ليس أول الواجبات النطق بالشهادتين . فالنطق حركة للشفاه وراءها معنى في الذهن ، وشعور في الوجدان ، وتصور للعالم ، وفعل في الواقع . حركة الشفاه ما هي إلا ظاهر لشيء آخر خفي هو ما وراءها من معان وتصورات ومتطلبات وبواعث ومقاصد . ولا يمكن للمكلف أن ينطق بالشهادتين دون أن يعي معناهما أو يتمثل تصوراتها أو يفعل بمقتضاهما أو يتحرك ببواعثها أو يتجه نحو مقاصدهما وإلا لحولنا التكليف إلى مجرد حركات باللسان وتمتمات بالشفاه كما هو الحال في هذه الأيام لدى الحاكم والمحكوم . ليس الاقرار بالشهادتين أول الواجبات على المكلف فذلك هو الوضع في علم أصول الفقه وهذا هو موقف الفقهاء . أما في علم أصول الدين فأول الواجبات هو النظر لأن النطق بالشهادتين ينبني على معرفة « الله » والتسليم بوجوده والايمان بالرسول ــ بعد تأسيس نظرية العلم ــ وذلك لا يتم إلا بعد حدوث تحول في الشعور واعتقاد بالنظر . وإذا كنا نعاني في حياتنا المعاصرة من كثرة التمتمات ، وحركات اللسان والشفاه دون أن نعني ما نقول أو نحقق متطلباته فإن جعل النطق بالشهادتين أول الواجبات لا يؤدي إلى نفع أو صلاح بل يثبت الأمر الواقع ويشرع لما هو موجود . فإذا كان الجواب الأول عن السؤال عن أول الواجبات فإن الجواب الثاني قول . وكثيراً ما صاحت حركاتنا الاصلاحية الأخيرة: « ما أكثر القول وأقل العمل »!(٢١٨) .

---

(٢١٧) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢١٨) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ، شرح الأصول ص ٧١ ـ ٧٦ ؛ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام جـ ٢ ص أنظر أيضاً مقالنا « ماذا يعني « أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله » ؟ قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني . وأيضاً « العامل الديني وتوزيع الدخل القومي في مصر » في « التنمية وتوزيع الدخل القومي في مصر » .

ليس أول الواجبات هـو الايمان لأن الايمـان وضع داخـلي للشعور يقـوم على أساس النظر في موضوع الايمان . النظر سابق على الايمان بل إن علم أصول الدين كله يهدف إلى تأسيس الايمـان على النـظر . وإذا كنا في مجتمعـات مؤمنة ، تعـطي الأولوية للايمان على النظر فإن اعتبار الايمان أول الواجبات يثبت الأمر الواقع ، ولا يحقق أي نفع أو صلاح . وقد تم اختيار الايمان أول الواجبـات في القرون الأخيـرة في فتـرات التخلف والتوقف والانهيـار كدعـوة صـريحـة إلى التسليم واغفـال النـظر كمقدمة إلى التسليم للسلطة السياسية واسقاط المعارضـة . بل إن مضمـون الايمان مضمـون غيبي خالص حتى يقضي عـلى أية فـرصة للنـظر والتصـديق والتحقق في الواقع من صحة هذا المضمـون ، والتسليم الخالص دون مـراجعة أو بيـان أو حتى طلب دليل أو برهان . ولو ظهر النظر فإنه يكون مقدمـة للتسليم ، وليس مراجعـة له ، وباباً يدخل منه الايمان ، وليس وسيلة للتحقق من صدقه .

ليس أول الواجبات هو الاسلام لأن المكلف لا يؤمن بالاسلام إلا بعـد نظر وتدبر واعمال للعقل والروية وإلا كان إسلاماً عن طريق العـادة والتقليد . يتـطلب الاسلام المعرفة به . فالمعرفـة سابقـة على الاسـلام . والمعرفـة لا تتم إلا بالنـظر ، فالنظر سابق على المعرفة . وإذا كنا نعيش في عصر يغلب عـلى الجميع فيـه الاسلام عن طريق العادة أو التقليد فإن جعل الاسلام أول الواجبات تثبيت للوضـع القائم على ما هو عليه دون تغييره إلى ما هو أفضل .

ليس التقليـد هو أول الـواجبات ، فـالتقليـد من مضـادات العلم وليس من طرقه . ولما كان النـظر طريق العلم كـان أول الواجبـات . بل إن النـظر يأتي دائـماً معارضاً للتقليد ، ونقداً للموروث ، ومراجعـة للمسلمات . التقليـد اعتقاد جـازم مطابق لا عن سبب ، طبقاً للعـادة أو للموروث . وكـلاهما خـارج النظر . لـذلك جعـل علماء أصول الـدين المقلد عاصيـاً آثماً. يستحيـل إذن أن يكـون التقليـد أول الواجبات بل هو أول المحرمات لأنه نفي للنظر ، والنظر أول الواجبات[٢١٩] .

---

(٢١٩) أنظر سابقاً : ثانياً ـ تعريف العلم .

ليس الاختيار بين التقليد والمعرفة أول الواجبات . إذ كيف يتم الاختيار بين نقيضين ، ويكون كلاهما صحيحين في آن واحد؟ المعرفة ضد التقليد ، والتقليد ضد المعرفة . ولما كان التقليد نفياً لعلم أصول الدين الذي يهدف إلى تأسيس العلم وكان المقلد عاصياً آثماً كانت المعرفة هي الاختيار الأوحد . ولما كانت المعرفة لا تتم إلا بالنظر كان النظر هو أول الواجبات (٢٢٠) .

ليست المعرفة وحدها أول الواجبات لأن المعرفة لا تتم إلا بالنظر . المعرفة نتيجة للنظر والنظر مقدمة لها . ولا تعني المعرفة بالضرورة معرفة موضوع معين ، متعال على وجه الخصوص بل مجرد امكانية العلم والوصول إليه ، هذه الامكانية التي لا تحدث إلا بالنظر . وإن افتراض المعرفة قبل النظر ثم افتراض المعرفة بموضوع متعال سبق للنظر مرتين وبالتالي وقوع في حكمين مسبقين لا يفترضهما النظر . واحياناً تصبح المعرفة هي العلم . ويكون ذلك حكماً مسبقاً ثالثاً . ليست كل معرفة بالضرورة علماً . وعلى هذا النحو يختلط موضوع النظر بموضوع المعرفة كما يختلط موضوع المعرفة بموضوع العلم . وقد جعل القدماء « معرفة الله » أصل المعارف الدينية فمنها يتفرع كل وجوب. ولكن «معرفة الله » مرحلة تالية لبناء المعرفة ذاتها ، وهذه مرحلة تالية لبناء نظرية العلم ، وهذه مرحلة تالية لتأسيس النظر كطريق للعلم . قد تكون « معرفة الله » خارج نطاق نظرية العلم وامكانياتها وبالتالي لا يكون النظر طريقاً إليها(٢٢١) . « الله » موضوع مفارق لا يمكن تصوره أو اصدار حكم عليه كما قال المهندسون في الإلهيات(٢٢٢) . ولكن مطلق المعرفة واجب أو المعرفة بالموضوعات الحسية ، معرفة النفس ، ومعرفة الآخرين ، ومعرفة الأشياء ، ومعرفة الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، ومعرفة حركة التاريخ ومساره .

---

(٢٢٠) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ القول المفيد ص ٤ .

(٢٢١) المواقف ص ٣٢ ـ ٣٣ ؛ شرح الأصول ص ٦٦ ـ ٦٧ ؛ المحيط ص ١٦ ـ ١٨ القول المفيد ص ١٢ ، أنظر أيضاً «التراث والتجديد» رابعاً ـ طرق التجديد ١ ـ منطق التجديد اللغوي أ ـ تصور اللغة التقليدية ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٢٢٢) أنظر سابقاً : رابعاً ـ النظر يفيد العلم ٣ ـ النظر الصحيح يفيد العلم ب ـ المهندسون في الإلهيات .

يحدث خلط إذن بين وجوب النظر ووجوب « معرفة الله » فالسؤال يتعلق بوجوب النظر كطريق للعلم وليس بموضوع النظر كموضوع للعلم . وعندما يتحول موضوع وجوب النظر إلى وجوب « معرفة الله » فإنه يدخل في موضوع لاحقٍ على تأسيس نظرية العلم وهو موضوع « العقل والنقل » وفي هذه الحالة يجعل الوجوب العقلي معرفة الله واجبة بالعقل ، فالعقل أساس النقل أو يجعل الوجوب السمعي معرفة الله واجبة بالسمع ، فالنقل أساس العقل[٢٢٣] . إن الحديث عن وجوب النظر قد يكون نفسه حديثاً في وجوب المعرفة في حين أن النظر شيء والمعرفة شيء آخر . النظر طريق للمعرفة ، والمعرفة حصيلة النظر . النظر هو البداية والمعرفة هي النهاية. النظر هو المنهج والمعرفة هي الموضوع ، النظر هو المقدمة والمعرفة هي النتيجة . لا يهم في الوجوب العقلي للنظر وجوب موضوع معين سواء كان مادياً أم صورياً بل الوجوب العقلي ذاته من حيث هو نظر وتحليل وفهم وادراك أي من حيث الذات العاقلة . بعد ذلك يمكن ادراك مقدمات النظر ونتائجه وطرق الاستدلال كما يمكن ادراك بداية الموضوع ومساره ونهايته . واحياناً تتجه المعرفة نحو الدليل اكثر مما تتجه نحو الموضوع من أجل اظهار المعرفة البرهانية عن طريق الدليل الاجمالي . كما تتجه أيضاً نحو الوقت المضيق فتكون المعرفة مطلوبة في الحال وليس في المآل ، على الفور وليس على التراخي . والواجب المضيق هو الخاص الضروري الذي لا بديل عنه بعكس الواجب الموسع الذي يمكن تأجيله وايجاد بدائل له . المعرفة إذن ، بصرف النظر عن مضمونها ، واجب مضيق لا بديل عنها لأنه يقبح تركها . ولما وجب بالعقل ضرورة التحرز من القبيح فإنه لا يمكن التحرز منه إلا بالنظر . ولا نخشى على هذه المعرفة الفورية من أن تتحول إلى حدس أو الهام أو رؤ ية وبالتالي لا يضيع النظر[٢٢٤] .

النظر إذن هو أول الواجبات لأن موضوع المعرفة لا يُعرف ضرورة أو

---

(٢٢٣) أنظر الفصل الثامن .

(٢٢٤) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ المحصل ص ٢٨ ؛ التلخيص ص ٢٨ ؛ اتحاف المريد ص ٣٨ ؛ شرح الأصول ص ٤٣ ؛ ص ٧١ ـ ٧٦ ؛ وسيلة العبيد ص ٤ ؛ شرح المقاصد ص ٨٧ ؛ حاشية العقيدة ص ٦ .

مشاهدة بل بالنظر الذي تكون الضرورة والمشاهدة احدى مراحله. ونظراً لأن سائر الشرائع النظرية لا تُعرف إلا بعده ، وأن هذه المعرفة لا تتم إلا بالنظر فإن سائر الواجبات يمكن أن تتأخر بعد النظر أما وجوب النظر فمقدم عليها جميعاً(٢٢٥) . النظر أول الواجبات بشرط التكليف وهو العقل فيخرج الصبي والمجنون(٢٢٦) .

وقد يسبق النظر القصد إلى النظر أو إرادة النظر أو اعتقاد النظر . أول النظر ومقدمته الأولى القصد إليه أو الارادة له أو الوعي به أو الاحساس بالموقف والحاجة إليه . وهنا تبدو نظرية العلم كنظرية في القصد والاتجاه نحو الوضوح وهو النظر . وقد اعتبر البعض القصد إلى النظر تكليف ما لا يطاق إذ يجب النظر وقد يُعاق القصد إليه . والحقيقة أنه ليس تكليفاً بما لا يطاق لأن أي فعل من أفعال الشعور ما هو إلا قصد ، ولا يمكن وجوب النظر دون القصد إليه . القصد مقدمة النظر وشرطه لأن النظر في نهاية الأمر عمل العقل ، والعقل صورة من صور الشعور . لا يمكن أن يكون النظر مجرد الفعل فالنظر عمل الشعور ، ولا يتم مصادفة بل بوعي بالموقف وبإحساس بضرورة الحاجة إليه . يحدث النظر بعد درجة من الوعي ثم يزيد الوعي ويجعله اكثر برهاناً . وذلك ليس تكليفاً بما لا يطاق . القصد إلى شيء هو الذي يكشف أهمية النظر ، فالنظر لا يكون إلا نظر الشيء(٢٢٧)

وقد يسبق النظر أو يحدث معه البحث في مقدمات النظر ، وهو أول جزء في النظر . قد يكون هو الدليل أو العقل أو عمل العقل . وقد يكون هو النظر في

(٢٢٥) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ، ص ٧١ ـ ٧٦ ؛ شرح الأصول ص ٣٩ ، ص ٤٥ ؛ المحصل ص ٢٦ ، ص ٢٨ ؛ التلخيص ص ٢٨ ؛ الشامل ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ شرح المقاصد ص ٨٧ ؛ المحيط ص ٢٦ ـ ٣٣؛ التحقيق التام ص ١٣ .

(٢٢٦) يذكر الباقلاني عشرين تكليفاً : خمسة في نظرية العلم ، وخمسة في نظرية الوجود ، وعشرة في التوحيد والايمان . ويجعل موضوعات علم أصول الدين كلها موضوعات للايمان والتكليف . الانصاف ص ٢٣ ـ ٢٨

(٢٢٧) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ الارشاد ص ٣ ؛ المحصل ص ٢٨؛ المقاصد ص ٨٦ ـ ٨٧ ؛ شرح المقاصد ص ٨٧ ؛ شرح الأصول ص ٧١ ـ ٧٦ ؛ الشامل ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ المحيط ص ٢٦ ـ ٣٣ .

وجوب النظر ، فيكون النظر سابقا على النظر إذ يسبق الأنا أفكر عملية الفكر . ولكن هذا السبق ليس أولياً مثل القصد إلى النظر بل هو تابع للقصد ، ويكون جزءاً من عملية النظر وهو الخاص بالاستدلال مع العلم بأن النظر واجب أوّلي لا يسبقه واجب نظري آخر . المعارف الضرورية هي بداية النظر . وقد يضم النظر والمعرفة والقصد معاً في محاولة لوصف النظر في كل مراحله مما يدل على أن النظر ليس مقصوراً على مقدماته أو على مساره أو على نتائجه بل عملية واحدة تشمل الحس والوجدان والشعور والواقع . وبالتالي يكون الخلاف لفظياً في أن كل رأي يصف عملية النظر ككل بأحد أجزائها ، ويطلق عليه لفظ مثل المعرفة والنظر والقصد والارادة والاعتقاد(٢٢٨) .

وقد يكون الخوف من ترك النظر هو أول الواجبات نظراً لما ينتج من ترك النظر من مضار . والخوف لا ينشأ إلا بعد إدراك أهمية النظر وقيمته . وقد ينشأ بعد النظر ، بعد التحقق من فائدته . كما أن النظر لا ينبني على الخوف ضرورة بل هو تعبير عن طبيعة الانسان وكماله من حيث هو موجود عاقل وتعبير عن وجود الدواعي والمقاصد والغايات(٢٢٩) .

وقد يسبق النظر الشك ، وبالتالي يكون الشك أول الواجبات . صحيح أن الشك من مضادات العلم ولكنه في هذه الحالة يكون الشك اللاأدري الذي ينكر وجود الحقائق أصلاً أو الشك العنادي الذي يؤمن بوجودها ولكن يعاند في التسليم بها وفي امكانية معرفتها أو الشك العندي الذي يؤمن بوجود الحقائق وامكانية معرفتها ولكن يجعلها نسبية . هذا الشك شك مذهبي يجعل الشك غاية في ذاتها(٢٣٠) . أما الشك هنا باعتباره بداية للنظر فإنه يعني تطهير الذهن من الموروث حتى يمكن النظر ابتداء من أوليات العقل وبداهة الحس . فهو شك منهجي يجعل

---

(٢٢٨) تحفة المريد ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ الانصاف ص ١٣ ؛ الأصول ص ٣١ ؛ شرح المقاصد ص ٨٧ ، المقاصد ص ٨٦ ـ ٨٧ ؛ المحصل ص ٢٨ .

(٢٢٩) شرح الأصول ص ٧١ ـ ٧٦ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

(٢٣٠) أنظر ثالثاً : أقسام العلم ٣ ـ اثبات العلم الضروري .

الشك وسيلة لا غاية . الشك هو الدافع على النظر والهادم للتقليد . لا يمكن النظر مع الجزم لأن الجزم ناف للنظر ومستغن عنه . يتوجه الشك أساساً ضد الجزم من أجل القضاء على القطعية التي لا تقوم على أساس حتى يمكن للنظر حينئذ أن يعيد تأسيس المعرفة وبناء العلم . يحتاج النظر إذن ، وهو خطوة إلى الامام ، إلى الشك ، وهو خطوة إلى الخلف . وظيفة الشك هنا التخفيف من حدة الموروث ، والإقلال من ضغط قوالبه الذهنية التي قد تمنع سيطرتها من النظر ومن البحث الحر . الشك متضمن في النظر ، فلا ينظر الانسان إلا إذا كان فاحصاً وباحثاً وغير مسلم بالأفكار المسبقة . الشك في القديم الموروث إذن وفيما جرت عليه العادة والعرف أولى مهام النظر . ولا يقال إن الشك غير مقدور لأن الشك هو البداية الطبيعية للنظر ، وبداية الانتقال من القديم إلى الجديد . لا يتم النظر إلا في وضع اجتماعي ، ولا يتحقق إلا في مرحلة تاريخية أي أنه نظر في الزمان وبالتالي يكون مقدوراً للناظر بل وباعثاً له على النظر . الشك نظر مقلوب أو نظر إلى الوراء أو نظر ناف أو تحرر للنظر من الأحكام المسبقة والعقائد الموروثة . ولا يعني إيجاب الشك نفي إيجاب النظر من حيث هو قوة للرفض . ليس الشك قبيحاً لأن الناظر لا يعلم صحته فالشك منهج وليس موضوعاً ، وسيلة لا غاية ، بداية وليس نهاية . ويقبح فقط إذا انقلب إلى موضوع وغاية ونهاية ، وتحول من نظر إلى علم . يحدث الشك في البداية كمقدمة للنظر ، والنظر طريق العلم فالشك إذن طريق للعلم . وإذا ظل الشك بداية ونهاية فإنه يكون قبيحاً مضاداً للعلم(٢٣١) .

فإذا كان القصد إلى النظر أو الشك سابقاً على النظر فإن الخواطر توجد مع النظر . وقد توسع المعتزلة وحدهم في موضوع الخواطر لأنهم هم الذين يوجبون النظر عقلاً ، ويصفون مسار النظر ابتداء من القصد إلى النظر حتى توليد النظر للعلم . والخاطر هي البارقة التي تظهر في الشعور . يستطيع الانسان بها أن يدرك

(٢٣١) هذا هو رأي أبي هاشم الجبائي في حين يمنع القاضي والحكماء أن يكون النظر مع الشك . تحفة المريد ص ٣٤ - ٣٥ ؛ المقاصد ص ٨٦ - ٨٧ ؛ الشامل ص ١٢٠ - ١٢٢ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ١٨٨ - ١٩٤ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٦ .

الدلالة إدراكـاً مباشـراً . وقد يكـون مجرد فـرض علمي يحتاج إلى بـرهان أو نـظرة جزئية في حاجة إلى نظرة أعم وأشمل . الشعور موطن الخواطر ، يعطي البرقات ، وهذه تتوالد في الشعور تلقائياً نظراً لطبيعة الشعور المعطي الواهب . ويرجع انكـار الخواطر إلى رد هذه الدلالات إلى كمال العقل وطبيعة عمله وليس إلى خلق الشعور المستمـر وعمله المتجدد . وبصـرف النظر عن اثبـات الخاطـر أو كمال العقـل فـإن الناظر ترد عليه الخواطر وهي الدلالات التي يتم رؤ يتها . شعور الناظـر في حركـة دائبـة وبحث مستمر عن الحقيقـة ، وهذه الحـركة تجعـل شعوره خـالقـاً لـدلالات وواضعاً لمعانٍ في مقابل النافي للنظر الذي يتحجر شعوره ويصبح مُصْمَتـاً بليـداً ، غافلاً راكداً . ولا يُقال إن الخواطر والدواعي غير ضرورية مـا دام الانسان يعـرف أحواله بنفسه لأن معرفة أحوال النفس لا تتم إلا بـالخواطـر والدواعي(٢٣٢) . يـرد الخاطر على النفس بأفعال الشعور الداخلية وليس من أفعال خارجيـة أو من ارادات مشخصة متعددة أو واحدة . الشعور بطبيعته وهاب للمعاني . لا يـأتي الخاطـر من « الله » لأن الخواطر ظنـون وافتراضـات تتحول إلى بـراهين فيـها بعد ، و « الله » لا يـوحي بظنـون طبقاً لهـذا الافتراض الـذي لم يـدخـل بعـد في نـظريـة العلم تحت التـأسيس . الخاطـر معنى غامض وخفي وإلا كـان معرفـة بـديهيـة ، اضـطراراً أو استدلالاً .

وقد يكون الخاطر اعتقـاداً أو كلامـاً . فالخـاطر يـرد على النفس من تـداعي الذكريات ، ومن حديث النفس الـداخلي ، ومن حيـاة الشعور الـدائبة . الشعـور إدراك وتذكر وتخيل بل وتوهم . وقد يتم الادراك داخلياً وخارجياً معاً . كما قد يـرد الخاطر من الكلام مسموعاً أو مقروءاً أو من رؤ ية اشارة أو تعبير في الوجه بالعين أو بلون البشرة أو بحركة الجسم . يتم الخاطـر هنا بحضـور المدرك . ومـع أن الكلام أخص من الخـاطر إلا أنـه لا يتم فهمه إلا بـالخاطـر . فالخـاطر أيضـاً سـابق عـلى الكـلام ، وشرط فهمـه . ولا يمكن فهم الكلام إلا بفهم قصـد المتكلم ، وهذا لا

(٢٣٢) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص١٩٤- ١٩٦ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧، ص ٢٩٢ - ٣٩٢ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٩ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٩ الارشـاد ص ٨ - ٢٠

يتم إلا بالخاطر . وكون الخاطر كلاماً يعني ارتباطه باللغة . ولكن لا يعني ذلك عدم تعميمه على العقلاء جميعاً لأنه لا دليل على وجود عقلاء قد جهلوا اللغات . ولا يكفي في الخاطر أن يكون معنى يرد على النفس أو اعتقاد ظن بل لا بد أن يكون معبراً عنه في كلام مسموع أو مقروء . ولا ضير أن يحل الكلام في الجسم ، فالكلام لا يكون محمولاً إلا على جسم ، الأذن أو اللسان أو الشفاه أو الهواء . ولا يعني التباس الكلام في الفكر كما هو الحال عند النائم ألا يكون الخاطر كلاماً إذ يمكن بعد الانتباه التمييز بين الكلام والفكر . فإذا لم يكن الخاطر مجرد ظن أو اعتقاد ونابع من ذاتية خالصة ، وإذا لم يكن كلاماً حسياً مادياً لبشر أو لغير بشر فإنه يكون معنى . المعنى هو الجامع بين الذاتية والموضوعية . إما أن يرد على النفس بفعل من أفعال الشعور أو بفعل من أفعال الجوارح . الأول لا يكون إلا ظناً أو اعتقاداً لأنه مجرد خاطر لم يتحول بعد إلى يقين في حين أن الثاني مرئي محسوس مثل الكلام والكتابة . أما الاشارة فإنها تتوقف على قصد المشير ، وبها حضور المتكلم ، وبها الموقف ، وبها العلاقات بين الذوات في حين أن الكتابة مُصْمَتة يغيب فيها الكاتب ، وليست موقفاً حياً ، ولا توجد فيها علاقات بين الذوات(٢٣٣) . وقد تحولت الخواطر لدينا إلى الهامات ورؤى منفصلة عن النظر مصدر العلم تحت تأثير التصوف وازدواجه مع الأشعرية وأصبحت أقرب إلى البرقات والمكاشفات عند الصوفية .

ولا يرد الخاطر على النفس إلا بشروط . منها : أن يفيد الوجه الذي يدل على وجوب النظر وحسنه بأن يساعد الشعور على ادراك المعاني وعلى رؤية عالم يحكمه الفكر ، وأن يتضمن وجوب المعرفة التي يؤدي إليها النظر . فالنظر ليس هدفاً في ذاته بل وسيلة للحصول على المعرفة ، وأن يتضمن وجه الخوف من ترك النظر ورؤية قبحه وذلك بالاشارة إلى الأمارات والعلامات التي تبعث على الخوف ، وأن يتضمن ترتيب النظر حتى يكون منتجاً . وورود الخاطر دون بيان

---

(٢٣٣) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٤٠١ - ٤١٤ ؛ وقد تعرض علماء أصول الدين أيضاً لموضوع الخواطر في الطبيعيات لمعرفة إذا كان الخاطر جسماً أم عرضاً . كما تعرضوا له أيضاً في باب أفعال العباد لمعرفة إذا كانت الخواطر دوافع على الطاعة والمعصية .

دلالته يقبح عقلاً لأنه يكون بلا فائدة . وإذا كان الخاطر من « الله » فإن حكمته تبين وجه النفع والضرر فيه . والخاطر من حيث هو تنبيه على الدليل قد يكون عاملاً مرجحاً بين احتمالين وهو ما يقوم مقام « المعجزة » عند الأشاعرة[٢٣٤] .

وهناك شروط أخرى غير واجبة مثل أن يكون هناك خاطر مقابل ضد الخاطر الأول حتى لا يكون هناك إلجاء من خاطر واحد . والحقيقة أن الخاطر الواحد لا يلجىء بل يدفع ويحث . الخواطر لا تتعارض ولا ينفي بعضها بعضاً بل تجتمع وتتآزر لتؤسس فكرة . وقد لا يأتي الخاطر مستمراً بل متقطعاً . ولا يأتي ممن ظهرت « المعجزات » عليه لأن الخاطر يحدث من كلام أو اعتقاد وكلاهما من أفعال الشعور . الخاطر ظن يتحول إلى يقين بالبرهان بعد النظر فلا يحتاج إلى يقين خارجي عن طريق « المعجزات » ، ولا ينتج عن الخاطر معرفة بالضرورة لأنه لا يصبح معرفة إلا بعد النظر[٢٣٥] .

وتدخل مسألة الخاطر أيضاً في حرية الأفعال ، أفعال الشعور الداخلية نظراً لارتباطها بالدواعي . فمرة يكون الخاطر أقرب إلى المنبِّه على الدلالة ومرة يكون هو الدافع على النظر فيكون كالدواعي مثل الخوف من ترك النظر لما يترتب عليه من ضرر يدرك العقل قبحه في حين أن الداعي هو الباعث على النظر . أما الخاطر فهو ما يرد على الذهن بعد توافر الدواعي التي تتوافر عند العاقل دون الصبي أو المجنون أو الساهي أو الغافل . ولا تصل قوة الداعي إلى حد الالجاء وإلا انتفى النظر . الدواعي هي التي توجه الانسان وتدفعه نحو أعمال الذهن . الداعي هو الامارة التي تنبه الانسان على ضرورة النظر وتحذره من مضار تركه . ولا يكون التنبيه إلا عند أمر حادث أي في موقف اجتماعي يكون هو المسبب للدواعي والخواطر فيبدأ حديث النفس . وهذا كله يجعل المعرفة ممكنة . فامكانية المعرفة تعادل وجود الحوادث والدواعي والتنبيه والخواطر . وذلك كله ينتفي بالسهو

---

(٢٣٤) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ٤١٤ ـ ٤٣٢ ؛ ويرى الجبائي أن الخاطر الداعي إلى النظر والاستدلال من قبل الله جارٍ مجرى الأمر وهو قول خفي يلقيه الله في قلب العاقل . وأنكر قول أبيه وأبي الهذيل في كون الخاطر معنى أو فكراً . أصول الدين ص ٢٧ ـ ٢٨ ، ص ١٥٥ .

(٢٣٥) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ .

وبالغفلة وبآفات السمع وبفقدان الحواس . ومع ذلك ، السهو طارىء ، والغفلة عرض ، وآفات السمع لا تقضي على التنبيه . الداعي من النفس ، والخاطر حديث النفس ، وكلاهما مرهون بحياة الشعور كما أن النظر والعلم مرهونان بيقظة الشعور[٢٣٦] ، ولا يقوم الخاطر مقام الداعي أو الداعي مقام الخاطر ، فلكل منهما عمله في الشعور . الداعي هو الباعث ، والخاطر ما يرد على النفس أو بعد استدلال . وإن كان الداعي سابقاً على الخاطر فإن ورود الخاطر بعد الداعي لا يجعله زائداً بل يكون نتيجة طبيعية لوجود الداعي . وإن كان الداعي أقوى حضوراً فالخاطر أيضاً يكون أقرب إلى النفس والدلالة من مجرد الباعث النفسي . ولا خوف أن يكون الداعي كاذباً أو ماجناً أو هازلاً وألا يكون مخبراً بالنفع والضرر لأن الداعي أمر خطير يمكن التحقق من صدقه بالرجوع إلى الموقف الاجتماعي وليس فقط إلى صدق المخبر إذا ما كان الداعي خبراً[٢٣٧] .

والداعي أساس التكليف إذ لا يوجد تكليف بلا داعٍ . ولما كان النظر تكليفاً فإنه يقوم على الدواعي وهي أشبه بالعلم الضروري الذي يحدث في الشعور إذ أنها مثل الباعث العاقل ، يدفع الانسان إلى أفعال الحسن ويصرفه عن أفعال القبح . وقد يكون أيضاً استدلالياً بوقوع نوع من حديث النفس الباطني ومقارنة الدوافع والصوارف . ولكن الغالب عليه أن يكون ضرورة وإلجاءً . ويختلف في ذلك فرد عن آخر دون أن ينال هذا الاختلاف من وجود الداعي وما نلجأ إليه من وجوب النظر[٢٣٨] . قد يكون الداعي إذن للفعل أو الترك ، للاقدام أو الاحجام ، والذي يحدد ذلك حال الشعور وليس صفة في الشيء . ولا يعني وقوع الأفعال عن الدواعي وقوع القبيح ابتداء لأن الدواعي مجرد البواعث على الأفعال بعدها تحدث الخواطر ثم يأتي النظر من أجل التحقق من صدقها . الداعي هو الباعث وليس صفة الحسن والقبح في الشيء . ولا يعني انتفاء الثواب والعقاب

---

(٢٣٦) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٥٢ - ٢٥٥ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٩ .
(٢٣٧) المصدر السابق ص ٣٩٤ .
(٢٣٨) المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٧٤ - ٣٨٥ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

على الصغائر انتفاء قبحها وإلا كان ذلك داع لفعلها واغراء عليها[٢٣٩]. وعلى هذا النحو يتحول موضوع النظر كأول الواجبات إلى مقدمة للفعل واحساس نظري للسلوك من خلال الخواطر والبواعث والدواعي . فالنظر متجه بطبيعته نحو العمل ، والداخل مفتوح على الخارج مما يجعل النظر يتحول بسهولة إلى موضوع النظر معلنا عن قرب نهاية نظرية العلم وبداية نظرية الوجود كموضوع للعلم[٢٤٠] .

٤ ـ موضوع النظر : لما كان كل نظر هو نظر في شيء فما هو موضوع النظر ؟ يتراوح موضوع النظر عند القدماء بين « ذات الله وصفاته » وبين المخلوقات من أجل الاستدلال على وجوده وبين شؤون الدنيا أي أحوال الناس الاجتماعية ومعاشهم . موضوع النظر إذن أما « الله » أو العالم أو الانسان[٢٤١] . وقد ظهرت هذه الموضوعات الثلاث في بداية تكوين نظرية العلم ، وكانت مرتبطة معاً باعتبارها ما يجب على المكلف الايمان به . ولكن بعد تكوين نظرية العلم تمايزت هذه الموضوعات الثلاثة ، واصبحت موضوع النظر بعد أن كانت موضوعاً للايمان . فعندما يتطور الايمان ويصبح علماً يكون العلم هو الوريث الوحيد للايمان[٢٤٢] .

أ ـ هل يمكن اعتبار « الله » موضوعاً للنظر ؟ « الله » موضوع متعال لا يمكن أن يكون موضوعاً للنظر من حيث هو كائن مشخص له ذات وصفات

---

(٢٣٩) المصدر السابق ص ٤٩٩ ـ ٥٠٢ .

(٢٤٠) أنظر الفصل الرابع : نظرية الوجود .

(٢٤١) تظهر هذه الموضوعات الثلاثة كبناء أساسي في كل حضارة . فقد ظهرت في الحضارة اليونانية عند سقراط (الانسان) وأفلاطون (الله) وأرسطو (العالم) . وظهرت من جديد في حضارة العصر الوسيط الأوروبي عند أوغسطين (الانسان) والقديس بونافنتورا (الله) وتوما الاكويني (العالم) . وظهرت في الحضارة الأوروبية في عصورها الحديثة إما كمثل للعقل (كانط) أو كروافد أساسية فيه كالمثالية (الله) والواقعية (العالم) ، والوجودية (الانسان) أنظر أيضاً رسالتنا L'Exègèse de la Phénoménologie.

(٢٤٢) الانصاف ص ١٣ ، ص ١٩ ـ ٢٣ ؛ المحيط ص ١٨ .

وأفعـال[٢٤٣] . ولكن يمكن النظر فيـه من حيث هو مبـدأ معـرفي خـالص قبـل أن يكون تحققاً في الواقع أي باعتباره فكرة محدَّدة كـما هو معـروف في المنطق أو نمـوذجاً كما هو معروف في العلوم الصورية أو مثالاً كـما هو معـروف في العلوم الأخلاقيـة . قد يعني أيضاً البحث المستمر عن الخالص وهو ما سماه القدماء التنزيه الذي تعنيـه آية ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أو ﴿ تعالى الله عما يصفون ﴾ . كما أنه يشير إلى مضامين إنسانية مثل وحدة الذات بين القول والعمل ، والفكر والوجدان ، ووحدة المجتمـع بلا طبقـات ، ووحدة الانسـانية بـلا تفـرقـة عنصـريـة أو معسكـرات أو مجمـوعات دول كبـرى وصغرى ، غنيـة وفقيرة . يبـدو أن القـدمـاء قـد شخصـوا موضوع العلم وبالتالي لم يتأسس علم التوحيد على أنه علم صوري خـالص أو على أنـه ايديـولوجية اجتماعيـة وسياسيـة . وظهر ذلـك اما في العلوم الـرياضيـة عنـد الرياضيين والحكماء أو في العلوم الشرعية عند الفقهاء[٢٤٤] . وقد أشار القـدماء إلى هذه الحقيقة وذلك بتأكيدهم على استحـالة معـرفة « الله » في ذاتـه وامكاننـا معرفـة الواجب والممكن والمستحيل في حقه[٢٤٥] . وبالتالي تحولت معرفة « الله » إلى نظرية في احكام العقل الثلاثة. كما أشاروا أيضاً إلى دلالة التـوحيد الخلقيـة والاجتماعيـة والسياسية في اقتران التوحيد بالعـدل عند المعتـزلة وفي الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر.فالأصول الخمسة عند المعتزلة هي التي تمثل كيفية تحول التفكير « الإلهي » إلى فكر اجتماعي وسياسي وكيف يتحول موضوع « الله » إلى التوحيد الـذي ينشأ منـه العـدل والـوعـد والـوعيـد والمنـزلـة بـين المنـزلتـين والأمـر بـالمعــروف والنهي عن المنكر[٢٤٦] .

(٢٤٣) أنظر الفصل الأول ، تعريف العلم ، ٣ ـ موضوعه. وأيضاً الفصل الخـامس ، الوعي الخـالص (الذات) ؛ الفصل السادس ، الانسان الكامل (الصفات) .

(٢٤٤) أنظر بحثنا « المقومات الثقافية للشخصية العربية » ، قضايا معاصرة (٣) في الثقافة الوطنية وأيضاً Morality and the Integrity of Islamic Society .

(٢٤٥) « ولما كانت معرفة الله عبـارة عن معرفـة ما يجب في حقـه تعالى ومـا يستحيل ومـا يجوز لا معـرفة حقيقة الذات العلية لعدم امكان ذلك ولعـدم تكليفنا بـذلك فسـر المعرفـة بما هـو المراد » شـرح الخريدة أنظر أيضاً رابعاً : النظر الصحيح يفيد العلم ، ب ـ المهندسون في الإلهيات .

(٢٤٦) المحيط ص ١٩ ـ ٢١ .

ب ـ وقد يكون موضوع النظر هي المخلوقات أي آيات « الله » في الكون من أجل الاستدلال بها على وجوده وبالتالي الاغتراب عن الطبيعة ونفيها وهدمها والخروج عليها[247] . فليس المقصود من النظر في الطبيعة البحث عن قوانينها من أجل السيطرة عليها والاستفادة منها بل الانتقال منها إلى اثبات شيء آخر غيرها هو « الله » . الطبيعيات هنا ما هي إلا مقدمة للإلّهيات كما هو الحال في علوم الحكمة أو سلم يُرتقى عليه من أجل الوصول إلى اثبات وجود « الله » ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً أي العودة إلى الموضوع الأول من جديد . الطبيعيات هنا إلّهيات « مقلوبة » والإلّهيات هي طبيعيات « مسقطة » . فإذا كان الموضوع الأول انتقال من الله إلى العالم فإن الموضوع الثاني هو انتقال من العالم إلى الله . لا يعني النظر في الطبيعة الدخول في فروع مسائلها مثل الجزء والطفرة والكمون بل التأمل فيها والبداية بها مع أن هذه المفاهيم الطبيعية ذاتها لها دلالات وبواعث في الفكر « الإلّهي »[248] . وقد يكون الموضوع « أمور الدين » كحلقة متوسطة بين الفكر « الإلّهي » والفكر الطبيعي . فإذا كان النظر في أمور الدنيا نظراً اضطرارياً فإن النظر في أمور الدين يعلم قياساً[249] . تدفع أمور الدنيا المكلف إلى النظر إذ يعيش الانسان في وضع اجتماعي يدفعه إلى النظر دفاعاً عن حقوقه الضائعة . يكتسب الانسان النظر إذا ما

---

(٢٤٧) « وإذا صح وجوب النظر فالواجب على المكلف النظر والتفكر في مخلوقات الله لا في ذات الله . فالنظر والتفكر والتكليف يكون في المخلوقات لا في الخلق . ومهما سئل عن الذات أجيب بالنظر في المخلوقات الدالة عليه » الانصاف ص ٢٩ ؛ « أول ما ينظر الناظر فيه هو اثبات الأعراض وحدوثها وذلك لا يكون علماً بالله بل العلم به أولاً هو أن للأجسام محدثاً » المحيط ص ٢٦ ـ ٢٣ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

(٢٤٨) بالرغم من وصول هذا الموضوع إلى مكتشفات في علم الطبيعة إلا أن القصد منها كان الانتقال منها إلى اثبات وجود الله مما يدل على أن البحث عن الله قد يؤدي في النهاية إلى الكشف عن قوانين الطبيعة وبالتالي يكون الدافع هو العلم . وهو ما يسمى في تاريخ الفكر الديني اللاهوت العلمي أو الطبيعي أو الدليل الكوني لاثبات وجود الله . لذلك وصفت الطبيعة بأنها حادثة أو ممكنة من أجل اثبات أن « الله » قديم واجب .

(٢٤٩) يرى أبو علي الجبائي أن «النظر في أمور الدنيا يُعلم وجوبه اضطراراً وفي أمور الدين يُحمل على هذا النظر قياساً وتأملاً » . المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف . أنظر أيضاً رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse, Verité descendante et Realité Ascendante

دعا الموقف ، وتعود على النظر فيصبح حقاً لـه . النظر في أمـور الدين لا يتم إلا قياساً على أمور الدنيا ، والنظر في أمور الدنيا هو نفسه نظر في أمور الـدين . الأول بمنهج استقرائي والثـاني بمنهج استنبـاطي . الخلاف في المنهـج وليس في الموضـوع . والمصلحة أساس للنظر والشرع عـلى السـواء . ولا يعني ذلك أن الأول ظني والثاني يقيني إذ يمكن الوصول إلى اليقين في أمور الدنيا كـما أن كثيراً من أمـور الدين تـظل ظنية . ولما كان قياس الظن على اليقين ممكناً فإنه يمكن الوصول في أمـور الدين إلى اليقـين قياسـاً على أمـور الدنيـا . واليقين هنـا نظري وعمـلي معـاً . وإن استحـال النظري يكفي العملي . الدين هو الدنيا ، والدنيا هي الـدين ، لا فرق بـين المنهج الصاعد للنظر في أمور الدنيا والمنهج النازل للنظر في أمور الدين . إن تحليل الـواقع تحليلاً علمياً يؤدي إلى نفس النتيجة لفهم النصوص فهـماً سليماً اعتمـاداً على اللغـة والحدس وأسباب النزول والموقف الاجتماعي حتى ولو كان ادراك المصلحة ظنيـاً في أمـور الدنيـا فإن ذلـك يحدث تبعـاً لتغير المصـالح من مجتمـع لآخر ، ومن مـرحلة تاريخية لأخرى . يمكن قياس أمور الدين على هذا الواقع الظني ويكون ذلك تفسيراً للدين . فالتفسير تصور اجتماعي للدين في لحظة تاريخية معينة . ومع ذلك فـادراك المصلحة ليس ظناً بل يقين عملي[٢٥٠] . قسمة موضوع النـظر إذن إلى أمور الـدين وأمور الدنيا قسمة ثنائية لا تقوم على واقع . أمور الـدين هي أمور الـدنيا ، وأمـور الدنيا هي أمور الدين . هناك موضـوعات شعـورية واحـدة يحللها الشعـور بصرف النـظر عن مستواهـا من المادية أو الصـوريـة وبصـرف النـظر عن اتجـاه القصـد . الانسان واحد له شعور واحد ، يعيش في عالم واحد . كما أن قسمة أمور الدين إلى قسمـين شبهة ودلالـة قسمة تتعلق بتحليـل الشعور أكـثر ممـا تتعلق بـالمـوضـوع . فالشبهة تقع في الدليـل (النص) والدلالـة أيضاً تـأتي من تخريـج النص فيما يتعلق بالحجة النقليـة . وقد تعني الشبهـة إزالة لبس منـطقي . والدلالـة هي الفطنـة إلى كيفيـة الانتقال من أمـرين إلى ثالث . ولا يعني ذلـك انحيازاً إلى المثـالية ، وتفسـير الفكر بالفكر وذلك لأن الشعور باعتباره ذاتاً وموضوعاً وصف لواقع حياته وتكوينه[٢٥١] .

(٢٥٠) أنظر دراستنا « مناهج التفسير ومصالح الأمة » ، قضايا معاصرة (٤) ، في اليسار الديني .

(٢٥١) شرح الأصول ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٣٥٢ ـ ٣٥٧ .

جـ ـ موضوع النظر إذن هو التفكير في شؤون الدنيا لما كانت شؤون الدين قياساً عليها ، قياساً للمعقول على المحسوس ، وللغائب على الشاهد . والنظر في أمور الدنيا يقوم على دفع الضرر وجلب المصلحة . ومن ثم لا فرق بين علم أصول الدين وعلم أصول الفقه إذ يقوم كلاهما على تحقيق المصالح العامة(٢٥٢) . ولا يعني ذلك وقوعاً في النفعية الخالصة وذلك لأن المصالح العامة من موجبات العقول . هناك إذن مقياسان لصحة النظر: العقل والواقع ، البداهة النظرية والمصلحة العملية . ولا يقال إن النظر في أمور الدين لا يجب إلا بدليل ولا يجب إلا إذا أدى للعلم ولأن الناظر فيه لا يأمن من الهلاك بعكس النظر في أمور الدنيا التي يُعلم الضرر فيها وذلك لأن النظر في أمور الدين يؤدي إلى الظن ، ويعتمد على الامارة لا الدليل ، ولا يؤدي إلى هلاك أكثر مما يؤدي إليه النظر في أمور الدنيا . يقوم النظر في أمور الدين على التجربة والعادة مثل النظر في أمور الدنيا لأن الداعي له تجربة الخوف من تركه عادة . ولا فرق بينهما من أن النظر في أمور الدين يُخشى منه مضرة آجلة وليس عاجلة بعكس النظر في أمور الدنيا . فلا فرق بين المتأخر والمتقدم إلا من حيث الفور والتراخي على ما يقول علماء أصول الفقه . ولا فرق بينهما أيضاً من أن النظر في أمور الدين يعتمد على دليل قاطع مثل قول الأنبياء ولأن المعارف الضرورية لا تقل قطعاً عن دليل الأنبياء .

ويصعب أن يكون النظر في أمور الدين موافقاً « لارادة الحكيم » لأنه يصعب معرفتها إلا من خلال الوحي أي مناهج التفسير أي باللجوء إلى علوم الدنيا ، وهي اساس علوم الدين . ولا يتطلب النظر في أمور الدين وضوحاً أكثر مما يتطلبه النظر في أمور الدنيا فالبداهة الحسية والعقلية والوجدانية هي أساس الوضوح في أمور الدين والدنيا معاً . ولا يتطلب النظر في أمور الدين كل الفروع في المسائل النظرية الواردة في النظر في أمور الدنيا فالنظر في كليهما واحد من حيث الأسس العامة . ولا يعني وجوب النظر عند وجود الدواعي أن قول الداعي حجة بل قد يتم

(٢٥٢) ويتضح أيضاً في الفكر الاعتزالي ارتباط علمي الأصول : علم أصول الدين وعلم أصول الفقه ، بأفكار النظر والمصلحة مما يفسر ارتباطنا به وتطويرنا له .

الوجوب للفعل طبقاً لمقتضيات الحاجة . فالضرر الواقع من ترك النظر في أمور الدين وأمور الدنيا واحد ، ويعلم قبحه ضرورة . ولما وجب عقلاً النظر في باب الدين فوجب النظر في جميع الأفعال . ولا ينفي وجود معارف ضرورية عن طريق الالجاء وجوب النظر فالمعارف الضرورية أولى مراتب النظر(٢٥٣) .

سابعاً : طرق النظر :

بعد وجوب النظر أصبح آخر جزء في نظرية العلم طرق النظر أو مناهجه . فالطريق هنا يعني المنهج . طرق النظر هي مناهج النظر التي يمكن التوصل بها إلى المطلوب . ويبدو أن هذه المناهج كلها قد تم استعارتها من المنطق ، فنظرية العلم هي في صورتها الأخيرة نظرية في المنطق . لذلك لما كان الادراك تصوراً أو تصديقاً فكذلك المطلوب . إن كان تصوراً يكون هو المعرف وإن كان تصديقاً يكون هو الدليل سواء كان ظنياً أم قطعياً . وقد يخص بالقطعي وحده وفي هذه الحالة يسمى الدليل الظني امارة . وقد يخص بما يكون من المعلول إلى العلة فيسمى عكسه تعليلاً أي الانتقال من العلة إلى المعلول . وواضح أن التصديق عند القدماء ليس حكماً بل مجرد الدليل على التصور أي ما يحقق التصور . وإذا كان الدليل بحسب اليقين ظنياً أم قطعياً فإنه بحسب الدلالة يكون اما برهان دلالة أو برهان علة . ويلاحظ على تصور القدماء لطرق النظر سيادة نظرية المنطق على نظرية العلم . وقبول القسمة التقليدية في المنطق عند الحكماء إلى تصور وتصديق وأن التصور ينال بالحد وأن التصديق يُنال بالبرهان . وهي القسمة التي رفضها الفقهاء وفندوها وبيّنوا تهافتها وسطحيتها بالرغم من دخولها أيضاً كمقدمة في علم أصول الفقه(٢٥٤) . والتركيز أكثر على الدليل وهو ما يعادل الحكم المنطقي وكأن أهم شيء في علم أصول الدين ليس التصورات أو الأحكام بل الأدلة . ومن

---

(٢٥٣) المحيط ص ١٤ - ١٥ ، ص ٢٦ - ٣٣ ؛ المغني جـ ١٢ ، النظر والمعارف ص ٢٦٢ - ٢٧٢ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٧ .

(٢٥٤) قارن مثلاً رفض ابن تيمية لنظرية المنطق وقسمته في « نقض المنطق » وفي « الرد على المنطقيين» وكذلك في تلخيصات السيوطي « ترجيح أساليب القرآن على منطق اليونان » . والغزالي في « المستصفى » هو الذي تبنى هذه القسمة المنطقية كمدخل لعلم أصول الفقه .

البداية يتم التمييز بين الدليل الظني والدليل القطعي من أجل تأسيس العقائد . والخشية أن تكون الأدلة ظنية ويظنها المتكلم قطعية . كما يبرز برهان العلة كأحد الأدلة وهو ما سيتحول فيما بعد إلى نظرية الوجود في مبحث العلة والمعلول كجزء من المباحث الطبيعية أكثر منه جزءاً من نظرية المنطق . تبدو القسمة عقلية بديهية بصرف النظر عن موضوع علم الكلام وهو « الذات والصفات والأفعال » وكأن الموضوع كان مجرد وسيلة لصياغة المنهج ووضع نظرية في المنطق(٢٥٥) .

١ ــ التعريف : هو الطريق إلى التصور . ولما كان عالم أصول الدين لا يعرف تصوراته فلم يركز على التعريف قدر تركيزه على الأدلة في حين أن « التراث والتجديد » يركز على التصورات قدر تركيزه على الأدلة لمعرفة هل يمكن تصور « الله » قبل هل يمكن البرهنة عليه . وقد تحدث القدماء في موضوعات ثلاث في التعريف .

أ ــ معرفة المعرف به تسبق معرفة المعرَّف ويكون غيره وأجلى منه ، ويكون مساويه في العموم والخصوص . ويكون التعريف بالخصائص المميزة . فإن كان التمييز ذاتياً فهو الحد وإن كان غير ذاتي فهو الرسم . وإن كان الذاتي بالجنس القريب فهو التعريف التام وإلا فهو تعريف ناقص . ويُحد المركب دون البسيط لأن البسيط لا حد له . وواضح أن يستحيل تطبيق هذا التعريف المنطقي في الإلهيات لأن « ذات الله » لا تساوي أحداً في العموم فهي العموم المطلق ، ولا

(٢٥٥) المواقف ص ٣٤ ــ ٣٥ ؛ المحصل ص ٣٢ ؛ طوالع الأنوار ص ١١ ــ ١٤ ، أنظر أيضاً الفصل الرابع ، نظرية الوجود ، العلة والمعلول . وكل هذه التقسيمات المنطقية ما دامت عقلية فهي ممكنة ما دام العقل يقبلها ولا يرفضها ، مثل قسمة التصور إلى حدّ ورسم ، والرسم إلى تام بالمميز الذاتي وناقص بالمميز العرضي ، وقسمة التصديق إلى قياس واستقراء وتمثيل ، والقياس إلى استثنائي واقتراني ، والاستثنائي إلى متصل ومنفصل ، والاقتراني إلى حملي وشرطي . ثم قسمة الاستقراء إلى تام وناقص ، وقسمة التمثيل إلى قطعي وظني . كلها تتبع تحليل العقل ، وهو الأساس ، وتوجد كلها داخل نظرية العقل العامة أحد جوانب نظرية اليقين . ويدخل القياس الفقهي في الاستدلال ويكون هو التمثيل . وبهذا احتوت نظرية المنطق القياس الفقهي . المحصل ص ٣٢ ؛ طوالع الأنوار ص ٧ ، ص ١٨ ؛ شرح المقاصد ص ١٢ ؛ المقاصد ص ٨٨ ــ ٩٠ .

يمكن تعريفها بالجنس القريب والفصل البعيد لأن لا جنس لها فهي جنس الأجناس ونوع الأنواع . كما أنها ليست مركبة حتى يمكن حدها . وأقصى ما يمكن عمله هو التعريف الناقص عن طريق الصفات العرضية وهو الرسم ، أقل درجة في التعريف . خاصة وأنه لا يمكن إحصاء الخصائص المميزة لها لصياغة حد لها . ويبدو أن التعريف وضع للمنطق ، للموضوعات العقلية الخالصة وليس لأي موضوع « إلهي » خاص[٢٥٦] .

ب - التعريف بالمثال وهو تعريف بالمشابهة مثل التعريف الناقص أو الرسم وهو الوارد عادة في معرفة « ذات الله » إذ لا يمكن معرفتها بالحد التام ولكن يمكن فقط عن طريق القياس والشبه ، قياس الغائب على الشاهد الذي يؤدي إلى التشبيه وهو المستعمل في علم الكلام عن قصد أو عن غير قصد ، بوعي أو عن غير وعي . ويكون التنزيه بطبيعة الحال هو رد الفعل . ولكن التنزيه أيضاً متعلق بالتشبيه لأنه رد فعل عليه ، ورفض سالب له ، وما زال يستعمل المفاهيم الانسانية حتى في صورها الأكثر تجريداً . ولكن يبدو أن المتكلم في خطابه كان يظن أنه يتحدث بالتعريف الأول وهو في حقيقة الأمر لا يتحدث إلا بالتعريف الثاني . فلا سبيل إلى الوصول إلى الأول على الاطلاق إلا عن طريق الثاني .

جـ - التعريف اللفظي وهو توضيح دلالة لفظ بلفظ آخر أوضح دلالة ، ويُستعمل في التعريف العام . وتستبعد الألفاظ الغريبة الوحشية وكذلك الألفاظ المشتركة والمجازية بلا قرينة . ومن ثم يعرف ألفاظ « الذات والصفات والأفعال » وباقي ألفاظ علم الكلام . والحقيقة أنها في غالبيتها ألفاظ مشتركة مجازية ، تفيد معاني انسانية ثم أُطلقت على « الله » على طريق المجاز بلا قرينة إلا من قياس الغائب على الشاهد . فالانسان له ذات وصفات وأفعال ثم أطلقت على « الله » فأصبحت ألفاظاً مشتركة مجازية ، أصلها الحقيقي في الانسان[٢٥٧] .

---

(٢٥٦) يضع الرازي ثلاثة مبادىء للتعريف أ - البسيط لا يعرف ولا يعرف به ب - الاحتراز عن تعريف الشيء بما هو مثله وبالأخص وعن تعريف الشيء بنفسه أو بما لا يعرف إلا به . جـ - تقديم الأعم على الأخص . المحصل ص ٥ - ٦ ؛ طوالع الأنوار ص ١٤ .

(٢٥٧) تقام بعض الاعتراضات المنطقية على التعريف منها أنه لا يمكن معرفة جميع الأجزاء فربما يند منها =

٢ ـ الاستدلال : هي طريقة الانتقال من المقدمات إلى النتائج وهو المعنى العام للاستدلال ويتم هذا الانتقال بعدة طرق :

أ ـ الاستدلال بالكلي على الجزئي وهو القياس ، وفي هذه الحالة يتم الانتقال من « ذات الله » إلى غيرها باعتبار أنها الكلي . والحقيقة أن ذلك مستحيل لأنها لا يمكن أن تعرف ، ولا يوجد أعم من « ذات الله » يمكن أن يُستدل به على ذات الله باعتباره كلاً أخص أو جزءاً . وبالتالي فالقياس المنطقي بهذا المعنى لا يمكن استعماله في معرفة « ذات الله » .

ب ـ الاستدلال بالجزئي على الكلي وهو الاستقراء . فإن كان الاستقراء تاماً فهو استدلال يقيني وإن كان ناقصاً فهو استدلال ظني . وهو طريق الانتقال من الانسان إلى « الله » أي من الجزء إلى الكل وهو طريق التشبيه وقياس الغائب على الشاهد . ويستحيل أن يكون تاماً لأن الانسان لن يستقرىء كل الجزئيات للاستدلال بها على « ذات الله » باعتبارها كل الكليات بالاضافة إلى أنه خطأ في اتجاه المعرفة . فالانتقال من الجزئي لا يكون إلا لجزئي مثله ، دخولاً في العالم وليس خروجاً منه(٢٥٨) .

جـ ـ الاستدلال بالجزئي على الجزئي وهو التمثيل أو القياس الفقهي أي

شيء وبالتالي يستعصي التعريف . ويُرد على ذلك بأن تصور الأجزاء كاف لحدوث تصور الشيء . كما يعترض بأن المطلوب إن كان مشعوراً به امتنع تحصيله وإن لم يكن مشعوراً به امتنع طلبه ويُرد بأنه يُعرف ببعض اعتباراته . المواقف ص ٣٥ ؛ المحصل ص ٢٢ ؛ طوالع الأنوار ص ١١ ـ ١٤ . أنظر أيضاً « التراث والتجديد » . رابعاً ـ طرق التجديد ١ ـ منطق التجديد اللغوي أ ـ قصور اللغة التقليدية ص ١٢٧ ـ ١٣٥ .

(٢٥٨) والقرآن صريح في استحالة احصاء الأجزاء احصائيا للحصول على المعنى الكلي مثلاً « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (١٤ : ٣٤) ؛ « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤ وا ما تيسر من القرآن » (٧٣ : ٢٠) ؛ ولا يقدر على الاحصاء الكامل أي الاستقراء التام إلا « الله » مثلاً : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » (٧٢ : ٢٨) ؛ « أحصاه الله ونسوه » (٥٨ : ٦) ؛ « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » (١٨ : ٤٩) ؛ « لقد أحصاهم وعدهم عدا » (١٩ : ٩٤) ؛ « وكل شيء أحصيناه في امام مبين » (٣٦ : ١٢) ؛ « وكل شيء أحصيناه كتابا » (٧٨ : ٢٩) .

مشـاركة الجـزأين في علة الحكم . وهـو يجـوز في الأشيـاء والأفعـال ولكن لا يمكن معـرفة « ذات الله » بـه لأن الله ليس جزءاً ولا يقـاس على جـزء . أما الاستـدلال بـالكلي عـلى الكلي (طبقـاً للحالـة الرابعـة في القسمة العقليـة) فالكليـان جزئيـان لدخولهما تحت عنصر ثالث مشترك . ولا يمكن « لذات الله » ككل أن يسـاويها كـل آخـر وإلا كان شِرْكاً . ومن ثم يستحيـل استعمال هـذه الاستدلالات المنطقية في الفكر « الإلهي »[٢٥٩] .

٣ ــ **القياس** : وهو المنهج الرئيسي في الاستدلال ، وقلب المنطق وعمـدته . وتأتي معظم أشكاله من المنطق الصوري . وكأن المتكلمين قـد اعتمدوا عـلى منطق الحكماء أكثر من اعتمـادهم على منـطق الأصوليـين بالـرغم من اشتـراكهم معهم في « علم الأصول » ، أصول الدين عند المتكلمين وأصول الفقه عند الفقهـاء . وأهم صور القياس خمس :

أ ــ الانتقال من حكم إيجابي أو سلبي لكـل أفراد الشيء إلى شيء آخـر كله أو بعضه ، وثبوت نفس الحكم لـه قطعـاً . وبلغة المنـطق الصوري ، الانتقـال من الكلية الموجبة أو السالبة إلى الكلي أو الجزئي الموجب أو السالب . وهو مـا يستحيل في معرفة « الله » باعتبارها كلاً موجباً (اثبات صفات الكمال) أو كلا سـالباً (نفي صفات النقص) ، ولأنه غـير معرَّف بعـد فكيف يمكن الانتقال منـه إلى موجب أو سالب آخر ، كلي أم جزئي ؟ .

ب ــ الانتقال من حكم لكل أفراد الشيء وحكم مقابـل لشيء آخر كـلي أو جزئي فيعلم سلب الحكم الأول عن الشيء الثاني ، أي الانتقال من الكلية الموجبة إلى الكلية أو الجزئية السالبة عن طريق القلب أو التضـاد، ولا يمكن معرفـة « الله » أيضـاً عن هذا القيـاس لأن « الله » لا يمكن معـرفتـه ثم الانتقـال منـه إلى معـرفـة الآخر . ولكن يمكن افتراضـاً تعريف « ذات الله » تعـريفاً كليـاً موجباً ثم قلبه إلى عكسه كلا أو جـزءاً وسلب الحكم عنه . إذا كـان « الله » حياً يكـون الانسان ميتـاً سواء كان الانسان الكلي أو هذا الانسان المتعين .

---

(٢٥٩) المواقف ص ٣٥ ـ ٣٦ .

جـ ــ الانتقال من ثبوت أمرين لثالث إلى ثبوته فيه سواء كان كلياً أم جزئياً . وبلغة الرياضة المساويان الثالث متساويان أو بتعبير أدق المتساويان مع ثالث يكون مساوياً لهما . وعلى افتراض معرفة « ذات الله » فإنه لا يمكن الانتقال منها إلى معرفة شيء آخر نظراً لعدم اشتراك الله مع غيره في صفاته المطلقة وإلا وقعنا في الشرك في مفهوم المتكلمين .

د ــ الانتقال من ملازمة شيئين ، ومن وجود الملزوم إلى وجود اللازم ، ومن عدم اللازم إلى عدم الملزوم . وبلغة التعليل إذا ثبت وجود رابطة علة بين شيئين ، إذا وجدت العلة وجد المعلول ، وإذا وُجد المعلول وُجدت العلة ، وهو ما يسمى بقياس العلة بلغة الأصول . وهذا يقتضي أولاً معرفة « الله » ثم معرفة أن علاقة « الله » بالعالم علاقة علة بمعلول حتى يمكن استخدام قياس العلة لاثبات وجود « الله » ، طالما وُجد العالم ، وهو المعلول ، وجد « الله » لاعتباره علة .

هـ ــ الانتقال من المنافاة بين أمرين من وجود أحدهما إلى عدم الآخر ، وهو اثبات وجود الشيء ثم نفي ضده ، وهو ما يقوم عليه التنزيه باثبات صفات الكمال «للّه» ونفيها عن الانسان واثبات صفات النقص للانسان ونفيها عن « الله » .

ويستمر التشعيب في أنواع القضايا وقسمتها إلى استثنائية واقترانية ، وقسمة الاستثنائية إلى متصلة ومنفصلة. ثم تظهر أشكال القياس الأربعة وضروب كل منها سلباً وايجاباً ، كلية وجزئية كما هو الحال في المنطق الصوري[٢٦٠] . ويلاحظ أن كل هذه الأشكال من القياس مستمدة من المنطق الصوري الذي كان نموذجاً لنظرية العلم في علوم الحكمة التي طغت على علم الكلام في مرحلة البناء الكامل ودخلت فيه ، وليست مستمدة من المنطق الأصولي على ما هو معروف في علم أصول الفقه ونقده لاشكال القياس القديم وتفضيله القياس الشرعي . كما أنها معروضة على نحو نظري خالص دون بيان وجه استعمالها في « الإلّهيات » مما جعل نظرية العلم مقطوعة الصلة بموضوع العلم ، وكأنها غاية في ذاتها وليست وسيلة لشيء آخر هو

(٢٦٠) يقول الايجي « ولهذه تفاصيل أفرد لها منه » المواقف ص ٣٦ ؛ طوالع الأنوار ص ١٩ ــ ٢٤ .

موضوع العلم « الإلهي » . تفصل المنهج عن الموضوع وتستعمل المناهج في الاستدلال على موضوع مفترض سلفاً مع أنه هو المطلوب اثباته وتأسيسه بنظرية العلم . وتخرج عن نظرية العلم ولا تبدأ ببدايات يقينية أولى لا تسبقها بدايات أخرى نظراً لاستخدامها في افتراضات مسبقة مستمدة من « الإلهيات » . وهل يتم التعبير عن الفكر الديني بمثل هذا الوعي النظري المنطقي ؟ هل يقوم المتكلم بالتعبير عن خطابه واضعاً إياه في هذه الأشكال الصورية للقياس ؟ ألم يقع الخطاب الكلامي ، بالرغم من نظرية العلم هذه كنظرية في المنطق ، في منطق الخطابة والجدل بعيداً عن منطق البرهان ؟ وهل يمكن استعمال هذا القياس بصرف النظر عن مادة نظرية العلم أي التجارب التي يخوضها المتكلم والواقع الذي يعيش فيه ؟ قد تكون الميزة الوحيدة لهذا القياس هو بيان امكانية وضع الخطاب الكلامي في قضايا منطقية حتى يكون لها معنى ، وكأن الخطاب « الدين » لا يحصل على معناه إلا بتحليل القضايا[٢٦١] .

٤ ـ **القياس « الديني »** : ونعني به ثلاثة أدلة أخرى تعرض القدماء لها وحكموا عليها بالضعف مع أنها دعامة الفكر الديني . أشار علماء أصول الدين إلى الاثنين الأولين منها بينما أشار علماء أصول الفقه إلى الثالث . ويظهر فيها ابداع نظرية العلم وقدرة الحضارة الجديدة على صياغة منطق جديد في مقابل المنطق الصوري القديم وهي :

أ ـ **قياس الغائب على الشاهد** : وهو قياس انساني معرفي إذ لا يعرف الانسان ما لا يعرف إلا قياساً على ما يعرف ، ولا يتصور اللا مرئي إلا قياساً على المرئي ، وبالتالي قياس « ذات الله » على ذات الإنسان ، و« صفات الله » على صفات الانسان ، و« أفعال الله » على أفعال الانسان . وهو طريق التشبيه ، طريق الأشاعرة والمشبهة والمجسمة بوجه عام لا فرق بين الصفة أو الموصوف أو بين الصورة والجسم . ويقوم على اثبات علة مشتركة بين الغائب والشاهد حتى يمكن القياس عليها . والحقيقة أن ذلك مستحيل وإلا وقع المتكلم في الشرك . « فالله » في

---

(٢٦١) وهذا ما قمنا به في تحليل الذات والصفات . أنظر الفصلين الخامس والسادس .

عرف المتكلمين يتفرد وحده بالذات والصفات والأفعال فكيف تكون المشاركة ؟ قد تكون خصوصية الأصل شرطاً مثل صفات « الله » المطلقة مثل الخلق والرزق والإماتة والاحياء والحساب وقد تكون خصوصية الفرع مانعاً مثل صفات النقص والموت والفناء والعدم ، النَّصَب . ولهذا القياس صور منطقية ثلاث :

(١) الطرد والعكس : أي وجود الصفة في الشيئين أو غيابها عن واحد وحضورها في الآخر . والأفضل وجودهما معاً . وهما مبحث العلة عند الأصوليين فبلغتهم دوران العلة والمعلول وجوداً وعدماً ، إذا حضرت العلة حضر المعلول وإذا غابت العلة غاب المعلول . وهو مبحث أصولي خالص لا يتم إلا في الأفعال الحسية والأمور المرئية التي تخضع للتجريب .

(٢) السبر والتقسيم : أي الحصر ثم القسمة ، حصر الصفات الذي قد يكون تاماً أو ناقصاً ثم التقسيم للبحث عن الصفات المشتركة ، وهل يمكن حصر صفات الله؟(٢٦٢) .

(٣) الالزامات : وهو القياس على ما يقول الخصم لعلة فارقة . وهو لا يفيد اليقين ولا الالزام لأنه يعتمد على أقوال الخصم الذي قد يمنع علة الأصل وحكمه ويجعله واضع الدليل ، ويقيم اليقين على الظن . والحقيقة أن هذا وارد في علم الكلام في منهج الجدل الذي يعتمد في مقدماته على مسلمات الخصوم ما دام في ذلك افحام له ، وانتصار عليه(٢٦٣) .

وعلى هذا النحو يبدو قياس الغائب على الشاهد مستعاراً كلية من علم أصول الفقه دون مراعاة لطبيعة الموضوعين « ذات الله وصفاته وأفعاله » في علم أصول الدين والأحكام الشرعية في علم أصول الفقه وإلا كنا قد افترضنا سلفاً أن

---

(٢٦٢) لا يمكن إحصاء صفات الله أو كلامه بنص القرآن « ولله الأسماء الحسنى » (٧ : ١٨٠) ؛ « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (٨ : ١٠٩) ؛ « ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (٣١ : ٢٧) .

(٢٦٣) أنظر الفصل الأول ، د ـ منهجه ، ب ـ المنهج الجدلي .

موضوع علم أصول الدين موضوع حسي خاضع للتجريب والقياس وبالتالي لا يفترق الأشاعرة عن المشبِّهة والمجسمة في شيء ، أو الاعتراف والتسليم بأنه لا يمكن معرفة « ذات الله وصفاته وأفعاله » إلا قياساً على ذات الانسان وصفاته وأفعاله عن قصد أو عن غير قصد ، عن وعي أو عن غير وعي . والاعتراف بالحق خير من التمادي في الباطل(٢٦٤) .

ب ـ **قياس الأولى** : ولم يذكره علماء أصول الدين في نظرية العلم كجزء من النظرية كما ذكره علماء أصول الفقه في نقدهم للمنطق الصوري القديم ووضع منطق أصولي جديد بدلاً عنه . ولكن يظهر معناه في نظرية العلم في عرض موقف « المهندسين في الإلّهيات » إذ أن الغاية فيها (الإلّهيات) « الظن والأخذ بالأحرى والأخلق » . وهو أقرب إلى فعل الشعور منه إلى القياس ذي القواعد والأصول . إذا كان الانسان عالماً « فالله » أولى بالعلم ، وإذا كان الانسان قادراً « فالله » أولى بالقدرة ، وإذا كان الانسان حياً « فالله » أولى بالحياة ، وإذا كان الانسان سميعاً بصيراً متكلماً مريداً « فالله » أولى بالسمع والبصر والكلام والارادة ، وهكذا في باقي الأوصاف والصفات(٢٦٥) . فإذا كان قياس الغائب على الشاهد أصل التشبيه فإن قياس الأولى أصل التنزيه ولو أن بدايته في الحس ولكنه يجعل اللامحسوس أولى بصفات المحسوس. فهو في حقيقة الأمر تشبيه مقنع أو تشبيه يصارع نفسه في صورة تنزيه ، وتكون قمة انتصاره في تأكيد التعالي المستمر ﴿**تعالى الله عما يصفون**﴾ الذي يكمل القياس نهائياً ويطلقه من بدايته الحسية(٢٦٦) .

جـ ـ **ما لا دليل عليه يجب نفيه** : ويتفق عليه علماء الأصول ، أصول الفقه وأصول الدين . فالدليل على الشيء وجوده . وما الفائدة من وجود شيء لا دليل عليه ؟ وجود الشيء هو البرهان عليه والبرهان على الشيء هو الذي يوجده . فالبرهان علة الوجود، والدليل أساسه . لذلك كان العلم أساساً هو الاستدلال

---

(٢٦٤) المواقف ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢٦٥) أنظر الفصلين الخامس « الوعي الخالص أو الذات » والسادس «الوعي المتعين أو الصفات» .

(٢٦٦) المواقف ص ٢٦ وقد فصله ابن تيمية كثيراً في كتبه المنطقية .

اثباتاً أو نفياً ، بالعقل أم بالواقع . وكان هم المتكلمين نقد أدلة المثبتين لشيء وبيان ضعفها عقلاً أو حصرها ثم نفيها واقعاً . ولولا ذلك لانتفت الضروريات لجواز أن تكون هناك أشياء لا نراها ولا دلائل عليها ولانتفت النظريات لجواز معارض للدليل لا نعلمه . ولمّا كان ما لا دليل عليه لامتناه كان اثباته محالاً إذ أن قدرات الانسان تمنع من اثبات شيء لا دليل عليه . وإذا كان عدم الدليل في نفس الأمر ممتنع فذلك يكون دافعاً على البحث الدائب عن الدليل وعدم اثبات شيء لا دليل عليه ، وعدم الرضا بالعلم الظني والمشكوك فيه والجهل ، والوهم ، ودفع المعارض لأن ذلك ضروري في القطعيات . والدليل هو الدليل العقلي الخالص الذي يشمل الحس والوجدان والذي لا يعتمد على الايمان بشيء مسبقاً وإلا كان حكماً وابتساراً . وذلك يتطلب قدراً من الشجاعة والاعتراف . فوجود الأشياء معرفتنا لها . ومن ثم تكون الأولوية المطلقة للمعرفة على الوجود[٢٦٧] .

٥ ــ **المقدمات** : وهي مادة العلم التي يتم الاستدلال عليها وهي على نوعين : قطعية وظنية .

أ ــ **المقدمات القطعية** : وهي المقدمات التي تنشأ منها نتائج قطعية إذا صح الاستدلال ، وتأتي القطعية من طبيعة مادة المقدمات اليقينية وكأن الصواب والخطأ ليس من صورة العلم وحدها ولكن أيضاً من مادته ، وهي سبع :

(١) الأوليات : وهي البداهات التي لا تخلو أي نفس منها بعد تصور الطرفين مثل المسلمات والبديهيات . وتعتمد عليها نظرية العلم في بداية العلم ، وذلك مثل وجود الانسان ووجود العالم والحقائق الضرورية النظرية أو العملية ومنها شهادات الوجدان التي لا تقل بداهة عن أوائل العقول .

(٢) الحدسيات : وهي البديهيات العقلية الخالصة مثل دلالة اتقان الصنعة على الصانع . وهي استدلال مباشر بلا مقدمات وتوسط بل بالقفز من المقدمات إلى النتائج مباشرة . وهو مثل الأوليات ولكن مع قدر من الاستدلال الحدسي أو مثل

(٢٦٧) المواقف ص ٣٧ وقد ركز عليه علماء أصول الفقه كثيراً وأيضاً ابن تيمية في كتبه المنطقية .

القضايا التي قياساتها معها دون أن تكون متضمنة فيها . وهو ما يدركه الحس أو العقل أو الوجدان مرة واحدة بلا تأمل أو انتظار أو تكرار أو تحقق . وقد يكون وجودياً كوجود الانسان أو بدنياً كالصحة والمرض أو « فزيولوجيا » كاللذة والألم أو عاطفياً كالغم والفرح أو إرادياً كالقدرة والعجز أو نزوعياً كالارادة والكراهة أو إدراكياً كالادراك والعمى(٢٦٨) . وهناك معارف ضرورية حدسية تخبر عن الواقع بالخطاب الذي يلقيه المتكلم على السامع . والعلم بالانفعالات النفسية عن الآخرين علم بديهي بشرط وجود الامارة مثل حمرة الخجل وصفرة الوجل . والعلم بالمبادىء الخلقية أيضاً علم بديهي .

(٣) قضايا قياساتها معها : وهي البديهيات المركبة التي يمكن حلها إلى بديهيات بسيطة مثل ان الأربعة تساوي اثنين واثنين أي الاستدلال الصحيح الذي يقوم مقام بديهية ويعادل المعارف الفطرية . والحقيقة قد تختلف درجة البداهة لهذه القياسات باختلاف درجة الوضوح والبساطة فيها وهي أشبه بالقضايا التحليلية في الرياضة بصرف النظر عن درجات التحليل ومدى خطواته .

(٤) المشاهدات : وهي المدركات الحسية التي يحكم العقل بصحتها مع الحذر من خداع الحواس . وظاهر الحس منها يسمى حسيات وباطن الحس منها يسمى وجدانيات . فبالرغم من خداع الحواس إلا أن الادراكات الحسية موجودة(٢٦٩) . وهنا تتكرر الوجدانيات مرة ثانية فكأنها في أوائل العقول وفي الحدسيات وفي القضايا التي قياساتها معها ، وكأنها هي الشامل لمجموعة المعارف البديهية بصرف النظر عن مستوى البداهة ، العقل أم الحس أم الرؤية الحدسية .

(٥) المجربات : وهي المدركات الحسية التي يحكم العقل بصدقها مع تكرارها وتحولها إلى عادات وقوانين ثابتة . لذلك أصبحت المشاهدة ومجرى العادات أحد مقاييس الصدق في علم الأصول وتكرار المدركات الحسية مثل تكرار المقدمات

---

(٢٦٨) التمهيد ص ٣٧ ؛ أصول الدين ص ٨ ـ ٩ ؛ التحقيق التام ص ٨ .

(٢٦٩) أنظر ثالثاً ـ أقسام العلم ، ٣ ـ اثبات العلم الضروري .

في الاستدلال كلاهما يؤدي إلى اليقين[٢٧٠] .

(٦) الوهميات في المحسوسات : وهي المدركات الحسية العادية أو أحكام الحس مثل الحسيات على مستوى العقل مثلاً كل جسم في جهة . ويمكن تسميتها الحدوس الحسية التي قد يكذبها العقل ولكنها جزء من المعرفة البشرية ومادة العلم .

(٧) المتواترات: وهي الأخبار التي يمتنع في رواتها تواطؤهم على الكذب. ويدخل موضوع التواتر كما هو وارد في علم أصول الفقه في نظرية العلم وليس فقط باعتبار الأدلة النقلية أو العقلية النقلية . فالتواتر يؤدي إلى العلم الضروري مثل العلم بوجود المدن أو العلم الاستدلالي مثل العلم بالتوحيد . يفيد العلم على عكس أنصار المعارف الحسية أو العقلية أو الذين يجوزون اجتماع الأمة على الخطأ وبالتالي يمنعون أن يكون التواتر أساساً لعلم ضروري[٢٧١] . وقد فصّل علم مصطلح الحديث وعلم أصول الفقه شروط التواتر وافادته لليقين . وهي أربعة : اتفاق المتن مع شهادة الحواس ومجرى العادات منعاً للأسرار والخرافات ، وأن يكون السند متعدد الرواة مستقلين عن بعضهم البعض ليمنع تواطؤهم على الكذب ، وأن يكون العدد كافياً حتى يزيد من احتمال اليقين ، وأن يكون انتشار الرواية متجانساً في الزمان منعاً لانتحال الأخبار أو لمؤامرات الصمت حول الخبر الصحيح . والمشهور خبر ينقصه تجانس الانتشار في الزمان إذا كان أولاً محصوراً ثم انتشر ثانياً وربما كانت المصلحة سبباً في انتشاره . فالمتواترات هي الروايات

---

(٢٧٠) يضع البغدادي ضمن العلوم النظرية العلوم بالتجارب والرياضيات كعلم الطب في الأدوية والمعالجات وكذلك العلم بالحرف والصناعات . وقد يقع في هذا النوع ما يستدرك بالقياس على المعتاد غير أن أصولها مأخوذة من التجارب والعادات . أصول الدين ص ١٤ .

(٢٧١) ينكر السمنية أن التواتر يفيد العلم لاعتمادهم على المعرفة الحسية وحدها . كما ينكره البراهمة لاعتمادهم على العقل . وينكره النظام لتجويزه اجتماع الأمة على الخطأ . فالأخبار المتواترة لا حجة فيها لأنه يجوز وقوعها كذباً . أصول الدين ص ١١ ـ ١٢ ؛ الفصل جـ ٥ ص ١٩٢ - ١٩٣ ؛ وقد نشأ رد فعل على النظام مؤداه أن ما اتفقت عليه أمتنا بآرائها فهي معصومة بخلاف سائر الأمم ، ولا برهان على هذا . الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٢ .

التاريخية الصحيحة بالاشتراك مع دلائل الحس والعقل . بل انها لا تفيد اليقين بمفردها إلا باعتمادها على الحس والعقل . وقد أتى الوحي كمقدمات من هذا النوع . والتواتر ليس جمع آحاد وآحاد بل هو خبر مستقل واحد له وحدته وبناؤه الداخلي لأن مجموع ظنّين لا يكون يقيناً . يقين خبر الواحد في عدالة الراوي وضبطه وصدقه . وله شروط خاصة . ولا يهم اعتبار العلم الناشىء عن التواتر ضرورياً أم كسبياً . فهو ضروري بمعنى أنه معرفة بديهية كمعرفة الحس وبداهة العقل وهو كسبي لأن التواتر يقوم على شروطها مجموعها دليل الحس والعقل والوجدان[٢٧٢] . ويدخل التواتر نفسه كجزء في نظرية أعم وهي نظرية الخبر وقسمته إلى تواتر وآحاد ومتوسط بينهما وهو ما فعله علماء أصول الفقه في باب الأخبار . ويظهر أثر هذه القسمة في النظر والعمل على السواء . فالتواتر يورث اليقين في النظر والعمل في حين أن الآحاد يورث اليقين في العمل فقط ، ويكون في النظر ظنياً. وإذا كان التواتر يورث علماً ضرورياً والآحاد علماً مكتسباً فإن التوسط بينهما يقوم على قرائن واستدلالات أخرى . والأخبار كلها من تواتر وآحاد ومستفيض تدخل في قسمة أعم للخبر من حيث هو خبر إلى خبر صادق وخبر كاذب . فالخبر الصادق مطابق للواقع ، والخبر الكاذب غير مطابق للواقع . والخبر هو المعلن بلسان شخص حي مرئي وليس رسالة أو تبليغاً باطنياً أو خارجياً ، أي أنها الروايات التاريخية الشفاهية أو المدونة ، وهي أساس المعرفة التاريخية[٢٧٣] .

وقد اختلف القدماء في ترتيبها أو في عددها[٢٧٤] . والحقيقة أنه يمكن

---

(٢٧٢) أصول الدين ص ١١ ـ ١٢ ، ص ٢١ ـ ٢٣ ؛ شرح التفتازاني ص ٣٠ ، ص ٣٥ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٩٢ ، التحقيق التام ص ٨ ـ ٩ أنظر أيضاً رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse, pp. وأيضاً « علم أصول الفقه » ، دراسات اسلامية .

(٢٧٣) أصول الدين ص ١٢ ـ ١٤ ، ص ١٧ ـ ١٨ ، النسفي ص ٢٨ ـ ٣٤ ، الشافعي ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ شرح التفتازاني ص ٢٨ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ؛ حاشية التفتازاني ص ٣٩ .

(٢٧٤) يرتبها الايجي كالآتي : ١ ـ الأوليات ٢ ـ قضايا قياساتها معها ٣ ـ المشاهدات ٤ ـ المجربات ٥ ـ الحدسيات ٦ ـ المتواترات ٧ ـ الوهميات في المحسوسات ؛ ويجعل الغزالي مدركات العلوم ستاً ١ ـ الحسيات ٢ ـ العقل المحض ٣ ـ التواتر ٤ ـ القياس ٥ ـ السمعيات ٦ ـ مسلمات الخصم ، الاقتصاد ص ١٣ ـ ١٥ .

تصنيفها في مجموعات ثلاث : الحس ، والعقل ، والخبر . فالحس يشمل المشاهدات والمجربات والوهميات . والعقل يشمل الأوليات والحدسيات والقضايا التي قياساتها معها . ثم يأتي الخبر في النهاية الذي لا يستقل بذاته ويعتمد على مقدمات الحس الثلاث ومقدمات العقل الثلاث[٢٧٥] .

لم يغفل القدماء تحليلات الشعور ولم تكن تحليلات الشعور غائبة عندهم . فالنظر حركة للنفس نحو المبادىء وترتيبها نحو المطلوب ، النظر عمليتان شعوريتان ، الفكر حركة النفس في المعاني ، حديث النفس ، والعلم الضروري علم بداهة الأشياء في النفس ، والاستدلال نظر القلب للمطلوب ، والايمان تصديق النفس . وهي عظيمة النفع في العلوم ، مشتركة بين الناس ، يسهل اقناع الآخرين بها . ليس النظر تحليل العقل لذاته والتفكير في موضوعات صورية خالصة بل هو التأمل والتفكر في النفس وفي الطبيعة وفي معاني النصوص والآيات . فالموضوع إما نص لغوي أو ظاهرة طبيعية ، والانسان جزء من الطبيعة . النظر نظر في موضوع ، والموضوع الخارجي يتحول إلى موضوع داخلي وجوداً وعدماً . النظر هو الاعتبار أي رؤية الدلالة في الشعور . وموضوعات علم أصول الدين موضوعات شعورية أساساً يمكن تأسيسها عقلاً أو بناؤها واقعاً . هي موضوعات انسانية . التوحيد بناء شعوري ، والحرية تجربة شعورية ، والفعل تحقيق شعوري ، والفصل تحليل شعوري ، والنبوة بعد شعوري ، والمعاد اتجاه شعوري . فبالرغم من أن شهادات الوجدان لم يكن لها قسم خاص في المقدمات القطعية إلا أنها موجودة في كل نوع وكأن الحس والعقل والخبر أبعاد للشعور ، وكأن الشعور يتخارج في الحس والعقل والخبر[٢٧٦] . وفي حياتنا المعاصرة تأخرنا عما عرضه

---

(٢٧٥) المواقف ص ٣٨ ؛ الطوالع ص ٢٦ ؛ المحصل ص ٥ - ٦ ؛ المقاصد ص ٤٢ - ٤٤ ؛ التحقيق التام ص ٨ ؛ الاقتصاد ص ١٣ ؛ شرح التفتازاني ص ٢٥ - ٢٦ ؛ المقاصد ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢٧٦) سأورد هنا عينة من النصوص القديمة التي تبدو فيها تحليلات الشعور عند القدماء مثل « النظر حركة النفس . . . ما ابتدىء في النفس » الانصاف ص ١٤ ؛ « الاستدلال هو نظر القلب . . . العلم الضروري الذي يلزم نفس المخلوق » التمهيد ص ٣٥ ؛ « الدليل لما دل بصفته النفسية » الارشاد ص ٧ ؛ « فكل هذه المعلومات توجد مختزنة في النفس » التمهيد ص ٣٧ ؛ « حدً =

القدماء فغلبنا الخبر على شهادات الحس وأوائل العقول وأصبح الدليـل الوحيـد هو

= المعتزلة العلم بـأنه اعتقـاد الشيء على مـا هو بـه مع تـوطيد النفس » الارشـاد ص ١٣ ؛ « من حكم المتمـاثلين وجوب استـوائهما في صفـات النفس » الشامـل ص ٨٢ ؛ « المطلوب إن لم يكن مشعوراً به استحال طلبه لأن ما لا شعور به البتة لا تصير النفس طـالبة لـه وإن كان مشعـوراً به استحال طلبه » المحصل ص ٤ ؛ « المقدمتان لا يجتمعان في الذهن معاً لأنا متى توجهنا إلى حكم مقصود امتنع منا في تلك الحالة التوجه إلى آخر بالوجـدان » المواقف ص ٢٤ ؛ « يتم العلم عنـد المعتـزلة بـركون النفس إليـه » المواقف ص ٢٦ ؛ « الشيء إذا علم بلميتـه اطمأنت إليه النفس » المـواقف ص ٩٧ ؛ « اصناف الادراكـات ، الأول الحكم بالكـلي على الجـزئي والثاني وجـداني » المواقف ص ٢٣٤ ؛ « وأما بطلان الثاني فبالوجدان » المواقف ص ٢٥٩ ؛ « ما لا تدركه النفس » تحفة المريد ؛ « صفة للنفس » شرح الخريـدة ص ١٢ ؛ « والراجـح أن التصديق غـير الجزم لأن مرجعه الكلام النفساني » تحفة المريد ص ٣١ ؛ « الايمان هو حديث النفس » حاشية العقيدة ص ١٦ « المعلومية بحكم الوجدان ، العلم من المعاني النفسيـة فحصولـه في النفس علم به » شـرح المقاصد ص ٢٧ ؛ « تصور العلم حاصل بالوجدان » أشرف المقاصـد ص ٣٦ ؛ « الفكر حـركة النفس » شرح المقاصد ص ٥ ، وما أكثر هذه النصوص عند المتقدمين والمتأخرين . والقرآن ذاته حديث شعوري يربط العالم كله بالشعور ويجعل الشعور اليقظ الوعي والاحساس محوراً للعالم . وينقد اللاشعور . وقد ذكر لفظ «شَعَرَ» في القرآن ٢٧ مرة كلها في صيغة النفي ﴿ولكن لا يشعرون﴾ أو ﴿وما يشعرون﴾ نقداً للاشعور وإذكاء للشعور . كما أن الشعور له مرادفات عديدة مثل القلب (١٣٢ مرة) والفؤاد (١٦ مرة) والنفس (٢٩٥ مرة) . وكل منها شرط الادراك الحسي وأساس الوعي بالعالم ، وكل منها له مضمون كموضوع مثلاً ﴿فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ (٢٢ : ٤٦) ؛ ﴿وإنا جعلنا في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ (١٨ : ٥٧) ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ (٢٢ : ٤٦) ؛ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (٤٧ : ٢٤) ؛ ﴿إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهوشهيد﴾ (٥٠ : ٣٧) ؛ ولكل منها مضمون : أما مضمون سلبي مثل ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ (٣٣ : ٣٢) ؛ ﴿سندخل في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ (٣ : ١٥١) ؛ ﴿ولا تجعل في قلوبنـا غلا﴾ (٥٩ : ١٠) ؛ ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ (٢ : ٩٣)؛ ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ (٣ : ٧)؛ ﴿فـأعقبهم نفاقـاً في قلوبهم﴾(٩ : ١٤) ؛ ﴿فينبؤهم بمـا في قلوبهم﴾ (٩ : ٦٤) ؛ ﴿ريبـة في قلوبهم﴾ (٩ : ١١) ؛ ﴿في قلوبهم الحمية﴾ (٤٨ : ٢٦) ؛ ﴿ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ (٢ : ٢٨٣) ؛ ﴿يشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام﴾ (٢ : ٢٠٤) ؛ أو مضمون إيجابي مثل ﴿وهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ (٤٨ : ٤) ؛ ﴿والله أعلم ما في قلوبكم خيراً﴾ (٨ : ٧٠) ؛ ﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ (٤٩ : ٧) ؛ ويكون =

« قال الله » و « قال الرسول » في حين أن الخبر له شروط وفي مقدمتها الاتفاق مع شهادات الحس وبداهات العقل . واسقطنا المدركات الحسية والتحليلات العقلية من مقدماتنا النظرية ، وتحولت شهادات الوجدان إلى انفعالات عامة تنم عن ضيق النفس وتبرمها بالبيئة ورفضها للواقع ورغبتها في الثأر والانتقام . فضمر الوحي ، وتحجرت النبوة ، وتقوقع النص داخل نفسه . يتحدث المؤمنون لبعضهم البعض دون ما قدرة على الحوار مع غيرهم وأصبحت المقدمات القطعية في العلم هي مسلمات الايمان أو موضوعات الغيب التي تدخل فيها روايات الدين الشعبي وخيالاته والتي تكون أكبر دعامة للسلطة السياسية وللنظم القائمة. وفي علم الكلام المتقدم كانت هذه المقدمات السبع التفصيلية مجرد أقسام للعلم الضروري الذي يشمل :

أ - العلم بالذات وبوجودها ، فهذه هي الضرورة الوجودية أو البداهة المباشرة مثل أنا أفكر . أنا أحيا ، أنا أكتب ، أنا أتنفس ، أنا أحس ، أنا موجود .

= الفؤاد أي الوعي كذلك شرط الادراك الحسي ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ (١٦ : ٧٨) ؛ ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ (٥٣ : ١١) ؛ أو يكون ذا مضمون ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ (٢٨ : ١٠) ؛ أو باعث ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ (١٤ : ٣٧) ؛ أو قيمة ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ (١٤ : ٤٣) ؛ أو عمل ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ (٢٥ : ٣٢) ؛ أما مضمون الشعور فواضح في عديد من آيات النفس مثل ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ (٥ : ١٦٦) ؛ ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ (٥ : ٣٠) ؛ ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ (١٢ : ٧٧) ؛ ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ (٢٠ : ٦٧) ؛ ﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ (٥ : ٥٢) ؛ ﴿وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ (٩ : ١١٨) ؛ ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ (١١ : ٣١) ؛ ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ (٤١ : ٥٣) ؛ وهذه موضوعات دراسة مستقلة . لا أريد إذن أن يأتي أحد الآن أو فيما بعد من المستشرقين أو المستغربين المستعربين ويدعي بأثر أحد الاتجاهات الفلسفية المعاصرة أعني الظاهريات «الفينومينولوجيا» فهؤلاء ، ما زال الغرب اطاراً مرجعياً لهم ونقطة احالة أما لانتسابهم إلى الغرب كالمستشرقين أو لتغريبهم كباحثينا المستغربين . وأكرر التنبيه مرة ومرة وأنا أعلم أنه لن يستمع أحد إلى قولي وكأن تفريغ الحضارة من مضمونها أحد الوسائل للقضاء على ابداعنا الذاتي . «اللهم هل بلغت اللهم فاشهد» .

ب ـ العلم بالمدركات الحسية مثل أرى الورقة أمامي ، أحس بالقلم في يدي ، أسمع صوتاً في الخارج . وعند بعض القدماء ، قد تحصل بعض المدركات من غير طريق ، مثل حصول إبصار من غير بصر أو سمع من غير أذن . وهذا جائز في المدركات العقلية وحدها التي ليس لها حاسة بل تلك التي تنتج من تحليل العقل أو رؤية الشعور ، وهما طريقان للمعارف . وإن إدراك الدلالات إدراكاً مباشراً لا يعني تدخل أفعال خارجية في الشعور بل تعني أن الشعور مفتوح بطبعه وخالق بطبعه وقادر على رؤية المعاني رؤية مباشرة . ويستحيل خلق مدركات حسية بلا حواس . ليس كل احساس ادراك ، فالاحساس يلزمه الانتباه حتى يتحول إلى إدراك ، والمادة الحسية تحتاج إلى دلالة . الشعاع الخارجي من الموضوع إلى الذات هو الانطباع الحسي يقابله شعاع آخر داخلي من الذات إلى الموضوع وهو الادراك . وذلك عمل الشعور وحده(٢٧٧) .

جـ ـ العلم بأحوال الذات ، فالذات لها أحوال مثل الهم والانفطار وهي المدركات الوجدانية(٢٧٨) .

وبالتالي تكون المعارف أوائل العقول وشهادات الحس ومعطيات الوجدان كما وضح في علم الكلام المتقدم .

وفي علم الكلام المتأخر أيضاً قد ينقسم العلم الضروري طبقاً لكمال العقل إلى علمين :

أ ـ ما يعد من كمال العقل ويستند إلى ضرب من الخبر مثل تعلق الفعل بفاعله (وهذا لا يحتاج إلى خبر بل الخبر في حاجة إليه) . وعلم آخر لا يستند إلى ضرب من الخبر مثل العلم بوجود الذات . والحقيقة أن العلم الأول ليس خبرياً بل هو علم بديهي ضروري وإذا كان الخبر هنا يعني النظر والاستدلال فإن هذا العلم يظل بديهياً .

---

(٢٧٧) أنظر رسالتنا L'Exégèse de la Phénoménologie .

(٢٧٨) شرح الأصول ص ٥٠ .

ب ـ مـا لا يعـد من كمـال العقل ويختلف فيـه العقـلاء ، وهـذا ليس علماً(٢٧٩) .

كان المتقدمون على هذا الربط بين الحس والعقل والخبر كمقدمـات ضروريـة لمادة العلم وما دون ذلك لا يكون علماً . وكانت المقدمـات القطعيـة نموذجـاً للعلم الضـروري وأولها المعـرفـة الحسيـة النـاشئـة من الحـواس السليمـة ، المشـاهـدات والحسيات وتكون احـدى المقدمتـين في القياس . وتسمى أحيـاناً مـدارك العلوم أو وسـائل المعـرفة لا المعـرفة ذاتهـا ، وهي ليست الحواس العضـوية بـل الادراكـات الحسيـة ولا الاجسـام المـدركـة كجـواهـر مستقلة بـل الادراكـات التي من فعـل الذات(٢٨٠) . والعلم الشعوري علم اضطراري بديهي كـالعلم الحسي ، وهو مـا يجـده كل إنسـان بنفسه ويشعـر به دون أدنى شـك ، وقد يسمى أحـدهما بـالآخـر فيتساوى العلم بالمدركات مع علم المرء بنفسه مع استحالة جميع المتضادات(٢٨١) .

ب ــ **المقدمات الظنية** : أما المقدمات الظنية فهي أربع :

(١) المسلمات: وهي التي تُقبل على أنه قـد تمت البرهنـة عليها من قبـل في مكان آخر . فعلم الكلام ليس علماً مستقلاً بذاته عن باقي العلوم بل يبني مقدماته على غيره، وهي أقل المقدمات الظنية خطورة إذ عليها يعتمد الدعاة. ولذلك تعددت فروع علم الكلام وأساليبه ومستويـاته فهنـاك علم الكلام العلمي أو الـرياضي أو الانسـاني الذي يبـدأ بمسلمات أحـد هذه العلوم ويعتمـد عليها . وفي هـذه الحالـة يكون الفضل للعلوم الأخرى ، ويكون علم الكـلام مجرد « متسلق » عليهـا ، علم كل العصور وكل المفكرين وكـل العلوم . ولما كـانت مقدمـات العلوم متغيرة طبقـاً لاكتشافات كل عصر تغيرت مادة علم الكلام وأصبح مشاعاً كالمرأة المشاع . ليست وظيفـة علم الكلام اكتشـاف علوم أو وضع نـظريـات ولكن الاعتمـاد عـلى العلوم والنظريات القائمة لدعوة الناس . فهو مجرد علم اقناعي خطابي جدلي ليس له مادة

(٢٧٩) المحيط ص ١٧ ؛ شرح الأصول ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ الانصاف ص ١٤ ؛ الارشاد ص ١٣ ـ ١٤ .

(٢٨٠) أنظر الفصل الرابع ، نظرية الوجود ، الكيف ، المدركات الحسية .

(٢٨١) التمهيد ص ٣٦ .

من ذاته ولا يقدم إلا الأسلوب والمحاجة .

(٢) المشهورات : وهي التي يتفق عليها الجمّ الغفير من الناس أي المسلمات الاجتماعية المقبولة في كل مجتمع والتي تعبر عنها الأمثال الشعبية وحكم الشعوب . وهي أيضاً متغيرة من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، ومن أمة إلى أمة . وقد لا يتفق البعض منها مع المقدمات القطعية ، مقدمات الحس أو العقل أو الخبر . وقد لا يتفق مع المقدمات الظنية الأخرى مثل المسلمات . وقد تتغير كلية بعد أن يتم نقدها ورفضها ووضع مقابل لها أقرب إلى الصلاح وأكثر تعبيراً عن روح كل عصر . ويقوم بذلك عادة الرواد والمفكرون الأحرار في كل عصر . وهي غير محصورة في عدد معين ، ومتنوعة وعلى جميع المستويات . كثيراً ما تتعارض فيما بينها كما هو الحال في الأمثال العامية[٢٨٢] .

(٣) المقبولات : وهي التي تؤخذ ممن حسن الظن فيه وتصديقه وامتناع الكذب عليه . وهي أقرب إلى التقليد لأنها تقوم على التصديق بمصدر الحكم وليس بالحكم ذاته كما أنها أقرب إلى الخبر الذي يعتمد على صحة النقل ، وفي الاخبار من الانبياء غنىً عنه . وهي الأقوال المأثورةوالسير والملاحم. المشهورات إذن عبارات لغوية تكشف عن عمليات شعورية سابقة عليها مثل التشبيه والتنزيه . وتدل على أنه لا يمكن الحديث عن « الله » أو عن العقائد إلا من خلال الثقافة الشعبية أو ثقافة الجماهير ، والأعراف والعادات والصور الذهنية المتوارثة في تراث الأمم والشعوب .

---

(٢٨٢) أمثال بعض المشهورات أ ـ ليس العدد بأولى من عدد في قضية مثل الوحدة أو تعلق علم بمعلومين أو قدرة بمقدورين فما المانع من الاثنينية أو التعدد أو تعلق علم أو قدرة بمعلومات أو مقدورات ثلاثة أو أربعة إلى ما لا نهاية؟ ب ـ الحكم على المشاركين في صفة بالمساواة . لذلك نفى المعتزلة قدم الصفات حتى لا تساوي الذات ، وكون الله عالماً بعلم حتى لا يساوي علمنا حرصاً على التنزيه . جـ ـ اثبات صفات الكمال لله ونفي صفات النقص عنه سواء في الذات أو الصفات أو الأفعال وهي كلها صفات مشهورة قد يختلف عليها الناس ، وتتغير من مجتمع الى مجتمع ، ومن دين إلى دين . فالجسم صفة نقص في علم الكلام الاسلامي وصفة كمال في علم اللاهوت المسيحي . والاختيار غير المسبب ، اختيار الله لبني اسرائيل صفة كمال في علم اللاهوت اليهودي وصفة نقص في علم اصول الدين الاسلامي .

(٤) المقـرونـة بقـرائن : مثـل نـزول المطر بـوجـود السحـاب ، وهي الاستدلالات الحسية والمشاهدات والمجربات وأكثر المشهورات قبولاً ، ولكنها ظنيـة لاعتمادها فقط على القرائن الحسية دون بداهات العقول أو الخـبـر . مما يـدل على أن مادة علم الكلام مستمدة من مشاهدة الحوادث ومجريات الأمور[٢٨٣] .

وهنا تمحي التفرقة بين صورة المنطق ومـادته . فـلا فرق بـين القياس الـذي يعطينا صورة الفكر وبين الحسيات والمتواترات التي تعطينا مادة الفكر . ولا فرق في مادة الفكر بين المقدمات القطعية والمقدمات الظنيـة . الكل معـارف « كلاميـة » لا فرق بين صورة الفكر ومادته ، ولا بـين مادة ومـادة . وهو مـا يميز المنـطق الكلامي عن المنطق الصوري .

ثامناً : مناهج الأدلة .

وتبلغ نظرية العلم ذروتها في الأدلة . إذ أن نـظرية العلم في نهايـة الأمر هي نظرية في الدلالة . فالدليل يؤدي إلى المدلـول ، والمدلـول إلى الدال ، والـدال إلى المستدل ، وكلهـا عمليات شعوريـــة تتم بـأفعال الشعـور[٢٨٤] . الدليـل هو مـا أمكن أن يتوصل بصحيح النظر فيه إلى معرفة ما لا يصح باضطرار [٢٨٥] . فالعلم الحـاصل هـو المـطلوب أو المـدلـول ، وازدواج الأصلين الملتـزمـين لهـذا العلم هـو الدليل ، والعلم بوجه اللزوم هو العلم بوجه دلالة الدليل . وقد يكون الدليل علة أو معلولاً أو الاستـدلال بأحـدهما عـلى وجود الآخر .لذلـك تحـول مـوضـوع العلة والمعلول إلى مبحث مستقل في « نظرية الوجود » . ويكون النظر في الدليـل اجمالياً أو تفصيلياً ، والواجب على المكلف معرفة العقائد بالدليل الاجمالي . وأما التفصيـل ففرض كفاية . وقد يكون الدليل هو المرشد إلى معرفة الغائب عن الحواس وهـو ما يعرف باسم الامارة أو الايماءة أو الاشارة أو العلامـة أو القرينـة أو الحال . ويسمى

---

(٢٨٣) الاقتصاد ص ١٤ ـ ١٥ ؛ طوالع الأنوار ص ٢٥ ـ ٢٧ .

(٢٨٤) الانصاف ص ١٥ .

(٢٨٥) الانصـاف ص ١٥ ؛ الارشـاد ص ٨ ؛ الاقتصـــاد ص ١٢ ؛ المعـالم ص ٦ ؛ المغني جـ ٢ ، النظر والمعارف ص ١٠ .

دليلاً مجازاً نظراً لتشابهه في الوظيفة مع الدليل . وقياس الغائب على الشاهد يقوم على أدلة من هذا النوع . والفرق بين الدليل والامارة هو أن الدليل يلزم من العلم به العلم بوجود المدلول أما الامارة فهي التي يلزم من العلم بها ظن وجود المدلول(٢٨٦) وقد يكون الدليل عقلياً خالصاً أي الفكر والتأمل وقد يكون لغوياً نصياً فتكون العبارة أو النطق هي الدليل لأنها تعبر عن النظر والتأمل(٢٨٧) ، والبحث في الدليل العقلي وهو الذي أدى إلى البحث في أنواع الأدلة ووجه الدلالة . فالدليل العقلي يلزم من وجوده وجود المدلول . وقد يحدث اللزوم من طرف إلى آخر فيكون الاستدلال بالمشروط على الشرط أو بالمعلول على العلة أو بالعلة على المعلول . كما يمكن من البحث عن البرهان ابطال النقيض وهو ما يسمى ببرهان الخلف .

والأدلة ثلاثة : أدلة نقلية خالصة وأدلة نقلية عقلية أو عقلية نقلية وأدلة عقلية خالصة(٢٨٨) . فالمطالب ثلاثة أنواع : الأول ما لا يمتنع عقلاً إثباته ولا نفيه فهذا لا يمكن اثباته إلا بالنقل أي الخبر مثل وجود الأشخاص والمدن . والثاني ما

---

(٢٨٦) المحصل ص ٣١ ؛ المقاصد ص ٩٢ ؛ شرح المقاصد ص ٩٢ .

(٢٨٧) التمهيد ص ١٩ ـ ٤٠ ؛ يحيل الباقلاني الى كتاب « كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد » مما يدلل على امكانية استقلال نظرية العلم كلها أو بعض أجزاء منها عن علم أصول الدين . ونظراً لأهمية الموضوع فإنه كاد أن يصبح باباً مستقلاً عن نظرية العلم يجعله صاحب المواقف في الموقف الأول ، في المرصد السادس كما يجعله في المقصدين السابع والثامن في آخر الموقف الأول. المواقف ص ٣٩ ـ ٤٠ . ويمكن أن يدخل نظرا لأهميته ضمن بناء العلم في الفصل الثامن عن العقل والنقل .

(٢٨٨) « الدليل اما عقلي بجميع مقدماته أو نقلي بجميعها أو مركب منهما . الأول العقلي ، والثاني لا يتصور ان صدق المخبر لا بنفسه وأنه لا يثبت الا بالعقل . والثالث هو الذي نسميه بالنقلي ثم مقدماته القريبة قد تكون عقلية محضة وقد تكون نقلية محضة ، وقد يكون بعضها مأخوذ من العقل وبعضها من النقل فلا بأس أن يسمى هذا القسم بالمركب » المواقف ص ٣٩ ؛ الارشاد ص ٨ ؛ طوالع الأنوار ص ٢٥ ؛ « الدليل العقلي ثلاثة أنواع : عقلية خالصة أو سمعية خالصة أو مركب منهما » الخلاصة ص ٣ ؛ « الدليل على ثلاثة أضرب : عقلي له تعلق بمدلوله نحو دلالة الفعل على فاعله وما يجب كونه عليه من صفاته نحو حياته وعلمه وقدرته وارادته . وسمعي شرعي دال عن طريق النطق بعد المواضعة ومن جهة معنى مستخرج من النطق ، ولغوي دال من جهة المواطأة على معاني الكلام ودلالات الأسماء والصفات وسائر الألفاظ » الانصاف ص ٢٥ ؛

يتوقف عليه النقل مثل وجود « الله » ووجود الرسول وهذا لا يثبت إلا بالعقل وإلا لزم الدور لأن الوحي يتطلب وجود « إله » يرسل رسولاً ، ومن هنا يكون العقل أساس النقل ليس فقط من حيث قصد الوحي بل أيضاً من حيث مضمون الوحي والتصديق به وصدقه في الواقع ، وفي هذه الحالة يكون الدليل مركباً من العقل والنقل أو من النقل والعقل . والثالث مثل الحدوث والوحدة وسائر الأمور العامة فهي أمور يمكن اثباتها بالعقل إذ تمتنع معارضته بالدليل كما تمتنع معارضته بالنقل لأنها غير متوقفة عليه[289] .

١ ـ **نقد الدليل النقلي** : والحقيقة أن الدليل النقلي الخالص لا يمكن تصوره لأنه لا يعتمد إلا على صدق الخبر سنداً أو متناً وكلاهما لا يثبتان إلا بالحس والعقل طبقاً لشروط التواتر . فالخبر وحده ليس حجة ولا يثبت شيئاً على عكس ما هو سائد في الحركة السلفية المعاصرة من اعتمادها شبه المطلق على «قال الله» و«قال الرسول »واستشهادها بالحجج النقلية وحدها دون أعمال للحس أو للعقل ، وكأن الخبر حجة ، وكأن النقل برهان ، واسقطت العقل والواقع من الحساب في حين أن العقل أساس النقل ، وأن القدح في العقل قدح في النقل ، وأن الواقع أيضاً

---

(٢٨٩) « المطالب ثلاثة أقسام : أحدها ما يمكن أي ما لا يمتنع عقلاً اثباته ولا نفيه نحو جلوس غراب الآن على منارة الاسكندرية فهذا لا يمكن اثباته إلا بالنقل . الثاني ما يتوقف عليه النقل مثل وجود الصانع ونبوة محمد ، فهذا لا يثبت الا بالعقل اذ لو أثبت بالنقل لزم الدور. الثالث ما عداهما نحو الحدوث إذ يمكن اثبات الصانع دونه والوحدة . فهذا يمكن اثباته بالعقل إذ يمتنع خلافه عقلاً بالدليل الدال عليه وبالنقل لعدم توقفه عليه » المواقف ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ وتوجد هذه الاتجاهات الثلاثة عند الحشوية وأهل الظاهر الذين يمثلون الاعتماد على النقل ، وعند الأشاعرة الذين يعتمدون على النقل والعقل ، وعند المعتزلة الذين يعتمدون على العقل . والحقيقة أن الأشاعرة يعتمدون على النقل والعقل ولكن ابتداء من النقل الذي هو أساس العقل عندهم . والمعتزلة يعتمدون على العقل والنقل ولكن ابتداء من العقل الذي هو أساس النقل عندهم . الاقتصاد ص ٣ ـ ٤ ؛ طوالع الأنوار ص ٦ ؛ المواقف ص ٣٩ ؛ حاشية الاسفرايني ص ٢ ؛ تحفة المريد ص ١٣ ؛ ويشار أحياناً إلى أهل السنة والجماعة على أنهم «هم الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها ، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل ، ولم يخلطوا علمهم بشيء من أهل الأهواء الضالة» الفرق ص ٣١٥ .

أساس النقل بدليل « أسباب النزول » و « الناسخ والمنسوخ » . ولا يمكن اثبات صحة الخبر بالمعجزة وحدها ولا يمكن تصديقه فقط باثبات الصحة التاريخية عن طريق النقد الخارجي دون الاهتمام بالنقد الداخلي أي بفهمه وتفسيره وإيجاد تطابقه مع الحس والعقل ، مع التجربة البشرية الفردية والاجتماعية . الدليل النقلي في حقيقة الأمر هو في نفس الوقت دليل حسي وعقلي فالوحي متعدد الأطراف متشعب في الحس والعقل . هو وحي وعقل وواقع ، ثلاثة جوانب لشيء واحد ، الوحي أحدها ، يقوم على العقل ويرتكز على الواقع . ليس العقل مغلقاً على نفسه بل يضم الوحي ، والوحي ليس صورياً بل يقوم على الواقع ، والواقع ليس مادياً مصمتاولكنه يتقبل الوحي كما يتقبل تنظير الواقع له . بل إن ما يعلم بالقياس والنظر أو بالحس والمشاهدة لا يُعلم بالخبر . فالحس والعقل من شروط التواتر . ولا يعطي الخبر جديداً مستقلاً عن المعارف الحسية والعقلية . ما عُرف بالحس أو النظر أو الاستدلال لا نحتاج إلى معرفته بالخبر باستثناء « الشعائر » وهي بالنسبة للعقلاء العمل الصالح لأنها بواعث على التقوى . قد يؤثِّر الخبر وحده في العامة لأنها لا تقدر على استعمال العقل وتؤثِر الخيال ، ولا تقدر على فعل الحسن لذاته وتجنب القبح لذاته وحاجتها في ذلك إلى الخبر . يقين التواتر ليس من الخبر باعتباره خبراً بل من شروط التواتر وفي مقدمتها التطابق مع شهادة الحس والعقل والوجدان وامتناع التواطؤ على الكذب . فالتواتر يتضمن يقينه الداخلي دون حاجة إلى صدق خارجي خاصة ولو كان عن طريق هدم قوانين الطبيعة أو مناقضة أوائل العقول أو اضطراب في المعارف الحسية عن طريق المعجزات(٢٩٠) .

---

(٢٩٠) «النقليات بأسرها مستندة الى صدق الرسول . فكل ما يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم به لا يمكن اثباته بالنقل وإلا لزم الدور . أما الذي لا يكون كذلك فكل ما كان خبراً بوقوع بما لا يجب عقلاً وقوعه كان الطريق إليه النقل ليس إلا وهو اما العام كالعاديات أو الخاص كالكتاب والسنة والخارج عن القسمين ويمكن اثباته في الجملة ، بالعقل والنقل معاً » المحصل ص ٣١ - ٣٢ ؛ « الدليل اما أن يكون مركباً من مقدمات كلها عقلية وهو موجود ، أو كلها نقلية وهذا محال لأن احدى مقدمات ذلك الدليل هو كون النقل حجة ولا يمكن اثبات النقل بالنقل أو بعضها عقلي وبعضها نقلي وذلك موجود. . . الضابط أن كل مقدمة لا يمكن اثبات النقل الا بعد ثبوتها فإنه لا يمكن اثباتها بالنقل . وكل ما كان أخباراً عن وقوع ما جاز وقوعه اما جاز عدمه فإنه =

والـدليل النقـلي يقوم عـلى التسليم المسبق بالنص كسلطة أو كسلطة إلَهيـة لا يمكن مناقشتها أو نقـدها أو رفضهـا . فهو دليـل ايماني صـرف . يعتمد عـلى سلطة الـوحي وليس عـلى سلطة العقـل وبـالتـالي فـلا تلزم إلا المؤمن بهـا سلفـاً ، تلزم المسلمـين المؤمنين وحـدهم دون المسلمين « غـير المؤمنين » ودون سـائر أهـل الملل والنّحل الذين لا يؤمنون بسلطة الوحي . وبالتالي يفقـد العلم بهذا الـدليل قـدرته على الحوار مع الخصوم سواء من الداخل أو من الخارج وهـو الذي أتى للدفـاع عن العقيدة ضد منتقديها من أهل الزيـغ والبدع والأهـواء الضالـة . في هذه الحـالة لا تنفع إلا حجة العقل وحده الذي يشارك فيه الجميع ويسلم ببراهينه وحججه ، فإذا كانت المدارك الحسيـة والعقلية عـامة مـع كافـة الخلق إلا من لا عقل لـه ولا حس وكان الأصل معروفاً فإن التواتر بنفسه لا يفيد علماً ولا ينفع إلا من آمن بـه ووصل إليه كما أن السمعيـات لا تنفع إلا من يثبت السمـع عنده[٢٩١] . وقـد جعل ذلـك مهمة المفسر الدفاع عن حقوق « الله » مصدر النص دون حقـوق الانسان . نصب نفسه مدافعاً عن حقوق الله نـاسياً حقـوقه هـو كإنسـان وغير عـالم بأن الـدفاع عن حقـوق « الله » ليس من مهمته . وبـأن الدفـاع عن حقـوق الانسـان هـو في نفس الـوقت دفاع عن حقـوق « الله » ، وأن اثبـات حقـوق « الله » دون اثبـات حقـوق الانسـان هو في حـد ذاته انكـار لحقوق « الله » . إذ لا تُثبت حقـوق « الله » وفيهـا انكار لحقوق الانسان .

= لا يمكن معرفته إلا بالحس أو بالنقل وما سوى هذين القسمين فإنه يمكن اثباتـه بالـدلائل العقليـة والنقلية » المعالم ص ٨ ـ ٩ ؛ « والدليل ان لم يتوقف على نقل أصلاً فعقلي وإلا فنقلي سواء توقف كل من مقدماته القريبة على النقل أو لا . وقد يخص النقل بالأول ، ويسمى الثاني مركباً . وأمـا النقلي المحض فباطل إذ لا بد من ثبوت صدق الخبر بالعقـل ، والمطلوب ان استـوى طرفـاه عند العقل فاثباته بالنقل والا كان توقف ثبوت النقل عليه فبالعقل وإلا فبكل منهما » المقاصـد ص ٩٢ ـ ٩٣ . أيضاً الفصل جـ ٥ ، ص ٢٠٦ ؛ النسفي ص ٣ ـ ٢٥ ؛ شرح التفتازاني ص ٢٥ .

(٢٩١) « وأما المتواتر فإنه نافـع ولكن في حق من تواتـر إليه . فـأما من لم يتـواتر إليـه ممن وصل الينـا في الحال من مكان بعيد لم تبلغه الدعوة فأردنا أن نبين له بالتواتر أن نبينا وسيدنا محمداً ﷺ تحدى بالقرآن ، ولم يقدر عليه ما لم يمهله مدة من يتواتر عنده . وربّ شيء يتواتر عند قوم دون قوم» الاقتصاد ص ٢٥ ؛ انظر أيضاً ارتباط التواتر باليقين الحسي والعقلي وبشروط التفسير والتأويل في الحصون الحميدية ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

ويصطدم الدليل النقلي بمشاكل اللغة والتفسير والفهم . فالنص ليس حجة عقلية بديهية بل هو خاضع لقواعد التفسير ولأصول الفهم ولشروط الادراك ، النص بذاته ليس حجة بل هو مقروء ومفهوم ومفسر ومحول إلى فكرة في زمان محدد أو مكان معين . لا يكون الدليل النقلي دالاً إلا بعد المواضعة، ومن جهة المعنى المستخرج من المنطق ظهرت اللغة كأحد مكونات الفكر، وظهر الدليل اللغوي دالاً من جهة المواطأة على معاني الكلام . والدلالة اللفظية لا تفيد اليقين في علم أصول الدين على عكس ما قد تفيده في علم أصول الفقه . ومن ثم فالدلائل النقلية كلها لا تفيد اليقين نظراً لاعتمادها على اللغات . ولما كان الدليل مكتوباً فقد ظهرت الرموز والحروف كأحد مكونات الدليل(٢٩٢) . كما يرتبط الفهم بمعرفة

(٢٩٢) « وقد يستدل بتوقيف أهل اللغة لنا . . . على أن كل من خبّرنا من الصادقين بأنه رأى ناراً أو إنساناً وهو من أهل لغتنا يقصد إلى افهامنا أنه ما شاهد إلا مثل ما سمى بحضرتنا ناراً أو انساناً لا نحمل بعض ذلك على بعض لكن بموجب الاسم وموضع اللغة ووجوب استعمال الكلام على ما استعملوه ووضعه من حيث وضعوه » التمهيد ص ٣٨ ـ ٣٩ ؛ « الدلالة اللفظية غير يقينية » المحصل ص ٢٧ ؛ « الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تعينه أمور عشرة : عصمة رواة مفردات تلك الألفاظ ، واعرابها ، وتصريفها ، وعدم الاشتراك ، والمجاز ، والنقل ، والتخصيص بالأشخاص والأزمنة ، وعدم الاضمار ، والتأخير والتقديم ، والنسخ ، وعدم المعارض العقلي » المحصل ص ٣١ ؛ « الدلائل النقلية لا تفيد اليقين لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف وعدم الاشتراك وعدم المجاز وعدم الإضمار وعدم النقل وعدم التقديم والتأخير وعدم التخصيص وعدم النسخ وعدم المعارض العقلي ، وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم والوقوف على المظنون مظنون . وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية وأن العقلية قطعية » المعالم ص ٩ ؛ « الدليل النقلي ما صح نقله ممن عرف صدقه عقلاً وهم الأنبياء . وإنما يفيد لنا اليقين إذا تواتر عندنا وعلمنا عصمة رواة العربية وعدم الاشتراك والمجاز والاضمار والتخصيص والنقل والنسخ والمعارض العقلي الذي لو كان لترجح إذ العقل أصل النقل وتكذيب الأصل لتصديق الفرع محال لاستلزامه تكذيبه أيضاً » طوالع الأنوار ص ٢٨ ؛ « ولا خفاء في افادة النقلي الظن . وأما افادته اليقين فيتوقف على العلم بالوضع والارادة وذلك بعصمة رواة العربية وعدم مثل النقل والاشتراك والمجاز والاضمار والمعارض العقلي إذ لا بد معه من تأويل النقل لأنه فرع العقل فتكذيبه تكذيبين . نعم قد تنضم اليه قرائن تنفي الاحتمال فيفيد القطع بالمطلوب وينفي المعارض كما في العقليات » المقاصد ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ « وقد لحق بهذا الباب دلالات الكتابات والرموز والاشارات والعقود ، الدالة على مقادير الاعداد وكل ما لا يدل إلا بالمواطأة والاتفاق » الانصاف ص ١٥ .

قواعد التفسير ، سواء في منطق الألفاظ مثل الحقيقة والمجاز ، والظاهر والمؤوّل ، والمجمل والمبين ، والمحكم والمتشابه ، والمطلق والمقيد إلى آخر ما وضعه علماء أصول الفقه . ويساعد ذلك منطق السياق من فحوى الخطاب ولحن الخطاب ، وصلة النص بالواقع في « أسباب النزول » و « الناسخ والمنسوخ » . وبالتالي فإن الحجج النقلية كلها ظنية حتى لو تضافرت واجمعت على شيء أنه حق لم يثبت أنه كذلك إلا بالعقل ، ولو بحجة عقلية واحدة وذلك لاعتمادها على اللغة والرواية والأقيسة ولاحتمال وجود المعارض العقلي . ولا تتحول إلى يقين إلا بقرائن من الحس والمشاهدة . والقرائن الحسية ليست فقط تدعيماً للحجة النقلية بل للحجة العقلية كذلك . فالواقع أساس النقل والعقل على السواء[٢٩٣] . يبدأ الدليل النقلي من خارج العقل وتكون وظيفة العقل مجرد الفهم في أحسن الحالات أو التبرير في أسوأ الحالات . الدليل النقلي إذن يقضي على وظيفة العقل في تحليل الوقائع وعلى طبيعته المستقلة . وكيف يُكون العقل وسيلة للمعرفة ويبدأ الدليل النقلي؟ وكيف يبدأ الدليل النقلي وحجته لم تعلم إلا بالدليل العقلي؟ وكيف إذا تعارض العقل

(٢٩٣) « الدلائل النقلية هل تفيد اليقين ؟قيل : لا ، لتوقفه على العلم بالوضع والارادة . والأول إنما يثبت بنقل اللغة والنحو والصرف ، وأصولها تثبت برواية الآحاد ، وفروعها بالأقيسة ، وكلاهما ظنيان . والثاني يتوقف على عدم النقل والاشتراك والمجاز والاضمار والتخصيص والتقديم والتأخير . والكل لجوازه لا يجزم بانتفائه بل غايته الظن. ثم بعد الأمرين لا بد من العلم بعدم العارض العقلي . إذ لو وجد لقدم الدليل النقلي قطعاً إذ لا يمكن العمل بهما ولا بنقيضهما ، وتقديم النقل على العقل ابطال للأصل بالفرع ، وفيه ابطال للفرع . وإذا أدى اثبات الشيء إلى ابطاله كان مناقضاً لنفسه فكان باطلاً . لكن عدم العارض العقلي غير يقيني . إذ الغاية عدم الوجدان وهو لا يفيد القطع بعدم الموجود . فقد تحقق أن دلالتها تتوقف على أمور ظنية فتكون ظنية لأن الفرع لا يزيد على الأصل في القوة . والحق أنها قد تفيد اليقين بقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء الاحتمالات . فإنا نعلم استعمال لفظ الأرض والسماء ونحوهما في زمن الرسول في معانيها التي تراد منها الآن . والتشكيك فيه سفسطة . نعم ، في افادتها اليقين في العقليات نظر لأنه مبني على أنه هل يحصل بمجردها الجزم بعدم العارض العقلي ؟ وهل للقرينة مدخل في ذلك ؟ وهما مما لا يمكن الجزم بأحد طرفيه » المواقف ص ٤٠ ؛ انظر أيضاً فصل الوحي والعقل والواقع في رسالتنا . Les Méthodes d'Exégèse وأيضاً التمهيد ص ٤١ ؛ شرح التفتازاني ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ الاقتصاد ص ٤٥ ؛ « الدلائل النقلية لا تفيد لأنها لفظية فلا تعارض الأدلة العقلية المفيدة » القول المفيد ص ٨٩ .

والنقـل فمن الحكم؟ لا يكون إلا العقـل . وكيف إذا تعـارض النقـل والعقـل ؟ يكون اثبات العقل وتأويل النقل ، فالعقل أساس النقل . إن النص لا يثبت شيئاً بل هو في حاجة إلى إثبات في حين لا يقف شيء غامض أمام العقل ، فالعقل قادر على اثبات كل شيء أمامه أو نفيه . لا مفر إذن من البداية بالدليل العقلي ، فالعقل أسـاس النقل . وكـون النقل حجـة بـدايـة عقليـة[٢٩٤] . ان النقـل لا يعـطي إلا افتراضات يمكن التحقق من صدقها في العقل ومن صحتها في الـواقع ، كـما يعطي حدوساً يمكن البرهنة على صدقها بالعقل وعلى صحتها في التجارب اليومية ويكـون المحك في النهاية العقل والواقع ، العقل وحده وسيلة التخاطب ، والواقع وحده هو القدر المشترك الذي يراه جميع الناس ، فـالاستدلال العقـلي والاحصاء الاستقـرائي دعامتا اليقين .

وكلما تطور علم الكلام قل اعتماده على النص وزاد اعتماده على العقل ، كما حدث بعد القرن السادس عندما اعتمد اعتماداً كلياً على العقـل حتى أصبح وريثـاً لعلوم الحكمة مستمداً مادته ومنهجه ونظريته في العلم ومصطلحاته منها . وكأن نقد علوم الحكمـة في القرن الخـامس والـدعـوة إلى التصـوف أدى إلى هـروب الحكمـة فتلقفها التوحيـد في علم الكلام المتـأخر ثم تلقفهـا التصوف في القـرنين السـادس والسابع في التصوف الإلهي . وقد كان هذا الاعتماد وقتياً لأن علم التوحيد اعتمـد فيما بعد على أصول الفقـه وعلى علوم التصـوف . وكما اختلطت مقـدماتـه من قبل بـالمنطق والحكمـة فقد اختلطت فيـما بعد بـأصـول الفقـه وبـالتصـوف[٢٩٥] . وفي

---

(٢٩٤) « بقضية العقول وبديهيها عرفنا الأشياء على ما هي عليه ، وبها عرفنا الله وصحة النبـوة وهي التي لا يصح شيء إلا بموجبها . فما عرف بالعقل فهو واجب فيما بيننا نريد في الوجود في العـالم . وما عرف بالعقل أنه محال فهو محال في العالم ، وما وجد بالعقل امكانه فجائز أن يوجد ، وجائز أن لا يوجد» الفصل جـ ١ ، ص ٦٣ ؛ « العقل الذي عرفنا به الله ولـولاه ما عـرفناه . ومن أجـاز هذا كان كافراً أو مشركاً ، ومن أبطل العقل فقد أبطل التوحيد إذ كذب شاهده عليه إذ لولا العقل لم يعرف الله أحد . ألا ترى المجانين والأطفال لا يلزمهم شريعة لعدم عقولهم ؟ ومن جوز هذا فلا ينكر على النصارى ما يأتون به خلاف المعقول ولا على الدهرية ولا على السوفسطائية ما يخـالفون به المعقول » . الفصل جـ ١ ص ٦٥ .

(٢٩٥) تتضح المقدمات المنطقية الفلسفية في « المـواقف » ، « طوالـع الأنوار » ، « المقـاصد » ؛ وتتضـح =

الشروح والملخصات ظهر العقل من أجل إيجاد اتساق الخطاب مع نفسه بمزيد من الاستدلال دون اضافة واقع جديد حتى انزوى العقل في النص ولم يخرج منه. اتسق الفكر، وأمكن التعبير عنه في قضايا عقلية معدودة والاسهاب فيها بايجاد الدلالة العقلية عليها ثم التدليل على الأدلة ثم التدليل على التدليل إلى ما لا نهاية حتى أصبح العقل بلا موضوع إلا ذاته. فالاعتماد على العقل الخالص بلا واقع اجتماعي للناس صورية خالصة تعبر عن البيئة الثقافية القديمة. بل لقد تحول التصوف إلى حجة مضادة للعقل وهادمة له، وبالتالي تم القضاء على أساس العلم.

ويعطي الدليل النقلي الأولوية للنص على الواقع، فهو بداية من خارج الواقع وكأن النص هو الواقع مع أن النص في بدايته واقعة معروفة في أسباب النزول. يغفل الدليل النقلي ليس فقط الواقعة الجديدة المشابهة بل أيضاً الواقعة الأولى وبالتالي يستخدم النص طائراً في الهواء بلا محل، يخلقه واقعه من نفسه، فيظل فارغاً بلا مضمون. ينغلق النص على ذاته أو يُستعمل في غير موضعه طبقاً للهوى والمصلحة كواقع بديل. إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون

= المقدمات الفقهية والصوفية في «الدر النضيد»، «الخريدة البهية». يستشهد صاحب القول المفيد بأقوال ابن عربي والشافعي لبيان حدود العقل مثلا قول ابن عربي:

على السمع عوّلنا فكنا أولي النهي ... ولا علم فيما لا يكون عن السمع

وأيضاًقوله: كيف للعقل دليل والذي ... قد بناه العقل بالكشف انهدم

فنجاة النفس في الشرع فلا ... تك انساناً رأى ثم حرم

واعتصم بالشرع بالكشف فقد ... فاز بالخير عُبَيْد قد عصم

أهمل الفكر فلا تحفل به ... واتركنه مثل لحم في وَضَم

ان للفكر مقاماً فاعتضد ... به فيه تك شخصاً قد رحم

كل علم يشهد الشرع له ... هو علم فيه فلتعتصم

وإذا خالفه العقل فقل ... طورك الزم مالك فيه مذم

وقال الشافعي: إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه، وقال الغزالي «ولا تستبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل... ومع ذلك فالله أرسل الرسل وأظهر على أيديهم المعجزات التي دلت دلالة ضرورية قطعية على صدقهم واستحالة الكذب عليهم فكانت افادة أقوالهم التي تعين مرادهم منها بالقرائن المشاهدة أو المنقولة» القول المفيد ص ٩٠ - ٩١.

يملؤها . وهذا المضمون بطبيعته قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته التي هي بناء الحياة الانسانية التي عبر فيها الوحي في المقاصد العامة . ومن ثم فالتأويل ضرورة للنص . ولا يوجد نص إلا ويمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به . لا يعني التأويل هنا بالضرورة إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة بل هو وضع مضمون معاصر للنص، لأن النص قالب دون مضمون . التأويل هنا ضرورة اجتماعية من أجل تحويل الوحي إلى نظام بتغيير الواقع إلى واقع مثالي . حتى النصوص الجلية الواضحة التي لا تحتاج في فهمها إلى تأويل أو إلى سبب نزول بل إلى مجرد الحدس البسيط ، حتى هذه النصوص لفهمها حدساً تحتاج إلى مضمون معاصر يكون أساس الحدس . وبدون هذا المضمون المعاصرلملءالنص الجلي لا يمكن رؤ يته حدساً . وقد حوت النصوص أنماطاً مثالية للوقائع يمكن أن تكون أصولاً لمجموع الوقائع الجديدة اللامتناهية ، وتلك هي مهمة القياس الشرعي . العلاقة إذنليستبين العقل والنقل وحدها ولكنها علاقة ثلاثية بادخال طرف ثالث هو الواقع يكون بمثابة مرجع صدق وتحقيق لو حدث أي تعارض بين العقل والنقل . ولا يكاد يتفق اثنان على معنى واحد للنص في حين أن استعمال العقل أو اللجوء إلى الواقع يمكن أن يؤدي إلى اتفاق . ولا تستطيع اللغة وحدها أن تكون مقياس فهم النص والتوفيق بين المعاني . تحتاج اللغة إلى حدس وهو عمل العقل أو الى تجربة وهو دور الواقع . فالواقع واحد لا يتغير . ولا يمكن الخطأ فيه لأنه واقع يمكن لأي فرد أن يتحقق من صدق الحكم عليه . وإن كل اختلافات الأحكام على الواقع إنما ترجع في الحقيقة إلى اختلافات في مقاييس هذه الأحكام وأسسها وليس إلى موضوع الحكم . وغالباً ما تكون هذه الأسس ظنوناً أو معتقدات أو مسلمات على أحسن تقدير أو مصالح وأهواء ورغبات وسوء نية على أسوء تقدير . وفي حقيقة الأمر الفكر هو الواقع ، والواقع هو الفكر ، وليس لأحدهما أولوية زمانية على الآخر أو أي نوع من الأولوية من حيث الشرف والقيمة . الفكر واقع متحرك والواقع فكر مرئي . وكل فكر لا يتحقق في الواقع لا يكون إلا هوى أو انفعالاً ذاتياً، وكل واقع لا يتحول إلى فكر يكون واقعاً مُصْمَتاً أو واقعاً ناقصاً .

وأولوية النص على الواقع تعطي الأولوية للتقليد على التجديد ، وللماضي على الحاضر ، وللتاريخ على العصر[٢٩٦] . يرجع التاريخ إلى الوراء لأنه ما زال يعتمد على سلطة الوحي وأمر الكلمة ، وما زال يتطلب الطاعة المطلقة لمجرد الأمر في حين أن اكتمال الوحي يعني بداية العقل وأن الوحي ما هو إلا تعبير عن كمال الطبيعة وكمال الانسان . منهج النص يحيل الشعور إلى شعور سلبي خالص ، يجعله مجرد آلة لتنفيذ الأوامر دون تعقيل لها أو حتى إيمان شخصي بها[٢٩٧] . والتقليد ليس منهجاً عقلياً أو نقلياً بل هو من مضادات العلم . وتقدم العلم مرهون برفع التقليد[٢٨٩] .

ولما كان النص فارغاً إلا من الوقائع الأولى التي سببت نزوله فإن كثيراً ما تتدخل الأهواء والمصالح الشخصية والظنون والمعتقدات لتملأ النص وليست مقاصد الوحي ذاتها . ومن ثم يتحول النص إلى مجرد قناع يخفي وراءه الأهواء

---

(٢٩٦) « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا وبسنة نبينا وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به محمد بن حنبل قائلون ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الامام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين . . . وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا نرد من ذلك شيئاً » الابانة ص ٨ .

(٢٩٧) لذلك يستشهد الأشاعرة دائما بالآتي : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؛ ﴿ فليحذر الذين يخالفون أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ؛ ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وأولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ ؛ ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ ؛ ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ ؛ ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ الابانة ص ٥ ـ ٦ .

(٢٩٨) في آخر « الحصون الحميدية » يحمل الشيخ حسين افندي الجسر على منهج التقليد ويدعو إلى الدليل العقلي باستثناء تقليد الرسول المعصوم أو تقليد علماء الأمة في تفسيرهم للنصوص بالدليل القاطع . فيقوم بخطوة إلى الامام وخطوة الى الخلف . والدليل القاطع يمحو التقليد . ويستعمل حجة الغزالي القديمة ضد الفلاسفة الذين يحسنون القول في الرياضيات فيحسب الناس أن كلامهم كذلك في الإلهيات . الحصون الحميدية ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

والمصالح والنزعات والرغبات والميول . وتتمثل الخطورة أكثر فأكثر في موضوعات السياسة كما يبدو ذلك في استعمال منهج النص في الامامة عند القائلين بأن الامامة بالنص فقد نص الكتاب على امامة شخص بعينه وجعلها في سلالته ومن ثم يعارض منهج النص مبدأ الوحي في الشورى والخروج على الامام العاصي . والنص سلاح ذو حدين . يمكن استعماله وتوجيهه ضد قائله وقلب الحجة النقلية عليه . يستطيع صاحب كل مذهب أن يعتمد على نص وأن يجد له نصاً في الكتاب يؤيده بل يستطيع أنصار المذاهب المتعارضة أن يجدوا جميعهم نصوصاً لتأييدهم إما عن حسن نية أو سوء نية مهما كانت هناك من مناهج للتعارض والتراجيح . وفي حقيقة الأمر يخضع منهج النص للاختيار الاجتماعي والسياسي للنصوص . فقد حوت النصوص كل شيء . ويمكن لكل فرد أن يجد فيها ما يبغي وما يهوى . صحيح أن هناك مقاييس موضوعية ، مثل مبادىء اللغة وأسباب النزول والمصالح العامة ولكن مع ذلك لا يخلو استعمال النص عن هوى أو رغبة أو ميل أو مصلحة بصرف النظر عن درجتها خاصة أم عامة . ولا يعني ذلك بالضرورة سوء النية ولكن كل فرقة تود نصرة آرائها بالاعتماد على سلطة النصوص فتختار ما يوافق هواها . النص في الحقيقة تابع لشيء آخر هو الرأي أو الهوى أو المزاج . فهو يستعمل خادماً لا مخدوماً ، وتابعاً لا متبوعاً . وعموم النص تعطيه القدرة على خدمة الجميع على قدم المساواة . يعرض النص خدماته على الجميع . ويمكن اثبات شيئين متعارضين من فريقين مختلفين بنفس النص . كل منهما يرى فيه نفسه ويسقط عليه ما يريد[٢٩٩] . لذلك يؤدي استعمال منهج النص إلى إحساس باليقين المطلق والحق المسبق فيؤدي إلى التعصب وعدم الاستعداد للتنازل عن شيء أو تغيير

---

(٢٩٩) « فباطل ما صرفوه بظنونهم » الفصل جـ٣ ، ص ٣٥ ؛ « إنما تلونا جميع الآيات على نسقها واتصالها خوف أن يعترضوا بالآية ويسكتوا عن قوله « يخرصون » فكثيراً ما احتجنا إلى بيان مثل هذا الاختصار على بعض الآية دون بعضها من تمويه». الفصل جـ٣ ، ص ١١٣ ؛ « وكذلك فربما تعلقوا في الدلالة على مذاهبهم على ذكر أمثلة في الشاهد ، فمنها ما يدعون وجوده ، ومعلوم من حاله أنه لا يوجد ، بل هو محال ، ومنها ما يوجد ولا يتعلق به الحكم الذي يدعون ثبوته » المغني جـ ١٤ ، الأصلح ص ٥٥ .

الموقف أو الفهم المتبادل أو السماع للغير. وكثيرا ما يؤدي إلى القطعية في النظر. يوجه السلوك فيؤدي إلى الامتثال والتحزب والفرقة والحمية والتكفير. يؤدي إلى ضيق الأفق والحنق وإلى سرعة اتهام المخالفين بالكفر والالحاد والخروج على الدين وعلى الدولة ويستحيل معه تجميع الأمة على فكرة أو هدف فيقضي على الوحدة الوطنية .

ومع ذلك فقد يكون لمنهج النص أحياناً وفي فترات تاريخية محددة بعض الأثر والفاعلية السلبية. فالعكوف على النص يؤدي إلى العثور على امكانياته اللامحدودة وفهم معانيه المتضمنة فيه والتدقيق في هذه المعاني وإخراج الكامن منها دون نسيانه أو لفظه أو اهماله جانباً باعتباره تاريخاً مدوناً أو تراثاً مكتوباً أو أساطير الأولين . ويؤدي ذلك إلى إيجاد منطق للنص ، منطق لغوي يكون وسيلة لأحكام المعاني حتى لا يُقال فيه بالظنون ، ومنطق عملي لتوجيه السلوك، ومنطق واقعي لفهم العالم وتغييره . وربما يؤدي ذلك إلى عثور على منطق داخلي للنص يكون منطقاً للوحي ثم استعماله لنقد كل أنواع المنطق الأخرى صورية أو مادية أو كشفية . لذلك قام الفقهاء ، حملة النص ، بنقد المنطق القديم ووضع منطق جديد باسم النص(٣٠٠) .

وقد يمتاز منهج النص بأنه يبدأ ببداية يقينية تجعل عمل العقل قائماً على أساس يقيني ، وتحمي نشاط العقل من التشعب والتشتت والتقلب والتذبذب كما تحميه من الظنون والأوهام والمعتقدات والشكوك والمصالح والأهواء . يقوم النص هنا بدور الأوليات أو البديهيات . هذه الوحدة الفكرية الأولى تظهر في الالتزام العملي بوحدة الأمة وبمنهج الجماعة وعدم اللجوء إلى الرأي الشخصي إلا بعد مشورة الجماعة . فالآخر له وجود معرفي وله وظيفة معرفية . والحقيقة تكون أكثر يقيناً في شعور الجماعة وتكون أكثر قابلية للتحقيق والتصديق والمراجعة .

وقد يعطي منهج النص بعض الشجاعة والقوة على الرفض الحضاري إذا ما

(٣٠٠) مثل محاولات ابن تيمية العديدة لنقد المنطق الأرسطي في « نقض المنطق » ، « الرد على المنطقيين » وتلخيص السيوطي في « ترجيح أساليب اليونان على منطق اليونان » .

تخلت الجماعة عن النص واتبعت التقليد ، وابتعدت عن المركز وقبعت في المحيط . يقوم منهج النص هنا بعملية تطهير ، ويعيد المجتمع إلى القلب من الأطراف ، ويعود إلى الناس الإيمان بالنص في مواجهة أعمال العقل ، وترجع الحضارة إلى الأنا في مواجهة الآخر ، تحافظ على الهوية ضد « التغريب » أو « التغريق » ، والدفاع عن الأصالة في مواجهة دعوى المعاصرة والتحديث . يكون منهج النص عاملاً مطهراً كلما تكاثرت النظريات العقلية وتراكمت فوق الواقع حتى أوشك النص على النسيان فينتفض النص ويقوم بحملة نقدية ضد تراكمات العصور . وينشط العقل من جديد ناقداً نفسه أو مدافعاً عن حقه في البداهة أو منظِّراً من جديد . وهذه الانتفاضات عمليات حضارية طبيعية تجدد بها الحضارة نفسها من ذاتها ثم تنشأ المشكلة من جديد : إلى أين يسير النص إلى العقل (علوم الحكمة) أو إلى القلب (علوم التصوف) أو إلى الواقع (علم أصول الفقه) أو إلى العقائد (علم أصول الدين) ؟ عملية « الامتداد الحضاري » ليست تقليداً وتبعةً للآخرين وعملية « الانكماش الحضاري » ليست رجعية ومحافظة وتخلفاً بل هما عمليتان ضروريتان في كل حضارة ، كل منهما تعبر عن ضرورة وواقع وحاجة ، وتدرأ أخطاراً مخالفة للآخرين(٣٠١) .

---

(٣٠١) لذلك وصف أهل السنة أنفسهم بأنهم أهل السنة أو أصحاب الحديث وأهل الاثر وبأنهم « ينكرون الجدل والمراء في الدين والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ، ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم بالروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى الرسول ولا يقولون كيف؟ ولا لم؟ لأن ذلك بدعة » مقالات جـ ١ ، ص ٣٢٢ وفي مقابل ذلك يصفون المعتزلة والفلاسفة وكل من قام بعملية التمثل والاحتواء الحضاري ويتهمونهم بالتقليد « فنبذ كثير ممن غلبت عليه شقوته ، واستحوذ عليهم الشيطان ، سنن النبي وراء ظهورهم ، ومالوا الى أسلاف قلدوهم بينهم ، ودانوا بديانتهم ، وأبطلوا سنن الرسول ورفضوها ، وأنكروها وجحدوها افتراء منهم على الله » الابانة ص ٦ ؛ « إن الكثير من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من اسلافهم » الابانة ص ٦ - ٧ ؛ ويناشد أهل السنة المعتزلة بأن « مخالفتك للسلف وخروجك من العلم ورجوعك إلى الجهل الذي هو أولى بك ، وقولك في حجتك : روى سديف الصرفي وفلان وفلان كذا وكذا وأهل العلم في الآفاق يرون ذلك ويكذبونك من لدن الرسول إلى أن تقوم الساعة . . . وليس على وجه الأرض شخص يعدل عن السنة والجماعة =

أما الدليل النقلي العقلي أو العقلي النقلي فإنه لا وجود له لأن كل وسط أقرب إلى أحد الطرفين ، وهو أقرب إلى النقلي منه إلى العقلي وينتهي في الغالب في حالة التعارض إلى تغليب النقل على العقل وهدم العقل . ويصعب التركيب بين النقل والعقل لأنهما متضادان . النقل به كل حدود الرواية واللغة والتفسير والعقل موطن البداهة والوضوح والتمييز . والاتساق الفكري للخطاب العقلي لا يسمح بكسره أو قطعه بأدلة خارجية . واليقين الداخلي مكتف بذاته لا يحتاج إلى يقين خارجي زائد .

٢ ـ **الدليل العقلي.** لم يبق إذن إلا الدليل العقلي، والعقل هنا بمعناه الشامل الذي يشمل الحس والعقل والخبر. غرض التحليل العقلي هو عرض النص ذاته على المستوى العقلي الخالص ودفع المعارض العقلي بل وتخيله والرد عليه سلفاً حتى ليعد تحليل العقل من أدق ما قدمه علماء أصول الدين من اتساق نظري . تقوم القسمة العقلية بعرض الموضوع أولاً على المستوى النظري واحتمالاته المختلفة ثم يقوم العقل بتفنيد كل احتمال حتى يبقى احتمال واحد ممكن بضرورة العقل . وهو ما يحدث أيضاً على مستوى التجربة في الأصول ومناهج البحث عن العلة والمعروفة بطريقة السبر والتقسيم أي تحليل العوامل ثم عزل العوامل غير المؤثرة لمعرفة العامل المؤثر . لذلك دخلت نظرية « العلة والمعلول» ضمن « الأمور العامة » في «المعلوم». والقسمة العقلية هي في الحقيقة الجوانب المختلفة للموضوع والذي ينكشف في الشعور بعد تحليله .

ميزة الدليل العقلي أنه يبدأ ببداية يقينية هو وضوح العقل وبداهته فلا يحتاج

= والألفة إلا كان متبعاً لهواه ، ناقصاً عقله ، خارجاً عن العلم والتعارف » الرد والتنبيه ص ١٢ ؛ ويمثل الامام أحمد بن حنبل هذا التيار وموقفه من خلق القرآن والتزامه بالنص. وقد قام الأشعري بذلك باثبات العقائد نصاً في « الابانة » والرازي في «أساس التقديس ». واستأنفته الحركة السلفية الممثلة في مدرسة ابن تيمية وابن القيم. ويمثل محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» نفس الموقف وتوجيه النص نحو الواقع مباشرة كما تفعل الحركة السلفية المعاصرة وكما هو واضح في كتاب « الفريضة الغائبة » لمحمد عبد السلام فرج مفكر جماعة الجهاد . انظر دراستنا عن « الحركة السلفية المعاصرة » .

إلى إيمـان مسبق بـأي نص . يقضي العقـل عـلى كـل لبس في فهم النصـوص كـما يقضي على كل تفسير حرفي أو مادي له أو أي تفسير يضع المبادىء الانسانية العامة موضع الخطر . العقل هو الوريث الشرعي للوحي . ولما اكتمل الوحي فـإن العقل هو التطور الطبيعي له . منهج العقل إذن هو الاستمرار الـطبيعي للنبوة ، والتـطور الـطبيعي لها . العقـل هو الـوسيلة لفهم السلوك حتى لا يكون الانسـان مجـرد آلـة لإطاعة الأوامر . يفهـم العقل أساس السلوك ودافعه وباعثه حتى ينبعث منه السلوك عن طبيعة ، ويصدر منه الفعل عن تمثـل واقتناع .منهج العقل منهـج انساني مهمتـه الدفاع عن حقوق الانسان ، العقل والحرية والشورى والالتزام . لا توجـد خطورة للقضاء على موضوعية الوحي فالموضوعية لا تعني وجود وقائع مادية وذوات مشخصة بل تنبع الموضوعية من طبيعة العقل وامكانية تحويل الوحي إلى سلوك ونظام . منهج العقل هو العامل الفكري الذي تنبني عليه الحضارة . العقل هو مُنشىء الحضارة ، وتُقاس درجة تقدم كل حضارة بدرجـة عقلانيتهـا . وهو القـادر على استيعـاب كل الصدمات الحضارية واحتواء كل النـظريات الغـازية واعـادة بنائهـا داخل النـظرية العقليـة العامة . لمنهـج العقل قـدرة فائقـة على الامتصـاص الحضـاري للثقـافـات الـواردة . ويغلب منهج العقـل الجديـد عـلى القـديم . ويهمـه الحـاضـر أكـثر من المـاضي . ويقوم عـلى نوع من الشجـاعة العقليـة والثقة بـالنفس دون استناد إلـي القديم استناد الخائف المضطرب أو الهـارب الفار . ويؤدي منهـج العقل في النهـاية إلى الانفتاح على الآخرين بما لـديه من قـدرة على الحـوار . فيحمي من الوقـوع في التعصب ، فالدليل هو الطريق لاثبات الحقيقة ، والبرهـان هو المحـك في اختلاف الناظرين .

وبالرغم من مزايا منهج العقل إلا أنه نظراً لاستخـداماتـه العديـدة وتفريغـه أحياناً من بُعْدَيْه الآخرين الشعور أي الداخل والواقع أي الخـارج فإنـه يتحول إلى مجرد آلة صورية تـدرك أشكال القيـاس دون مادة العلم . يُستعمـل أحيانـاً للتبريـر أكثر من استعماله للتحليل ، تبرير المادة المعطاة سلفاً لايجاد اتسـاقها الـداخلي دون تحليلها إلىعناصرها الأولية ، وبيـان مدى تـطابقها مـع التجربـة الحية ومـع الواقـع العريض . ربما يقف العقل أمام بعض المـوضوعـات مثل « السمعيـات » قابـلاً لها

جاعلاً أقصى عمله هو تأويلها وفهمها بما يتفق معه وليس بيان نشأتها أي الدخول في تكوين الموضوع ذاته . وإن قدرة العقل على التمثل والرغبة في البحث عن الاتساق العقلي جعلته قادراً على التمثل الحضاري لكل التراث العقلي المعاصر له فخفت قدرته على النقد وعلى الرفض . لذلك خرج نقد المنطق « الأرسطي » القديم على يد الأشاعرة والفقهاء أكثر مما خرج من أيدي المعتزلة والحكماء . بل إن الرغبة في بناء اتساق العقل واحتواء المعارض قد وصلت إلى حد التشعب الفكري والتجريد الخالص حتى ضاعت الموضوعات المبدأية ، وتحولت إلى موضوعات صورية خالصة . تحول الوحي إلى جدل ، وتحولت الموضوعات إلى حجج ، وأصبح التفكير مجرد محاجة ومماحكة . وقد لا يستطيع العقل الحصر في القسمة وبالتالي يكون بناء الموضوع ناقصاً . وقد تند بعض الموضوعات عن القسمة العقلية وذلك لأن الحياة أحياناً لا تقبل القسمة ولا يمكن تحويلها إلى موضوعات صورية خالصة وإلا فقدت وجودها كمضمون . وأحياناً تكون القسمة العقلية كاملة نظراً من حيث الفكر ولكنها غير مرضية عملاً من حيث السلوك . يمكن تحليل امكانيات السلوك في موقف إلى امكانيتين أو ثلاث وكل منها لا يمكن استعمالها وكأن القسمة العقلية أضيق نطاقاً من الموقف الوجودي ذاته . العقل دون نص أو تجربة أو واقع ينتهي إلى تأمل نظري خالص يبحث عن الحكمة لذاتها وتصبح الفضائل كلها نظرية وقد يُغالى في العقل فيكون المطلق ، ويكون المطلق عقلاً و عاقلاً ومعقولاً في وقت واحد(٣٠٢) .

---

(٣٠٢) لذلك اعتبرت « الروحانية » من « الزنادقة » وسموا أيضاً الفكرية لأنهم يتفكرون ، زعموا هذا حتى يصيروا إليه فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ، ومنتهى ارادتهم ، ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية فيتلذذون بمخاطبة الله لهم ومصافحته اياهم ، ونظرهم إليه . زعموا ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الابكار على الارائك متكئين ، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار لكان مستقيماً » التنبيه والرد ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ؛ « وأخذ محمد بن عباد قول الفلاسفة حيث قضوا باثبات النفس الانساني أمراً ما هو جوهر قائم بنفسه ولا متحيز ولا متمكن وأثبتوا من جنس ذلك موجودات عقلية مثل العقول المفارقة . ومن مذهبهم أنه علم وعقل وكونه عاقلاً ومعقولاً شيء واحد » الملل والنحل جـ ١ ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

فإذا تحول كل نص إلى حجة عقلية قائمة بذاتها حتى أصبحت قوة النص تتمثل في قوة الحجة التي تعبر عنه فإن الحجة العقلية لا تمسّ إلا الذهن ، ولا ترمي إلا إلى الاتساق المنطقي . وتترك الشعور نفسه وربما الواقع أيضاً دون اقتناع أو توجيه وتمثل نظراً للوجود الشعوري والواقعي لموضوع الحجة . لذلك كان التحليل الشعوري الواقعي لهذا الموضوع هو الطريق لمعرفته أو الحكم عليه إثباتاً أو نفياً . وإذ اشتدت التعريفات العقلية ، وتشعبت الحجج لاثبات الدعوى أو نقيضها واستحال الفصل بينهما إن لم يكن قد صعب الفهم من قبل يمكن الحسم باللجوء إلى تجربة شعورية واقعية تكون هي المادة التي تسمح للشعور بالتحليل وللواقع بالرؤية من أجل إصدار حكم وذلك لأن الحجج الصورية تماماً عاجزة عن أن يكوّن العقل منها حكماً دون « أسباب النزول » أي دون واقع معاش وتجارب فردية واجتماعية . والافاضة في أنواع الأدلة العقلية الخالصة جزء من علم المنطق . لذلك يؤثر القدماء الاقتصار على وجوه الاستدلال من استنباط واستقراء وتمثيل دون دخول في موضوعات المنطق العامة . ولكنها تستعمل استعمالاً جدلياً كما تستعمل في حجج البحث عن العلة في أصول الفقه استعمالاً جدلياً[٣٠٣] . ويؤثر القدماء تعدد الأدلة بتعاضدها نظراً لاختلاف الأذهان في درجة التعلم وقبول اليقين . وقد لا يقنع الاعتماد على دليل واحد الجمهور[٣٠٤] .

لذلك تدخل مناهج الأدلة سواء في البداية في علم الكلام المتقدم أو في

---

(٣٠٣) ينقسم وجه الاستدلال على وجوه أ ـ أن ينقسم الشيء في العقل إلى قسمين أو أقسام يستحيل أن تجتمع كلها في الصحة والفساد فيبطل الدليل أحد القسمين فيقضي العقل بصحة ضده أو إن أفسد الدليل سائر الأقسام صحح العقل الباقي منها . ب ـ يجب الحكم والوصف للشيء في الشاهد لعلة ما وجب الحكم على من وصف بتلك الصفة في الغائب بهذه العلة أن يستدل على صحة الشيء بصحة مثله أو باستحالته على استحالة مثله » التمهيد ص ٣٨ ؛ الأول « السبر والتقسيم» ، والثاني «قياس العلة» ، والثالث «قياس الشبه» . ويحيل الغزالي إلى كتب الأصول التي قامت من قبل بهذا الاحتواء النظري للمنطق داخل مناهج الأصول أو يحيل إلى كتب المنطق التي تضم التقسيمات العقلية الخالصة مثل «محك النظر» ، «معيار العلم» الاقتصاد ص ١٠ ـ ١١ .

(٣٠٤) المقاصد ص ٧٢ ؛ شرح المقاصد ص ٧٤ .

النهاية في علم الكلام المتأخر في موضوع أعم وهو الأدلة الشرعية . ففي نظرية العلم في المؤلفات المبكرة تبدو كأنها خارجة من ثنايا علم أصول الفقه كما أنها تعتمد على الأدلة الشرعية كمصدر للعلم وتزيد عليها دليل العقل[٣٠٥] . وقد تجتمع هذه الأدلة مع أدلة المنطق من استنباط وقياس وتمثيل[٣٠٦] . فالعلوم الشرعية قسم من العلوم النظرية لأن صحة الشريعة مبنية على صحة النبوة وهذه لا تعلم إلا بطريق النظر والاستدلال[٣٠٧] . فالعلوم النظرية نوعان عقلي وشرعي ، وكلاهما مكتسب بالنظر والاستدلال .

والأحكام الشرعية مأخوذة من أربعة أصول : الكتاب ، والسنه ، والاجماع ، والقياس . وهنا يدخل علم الأصول كجزء من نظرية العلم . وتمتد نظرية العلم حتى تحتوي المنطق والأصول والتصوف والفلسفة والحديث[٣٠٨] . فالكتاب يحتوي على الوحي ، وهو اليقين المطلق . ولكنه وحي مدون ومن ثم يحتاج إلى تفسير واستدلال قائم على طبيعة اللغة واستعمالها في التعبير ، وانكار النبوة قضاء على هذا الأصل[٣٠٩] . والسنة على خلاف الكتاب منها المتواتر الذي يورث العلم الضروري والمستفيض الذي يورث العلم المكتسب في حين أن الكتاب يورث العلم الضروري . التواتر يورث اليقين في العلم والعمل في حين أن

---

(٣٠٥) يجعل الباقلاني الأدلة خمسة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس وحجج العقول ، الانصاف ص ١٩ - ٢١ .

(٣٠٦) التمهيد ص ٣٩ ؛ شرح الأصول ص ٨٨ ؛ المحيط ص ٢٠ .

(٣٠٧) أصول الدين ص ٩، ص ١٤ - ١٥ ؛ «العلوم النظرية أربعة أقسام: أحدها استدلال بالعقل من جهة القياس والنظر، والثاني معلوم من جهة التجارب والعادات، والثالث معلوم من جهة الشرع ، والرابع معلوم من جهة الالهام في بعض الناس أو بعض الحيوانات دون البعض» أصول الدين ص ١٤ ؛ ويبدو أن العلم الأول هو علوم الحكمة والثاني علم أصول الدين والثالث علم أصول الفقه والرابع علوم التصوف . فالعلوم النقلية العقلية كلها علوم نظرية تقوم على قسمة العقل .

(٣٠٨) يحيل علماء أصول الدين إلى المصنفات في علم أصول الفقه . أصول الدين ص ٢٠ ؛ حاشية الاسفرايني ص ٧ .

(٣٠٩) أصول الدين ص ٢٧، ص ١٩ ؛ شرح الأصول ص ٨٨ - ٨٩ ؛ انكار الوحي عند البراهمة وانكار حجية القرآن عند الرافضة لدعواهم وقوع التحريف فيه ويستبدلون به قول الامام .

الآحـاد يورث اليقـين في العمل فقط ويبقى العلم ظنياً[٣١٠] . وأما الاجمـاع فهو اتفاق كل عصر ، وهو استدلال جماعي يعطي يقيناً أكثر من الاستدلال الضـروري ويكون أقل عرضة للخطأ[٣١١] . وأما القيـاس فهو استـدلال فردي في واقعـة ليس فيها نص من كتاب أو سنة أو إجماع وهو على درجات متفاوتة من اليقين .

وهكذا تنتهي نظرية العلم بعد أن بلغت ذروتها في نـظرية المنـطق وصبت في النهاية في نظرية الأدلـة في علم أصول الفقـه وكأن نـظرية الأدلـة الشرعيـة في علم أصول الفقه أوسع نطاقاً من نظريـة العلم في علم أصول الـدين ، نظراً لاحتـوائها عـلى دور الجماعـة في الاستدلال ودور الـواقع والمصـالح العـامة من خـلال شعـور المجتهد واحساسه بمصالح الأمة . جمعت بـين المعرفـة الحسية والعقليـة والوجـدانية ، وضمت إليها المعرفة التاريخية من خلال التـواتر ولكن نقصهـا شيئان يمكن اكمـالهما من المعاصرين حتى تكتمل نظرية العلم .

الأول تحليل اللغة ، لغة العلم ومصطلحاته . فهذه تركها القدماء وكأن لغـة العلم مفترضة سلفاً خاصة وأن علم العقائد له مصطلحاتـه الخاصـة مثل « الله » ، « الايمان » ، « الآخرة » ، منهـا ما هـو حسي عقلي مثـل الايمان والعمـل والامامـة ومنها ما هو تاريخي مثل النبوة ، ومنها ما هو غيبي مثل « الله » و « الآخرة »[٣١٢] .

والثـاني تحليل الـواقع الـذي منه نشـأ علم العقـائـد ووصـف الآثـار الفعليـة

---

(٣١٠) أصول الدين ص ٢٧ ـ ٢٨ ؛ شـرح الأصول ص ٣٩ ؛ والخـلاف مع الخـوارج في انكار السـنة الشـرعية إذ لا يعتـرفون الا بحجيـة القرآن فـأنكروا الـرجم والمسح عـلى الخفـين لأنهما ليسـا في القرآن ، وقطعوا يد السارق في القليل والكثيـر لأن الأمر بقـطع يد السـارق في القرآن مـطلق . والخلاف مع النظامية بانكاره حجة الخبر المتواتر وأجازوا وقوعه كذباً . والخلاف مع نفاة العمل بأخبار الآحاد من القدرية .

(٣١١) أصول الدين ص ١٨ ـ ٢٠ ؛ شرح الأصول ص ٨٩ ؛ والخلاف مع الخوارج في انكارهم حجة الاجماع ومع النظامية ومع فريق من أهل الظاهر في انكار اجماع كل عصر بعد الصحابة ومـع من يرى الاجماع عن نص دون قياس .

(٣١٢) هذا ما حاولنا إكماله في « التراث والتجديد » ، رابعاً طرق التجديد ١ ـ منطق التجديـد اللغوي ص ١٢٣ ـ ١٥١ .

للعقائد في حياة الناس وكيفية توجيهها لسلوكهم . وهل يمكن تغيير التصورات لاحداث تغيير مماثل في الأفعال . فالتوحيد عند القدماء ليس فقط توحيد نظر بل توحيد عمل . يبدو أن التركيز عندهم كان على الأول دون الثاني في حين أنه عندنا قد يكون التركيز على الثاني دون الأول(٣١٣) .

ومع ذلك يظل الدرس المستفاد من القدماء هو أنه لا يمكن تأسيس علم للتوحيد دون تأسيس مسبق لنظرية في العلم .فليس المهم هو الموضوع بل المنهج ، بل إن طبيعة الموضوع والنتائج فيه والحكم عليه إنما هي مشروطة بالمنهج المتبع ونوعية الأدلة فيه .نظرية العلم في النهاية هي التي تحدد موضوع العلم .

---

(٣١٣) وهذا ما حاولنا اكماله في هذا المصنف في علم أصول الدين « من العقيدة الى الثورة » .

الفصل الرابع

نظرية الوجود

أولاً : نشأة نظرية الوجود وتطورها :

١ ـ مصطلح نظرية الوجود: تشير نظرية الوجود إلى كل المباحث النظرية بعد نظرية العلم وهي المباحث التي تضم أساساً طبقاً لعلم الكلام المتأخر مبحثي الأعراض والجواهر . ولما كانت الأعراض والجواهر تمثل الأجسام أو الموجودات وضعت تحت مصطلح « نظرية الوجود » ، ولأن « الأمور العامة » أي المقدمة النظرية لمبحثي الأعراض والجواهر تجعل الوجود أهم مباحثها . وتعني نظرية الوجود « المعلوم » في مقابل نظرية العلم . فإذا كانت نظرية العلم تجيب على سؤال كيف أعرف ؟ فإن نظرية الوجود تجيب على سؤال ماذا أعرف ؟ . وبالتالي يدل سبق نظرية العلم على نظرية الوجود سبق المعرفة على الوجود . فالموجود هو المعلوم وليس المجهول . الموجود هو موضوع العلم وليس له وجودٌ مستقلٌ عن العلم . لذلك تتداخل نظرية الوجود في بداياتها مع نظرية العلم وكأنها تنشأ من داخلها فينفصل المعلوم عن العلم ، ويتخلّق الموضوع من الذات . ولا يذكر اسم الموجود بل المعلوم . نظرية العلم تعرض لكيفية العلم من ناحية الذات ونظرية الوجود تتناول المعلوم من حيث الموضوع . وتبدأ نظرية الوجود كلها من قسمة المعلوم إلى معدوم وموجود ثم قسمة الموجود إلى قديم وحادث ثم قسمة الحادث إلى جوهر (جسم) وعرض[1] . وفي المصنفات الاعتزالية والأشعرية معاً تتداخل

(١) تتداخل بعض مسائل نظرية العلم مثل دلالة الشاهد على الغائب في نظرية الوجود عند الماتريدي في « كتاب التوحيد » ص ٢٧ ـ ٢٩ ، ص ١٩ ـ ٢٧ ، كما تتداخل عند الباقلاني بعض مسائل نظرية =

نظريتا العلم والوجود لاثبات حدوث العالم وأن له محدثاً فالغاية اثبات وجود « الله » ومعرفة الطريق الذي يتوصل فيه إلى العلم « بالله » ، وأنواع الدلالة ، وأن معرفة « الله » لا تكون إلا بالعقل وبالنظر إلى أفعاله. وهنا يكون دليل الحدوث أقرب إلى نظرية العلم منه إلى نظرية الوجود(٢) .

٢ ــ غياب نظرية الوجود : تغيب نظرية الوجود بل وكل المقدمات النظرية بوجه عام من كتب العقائد المتقدمة منها أو المتأخرة ، ففي الأولى لم ينشأ بناء العلم بعد وفي الثانية اختفى بناء العلم . وفي كلتا الحالتين يصبح العلم موضوعاً للايمان الخالص بلا حاجة إلى نظرية في العلم أو نظرية في المعلوم أي الوجود . تعرض هذه المصنفات ما يجب على المؤمن الاعتقاد به فرضاً دون أي مدخل نظري أو اقناع عقلي أو تأصيل بديهي للأسس العامة التي تقوم عليها العقائد(٣) . كما تغيب نظرية الوجود في العقائد المبكرة عندما تصاغ ضد العقائد المضادة ، وتدخل مباشرة في الصراع العقائدي دون ارساء أية قواعد مشتركة للحوار ودون وجود أية أسس نظرية مشتركة تكوّن الحد الأدنى للجمع بين المتحاورين ، عقائد في مواجهة عقائد ، وعقائد « أهل سنة » في مواجهة عقائد « أهل بدعة » حتى العصور المتأخرة . كما تغيب نظرية الوجود في المصنفات المبكرة للعقائد المضادة للرد على عقائد أهل السنة مثل عقائد المعتزلة إذ أن غرضها هو عرض عقائد الفرق والرد على هجوم الفرق المخالفة سواء كانوا أهل السنة أو الشيعة أم فرق المشبِّهة والمجسِّمة أو الجبرية(٤) . وتغيب نظرية الوجود كذلك من المصنفات التي ما زالت تتأرجح بين

= العلم الأخرى مثل الأدلّة الشرعية الأربعة وحجج العقول، بالاضافة إلى نظرية في فرائض الدين وشرائع المسلمين وسائر المكلّفين التي يلزم قسم منها السلطان وقسم آخر العلماء وقسم ثالث العامة، وأن أول الواجبات هو النظر ومعنى الإيمان ومضمونه ثم الدخول في عقائد الإيمان وصفات « الله » فتتداخل المقومات النظرية كلها مع موضوعات العلم ذاته (العقليات والسمعيات). الإنصاف ص ١٥ ـ ١٩، ص ٣٠ ـ ٣٣ ؛ التمهيد ص ٤٠ ـ ٤٥ .

(٢) شرح الأصول ص ٨٧ ـ ١٢٢ .

(٣) وذلك مثل «التنبيه والرد»، «التمهيد» ، «الفقه الأكبر»، «اللمع»، «الإبانة»، «الانصاف»، «أصول الدين»، «لمع الأدلة» ، «الإرشاد» ، «بحر الكلام» ، «الاقتصاد» ، «الشامل» ، «المسائل الخمسون» .

(٤) وذلك مثل الإمام يحيى بن الحسين : الرد على المجبرة والقدرية، كتاب فيه معرفة الله من العدل =

العقائد وتاريخ الفرق[٥] . فالغرض ليس تأسيس العقائد العامة التي يتفق عليها المسلمون جميعاً بل عرض عقائد الفرق ، والتركيز على أوجه الاختلاف وليس على أوجه الاتفاق وكأن التشتت والتبعثر والتشرذم أولى بالرصد من الوحدة والائتلاف . كما تغيب نظرية الوجود من مصنفات العقائد التي تعرضها في صيغة تساؤلات وتبدأ بالإلهيات مباشرة مثل الله وصفاته ودون أي تأصيل نظري مسبق[٦]. ولا تغيب نظرية الوجود عن كتب العقائد المتقدمة والمتأخرة فحسب بل تغيب أيضاً من مصنفات علم الكلام التي تعتمد على الحجج النقلية وحدها ودون البناء النظري المحكم . وبالرغم من حضور بعض مسائل نظرية العلم إلا أن موضوعات الوجود تختفي تماماً لأن « الله » لا شأن له بالعالم[٧] . وأقصى ما تظهر فيه في بداية النظر في ذات « الله » تعالى والأدلة على وجوده باستعمال دليل الحدوث[٨] .

٣ ــ **نشأة نظرية الوجود** : نشأت نظرية الوجود ابتداء من دليل الحدوث الذي تتداخل فيه نظرية العلم ونظرية الوجود بداية . فهو دليل، والأدلة جزء من نظرية العلم ، يعتمد على الحدوث والحادث هو الجسم الطبيعي . ليس لنظرية الوجود في هذه الحالة وجودٌ مستقلٌ بل هي جزء من النظر في ذات « الله » أي من صلب العلم وليس من المقدمات النظرية فالطبيعيات هنا مقدمة للإلهيات ، والطبيعة سلم إلى ما بعد الطبيعة ، فبراهين وجود « الله » كلها براهين كونية بعدية

= والتوحيد، وتصديق الوعد والوعيد، وإثبات النبوّة والإمامة، في النبي وآله : كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية وإثبات الحق ونقض قوله؛ كتاب الجملة، جملة التوحيد؛ الرد على أهل الزيغ من المشبهة؛ وكذلك الانتصار للخياط. وأيضاً أحمد بن حنبل : الرد على الزنادقة والجهمية ؛ البخاري : خلق أفعال العباد؛ إبن قتيبة : الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة : الدرامي : الرد على الجهمية؛ رد الإمام الدارمي على عثمان بن سعيد على المريسي العنيد؛ القاسمي : محاسن التأويل؛ الرازي : أساس التقديس .

(٥) وذلك مثل « التنبيه والرد » للملطي الشافعي.

(٦) وذلك مثل « اللمع » للأشعري.

(٧) وهذا هو الحال في « بحر الكلام » لأبي المعين النسفي .

(٨) الاقتصاد ص ١٥ ـ ٢١ .

استقرائية طبيعية . يتم الانتقال اذن من نظرية العلم إلى التوحيد ماراً ببرهان الحدوث كمقدمة لاثبات وجود « الله » وليس بحثاً مستقلاً في الطبيعة ، ويدخل ضمن موضوع « الذات »[9] . كان الدافع إذن على نشأة نظرية الوجود هو « بيان حدوث العالم » ولأجل ذلك تم بيان معنى العالم وأجزائه المفردة ، واثبات الأعراض والأجزاء المركبة من العالم وما يحدث ابتداء لا عن نسل وما يحدث عن تناسل من الحيوانات ، ثم بيان أقسام الأعراض واختلافها عن الأجناس واستحالة بقائها ، وتجانس الأجسام والرد على الدهرية والثنوية ثم اثبات حدوث الأعراض وابطال الظهور والكمون ، واستحالة تعري الأجسام من الألوان والأكوان والطعوم والروائح ثم اثبات الهيولى ووقوف الأرض ونهايتها ، ووقوف السموات واعدادها ، واثبات نهاية العالم وجواز فنائه ، كل ذلك قبل معرفة الصانع ونعوته الذاتية وكأن البحث في العالم والدخول فيه شرط البحث فيما وراء العالم والخروج عنه ، وكأن المتناهي في الصغر يؤدي بالضرورة إلى المتناهي في الكبر ، وكلما أوغل المتكلم في «الطبيعة» كلما رأى «الله»[10] . وعلى هذا النحو استطاع علماء الكلام إنشاء «اللاهوت الطبيعي» على نحو فيزيقي مادي خالص وكأنه علم «فيزياء» . وظهر ذلك أيضاً في علوم الحكمة وعلوم التصوف بل وفي علم أصول الفقه[11] . وتبدو أحيانا نظريتا العلم والوجود معاً كمقدمتين لدليل الحدوث . فكما ينقسم العلم إلى قديم ومحدث أي إلى علم « إلهي » وعلم انساني كذلك ينقسم الوجود الى قديم ومحدث أي إلى وجود « إلهي » ووجود طبيعي[12] . لذلك تبدو نظرية الوجود وكأن الهدف الأساسي منها هو ابطال القول بقدم العالم قبل صياغة دليل الحدوث وكأن معارضة

---

(٩) وهذا هو الحال في «اللمع» ، «الإبانة» ، «الكلام» ، «الإقتصاد» ، «الإنتصار» .

(١٠) أصول الدين ص ٦٣ - ٦٧ .

(١١) يجعل الفارابي العلم الطبيعي والعلم الإلهي علماً واحداً في تصنيف العلوم أنظر «إحصاء العلوم» تحقيق د. عثمان أمين . في موسوعات إبن سينا الثلاث «الشفاء» و«النجاة» «والاشارات والتنبيهات» تسبق الطبيعيات الإلهيات . أما علوم التصوف فإنها وحدت بين الخلق والحق ، ورأت «الله» في آيات الكون وأصبح الصوفية من كبار علماء الطبيعة كما هو الحال عند عمر الخيام . كما استطاع علم أصول الفقه ومعرفة قوانين الطبيعة من خلال مباحث الفلك ونشأة العلم التجريبي .

(١٢) التمهيد ص ٣٥ - ٣٦ ، ص ٤١ - ٤٢ ، الشامل ص ١٣ ؛ النفسي ص ٤٢ .

قدم العالم هي التي أدت بالمتكلمين إلى إثبات حدوث العالم وأن له محدثاً[١٣] .

وأول مـا يظهـر من الأبحاث هـو مبحث الأعراض دون أن تسبقـه « الأمـور العامة » أو «أحكام الموجـودات » من أجل الاستـدلال بالاعـراض على « الله » بعـد اثباتها واثبات حدوثها وحاجتها إلى محدث ، ثم اثبات الأكوان وحدوثها وعـدم خلو الأجسام منها وهي تـدخل ضمن النسب في مبحث الأعـراض ، ثم الرد عـلى شبه قدم العالم وإثبات احتياج الأجسـام الحادثـة إلى محدث ، ورفض نـظريات القـائلين بالنفس والعقل والعلة وأصحاب النجوم والتي ستتحول فيها بعـد إلى أقسام الجـوهر في مبحث الجوهر[١٤] . وقـد تظهـر أبواب في اثبـات المحدثات الدالـة على « الله » واثبات الأعراض والأكوان كنهاية لنظرية العلم دون أن تكون مستقلة عنها وكبدايـة لأصـل التوحيـد . ولا يظهـر من نظريـة الـوجـود إلا حـدث الجسم والاستـدلال عليـه ، وأن الحـوادث لا أول لها لتخصيص « الله » وحـده بصفة القـديم دون أي بناء نظري محكم لمبـاحث نظريـة خالصـة وكأن صفـات « الله » كانت مـوجهات لا شعـورية لعلم الـطبيعة مما يقضي على مـوضوع العلم الـطبيعي ويجعله مجرد إيمـان خالص أو افتراض مسبق[١٥] .

---

(١٣) بعد أن يتحدث إبن حزم عن نظريـة العلم ضد مبـطلي الحقائق وهم السـوفسطائيـة يبدأ الحـديث «عمّن قال إن العالم لم يزل وأنه لا مدبّر لـه»(الفصل جـ١ ص ٩ ـ ١٩) و«هم الـدهريـة»، والرد عـلى اعتراضـاتها الخمس ثم «إيـراد البراهـين الضروريـة على إثبـات حدث العـالم بعد أن لم يكن وتحقيق أن له محدثا لم يزل لا إله إلا هو» وهي خمسة براهين، وكذلك الرد على من قال « إن العالم لم يزل وله مع ذلك فاعل لم يزل» (ص ١٩ ـ ٢٠) أي الرد على القول بقدم العالم وقـدم الله قرآن واحد؛ وكذلك الرد على من قال: « إن للعـالم خالقـاً لم يزل وأن النفس والمكـان المطلق الـذي هو الخلاء والزمان المطلق الذي هو المدة لم تزل موجودة وأنها غـير محدثـة» (ص ٢٠ ـ ٢٧) أي رفض صفة القدم لكل ماسوى الله من زمان ومكـان ضد الحكـماء. ثم يتم الرد على من قال :«إن فـاعل العالم ومبرره أكـثر من واحد» (ص ٢٧ ـ ٣٨) لإثبـات الوحـدانية ضـد الشرك وهي أحد أوصاف الذات والتفريع على ذلك بالحـديث عن الملل خاصـة النصارى واليهـود ثم الرد عـلى إنكار النبـوة والملائكة دون فصل بين الإلهيات والسمعيات ودون فصل بين تاريخ الفرق وتاريـخ العقائـد. ص ٣٨ ـ ١٦٠، جـ٢ ص ٣ ـ ١٠٥ .

(١٤) شرح الأصول الخمسة ص ٨٧ ـ ١٢٢ .

(١٥) المحيط ص ٣٦ ـ ٧٥ ؛ ولم نستطع للأسف تحليل كتاب « المغني في أبواب التوحيد والعدل » نـظراً لفقدان الأجزاء الثلاثة الأولى وبداية الموسوعة الضخمة بالجزء الرابع عن رؤ ية « الله » تعالى .

وأحياناً تبدو نظرية الوجود كلها وكأنها مقدمة لاثبات حدوث العالم . حينئذ تصعب التفرقة بين نظرية الوجود ودليل الحدوث . وفي هذه الحالة يقال مباشرة بيان حدوث العالم وليس أقسام المعلوم . ثم يتركز الدليل كله على قسمة العالم إلى أعراض وجواهر ثم إثبات حدوث الأعراض في حين أن القسمة إلى جوهر وعرض في نظرية الوجود هي مجرد قسمة للحادث[16] . يظهر إذن مبحث الجواهر والاعراض في نظرية الوجود وكأنه جزء من مقدمات الإلٓهيات حتى أنه ليستحيل التفريق بين التوحيد والطبيعيات إذ تحلل الجواهر والأعراض تحت كتاب التوحيد[17] . وكثيراً ما يكون العالم وحدوثه مباشرة كمقدمة لموضوع « الله » وصفاته دون نظرية للعلم ودون أي عرض نظري لمباحث الوجود بالرغم من استعمال مصطلحات الجوهر والأعراض والحدوث والقدم. فالقول في حدث العالم أقرب إلى أن يكون مقدمة للذات والصفات مع استعمال مصطلحات نظرية الوجود مثل الأكوان والسكون والحركة والاجتماع والافتراق والجوهر والاعراض والحدوث والقدم[18] . ويتركز المبحث كله على دليل الحدوث واستحالة عدم القديم . يبدأ حدث العالم قبل البداية بالعقائد وكأنه مقدمة لها[19] . ولما كانت نظرية الوجود أكثر تطوراً من نظرية العلم وتحليل المعلوم بعد تحليل العلم فإن بعض المصنفات المتقدمة مقتصرة على نظرية العلم ، وتنتقل من نظرية العلم إلى دليل الحدوث كمقدمة للإلٓهيات دون ذكر لنظرية الوجود . ومبحث الجواهر والأعراض ذاته مقدمة للإلٓهيات وتحديد للأدلة على وجود « الله »[20] .

---

(16) هذا هو الحال في الأصل الثاني « في بيان حدث العالم » في أصول الدين للبغدادي . الأصول ص ٣٣ - ٦٧ وفي الشامل للجويني « القول في حدث العالم » الشامل ص ١٢٣ - ٢٨٧ وفي « نهاية الاقدام » للشهرستاني .

(17) وهو الحال في الشامل ، النهاية ، الاقتصاد .

(18) لمع الأدلة ص ٧٦ - ٨١ .

(19) الارشاد ص ١٧ - ٢٧ ؛ « ومن الاركان الخمسة عشر التي اجتمع عليها أهل السنة الركن الثاني منها وهو العلم بحدوث العالم في أقسامه من أعراضه وأقسامه » الفرق ص ٣٢٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٣١ .

(20) وهو الحال في « أصول الدين » للبغدادي . « ولا بد قبل التكلم على اثبات الصانع من التكلم على الجوهر والعرض لأن لهما مدخلية تامة في الأدلة » التحقيق التام ص ٤٢ .

ويستمر اثبات حدوث العالم كباعث أساسي لظهور مباحث الوجود حتى في علم الكلام المتأخر وكأن القول بقدم العالم ما زال خطراً قائماً . ويستحيل الفصل بين نظرية الوجود وبداية الإلهيات في موضوع « القول في حدث العالم ووجود الصانع جل جلاله»[٢١] . وقد تكون وسيلة اثبات حدوث العالم وأن له محدثاً مجرد حجج نقلية دون العقلية مما يدل على أن دليل الحدوث تعبير عن إيمان مسبق أكثر منه تأصيلاً عقلياً[٢٢] . وأحياناً تكون نظرية الوجود جزءاً من مادة المعلوم وتنفصل عن المقدمات النظرية وتكون نظرية العلم وحدها هي المقدمة . أما نظرية الوجود فتدخل جزءاً من بناء العلم[٢٣] . وقد دخلت الطبيعيات في كتب التوحيد المتأخرة في المقدمات أي في أبحاث القدم والحدوث ، الجوهر والعرض ، الكم والكيف في نظرية الوجود . وفي المقدمات المتأخرة حدث فصل بين نظرية الوجود والإلهيات في حين أنه في المقدمات المبكرة لا يوجد مثل هذا الفصل بل تؤدي نظرية الجوهر والأعراض تلقائياً بطريقة مباشرة إلى إثبات الصانع القديم الواحد الباقي الذي لا شبيه له .

ثم يظهر موضوع ثالث مع مبحثي الأعراض والجواهر وهو أحكام العقل الثلاثة الوجوب والامكان والاستحالة لتنصهر فيها نظريتا العلم والوجود معاً . فهي أحكام عقلية وبالتالي تتعلق بنظرية العلم وفي نفس الوقت تتعلق بالموجودات وبالتالي ترتبط أيضاً بنظرية الوجود . وأخذت الموضوعات الثلاثة عنواناً آخر هو « الأمور العامة » أو « أحكام الموجودات » . فإذا اعتبر دليل الحدوث أقرب إلى

---

(٢١) كتاب البداية ص ٣٤ - ٣٨ .

(٢٢) الاعتقاد ص ٦ - ١٢ « باب ذكر بعض ما يستدل به على حدوث العالم وأن محدثه ومدبره إله واحد قديم لا شريك له ولا شبيه » نهاية الاقدام ص ٦ - ١٢ ، ص ٥ - ٥٣ « في حدث العالم وبيان استحالة حوادث لا أول لها واستحالة وجود أجسام لا تتناهى مكاناً » .

(٢٣) هذا هو الحال في « طوالع الأنوار » للبيضاوي . فنظرية العلم في المقدمة ، والممكنات الكتاب الأول ، والإلهيات الكتاب الثاني ، والنبوة الكتاب الثالث. وكذلك الحال في «المقاصد» للتفتازاني فنظرية العلم في المقصد الأول ، ونظرية الوجود « الأمور العامة » في المقصد الثاني ، والأعراض في الثالث ، والجواهر في الرابع أما مادة العلم نفسها ففي المقصدين الخامس « الإلهيات » والسادس « السمعيات » .

الأحكام الثلاثة فهو أدخل في نظرية الوجود وإذا أعتبر أنه بداية لموضوع الذات فهو أدخل في الإلهيات . وقد ظهرت أحكام العقل الثلاثة من قبل في نظرية العلم قبل أن تتحول إلى « الأمور العامة » في نظرية الوجود . وقبل بناء العلم النهائي يتم تفصيل نظرية الوجود كله تحت « القول في حدث العالم » في مباحث متفرقة دون بناء نظري محكم[٢٤] . فمسألة حدوث العالم هي نقطة الالتقاء بين نظرية الوجود ومبحث الذات الهدف منها إثبات وجود « الله » أول صفة للذات وهنا يدخل تحليل مقدمات الدليل عن حدوث الأعراض[٢٥] . ولا تتعدى في بعض المصنفات المتأخرة إلى اثبات الواجب بذاته وكأن الفكر الطبيعي لا وجود له[٢٦] . تكتمل عناصر نظرية الوجود إذن بظهور « أحكام الموجودات » وفيها يجتمع الركن الأول من أركان نظرية العلم « أحكام النظر » . وفي هذا العنصر تنفصل مباحث أحكام الموجودات مثل الوجود والحال ، وتقسيم الموجودات إلى واجب لذاته وممكن لذاته أو إلى القديم والمحدث ، وتفصيل القول في الجوهر والعرض والأجسام قبل الدخول في ركني الإلهيات والسمعيات[٢٧] . وأحياناً تسمى « أحكام المعلومات » بعد المباحث المتعلقة بالعلم والنظر أي نظرية العلم . وتضم نفس موضوعات الوجود والعدم والحال والماهية والاحكام العقلية الثلاثة ثم مباحث الأعراض من حركة وسكون كما تظهر الكيفيات الحسية دون تفصيل في مبحث الجواهر[٢٨] . وفي بعض كتب العقائد تظل أحياناً نظرية الوجود قائمة قبل أن تغيب نهائياً وكأنها حديث عن العالم بأجزائه من محدث وأعيان وأعراض وجواهر مركبة أو بسيطة[٢٩] . وهو أيضاً الغالب على الكتب المدرسية من ذكر لموضوعات متناثرة لا

---

(٢٤) الشامل ص١٢٣ـ ٢٨٧ ؛ وتدخل الموضوعات المتناثرة في محاور سبعة : القول في الشيء وحقيقته (العدم والجوهر والعرض) ؛ القول في اثبات العرض، القول في اثبات حدث الاعراض، استحالة تعري الجواهر عن الأعراض، استحالة حوادث لا أول لها ، معنى الحادث ، اثبات العلم بالصانع ، وذلك دون بناء نظري محكم .

(٢٥) المسائل الخمسون ص ٣٣٢ - ٣٤٠ .

(٢٦) غاية المرام ص ٧ - ٢٣ .

(٢٧) المحصل ص ٣٢ - ١٠٦ .

(٢٨) معالم أصول الدين ص ٩ - ٢١ .

(٢٩) العقائد النسفية ص ٤٢ - ٥٢ .

بناء فيها قبل تقسيم المعلوم إلى وجود وعدم وحال ، والجوهر والعرض قبل الانتقال إلى أدلة إثبات الصانع[٣٠] .

لم تكن الطبيعيات في نظرية الوجود من المسائل المختلف عليها نظرياً في نشأة الحضارة أو حتى من اختلاف الأصول أو عملياً في الفروع[٣١] . ولا تظهر في الموسوعات الكلامية أو في كتب العقائد الاعتزالية فالأصول الخمسة خالية من الطبيعيات[٣٢] . بل تظهر في ذكر آراء ممثلي الفرق في شتى المسائل المتفرقة وليست غالباً في كتب العقائد[٣٣] . وقد تظهر في آخر كتب العقائد كتذييل[٣٤] . كما تظهر إذا ما عرض التوحيد على أنه موضوعات لا فرق ويكون الاختلاف في « الدقيق » أو « اللطائف » . فما وضعه المعتزلة في النهاية وضعه الأشاعرة في البداية ، وما جعله المعتزلة نتيجة جعله الأشاعرة مقدمة ، فالعلم عند المعتزلة نتيجة للتوحيد وعند الأشاعرة مقدمة له[٣٥] .

---

(٣٠) التحقيق التام ص ٢١ ـ ٤٨ .

(٣١) الأصول النظرية مثل التوحيد والعدل والفروع العملية مثل الخلاف في الوصية، وتجهيز جيش اسامة ، وموت الرسول ، وموضع دفنه ، والامامة ، وقتال مانعي الزكاة ، وتنصيص أبي بكر على عمر ، والشورى ، وحرب الجمل ، وحرب صفين ، والخلاف بين علي والخوارج .

(٣٢) مثل «المغني » ، «المحيط» ، « شرح الأصول الخمسة» .

(٣٣) مثل ، «مقالات الاسلاميين» ، «الفَرق بين الفِرق» ، «الملل والنحل»، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» .

(٣٤) نهاية الاقدام ص ٥٠٥ ـ ٥١١ .

(٣٥) يتضح هذا في الجزء الثاني من « مقالات الاسلاميين » ، مقالات جـ ٢ ، ص ٤ ، وكذلك في الفصل في الجزء الخامس « المعاني التي يسميها علماء الكلام اللطائف » ويتحدث ابن حزم عن السحر والمعجزات والجن ووسوسة الشياطين وفعلها في الصروع وفي الطبائع ونبوة النساء والرؤيا وأفضل الخلق والفقر والغنى والاسم والمسمى ، وقضايا النجوم ، والبقاء والفناء ، والمعدوم والحال ، والحركة والسكون ، والتولد والمداخلة والمجاورة ، والسكون والاستحالة والطفرة والانسان والجواهر والاعراض ، وما الجسم وما النفس وإبطال الجزء الذي لا يتجزأ وفي أن العرض لا يبقى وقتين ، ويعود إلى بعض موضوعات العلم مثل المعارف وتكافؤ الأدلة وينتهي بالألوان . الفصل جـ ٥، ص ٧١ ـ ٢١١ . وهناك فِرَقٌ يغلب عليها الطبيعيات أكثر من الأخرى مثل =

٤ ـ بناء نظرية الوجود : وفي مرحلة اكتمال العلم في القرنين السادس والسابع بلغت نظرية الوجود تقريباً نصف العلم . وتضم ثلاثة أبحاث « الأمور العامة » ، « الأعراض » ، « الجواهر » طبقاً لقسمة الوجود إلى الواجب ، والعرض ، والجوهر .

فالأمور العامة أقرب إلى المبادىء العقلية العامة التي يتوحد فيها العقل والوجود والتي يصعب فيها التفرقة بين الميتافيزيقا والانطولوجيا لأنها تتعرض للواجب أو لواجب الوجود وهو مبدأ ميتافيزيقي وواقع انطولوجي في آن واحد . وهي بمثابة مقدمات عامة لمفاهيم الوجود الأساسية مثل الوجود والعدم والماهية ، والوجوب والامكان والاستحالة ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول . البعض منها يقوم بذاته مثل الماهية والبعض الآخر عن طريق الثنائية المتقابلة مثل الوجود والعدم ، الوحدة والكثرة ، العلة والمعلول ، والبعض منها ثلاثي مثل الوجوب والامكان والاستحالة . ويمكن اعتبار الوجود والعدم قسمة ثلاثية إذا ادخلنا بينهما الواسطة وهو الحال . البعض منها أقرب إلى الفلسفة وربما إلى الفلسفة « الإلٓهية » في التصوف مثل الوجود والعدم ، والماهية ، والوجوب والامكان والاستحالة ، والوحدة والكثرة والبعض الآخر أقرب إلى أصول الفقه مثل العلة والمعلول . وقد تكون الأمور العامة ما لا يختص بقسم من أقسام الوجود بل منطق الوجود كله الذي يشمل الواجب والعرض والجوهر[٣٦] ،أي أحكام الوجود الصوري أو العقل الوجودي وكأن « الأمور العامة » تقوم على افتراض ميتافيزيقي مسبق هو الهوية بين العقل والوجود ، بين الفكر والواقع ، بين الروح والطبيعة .

ولكن يظل قلب نظرية الوجود هما مبحثا الأعراض والجواهر يمثلان لب المقدمات النظرية كلها وثلاثة أرباعها كمّاً إذ لا تمثل الأمور العامة إلا ربعها[٣٧]. وقد

= المعتزلة والكرامية والرافضة وأبعدها عنها الخوارج والمرجئة . تغلب الموضوعات الطبيعية كما هو الحال عند الأشاعرة . فموضوعات الطفرة والكمون والتولد والحركة والزمان كلها موضوعات تطرق إليها الفكر الديني العقلي عند المعتزلة أساساً .

(٣٦) المواقف ص ٤١ .

(٣٧) المواقف ، المقدمات النظرية كلها ص ٤١ ـ ٢٦٥ (٢٢٤ ص) ، الأمور العامة ص ٤١ ـ ٩٥ =

كانت من قبل لا تمثل إلا أقل من ثلثها[٣٨] . كما أن مبحث الأعراض وحده لب نظرية الوجود ويمثل نصف مباحث الوجود كلها ومرة ونصف مبحث الجوهر[٣٩] . والأعراض في صيغة الجمع في حين أنّ الجوهر في صيغة المفرد وكأن هناك أعراضاً كثيرة وجوهراً واحداً في مبحث الأعراض والجواهر . وأحياناً الجوهر والأعراض وكأن الجواهر العديدة المنقسمة وغير المنقسمة ذاتها من نفس وعقل تنتهي كلها إلى جوهر واحد. والبداية بالأعراض قبل الجوهر وكأن الحدوث والتغير والانتقال فيهما سابق على الجواهر ومؤدٍّ إليها مما يدل على البداية بالظواهر قبل الحقائق ، واكتشاف العالم الطبيعي كما يبدو قبل اكتشاف الأشياء ذاتها . فالانسان يعرف الظواهر قبل الأشياء ولا يدرك الأشياء إلا من خلال مظاهرها . وتبدو القسمة الرباعية مع الثلاثية في أبحاث الأعراض (الكم ، والكيف ، والنسبة ، والاضافة) ، وفي أبحاث الكيف (الحسية ، والنفسية ، والكمية ، والاستعدادية) ، وفي أبحاث الجوهر (الجسم ، عوارض الأجسام ، النفس ، العقل) وفي أبحاث الجسم (الأفلاك ، الكواكب ، العناصر ، المركبات) . ولما كان الغالب على الأعراض الكم والكيف والنسبة والاضافة وأطولها الكيف وأهمها الكيفيات المحسوسة والنفسانية والكمية والاستعدادية فقد ظهر الانسان قاصداً نحو العالم . ولما كان الغالب على مبحث الجواهر أي عالم الأجسام النفسي والعقل فقد ظهر العالم قاصداً نحو الانسان . وبالتالي يكون مبحث الأعراض والجواهر هو مبحث « الانسان في العالم » أو مبحث الاحالة المتبادلة بين الانسان والعالم . وإذا كانت « الأمور العامة » هي بحث في « الواجب » طبقاً لقسمة الوجود إلى واجب وعرض وجوهر كانت نظرية الوجود مركزة أساساً على الانسان بين الواجب والعالم

= (٥٤ ص) ، مبحث الاعراض ص ٩٦ ـ ١٨١ (٨٥ ص) ، مبحث الجواهر ص ١٨٢ ـ ٢٦٥ (٨٣ ص) .

(٣٨) طوالع الأنوار ؛ الأمور الكلية ص ٣٥ ـ ٧١ (٣٦ ص) ؛ الأعراض ص ٧١ ـ ١٠٩ (٣٨ ص) ؛ الجواهر ص ١٠٩ ـ ١٥١ (٤٢ ص) وهي نفس القسمة المتبعة في « المقاصد » وفي « تهذيب الكلام » .

(٣٩) هذا هو الحال في « المواقف » للايجي .

أي الانسان بين عالمين ، بـين المثال والـواقع أو بـين الفكر والـوجود أو بـين الروح والطبيعة . وبالتالي يظهر بناء نظريـة الوجـود الثلاثي في « ميتـافيزيقـا الوجـود » أو « الأمور العامة » (الواجب) ، وفي « فينومينولوجيا الـوجود » أي ظـواهر الـو (الاعراض) وفي أنطولوجيا الوجود أي الأجسام (الجوهر) .

فما يسمى المباحث الطبيعية في علم أصول الدين هـو في حقيقة الأمـر نظريـة الوجود وبوجه خاص مبحثا الأعـراض والجواهـر ، الغرض منهـا دراسة المعلوم أي الموجود أو المعدوم إذا كان المعدوم شيئاً وليس الغرض منه المبحث الطبيعي من أجل تأسيس علوم الطبيعة . قد يأتي المبحث الطبيعي على نحو غير مباشر بدراسة المعلوم والمبحث في الـوجود والتجـرد نهائياً عن المبحث الـديني في « الله » كـذات وصفـات وأفعال التي تتلو المقدمات النظريـة كلها وليست سـابقة عليهـا وكأن تـأسيس العلم الطبيعي ممكن بالاستقلال عن الفكر الديني ثم يأتي الموضوع الأول في الفكر الديني تالياً عليه . وإن شئنا يكون المبحث الطبيعي هـو المدخـل للفكر الإلهي . وقـد بلغ مبحثا الأعراض والجواهر حداً من الاستقلال لدرجة أنه أمكن التأليف فيهما تأليفـاً مستقـلاً سواء من القـدماء أو من المحـدثين[٤٠] . ولكننـا أسقطنـاها من وجـداننـا المعـاصر فغـاب العلم الطبيعي وضـاع منا الاحسـاس بالعـالم ولم يبق إلا الـواجب الشخصي ، وأصبح الانسان معلقاً في الهواء بلا أرض تحت قدميه يناجي الـواجب الشخصي ويستمد منه العون والبقاء ففقد التوازن حتى أمكن تعليقـه بعد ذلـك في غياهب السجون قدماه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل وهو يصرخ من آلام التعذيب وما من مجيب !

وفي نظرية الوجود المتأخرة يشار صراحة إلى المباحث الفلسفيـة ، وتوضـع لها الأقسام الخاصة وتُذكر إمّا بـالتأييـد أو المعارضـة ، ويقوم الجـدل بين علم أصـول الـدين وعلوم الحكمـة ، بـين المتكلمـين والفـلاسفـة . وتتشعب التقسيمـات بـين المتكلمين والحكماء . وتسود تقسيمات الفلسفة فهي أشد تنظيراً وأوسـع أفقاً وأكـثر

---

(٤٠) مثـلاً مبحث « الجواهـر والاعراض » لابن متـويه من القـدماء و « التحقيق التـام » للظواهـري من المحدثين ص ٤٤ .

اتفاقاً مع العقل . فإذا كان علم الكلام العقلي قد قُضي عليه مبكراً فإن الفلسفة قد أتت في النهاية وأعطت الكلام ما فقده من قبل من تعقيل وتنظير ولو أنه كان التعقيل الفلسفي بما فيه من اشراقيات وخيال[٤١] . لم تتوقف الحركة العقلية إذن في القرن الخامس بعد القضاء على الحركة الاعتزالية . ظهر العقل متخفياً في علم الكلام السني بعد القرن الخامس في هذه المقدمات النظرية ، نظرية العلم وخاصة نظرية الوجود . ولم تزد نظرية الوجود في المصنفات المتأخرة شيئاً من مباحث الوجود المتقدمة إلا التفريعات والحجج الواردة من الفلسفة عن الوجود والماهية والممكن والجوهر والعرض وكأنها أبحاث لذاتها ، وفقدت دلالاتها الأولى في الفكر الديني وأصبحت أبحاثاً منطقية وجودية خالصة[٤٢] . وقد يكون سبب الاتصال بالمباحث الفلسفية أن الفلسفة ذاتها أصبحت تمثل خطراً على العقيدة . فبعد أن راجت الفلسفة في الحضارة تحول علم الكلام إلى هذا الخصم الداخلي بعد أن أقام معركته من قبل مع الخصوم الخارجية أو البدع الأولى . فبقدر ما استفاد منها نقدها ، وقام معها بعملية الاحتواء[٤٣] ، وبادخال المادة الفلسفية دخلت الثقافات الأجنبية التي كانت الفلسفة قد تمثلتها من قبل خاصة الفلسفة اليونانية وعلى وجه أخص الطبيعيات منها فيقتبس منها في الشروح . وكثيراً ما تؤخذ كلية كما هو الحال في المنطق ، وتحتوي داخل المقدمات اما في العلم أو في الوجود أو في النفس الناطقة[٤٤] . كان هناك وعي تام بأن هذه التحليلات الجديدة مستمدة من علم

---

(٤١) يصدر الرازي مباحث الجوهر والعرض بتقسيم الممكنات على رأي الحكماء قبل تقسيم المحدثات على رأي المتكلمين ؛ المحصل ص ٥٧ ، ص ٦٣ ؛ حاشية الاسفرايني ص ١٣ - ١٤ ؛ مطالع الأنوار ص ٧ ؛ ويشار أساساً إلى ابن سينا ثم يتلوه الفارابي . ولا يشار إلى الكندي أو ابن رشد وباقي فلاسفة الأندلس . كما يشار أحياناً إلى الأطباء والرياضيين والعلماء والمترجمين المسلمين .

(٤٢) المحصل ص ١٠٠ ؛ شرح التفتازاني ص ١٤ .

(٤٣) أنظر « التراث والتجديد » العلوم الاسلامية الأربعة ٢ - علوم الحكمة ص ١٧٩ - ١٨٢ وأيضاً التطبيقات العملية لظاهرة الاحتواء في بحثينا « الفارابي شارحا أرسطو » ، « ابن رشد شارحا أرسطو » في « دراسات اسلامية » ص ١٤٥ - ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٧٢ .

(٤٤) يبدأ ذلك من أوائل القرن الخامس . إذ لا يظهر بصورته المبدأية إلا عند الباقلاني في « التمهيد » « الانصاف » ثم يظهر بصورة كاملة لأول مرة في « أصول الدين » للبغدادي .

آخر هو علوم الحكمة . فهي تقسيمات لعلم آخر . فتتجاور تقسيمات المتكلمين مع تقسيمات الحكماء . وما سماه المتكلمون المحدث سماه الحكماء الممكن . والقديم عند المتكلمين هو الواجب عند الحكماء ، والجسم عند الحكماء هو الجوهر عند المتكلمين . كما يستعمل المتكلمون « الجواهر المفارقة » لاثبات بعض الموضوعات السمعية . وبالتالي نشأت عملية « تشكل كاذب » داخلي بين علم أصول الدين وعلوم الحكمة . وبالرغم من اعتماد علم الكلام المتأخر على أقوال الحكماء إلا أن الاختلاف بين العلمين واضح ، والاختلاف بينهما أكثر من الاتفاق طبقاً لرصد المتكلمين .

والآن ما هي دلالة هذه المقدمات النظرية الخالصة ؟ هل هو تفكير ديني مجرد وبالتالي استطاع الفكر الديني أن يصوغ نفسه صياغة عقلية مجردة ؟ هل هو قسمة عقلية مجردة لها آثار على الفكر الديني ؟[٤٥] . هل هي قسمة عقلية مجردة ، بحث في الميتافيزيقا والفينومينولوجيا والانطولوجيا العامة ؟ هل هو فكر ديني مقنع لا بد من القضاء عليه كما يفعل الفقهاء والعودة إلى علم الكلام الأشعري أو إلى عقائد السلف القائمة على النصوص الخام ؟ توحي الألفاظ المستعملة بأنها كلها تتبع قسمة عقلية واحدة تعبر عن تجربة دينية واحدة يُعبر عنها مرة بلغة الوجود مثل الواجب والممكن والمستحيل ، ومرة بلغة المنطق مثل الاثبات والنفي ، ومرة ثالثة بلغة الميتافيزيقا مثل الواحد والكثير ومرة رابعة بلغة الفلسفة مثل الوجود والماهية ومرة خامسة بلغة الطبيعة مثل الجوهر والعرض ومرة سادسة بلغة اللاهوت مثل القديم والحادث وهي القسمة المباشرة التي تعبر عن التجربة الدينية ، نقطة البداية والنهاية . والحقيقة أن كل هذه التقسيمات تشير إلى بُعد واحد وهو البعد الرأسي الذي يستقطب فيه الوجود بين طرفين موجب وسالب ، وجود وعدم ، واجب وممكن ، واحد وكثير ، ماهية وجوهر ، قديم وحادث ، جوهر وعرض . فنظرية الوجود التي قدمها علم الكلام كمقدمة لمادته هي في الحقيقة خادمة للإلٰهيات أو

---

(٤٥) أنظر « ٥ ـ الطهارة الدينية والقسمة العقلية » في « نماذج من الفلسفة المسيحية » ص ٢٣٣ ـ ٢٣٩ .

تعبير عن الإلهيات في صورة عقلية خالصة(٤٦) . ولكن ما مدى صدق نظرية العلم أو نظرية الوجود على المعطيات الدينية الأخرى ؟ هل تصلح هذه النظرية أو تملك أن تكون أساساً نظرياً لمجموع العقائد في كل دين ؟ يبدو أن المتكلمين يبحثون في الممكنات على « قانون الاسلام » . فهل استطاعت هذه المقدمات النظرية بالفعل أن تكون مبادىء أوّلانية لكل عقيدة؟(٤٧) . هل بلغت من الشمول بحيث يمكن أن تكون علماً أوّلانياً لكل معطيات دينية؟(٤٨) .

٥ ـ اختفاء نظرية الوجود : ثم انحل البناء في عصر الشروح والملخصات وتحولت نظرية الوجود إلى مجرد تجميع لمواد القدماء عن الصفة والموصوف والعلة والقوة الجسمانية والتضايف والوحدة والكثرة والأعراض والجواهر والقدم والحدوث دون احكام نظري . وانفصل المنطق عن الطبيعة وأصبح الانتقال من الوجوب إلى الحدوث مجرد استدلال صوري(٤٩) . ثم عادت مصنفات العقائد كما بدأت بلا مقدمات نظرية(٥٠) ، وأنه يجب على المؤمن أن يؤمن بخمسين عقيدة أو عشرين صفة وأصبح عد العقائد أو الصفات بديلاً عن الأحكام النظري(٥١) . وغابت مسائل الطبيعيات من العقائد كما وصفها أهل السنة إلا من العلم بحدوث العالم في أقسامه من أعراض وأجسام كمقدمات لاثبات الصانع وصفاته وكأن العلم الطبيعي ليس جزءاً أساسياً في العلم الديني وكأن عقلية التوحيد لا تبدو في تصور الطبيعة . ويبدو ذلك في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة (خمسة عشر أصلاً) ليس من بينها الطبيعيات(٥٢) . ولا تظهر الطبيعيات في كتب التوحيد المتأخرة كموضوع

---

(٤٦) المقاصد ص ١٥٠ ص ١٦٣ .

(٤٧) المقاصد ص ١٧ ـ ٢٠ .

(٤٨) أنظر بحثنا . Hermeneutics as Axiomatics, in Religious Dialogue and Revolution,

(٤٩) الدر النضيد ص ١٣٩ ـ ١٤٣ .

(٥٠) مثلاً الصابوني : عقيدة السلف أصحاب الحديث ؛ الصنعاني : تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد ؛ المقريزي : تجريد التوحيد ؛ محمد بن عبد الوهاب : عقيدة الفرقة الناجية ؛ مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد ؛ الشوكاني : التحف في مذهب السلف ؛ العقيدة الطحاوية ؛ العقائد العضدية ؛ الجواهر الكلامية .

(٥١) كفاية العوام ؛ عقيدة العوام ؛ قلائد الخرائد .

(٥٢) هذا هو موقف « أصول الدين » للبغدادي .

مستقل مثل الإلهيات والسمعيات(٥٣) . ولا تدخل في المسائل الكبرى لعلم التوحيد كالتوحيد والعدل والوعد والوعيد والسمع والعقل(٥٤) . وقد ظل هذا الاعتقاد سائراً إلى الآن(٥٥) . ولكن قد تختفي نظرية الوجود بدافع اصلاحي ويوجه النص

---

(٥٣) لم يزد شرح القاري على الفقه الأكبر لأبي حنيفة إلا مسألتين الحر والمعدوم ! شرح القاري ص ٦١ - ٦٤ .

(٥٤) الملل جـ ١ ص ١٠ - ١٢ ، ص ٦١ - ٦٤ .

(٥٥) وقد وقعت في هذا الخطأ الشائع مدة من الزمان منذ دراستي الجامعية الأولى حتى الصياغة الأولى لهذا المصنف . فقد حدثت لي التجربة الآتية : لم أكن أظن وأنا طالب بالجامعة ما بين١٩٥٢- ١٩٥٦ أن الطبيعيات جزء من علم التوحيد ما دام موضوعه كما علمت خطأ في ذلك الوقت وطبقاً للتعريف التقليدي الدفاع عن الدين أو اثبات وجود « الله » . ولذلك فلا مكان للطبيعيات . فإذا ما ذكرت بعض الآراء الطبيعية للمعتزلة وعلى رأسهم النظام لم أفهم سياقها وظننت أن عالم التوحيد قد حاد عن الطريق وخرج عن الموضوع ، وضاعت الأمة ! وكنت أتساءل : وما صلة نظريات الجوهر الفرد والكمون والحركة والطفرة والمماسة والمجاورة والتأليف والاعتماد والتوليد بعلم التوحيد ؟ وفي الدراسات « الثانوية » والكتب المدرسية المقررة في علم الكلام عادة ما تُسقط الطبيعيات من الحساب اتفاقاً مع الاعتقاد الخطأ السابق من أنها خارجة عن علم التوحيد الذي يتركز أساساً على الله ، والطبيعة ليست هي الله خاصة وأن عدداً من ألفاظها كان شبيهاً بالفلسفة ، وكانت الفلسفة كما نأخذ امتداداً للفلسفة اليونانية . ولما كان التوحيد علماً اسلامياً استقطع هذا الجزء اليوناني منه بحق وجدارة . فلما حدث لي وعي بالحضارة ، وانفتح ما اغلق عليّ وأنا طالب نتيجة لعقم مناهج التعليم الجامعي القائمة على التكرار والحفظ رأيت الطبيعيات وقد طغت على الجزء الثاني من « مقالات الاسلاميين » للأشعري ، وفي نفس الوقت بقت في كتب العقائد القديمة في آخر علم التوحيد بعد الامامة . وبدأت الفصل الأول عن « الذات » ، والثاني عن « الصفات » كما أخذت وورثت عما هو متناقل بين المعاصرين من جيلي . ولكن بعد البدء في التحليل والاستقصاء عرفت أن الطبيعيات تأتي في أول علم الكلام بعد نظرية العلم في نظرية الوجود والتي بها دليل الحدوث والإمكان كمقدمة لاثبات الذات . وأمام دهشتي من طول الوقوع في الخطأ الشائع علمت أن الطبيعيات سابقة على الإلهيات في علم التوحيد كما هو الحال في علوم الحكمة . وتكون نظرية العلم في التوحيد بمثابة المنطق في الفلسفة ، ويكون العلمان ، التوحيد والفلسفة قد كشفا نفس البناء وهو من المنطق إلى الطبيعيات إلى الإلهيات . وقد كنت أتساءل من قبل : أين البراهين على وجود « الله » في التوحيد ؟ ولماذا لم تدخل في مسألة الذات والصفات ؟ وأخيراً وجدت أنها ضمن نظرية الوجود إجابة على سؤال ماذا أعرف؟ بعد الاجابة على سؤال كيف أعرف ؟ في نظرية العلم . وقد وصلت إلى ذلك وعمري واحد وأربعون عاماً وأنا بالولايات المتحدة الامريكية كما عرفت أبعاد الشعور الثلاثة في علم أصول الفقه وعمري واحد وعشرون عاماً في فرنسا . أنظر رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse .

مباشرة الى الواقع دون ما حاجة الى عرض نظري[٥٦] . ومع ذلك تظل احكام العقل الثلاثة هي كل ما تبقى من نظرية الوجود في العقائد المتأخرة وفي بعض الحركات الاصلاحية . فلم تبق إلا أحد موضوعات خمسة من الأمور العامة أو ميتافيزيقا الوجود. وقد حاولت بعض مصنفات العقائد الاصلاحية العودة إلى بعض المقدمات النظرية فلم تجد إلا مبحثاً واحداً من الأمور العامة أو الكلية وهي الأحكام الثلاثة وحولته من أبحاث في الوجوب والامكان والاستحالة يتحد فيها العقل بالوجود إلى احكام العقل الثلاثة دون وجود وبالتالي سقطت مباحث القدم والحدوث وانتهت مباحث الأعراض والجواهر ، وكأن احكام العقل الثلاثة تكفي كمقدمة نظرية للعقائد ، وتطبيقها في الله وفي الرسول ، ما يجب اعتقاده في الله وما يستحيل وما يجوز ، وما يجب اعتقاده في الرسول وما يستحيل وما يجوز[٥٧] . تقلصت نظرية الوجود كلها الى احكام العقل الثلاثة التي تجمع بين العلم والوجود كما كان الحال في البداية[٥٨] . بل تسقط معظم الحركات الاصلاحية المعاصرة في رسائل التوحيد الطبيعيات وقد تسقط الأحكام الثلاثة كلية ويكفي عرض العقائد في الله وفي الرسول ما يجب منها وما يستحيل وما يجوز[٥٩] . وعندما يبدأ العلم بأحكام العقل الثلاثة تأتي نظرية الوجود مباشرة دون العلم كنظرية صورية خالصة يجتمع فيها العلم والوجود معاً في نسق صوري . فأحكام العقل الثلاثة الواجب والممكن والمستحيل هي في نفس الوقت وصف للوجود . فالعقل والوجود واحد . ومن ثم يختفي هذا الفصل التقليدي التعسفي بين المعرفةوالوجود . وقد يتداخل دليل القدم والحدوث مع دليل الوجوب والامكان ثم يسقط في النهاية ويتحول دليل الوجوب والامكان الى احكام العقل الثلاثة وتصبح المقولات ثلاثة بدل اثنتين . وقد تكون

---

(٥٦) مثل « كتاب التوحيد » لمحمد عبد الوهاب .

(٥٧) السنوسية ، رسالة الباجوري ، جوهرة التوحيد ، الخريدة البهية ، وسيلة العبيد ، الحصون الحميدية .

(٥٨) كانت البداية في « العقيدة النظامية » للجويني .

(٥٩) وهذا هو الحال في « العقيدة التوحيدية » .

الأحكام الثلاثة لا هي أحكام وجود ولا هي أحكام عقل بل تصبح مجرد أحكام ايمان . فالايمان بالله على ثلاثة أقسام واجب ومستحيل وجائز كما أن الاحكام الشرعية خمسة وقواعد الاسلام خمسة واركان الايمان ستة وكأن مجرد العدد يكفي كاطار نظري(٦٠) أو السؤال عن الايمان المباشر أو الجمع بين عقائد الايمان واحكام العقل(٦١) . وقد يفيض الشراح المتأخرون في شرح أحكام العقل بشرح كلمة « العقل » واعتباره سراً روحانياً تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية ، عمله في القلب، ونوره في الدماغ، وابتداؤه من حيث نفخ الروح في الجنين وأوله كمال البلوغ أي تفسير العقل على أنه شيء وضياع التأسيس النظري لوظيفة العقل فيصبح عقلاً نورانياً اشراقياً بلا موضوع وبلا وجود(٦٢) .

ثانياً : ميتافيزيقا الوجود أو « الأمور العامة »، (الواجب) :

تشير ميتافيزيقا الوجود الى الأمور العامة أو الأحكام الكلية أو « الممكنات » التي يتحد فيها العقل والوجود دون تشخيص عقلي في « واجب الوجود » كما هو الحال عند الحكماء . أي أن نظرية الوجود تبدأ بأكثر المبادىء عقلية وشمولاً وفي نفس الوقت تمحي التفرقة بين المبدأ والواقع ، بين الفكر والوجود . وهي ممكنات لأنها ما زالت في نطاق العقل والأحكام الصورية الخالصة دون اثبات شيء بالفعل وكأنها تصف عمل العقل في الوجود أو عمل العقل في نفسه أو رؤية الوجود لذاته(٦٣) .

وتشمل ميتافيزيقا الوجود أو « الأمور العامة » خمسة مباحث : الوجود والعدم ، والماهية ، والوجوب والامكان والاستحالة (الامتناع) ، والوحدة

(٦٠) وهذا هو الحال في « جامع زبد العقائد » .

(٦١) وذلك مثل « مسائل أبي الليث » .

(٦٢) «في بيان ما اعتبره الشرع منافياً للايمان ومبطلاً له والعياذ بالله تعالى، الجوهرة ص ٦ - ٧ ؛ «في بيان حقيقة الايمان وحقيقة الاسلام» الجزيرة ص ٥ - ٦ وذلك كنقطة انتقال من العلوم إلى أحكام العقل الثلاثة .

(٦٣) المقاصد ، الأمور العامة ص ٩٦ - ٩٧ . وقد حدث هذا البناء في القرنين السابع والثامن عند البيضاوي والايجي .

والكثـرة ، والعلة والمعلول . لُبُّها مبحث الـوجود والعـدم ، وأقلها مبحث الـوحـدة والكثـرة . وتتسـاوى الأبحـاث الثـلاثـة الأخـرى كمّاً (٦٤) . ولأول مـرة في القـرن السادس تظهر بناءات عقلية جديدة مستمدة من الحكماء مثل الوحدة والكثرة والعلة والمعلول ، وهي موضوعات ميتافيزيقية خالصة تجمـع بين الفكـر والوجـود وتساعـد على تطوير علم التوحيـد من علم معرفي إلى علم وجـودي صوري بـالرغم من أنها أبنية عقلية تطهرية تسمح بظهور الفكر الديني التقليـدي فالعلة هـو «الله» والمعلول هو العالم ، والـوحدة هـو « الله » والكثرة هـو العالم . ويبـدو أن اسقاط هـذا البعد الأول من نظرية الـوجود إنمـا كان نتيجـة لتشخيص الفكر الـديني الذي استمـر في الأشعرية السائدة والتي أصبحت حتى الآن مقياساً للقراءة والاختيار.

١ ــ **الوجود والعدم** : لما كانت نظرية العلم اجابـة على سؤال كيف أعلم ؟ فإن نظرية الوجود اجابة على سؤال ماذا أعلم ؟ وإذا كان السؤال الأول قـد أجاب عن سؤال مـا العلم ؟ فإن السؤال الثـاني يجيب عن سؤال مـا المعلوم ؟ مـوضـوع العلم إذن هو المعلوم . وعلى هـذا النحو تتحـول نظريـة العلم إلى نظريـة الوجـود وكأن نظرية العلم لم تكن إلا تحليلاً للذات العارفة في حين أن نظرية الوجـود تحليل لموضوع المعرفة ولأقسام المعلومات . وفي علم الكلام المتأخر يصبح لنظرية الـوجود الصدارة المطلقـة على نـظرية العلم فينتقـل المنطق كله من نـظرية العلم إلى نـظرية الوجود . فبعد أن كان منطقاً نـظرياً أصبـح منطقـاً وجوديـاً ويأخـذ ذلك كله اسم « الممكنـات » فـالممكن هـو الجـامـع للمنـطق النـظري وللمنـطق الـوجـودي عـلى السـواء(٦٥) . المعلومات هي المـوجـودات ، وتحليـل المـوجـودات يـأتي عن طـريق

(٦٤) المـواقف ص ٤١ ـ ٩٥ ؛ الـوجـود والعـدم ص ٤٣ ـ ٥٩ (١٥ ص) ؛ المـاهيـة ص ٥٩ ـ ٦٨ (٩ ص) ؛ الوجوب والامكان والامتناع ص ٦٨ ـ ٧٨ (١٠ ص) ؛ الوحدة والكثـرة ص ٧٨ ـ ٨٤ (٦ ص) ؛ العلة والمعلول ص ٨٥ ـ ٩٥ (١٠ ص) ؛ طـوالـع الأنـوار ص ٣٥ ـ ٧١ ؛ تقسيم المعلومات ص ٣٥ ـ ٣٧ (٢ ص) ؛ الوجود والعدم ص ٣٧ ـ ٤٧ (١٠ ص) ؛ الماهية ص ٤٧ ـ ٥٢ (٥ ص) ؛ الـوجـوب والامكـان والقـدم والحـدوث ص ٥٢ ـ ٦٢ (١٠ ص) ؛ الوحدة والكثرة ص ٦٢ ـ ٦٨ (٦ ص) ؛ العلة والمعلول ص ٦٨ ـ ٧١ (٣ ص) .

(٦٥) في « المحصل » للرازي في حين تمثل « أحكام النظر » الركن الأول و « أحكام الموجودات » الركن الثاني من مجموع أركان أربعة يدور حولها العلم كله إلا أن الركن الثاني عن « أحكام =

الأحكام العقلية فالعقل وسيلة لتحليل الوجود .

أ ـ قسمة المعلوم . ويأتي تحليل المعلومات عن طريق القسمة عند المتكلمين والحكماء على السواء . فالمعلوم عند المتكلمين اما موجود أو معدوم لأن المعلوم أعم من الموجود لأنه قد يكون موجوداً أو معدوماً . وينقسم الموجود إلى قديم وحادث ثم ينقسم الحادث إلى جسم وجوهر وعرض . وهنا تبدو القسمة العقلية تعبيراً عن ايمان ديني خالص لأن مقولة « القديم » استباق لموضوع الصفات وافتراض ديني ايماني مسبق إذ لا يوجد إلا الحادث كوجود عيني أما القديم فهو افتراض ذهني خالص يأتي عن طريق القلب أو التضاد بالاقتران أو التضايف . فالموجود القديم كالعلم القديم كلاهما مطلوب اثباته وبالتالي فلا يدخلان في نظرية العلم أو في نظرية الوجود كبناء أوّلاني نظري خالص ـ فكما تدخلت الإلهيات في نظرية العلم في قسمته إلى قديم وحادث تدخلت أيضاً في نظرية الوجود في قسمته إلى قديم وحادث ، وهي القسمة المبدأية التي لا مبرر حسي لها بل تعبر عن مجرد الايمان الخالص وتتخلى عن التعقيل من أجل تأسيس العلم وتأصيل الوجود . قسمة الوجود إلى قديم وحادث افتراض مسبق ، وهو المطلوب اثباته أي أنه استدراك على المطلوب ، واعتباره مسلمة اما قسمة الحادث إلى جسم وجوهر وعرض فإنها تقوم على مفهوم التحيز أي الوجود في المكان فالحادث اما أن يكون متحيزاً وهو الجوهر أو حالاً في متحيز وهو العرض أو لا هذا ولا ذاك . فالجوهر والأعراض هما ببساطة الشيء وصفاته اما الجسم فهي مقولة ثالثة لافساح المجال للأفلاك والأجرام

= الموجودات » يمثل ضعف الركن الأول عن أحكام النظر » المحصل ص ٧٢ وفي «معالم أصول الدين » للرازي أيضا تمثل نظرية الوجود ضعف نظرية العلم . وفي « طوالع الأنوار » للبيضاوي تشمل نظرية الوجود الكتاب الأول ، والإلهيات الكتاب الثاني ، والنبوة الكتاب الثالث في حين أن نظرية العلم ليس إلا مقدمة صغيرة ، تشمل نظرية الوجود ثلث الكتاب كله ، وفي « المقاصد » للتفتازاني تمثل نظرية العلم حوالي سدس الكتاب كله ونظرية الوجود ثلثيه أي أربعة أضعافه . تعرض نظرية العلم في المقصد الأول ونظرية الوجود في المقاصد الثاني والثالث والرابع . المقاصد ص ١٥٠ ـ ١٧٦ الانصاف ص ١٦ ؛ المطالع ص ٣٦ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ؛ المقاصد ص ٢٧٣ ـ ٢٨١ .

والكواكب طبقاً لعلم الفلك القديم . فإذا كانت القسمة الأولى الجوهر والأعـراض لهـا ما يبـررها في علوم الـطبيعة في الصفـات الأولى والصفات الثـانية فـإن القسمة الثالثة وهو الجسم حكم مسبق مفروض على الطبيعـة لخدمـة غرض ديني خـالص. كما أن الذي منع القسم الثالث من الوجود الذي لا يكون متحيزاً أو حالاً في متحيز هي عاطفة التأليـه ورفض مشاركة الموجودات العينية في صفات الموجود القديم وهو « الله » . قسمـة المتكلمين إذن في بـدايتها علميـة وفي مقصدهـا ليست علمية لأنها تدخل المطلوب اثباته كأحد فرعي القسمة وهو الموجود القديم كما أنها تجعل القسمة الثالثة فارغة لاعـطاء الفرصـة للذهن لنفيها خشيـة الشرك وكـأن وظيفة العقـل هو افساح المجال لتأسيس العقيدة[٦٦] . هذا بالاضافة إلى أن إعمـال العقل عـلى هذا النحـو لا يخدم العقـل ولا الايمان لأنـه يتنازل عن حق العقـل في التنـظير الخـالص ويضعف حقائق الايمان وبالتالي يضعف التنزيه . فلا العقل يقبل ولا الايمان يرضى وضـع « الله » مع الأجسـام والجواهـر والأعراض ، وأن يفسـح لـه مكـان لـمزاحمـة الأشيـاء وأن يكون طـرفاً في قسمـة عقلية محـدودة . فهذا مضاد للعقل ولعـواطف التنزيه عـلى السواء . وإن أقصى درجـات التنزيـه وضع « الله » في « قمـة الكون » وفي أعلى رتبه كملك للملوك وهي احـدى صور التشبيـه[٦٧] . فالتفكـير في « الله » وادخاله في قسمة الوجود هو قلب للوجود عن طريق التشـابه أو التضـاد فيكون الله موجوداً وليس جسماً أو جوهراً أو عرضـاً . وينتهي الأمر إلى أنـه لا يمكن التفكير في

---

(٦٦) لذلك منعه بعض القدماء لسببين : الأول لأنه لو وجد القديم لشاركه الباري في الوصف ولابدّ أن يمايزه بغيره فيلزم التركيب وهو محال ، والثاني لأن هذا أقصى صفات الباري فإن من سأل عنـه لا يجـاب إلا به فلو شـاركه فيـه غيره لشـاركه في الحقيقـة فيلزم حينئذ امـا قـدم الحـادث أو حـدوث القديم .

(٦٧) قسم القدماء الموجودات على أربعة أقسام :

أ ــ قسم غني عن المحل والمخصص وهو ذات مولانا عز وجل .

ب ــ وقسم يحتاج إلى المحل والمخصص وهي صفات الحوادث التي تسمى الأعراض .

جـ ــ وقسم يحتاج إلى المخصص دون المحل وهو ذات الحوادث وتسمى الأجسام .

د ــ وقسم مـوجود في المحـل وغني عن المخصص وهي صفات مـولانا جـل وعلا ! جـامع زبـد العقائد ص ٨ .

« الله » إلا كـطرف للعالم فيكون في مقابـل الحادث لا في محـل ولا يحتاج إلى محـل بفعل عواطف التأليه .

والمعلوم عند الحكماء أيضاً هو الموجود . ولكن ينقسم الموجود إلى وجود ذهني يظل جزءاً من نظرية المعرفة وإلى وجود عيني خارجي بناء على القسمة المشهورة بين عـالم الأذهان وعـالم الأعيان . وينقسم المـوجـود العيني إلى واجب وممكن وممتنـع أو ضـروري وجائـز ومستحيل وهنـا تبدأ القسمـة في الاضطراب . فـالمـوجـود العيني الـواجب لا وجود لـه لأن واجب الوجـود ليس عينياً بـل ذهني خالص . والـوجود الممتنع أو المستحيل ليس وجوداً عينياً فالمستحيل لا وجـود له ولكنـه افتراض عقـلي ثان . ويبقى القسم الثالث الوحيد الممكن وهـو الوجـود العيني الممكن . ويبدو أن الايمان عاود الظهور من ثنايا العقـل ففرض الـوجود الـواجب أو الضروري وجعله وجوداً عينياً لافساح المجال لاثبات « الله » ثم انقلب عن طريق الضـد الى الـوجود الممتنع المستحيل دون أن يستلزم بذلك وجوداً عينياً لـه إلا إذا كان « الشيـطان » في الأذهان فهو القادر على فعل المستحيلات والبـداية كلهـا في كلتا الحـالتين الـواجب والممتنع ، الضروري والمستحيل هو الممكن أو الجائز فهو الوسط الذي له وجود بين طرفين لا وجود لهما إلا افتراضاً بفعل الايمان في العقل وزحزحته إياه عن وظيفته في العلم لافساح المجال للمعلوم الايمـاني الخالص الـذي استعصى على العقـل وشرع بفرض نفسه عليه قبل أن يتأسس فيه . تصح القسمة عندما يعمل العقل في الحس ويـدرك الوجـود العيني الممكن ثم تفسد عنـدما يتـدخل الايمـان فيدفـع العقـل إلى طـرفين فيـوقعه في افتـراضين لا عقليـين ولا وجـوديـين وهمـا الـواجب والممتنـع أو الضروري والمستحيل ، فإذا كشفت هذه القسمة البداية بالـوجود العيني أي العـالم الحسي فإنها تكشف أيضاً على أن النهايـة أي الواجب أو الضـروري هو مجـرد يقين إيماني أو أخلاقي أو معنوي أو مجرد افتراض معرفي وليس وجوداً حسياً مرئياً . نشأ عن طريق التضايف أو التضمن أو الالتزام كعلاقة الابن بالأب أو الكبير بالصغير . واليقـين الديني أو الأخـلاقي أو المعرفي مـطلب حقيقي . ولكن الاشكال هـو هـل يتحقق هـذا المطلب من داخله فيكـون فارغـاً بلا مضمـون ، ذاتاً بـلا موضـوع ، متقوقعاً على النفس ، نرجسية ، وانعكاساً مجرداً أم أن يكون لـه مضمون من العـالم

وفي العالم كبناء للشعور الفردي وكنظام اجتماعي وكقانون لحركة التاريخ ؟.

أما قسمة الممكن إلى جوهر وعرض فعلى الأقل لم تفترض قسماً ثالثاً وهو الجسم لإفساح المجال لعالم الأفلاك القريب من « الله » والمشارك له في الصفات ! ولكن يعود الايمان ليقصي العقل وذلك بقسمة الجوهر إلى قديم وهو ما لا أول لوجوده ومحدث وهو ما له أول . وفيها تظهر الغاية من هذه التقسيمات المتتالية في نظرية الوجود والتي تبدو عقلية طبيعية يخرج كل منها من الآخر خروجاً طبيعياً منطقياً وهو اثبات وجود « الله » أو استنباطه من تحليل عقلي وجودي مسبق .

أما قسمة الممكن إلى جوهر وعرض فهي قسمة طبيعية تدل على وجود عنصري الثبات والتغير في الطبيعة ، الجوهر هو الثابت والعرض هو المتغير ثم تتحول هذه القسمة إلى تصور عام للانسان والمجتمع والتاريخ وهو التصور القائم على القلب والاطراف أو المركز والمحيط والتي ارتكز عليها الفكر الديني وهو في أعلى درجات التنزيه(٦٨) . بل ويمكن أن يقال إن قسمة الجسم إلى جوهر وأعراض قسمة عقلية افتراضية لا تأتي من طبيعة الجسم فالجسم جسم ، يتغير لونه وشكله، ثقله وخفته ، حرارته وبرودته ، وضعه ومكانه ، هيئته وملامحه ، خشونته ونعومته . لماذا افتراض أن هذه التغيرات أعراض تقوم على جوهر هو الثابت والحامل ؟ إن افتراض الجوهر نابع من ايمان عقلي بوجود الثابت وراء المتغير ، وأن هناك مركزاً ثابتاً لكل المتغيرات تدور حوله كما تدور نقط المحيط حول مركز الدائرة . وهو تصور عقلي خالص أو صورة فنية تعبر عن نوع معين من العلاقات الاجتماعية أو الطبيعية من بين عدد آخر من التصورات الممكنة مثل أن الجسم يتغير شكله ولونه ووضعه وهيئته طبقاً للاستعمال أو المجال أي أن الجسم يدخل في علاقة مع الانسان كطرف مقابل له ومن ثم فلا مكان للطبيعيات المجردة بل الطبيعيات للاستعمال . وقد حاول القدماء إيجاد هذه العلاقة مع الطبيعيات ولكنهم

(٦٨) المواقف ص ٤٢ ـ ٤٣ ؛ طوالع الأنوار ص ٣٦ ؛ المقاصد ص ١٥٠ ـ ١٥٣ ؛ التحقيق التام ص ٢٢ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

جعلوها رأسية لاثبات وجود « الله » في حين أن علاقات الطبيعيات بالانسان علاقة أفقية تجعل الانسان والطبيعيات معاً جزءاً من التاريخ وبعداً للزمان. لما كانت علاقة الطبيعيات « بالله » بعد الخلود، من ثم لزم الجوهر الثابت فهو المؤشر لوجود « الله » الثابت في مقابل الاعراض المتغيرة فهي المؤشر لوجود العالم المتغير.

وقد انحاز المتكلمون المتأخرون لموقف الحكماء بالرغم من انكارهم الوجود الذهني. فقسموا الوجود العيني إلى إمّا ما لا أول له وهو القديم أو ما له أول وهو الحادث لافساح المجال لنظرية الخلق واثبات قدم « الله ». وقسموا الحادث إلى متحيز وهو الجوهر أي الجسم الحسي والحال في المتحيز وهو العرض. ومنعوا قسمة ثالثة لوجود لا متحيز ولا حالٍّ في متحيز حتى لا يشارك « الله » أحداً في وجوده، فهذه القسمة تصدق على « الله » وحده. قبل المتكلمون قسمة الحكماء في الجزء الذي يسمح لهم بادخال مضمون الايمان في القسمة العقلية على نحو متسرع دون انتظار للتأصيل النظري له على نحو عقلي طبيعي خالص.

ب ـ هل المعدوم معلوم أو موجود؟: إذا كان المعلوم اما موجوداً أو معدوماً وكان الموجود كما بان عند المتكلمين والحكماء معلوماً فهل المعدوم معلوم مثل الموجود؟ المعدوم معلوم وتدل عليه نظريات المتكلمين واختلاف الحكماء فيه. فالشيء قد يكون معلوماً من وجه مجهولاً من وجه آخر سواء كان ذلك في الطبيعيات أم في الإلهيات. وبالتالي يكون الانسان عالماً جاهلاً في نفس الوقت وقد يكون علمه وجهله في نفس المحل أو في محلين مختلفين. وان اختلاف مناهج التحليل وتضارب وجهات النظر إنما يدل على أن العلم الانساني تعبير عن مواقف مختلفة اكثر منه علماً محايداً. فالعلم منظور اجتماعي بل علاقات قوى، وجدل بين الموجود والمعدوم، بين المعلوم والمجهول[٦٩]. قد يكون الموجود أو المعدوم كلاهما معلوماً من وجه ومجهولاً من وجه آخر اما من حيث الاجمال والتفصيل فيكون الاجمال علماً بوجه وغياب التفصيل جهلاً بوجه آخر. والأولى معرفة الشيء إجمالاً

(٦٩) يرى النجار وأصحابه أنه يجوز أن تعلم المحدثات من وجهين في حال واحد. وأما القديم فلن يجوز أن يعرفه من يجهله بوجه من الوجوه مقالات جـ ٢، ص ٧١ ـ ٧٢.

وتفصيلاً خاصة في مجتمعات يغلب على فكرها القومي العموميات دون التفصيلات مثل المجتمعات النامية أو في مجتمعات أخرى يغلب على فكرها الجزئيات دون الكليات كما هو الحال في المجتمعات الصناعية المتقدمة . واما من حيث مستوى التحليل ومنظور البحث وبالتالي يكون نفس الشيء موضوعاً لعدة علوم . الانسان موضوع لعلم وظائف الاعضاء من حيث هو وظائف بيولوجية وموضوع لعلم النفس من حيث هو حياة ، وموضوع لعلم الاجتماع من حيث هو في علاقة مع الآخرين ، وموضوع لعلم الاقتصاد من حيث هو كائن منتج ، وموضوع لعلم السياسة من حيث هو كائن منظم . وانكار أن يكون الشيء موضوعاً لعلمين حرصٌ على العلم « الإلّهي » أن يشاركه علم آخر في نفس الموضوع، في حين أن نظرية العلم هي فقط نظرية في العلم الانساني بما في ذلك الوحي بعد التنزيل ، ومن ثم فهو تخوف لا أساس له[٧٠] . ولا يعني ذلك أن يكون المعلوم بالضرورة شيئاً . فقد يكون شيئاً وقد يكون معنى الشيء أو صفته أو دلالته . ولكن لا بد من حضور الشيء الدال أو استنباط معاني جديدة من دلالات أشياء موجودة بالفعل حتى يكون للمعلوم وجود وبالتالي يصح البحث في الأمور الذهنية وفي الموجودات في الخارج على حد سواء . والنزاع في المعدوم الممكن لأن الممتنع منفي اتفاقاً[٧١] . وهو معلوم عند جمهور المتكلمين بمعنى أن انتفاءه معلوم[٧٢] . وهو ثلاثة أقسام : الأول ما كان موجوداً فعدم ومعرفته ممكنة مثل الآثار المندثرة والحوادث الماضية . والثاني ما لم يوجد وليس مما يوجد وهو الممتنع وهذا لا يمكن معرفته لأنه ليس معلوماً أي موضوعاً للعلم . والثالث ما لم يوجد وسيوجد وهذا يمكن معرفته ، وهو ما نعنيه اليوم بالدراسات « المستقبلية » . معرفة المعدوم إذن ممكنة لأن عدم الوجود معلوم بالبديهة ولأنه مقدور أي يمكن احضاره ولأن المعارف الممكنة أشمل من المعارف الواقعة ولأن معرفة النفي والسلب ممكنة بل ان الموضوع كله من

(٧٠) المحصل ص ٧١ ؛ غاية المرام ص ١٩ ـ ٢٠ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ؛ أصول الدين ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٧١) التحقيق التام ص ٣٠ .

(٧٢) ذهب بعض «النابتة» من سجستان ونسب خطأ إلى أبي إسحق أن المعدوم ليس بمعلوم .

« الممكنات » وإلا وقعنا في الغياهب والأساطير والخرافات واتبعنا في ذلك سبل السحر والشعوذة والالهام[٧٣] .

فإذا كان المعدوم معلوماً فهل هو موجود ؟ وإذا كان موجوداً فهل هو شيء ؟ وإذا كان شيئاً فماذا يعني الشيء ؟ والحقيقة أن المعلوم قد يكون موجوداً وقد يكون معدوماً وقد يكون شيئاً وقد يكون لا شيئاً . فالمعلوم أعم من الموجود ومن الشيء . إذ يمكن العلم بالصِّفْر في الحساب وبالنقطة في الهندسة وبالعدم في الفلسفة . كلها موضوعات صورية إذ لا يعني الوجود بالضرورة الوجود الحسي بل قد يعني الوجود الصوري أو الوجود الشعوري . كما يمكن العلم بالمستحيلات والمتناقضات والمتضادات وهي من المعدومات . فهناك منطق للمستحيل ومنطق للتضاد ومنطق للتناقض . فإذا قيل العدم موجود فقد يعني الوجود هنا السلب أو الحرمان أو النقص أو الغياب أو الفراغ أو العدم الخالص . وهي كلها أنماط وجود . هناك ميتافيزيقا للعدم ، وحساب للمجهول في الرياضيات وحساب الصفر.. واعتبار المعدوم موجوداً وموضوعاً للعلم يجعل العلم صورياً خالصاً كما يجعله مطلقاً لا حدود له (المعتزلة) في حين جعل المعدوم عدماً لا يكون موضوعاً للعلم هو ايثار للعلم الموضوعي الذي لا يتناول إلا الموجود (الأشاعرة)[٧٤] . ويبدو أن المزايدة في الدين تؤدي إلى الوقوع في المادية في حين أن الفكر النزيه يؤدي إلى الصورية ويكون أكثر تنزيهاً من الفكر الديني الصريح . والحقيقة أن موضوع العلم الذي يتفاوت بين المعدوم والموجود هو أساساً موضوع شعوري . ففي الشعور وجود وعدم ، حضور وغياب ، مَلاءٌ وفراغ ، عطاء وأخذ ، إرسال واستقبال ، ايجاب وسلب . ويقارب موقف الحكماء موقف المعتزلة في اثبات المعدوم لاعتمادهم عليه في قسمة الموجود إلى تحقق في الخارج وهو الموجود الخارجي والتحقق الذهني وهو الموجود الذهني . والموجود الخارجي ان كان لا يقبل العدم لذاته فهو الواجب لذاته وإن كان يقبله فهو الممكن لذاته فتعريف الموجود لذاته قائم على الضد وهو امتناع

(٧٣) الشامل ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٧٤) التمهيد ص ٣٤ ؛ الارشاد ص ١٣ ؛ المحصل ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ معالم أصول الدين ص ١٠ ؛ غاية المرام ص ٩ ؛ المقاصد ص ١٣ ؛ شرح المقاصد ص ١٥ .

العدم لذاته، وتعريف الممكن لذاته قائم على الشبيه وهو امكان العدم لذاته مما يدل على استحالة الحديث عن الوجود لذاته دون قلبه من الضد أي العدم لذاته . فالوجود لذاته أو واجب الوجود من المفاهيم المتضادة، منشؤها العدم والتغير والامكان أي العالم الحسي المتغير . ويرتبط اثبات المعدوم أو نفيه بمسألة تأثير الفاعل المختار ومسألة جعل الماهيات بناء على أن الجعل هو التأثير(٧٥) . ولا يعني ذلك بالضرورة وجود إرادة خارجية مشخصة بل يمكن أن يكون من إرادة الانسان وفعله واختياره الذي يوجد من عدم ويعدم بعد ايجاد . ويصعب الحديث عن المعدوم هل تتساوى ذواته وهل تتمايز لأنه نقص محض لا وجود فيه بل هو سلب وجود ، ولا تمايز في السلب(٧٦) .

وقد تكون علاقة الموجود بالمعدوم علاقة لغوية منطقية صرفة يُعبر عنها بلغة الاثبات والنفي . فالمعلوم اما أن يكون متحققاً في الخارج وهو الوجود أو غير المتحقق في الخارج وهو المعدوم . المعلوم متحقق في الخارج وليس مجرد وجود ذهني وإلا كان معدوماً . فالمعرفة والوجود متطابقان . وتدخل في هذا التطابق نظرية الحكم . ومن ثم يكون الوجود هو الثابت والمعدوم هو المنفي فالثابت أعم من الموجود والمنفي أعم من المعدوم . يدخل الوجود والعدم إذن في نظرية أعم هي نظرية الاثبات والنفي . وبالتالي ترجع نظرية الوجود إلى نظرية الحكم وهي التي تجمع بين نظرية الوجود ونظرية المعرفة(٧٧) . وتتفاوت درجات المعدوم من العدم المنطقي المطلق وهو التناقض إلى العدم الناشيء عن غياب القدرة ولكن يمكن أن يوجد أن إن وجدت . وقد ينشأ العدم من الزمان كالأشياء التي وُجدت في الماضي ثم لم تعد توجد في الحاضر أو من الأشياء التي لا توجد في الحاضر ، ولكنها قد توجد في المستقبل . فالعدم يحيل إلى القدرة والزمان أي إلى البعد الشعوري في

---

(٧٥) التحقيق التام ص ٢٩ - ٣٠ ؛ الشامل ص ١٢٦ - ١٣٤ ؛ المقاصد ص ١٧١ .

(٧٦) المقاصد ص ١٧٢ - ١٧٤ ، المواقف ص ٥٣ .

(٧٧) المعتزلة هم الذين يضيفون نظرية الحكم على نظرية الوجود ويجعلون الحكم بالاثبات والنفي أهم من قسمة الوجود إلى موجود ومعدوم . الانصاف ص ١٥ - ١٦ ؛ التمهيد ص ٤٠ ؛ جامع زبد العقائد ص ٨ ؛ المحصل ص ٣٢ ؛ معالم أصول الدين ص ٩ ؛ طوالع الأنوار ص ٣٥ - ٣٦ .

العدم باعتباره أحد عناصر الموقف الانساني في علاقاته بالأشياء وبالآخرين[٧٨] .
أما أحكام العدم فيقع فيها الاختلاف طبقاً لتصور العدم فعند البعض المعدوم ليس بثابت وعند البعض الآخر المعدوم ثابت . في الحكم الأول الذات هي الماهية إذا عدمت الذات عدمت الماهية . وفي الحكم الثاني الذات زائدة على الماهية إذاعدمت الذات بقيت الماهية[٧٩] . الحكم الأول أقرب إلى نفي العدم كشيء والثاني أقرب إلى إثباته . أما الأحكام المنطقية الأخرى فهي ذاتها أحكام الوجود ولكن بصيغة النفي مثل : عدم المعلول يؤدي إلى عدم العلة ، وعدم المشروط يؤدي إلى عدم الشرط ، وعدم الضد يؤدي إلى صحة الضد الآخر[٨٠] . والحقيقة أنه لا يمكن ادخال الوجود والعدم كمادة للحكم في قضايا محلية دون تجارب شعورية للوجود والعدم . حينئذ لا تكون أحكام الوجود والعدم أحكاماً عقلية صورية بل أحكام شعورية . ولا يكون صدق الحكم مطابقة عالم الأذهان مع عالم الأعيان بل مطابقة الحكم مع مضمون الشعور . الوجود والعدم تجربتان شعوريتان وليسا موضوعين صوريين أو منطقيين[٨١] . وقد يكون الخلاف بين الانكار والاثبات لا يصدق على نفس المعنى فالانكار يتصور العدم سلب ايجاب ، والاثبات يتصوره عدم ملكه . فقد يكون النزاع في نهاية الأمر لفظياً[٨٢] .

جـ ــ هل المعدوم شيء ؟ : عند المعتزلة المعدوم الممكن شيء لأن الماهية غير الوجود . ومنعه الأشاعرة لأن الوجود عندهم نفس الحقيقة . وعند الحكماء الشيئية تساوق الوجود فالمعدوم في الذهن معدوم في الخارج فهم أقرب إلى الأشاعرة[٩٣] . ويعتمد إثبات العدم على سببين . الأول أن المعدوم متميز وأن كل

---

(٧٨) التمهيد ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٧٩) المحصل ص ٣٤ ـ ٣٨ ؛ طوالع الأنوار ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ معالم أصول الدين ص ١١ ـ ١٢ ؛ المواقف ص ٥٣ ـ ٥٦ .

(٨٠) المقاصد ص ١٧٧ ـ ١٨١ .

(٨١) المقاصد ص ١٨١ ـ ١٨٥ .

(٨٢) « نحن نجعل العدم للوجود سلب إيجاب ، وعندهم عدم ملكة » المواقف ص ٥٧ ؛ «الحال سلب ، ليس موجوداً ولا عدماً» المواقف ص ٥٩ .

(٨٣) منع أبو الحسين البصري وأبو الهذيل العلاف والفوطي والأصم من المعتزلة كون المعدوم شيئاً، الملل =

متميز ثابت . والحقيقة أن العدم نفي كالممتنعات والخيالات وليس ثابتاً . والثاني أن المعدوم متصف بالامكان وأنه صفة ثبوتية . والحقيقة أن الامكان ليس ثبوتاً بل مجرد امكانية وجود . كما يعتمد على حجة دينية خالصة مؤادها أن المعدوم في الأزل ليس « الله » وهو غيره، والغيران شيئان! والحقيقة أن ذلك كله من عمل الخيال فلا يوجد أزل كواقع وشيء ولا يوجد « إله » مغاير له فهذه كلها افتراضات مسبقة وتمرينات عقلية لتأصيل العواطف الدينية التي تعبر عن نقص في التعقيل وعن ضعف في الوعي الاجتماعي وعن تصور في رؤية الواقع . ويعتمد نفي العدم على حجج صورية منطقية مثل أن الثبوت أمر زائد على الذات والعدم ليس كذلك أو أن العدم أقل تناهٍ من الوجود أو أن العدم قبل الوجود صفة نفي أو أن العدم صفة نفي أو أن العدم زوال للتمايز ، وكلها تنزع العدم من مجرد موقف شعوري إلى إثبات وجود موضوعي له. فالاثبات والنفي حكمان منطقيان ، والعدم غياب وجود وليس أقل منه تناه . الاثبات أعم من الوجود والنفي أعم من العدم . في الاثبات والنفي صدق وكذب واتساق وتناقض لا وجود لهما في الوجود والعدم . لذلك انتهى جمهور المتكلمين إلى أن القول بثبوت المعدوم ينفي المقدورية أي قدرة الفعل على التغيير وعجزه أمام العدم وافتراض العدم أساس الوجود ، والوجود قائماً عليه . لو كان العدم ثابتاً لانتفت القدرة التي تريد تحويل العدم إلى وجود ولكان العدم واجباً لا يمكن تغييره وتحويله إلى وجود ممكن أو امكان وجود . ولو ثبت المعدوم لكان أعم من النفي وأقوى منه وبالتالي استحال رفضه أو تحويله إلى وجود أي إلى أساس . المعدوم ليس شيئاً وإلّا خشي منه الناس وأثبتوه عجزاً عن مقاومته ، وسلموا به ضعفاً وخوراً ، يأساً واشمئزازاً ، كرهاً للنفس وللآخرين ،

= جـ ١ ، ص ٤٣ ؛ ص ١١٠ ، ص ١٢٦ ؛ انظر أيضاً رد الآمدي بالتفصيل على المعتزلة في انتقادهم كون المعدوم شيئاً ورد الخطأ إلى الحكماء، غاية المرام ص ٢٧٤ ـ ٢٨٢ ؛ وانظر حجج المعتزلة في الفصل جـ ٥ ، ص ١١٤ ـ ١١٨ ؛ الشامل ص ١٣٦ ؛ شرح القاري ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ؛ وأيضاً الموضوع كله في المواقف ص ٥٣ ـ ٥٧ ؛ الارشاد ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ الفرق ص ١٧٨ ـ ١٨٠ ؛ الفصل جـ ٥ ص ١١٣ ـ ١١٤ ؛ نهاية الأقدام ص ١٥٠ ـ ١٦٣ ؛ الملل جـ ١ ، ص ١١٤ ، ص ١٢١ ؛ اعتقادات الفرق ص ٤٤ .

وبصاقاً على العالم . لا يمكن أن تكون للمعدومات الممكنة قبل وجودها ذوات وأعيان وحقائق فهذا إيهام للناس بوجود المعدومات كحقائق وايهام بأن الموجود هو غياب الوجود ونقص الهمة وضعف الفعل وتخاذل الناس على تحقيق الوجود . الذوات في العدم معراة عن الصفات ولا توصف بصفات الأجناس لأنها ليست وجوداً مثل الحياة أو الجواهر أو الأعراض[٨٤] .

إن خطورة إثبات المعدوم هو جعل العدم على نفس درجة الوجود كالوجود وبالتالي إعطاء العدم وجوداً يصعب نفيه وهو نوع من التشاؤم والاعتراف بالأمر الواقع والاستسلام للهزائم كما هو الحال في « الوعي الأوربي » المعاصر وفي فلسفات القدماء عند المانوية خاصة بل وفي الديانة المسيحية بفعل الخطيئة الأولى[٨٥] . العدم ليس وجوداً بل هو مجرد غياب أو نقص . الأصل هو الوجود والعدم طارىء عليه . الوجود حضور والعدم غياب . الوجود مَلاءٌ والعدم خلاء . الوجود عطاء والعدم غثيان . الوجود انفتاح والعدم انغلاق . الوجود حياة والعدم موت . ومن ثم يستحيل وجود العدم . « وإنما بقاء الباطل في غيبة الحق عنه »[٨٦] . وإذا كان الدافع عند قدماء الأشاعرة لنفي كون العدم شيئاً هو وجود « الله » القادر على كل شيء ، على نفي الوجود والعدم على السواء فلا الوجود ولا العدم ثابتان، فإن

---

(٨٤) هذا هو رأي أبي اسحق بن عياش .

(٨٥) يعرض الايجي أربعة مذاهب في اثبات العدم (قارنا اياه بالواسطة أي بالحال) :

أ ــ العدم ليس بثابت ولا واسطة وهو مذهب أهل الحق (الأشاعرة) .

ب ــ المعدوم ليس بثابت والواسطة حق وهو مذهب القاضي وامام الحرمين .

جـ ــ المعدوم ثابت ولا واسطة وهو مذهب اكثر المعتزلة .

د ــ المعدوم ثابت والحال حق وهو قول بعض المعتزلة .

أنظر أيضاً المواقف ص ٤١ ـ ٥٩ ، ص ٥٧ ـ ٥٩ ؛ المقاصد ص ١٥٣ ـ ١٥٨ ، ص ١٦٠ ـ ١٦٣ ؛ شرح المقاصد ص ١٥٢ ؛ التحقيق التام ص ٢١ ـ ٢٢ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ الشامل ص ١٣٠ ـ ١٣٥ ، ص ١٧٧ . ولا يعني انحيازنا للاعتزال أننا نقبل مواقف المعتزلة كلها عن عمى وتعصب فمذهب الأشاعرة هنا في نفي المعدوم أكثر قدرة على تحريك الشعوب من اثبات المعدوم وأكثر تفاؤلاً وأملاً بصرف النظر عن دوافع الأشاعرة . تأييدنا للمعتزلة للتيار العام وللحركة التاريخية وليس للتفصيلات الجزئية في هذه النظرية أو تلك .

(٨٦) هذا قول مشهور للامام محمد عبده .

الدافع لدينا هـو القدرة المتـولدة عن نفي كـون العدم شيئـاً على تحـريك الشعـوب والثقة بالنفس وتغيير الواقع ورفض الاستسلام وما يبعثه في الروح من تفاؤ ل وأمـل وما يثيره في النفس من خيال على الاتيان بالمستحيلات . إن إثبات كون العدم شيئاً يحول الغياب إلى حضور ، والعدم إلى وجود ، والاستثناء إلى قانون . المعدوم ما لا تحقق لـه في نفسه وهـو المنفي أو له تحقق وهـو الثابت فـالعدم أخـص من النفي . العـدم مجرد نفي ولا يـوجد نفي لـه تحقق يكون عـدمـاً ثـابتـاً . الاحتـلال غيـاب للاستقلال ، والطغيان غياب للحرية ، والرأسمـالية غيـاب للاشتـراكية ، وسلبيـة الجماهير غيـاب لنشاطهـا ، والتخلف غياب للتقـدم ، والتجزئـة غياب للوحـدة ، والتغريب غياب للهوية ، فالوجود استقلال وحرية واشتراكية وتقدم ووحدة وهـوية وتجنيد للجماهير. وما دون ذلك مجرد طارىء عرض حـادث أي مجرد عـدم . هناك وجود ولا وجود. والعدم هو الـلاوجود أي أنـه ليس وجود عـدم بل عـدم وجود . العدم طارىء نتيجة لغياب الوجود . الأصل هو الوجود وغيابه عدم . العدم غياب وجود وليس وجود غياب.

ولكن هل المعدوم شيء ؟ وماذا يعني الشيء ؟ لقد استطرد القدماء في وجود العدم ومعرفة نوعية وجوده صورياً منـطقياً أو مـادياً حسيـاً[٨٧] . والحقيقة أن هـذه

(٨٧) اختلف القدماء في معنى الشيء وانتهـوا إلى مذاهب ستة كـل منها يعتمـد على الـرأي أو الشعر أو القرآن !

أ ــ الشيء هـو الموجـود والمعـدوم منتـف « ﴿ خلقتك من قبل ولم تـك شيئاً ﴾ وهـو مـذهب الأشاعرة (أهل الحق) .

ب ــ الشيء هو المعلوم ﴿ إن زلـزلة السـاعـة شيء عظيم ﴾ ، ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ﴾ وهو مـوقف المعتزلـة بوجـه عام والبصـرية والجـاحظ بوجـه خاص . ولكن مـاذا عن المستحيل اليس معلوماً ؟ .

جـ ــ الشيء هـو القديم ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ، وهـو مذهب النـاشىء وأبي العياش . ويطلق على الحـادث مجازاً وهـذا وقوع في الشيئيـة في تصور الله وسلب العـالم صفته المـادية ، تطهر من العالم ومادية في الله .

د ــ الشيء هـو الحادث « ألا كـل شيء مـاخـلا الله باطـل » ، وهو مـوقف الجهمية . وهـو رد اعتبار للعالم . ولكنه حكم اضافة ونسبة يفسح المجال لاثبات « الله » كقديم .

هـ ــ الشيء هو الجسم ﴿ ولا تقـولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ﴾ وهو موقف هشام وهو اقتراب =

اطالة في موضوع فلسفي صرف دون أن تكون له دلالة مباشرة في موضوع الوجود والعدم الذي هو أحد موضوعات « الأمور العامة » في نظرية الوجود . قد يوجد الشيء صورياً وقد يوجد مادياً وقد يوجد شعورياً . فالمعدوم إن لم يكن له وجود صوري أو مادي فله على الأقل وجود شعوري وهو الشعور بالعدم وما يولده في النفس من غثيان وقرف في موقف اجتماعي وسياسي محدد ، في حالة ضعف وعجز أو هزيمة واستسلام . وهو موقف طارىء في حياة الشعوب(٨٨) .

د ـ هل هناك واسطة بين الوجود والعدم (الحال)؟ : وضع القدماء التقابل بين الوجود والعدم وجعلوا الواسطة بينهما هو الحال بين منكر ومثبت(٨٩) .

= من الموقف العلمي الطبيعي .

و ـ الشيء حقيقة في الموجود ومجاز في المعدوم وهو رأي أبي الحسين والبصريين . وهو أقرب إلى المعنى البديهي الأول . ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾ .

فإذا ما أريد معرفة معنى الشيء باللجوء إلى القرآن فإن اللفظ قد ورد ٢٨٣ مرة وليس فقط في ستة استعمالات كما هو الحال عند المتكلمين منها (شيء) (٢٠٢ مرة) ، « شيئاً » (٧٧ مرة) ، « أشياء » (مرة واحدة) ، « أشياءهم » (٣ مرات). والاعتماد على « تحليل المضمون » يؤدي إلى أن الاستعمال الأول للفظ الشيء خاصة في حال الجر يعني القدرة « الإلهية » في صيغة «أن الله على كل شيء قدير » أو العلم « الإلهي » في صيغة « بكل شيء عليم » . ولكن بعض الاستعمالات تجعل الشيء في علاقة مع الارادة الانسانية والعلم الانساني كذلك في اطار المعنى الأول وكأحد عناصره . أما الاستعمال الثاني للفظ الشيء في حال النصب « شيئاً » فإنه يفيد أن الشيء في علاقة مع الانسان ، والانسان وحده ، وأنه موضوع شعوري عملي للمحبة والكراهية والنفع والضرر والأخذ والعطاء والنقص والزيادة . وهو المعنى الوحيد لاستعمال اللفظ في صيغة الجمع في حال النصب « أشياء » «ولا تبخسوا الناس أشياءهم». أما القدماء فإن تحديدهم للشيء كان متفاوتاً بين المستوى اللاهوتي والمستوى الطبيعي دون المستوى الانساني ، وعبروا عن التوتر بين الموقف العلمي والموقف الديني في رؤية العالم وتصور « الله » . فإما أن يكون العالم مادة و « الله » صورة أو أن يكون العالم مادة « والله » مادة أو يكون العالم صورة و « الله » مادة أو يكون العالم صورة و « الله » صورة . لم يتجاوز القدماء في بحثهم لمعنى الشيء عن تأسيس لاهوت طبيعي دون اقامة توحيد عملي ورؤية الأشياء للاستعمال على المستوى الانساني العملي .

(٨٨) أنظر بحثنا :القرف،تحليل لبعض التجارب الشعورية في« قضايا معاصرة »(١) في فكرنا المعاصر ص ١٩٦ ـ ٢٠٧ .

(٨٩) ينفي الحال أهل الحق وأكثر المعتزلة ويثبته القاضي وامام الحرمين من الأشاعرة وأبو هاشم من المعتزلة .

والحال انتقال وحركة من الوجود إلى العـدم أو من العدم إلى الـوجود أي أن الصلة بين الوجود والعدم هي الصيرورة . فالحال صيرورة والصيرورة حال . ولكن خلط القـدماء بـين موضـوع ثبوت العـدم والحال كـواسطة في مـوضـوع واحـد مـع أنهما موضوعان متمايزان(٩٠) . ويثبته الحكماء لأنه لما كان الشـيء مـوجوداً في الخـارج ومعدوماً فإن هناك واسطة بينهما والتي هي الوجود في الذهن بين الـوجود والعـدم أو الامكـانية أو الحـال أو الوجـود في حالـة مشروع أو تضمن أو قـوة ، وجود بـالقـوة يتحـول إلى وجود بـالفعل عن طـريق الخلق والابداع والتحقق الـذاتي . ولما كـان مـوضوع العلم عنـد القدمـاء هـو المعلوم فـان المعلوم اما المـوجـود أو المعـدوم او الحال(٩١) .

وينكر جمهور الأشاعرة الحال لانكارهم الوسط بين الـوجود والعـدم . ليست هناك حاجة إلى الانتقال من الوجود إلى العدم أو من العدم إلى الوجود لأن « الله » قـادر على كـل شيء . ومن ثم انتهـوا إلى انكـار الصيـرورة ، ووقعـوا في الثنـائيـة المتعارضة بين الوجود والعدم . ويشاركهم في ذلك جمهور المعتزلة بالرغم من اثباتهم العدم ونفي الأشاعرة له . وبالتالي أصبح نفي الحال هـو الرافـد الأساسي والمكوّن الرئيسي لوعينا القومي . ويؤدي نفي الحـال أولاً إلى انكار الـواسطة بـين الوجـود والعدم والانتقال من طرف إلى آخر عن طـريق القلب والعنف والتحول من الشيء إلى ضده وعدم الثبات على شيء والـوقوع في جـدل الكل ولا شيء وقسمـة الناس إلى مؤمنين وكافرين والزعماء إلى خونة وأبطال كما هو الحال في وجداننا المعاصـر . كما يؤدي ثانياً إلى انكار الصيرورة والحدوث والتغير والزمان والحركة والتاريخ ودور الفعل الانساني فيه . ويؤدي ثالثاً إلى إعطاء الأولـوية للفعـل الخارجي عـلى الفعل الداخلي لتفسير الحركة والتغير بعد أن تخلى الانسـان عن دوره في التاريـخ ، وتخلت الأمة عن فعلها ووجودها فيه . ويخشى المنكرون للأحوال من أن اثبـات الحال قـد يؤدي إلى التسلسل ، والتسلسل « يسد باب اثبات الصانـع » مع أنـه يجوز امتنـاع

(٩٠) انظر الهامش السابق (٨٥) عن تصنيف الايجي للمذاهب .

(٩١) المواقف ص ٧ ـ ٨ المقاصد ص ١٧ ـ ٢٠ ؛ شرح المقـاصد ص ١٨ ـ ٢٠ ؛ الشـامل ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

التسلسل في الموجودات وعدم امتناعه في الأحوال . كما أن اثبات الصانع ليس هدفاً منسبقاً يحدد نتائج العلم مما يدل على أن علم الأشعرية خصوصاً ليس علماً بل هو تكييف للمادة العلمية وللنتائج العلمية وللمواقف العلمية طبقاً لأهداف معروفة سلفاً وعلى رأسها اثبات الصانع[٩٢] .

أما اثبات الحال فإن القدماء قد اعتمدوا فيه على بعض الحجج الصورية . منها أن الوجود ليس موجوداً ولا زاد وجوده وتسلسل ولا معدوماً وإلا اتصف بنقيضه ومن ثم فهو أقرب إلى الواسطة بين الوجود والعدم وهو الحال . ومنها أن السواد مركب من اللونية وفصل يمتاز به وهو قابضية البصر فرضاً ومن ثم يكون اللون حالاً للذات بمناسبة الموضوع أو حالاً للموضوع بمناسبة الذات . والحقيقة أنه ليس المهم إعطاء حجج صورية لاثبات الحال بل تكفي التجارب الشعورية التي تكشف عن الموجودات في حالة انتقال من وجود إلى عدم أو المعدومات في حالة انتقال من عدم الى وجود . يكفي ملاحظة حركتي الاعدام أو الايجاد مثل الحالات المتوسطة بين الصحة والمرض وهي النقاهة أو بين الحياة والموت وهو الاحتضار أو بين الطفولة والرجولة وهي المراهقة أو بين الاحتلال والاستقلال وهي الحماية والوصاية والتبعية والاحلاف ومناطق النفوذ والانحياز . قد يكون الحال أقرب إلى الوجود منه إلى العدم أو أقرب إلى العدم منه إلى الوجود إذ يصعب إيجاد الحال كوسط متناسب بين طرفين . فالحال انتقال وحركة وليس حساباً ونقطة . كما تتمايز الذوات الانسانية المتساوية بالأحوال . الوجود الانساني واحد ولكن الأحوال هي التي تختلف[٩٣] . ويؤدي إثبات الحال إلى عكس ما يؤدي إليه نفيه . يؤدي أولاً إلى إثبات الصيرورة والحركة والفعل والزمان والتاريخ والتحقق والابداع والخلق . ويؤدي ثانياً إلى التدرج دون الوقوع في جدل الكل ولا شيء وادراك المراحل وإعداد الخطط . ويؤدي ثالثاً إلى افساح المجال للفعل الانساني في العالم ودور الأمة في التاريخ . وقد قسم القدماء الحال إلى نوعين . الأول معلل بصفة موجودة

---

(٩٢) هذا هو تخوف الرازي المواقف ص ٥٩ .

(٩٣) المواقف ص ٤١ - ٤٢ ، ص ٥٧ - ٥٩ ؛ المقاصد ص ١٧٥ - ١٧٦ .

كتعليل القادرية بالقدرة أو غير معلل مثل اللونية للسواد . مما يجعل الحال ليس مجرد عرض بل علة أي أنه حال مؤثر وفعال . وقد يكون الحال علة وجود وعدم ، وبالتالي تكون الأحوال موجدة وعادمة . والثاني عندما تتساوى الذوات وتتمايز بالأحوال . فالحال هو الذي يميز الذات عن الأخرى مما يدل على أن الذات هي أحوالها . وتوصف الأحوال بالتماثل والاختلاف كصفات وكأحوال ، وتكون أقرب إلى الأحوال النفسية أو الوجودية منها إلى « احوال » الأشياء[٩٤] .

هـ ـ **ماذا يعني « الوجود » ؟** : تصور الوجود بديهي . والدليل على ذلك أني موجود وأن الوجود تصور وتصديق في آن واحد . كما أن قسمة الوجود إلى وجود وعدم قسمة بديهية . ولا يمكن أن يكتسب بالحد لأن الوجود بسيط لا أجزاء له أو بالرسم لأن الرسم ليس تعريفاً بالماهية وأنه لا أعرف ما الوجود . وإذا كان الوجود لا يتصور فان ذلك لأنه إحساس بديهي وإن لم يتحول إلى تصور عقلي . وقد صاغ القدماء حجتين صوريتين ضد تصور الوجود . الأولى أن يكون التصور بتميزه عن غيره وهو ما لا يعقل إلا بعد الوجود فيلزم الدور . والثانية أن التصور حصول الماهية في النفس وهو حدوث وجود في وجود فيجتمع المثلان . والحقيقة أن بداهة الوجود لا تحتاج إلى حجج صورية منطقية جدلية فالوجود تجربة حية وليس تصوراً[٩٥] . ويبدو أن مبحث الوجود والعدم عند القدماء ليس نظرية مستقلة للوجود بل جزء من مبحث التصورات ويطغى أحياناً عليه . وهنا يكون الوجود جزءاً من المعرفة لم يستقل عنها ولكنها المعرفة المنطقية وكأن المنطق هو الوسط بين المعرفة والوجود ، وهو الذي يضمهما معاً . فتصور الوجود بديهي لأنه جزء من الوجود الشخصي المتصور بداهة ولأن التصديق البديهي بأن النفي والاثبات لا يجتمعان قائم على تصور الوجود والعدم . فتصورهما أولاً بالبداهة . وبداهة

---

(٩٤) هناك صلة بين اثبات الحال عند أبي هاشم ثم اسقاطه بعد ذلك على الذات الإلهية واعتبار الصفات أحوالاً في مسألة الصلة بين الذات والصفات مما يدل على أن المسألة في نشأتها في نظرية الوجود أي في الطبيعة والانسان . أنظر الفصلين الخامس والسادس .

(٩٥) المواقف ص ٤٣ ـ ٤٦ ؛ المحصل ص ٣٢ ـ ٣٣ ؛ معالم أصول الدين ص ٩ ـ ١٠ ؛ طوالع الأنوار ص ٣٧ ؛ المقاصد ص ٩٧ ـ ٩٨ ؛ التحقيق التام ص ٢٣ ـ ٢٤ .

التصديق متوقفة على العلم بالجزء لـذلك تحتـاج إلى دليل[٩٦] . وإذا كـان الوّجـود مبحثـاً من مباحث التصـور وكـان تصـوراً بـديهيـاً فـإن الحكم عليـه يكـون كسبيـاً استدلالياً[٩٧] . ولا يمنع كون الوجود بديهياً ثم الاختلاف في كونه جزئيـاً أم كلياً ، واجباً أو ممكناً ، عرضاً أو لا عرضاً ، جوهراً أو لا جوهراً ، مـوجوداً أو اعتبـارياً لا تحقق له في الأعيان أو واسطة وأفراده عين الماهيات أو زائدة ، لأن هذه الاختلافات تحليل العقل لتجربة الوجود البديهي . ويمكن تجاوز هذه الاختلافات بتحليل العقل للموضوعات ذاتها واتفاق نتائج هذا التحليل مع تجارب عديد من الأفراد . وهداية « الله » لا تحل هذه الاختـلافات لأنها ليست خـطأ أو صوابـاً بل تتنـاول مستويـات مختلفة من الوجود[٩٨] . ومعظم الأحكام المنطقية على الوجود كتصـور بديهي تقـوم عـلى اسقاط مقـولات أخرى مثـل الكـل والجـزء والبسيط والمركب عـلى الـوجـود لتحديده ، وهي طريقة لا تؤدي إلى شيء بل إلى وضع أشياء ثم نفيها أو إثباتها أو خلق مشـاكل لفـظية من نفس النـوع المثالي القـائم على القسمـة العقلية ثم تمـرين العقـل المتطهـر عليها . ويكـون الحكم في النهـايـة هـو اختيـار لما تقتضيـه درجـة الطهارة ! الوجود ليس صفة في الشيء بل هـو الشيء الذي يحيـاه الانسان ، يـراه ويحسه ويلمسه . والصفة مجرد تجريد عقلي للاستعمال وللتعبير[٩٩] . والوجود أيضاً رابطة في القضية تتكـون من ثلاثة عنـاصر ، المـوضوع والمحمـول والرابـطة . ولا تحتاج القضية في اللغة العربية إلى ظهور الرابطة لأن الوجود متضمن في الموضوع إذ يثبت الوجود بمجرد ثبوت الموضوع . لا يوجد موضوع إلا وهـو موجـود . الوجـود بداهة وجود لا تحتاج إلى إثبات بفعل الكينونة[١٠٠] .

---

(٩٦) التحقيق التام ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٩٧) المقاصد ص ٨٨ ـ ١٠٤ ؛ التحقيق التام ص ٢٤ .

(٩٨) المقاصد ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٩٩) « اتصاف الشيء بالوجود وليس لأجل صفة قائمة به فإن قيام الصفة به فرع على كونه موجـوداً فلو تعلل كونه موجوداً لزم الدور » طوالع الأنوار ص ٤٣ .

(١٠٠) المقاصد ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ ؛ وقـد ركز استـاذنا المـرحوم الـدكتور عثمـان أمين عـلى هذه القضيـة بـاستمرار في كتـاباتـه العديـدة أنظر « فلسفـة اللغة العـربية » المكتبـة الثقافيـة ١٩٦٥ ؛ « اللغـة والفكر » ص ٣٣ . « الجوانية ، أصول عقيدة وفلسفة ثـورة » ص ١٤٩ ـ ١٨٤ وأيضاً دراستنـا ـــ

ومع ذلك قيل في تعريف الوجود عدة تعريفات منها أنه الثابت بالعين . فالوجود رؤية حسية ومشاهدة عيانية . ومنها أنه المنقسم إلى فاعل ومنفعل أو إلى حادث وقديم ، والفاعل والمنفعل غير الحادث والقديم ، الأولى طبيعية والثانية تعتمد على الأولى لاثبات فاعل قديم كما يقتضي بذلك الايمان . ومنها أنه ما يعلم ويخبر عنه ، فالوجود هو المعلوم الذي يأتي علمه عن طريق الخبر ، فالوجود لا يوجد إلا من خلال المعرفة ، وهي مرحلة التعبير والايصال للآخرين عن طريق اللغة .

وفي حقيقة الأمر أن الوجود لفظ مشترك بين عديد من الموجودات ، الانسان والأشياء والعالم وما يفترضه الانسان على أنه « الله » وذلك لعدة أسباب منها التردد في وصف الموجودات به وعدم الجزم في الاستعمال مما يوحي بأنه يفيدها جميعاً . كما يقال على الواجب والممكن والجوهر والعرض لاشتراك في صفة واحدة هي الوجود اكثر من اشتراك لفظ العين للعين والبئر . وكما أن العدم مفهوم واحد لا تمايز فيه فكذلك الوجود . والاشتراك قضية ضرورية إذ أننا نعلم بالضرورة الشركة بين الموجودات . وإن نفي الاشتراك يثبت الاشتراك لأن تصور مفهوم واحد غير مشترك يلزم إثبات ذلك في كل موجود ، ولا يجوز إثبات دعوى عامة في كل موجود على حدة . ولو لم يكن مشتركاً لما تميز الواجب عن الممكن ، فالتمايز يعني الاشتراك بقدر ما يعني الاختلاف[101] . وبالتالي فالانسان موجود ، والشيء موجود ، والعالم موجود ، و« الله » موجود باشتراك الاسم . ويكون السؤال : كيف تبدأ تجربة الوجود وتصوره ؟ لا ريب أن الأشياء لا تعي الوجود . و« الله » لا يتحدث عن نفسه إلا من خلال الوحي أي اللغة وبالتالي لزم فهمه وتفسيره ابتداء من الوعي الانساني. الانسان وحده إذن هو الموجود حقيقة وكل ما سواه موجود بالمجاز . وهو المعنى الأول باللفظ ثم يطلق الوجود على كل شيء آخر سواء العالم أم « الله » قياساً على وجود الانسان .

= « من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي » في « دراسات اسلامية » ص ٣٥٩ - ٣٦٣ .

(١٠١) هذا هو موقف المعتزلة والحكماء ، المواقف ص ٤٦ - ٤٧ .

وقد انتبه لذلك القدماء عندما قرروا أن الوجود أيضاً لفظ مشترك أو متواطىء أو مشكك . فالوجود قد يكون عينيّاً أو ذهنياً أو خطياً أو لفظياً . الوجود العيني وجود متأصل وهو حقيقة الشيء ، والثاني غير متأصل بمنزلة الظل من الجسم أي صورة الشيء . والآخران مجازيان يكون الوجود بهما اسم الشيء وصورة اسمه والكل لاحق على السابق . فالوجود يطلق على الشيء وعلى الصورة الذهنية . وهو لفظ منطوق وكلمة مكتوبة فالاشتراك واضح في هذه المعاني الأربعة للفظ الوجود[١٠٢] . ثم تأتي بعد ذلك عاطفة التأليه لتجعل وجود الله سابقاً على كل هذه الموجودات دون تحديد مسبق لمعنى اللفظ هل حصل الوجود العيني أم الذهني أم الخطي أم اللفظي . أي أن المتكلم بعد أن ميّز الاشتراك في اللفظ تمييزاً علمياً دقيقاً، عاد واستعمل علمه من أجل المزايدة « بالله » على العلم ، واعتبار « الله » فوق قسمة العلماء لا يدخل في أحدها . وتحدث هذه المزايدة عادة في الشروح على المتون وفي الحواشي على الشروح لأن صاحب المتن يضع العلم عن طريق القسمة العقلية والشارح أو صاحب الحاشية ليس أمامه الا المزايدة عليها بعواطف التأليه التي تظهر في غياب العلم والتحليل والقسمة العقلية المحكمة[١٠٣] . ولا يعني الاشتراك الاتحاد في الوجود كما هو الحال في نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود عند الصوفية بل يعني مجرد الاشتراك في اللفظ ثم حدوث الخلط في المعنى ثم دخول عواطف التأليه للفصل في هذا الخلط واعطاء الأدنى للانسان وللعالم وتشخيص الأعلى في « الله »[١٠٤] . ومع ذلك فإن ظهور الوجود كمفهوم مشترك هو بداية

---

(١٠٢) « الوجود يتناول عينياً وذهنياً ولفظياً وخطياً . والأول متأصل يكون الموجود به حقيقة الشيء ، والثاني غير متأصل بمنزلة الظل من الجسم يكون الموجود به صورة الشيء . والأخيران مجازيان يكون الموجود بهما اسم الشيء وصورة اسمه . والكل لاحق على السابق إلا أن الأولى عقلية لا يختلف فيها الطرفان . والأخريان وضعيتان يختلف في أوليهما الدال فقط وفي ثانيهما الطرفان جميعاً » المقاصد ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ؛ التحقيق التام ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(١٠٣) « فهو سبحانه المقدم في الوجود العيني والذهني واللفظي والخطي . فهو مقدم في الموجودات الأربعة فذاته سابقة على كل شيء إذ لا ابتداء لها . وتلاحظ أولاً في الذهن أو كل شيء منها وكذلك في اللفظ كتابة » حاشية العقيدة ص ١٢ .

(١٠٤) المقاصد ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

لادخال تحليلات اللغـة مع الفكـر والوجـود . وان معظم الخلط يقـع بسبب هذا الاشتراك اللفظي في الماهية . فالوجود يحكم عليه بـالاثبات والنفي ويمكن تقسيمـه الى واجب وممكن او جوهر وعرض . ويُخشى من ذلك على الماهيـة التي هي أساس الحكمة والقسمة وعـلى زحزحتهـا عن الوجـود[١٠٥] . ويصعب حينئذ التفـرقة بـين الاشتـراك اللفظي والاشتـراك المعنوي لأن الاستعمـال والجـدل يجعـلان الاشتـراك اللفـظي يقود حتـماً الى الاشتراك المعنـوي[١٠٦] . ويصعب جعـل الـوجـود حقيقـة واحدة تختلف بالاضافات والقيود والاعتماد على تمايز الماهيات لأن اللغة قـادرة على احـداث هذا الاشتـراك . فلا سبيـل لنا الى المعـاني المتمايـزة الا من خـلال اللغـة المشتركة . ولما كان الموجود معنى زائداً على الماهية كان الاتفاق بالوجـود والاختلاف بالماهية . الوجود أعم وأشمل وأقرب الى الأذهان وفهم النـاس عن الماهيـة ومن ثم فلا مناص من اشتراك اللفظ. ولا يقدر على التمييز الا الحكماء !

و ـ **هل الوجود في الذهن أم في الواقع ؟** أثبت الحكماء الوجـود الذهني لأنهم فلاسفة يجعلون العقـل هو الـوجود ويعتمـدون في ذلك عـلى عدة حجـج منها أننـا نتصـور ما لا وجـود له في الخـارج ونحكم عليه بـاحكام ثبـوتيـة مثـل الاستحـالـة والعـدم ، وأن المفهومـات كلية والموجودات في الخـارج شخصيـة جـزئيـة ومن ثم فـالكليات تتعلق بـالموجـودات ، وأنه لـولا الوجـود الذهني لمـا أمكن أخذ القضيـة الحقيقية للموضوع وهي الكلية الموجبة أو اعطاءها أيـة أهمية . وقـد نفى المتكلمون الـوجود الـذهني لسببين . الأول أن الـوجود الـذهني يجعل الـذهن قابـلاً للحـرارة

---

(١٠٥) « ذهب جمهور الفلاسفة والمعتزلـة وجمع منـا إلى أن الوجـود وصف مشترك فيـه بين المـوجودات » المحصـل ص ٣٣ ـ ٣٤ ؛ « مسمى الوجـود مفهوم مشتـرك فيه بـين كل المـوجـودات لأنـا نقسم الوجود إلى الواجب والممكن ومورد التقسيم مشترك بين القسمين » معالم أصول الدين ص ١٠ ؛ «مفهـوم الـوجـود وصف مشتـرك عنـد الجمهور » طـوالع ، الأنـوار ص ٣٨ ـ ٣٩ ؛ « الـوجـود مشترك واليه ذهب الحكماء والمعتزلة » المواقف ص ٤٦ ـ ٤٧ ، « الوجود مفهوم واحد مشتـرك بين المـوجودات » المقـاصد ص ١٠٨ ـ ١١٣ ؛ « مفهـوم الوجـود وصف مشتـرك معنـوي بـين جميـع الموجودات عند جمهور المحققين من الحكماء والمتكلمين » شرح المقاصد ص ١١١ .

(١٠٦) هذا هو مـوقف الأشعري في أن لفظ الـوجود ليس لـه مفهوم واحـد مشترك بـين الموجـودات بل الاشتراك لفظي ، التحقيق التام ص ٢٥ ـ ٢٧ .

وللبـرودة والثاني أن حصـول حقائق في الـذهن مما لا يعقل . فهي كلهـا اعتبارات ذاتيـة خالصـة لا تصف الـوجـود في شيء(١٠٧) . وكثيـراً مـا نتصـور مـا لا وجـود له(١٠٨) . كان الهدف من التمييز بين الوجود العيني والوجود الذهني عنـد المتكلمين نفي الوجود الذهني والاعتراف بـالوجـود العيني وحده عـلى أنه الـوجود الحقيقي . ويشـارك الفقهاء المتكلمـين في هذا الانكـار وانه لا يـوجـد متحققـاً في الخـارج الا الأشيـاء ، وأن التصـورات والمبـادىء والكليـات لا تـوجـد الا في الأذهــان دون الأعيان . كما يدل على أن البناء العقلي الكلامي أو الفلسفي كله لا وجود لـه إذ لا يوجد الا الأشياء المتحققة في الخارج . بل إن نظرية العلم كلهـا أو نظريـة الوجـود هما بحثان في المبادىء العامة والأمور الكلية وهي بحوث منهجية صرفة وليست اثباتاً لوجود عيني(١٠٩) .

كيف يتم اذن الانتقال من المعرفـة الى الوجـود ، كيف يتم الخروج من عـالم الأذهان الى عالم الأعيان ؟ إذا كان هناك دليل على حدث العالم فهل المدلول حـدث العـالم بالفعـل أم العلم بحدث العـالم ؟ والـذي لا يخرج من العلم بـالحـدث الى الحدث نفسه لا تنقسم المدلولات لديه الى وجـود وعدم أو حـدوث وقدم(١١٠) . والحقيقة أن هذه هي قضية المثال والواقع . المثال في الذهن كتصـور ونموذج وكبنـاء مثالي للعالم ولا يوجد في الواقع الا بعد تغيير الواقع بالفعل ، وتحويل المثـال الى بناء في العـالم . فهي ليست مشكلة « الكليات » ، المشكلة الأفـلاطونيـة القـديمـة ، في الـذهن أم في الواقـع ولكنها مشكلة النـظام المثـالي للعـالم قبـل التحقق أو بعـده . الخلاف اذن بين المتكلمين والحكماء لا معنى له . ومخاطـر اثبات الـوجود الـذهني لا خوف منها . فلا يعني ذلك الشِّرْك بل يعني اثبـات المثال فارغاً من أي مضمـون ،

---

(١٠٧) شرح المقاصد ص ٩٧ .

(١٠٨) قال الرازي « نتصور ما لا وجود له ، كل ما نتصوره له وجود غائب قائم بنفسه كما قال أفلاطون أو بغيره كما يقول الحكماء فالصورة مرتسمة عندهم في العقل الفعـال » المواقف ص ٥٢ ـ ١٥٣ ؛ المقاصد ص ١٤٥ ـ ١٤٩ .

(١٠٩) المقاصد ص ١٩ .

(١١٠) الشامل ص ١٠٥ ـ ١٠٨ .

والابقاء عليه في الذهن دون عملية التحقق. ليس الخوف على التوحيد من الشرك بل الخوف عليه من العجز والموت والصورية ، بقاء المثال بلا تحقق ، وبقاء الوضع القائم بلا تغيير .

٢ ـ الماهية : لم يضع القدماء الماهية في مقابل الوجود بل وضعوها مستقلة بمفردها وكأنها مثال . وقد غلب على البحث طابع التجريد وكأننا في علوم الحكمة الخالصة وليس مجرد مقدمة نظرية في علم أصول الدين[١١١] . وماهية الشيء حقيقته، هي أصله وجوهره وأساسه وما به قوامه وما يقوم عليه وجوده. الوجود بلا ماهية عدم ، وجود هش لا أساس له . باعتبار التحقق تسمى ذاتاً وحقيقة ، وباعتبار التشخص تسمى هوية . تغاير عوارضها اللازمة ،والمفارقة وتتمايز عما عداها . وان كانت معانٍ في الشعور فهي متمايزة فيه . ان كانت مطلقة تسمى مجرداً وان كانت مشخصة تسمى مخلوطة أو مشخصة . تكون مجردة ان لم تكن متحققة في الخارج وغير متعينة وتكون مخلوطة إذا زيد عليها شيء . وبالتالي فهناك امكانية التمييز بين الصوري والمادي في الماهيات[١١٢] . ومن ثم تخطىء « نظرية المثل » في اعتبار الماهيات المجردة موجودة في العالم الخارجي[١١٣] .

أ ـ الماهية البسيطة والماهية المركبة. والماهية إما بسيطة أو مركبة وذلك لأن الأشياء أما عقلية لا يتمايز أجزاؤها في الخارج أو خارجية يتمايز أجزاؤها في الخارج. فالماهيات العقلية بسيطة والماهيات الخارجية مركبة. وينتهي المركب إلى البسيط، فالبسيط أصل

---

(١١١) نظراً لصعوبة هذا المبحث وطابعه التجريدي قرر حذفه من مقرر الدراسة (تنبيه : هذا المرصد غير مقرر حسب منهج ٩٣٦ لقانون رقم ٢٦) المواقف ص ٥٩ : المحصل ص ١٠٢ ـ ١٠٣ . وقد تم الاعتماد كثيراً على ابن سينا في مبحث الماهية من مباحث الأمور العامة .

(١١٢) المواقف ص ٥٩ ـ ٦١ ؛ المقاصد ص ١٨٦ ـ ١٩٦ ؛ طوالع الأنوار ص ٤٧ ؛

(١١٣) يحاول البعض تأويل مثل أفلاطون بجعلها العلم الإلّهي بالكليات أو العلم الانساني في النفس « وما نسب إلى أفلاطون من المثل ليس قولاً بوجودها المجردة بل بوجود الأنواع في علمه تعالى أو بأن لكل نوع جوهراً مجرداً يدبره أمر بمنزلة النفس من البدن » . ويرفض البعض الآخر الدخول في موضوع « رب النوع » أو « جنس الأجناس » عند أفلاطون كما فعل المتأخرون لأن ذلك مبحث آخر حرصاً على التوحيد وعلى التمييز بين الوجود الذهني والوجود العيني . المواقف ص ٦٠ ـ ٦١ .

المركب . الماهيات البسيطة هي المعاني البديهية والمركبة هي الاستدلالات والقياسات والاحصائيات . وهنا تبدو الماهيات معرفية خالصة ، ماهيات عقلية ذات وجود معرفي(١١٤) . ولكن تنقسم الماهيات أيضاً على نحو كمي مادي . فإذا كانت الماهية المركبة من أجزاء فتنقسم الأجزاء الى متداخلة في العقل كالاجناس والفصول إن صدقت الاجزاء بعضها مع بعض والا تكون متباينة في الخارج . والمتداخلة اذا صدق كل منها على الآخر فهما متساويان والا فبينهما عموم وخصوص اما مطلقاً وإما من وجه دون وجه . وأما المتباينة فإما أن يتبين الشيء مع علة أو معلول أو ما ليس كذلك . والأول اما مع الفاعل أو القابل أو الصورة أو الغاية . والثاني مثل الخالق والثالث إما متشابهة أو متخالفة إما عقلاً أو خارجاً ! فالأشياء بعضها عدمي وبعضها وجودي . وهذه كلها ابحاث رياضية هندسية منطقية وجودية اصولية صورية خالصة دون أن تصدق على مادة معينة ولا هدف لها الا تحليل العقل البسيط ودون أن تكون هناك خصوصية كمدخل خاص لعلم أصول الدين وموضوع العلم فيه . وكل مقولتين متعارضتان . فالتداخل عكس التباين في الأجزاء . والتساوي أي وضع الجزئين على مستوى أفقي واحد عكس العموم والخصوص أي وضع الجزئين على مستوى رأسي بين الأعلى والأدنى.والتباين يؤدي الى العلل الأربع المعروفة في الطبيعيات عند الحكماء . اما التشابه فإنه يكون في الذهن أو في الواقع . وقد تنقسم الماهية المركبة على نحو وجودي خالص فتكون اما وجودية أو لا وجودية وتكون الوجودية اما حقيقية أو اضافية أو ممتزجة . والثاني مثل القديم فهو موجود لا أول له . وهنا يتضح أن القسمة تفسح المجال الى وجود « الله » كموضوع للعلم . وبالتالي تكون أقرب الى التمرينات العقلية او القوالب الذهنية التي ستتحكم في الفكر الديني(١١٥) . والمركب اما ذات أو صفة ، وتكون الماهية مركبة من أجزاء اذا كانت مشاركة لغيرها في ذاتي ومخالفة لذاتي آخر وليس لعارض فالماهية تقبل الشركة دون التعيين . الماهية لا تأبى الشركة في حين أن الشخص يأباها فهي فيه زائد وهو التشخص . ونسبة الماهية الى الشخصيات كنسبة

(١١٤) المواقف ص ٦١ .

(١١٥) المواقف ص ٥٩ ـ ٦٠ .

الجنس الى الفصول . والتعين وجود في الخارج ، والماهية لا تتحقق عيانياً في الخارج ولكنها تظل غير معينة في الذهن عند الحكماء . أما المتكلمون فيجعلون التعين أمراً عدمياً لأن الماهيات لا تتعين في الخارج حفاظاً على التوحيد ولإنكار الكليات في الخارج وبالتالي يفصل المتكلمون بين الصوري والمادي في حين يجعل الحكماء بينهما واسطة هو التحقق(١١٦) . والحقيقة أن كل هذه التقسيمات لا تشير إلى أية تجربة حية خرجت منها ويمكن التحقق من هدفها بالرجوع اليها . وبالتالي ظلت صورية خالصة أقرب الى المنطق الوجودي الصوري الخالص . قسمة الماهية اذن أقرب الى الخطاب القائم على نفسه ، يضع مسائل ثم يحلها بالقسمة ، فكر يقوم على نفسه لا على وقائع أو تجارب ، فكر صوري بلا مضمون ، وتحليل عقلي لروح التطهر التي تُسيِّر الخطاب وتحدد مشاكله وتختار حلولها . الماهية أطهر من الوجود ولذلك فهي الكلي وهو الجزئي ، هي البسيط وهو المركب ، هي العام وهو الخاص ، هي الأول وهو الثاني . ولكن أحياناً تظهر المقولات الانسانية من ثنايا الخطاب الصوري مثل لفظ « حاجة كل ماهية الى أجزائها أو كل نوع الى اجناسه» . فهذه لغة وجدانية تدل على أن المقدمات النظرية بالرغم من بلوغها مستوى عال من التجريد الا انها ما زالت تكشف عن الاساس الوجداني في الانسان ، وهو الأساس الذي يقوم عليه الفكر الديني عامة والاشعرية خاصة .

ب ـ **هل الوجود نفس الماهية أم جزؤها أم زائد عليها ؟** وهنا يظهر التقابل بين الوجود والماهية بعد أن كان كل منهما معروضاً بمفرده . وتظهر علاقة التقابل في صورتي الهوية والاختلاف أو الكل والجزء ، والأولى هي الأغلب . وقد طرح القدماء اجابات ثلاثة . الأولى أن الوجود نفس الماهية في الكل لأنه لو كان زائداً لكانت الماهية غير موجودة نظراً لعلاقة الهوية بينهما . والحقيقة أن ذلك قائم على افتراض أن الماهية قائمة بالوجود وهو المطلوب اثباته كما أن الدليل يقوم على برهان الخلف وهو دليل سلبي خالص . أما قيام الصفة الثبوتية بالشيء كفرع لوجوده في

(١١٦) المواقف ص ١٦٣ ـ ١٦٨ ؛ طوالع الأنوار ص ٤٨ ـ ٥٢ ؛ المقاصد ص ١٩٨ ـ ٢٠٦ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٦ .

نفسه ضرورة وبالتالي لو كان الوجود زائداً على الماهية لسبقه وجودٌ آخر ولزم التسلسل فتلك حجة تقوم على نفس الافتراض السابق وعلى برهان الخلف وعلى افتراض أن كل وجود لا بد له من علة لوجوده وهو طابع الفكر الديني الايماني الذي يريد التقهقر الى الوراء لاثبات علة أولى لا تسبقها علة أخرى حتى يستريح الضمير الديني ويرتكن الى بداية يقينية تعطيه الثقة بالبداية الأولى التي عليها يقوم كل شيء بعد ذلك كالبنيان الراسخ . لا يعني ضعف هاتين الحجتين رفض الافتراض الأول بل يعني أن التدليل عليه لا يثبت شيئاً ، ويظل الافتراض قائماً بلا حجة أو دليل[117] . والثاني أن الوجود نفس الماهية في الواجب وان زاد في الممكن لأنه لو كان الوجود زائداً على الماهية في الواجب لكان محتاجاً والمحتاج إلى الغير ممكن ويكون معلولاً لغيره ، ولا يكون واجباً . والحقيقة أن هذه حجة وجدانية خالصة بقدر ما كانت الحجج الأولى جدلية صرفة . فلفظ « الاحتياج » لفظ ديني يعبر عن عاطفة دينية هي الاحساس بالنقص والعوز أمام الكامل الغني ، ثم ابعاد هذا الوضع النفسي المؤلم رغبة في التنزيه وبعداً عن الاحتياج لأن الاحتياج نقص والانسان يبغي الكمال . فيقتطع الكمال من نفسه ويجرده ثم يشخصه في الواجب الذي يمتد فيه الوجود بالماهية في مقابل الممكن الذي هو نحن في عالم الاحتياج للأغيار . فبقدر مانحط من النفس نُعلي من الآخر ، وبقدر ما نتهم الذات نبرىء الغير[118] . والثالث أن الوجود زائد على الماهية في الواجب وفي الممكن . الوجود زائد في الممكن لأن الوجود يتمايز عن الماهية في الانسان ، فالمثال لم يتحقق بعد ، والواقع لم يتحول بعد مثال . الماهية بمفردها تقبل العدم ومع الوجود تأباه مما يدل على بقاء المثال حتى ولو لم يكن هناك واقع . وهناك ماهيات معقولة مجردة مثل المعقولات الرياضية لا جود لها في الواقع ويستحيل التعريف في حالة التوحيد بينهما والا كان المحمول والموضوع شيئاً واحداً . وإن لم يكن الوجود زائداً على الماهية لكان نفسها أو جزءها . والأول باطل لأنه مشترك دونها والثاني باطل لأن الجزء

(١١٧) هذا هو موقف الأشعري ، المواقف ص ٤٨ .

(١١٨) المواقف ص ٤٨ ـ ٥٢ ؛ المقاصد ص ١١٣ ـ ١١٦ ؛ طوالع الأنوار ص ٤٠ ـ ٤٣ ؛ المقاصد ص ١١٧ ـ ١٣٦ ؛ معالم أصول الدين ص ١٠ ـ ١١ ؛ التحقيق التام ص ٢٨ ـ ٢٩ .

ليس اعم من الذاتيات . والوجود زائد على الماهية في الـواجب فلو لم يكن الوجـود زائداً على الماهية فيه لكان مجرداً بلا وجـود . ولو كـان مجرداً لكـان علة نفسه ويلزم التسلسل ، ويستحيل التجرد أن يكون مبدأ الممكنات . والحقيقـة أن هذه الحجـج الصورية كلها انما تقوم اعتماداً على قياس الغائب على الشـاهد أي قيـاس الواجب على الممكن عن طريق القلب أي أنها مواقف انسانيـة خالصـة تبدأ بتحليـل الممكن الحسي المادي ثم تقلبه فينتج وصف الواجب عن طريق الضد . فبـالرغم من هـذه الصورية في التحليل الا أن هناك تجارب شعورية قائمة وراءها اسقطها التحليل من الحساب . فإذا كان الوجود تجربة حية فالماهية هي جوهـر الوجـود وأساسـه . وجوهر الوجود رسـالته ودعـوته وأمـانته التي يحققهـا . وهي متميزة عن الـوجود في البداية هذا التمايز بين المثال والواقع . هي سبب الحياة والبـاعث ودفع الـواقع الى اللحاق بالمثال وتحقيق المثال في الواقع . الوجود هو الماهيـة بمعنى أن الوجـود ليس هو الجسم أو الأعراض بـل جوهـره أي الرسـالة . المـاهية هـو النطق والفكر والوعي والـرسالـة والحركـة والإمكانيـة والحريـة والتحقق ، يمكن أن تتوحد مع الوجود . ولكن هذا التوحيد بين الوجود والماهية تـوحيـد مشروع أو مشروع توحيد ، توحيـد مستقبلي يتحـول الى توحيـد بالفعـل في الحاضـر بعملية التحقق وفي مسار التاريخ . وحدة الوجود والمـاهية غـاية تتحقق في المستقبـل ابتداء من الحـاضر كـإمكانيـة ومشروع . أمـا التميز بـين الواجب والممكن فـالممكن هـو وجـودي والواجب هـو ما ينبغي أن أكـون عليه وبـالتـالي يكـون الممكن والـواجب مرحلتين من الوجود الانسـان وحالتـين له . في الممكن يتمـايز الـوجود عن المـاهية كـواقع . وفي الواجب يتحد الـوجود بالماهيـة كمثال . الأول في البـداية والثـاني في النهـاية . ولكن الـواجب والممكن ليسا مـوجودين مستقلين أحدهما عن الآخـر ، الأول نسبي والثاني مطلق ، وبلغة القدماء الأول « حادث » والثـاني « قديم » بمعنى « جديد » أي ما سيحدث في المستقبـل وما سيقـع في التاريـخ . الماهيـة زائدة عـلى الوجود ، والوجود زائد على الماهية في البداية كنوع من الفصام في الوجود الانسـاني بين المثال والـواقع ولكن يتحـول هذا الـرتق الى عملية تـوحيد فتتحـول الماهيـة الى وجود بالفعل ، ويتحول الوجود الى ماهية بالفعل . الماهية نفسها عملية تخلّق

لوجودها . والوجود نفسه عملية ايجاد لماهيته واظهار لمكمونه وبالتالي يمكن تجاوز الطرفين المتقابلين والحلين المتعارضين بل والحلول الوسط بالرجوع الى تجربة الوجود الانساني الحية السابقة على القسمة . ليست مذاهب القدماء اذن متعارضة متضاربة متناقضة بل تصف مراحل مختلفة لعملية التحقق ، وحالات وجدانية متباينة لهذه العملية كما يقول الصوفية . فلا يوجد خطأ مذهب وصحة آخر . كل مذهب يصف مرحلة تحقق وحالتها الوجدانية . وبالتالي لا يمكن اثبات الصواب والخطأ النظريين في المذاهب القديمة بحجج صورية منطقية جدلية بل بتحديد لحظتها في التجارب الشعورية[١١٩] .

جـ - **هل الماهيات مجعولة يحتاج بعضها البعض ؟** واحساساً من القدماء بهذه العملية طرحوا سؤالين : الأول هل الماهيات مجعولة ؟ والثاني هل تحتاج الماهيات أو أجزاء الماهيات بعضها الى البعض الآخر ؟ والسؤال الأول يقوم على افتراض الجعل أي النشأة والخلق والتحقق والجهد والفاعلية . و « الجعولية » تعني عند القدماء الاحتياج الى الفاعل والى الغير . والمذاهب القديمة ثلاثة . الأول الماهيات غير مجعولة مطلقاً كرد فعل على النشأة والمجعولية حرصاً على المثال واستقلاله كامكانية خالصة وكهدف أسمى وكغاية قصوى ، وهو المذهب الذي يعطي الأولوية للتأمل على الفعل ، وللنظر على العمل . والثاني الماهيات مجعولة مطلقاً وقد كان الدافع عند القدماء أن « الله » هو خالق كل شيء الوجود والماهية على السواء في حين أن المجعولية هو انكشاف الماهيات في الشعور أو تحقيقها كإمكانية وكمطلب ومثال . فالماهية طيّعة للفاعلية والتأثير بمعنى صيرورتها من حال الإمكان الى حال التحقق من حال الماهية الى حال الوجود. وهذا هو أيضاً معنى الاحتياج . فالاحتياج من لوازم الوجود. والمذهب الثالث يجعل الماهيات المركبة مجعولة بخلاف الماهيات البسيطة بدافع التوسط بين المذهبين السابقين . ولكن حتى إذا كانت البسيطة مثل البديهيات لا جهد فيها ولا صنعة فإن انكشافها في الشعور أيضاً يجعلها

---

(١١٩) هذا الحديث كله إنما هو رجوع للآية ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الانسان ، إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ (٣٣ : ٧٢) .

معطاة منها . ففيها قدر من المجعولية وان كان أقل من الماهيات المركبة(١٢٠) .

أماالسؤال الثاني عن حاجة الماهيات أو أجـزائها بعضهـا البعض الآخر فـإنما هو ناتـج عن المجعوليـة وكأنها المـذهب السائـد بين نفي الحكـماء والمعتزلـة واثبات الاشعرية . ولكن دوافع المجعوليـة والاحتياج في علم الأشعـرية تقـوم على استبعـاد الدور وعلى ضرورة الانتهاء الى حاجة من غير محتاج فتكـون العلاقـة بين المـاهيات علاقة علة بمعلول ، وكامل بناقص ، وإستقلال وتبعية ، مما يخفي في ثنـاياه عـلاقة الفكر الديني بين الأعلى والأدنى أو بـين « الله » والعالم حتى ولـو تمت صياغتهـا على نحو منطقي بالكليات الخمس ، حـاجة الفصل الى الجنس وعدم حـاجة الجنس الى الفصل ، واستحالـة أن يكون الجنس جنسـاً للفصـل ، واستحـالـة تعـدد الفصـل القـريب ، واستحالـة أن يقوم فصـل الا بنوع واحـد أو جنس واحد . وفي حقيقـة الأمـر تنشأ هـذه العلاقـة من الموقف الانسـاني ومن طبيعة العـلاقات الاجتمـاعيـة السـائدة التي يسودها الأعلى والأدنى ، الرئيس والمرؤوس ، الحاكم والمحكوم(١٢١) .

٣ ــ الـوجوب والامكـان والاستحالـة : والقسمـة هنـا ثـلاثيـة صـريحـة ، الوجوب والامكان والاستحالة فقد كان الوجود والعدم قسمة ثنائيـة صريحة وثلاثيـة مقنعة نظراً لتوسط الحال . وكانت الماهية مفهوماً واحداً صريحاً وقسمة ثنائيـة مقنعة فقد كانت طرفاً في ثنائية الوجود والماهية . والبنية الثلاثية واحدة . فإذا كان الحال هو الانتقال من الوجود الى العدم أو من العدم إلى الوجود فإن الامكان هو الانتقال من الـوجوب إلى الاستحـالة أو من الاستحـالة الى الـوجوب . فـالوجـوب في مقـابـل الاستحـالة والامكـان وسط . وكثيراً مـا توصف بـاسم الفعل الـوجوب والامكـان والاستحالة أو باسم الفاعـل الواجب والممكن والمستحيـل . والاختيار الأول أكـثر تجريداً وصورية من الثاني لأنه يضم مناطق عامة ولا يشير إلى موجودات بعينها . كما

(١٢٠) المذهب الأول لجمهور الفلاسفة والمعتزلة والثاني عند الأشاعرة . وهـذا مثل شـان على أن انتسـابنا إلى المعتزلة ليس تحيزاً مسبقاً . المـواقف ص ٦٢ ـ ٦٣ ؛ طوالـع الأنوار ص ٤٩ ؛ المقـاصد ص ٢٠٧ ـ ٢١٣ ؛ شرح المقاصد ص ٢١٠ .

(١٢١) المواقف ص ٦٤ ـ ٦٥ .

تختلف الألفاظ وتترادف فالواجب هو الضروري ، والممكن هو الجائز ، والمستحيل هو الممتنع ولكن الثلاثي الأول أكثر تجريداً ومن ثم فهو عند الحكماء أظهر . أما الثلاثي الثاني : الضروري والجائز والممتنع ، فهو أكثر حسية ومن ثم فهو عند المتكلمين أظهر باستثناء علم الكلام المتأخر الذي تبنى مفاهيم الحكماء . أما من حيث ترتيب المفاهيم الثلاثة فعادة ما يأتي الطرف المثبت أولاً ثم الوسط ثانياً ثم الطرف المنفي ثالثاً . الطرفان في الطرفين ، والوسط في الوسط مما يدل على هذا الانتقال من الوسط إلى الطرفين انتقالاً تدريجياً طبيعياً . وبقدر ما أفاض القدماء في الوجوب والامكان فإنهم لم يتكلموا في الاستحالة إلا قياساً على المفهومين الآخرين الوجوب والامكان على عكس افاضتهم في العدم وهو على نفس المستوى مع الاستحالة . مع أن الاستحالة يمكن أن تكون مناسبة لتحدي القدرة الانسانية على الفعل وتجاوز العقبات واعطاء الثقة بالنفس على أنه لا مستحيل أمام العزم والارادة والدوافع والبواعث وعلى قدرة الانسان على الايجاب أي تحويل الامكان إلى وجوب وتحويل الاستحالة إلى إمكان .

أ - **أحكام العقل الثلاثة**. وقد بدأت أحكام العقل الثلاثة في نظرية العلم كأحكام للعقل الخالص(١٢٢). ثم انتقلت من العقل الى الوجود مع التوحيد بينهما حتى انه ليصعب معرفة هل هي احكام عقلية كما كانت في البداية أم مناطق وجود . ثم رقيت ثالثاً في علم الكلام المتأخر في مرحلة العقائد الايمانية إلى أحكام عقلية كما بدأت ، وهو السائد حتى الآن ، أي نظرية في الحكم العقلي على الوجود . وتدخل مادة التوحيد كلها في هذه النظرية ، ما يجب وما يمكن وما يستحيل في حق « مولانا » وما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الرسل، وأصبحت تُستعمل من أجل عد الصفات وسهولة إحصائها . واستمر الأمر كذلك في الحركات الاصلاحية مع التركيز على القطب الأول « الله » دون القطب الثاني « الرسول » الذي تحول إلى نظرية عامة في النبوة (١٢٣) . ثم تضاءلت أحكام العقل الثلاثة أكثر فأكثر

(١٢٢) ظهر ذلك في « العقيدة النظامية » لامام الحرمين .

(١٢٣) « ولما كان المقصود من علم التوحيد أن يثبت للمكلف لله ما يجب اثباته له تعالى من صفات الكمال وأن ينفي عنه ما يستحيل ثبوته له من صفات النقص وأنه يجوز عليه سبحانه اثبات ونفي =

وتحولت إلى مجرد دليل عقلي ضمن مجموعة أخرى من الأدلة الشرعية والعادية . يظهر الدليل السمعي من جديد كأحد مصادر المعرفة في مواجهة الدليل العقلي ويتحول التقابل بين الوجوب والاستحالة الى التقابل التقليدي القديم بين العقل والسمع كما يتحول الامكان أو الجواز العقلي الى تردد بين الدليل العقلي والدليل السمعي(١٢٤) . وتدخل نظرية أحكام العقل الثلاثة ضمن نظرية أعم وهي أقسام الحكم . فالحكم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شرعي وعادي وعقلي . الشرعي موضوع علم أصول الفقه ، والعادي يُعرف بالتجربة وتكرارها ، والعقلي يفهم بالعقل المجرد من غير تجربة ولا وضع . ويسارع الشارح المتأخر في الحكم العادي باعلان الايمان الأشعري وجعل الحكم العادي من فعل ارادة خارجية مباشرة بأن يخلق « الله » الاحتراق في النار دون أن يكون هناك تأثير للنار كعلة مباشرة . والحكم العقلي نابع من العقل وهو العقل الصوفي وليس العقل الفلسفي ، نور

= ما يجوز ثبوته ونفيه » القول المفيد ص ٤ ؛ السنوسية ص ٢ ؛ الخلاصة ص ٢ ؛ تحفة المريد ص ٣١ ؛ جامع زبد العقائد ص ١٤ ؛ ص ٢٣ - ٢٦ ؛ « فالايمان بالله على ثلاثة أقسام : واجب ومستحيل وجائز فالواجب عشرون صفة ، والمستحيل عشرون صفة . أما الجائز فواحد . والجملة واحد وأربعون عقيدة » جامع زبد العقائد ص ٢ ؛ اتحاف المريد ص ٣٢ - ٣٥ ؛ تحفة المريد ص ٣٠ ؛ شرح الخريدة ص ١٥ ؛ « فجملة الاحدى عشرة الواجبات على الاحدى عشرة المستحيلات اثنتان وعشرون عقيدة ، ويضاف إليها الجائز الواحد فتبقى الجملة ثلاثة وعشرين عقيدة » جامع زبد العقائد ص ٢٤ ؛ « يدخل في وجوب الوجود ما يدخل تحت جزء الاستغناء من الواجبات الاحدى عشرة وأضدادها كذلك والجائز الواحد ، ويدخل في استحقاقه تعالى العبادة ما يدخل تحت جزء الافتقار من الواجبات التسعة والمستحيلات التسعة » جامع زبد العقائد ص ٢٥ ؛ السنوسية ص ٢ ؛

فكل من كلف شرعاً وجبا	عليه أن يعرف ما قد وجبا
لله والجائز والممتنعا	ومثل ذا لرُسْله فاستمعا

جوهرة التوحيد ص ٩ ؛ الخريدة ص ١٠ - ١٢ ؛ شرح الخريدة ص ١٠ ؛ وسيلة العبيد ص ٢ ؛ الحصون الحميدية ص ٧ - ٨ ؛ الخلاصة ص ٤ ؛ شرح العقيدة ص ١٩ ؛ اتحاف المريد ص ١١١ ؛ الانصاري ص ٥ ؛ وسيلة العبيد ص ٤٧ ، ص ١١ ؛ القول المفيد ص ٤٧ - ٥١ ؛ التحقيق التام ص ٢ .

(١٢٤) « الصفات على ثلاثة أقسام : القسم الأول ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل العقلي وهو ما توقفت عليه

يقذفه « الله » تعالى في القلب تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية ، محله القلب . وبالتالي ينكر الشراح المتأخرون عمل العقل التحليلي الاستدلالي نظراً لازدواج الأشعرية مع التصوف . أما الحكم الشرعي فخطاب « الله » تعالى المكلَّف بأفعال المكلفين بالطلب أو الاباحة أو الوضع « فالله » أيضاً واضع الحكم الشرعي . وتعود نظرية الحكم إلى نظرية العلم عند الشرح فيسقط الوجود من الحساب . وتعود بعض أقسام العلم مثل الضروري والنظري . فينقسم كل من الواجب والممكن والمستحيل إلى ضروري ونظري وبالتالي تكون الأقسام ستة وتتفاوت الأمثلة بين الأجرام السماوية والمفاهيم الرياضية[١٢٥] . كما ينقسم كل حكم الى لِذَاتِهِ ولغيره . هناك واجب لذاته وواجب لغيره . والواجب لذاته ينقسم الى مطلق ومقيّد . فالواجب الذاتي المطلق مثل ذات « الله » وصفاته ، والمقيد، مثل التحيز للجرم . والواجب لغيره كوجود شيء من الممكنات في زمن علم «اللّه» ووقوعه فيه. كما ينقسم المستحيل إلى: لِذَاتِهِ ولغيره. والمستحيل لذاته إلى مطلق ومقيّد . فالمستحيل لذاته المطلق كالشريك « الله » تعالى ،والمقيد كعدم تحيز الجرم . والمستحيل لغيره كوجود شيء من الممكنات في زمن علم « الله » وعدم وقوعه . وظيفة هاتين القسمتين لذاته ولغيره ، والمطلق والمقيّد لافساح المجال لذات « الله » وصفاته وهو الموضوع الأول بعد نظرية الوجود . وواضح فيها دخول تحيز الجرم مع « الله » على نفس مستوى التحليل والتماثل مشابهة واختلافاً وان كان الله في المطلق وتحيز الجرم في المقيد وكأن الطبيعيات تأبى إلا أن تفرض نفسها على الإلهيات ، وكأن الإلهيات تظل خاوية أو معلقة في الهواء دون ارتكازها على الطبيعيات[١٢٦] .

---

(١٢٥) « الواجب الضروري مثل التحيز للجرم والواحد نصف الاثنين والنظري كالواجبات « لله » وكالواحد نصف سدس الاثني عشر أو كذات « الله » وصفاته . وكذلك ينقسم المستحيل إلى ضروري كقدم تحيز الجرم ونظري كالشريك « لله » . وينقسم الجائز إلى ضروري كاتصاف الجرم بخصوص الحركة والسلب ونظري كتغيب الطبع » . الخلاصة ص ٥ ؛ تحفة المريد ص ٣٠ ؛ شرح الخريدة ص ١٤ ـ ١٥ .

(١٢٦) الانصاري ص ٥ ؛ الخلاصة ص ٤ ؛ شرح الخريدة ص ١١ ، ص ١٥ ؛ التحقيق ص ٤ ـ

والأحكام الثلاثة أمور اعتبارية صرفة لا وجود لها إلا في الذهن ، مقولات للشعور ، ومفاهيم للعقل ، وعلى أقصى تقدير مناطق صورية يضعها الشعور لتحليل الوجود . وقد حاول البعض جعلها أموراً وجودية والقفز من فوق العقل الى الطبيعة ومن داخل الشعور الى العالم الخارجي لأن الوجوب واجب بنفسه وليس باعتبار العقل ولأن نقيضه اللاوجوب وهو عدمي وبالتالي فهو وجودي وأنه لو كان امكانه عدمياً لم يكن الممكن ممكناً . والحقيقة أنها أمور اعتبارية صرفة لا وجود لها في الخارج الا من حيث افتراض الدليل الانطولوجي وهو افتراض ايماني صرف وانتقال من الفكر الى الوجود قفزاً وافتراضاً بناء على معطيات الايمان ومطلب النفس وحديث الروح ومناجاة « الله »[127] . وبالتالي فهي لا تثبت شيئاً بالفعل ومحاولة استعمالها بعد ذلك لإثبات وجود « الله » لا تثبت شيئا بالفعل ولا تثبت الا موجودات ذهنية خالصة . ولا سبيل إلى تحققها في الخارج إلّا كمشروع يتحقق بالفعل من خلال الجهد. والخارج قابل للتشكل طبقاً لهذه المقولات الذهنية الأربع حتى يتحد معها تماماً عندما تتحقق هي بالفعل وبالتالي يتم التوحيد بين العقل والوجود . هي أقرب الى المطلب النفسي أو الأخلاقي أو النزوع النفسي منها الى التصور البديهي أو المقولة المنطقية . وبهذا المعنى تكون أقرب الى الوجود كقصد أو اتجاه أو حالة دون أن تكون وجوداً بالفعل الا بعد التحقق . كما أنها تدل على أحكام قيمة . فالواجب أشرف من الممكن، والمستحيل مجرد سلب للواجب عن طريق القلب وليس له وجود أصلي . ويظهر ذلك بوضوح في الشروح المتأخرة عندما يخف تحليل العقل وتظهر شدة الانفعال ، وكذلك في الحواشي عندما تخف حدة العقل وتظهر وطأة الانفعال[128] . وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليه كأساس ميتافيزيقي

= ٥ ، الحصون الحميدية ص ٨ ـ ٩ ؛ رسالة التوحيد ص ٢٩ ؛ جوهرة التوحيد ص ١٠ ـ ٦٢ ؛ تحفة المريد ص ٢٣ ـ ٢٦ ، ص ٣٠ ، اتحاف المريد ص ١١٠ .

(١٢٧) أنظر نقد الدليل الانطولوجي في كتابنا « نماذج من الفلسفة المسيحية » ص ١١٨ ـ ١٣٠ .

(١٢٨) « وإنما قدم الواجب لشرفه ، وأخر المستحيل لانحطاطه لأنه يرجع للسلب والثبوت أشرف منه ووسط الجائز لأن فيه شائبة-الثبوت،وشائبة السلب » تحفة المريد ص ٣٠ ؛ « قدم الواجب لشرفه » تحفة المريد جـ ٢ ، ص ٢٣ .

لدليل الحدوث . وليبق دليل الحدوث دليلاً بعدياً خالصاً يعتمد على مقدمات حسية صرفة . وفي نهاية الأمر تكشف هذه الأحكام الثلاثة إلى علاقة الاستقلال بالتبعية وهي علاقة الوجوب بالامكان . فالوجوب استقلال والامكان تبعية ، وهي بنية العلاقة الاجتماعية على مستوى التجريد والتبرير العقلي الذي يأخذ صيغة الايمان(١٢٩) .

ب ـ أحكام الوجوب : يصعب اصدار أحكام على الوجوب كمقولة مجردة ومن ثم كانت معظم الأحكام على الواجب . فالواجب واجب لذاته ولا يكون واجباً بغيره . إذ أن الواجب اما أن يكون ذاتياً أو غيرياً أو وضعياً أو وقتياً . والواجب لذاته ينافي الواجب لغيره ، فهو الوجود المستقل الذي لا يحتاج في وجوده إلى غيره وهو « واجب الوجود » الذي لا يحتاج في وجوده إلى سبب أو مرجح كما يقول الحكماء . وبالتالي فهو يمثل أعلى درجة من درجات الاستقلال والاكتفاء الذاتيين . كما أنه بسيط ليس مركباً لا في الذهن ولا في الخارج فالبساطة من صفات المثال لأن الوجود في الخارج محتاج والمحتاج ممكن . لا يتركب عن غيره ، واجب من جميع جهاته لأنه بسيط لا تركيب فيه. لا يصح عليه العدم . لا يزيد وجوده على ماهيته بل وجوده عين ماهيته وماهيته عين وجوده . لأن الوحدة اكمل من الكثرة والهوية أشرف من الاختلاف فليس وجوبه زائداً على وجوده . ولا يكون مشتركاً بين اثنين لأنه نفس الماهية ، واحد لا يقبل الشركة . يجوز أن تعرض له صفات تستلزمها ذاته فيكون الوجوب الذاتي صفة لتلك الهوية فقط وسائر النعوت واجبة لوجوب تلك الهوية وتكون الوحدة صفة لتلك الهوية . وتبدو هنا ارهاصات الإلهيات وموضوع الصلة بين الذات والصفات والوحدة بينها والاختيار الاعتزالي ابتداء من مقدمات نظرية أشعرية في نظرية الوجود . وقد برز ذلك في الحركات

(١٢٩) المواقف ص ٤٢ ـ ٤٣ ، ص ٦٨ ـ ٧٨ ؛ طوالع الأنوار ص ٥٢ ؛ المقاصد ص ٣٣٧ ـ ٣٤٢ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢ ؛ المحصل ص ٤٢ ـ ٤٣ ؛ معالم أصول الدين ص ١٢ ؛ التحقيق التام ص ٢١ ـ ٢٣ ؛ رسالة التوحيد ص ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، السنوسية ص ٢ ؛ جوهرة التوحيد ص ٩ ؛ جامع زبد العقائد ص ٢ ـ ٤ ، ص ٧ ـ ٨ ؛ الحصون الحميدية ص ٧ ؛ تحفة المريد ص ٣٠ .

الاصلاحية المعاصرة عندما تمت المزاوجة بين أحكام الموجودات وصفات « الله » وبالتالي لم يعد هناك فصل بين نظرية الوجود وموضوع الذات والصفات وبعد أن كان واجب الوجود تحليلاً للوجود أصبح حكماً عقلياً من احكام الذهن ثم واجباً شرعياً وانتقل بذلك التوحيد من الوجود الى العقل ثم من العقل الى الفعل(١٣٠) .

واجب الوجود هي نقطة البداية في نظرية الوجود وقمتها في آن واحد ، والركن الأساسي في التوحيد كما يبدو في موضوع الذات والصفات . فهو أقصى ما وصل اليه علم الكلام من تجريد . يعبر عن التصور المثالي للعالم ، ووريث التصور الديني التقليدي ، وآخر ما وصل إليه نمو « الثيولوجيا » إلى « أنطولوجيا » . وعلى هذا النحو يُعد بحثاً عقلياً خالصاً أو تحليلاً انطولوجياً صورياً تعبيراً عن الطهارة الدينية تعبيراً عقلياً مجرداً . اكتمل الخطاب العقلي المثالي ولم يعد يعطي جديداً أو يتغير تغيراً نوعياً بل ظل يعبر عن التصور الديني للعالم . وبالتالي يمكن الاضافة في وصف احكام واجب الوجود كلما اشتد التوتر الديني وازدهرت العواطف دون خروج على أوصاف الاستقلال الذاتي والبساطة والهوية والوحدة وكأنها ارهاصات الوعي الخالص قد بدأت. تقلص الفكر الموضوعي وضمر وأصبح مرتكناً كلية على الفكر الذاتي الخالص في صورة عقليةمجردة .لم يعدهناك موضوع بل مجرد قوالب ذهنية صورية تعبيراً عن الطهارة العقلية وبمجموعة من الألفاظ المختارة القابلة للقسمة الثنائية التي تساعد على التعبير عن هذه الطهارة بحركة من الأعلى الى الأدنى أو من الأدنى الى الأعلى(١٣١) .

---

(١٣٠) المواقف ص ٧٠ ـ ٧١ ؛ نهاية الاقدام ص ١٥ ـ ١٧ ؛ معالم أصول الدين ص ١٢ ـ ١٣ ؛ المحصل ص ٤٣ ـ ٤٦ ؛ طوالع الأنوار ص ٥٤ ؛ رسالة التوحيد ص ٣١ ـ ٣٢ ؛ جوهرة التوحيد ص ١٠ .

(١٣١) في « أساس التقديس » للرازي مقدمات ثلاث عن الوجود أ ـ في دعوى وجود موجود واثباته بعشرة أوجه . ب ـ في أنه ليس كل موجود يجب أن يكون له نظير وشبيه جـ ـ في بيان قول القائلين بأنه تعالى جسم . لكن هذه المقدمات الثلاث ليست نظرية في الوجود بل الفصل الأول للقسم الأول « في الدلائل على أنه تعالى منزه عن الجسمية » أي أنها مقدمة للإلهيات وليست=

وفي حقيقة الأمر إن أوصاف واجب الوجود ، الاستقلال ، والبساطة ، والوحدة ، والهوية ، كلها أوصاف المثال الذي يفرض واقعه ويعبر عن مطلب واقتضاء . وليس افتراضاً أو ملجأ أو ملاذاً أو عوناً أو نصراً ناتجاً عن ضعف وعجز أو كراهية وعدوانية كما هو الحال في الفكر الديني . هو الواجب الذاتي والاحساس بالأمانة والرسالة والتضحية ، لا يقبل المساومة أو النسبية ، وهو لفظ مشترك مما يدل على أنه ليس متفرداً بالوصف. فواجب الوجود في نفس الوقت يعبر عن عواطف دينية وأحكام عقلية ومناطق وجودية وأهداف انسانية وقوانين تاريخ . ليس واجب الوجود كائناً مشخصاً يحس ويشعر ، يسمع ويرى ، يتكلم ويريد ، بل هو المثل الانساني الأعلى وغاية الانسانية القصوى ، موجود دائماً كامكانية ويتحقق بالفعل من خلال الجهد الانساني. فهو موجود في النفس كدافع وباعث واتجاه وقصد ، وموجود في الذهن كتعالٍ وتجاوز ومفارقة ، وموجود في الواقع كبناء اجتماعي مثالي متوحد في أمة، وموجود في التاريخ كقانون حركة وتقدم .

واجب الوجود تصور أخلاقي اجتماعي سياسي تاريخي وما الذهن أو الوجود إلا وسائل تعبير وصياغة أو اطار مرجع واحالة . الواجب هو الواجب الاخلاقي ، والواجب الأخلاقي هو الواجب العقلي والواجب الانطولوجي . فنظرية القيم هي أساس نظرية المعرفة ونظرية الوجود. « الابستمولوجيا» و« الانطولوجيا » كلاهما تعبير عن « الاكسيولوجيا » . الوجود هو الوجود الخلقي أي نزوع النفس نحو مطلب وغاية ومثال . كل أحكام واجب الوجود هي في الحقيقة تعبير عن ضرورة الخير الأقصى والنفع العام ومصالح أمة وأهدافها القومية المعبرة عن الأهداف الانسانية جمعاء . هو تعبير عن مطلب نفسي أكثر منه وصفاً لواقع حاضر من أجل تطويع الواقع للمطلب وتوجيهه بالمثال . ولما كان المطلب قد يتحقق وقد لا يتحقق فإنه يصبح مشروطاً بالفعل ، ويتحول الوجوب إلى امكانية محضة ولا تتحول الى

= مقدمات للعلم ككل فضلاً عن أنها أقرب إلى الإلهيات وموضوع الذات والصفات أو التشبيه والتنزيل والتأويل . لذلك تركنا تحليلها إلى الفصل الخامس عن الذات . أساس التقديس ص ٤ - ٢٦ .

وجـوب إلا بالفعـل . فـالـوجـود الحقيقي هـو الممكن الـذي يتحـول الى واجب . الواجب في البداية ممكن وفي النهاية واجب وامام العاجز مستحيـل . الواجب ممكن قـد تحقق والمستحيل ممكن امتنـع . ولمـا كـان الفعل لا حدود لـه فـالمستحيـل غـير واقع[١٣٢] .

جـ - **احكام الامكان** : وكما كانت أحكام الوجوب هي أحكام الواجب فإن احكـام الامكان هي أيضـاً احكام الممكن . والممكن لـذاته هـو الـذي لا يلزم من فرض وجوده ولا من فرض عدمه من حيث هو محال . أي أن تعريفه بالاضـافة الى الاستحـالة وليس تعـريفاً للممكن لـذاتـه . فـالممكن إحـدى لحـظات الانتقـال الى الواجب نافيـاً المستحيل . وتقـوم احكامـه كلها عـلى لغة الاحتيـاج . فالممكن هـو المحتـاج إلى سبب . وتصوره ضـروري لأن الممكن هـو الذي يستـوي طـرفـاه ولا يتـرجح أحـدهما إلا بسبب . ويمكن أن يكـون تصوره استـدلالياً إذ أنـه يقوم عـلى الترجيح بين المتساويين أو ابتداء من الوجود والعـدم بلغة الحكـماء . والاحتياج هـو الحـدوث بلغة المتكلمـين أو الامكان مـع الحـدوث أو الامكـان بشـرط الحـدوث. الممكن مفهوم متيافيزيقي والحدوث مفهـوم طبيعي .لذلـك آثر المتكلمـون بعد ذلـك الحـديث عن أحكام القـديم ، وهو الـواجب عند الحكـماء ، وأحكام الحـادث وهو الممكن عند الحكماء . وكأن الفرق بينهم هو فقط في درجة التجريد بـين الميتافيـزيقا والفيزيقا ، بين ما وراء الطبيعة والطبيعة . ليس أحد طرفي الممكن بأولى من الآخر لذاته نظراً لضرورة المرجح . يحتاج الممكن إلى علة تكون سبب وجوده . والامكان لازم للماهية وإلا أصبح ممتنعاً وهو ذو ماهية وأن ماهيته تحدث من خلال التحقق .

(١٣٢) « الله » اسم لموجود واجب الوجود موصوف بالصفات منزه عن النقائص والآفات . الله علم على الذات الواجب الوجود المستحق العبادة ومعنى الإله عند المتأخرين هو المستغني عن كـل ما سـواه المفتقر إليه كل ما عداه ، ومعناه عنـد المتقدمـين هو الـواجب المستحق للعبادة . والألـوهية عنـد المتأخرين هي عبارة عن استغناء الإله عن كل ما سواه وافتقار كل ما عداه إليه تعالى . وأمـا عند المتقدمين فهو عبارة عن وجوب وجوده واستحقاقه للعبادة . ومعنى لا إله إلاَّ الله عند المتأخرين لا مستغنى عن كل ما سواه ولا مفتقراً إلى كـل ما عـداه إلا الله . ومعناه عنـد المتقدمـين لا واجب الوجود ولا مستحقاً للعبادة إلا الله تعـالى فيدخـل فيه واجب الـوجود » جـامع زبـد العقائـد ص ٢٥ .

لا يستغني الممكن في حال بقائه عن المؤثر . ولما كان الممكن أساساً هو الذي لا يوجد بذاته بل يحتاج في وجوده إلى علة أو سبب فهو تابع غير مستقل ، مركب غير بسيط ، تختلف أجزاؤه ولا يتمتع بهوية مع ذاته ، متعدد وليس واحداً ، صفاته إذن مقابلة لصفات الواجب . لا يتحقق إلا لعلة أو سبب أو باعث . تحركه الدوافع. تصور القدماء أن علته وسبب وجوده من خارجه ، وهي من داخله ، من طبيعة الفصم فيه وليست مفروضة عليه ، يتحقق بفعله الطبيعي وبتلقائيته وبارادة حرة كامنة فيه وليس بفعل الآخر فيه . بل إن الحركات الاصلاحية الحديثة لم تتخل عن لغة الاحتياج . فالممكن يقتضي الواجب ويحتاج إليه ولكن الواجب لا يحتاج إلى الممكن ولا يقتضيه . والرجحان مقولة انسانية خالصة تعبر عن وجود الاحتمال في السلوك وعن حرية الاختيار ووجوب البواعث على الترجيح . كما أن الحاجة مقولة إنسانية تعبر عن موقف إنساني خالص لأن الطبيعة لا تحتاج[١٣٣] . والاستغناء مقولة إنسانية فالطبيعة لا تستغني عن شيء ولا تفتقر إلى شيء . الوجود الانساني الهش في لحظات الضعف والخور وفي أوقات الهزيمة والعجز هو الذي يحتاج ويفتقر إلى غيره لا إلى ذاته. إن أهم صفة في الممكن هي الزمان والحركة . فالممكن في الحاضر والمستقبل أما الماضي فقد تحول إلى واجب ، وهو وجود إنساني خالص ، ولا ممكنات خارج الموقف الانساني[١٣٤] . وفي حقيقة الأمر إن علاقة الواجب بالممكن علاقة الاحتياج إنما تكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وبنيتها إذ لا يحتاج السيد إلى العبد في حين أن العبد يحتاج إلى السيد . لا يحتاج الراعي إلى الرعية في حين تحتاج الرعية إلى راعٍ ، وهي صورة التسلط ونموذج القهر . وإذا كانت الممكنات متعددة والواجب واحد وبالتالي فعلاقة الواجب بالممكن هي علاقة الواحد بالكثير ، علاقة الحاكم بالمحكومين ، وهي نفس العلاقة

---

(١٣٣) المحصل ص ٥٠ ـ ٥٤ ؛ معالم أصول الدين ص ١٣ ـ ١٥ ؛ طوالع الأنوار ص ٥٥ ـ ٥٩ ؛ المقاصد ص ٢٥٧ ـ ٢٧٣ ؛ شرح المقاصد ص ٣٥٨ ؛ رسالة التوحيد ص ٢٦ ـ ٣٠ .

(١٣٤) « الممكنات على خمسة أقسام : ممكن وجد وانقضى ، وممكن موجود في الحال ، وممكن سيوجد في المستقبل ، وممكن في علم « الله » أنه لا يوجد ، وممكن في علم « الله » أنه لا يعدم » جامع زبد العقائد ص ٧ .

بين « الله » والعالم . ويكون السؤال إذن : كيف يتغير هذا النمط في العلاقات ؟ هل يتغير بتغير الفكر الديني حتى يتغير الوضع السياسي أم يتغير الوضع السياسي حتى يتغير الفكر الديني؟[١٣٥] . وهل صحيح أن السيد لا يحتاج إلى العبد وإلا فمن الذي سيقوم بالعمل اليدوي وبالانتاج ؟ وهل صحيح أن العبد يحتاج إلى السيد وإلا ففيم كانت ثورة العبيد ؟ .

ولم يفصل القدماء أحكام المستحيل كما فصلوا أحكام الواجب والممكن نظراً لأن المستحيل كالعدم ليس شيئاً ، وبالتالي لا يمكن تحديده إلا إضافة إلى الواجب والممكن . فالمستحيل لذاته لا يطرأ عليه وجود لأن العدم من لوازم ماهيته . والمستحيل لا يوجد لا في الخارج ولا في الذهن . والمستحيل في حقه « تعالى » ما لا يتصور في العقل وجوده . وفي حقيقة الأمر ، المستحيل أيضاً مقولة إنسانية خالصة من مقولات المنطق واللغة وليس من مقولات الفعل والسلوك أي أنها مقولة نظرية وليست مقولة عملية . فالمستحيل في المعنى اجتماع الضدين إذ أن الضدين لا يجتمعان . والمستحيل في القول هو القول المتناقض بأن يقال الانسان قائم قاعد أو قائم ولا قائم أو أن الانسان حر عبد أو حر ولا حر . والمستحيل في المعنى والقول هو كل قول لا معنى له وإلا كان لغو كلام . أما الكذب فليس محالاً كموقف إنساني وإن كان محالاً بمعنى أنه قول متناقض مع الواقع طبقاً لنظرية التطابق . ولكنه لما كان يبدو في موقف إنساني حي وليس في منطق صوري تجريدي تشابك مع الموقف الانساني ودخل في نطاق الرؤى والتأويلات والاهواء والمصالح وأصبح جزءاً من منطق الاشتباه[١٣٦] .

---

(١٣٥) تمتلىء «قضايا معاصرة» بأجزائها الأربعة بمعالجة هذه القضية من أجل حل قضية فقر العمل السياسي وانقلاب الثورة إلى ثورة مضادة . أنظر مثلاً « الرأسمالية والدين ، حوار مع ماكس فيبر » جـ ٢ ؛ « الضباط الاحرار أم المفكرون الأحرار » ج ٣ ، وأيضاً « التراث والتجديد » أزمة التغير الاجتماعي ص ٣٧ ـ ٧٥ .

(١٣٦) رسالة التوحيد ص ٢٥ ـ ٢٦ ؛ تحفة المريد ص ٣٠ . ويعرض الاشعري لمذاهب المتكلمين في المحال منهم من جعله في المعنى ومنهم من جعله في القول المتناقض ومنهم من جعله الكلام الذي لا معنى له . أما عند ابن الراوندي فهو « كل قول أزيل عن منهاجه واتسق إلى غير سبيله وأحيل عن جهته وضم إليه ما يبطله ووصل به ما لا يتصل به مما يغيره ويفسده ويقصر به عن موقعه =

د ـ **أحكام القديم** . وتنتهي كل المباحث الوجودية الى قسمة الوجود الى قديم وحادث . وهنا تبدو نظرية الوجود وكأنها مقدمة للإلهيات أو تعبير عقلي عنها . « الله » هو القديم ، والعالم هو الحادث حتى أنه ليصعب التمييز بين نظرية الوجود وبين الموضوع الأول في العلم وهو التوحيد ، ويكون دليل الحدوث هو حلقة الاتصال بين نظرية الوجود وموضوع التوحيد بل ويتعداها أحياناً الى موضوع الايمان عندما ينقسم الايمان أيضاً إلى قديم وحادث بل وكل شيء إلى قديم وحادث(١٣٧) . ولا يوجد انتقال طبيعي من مقولتي الواجب والممكن الى مقولتي القديم والحادث وكأن هناك افتراضاً مسبقاً بأنهما شيء واحد يعبران عن عملية شعورية واحدة بلغتين مختلفتين الأولى لغة الميتافيزيقا والثانية لغة الطبيعة ، الأولى لغة الحكماء والثانية لغة المتكلمين ، وكأن المتكلمين كانوا أقرب الى علماء الطبيعة من الحكماء .

ويتحدث القدماء عن القديم والحادث لا عن القدم والحدوث بدافع تشخيص المفاهيم حتى تساعدهم في تصوير الذات المشخص والحديث عنه . فيجعلون أحكام القديم اثنين . الأول انه لا يستند الى القادر المختار أي أنه لا يتأثر بالانسان وحرية أفعاله . لا يؤثر فيه شيء ، وخارج عن نطاق الحرية الانسانية كالعالم والوجود . يتصف القديم بأنه مغاير للحرية الانسانية . أما الحكماء فإنهم اسندوه إلى الفاعل لأن إيجابه بالذات وليس بالفعل ، وهو تصور يجعل القديم أكثر حيوية ونشاطاً نظراً لاتصافه بالفعل وليس بالقدم . وقد حذا بعض المتكلمين حذو الفلاسفة وجوّزوا استناد القديم الى الموجد بالتأثير فيه ودوام هذا الأثر . ولكن ما زالت الأغلبية ترى عدم جواز استناده الى المختار لأن الاختيار مسبوق بقصد الايجاد أي أنه

= وافهام معناه فهو محال وذلك كقول القائل أتيتك غداً وسآتيك أمس » مقالات جـ ٢ ، ص ٦٨ ؛ كما يعرض الأشعري لموضوع هل الكذب محال ويعدد اجابات المتكلمين في ثلاث أ ـ المحال لا يكون كذباً والكذب لا يكون محالاً . ب ـ كل كذب محال وكل محال كذب . جـ ـ الكذب ما ليس بمحال والمحال كله كذب . مقالات جـ ٢ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(١٣٧) الانصاف ص ١٦ ـ ١٩ ؛ ص ٢٢ ـ ٢٨ ؛ التمهيد ص ٤١ ؛ المحصل ص ٥٥ ؛ جامع زبد العقائد ص ٨ ؛ الشامل ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

مشوب بالحدوث والامكان أو بالعدم والاستحالة . ويكون الخلاف في القديم هل هو موجب أم مختار ؟ ولا حرج في جعله مسبوقاً بقصد الاختيار لأن الاختيار هنا بالذات لا بالزمان . أما عدم جواز استناده الى الموجب القديم فلأن ذلك يؤدي إلى الحدوث . وبالتالي يظل السؤال عن القديم ، هل هو ضرورة أم حرية ؟ وهو الفرق بين المتكلمين والحكماء بوجه عام ؟(١٣٨) .

والحكم الثاني للقديم أنه يوصف به ذات « الله » تعالى اتفاقاً عند الاشاعرة . وأنكره المعتزلة لفظاً وقالوا به معنى . فالقول بالقدم مشابه لقول النصارى في اثبات اقانيم ثلاثة قديمة : العلم والوجود والحياة . واثبت المتكلمون سبعة : العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والارادة(١٣٩) . وهنا يدخل موضوع قدم الصفات استباقاً قبل أوانه وكأن « القديم » تمهيد مسبق للإلهيات في موضوع الصفات . وفي حقيقة الأمر إن القديم ليس صفة للذات لا لفظاً ولا معنى بل هو تجربة انسانية صرفة ايجاباً وسلباً . فالقديم يعني الأصل والجذر والامتداد في الماضي والعمق التاريخي . أما إذا تحول الى هروب الى الماضي من حيث هو قيمة في ذاته تعويضاً عن أزمات العصر وعجزاً عن الدخول في تحدياته وانعدام الرؤية المستقبلية فإنه يصبح تجربة سلبية(١٤٠) .

---

(١٣٨) جوز الآمدي اسناده إلى المختار ومنع الرازي اسناده إلى الموجب القديم . المواقف ص ٧٤ - ٧٦ .

(١٣٩) أثبت المعتزلة لله أربعة أحوال : الوجود الحياة والعلم والقدرة وزاد أبو هاشم خامسة علة للأربعة وهي الألوهية وكذلك الرازي . ولم يجوز المتكلمون وصف غير الله بالقديم أما الحكماء فجوزوا قدم العالم . كما أثبت الحرانيون من المجوس قدماء خمسة . اثنان عالمان حيان وهما الباري والنفس ، وثلاثة لا عالية ولا حية وهي الهيولى والفضاء والدهر .

(١٤٠) يستعمل القرآن لفظ « القديم » استعمالاً سلبياً في آيات ثلاث ﴿ قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم ﴾ (١٢ : ٩٥) ؛ ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ (٣٦ : ٣٩) ، ﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ﴾ (٤٦ : ١١) ، ومرة واحدة « الأقدمون » ، ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ (٢٦ : ٧٦) . وفي الأمثال العامية يتراوح الاستعمال بين الايجاب والسلب . فبينما يعجب جمّاع الآثار بالتحف « القديمة » والمدينة القديمة لبعدها الزمني وعمقها التاريخي ويعجب المتذوقون بالجبن=

هـ - أحكام الحدوث . وبالرغم من تشخيص القدم في « القديم » إلا أن الحدوث لم يتشخص هنا في « الحادث » لأنه لا حاجة له فالتفكير في الطبيعة وفي الموجودات لا يحتاج الى تشخيص . وكما أن للقديم حكمين فللحادث حكمان . الأول ان الحادث هو المسبوق بالعدم أي أنه كان معدوماً قبل أن يكون موجوداً . أوله العدم . أو هو المسبوق بالغير وهو تعريف أعم . ويركز القدماء على البداية دون النهاية مع أن الحادث هو ما هو مسبوق بالعدم وما ينتهي الى عدم . ويبدو أن السبب في ذلك هو ربطه بالقديم عن طريق القلب ، فعكس القديم الحادث وعكس الباقي هو الفاني وهو ما سيظهر في أول موضوع من الإلهيات في أوصاف الذات . والثاني أن الحدوث بهذا المعنى يستدعي مادة ومدة عند الحكماء أي مادة وزماناً . ومع ذلك لم يستطع الحكماء حل قضية القدم والحدوث لهما بالرغم من التفرقة بين الإمكان الوجودي والإمكان الاستعدادي. فقال الحكماء بقدم المادة وقدم الحركة وقدم الزمان[141] . ويبدو أن هذين المفهومين في حقيقة الأمر القدم والحدوث كان الهدف منهما ايجاد تبرير عقلي لنظرية الخلق . وقد أدى هذا التبرير إلى أن جعل العدم هو الأصل والاساس والوجود ملحق به خارج عنه وطارىء عليه . فالعدم سابق على الوجود. في البداية كان العدم مع أن العدم لا وجود له عند الأشاعرة . ولا تحل النظرية كيفية خروج الوجود من العدم . وهل يخرج الشيء من اللاشيء ؟ وهل تخرج المادة من اللامادة ؟ وإذا كان « الله » سابقاً على الخلق فهل « الله » مساوق للعدم وهل العدم مساوق « لله » ؟ وماذا عن الواسطة بين الوجود والعدم وهو الحال ؟ وهل يتم الخروج بإرادة خارجية أم بتطور طبيعي داخلي ؟ ومن ثم تكون شبهة قدم العالم عند المتكلمين واختياره عند الحكماء لها ما يبررها حلاً لكل هذه التساؤلات . انه الساحر فقط القادر على اخراج الوجود من العدم في هذا النموذج أي الارادة الخارجية القادرة على اخراج شيء من لاشيء أو

= القديم والشاربون بالخمر القديم المعتق ، وارتباط الناس بالقديم « من فات قديمه تاه » إلا أن له استعمالاً سلبياً في « الجزمة » القديمة والأثاث القديم .

(١٤١) المواقف ص ٧٦ - ٧٨ ؛ المحصل ص ٥٧ ؛ المقاصد ص ٢٧٣ - ٢٨٤ ؛ طوالع الأنوار ص ٦٠ ؛ مطالع الأنظار ص ٥٩ - ٦٠ .

هو الفعل المعجز الذي يخرق قوانين العلم والطبيعة . والسحر خداع للحواس ودوران حول انتباه الشعور . أما المعجزات فقد ارتبطت بتاريخ الانسانية في الماضي من اجل تحرير الشعور. وبعد اكمال الغاية : استقلال العقل وحرية الارادة، اصبح الانسان قادراً بعقله على فهم قوانين الطبيعة الثابتة وادراكها ، كما اصبح قادراً بارادته على تسخيرها لصالحه[١٤٢] . إن عيب الحدوث هو جعل العالم تابعاً غير مستقل هشاً ، أقرب الى العدم منه الى الوجود لا استقرار فيه ولا نظام ، طيعاً لارادة قاهرة تسيره كيفما تشاء . وميزته أنه يجعل الانسان قادراً عليه ، طيعاً لقدرته ومستقبلاً لفعله الحر ، يكيفه حسبما يشاء . فينشأ الصراع بين ارادتين ارادة الزعيم الأوحد أم ارادة الجماعة والأمة .

ان مفهومي القدم والحدوث هما في حقيقة الأمر من الأمور الاعتبارية التي توجد في الذهن لا في الخارج . وهما مفهومان متضايفان اذ لا يفهم أحدهما بدون الآخر ، بل ومتعارضان بقدر ما يعطى للأول يُسلب من الآخر ، وبقدر ما يُعطى للآخر يسلب من الأول . ويكون السؤال : أيها الأساس وأيها الفرع ؟ الحادث أولاً ثم بالقلب يتحول الى قديم؟ أم القديم أولاً ثم بالقلب يتحول الى الحادث ؟ ان المشاهدة تثبت أن المعرفة انما تنشأ من خلال الحواس وكما وضح ذلك في نظرية العلم . وبالتالي ينشأ مفهوم الحادث أولاً في ذهن الانسان اذ أنه يعيش في عالم متغير متقلب ، عالم الكون والفساد بتعبير القدماء . ثم يتحول هذا المفهوم بفعل الايمان أو اقتضاء لمطلب نفسي الى النقيض وهو القديم حتى يستطيع الانسان ان يجد اتزانه في العالم بين المثال والواقع ، بين الواجب والممكن أو بين القديم والحادث . فالانسان موجود بين عالمين .

٤ ـ **الوحدة والكثرة** . وتبلغ أيضاً قمة الأبحاث النظرية في مبحث « الوحدة والكثرة » كما كان الحال في مبحث الوجود والعدم ، وهو المبحث الميتافيزيقي الأول كما هو معروف في الفكر البشري[١٤٣] . تظهر نظرية الوجود أيضاً في مبحث

(١٤٢) أنظر كتابنا « لسنج : تربية الجنس البشري » وأيضاً الفصل التاسع عن النبوات .

(١٤٣) نظراً لصعوبة هذا المبحث وطابعه المجرد أيضاً فقد الغي من المقرر حسب منهج ٩٣٦ لقانون رقم =

الوحدة والكثرة ويضم هذه المرة الميتافيزيقا والانطولوجيا وليس الميتافيـزيقا والـطبيعة كما هو الحال في مبحث القدم والحدوث . وهما أيضـاً مفهومـان متضايفـان لا يفهم أحدهما إلا بالإحالة الى الآخر . ولكن بما أنهما مفهومان مجردان ، وليس أحدهما مجرداً والآخر حسياً ، صعب معرفة النشأة الحسيـة لأحد المفهـومين الـوحدة أم الكثـرة ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فالانسان واحد والآخرون والاشيـاء كثيرة فهـل الوحـدة أصل الكثرة استنباطاً أم أن الكثرة أصل الوحدة استقراء ؟ هل الجـدل النازل هـو الأصل أم الجدل الصاعد؟ هل هما منهجان عقليان أم طريقان وجوديان؟ أم عمليتان شعوريتان أم حركتاناجتماعيتان ؟ من الأعلى الى الأدنى أو من الأدنى الى الأعلى أم قانونان تاريخيان من الامام الى الخلف أو من الخلف الى الأمام ؟

أ ـ الوحدة . الوحدة تساوق الوجود عند القدماء فلا وجود بلا وحدة . ولـما كان الوجود كثيراً فـإن الوحـدة تساوق الكثـرة . الوحـدة والتعدد واجهتـان لشيء واحد . والوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم الى أمور مشاركـة فيالماهيـة، في حين أن الكثـرة ما يقـابلها من الاعتبـارات العقلية دون أن تكـون عدمـاً لها أو ضـداً أو مضايفة . فمقابلة الوحدة والكثرة ليست ذاتية بل عرضية . الـوحدة عـدم القسمة الى أمور مشتركة والكثرة قسمتها الى أمور مشـاركة . أمـا الوحـدات العدديـة فهي وحدات مستقلة في حين أن مراتب الاعداد متبـاينة بـالماهيـة . وينقسم الواحـد الى واحد بالشخص وهو الذي يمنع نفس مفهومه عن الحمل على كثيرين ، وإلى واحـد من وجـه وكثير من وجـه وهو الـواحد بـالغير . والـواحد بـالشخص ان لم يكن له مفهوم فهو الوحدة . مثل النقطة وان كان له مفهوم فهو اما ذات تصنع أو تفارق أو تتصل حين تشابه الأجزاء أو تجتمع حين اختلافها وهذا هو الواحـد الانطولـوجي . أما الواحد من وجه والكثير من وجه أي الـواحد لا بالشخص فهـو أما أن يكـون ماهية إذا أطلق على النوع أو يكون جزءاً منها إذا اطلق على الجنس والفصل وإما أن

---

٢٦ مثل مبحث الماهية مما يـدل على الـطابع التجـريدي الصـرف الذي ـ فيـما يبدو ـ لا صلة لـه بالفكر الديني . وهو غير صحيح لأنه فكر ديني مجرد أو فكر عقـلي مثالي كتـطوير للفكـر الديني . المواقف ص ٧٨ ـ ٨٤ .

يكون خارجاً عنها ، ويكون اما محمولاً أو موضوعاً . وهذا هو الواحد المنطقي . كما ينقسم الواحد الوجودي الى تام وناقص ، وينقسم التام الى طبيعي ووضعي واصطناعي . والواحد المنطقي يكون اتحاداً إما بالنوع في المماثلة أو بالجنس في المجانسة أو بالعرض . والواحد بالعرض بالكم مساواة ، وبالكيف مشابهة ، وبالاضافة مناسبة ، وبالشكل مشاكلة ، وبالوضع موازاة ، وبالاطراف مطابقة(١٤٤) . يثبت هذه الأمور الحكماء وينكرها المتكلمون . ويبدو أن اثبات الحكماء هو الذي طغى على انظار المتكلمين نظراً لدخولها كجزء من نظرية الوجود بالرغم من خشية المتكلمين من إثبات المعاني خارج الذهن خشية الوقوع في الشرك . ولما كان اثبات الحكماء صورياً خالصاً فلم يعش في وجدان الأمة . وفي حقيقة الأمر ان هذه الأمور من الاعتبارات العقلية الخالصة أي أنها من وضع الشعور واسقاطها على الواقع . الوحدة والكثرة تصوران أو نظرتان أو قطبان للشعور يشارك فيهما العقل والخيال(١٤٥) . ولكنهما يعبران عن تصور مثالي للعالم الذي هو تجريد للعواطف الدينية والمواقف الاجتماعية والسياسية ، فالوحدة والكثرة في نشأتها ليسا مفهومين رياضيين أو تصورين منطقيين بل وضعان اجتماعيان وموقفان انسانيان . فهناك الواحد والكثير على مستوى الطبقات الاجتماعية والاحزاب السياسية والدول المستقلة . قضية الوحدة والتنوع مثل قضية الهوية والاختلاف تظهر في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والوطنية . هناك نظم واحدية بلا تعدد ، فتظهر نظم تسلط وطغيان . وهناك نظم تعدد وتكثر فيظهر فيها التشتت والتفرق وسيادة الأقوى على الأضعف . وإذا كان القدماء قد صاغوا الأمر على مستوى صوري خالص فإنما يرجع في حقيقة الأمر الى موقف ديني من العالم . فالله هو « الواحد » والخلق هم الكثير وهذا يعبر بدوره عن موقف اجتماعي وسياسي . فالحاكم هو الواحد والمحكومون كثيرون ، وصاحب رأس المال

---

(١٤٤) المواقف ص ٧٨ - ٨٠ ؛ طوالع الأنوار ص ، ٦ - ٦٣ ، ص ٧٤ ؛ المقاصد ص ٢٨٥ - ٢٩٠ ، ص ٣١٨ - ٣٢١ ؛ شرح المقاصد ص ٣٨٧ .

(١٤٥) « الوحدة والكثرة من الاعتبارات العقلية الغنية عن التعريف إلا أن الوحدة أعرف عند العقل والكثرة عند الخيال . ولذلك يقع كل في تفسير الآخر » المقاصد ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

واحـد والمنتجون كثيـرون ، والرئيس واحـد والمرؤوسون كثيـرون ، والحق واحـد والباطل كثير ، والصواب واحـد والخطأ كثير ، والهدى واحـد والضلال كثير، مما يـرجعنا الى طبيعـة المجتمعـات أحـادية الـطرف ومما يحيلنـا الى حـديث « الفـرقـة النـاجية »[146] . لـذلك غـابت في وجداننـا القـومي وحـدة الشخصيـة بـلا نفـاق ومداهنة وتملق ، ووحدة الطبقات الاجتماعية بلا أغنياء وفقراء ، والوحدة الـوطنية بـين فرقاء النضال، والـوحدة السيـاسيـة بـين الـدول المستقلة حـديثـاً ، والـوحـدة الاقتصـادية بـين الـدول المتكاملـة بالـرغم من شعارات وحـدة الهدف ، ووحـدة المصير ، ووحدة الـذات ، ووحدة اللغـة ، ووحدة الـدين ، ووحدة الأمـة . هناك الوحدة بلا كثرة ، في النظام والحكم وكثرة بلا وحدة في الدول والشعوب والمصـالح المتبـاينـة والاهـواء المتضـاربـة ومعـارك الحـدود وحـرب الاذاعـات والتخـوين المتبادل[147] .

ب ـ الكثـرة . أما مبـاحث الكثرة فـإنها في الغالب مبـاحث الإثنينيـة وكـأن الجمـع قد تقلص الى المثنى دون مـا بعده مـع أن الأصوليـين قد جعلوا أقـل الجمع ثلاثة . ويبـدو أن التقابـل بين الاثنـين قسمة عقليـة تساعـد على تجريد العـواطف الـدينية ووضعهـا في صيغة القـديم والحـادث والـواجب والممكن . فـالـواحـد هـو الواجب القديم والكثير هو الممكن الحـادث . والإثنان همـا الغيران . ولا يتحـدان لأن الاختلاف بين الهويتين أو الماهيتين اختلاف بالـذات . الغيْرية نقيض الهويـة . وينقسم الاثنان قسمة عقلية مجردة صرفة . ان اشتركا في الماهية فهما متماثـلان والا فهما متخالفـان . وان اشتركـا في الوضـع فهما متـلاقيان والا فهـما متساويـان وان لم

---

(١٤٦) أنظر مقالنا « الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في وجداننا المعاصر » قضايا معاصرة (٣) « في الثقافة الوطنية » ، وأيضا الخاتمة « من الفرقة المذهبية إلى الوحدة الوطنية » .

(١٤٧) هذه الوحدة في إطار التعدد هي التي يشير إليها القرآن أولاً بالتركيز على الوحدة ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ (١٢ : ٣٩)؛ ﴿وإن هذه أمتكم أمة وأحدة وأنا ربكم فـاتقون﴾ (٢٣ : ٥٢)، ﴿كان الناس أمـة واحدة﴾ وأحيـاناً عـلى الكثرة ﴿ولـو شاء الله لجعلكم أمـة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾ (٥ : ٤٨)، ﴿ولو شاء ربـك لجعل النـاس أمة واحـدة ولا يزالـون مختلفين﴾ (١١ : ١١٨).

يشتركا فهما متباينان . وان امتنع اجتماعهما فهما متقابلان(١٤٨) . وان وجدا معاً فهما اما ضدان أو مضافان. وان كان أحدهما وجودياً والآخر عدمياً فهما اما حقيقيان أو مشهوران . وان لم يعتبر الوجود والعدم فأحدهما سلب والآخر إيجاب . وقد يقتصر الاشاعرة تسهيلاً للقسمة على ثلاثة اقسام : المثلان وهما الموجودان المشتركان في الصفات النفسية ، المشاركة في الوجوب والامكان والاستحالة ، والضدان وهما معنيان يستحيل لذاتهما اجتماعهما في محل من جهة ،ولم يشترط المعتزلة اتحاد المحل، والمتخالفان وهما موجودان لا يشتركان في صفة النفس ولا يمتنع اجتماعهما لذاتيهما في محل من جهة(١٤٩) . والمتقابلان لا يجتمعان عند الحكماء في زمان واحد في ذات واحدة من جهة واحدة . فإما أن يكون أحدهما سلباً للآخر أو لا يكون . والأول هما المتضايفان والا فهما الضدان . ولا يكون التضاد الا بين أنواع جنس واحد . وما يتوهم بخلاف ذلك نحو الفضيلة والرذيلة ونحو الخير والشر فمن العدم والملكة إذ التضاد فيه بالعرض . ولا تنطبق اذن هذه القسمة العقلية الصورية على الأفعال اليومية والمواقف الانسانية . ولا تضاد الا بين الاطراف وذلك ثابت بالاستقراء . وقد يكون التقابل بالذات بين السلب والايجاب أو قد يكون التضاد أقوى التقابلات(١٥٠) . والسؤال الآن ما الحكمة من كل هذه التقسيمات النظرية الصورية مسبقاً دون تجارب تصدقها ودون أي موضوع تشير إليه ؟ هل هي حلول نظرية لمباحث نظرية وكأننا في الرياضيات البحتة وبالتالي استطاعت الأمور العامة أن تعطينا علماً أولانياً لمقولات الفكر ومناطق الوجود أم أننا في فكر مثالي كنوع من التجريد والتنظير للفكر الديني الذي يعبر عن عواطف الإيمان ؟ الا تنتهي هذه المعادلات كلها الى ثنائية « الله » والعالم ؟ اليس موضوع الوحدة والكثرة هو على نحو ما موضوع وحدة الذات وتعدد الصفات أول موضوع في الإلهيات ؟ وهل الحياة الانسانية والتجارب البشرية تتضمن هذه التقسيمات الرياضية ؟ وماذا عن

---

(١٤٨) عند النجار الله مماثل للحوادث في وجوده عقلاً المواقف ص ٨١ ـ ٨٣ .

(١٤٩) هذا هو رأي الأشعري ومنعه المعتزلة المواقف ص ٨٣ .

(١٥٠) المواقف ص ٨٠ ـ ٨٤ ؛ المقاصد ص ٣٩٠ ـ ٣٩٦ ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٧ ، الدر النضيد ص ١٤٠ ؛ أشرف المقاصد ص ٣٠١ .

التقابل والتضاد وعدم الاشتراك في الماهية والتغاير ؟ ألا توجد تجارب انسانية مثل الحب والوفاء والاخلاص والتضحية تثبت امكانية الاتحاد بين الاثنين المتغايرين وأن الهوية أعمق من الاختلاف وأن الواحدية أصل الاثنينية؟ يبدو أن رغبة العواطف الدينية في التمييز بين « الله » والعالم دفعت العقل الى أن يضحي بالتوحيد المطلوب الدفاع عنه . فانقلب الهدف الى هدف مضاد . هذا الاثبات للاثنينية كتغاير مبدأي قد يكون وراء الازدواجية في شخصيتنا القومية وما ترتب عنها من آثار في السلوك[١٥١] . وقد تكون وراء التشتت والتشعب والتضارب في حياتنا السياسية وكأننا أصحاب ديانات ثنوية ولسنا دعاة توحيد!

٥ ــ **العلة والمعلول** : والمبحث الأخير في الأمور العامة هو مبحث « العلة والمغلول » ، مستعار من علوم الحكمة ومن علم أصول الفقه وكأن علم أصول الدين وهو بصدد تأسيس المقدمات النظرية لم يستطع أن يبدع أسساً له واكتفى باستعارة أسسه من العلوم النقلية العقلية الأخرى . ويشمل المبحث أيضاً مفهومين: « العلة » و « المعلول » ، وتوضع العلة قبل المعلول أي الفاعل قبل الفعل ، والسبب قبل المسبب كما هو الحال في الواجب والممكن ، والقدم والحدوث . وهو الوضع الاستنباطي العام الذي يبدأ من الكل إلى الجزء أو ما يسمى بالتنزيل دون البداية بالمعلول والانتهاء إلى العلة استقراءً كما هو الحال في الفكر العلمي بوجه عام . وهناك عدة تعريفات للعلة كلها تكرر نفس اللفظ وتكون أقرب إلى تحصيل الحاصل منها: « ما كان المعتل بها معتلاً » أو « ما أوجبت معلولها عقبها على الاتصال وإن لم يمنعه مانع » أو « التي تغير حكم محلها وتنقله من حال إلى حال » أو « ما تجدد الحكم بتجددها » أو « الصفة الحالة للحكم أو المثيرة له أو المؤثرة فيه أو كل ما أوجب استحقاقه تسميته به أو الصفة الموجبه لمن قام به حكماً »[١٥٢] . فهي كلها تعريفات نظرية لا تختلف كثيراً فيما بينها من حيث دلالاتها . فالمبحث هنا عن الأسس النظرية العامة للعلم وليس تعريفاً محدداً لإحدى مقدماته . وقد تكون معنى

---

(١٥١) أنظر مقالنا « التفكر الديني وازدواجية الشخصية» قضايا معاصرة (١) في فكرنا المعاصر .

(١٥٢) التعريف الأول لابن الراوندي والثاني للكعبي والثالث لمعظم المعتزلة والرابع للاشاعرة.

أي ليست ذواتاً قائمة بل معانٍ خشية التعدي على الارادة « الإلهية » المشخصة وانكار أية فاعلية لها. وقد تكون العلة تصوراً بديهياً ليس في حاجة إلى تعريف(١٥٣) . وفي كل الأحوال يقوم مبحث العلة والمعلول على فكرة الاحتياج مثل مباحث الواجب والممكن والقدم والحدوث . فكل شيء محتاج إلى غيره ، وهو احتياج ضروري . فالمحتاج إليه هو العلة والمحتاج هو المعلول ، ويجعل الاحتياج العلة مستقلة والمعلول تابعاً وتكون العلاقة بينهما علاقة الاستقلال بالتبعية . والعلة لا تتعدى محلها كما هو الحال في العلم الطبيعي ، أو يتعداها كما هو الحال في العلم الإلهي لأن « الله » مريد بارادة حادثة قائمة بذاتها فتوابع الحياة كالعلم والقدرة إذا قامت بجزء من الحي أوجبت للجميع حكمها مع أن هذا يتوقف على الموقف الخاص كما يتوقف على قوة العلة والتأثير وعلى نطاق العلل الطبيعية والموانع والشروط وليس فقط على العلة الأولى المشخصة(١٥٤) . والعلة والمعلول أو العلية والمعلولية اعتباران متضايفان لا يفهم أحدهما إلا بالآخر من لواحق الوجود والماهية ومن الاعتبارات العقلية التي لا تتحقق في الأعيان وإلا لزم التسلسل عند المتكلمين . ولا يجتمعان في شيء واحد إلا باعتبارين كالعلة المتوسطة التي هي علة لمعلولها ومعلولة لعلتها . والسؤال الآن هل هما من لواحق الوجود والماهية أم بحث مستقل من الأمور العامة ؟ وإذا لم يكن لها وجود في الخارج فهل قوانين الطبيعة من وضع الذهن؟

وتطغى مباحث الحكماء على مبحث العلل خاصة في نظرية العلل الأربع : المادة والصورة للمركب والفاعلية والغائية للبسيط. فعند الحكماء لا يكون البسيط قابلاً وفاعلاً ، وهو تصور تنزيهي للبسيط وكأن الفاعلية شرف والتأثر نقص ، وكأن العلية كمال والمعلولية نقص . فالعلة عند الحكماء اما جزء الشيء أو خارجاً عنه .

---

(١٥٣) المواقف ص ٨٥ ـ ٩٥ ؛ المقاصد ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢؛ الشامل ص ٢٧٢ ـ ٢٨٦ ، ص ٦٤٦ ـ ٦٦٩ ، ص ٦٧٨ ؛ المحصل ص ١٠٤ .

(١٥٤) العلة لا يتعدى محلها عند أكثر الأشاعرة . وأنكره الأستاذ تفريعاً على القول بالحال والبصريون المعتزلة لأن « الله » مريد بارادة حادثة قائمة بذاتها . وكأن الأشاعرة هنا أقرب إلى الفكر العلمي الحسي والمعتزلة أقرب إلى الفكر الديني المثالي ، الشامل ص ٦٧٨ .

والأول اما الصورة ان كان بالفعل أو المادة ان كـان بالقـوة . والمادة لهـا أسماء عـدة فهي القابل والعنصر في البداية « والأسطقس » في النهاية . والمـادة والصورة علتـان للماهية والوجود . أما الثاني فأما ما به الشيء وهو الفاعل أو ما لأجله الشيء وهي الغاية ، وكلاهما علة الوجود . الصورة والمادة للمركب والغايـة لا تكون إلا لفـاعل مختـار . وهنا تبـدو نظريـة العلل الأربع معبـرة عن تصور مثـالي للعالم الـذي يعبر بدوره عن عاطفة دينية متـطهرة . ويبـدو فيها « الله » علة فـاعلة وعلة غائيـة في آن واحد ، متقدم على العالم ولاحقٌ عليه ، يدفع بالارادة ويحرك بالعشق . ثم يستعير المتكلمون بعض أحكام العلل من الحكماء منها أن الواحد بالشخص لا يعلل بعلتين مستقلتين لأن الاحتياج للعلية وليس للعلل واحدة أم كثيرة ولأن العلتين أجزاء لعلة تامة واحدة . وأما المثلان فهما واحد بالنوع ويجوز تعليله بعلتـين مستقلتين . ويمكن لمعلولات كثيرة أن يكون لهـا علة واحدة بسيـطة . وليس السبب في ذلك أن جميـع الممكنات مستندة إلى « الله » فـذلك هـو المطلوب اثبـاته . لـذلك منعـه الحكماء إلا بتعدد آلة أو شرط أو قابل منعاً للاطلاق. كـان يمكن لمبحث العلة والمعلول والأمثلة المعطاة من الحرارة والبرودة والسخونة أن تكون مدخلاً للعلم الـطبيعي وأن يتحول المنهج من القسمة العقلية إلى التجربة الفعلية فينشأ العلم وتتحول ميتافيزيقا الوجود إلى علوم الطبيعة ولأصبح التوحيد مقدمة لنشأة العلم والتـوجه نحو العالم بدلاً من التعبير عن العواطف الـدينية بقسمـة عقلية متـطهرة والاتجـاه خارج العـالم. لقد استطاع الحكماء تفصيل العلل المادية، فالقوة الجسمانية لديهم تفيد أثراً متناهياً في المدة والشدة والعدة لأن كل قوة في المادة لها مقاومـة وحركـة قسر ذاتي . إلا أن تدخل الفكر الايماني التطهري يقضي على الفكر العلمي كي يوحي بأن العلة البسيطة وحـدها هي التي لهـا تأثيـر غير متنـاه . إن بزوغ الفكـر العلمي من خلال الفكـر التـطهري ليبـدو واضحـاً في مبحث العلة والمعلول ويتم الصـراع بـين تعـدد العلل الثانية ووحدة العلة الأولى وكأن مبحث الوحدة والكثرة هو الـذي ساد مبحث العلة والمعلول خاصة عند الحكماء(١٥٥) .

(١٥٥) المـواقف ص ٨٦ ـ ٨٨ ، طـوالـع الأنـوار ص ٦٩ ـ ٧٠ ؛ القـاصـد ص ٣٣٦ ـ ٣٤٨، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٤ ؛ طوالع الأنوار ص ٧٠ ؛ المحصل ص ١٠٥ .

ولكن تبـارى المتكلمـون في مبحث العلة والمعلول لاثبـات امتنـاع الـدور واستحالة التسلسل الى ما لا نهاية وضرورة الانتهاء الى علة أولى ليست معلولة لعلة أخرى وكأن العلاقة الدائرية بين العلة والمعلول، أن تكون العلة معلـولاً وأن يكون المعلول علة إلى ما لانهاية، وكأن هذه العلاقة مضادة للفكر الديني الطولي التـطهري ولماذا يكون الدور ممتنعاً أي أن يكون شيئان كل منهما علة للآخر بـواسطة أو دونها؟ ولماذا التفكير في العلة والمعلول ببداية مـطلقة وفي خط طـولي؟ ولماذا لا تكـون العلة معلولاً ويكون المعلول علة في دورة أبدية مثل الماء والبخار والطاقة والمادة؟ وفي المثل المشهـور بين « الفرخة والبيضة » ، لماذا البحث عن « بيضة » أو « فـرخة أولى » ؟ وأي التصورين أقرب إلى العلم التصور الطولي أم التصور الدائري؟ أي التصورين يعبر عن الفكر الديني؟ صحيح أن العلة مع المعلول فلا معلول بلا علة ولا علة بلا معلول. ولكن حتى هذا لم يصل اليه وجداننـا القومي حتى الآن إذ نـرى عللاً بلا معلولات ، ومعلولات بلا علل، ولا يوجـد رباط ضـروري بين العلة والمعلول ممـا يسبب نقل « التكنولوجيا » في مجتمـع متخلف ، ومعالجـة قضيـة التقـدم من منظور متخلف(١٥٦) .

ولماذا يستحيل التسلسل إلى ما لا نهاية ، ان يستند الممكن إلى علة والعلة إلى علة وهو أقرب إلى تصور اللانهائية أساس التوحيد؟ لماذا لا بد أن نصـل بالضـرورة إلى علة أولى تكون هي علة العلل ؟ أليس هذا هو الفكر الديني المسبق الذي يقوم على افتراض بداية أولى ونهاية أخيرة ، وغاية قصوى وبقاء أبـدي . . . الخ ؟ إن كـل الأسبـاب التي تقـال لاثبـات استحـالـة التسلسـل إلى مـا لا نهايـة لتعبـر عن افتـراضات مسبقـة من العقل التـطهري مثـل أن كل ممكن في حـاجة إلى واجب . هـذا افتراض مسبق ، واسقاط مقولتين دينيتين عقليتـين على مفهـوم علمي طبيعي وهـو العلية . إن امتنـاع التسلسل لا يكـون إلا في أمور مـوجودة بـالفعـل وليست متوهمة أو اعتبارية خالصة . وفي الطبيعة دورات مستمرة ، ولا توجد بدايـة مطلقـة ولا نهايـة قصوى . يقـوم الفكر العلمي عـلى التواصـل والاستمـراريـة وليس عـلى

(١٥٦) أنظر مقالنا« مأساة الأحزاب المتقدمة في البلاد المتخلفة » في قضايا معاصرة (٣) في الثقـافة الـوطنية وأيضاً « التراث والتجديد » ثانياً ، أزمة التغير الاجتماعي ص ٣٧ ـ ٧٥ .

الانقطاع . والعلة والمعلول وما بينهما متناهيان . ولكن ذلك لا يعني تحويلهما أو على الأقل واحداً منهما إلى الضد أي إلى علة أولى . فالدافع لذلك الرغبة في تحجيم العالم ورده الى حدوده من اجل اطلاق قوى طرف آخر تسيطر عليه وتحتويه(١٥٧) . ويجوز أن يؤدي تسلسل العلل إلى زيادة المعلول لأنه يمكن أن يكون لعلة واحدة أكثر من معلول(١٥٨) .

وتتداخل مباحث الأصول في السبب والشرط والمانع والصحة والبطلان ، دون العزيمة والرخصة عند المتكلمين ، وهي احكام الوضع الخمسة(١٥٩) ، كعرض نظري خالص دون أن تكون مرتبطة بالأفعال أو موجهة للسلوك كما هو الحال في علم أصول الفقه . لا تتحقق العلة إلا باجتماع الشرائط وانتفاء الموانع . ولكن الشرط جزء من الفاعل لأن الفاعل لا يكون إلا باستجماع الشرائط وامتناع الموانع . وعدم المانع ليس جزءاً من الوجود بل مجرد عرض طارىء كاشف عن شرط وجودي . ويبين الشرط والمانع أن العلة والمعلول تتعلق بأمور تتحقق وليس بمقولات نظرية صرفة .

ويبدو أن مبحث العلة والمعلول يختلف باختلاف نفي الأحوال أو اثباتها مما يدل على أهمية الحال كواسطة بين الوجود والعدم . فعند اثبات الحال تكون العلة صفة توجب لمحلها حكماً فتخرج الجواهر . العلة هنا صفة وليست مادة وهو أقرب إلى تعريف الأصوليين . وحكم الصفة لا يتعدى المحل . المعلول الحكم الذي توجبه الصفة في محلها . فالمعلول ليس مادة بل حكماً . العلة صفة والمعلول حكم وهو أقرب إلى منطق الأفعال عند الأصوليين منه إلى فلسفة العلم عند الحكماء .

---

(١٥٧) « اننا سنبين انتهاء الكل إلى الواجب بذاته . وعنده تنقطع السلسلة ، وهذا يختفي بالتسلسل في العلل وانما يتم إذا أثبتنا الواجب بطريق لا يحتاج فيها إلى ابطال التسلسل وإلا لزم الدور » المواقف ص ٩٠ - ٩١ .

(١٥٨) المواقف ص ٨٩ - ٩١ ؛ الشامل ص ٦٥٩ - ٦٨٠ ؛ المقاصد ص ٣٥٦ - ٣٧٤ ؛ الدر النضيد ص ١٣٩ .

(١٥٩) هذه هي قسمة الشاطبي في « الموافقات » أنظر أيضاً رسالتنا Les Méthodes d'Exégèse 3ieme partie, 1iere Section, ch. 1. L'acte positionnel pp. 332 – 56 .

وحكم العلة يتعدى محلها ولا يقتصر عليه كما هو الحال عند منكري الأحوال . العلة هنا شاملة وعامة وليست قاصرة وخاصة لأن العلة الأولى تقبع في الما وراء الذهني . والعلة وجودية سواء ضرورة أو استدلالاً وذلك نفي لكون العدم علة . والعلة العقلية مطردة كلما وجد الحكم ومنعكسة ، كلما انتفت العلة انتفى الحكم . وكل مطردة منعكسة وليس كل منعكسة مطردة ، فالاثبات أساس النفي وليس النفي أساس الاثبات . لذلك يظل برهان الخلف برهاناً سلبياً خالصاً . وايجاب العلة ليس مشروطاً بشرط ، انما الشرط في التحقق . ولا توجب العلة الواحدة حكمين مختلفين نظراً لضرورة وجود مقاييس عامة للأفعال . ولا يثبت حكم بعلتين على عكس نفاة الأحوال حتى لا تختلط الأفعال . والفرق بين العلة والشرط أن العلة مطردة والشروط غير مطردة ، والعلة وجودية والشرط قد يكون عدمياً أو متعدداً أو مركباً أو محل الحكم أو صفة ، والعلة لا تتعاكس بخلاف الشرط . والشرط قد لا يبقى ويبقى المشروط . والصفة لها شرط وليس لها علة . والواجب لا يتحقق على عدم الشرط . والعلة مصححة اتفاقاً وفي الشرط خلاف(١٦٠) .

وآخر قسم في مبحث العلة والمعلول يعرضه القدماء هو فيما لا يصح تعليله وما يصح وهو ما يعادل مبحث الصحة والبطلان في علم أصول الفقه . فما لا يصح تعليله هو تعليل الذات في كونها ذاتاً فتلك بداهة شعورية ووضوح وجودي لا يحتاج إلى تعليل ، ولا يصح تعليل العدم والانتفاء وكل ما يؤدي إلى صفة النفي لأن العدم ليس موجوداً . ولا يصح تعليل صحة كون العالم معلوماً فذلك تحصيل حاصل . والفعل الواقع لا يحتاج إلى علة لأن الوقوع ذاته خير دليل على وجود العلة دون ما حاجة إلى اثبات . ولا تُعلل أوصاف الأجناس ،لما كان السواد سواداً والجوهر جوهراً فالهوية لا تعلل . ولا يُعلل التماثل والاختلاف فالتضايف بداهة حسية وقانون قلب عقلي . كما لا يعلل تضاد المتضادَّيْن وتغاير الغيرين(١٦١) .

---

(١٦٠) المواقف ص ٨٥ ـ ٩٥ ؛ الشامل ص ٦٥٨ ـ ٦٨٥ ؛ المقاصد ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ؛ طوالع الأنوار ص ٧٠ ؛ المحصل ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(١٦١) الشامل ص ٦٨٦ ـ ٧١٦ ، طوالع الأنوار ص ٦٨ ؛ المقاصد ص ٦٨ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٧٨ ، المحصل ص ١٠٦ ؛ المواقف ص ٨٥ .

أما ما يصح تعليله فهو كل حكم ثبوت لذات قائمة بنفسها عن معنى قام بها مثل كون العالم عالماً والقادر قادراً (اثبات الصفات للذات) . والواجب لا يمتنع تعليله لوجوبه كما أن الجائز لا يجب تعليله لجوازه (البراهين على وجود « الله » أو إثبات الصانع) فالحادث موجود وحسي والواجب افتراض عقلي في حاجة إلى اثبات . ويصح تعليل الأحكام المتوقفة على الدليل والتي لا يقطع فيها باثبات أو نفي اثبات للشيء وكأن التعليل عامل مكمل للاستدلال(١٦٢) .

ويتضح من هذا كله أن العلة والمعلول والشرط والمشروط كلها مفاهيم مساعدة للفكر الديني العقلي . وأن الخلاف حول الأمور العامة هو في حقيقة الأمر خلاف حول تصور العقائد وكيفية تنظيرها يبدو فيه الصراع بين الفكر العلمي والفكر الديني ، بين الفكر الطبيعي والفكر الإلهي . كما يتضح من هذه الأمور العامة القسمة الثنائية للوجود التي تعبر عن التصور المثالي للعالم ، وريث التصور الديني التقليدي مثل الوجود والعدم ، الجوهر والعرض ، القديم والحادث ، وهي القسمة التي تعطي أحد الطرفين كل الثقل الانطولوجي ثم تسلبه كلية عن الطرف الآخر أو على الأقل تجعل أحد الطرفين شارطاً والآخر مشروطاً ، وتجعل صلتهما صلة التابع بالمتبوع وهو ما رسخ في وجداننا القومي حتى الآن .

يبدو مبحث العلة والمعلول على أنه مبحث طبيعي في فلسفة العلوم أو في المنطق التجريبي أو مبحث أصولي يحلل منطق السلوك أو مبحث فلسفي عام عن العلة الأولى والعلل الثانية . وفي هذه الحالة الأخيرة يكون تعبيراً من الموقف الديني الذي يعبر عن نفسه بالطهارة العقلية التي تعبر عن نفسها بدورها في قسمة عقليةَ ذات طرفين تنظمها علاقة شرف . فالبسيط أشرف من المركب ، والكلي أفضل من الجزئي ، والذاتي سابق على العرض ، والعام له الأولوية على الخاص وذلك لأن العلة أشرف من المعلول وسابقة عليه . وهل مبحث العلل أدْخَلُ في نظرية العلم أو في نظرية الوجود؟ إلى أي حد يمكن أن يكون مبحث العلل أساساً عقلياً أو وجودياً للعقائد ؟وما اختلاف ذلك عن علوم الحكمة وعلم أصول الفقه؟ أم أن

(١٦٢) اتفقت المعتزلة على أن الواجب لا يعلل . أما الأحكام الموقوفة على الدليل فهو رأي القاضي .

هذه الأسس العقلية هي التي أتاحها العصر والتي كان لا بد وأن تدخل في البحث عن أسس عقلية للعقائد[١٦٣] ؟ وهل هي مجرد أبحاث مجردة ميتافيزيقية خالصة أم أنها تتجاوز حدود نظريتي العلم والوجود في المقدمات النظرية إلى توجيه السلوك وتنميط الأفعال؟ وأحياناً يثور الشعور كله باسم التجربة الحية ضد هذه التقسيمات العقلية التي تترك الشعور فارغاً من أي مضمون حتى لو عبرت هذه التقسيمات عن الطهارة العقلية والنظرة المثالية للعالم تعبيراً عن الموقف الديني[١٦٤] . هل هذه الأمور النظرية العامة مستمدة من طبيعة العقل ويمكن تطبيقها على معطيات دينية أخرى أم أنها مستمدة من العقائد « الاسلامية » وبالتالي يمكن لكل عقائد اقامة أمور عامة نظرية خاصة بها ؟ يسمح الافتراض الأول باقامة علم بديهي أولاني لجميع العقائد Axiomatique بينما يحتاج الافتراض الثاني إلى وضع الأمور العامة الخاصة بكل نسق عقائدي في نظرية أعم تكون هي المقدمات الأولية لكل نظام عقائدي[١٦٥] . والسؤال الأهم : هل التزم علم أصول الدين بهذه « الأمور العامة » أم أنه خرج عليها في حومة الحماس للعقائد ، وفي فورة الانفعال الديني حتى تساقطت المقدمات النظرية بعد أن أصبحت فارغة بلا مضمون وعادت العقائد كما بدأت مضموناً للايمان؟ وهل الأمور العامة الآن هي هذه الأطرالنظرية التي تعتمد على القسمة العقلية والانتهاء إلى طرفين ومنطق علاقات بين الأعلى والأدنى أم أنها الظروف الاجتماعية والسياسية التي تعيشها الأمة والتي تفرض اطارها النظري ؟ لقد كانت العقائد قديماً في حاجة إلى تنظير من أجل الدفاع عنها ضد المخاطر النظرية التي واجهتها من العقائد المجاورة أما الآن فالعقائد في حاجة إلى تثوير ضد المخاطر العملية التي تواجهها والتي تهدد الأنظمة المنبثقة منها .

(١٦٣) وهي نفس الأسس التي أتاحها العصر للشافعي لوضع علم أصول الفقه في « الرسالة » .

(١٦٤) ومن هنا خرج التصوف كرد فعل على كل هذه التقسيمات العقلية الصورية الفارغة مؤثراً البداية بالتجارب الحية المباشرة ، وبالرؤية الحدسية لماهياتها ولو أنها كانت مفارقة للواقع الاجتماعي السياسي للأمة وتعكس ردّ فعل عليها .

(١٦٥) توحي كتب العقائد بالافتراض الأول مثل « وقيل موضوعه هو الوجود بما هو موجود ويمتاز عن الإلهي باعتبار وهو أن البحث هنا على قانون الاسلام » المواقف ص ٧ أنظر أيضاً بحثنا
Hermeneutics as Axiomatics, Religious Dialogue and Revolution.

فالأمور النظرية العامة التي صاغها القدماء بحثاً عن أسس عقلية للعقائد هي الأوضاع الخاصة لدينا التي تفرض علينا الدفاع عن مصالح الأمة(١٦٦) .

ثالثاً : فينومينولوجيا الوجود، (الأعراض) :

تعني كلمة « فينومينولوجيا » هنا ببساطة ظواهر الوجود لما كانت الأعراض هو ما يظهر ، وما تبدو الأجسام من خلاله(١٦٧) . فقد كانت « ميتافيزيقا » الوجود أو الأمور العامة المدخل النظري لنظرية الوجود عن طريق التوحيد الصوري بين العقل والوجود . أما الآن فهو المدخل الطبيعي الواقعي الحسي الاستقرائي للوجود ، الوجود كما يبدو من خلال الظواهر . ومن ثم فهو مبحث في « الظاهريات » . قدمت « الأمور العامة » الأطر النظرية لظواهر الوجود ، الأولى كصورة والثانية كمضمون ، ومن ثم تتحول وحدة العقل والوجود من مستواها الصوري في « ميتافيزيقا » الوجود أو « الأمور العامة » إلى مستواها المادي في « فينومينولوجيا » الوجود .

١ ـ تعريف العرض واثباته وقسمته وأحكامه وغايته : العرض صفة للشيء ، والأعراض مظاهر الطبيعة ، ما يظهر للانسان كموضوع للوصف . تتصدّر مبحث الأعراض إذن نظرية في الصفات إذ أنها أعم من الأعراض ، والأعراض إحدى حالاتها . وبصرف النظر عن هذا المدخل النظري للاعراض وصلتها بالصفات وهل الصفات مادية في الشيء وبالتالي تكون موضوعاً للعلم

---

(١٦٦) أنظر الفصل الأول : تعريف العلم ثالثاً- موضوعه د ـ الأمور العامة . وأنظر أيضاً بحثنا « مناهج التفسير ومصالح الأمة » قضايا معاصرة (٤) في اليسار الديني .

(١٦٧) لا يعني استعمال لفظ «الفينومينولوجيا» هنا أي اشارة إلى المنهج المعروف بهذا الاسم في الحضارة الأوروبية والذي كتبنا فيه رسالتنا الثانية L'Exégèse de la Phénoménologie بل يعني استعمال اللفظ صوتياً بمعنى «ظواهر» كما استعمل القدماء ألفاظ قاطيغورياس ، باري أرمنياس ، أنالوطيقا . . الخ . وكان يمكن تسميتها ببساطة «ظواهر الوجود» ولكننا آثرنا اتساق الأسماء الثلاثة «ميتافيزيقا الوجود» ، «فينومينولوجيا الوجود» ، «أنطولوجيا الوجود» .

الطبيعي أم معاني في الشعور وبالتالي تكون موضوعاً للفلسفة فإن تعريف العرض عند المتكلمين هو أنه موجود قائم متحيز أو ما لو وجد لقام بالتحيز لأنه ثابت في العدم[١٦٨] . وعند الحكماء ماهية إذا وجدت في الخارج كانت في موضوع أي في محل مقوم .

واثبات الأعراض معلوم بالحس والمشاهدة . فإذا ثبتت الأعراض ثبتت الجواهر بالضرورة فلا توجد الأعراض إلا في محل وهو الجوهر . ومن ثم يستحيل إثبات الجوهر جسماً دون اثبات للأعراض لأن الجوهر لا يُعرف إلا من خلال الأعراض كما أن الوجود لا يُعرف إلا من خلال مظاهره . وإنما تعبر هذه المحاولة عن رغبة في ادراك الثبات لا الحركة ، والدوام لا التغيير . واثبات الأعراض أبعاضاً للأجسام مشكلة لفظية فسواء كان العرض في الجسم أو بعض الجسم فهو موجود . واثبات الأعراض صفات للأجسام أو معاني لا هي الأجسام أو غيرها محاولة لادراك الطبيعة في بعديها الصوري والمادي ، العقلي والحسي . إن إثبات الأعراض في نهاية الأمر هو اثبات لبعدي الطبيعة الأعراض والجواهر لما كانت الجواهر لا تتعرى عن الأعراض ولما كانت الأعراض لا توجد إلا في محل . ومن ثم يصعب نفي الأعراض[١٦٩] .

---

(١٦٨) التعريف الأول للأشاعرة والثاني للمعتزلة ، المواقف ص ٩٦ - ٩٧ .

(١٦٩) لم ينكر وجود العرض ككل إلا ابن كيسان اما لحساب الجواهر أو إيثاراً للثبات وتطهراً من التغير والزوال . ونفى أبو هاشم الجبائي جملة من الأعراض كالبقاء والادراك والكدرة والالم والشك الفرق ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ الملل جـ ١ ، ص١١٦ ؛ الشامل ص ١٧٧ - ١٧٩ ؛ ونفى أبو الحسين البصري كون الأكوان أعراضاً ، الملل جـ ١ ، ص ١٢٦ ، وقد اتهم نفاة الأعراض بالالحاد ، الارشاد ص ١٨ - ١٩ ، وانكار البعض للاعراض النسبية قد يكون راجعاً إلى الإلهيات ، فالله لا شيء معه ولا شيء يدخل في نسبة مع الله . المحصل ص ٥٨ - ٦٣ ، طوالع الأنوار ص ١٠٠ ؛ وقد اختلف الناس في الحركات والسكون والأفعال بين الاثبات والانكار . لم يثبت الأصم إلا الجسم مقالات جـ ٢ ، ص ٣٤ ، ص ٣٧ ؛ أصول الدين ص ٣٦ - ٣٨ ؛ الشامل ص ١٦٨ ؛ الاقتصاد ١٦ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٢٨ - ١٤١ ، ص ١٤٠ - ١٤٢ ؛ وقد أثبت هشام بن الحكم وجهم الحركة والسكون إلا أنها اعتبرا الحركات أجساما الفرق ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ وعند ضرار الألوان والطعوم والارابيح والحرارة والبرودة أبعاض الأجسام ، مقالات =

وتنقسم الصفات الثبوتية باعتبارها أعراضاً إلى صفات نفسية وهي التي تدل على الذات مثل الجوهر والوجود أو الذات وإلى صفات معنوية وهي التي تدل على معنى زائد كالتحيز والحدوث وقبول الأعراض[١٧٠] . وهي نفس القسمة القديمة للممكن عند الحكماء أو للحادث عند الفلاسفة إلى جوهر وعرض. فالممكن أما أن يكون في موضوع وهو العرض أو لا في موضوع وهو الجوهر . والحدث اما أن يكون متحيزاً وهو الجوهر أو قائماً بالتحيز وهو العرض أو لا متحيزاً أو لا قائماً بالتحيز وتدل هذه القسمة الأولى على الرغبة في البحث عن نقطة يقينية بديهية تبدأ سها ؟ تـ الوجود تكون هي التموضع أو التحيز أو الحلول أو القيام أي تحقيق الو. ر ي صورته الأولى ثم تتوالى التقسيمات تبعاً لضرورة العقل حتى يتم استنباط الوجود كله ظواهر وأجساماً من ضرورة العقل . وقد تنقسم الصفات الثبوتية إلى صفات نفسية وصفات معنوية كالصفة المعللة وصفات حاصلة بالفاعل وهي الحدوث وصفات تابعة للحدوث ولا تأثير للفاعل فيها منها واجبة كالتحيز وممكنة تابعة للارادة . فإذا كان القسمان الأولان يؤسسان العلم الطبيعي كان القسمان الآخران يؤسسان العلم الانساني باعتبار كون الشيء قابلاً للفعل والأثر[١٧١] .

فإذا كانت هذه القسمة الأولى للأعراض باعتبارها صفات من أجل تعريف العرض فإن قسمة الأعراض من أجل تصنيفها هي التي تكشف عنها . فالأعراض عند الحكماء تنحصر في المقولات التسع اعتماداً على الاستقراء . فالعرض اما يقبل

= جـ ٢ ، ص ١٣٥ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ ؛ وعند هشام بن الحكم الأعراض صفات الأجسام ، مقالات جـ ٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ؛ كما اختلف الناس في المعاني . فعند معمر الأعراض معاني؛ الفرق ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١١٨ ـ ١٢٠ ؛ وعند الجبائي وأحمد الفراتي الحركة لا لنفسها ولا لمعنى مقالات جـ ٢ ، ص ٥٦ . وعند عباد الأعراض غير الأجسام ، مقالات جـ ٢، ص ٣٧. ويثبت الأعراض بالاضافة إلى أهل السنة هشام وبشر وجعفر بن حرب والاسكافي ، الفرق ص ٣٢٨ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٣١ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ؛ أصول الدين ص ٣٧؛ التمهيد ص ٤٢ ـ ٤٤؛ الشامل ص، ١٦٨ ؛ ولاستعراض حجج النفي والاثبات انظر الشامل ص ١٦٨ ـ ١٨٦ .

(١٧٠) هذاه القسمة الثنائية الأولى عند الأشاعرة ، المواقف ص ٩٦ .

(١٧١) هذه القسمة الرباعية الثانية للمعتزلة ، والنفسية منها عند الجبائي خاصة ، المواقف ص ٩٦ .

لذاته القسمة وهو الكم ، ويدخل فيه المتصل والمنفصل ، أو يقتضي النسبة لذاته وهي النسبة أي يكون مفهوماً ومعقولاً بالنسبة إلى الغير . والثاني ما لا يقبل القسمة وهو الكيف الذي لا يقبل القسمة ولا النسبة . وتشمل النسبة سبعة أعراض : الأين ، والمتى ، والوضع ، والملك ، والاضافة ، وأن يفعل ، وأن ينفعل . فالأعراض التسعة هي الكم والكيف ثم تشمل النسبة باقي الأعراض السبعة . ثم انفصلت الاضافة من النسبة وكونت قسماً مستقلاً وبالتالي أصبحت الأعراض أربعاً الكم والكيف والنسبة والاضافة(١٧٢) . وهنا تبدو المقولات التسع تفريعات أكثر مما تتحمل ضرورة العقل التي ترضى أولاً بالقسمة الثلاثية نسبة وقسمة وسواهما بعد القسمة الثنائية للممكن في الموضوع وهو العرض والممكن في اللاموضوع وهو الجوهر. وهنا يتم احتواء المقولات الطبيعية في الممكن ما دامت لا تعارض العقل خاصة وأنه لا يشار إلى مصادر تاريخية لها في حضارات أخرى قديمة أم مجاورة(١٧٣) . ليست الأعراض أجناساً لما تحتها ، أو أنواعاً لما فوقها فليس الأمر هنا يتعلق بمنطق الدوائر المتداخلة والاستغراق بل صفات الأشياء على مستوى واحد في الطبيعة . ويدخل في تقسيم الادراك داخل الكيفيات النفسانية قسمته إلى ظاهر وباطن، والباطن إلى تصور وتصديق، والتصديق إلى جازم وغير جازم إلى آخر ما ورد من قبل في نظرية العلم مما يدل على أن الفصل بين نظرية العلم ونظرية الوجود ، بين الذات والموضوع لا وجود له .

أما عند المتكلمين فتنقسم الأعراض إلى نوعين . الأول ما يختص بالحي وهي

---

(١٧٢) يرى الرازي أن الكم خاص بالمتصل وحده ، طوالع الأنوار ص ٧١ ؛ المحصل ص ٥٧ - ٦٣

(١٧٣) وبالتالي لا شأن للمقولات التسع بأرسطو أو بفورفوريوس فلا يذكرهما أحد لا من الحكماء ولا من المتكلمين . ولفظ «العرض» قرآني. فقد ذكر ست مرات مفعولاً به بمعنى الزوال ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا والله عنده مغانم كثيرة﴾ (٤ : ٩٤) ، ﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ (٨: ٦٧)، ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ (٣٤: ٣٣) ؛ ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ (٧ : ١٦٩) ، ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾ (٩ : ٤٢) ؛ ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ (٧ : ١٦٩) . والعرض هنا بمعنى الدنيا في مقابل الآخرة وهي الجوهر دون استعمال اللفظ الأخير .

يقسم الحكماء الممكن كالآتي (المحصل ص ٥٧ - ٦٣)

- الممكن
  - في موضوع (العرض)
    - نسبة
      - الاين
      - المتى
      - المضاف
      - الملك
      - أن يفعل
      - أن ينفعل
      - الوضع
    - قسمة (الكم)
      - متصل
        - الأجزاء توجد معها
          - بعد خط
          - بعدان سطح
          - ثلاثة جسم تعليمي
        - الأجزاء لا توجد معها
          - قار الذات المقدار
          - غير قار الذات الزمان
      - منفصل (العدد)
    - لا نسبة ولا قسمة (الكيف)
      - المحسوسات
        - فعليات
        - انفعالات
          - الحس
          - المزاج
            - بالشخص
            - بالنوع
              - ملموسات
              - مبصرات
              - مسموعات
              - مذوقات
              - مشمومات
      - النفسانيات
        - ملكة
        - حال
      - الاستعدادات (التهيؤ)
        - دفع قوة
        - تكاثر لا قوة
      - الكيفيات الكمية
        - متصلة
          - استقامة انحناء
          - إستدارة شكل
        - منفصلة
          - أولوية
          - ترتيب
          - تقدم تأخر
          - زوجية فردية
        - مركبة
          - الخلقة
          - الشكل
          - اللون
  - لا في موضوع (الجوهر) (تركنا قسمة الجوهر لثالثاً ، انطولوجيا الوجود)

ويقسم المتكلمون الحادث كالآتي (المحصل ص ٦٣ ؛ المعالم ص ١٥ ـ ١٨ ، الطوالع ص ١٠٩ ، التحقيق التام ص ٤٣) .

المحدث
- متحيز (الجوهر) (ترك ذلك لقسمة الجوهر في ثالثا ـ انطولوجيا الوجود)
- قائماً بالمتحيز (العرض)
  - غير حي
    - المحسوس
      - البصر
        - الألوان
        - الأضواء
      - السمع
        - الأصوات
        - الحروف
      - الذوق
        - الحرافة
        - الحرارة
        - الملوحة
        - الحلاوة
        - الدسومة
        - الحموضة
        - العفوصة
        - التفاهة
      - اللمس
        - الحرارة
        - البرودة
        - الرطوبة
        - اليبوسة
        - الثقل
        - الخفة
        - الصلابة
        - اللين
      - الشم
        - طيبة
        - مزعجة
    - الأكوان
      - الحركة
      - السكون
      - الاجتماع
      - الافتراق
  - حي
    - الحياة
    - العلم
    - القدرة
    - الارادة
    - الكلام
    - اللذة والالم
    - البصر
    - السمع
- لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز (تركنا ذلك أيضاً لقسمة الجوهر في ثالثا ـ انطولوجيا الوجود)

الحياة وما يتبعها من الادراكات وغيرها كالعلم والقدرة . والثاني ما لا يختص بالحياة كالاكوان والمحسوسات أي الظواهر الطبيعية الصامتة . وفي حقيقة الأمر أن كلا القسمين ينتميان إلى الظواهر الحية مع اختلاف في الدرجة لا في النوع فالمحسوسات موضوعات للحواس، والحواس أحد مظاهر الحياة النفسية والبدنية، والأكوان لا تعرف أيضاً إلا من خلال الحواس ، والحواس مظاهر حية للانسان . الظواهر الحية إذن هي أول ما يعرفه الانسان من العالم سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة تظهر الحياة للانسان في العالم قبل أن يظهر له أي شيء أو طرف آخر مثل « الله » . يظهر الانسان ككائن حي ويظهر العالم كموضوع مدرك للكائن الحي ، وبتعبير آخر تظهر الحياة كذات وكموضوع . وظواهر الحياة الذاتية والموضوعية معاً ظواهر متناهية مرئية وليست ظواهر افتراضية أي أن الأعراض المرئية الملموسة هي موضوع العلم الأول . تقسيم العرض إذن إلى غير حي وحي قسمة متداخلة فالمحسوسات جزء من الحي . والألوان والأضواء مدركات للبصر . والأصوات والحروف من مدركات السمع . والحرافة والمرارة والملوحة والحلاوة، والدسامة والحموضة ، والعفوصة والقبض والتفاهة مدركات للذوق . والحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة ، والثقل والخفة ، والصلابة واللين مدركات اللمس . فالمحسوسات ليست أجساماً طبيعية بل هي مدركات من عضو حي وهو جسم الانسان . لذلك نشأ التكرار في وصف العرض الحي بأنه سمع وبصر . وإذا عرفنا أن الحواس الظاهرة والباطنة موضوع تحليل في العلوم الضرورية ، المحسوسات والمشاهدات والتجريبيات والحدسيات وبداءات العقول وجدنا أن وصف الانسان قد تكرر ثلاث مرات مرة في نظرية العلم وأخرى في أقسام العرض غير الحي وثالثة في أقسام العرض الحي ، وكأن الأولى نظرية في العقل ، والثانية نظرية في الموضوع والثالثة نظرية في الذات . ويلاحظ على تصنيف المتكلمين تفصيل بعض الأعراض دون البعض (الأكوان ، الألوان) ، ووضع عدم الأعراض مثل الجهل والصمم والعمى ،ووضع موضوعات من نظرية العلم مثل الشك والاعتقاد ، وترك البعض الآخر مثل الصحة والمرض[174] . ويلاحظ أن قسمة المتكلمين ذات طابع حسي فهي تقسم

(١٧٤) يورد البغدادي اعراضاً ثلاثين دون تصنيف وهي : ١ ـ الاكوان . ٢ ـ الألوان . ٣ ـ الحرارة . =

المحدث ، وليس الممكن ، أي ما هو قائم في العالم بالفعل وليس ما هو مفترض بالذهن كما يفعل الحكماء ومن ثم دخلت لديهم في القسمة الأعراض « الروحانية » . وقد تزيد بعض التقسيمات على العرض المشروط بالحياة التحرُّك وتجعل مظاهر العلم كلها من حياة وعلم وقدرة وارادة وكلام ولذة وألم وبصر وشم في قسم واحد هو الادراك ثم يقسم الادراك قسمين ، ادراك الجزئيات بالحواس وإدراك الكليات . وهنا تقترب القسمة من قسمة الحكماء باضافتها الحركة وهو ما سماه الحكماء التهيؤ بالدفع (قوة) أو بالتأثر (لا قوة) .

وفي كلتا القسمتين عند الحكماء والمتكلمين يبدو الانسان والطبيعة ، وتبدو الظواهر الانسانية الطبيعية كنوع من العلاقة بينها(١٧٥) . فوجود الانسان في الطبيعة هو أول مظاهر الوجود الانساني . الانسان يوجد مع الآخر ، ويتعامل مع الأشياء . ولولا سقوط هذه المقدمات النظرية لما غاب هذا البعد الطبيعي للانسان أو بعد الانسان الطبيعي من وجداننا المعاصر والسؤال الآن : هل هذه القسمة للاعراض طبيعية صرفة أم أنها تخدم غاية خارج الطبيعة ؟ إن ادخال قسم لا يدخل في العرض أو في الجوهر (الجسم) هو افساح المجال من جديد الى وجود عالم آخر مفارق لهذا العالم . وقد يكون الهدف من اثبات الأفعال كأعراض نزع مسؤولية الانسان عنها وحريته في الاتيان بها وممارستها(١٧٦) . ومع ذلك فإن قسمة الأعراض على هذا النحو خاصة عند المتكلمين لا توحي بهذا القصد قدر ما توحي به قسمة الجواهر التي تسمح أكثر من الأعراض بالجواهر المفارقة .

= ٤ ـ البرودة . ٥ ـ الرطوبة . ٦ ـ اليبوسة . ٧ ـ الرائحة . ٨ ـ الطعوم . ٩ ـ الصوت . ١٠ ـ البقاء . ١١ ـ الحياة . ١٢ ـ الموت . ١٣ ـ العلم . ١٤ ـ الجهل . ١٥ ـ النظر . ١٦ ـ الشك. ١٧ ـ السهو. ١٨ ـ القدرة. ١٩ ـ العجز. ٢٠ ـ الارادة. ٢١ ـ السمع. ٢٢ ـ الصمم. ٢٣ ـ البصر. ٢٤ ـ العمى. ٢٥ ـ الكلام. ٢٦ ـ الخاطر. ٢٧ ـ الألم. ٢٨ ـ اللذة. ٢٩ ـ الفكر. ٣٠ ـ الاعتقاد.

(١٧٥) اتبعنا في هذا المصنف قسمة مركبة بين قسمة الحكماء وقسمة المتكلمين . أسوة بالايجي في « المواقف » .

(١٧٦) هذا هو ما يفعله شيطان الطاق والجواليقية مقالات جـ ٢ ، ص ٣٦ .

ويتفق الحكماء والمتكلمون بوجه عام على أحكام الأعراض . فهي مرة مذكورة في قسمة الحكماء ومرة أخرى في قسمة المتكلمين . ومعظمها يبدو معقولاً وإن كان يكشف عن الصراع بين الفكر العلمي الطبيعي والفكر الديني الإلهي فمنها :

أ ـ لا يجوز قيام العرض بالعرض عند أكثر العقلاء خلافاً للفلاسفة وذلك اعتماداً على حجتين . الأولى أن قيام الصفة يعني تميزها في الموصوف وليس في الصفة ، والثانية أنه لو قامت الصفة بصفة لزم التسلسل إلى ما لا نهاية ولا بد من الانتهاء إلى الجوهر كليهما أعراض . وقد احتج الفلاسفة بأن السرعة والبطء قائمان بالحركة دون الجسم ، والخشونة والملامسة قائمان بالسطح دون الجسم مع أن الحركة والسطح كليهما أعراض للجسم . وقد يرجع الخلاف بين المتكلمين والحكماء إلى وجود نموذج « إلهي » مسبق وهي قضية الذات والصفات التي توازي قضية الجوهر والأعراض . فالقيام لا يستدعي التحيز عند الفلاسفة لأن صفات « الله » قائمة دون تحيز وبالتالي يمكن قيام العرض بالعرض ! ويكون السؤال أي المسألتين هما الأصل وأيهما الفرع ؟ إن الجوهر والأعراض في العلم الطبيعي هو أساس الذات والصفات في العلم « الإلهي » نظراً لنشأة المعارف في الحس ثم قياس الغائب على الشاهد كما هو معروف من نظرية العلم[١٧٧] .

ب ـ لا ينتقل العرض من محل إلى محل عند المتكلمين وبالتالي تبقى صفات الأشياء ملازمة لها ولأن تشخصه ليس لذاته عند الحكماء . والحقيقة أن هذه مسألة علمية خالصة . والمشاهد أنه يجوز انتقال العرض من محل إلى محل كانتقال الروائح إلى ما يجاورها والحرارة إلى ما لا يلامسها بصرف النظر عن فاعل هذا الانتقال سواء كان الفاعل المختار أو الفيض من العقل « الفعال » للاستعداد الذي يحصل

(١٧٧) يرفض ابن حزم الفكرة القائلة بأن العرض لا يحمل العرض الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ؛ الشامل ص ١٩٨ ـ ٢٠٤ ، انظر أيضاً المواقف ص ٩٩ ـ ١٠١ ؛ وجوز أبو الهذيل ارادة عرضية تحدث لا في محل أرادها الباري وذلك مزايدة على الطبيعة واغتراباً عن العالم ، واثباتاً لارادة خارجية مشخصة قادرة على كل شيء . وجوز الجبائي أن يكون العرض الواحد في حالة واحدة موجوداً ومعدوماً . اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٤٣ .

من المجاورة ! ويبدو أن الرغبة في تثبيت العرض في المحل ما زال يهدف إلى غاية أبعد وهو تثبيت العلاقة بين الذات والصفات في موضوع التوحيد .

جـ ـ لا يقوم العرض بمحلين ضرورة ولا يحل العرضان في محل واحد ، وذلك كما لا يوجد الجسم في مكانين ولا يوجد المكانان في جسم . فالعرض يتعين في محله . ولا يفصل في ذلك في حقيقة الأمر إلا الفكر العلمي . يخشى من هذا الحكم تقطيع العالم وتجزئته وتفرد ظواهره منعاً لاستمرار العالم واطراده وكأن الاستمرار والبقاء صفات للارادة الشخصية خارج العالم وليس للظواهر الطبيعية في العالم . وقد جوز بعض قدماء المتكلمين قيام العرض بمحلين في التأليف مثل الجوار والقرب فالعرض لا يخص المحل وحده بل يعم أكثر من محل . يوجد اللون والرائحة في أكثر من شيء . هذه التجزئة الأشعرية إضعاف للعالم وتقوية للإرادة المشخصة في حين أن هذا إضعاف لها لأن بقاءها مشروط بفناء العالم وليس بقاء من ذاتها بالاستقلال عن العالم بالرغم من بقائه[178] .

د ـ العرض لا يبقى زمانين في علم الأشعرية لأنه يقتضي التجدد المستمر وتخصيص كل وقت بوقته بفعل القادر المختار[179] . واعتمدت في ذلك على حجج ثلاث . الأولى أنه لو بقيت الأعراض لكانت باقية ، والبقاء عرض ، ولا يقوم العرض بالعرض . وهذا ادخال للعقل في دوائر مغلقة منعكفاً على ذاته وتحويله إلى جدل فارغ بلا مضمون . والثانية أنه خلق مثله في الحالة الثانية ولو بقي لاجتمع المثلان . وهذا افتراض مسبق لافساح المجال للقدرة « الإلهية » التي تنفي

---

(١٧٨) الذي جوز ذلك هو أبو هاشم ، المواقف ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ المحصل ص ٨٠ ـ ٨١ ؛ طوالع الأنوار ص ٧٤ ؛ وينفي أبو الهذيل أن يحل عرضان في مكان واحد ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٦ - ١٧ .

(١٧٩) ووافقه في ذلك النظام والكعبي من المعتزلة ، وقد أطلق النظام الدليل الثالث في الأجسام وجعلها غير باقية بل تتجدد حالاً بعد حال وكأن القضاء على الظواهر لا يكفي لاثبات القدرة الخارجية المشخصة بل لا بد من تدمير الجواهر أيضاً . وقد رفض ابن حزم ذلك وكان أقرب إلى الحكماء مما يدل على أن الموقف الفقهي ليس بالضرورة أشعرياً . الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٢ ؛ المواقف ص ١٠١ ـ ١٠٣ ، الأعراض لا تبقى وقتين . مقالات جـ ٢ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ أصول الدين ص ٥١ ـ ٥٢ ؛ الشامل ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

ما قامت به أولاً بلا سبب أو علة بل لمجرد اظهار القوة على حساب العالم . والثالثة أنه لو بقيت لامتنع زوالها وكأن وظيفة القدرة « الإلهية » تدمير العالم لتثبت ذاتها . وهذا كله يقتضي أن تكون الظواهر الطبيعية غير مستقرة بذاتها بل تحتاج إلى بقاء وتجدد باستمرار بتدخل ارادة خارجية ، وهو افتراض ميتافيزيقي خالص لا يؤثر في الظواهر الطبيعية ما دامت قائمة ومطردة . ولا يؤثر إلا إذا تجددت الظواهر وتحولت مما يبرر تدخل ارادة خارجية . وهو موقف يهدم العلم الطبيعي ويدافع عن الارادة « الإلهية » على حساب استقلال الطبيعة وقوانينها وكأن الدفاع عن الارادة « الإلهية » لا يكون إلا بهدم أسس العلم وبقاء العالم . أما الحكماء فقد قالوا ببقاء الأعراض ، وما لا يبقى يختص بوقته لا قبل ولا بعد وهو أقرب إلى التصور العلمي وبقاء ظواهر الطبيعة . واعتمدوا في ذلك أيضاً على حجج ثلاث : الأولى أن المشاهدة تقر استمرار الظواهر أي اثبات العالم دون نفيه دون تدمير لهذا التصور الحسي العلمي بأي افتراض ميتافيزيقي مسبق . والثانية أنه لا يجوز مثله في الأجسام أي اثبات الأجسام وبقاؤ ها في العالم دون تدميرها أو إلحاقها بإرادة تبرر وجودها في كل لحظة وجود . والثالثة أنه يجوز اعادة العرض في الوقت الثاني وبالتالي فوجوده أولى[١٨٠] . ويبدو من الموقفين الفرق بين الفكر الديني عند الأشاعرة وبعض المعتزلة والفكر العلمي عند الحكماء . وقد يرجع الخلاف أساساً إلى تصور الزمان ، الزمان المتقطع المتجدد في كل لحظة عند الأشاعرة مما يسمح بتدخل الارادة « الإلهية » والزمان المتصل المستمر عند الحكماء الذي تسري فيه قوانين الطبيعة .

وبالاضافة إلى أحكام الأعراض يعرض القدماء عدة مسائل مكملة حول بقاء الأعراض وفنائها وجنسها ورؤ يتها لم تتحول بعد إلى أحكام صريحة عليها اتفاق أو اختلاف . يتفق الأشاعرة والمعتزلة معاً على عدم بقاء الأعراض . ويبدو أن الدافع في ذلك هو تخصيص وصف البقاء للذات « الإلهية » كما يبدو ذلك في موضوع التوحيد . ويكون السؤال : أيهما أكثر أثراً في حياة الناس وصالحهم فناء الأعراض

---

(١٨٠) منع الأشعري جواز اعادة الأعراض وبالتالي يكون الحكماء أقدر على اثبات المعاد .

أم بقاؤها ؟ وهي مسألة فرعية على موضوع الفناء والبقاء بوجه عام سواء للأجسام أم للأعراض[181] . ومن ثم كان السؤال الثاني : هل تفنى الأعراض؟ وهل تفنى بفناء أو تبقى ببقاء؟ واضح أن القضية ليست سؤالاً علمياً بقدر ما هو تمرين عقلي سابق لأوانه على موضوع الذات والصفات في موضوع التوحيد . وبالتالي فهو ليس سؤالاً علمياً بقدر ما هو افتراض ميتافيزيقي[182] . ويكشف عن ذلك السؤال الثاني بعد الاجابة المعروفة سلفاً بفناء الأعراض ، وهل تجوز اعادة الأعراض؟ ولما كان المعاد ضمن نسق العقائد كانت الاجابة معروفة سلفاً ومن ثم تحول السؤال العلمي في نظرية الوجود إلى إجابة إيمانية صرفة وكأن علم أصول الدين لم يصبر حتى يتم مقدماته النظرية ويستكمل احكامها . ما دامت الأعراض لا تفنى فإنها باقية ، وما دامت باقية فإنها لا تعود[183] . والسؤال لنا نحن : أيهما أفضل لوجداننا القومي وصالحنا العام ، تركيز الفناء أكثر وأكثر كما تكشف عن ذلك الأمثال العامية « الدنيا فانية » ، « كله فان » أم ادخال البقاء كطرف ثان حتى يُعاد التوازن المفقود إلى وعينا القومي ؟ ليس « الباقية في حياتك » أو « البقاء لله » وكأننا في جنازة ولكن البقاء للبطولة والتضحية والشهادة ، البقاء للأبطال وللشعوب في معارك التاريخ .

---

(181) أجازت الكرامية بقاء جميع الأعراض على عكس الأشاعرة والمعتزلة . أصول الدين ص ٥٠ - ٥٢ ؛ المحصل ص ٧٩ - ٨٠ ، وجوز الرازي بقاء الأعراض ، معالم أصول الدين ص ٢١ . وجوز محمد بن شبيب عدم بقاء الحركات والسكون فقط، وجوز بشر وأبو هاشم بقاء السكون . وعند أبي الهذيل منها ما يبقى ومنها ما لا يبقى مقالات جـ ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(182) اختلفت الأقوال في معنى الفناء والبقاء وفيما يفنى وما يبقى . فعند البعض تفنى بمعنى تقدم ، مقالات جـ ٢ ، ص ٤٦ ، وعند معمر الفناء صفة قائمة بغير الفاني الفصل جـ ٥ ، ص ١١٣ ؛ وعند هشام بن الحكم البقاء صفة لا هو هو ولا غيره وكذلك الفناء . مقالات جـ ١ ، ص ٥١ ؛ وعند النظام والجبائي الباقي يبقى لا ببقاء والفاني يفنى لا بفناء ، مقالات جـ ٢ ، ص ٥١ . وعند البعض تبقى الأعراض ببقاء الجسم وتفنى بفنائه مقالات جـ ٢ ، ص ٤٦ . وعند معمر للفاني فناء وللفناء فناء لا إلى غاية . ومحال أن يفني « الله » الأشياء كلها ، مقالات جـ ٢ ، ص ٥١ ؛ وعند البعض الآخر ما جاز أن يفنى جاز أن يبقى وبالتالي لا تفنى ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(183) قال محمد بن شبيب بإعادة الحركات . وعند الاسكافي ما يبقى من الأعراض تجوز اعادته ، مقالات جـ ٢ ، ص ٥٧ .

وكما تشخص الطبيعة تطبع الأشخاص وتصبح الأفعال أيضاً من الموضوعات الطبيعية . وهذا ما يبدو في السؤال عن جنس الأعراض الذي يخلط بين مقولة منطقية بين وفعل انساني وظاهرة طبيعية . كما يكشف عن رغبة في تجاوز العالم الطبيعي وظواهره إلى العقل المنطقي بأجناسه وأنواعه كنوع من الأحكام والسيطرة عليه . والمنطق الصوري تصور مثالي للعالم ويصح أن يكون قالباً للفكر الديني . قد يكون السؤال لا معنى ولا دلالة إلا من حيث كشف عن الصراع بين الفكر العلمي الطبيعي والفكر الديني « الإلهي »[184] ، الأول لا يفرق بين ظاهرة وظاهرة ، يضعها كلها تحت المجهر في حين أن الثاني يرتب المظاهر بين الأعلى والأدنى طبقاً لمراتب الشرف والكمال .

وكيف يُثار سؤال عن رؤية الأعراض والأجسام ما دامت الظواهر والأشياء محسوسة مرئية أمامنا ؟ يبدو أن كثيراً من المسائل ليست مشاكل بل تمرينات عقلية أو مشاكل مفتعلة لاظهار بواعث دينية تدفع إلى التعظيم والتبجيل واحداث الفصم في الشعور بين الأدنى والأعلى ، بين الناقص والكامل ، لا فرق في ذلك بين الأعراض ، الحركة أو السكون أو اللون . قد تكون عقيدة عدم جواز رؤية « الله » هي السبب في القول برؤية الأعراض والأجسام حتى يظهر الاختلاف والتباين بين المستويات . وانكار الحكماء رؤية الأجسام ليست بدافع ديني بل لتوسط الألوان والأضواء مما يجعل الأجسام ليست مرئية بذاتها . وإذا كانت رؤية « الله » جائزة

---

(١٨٤) ترى الأشاعرة (أهل السنة والجماعة) اختلاف أجناس الأعراض وكفروا النظام ؛ الفرق ص ٣٢٩ ، أما عند النظام فحركات الانسان وأفعاله من جنس واحد ، والحركات هي الأكوان ، الشامل ص ٤٧٦ - ٤٧٧ ، مقالات جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤١ ؛ الفرق ص ١٣٧ - ١٣٩ ؛ وأن الحيوان كله جنس واحد لاتفاقه جميعاً في التحرك والارادة ، وكذلك الأصوات ، الأصول ص ٤٦ - ٥٠ . وقد اتهم النظام بالالحاد لأن ذلك يعني في رأي الأشاعرة أن الكفر من جنس الايمان ، وهو تابع للديانات الأخرى ، فالحي لا يصير ميتاً والميت لا يصير حياً من الديصانية ، وعدم وقوع عملين مختلفين من فاعل واحد هو قول الثنوية . وبالتالي يُتهم النظام بأنه صاحب أفكار « مستوردة »! أما المعتزلة البغداديون فيرون أن الطاعة ليست من جنس المعصية احترازاً من نقد الأشاعرة . وعند النجار وضرار كلام الله إذا قرىء فهو عرض وإذا كتب فهم جسم ، الفرق ص ٣٢٩ .

عند الأشاعرة فلأنه موجود وشيء فالأشياء بالأحرى تكون مرئية مما يدل على حفاظ الحكماء على الفرق بين المستويات أكثر من حفاظ الأشاعرة ، وأن تنزيه الحكماء ظل قائماً في حين تحول تنزيه الأشاعرة إلى تشبيه وتجسيم[١٨٥] .

إن معظم التساؤلات حول الأعراض والجواهر تمرينات عقلية من أجل اثبات صريح أو ضمني لقدرة مطلقة لارادة مشخصة[١٨٦] . وتكون الاجابة باستمرار اجابتين . الأولى تغليب القدرة على الطبيعة من حيث المبدأ والحفاظ على المبدأ والتضحية بالطبيعة وهو موقف خاطىء لأن المبدأ ليس في حاجة إلى دفاع عنه بل الذي في حاجة إلى احترام ودفاع هما الطبيعة والانسان . ولا تكون طريقة الدفاع بالهجوم على الطبيعة والنيل منها والطعن في قوانينها والقضاء على استقلالها والتضحية بها بل باحترامها وإدراك قوانينها الثابتة وتسخيرها لصالح الانسان ، وهو دفاع صوري بلا مضمون ، دفاع مجاني بلا ثمن ، يكشف عن مزايدة رخيصة على إيمان العقلاء وعقل الحكماء ومشاهدات العلماء . ويؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى سيادة الفكر الديني على الفكر العلمي . ويؤصل لكل النظم التسلطية والأنساق المطلقة في السياسة والاجتماع والقانون والأخلاق . وهذا يعني استمرار التخلف إذ أن التقدم مشروط باكتشاف الطبيعة واستقلال قوانينها . وهو وقوع في الثنائية المتعارضة التي يُعطى فيها لطرفٍ كل شيء ويُسلب عن الطرف الآخر كل شيء

(١٨٥) مقالات جـ ٢ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ؛ الشامل ص ٤٧١ ـ ٤٨٥ ، المحصل ص ٩٤ ـ ٩٥ . ومنع أبو هاشم تعلق الادراك بالأكوان . كما بين النظام وعباد بن سليمان استحالة رؤية الأعراض . وعند معمر ترى الأعراض دون الأجسام ؟ وأنكر ابن حزم رؤية الحركة ، الفصل جـ ٥ ، ص ١٣١ . وتقول الأشاعرة عند اثبات الرؤية في الله ان مصحح الرؤية هو الوجود والجسم موجود فيكون مرئياً ؛ التلخيص ص ٩٥ .

(١٨٦) مثلاً ، هل يوصف الرب بالاقتدار على احداث ما يخرج من القسمين ، الجوهر والعرض؟ هل يوصف الباري بالقدرة على أن يرفع جميع اجتماع الأجسام حتى تكون أجزاء لا تتجزأ ؟ هل يوصف الله بالترك ؟ هل يجوز أن يقلب الله الأعراض أجساماً والأجسام أعراضاً ؟ فالاجابة بالايجاب تمثل الموقف الأول (وهي في الغالب للأشاعرة) والاجابة بالنفي تمثل الاجابة الثانية (وهي في الغالب للمعتزلة والحكماء) مقالات جـ ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ (الجبائي وحفص الفرد مع الأشاعرة في السؤال الثالث) . أنظر أيضاً الفصل السادس في الصفات ، القدرة .

فتصبح الحياة توتراً بين قطبين إيجاب مطلق وسلب مطلق ، يتمثل الحاكم الأول ولا يبقى للمحكومين إلا الثاني ، والسبب إثبات قدرة « الله » على حساب عجز الانسان ! ويا ليت ذلك قد أدى إلى المحافظة على التنزيه بل جعل « الله » ساحراً وليس قادراً . واستخدام الطبائع كبرهان على وجود « الله » قبل الأوان يكشف عن الهدف النهائي من هذا الموقف . فيستعاض عن الحدوث بالتضاد والتنافر الذي يستحيل اجتماعهما إلا بقاهر لهما . فيؤدي ذلك إلى القضاء على الطبائع واستقلال قوانين الطبيعة ، وتفسير اجتماع الطبائع بالعلل الخارجية وليس من ذوات الأشياء . فالهزيمة ترجع إلى القدرة والفقر للقسمة والنصيب . وتقوم العلل الخارجية بالجمع بين الأضداد عن طريق القهر والغلبة وتأكيد السلطة على الطبيعة والبشر. فالدليل يثبت حق السلطة أكثر مما يثبت الذات المشخصة أي أنه دليل صفة وليس دليل ذات . وكأن الهدف اثبات ضعف الانسان وعجزه أمام الطبيعة وعدم قدرته على الجمع بين الأضداد لأنه خاضع تحت القهر شأنه كالطبيعة ، لا حيلة له ولا قدرة . وينتهي الأمر إلى تصور « الله » على أنه قاهر للطباع ، ومضاد لطبائع الموجودات ، وأنه يجمع بين المتناقضات . وهو التصور البدائي للألوهية تعبيراً عن العظمة والقوة والسلطان ، وانكاراً لقوانين الطبيعة ، وتأييداً للقهر الاجتماعي في الأخلاق والسياسة ، أو اغتراباً عن الواقع وجهلاً بمكوناته وبنيته أو هروباً إليه تعويضاً عن فقد العالم وحلا وهمياً لأزمات العصر . وغالباً ما يكون حل المتناقضات عن طريق الجمع بينهما وليس عن طريق قضاء أحدهما على الآخر مما يسمح بوجود طبقات اجتماعية متنافرة في نظام اجتماعي واحد ، وبالتالي يُلغى الصراع الاجتماعي[١٨٧] . أما الثانية فهي تضحّي بالتشخيص من أجل الطبيعة وثبات

---

(١٨٧) يصوغ النظام الدليل كالآتي؛ الانتصار ص ٤٥ ـ ٤٨ ؛ الانصاف ص ١٧ ـ ١٨ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ؛ التمهيد ص ٣٣ .

أ ــ وجود الحر والبرد على ما هما من التضاد والتنافر مجتمعين في جسم واحد .

ب ــ لم يجتمعا بأنفسهما إذا كان شأنهما التضاد .

جـ ــ الذي جمعهما هو الذي اخترعهما مجتمعين وقهرهما على خلاف ما في جوهرهما . فاجتماعهما على تضادهما يدل على أن الذي جمعهما مخترع لهما . وقد تصبح هذه النتيجة مقدمة في دليل آخر على النحو الآتي :

قوانينها واستقلالها وهو أقرب إلى الموقف الديني العلمي والوعي بعمليات التشخيص . وهو الموقف الأصوب لأنه دفاع من الطبيعة واستقلال قوانينها وعن حق العلم في معرفتها والسيطرة عليها وتسخيرها . وهو في نفس الوقت دفاع عن المبدأ العام على نحو إيجابي وفي تنزيه مطلق دون التضحية بحق أحد الأطرف في سبيل الآخر . كما يعبر عن صدق الطوية واخلاص النية دون مزايلة تؤدي إلى نفاق . وهو أقرب إلى التوحيد منه إلى الثنائية وأكثر دفعاً نحو التقدم ووضع نهاية للتخلف وللركود الحضاري . وهو أقرب إلى نظم الحرية والديموقراطية والاشتراكية حيث يكون الحاكم والمحكوم طرفين متساويين ليس فيهما أعلى وأدنى بل ويكون الأدنى هو الرقيب على الأعلى وشرط وجوده .

٢ ــ الكم : الكم هو أول أقسام الأعراض . يسبق الكيف مما يدل على أهمية الصفات الكمية والقياس والاحصاء ، وأن الكيف بالرغم من أهميته يتلو الكم ثم تتلو بعد ذلك النسبة والاضافة . لا يظهر الكيف إلا بعد الكم ، ولا يوجد كيف خالص إلا في كم ، وكأن التراكم الكمي يؤدي إلى تغير كيفي طبقاً للقول المشهور . وبلغة الحكماء تسبق المادة الروح ، ويكون للواقع الصدارة على الفكر . وبلغة الفكر الديني يأتي العالم قبل « الله » والبدن قبل النفس .

وللكم خواص ثلاث . الأولى القسمة سواء وهمية (افتراض الشيء غيره) أو فعلية (الفك والفصل) ، والثانية العد سواء بالوهم كالمقدار أو بالفعل كالعدد ، والثالثة المساواة ومقابلاها أي الزيادة والنقصان . وهي مقولات ثلاث يمكن استخدامها لتحليل الأشياء ومعرفتها .

وينقسم الكم إلى متصل مثل الخط أو منفصل مثل العدد . وهي قسمة تقوم على التواصل أو الانقطاع . وينقسم المتصل إلى غير قار الذات وهو الزمان لاشتراك الآن بين الماضي والحاضر والمستقبل أو قار الذات وهو المقدار ، وهي قسمة تقوم

= أ ــ إن ما جرى عليه القهر والمنع ضعيف .

ب ــ حدوثه دليل على أنه حادث .

جـ ــ وكل حادث له محدث ، وكل مخترع له مخترع .

على الحركـة والثبات ، الحـركة في الـزمان والثبـات في المكان . وينقسم المقـدار إلى حجم في الجهـات الثلاث أو سـطح في جهتين أو خط في جهـة واحدة ، وبـالتـالي تكـون أبعاد الجسم ثـلاثـة الـطول والعـرض والعمق ، الـطول لـلامتـداد الأول ، والعـرض للامتـداد الثاني والعمق لـلامتداد الثـالث . وينقسم العـدد إلى وحـدات تكون نفس ذاتها أي الكم بـالذات وهي الـوحدة والكثـرة أو عارضـة فتكون الكم بالعرض ، وهي اما محل الكم كالجسم أو الحال في الكم كالضوء القائم بالسطح أو الحال في محل الكم كالسواد أو المتعلق بـالكم مثل القـوة متناهيـة أو غير متنـاهية . وهي قسمة عقلية على أساسهـا تقوم العلوم الـطبيعية والعلوم الـرياضيـة . وتشمل العلوم الطبيعية الفيزيقا والميكانيكا (الحـركة) أو الـديناميكـا (الزمـان) ، وتشمل العلوم الرياضية الهندسة والحساب . وبالتالي تكون العلوم الطبيعية امتداداً حقيقيـاً لقسمـة الكم أي لمبحث الأعـراض في المقـدمـات النـظريـة في علم أصـول الـدين وليست علوماً مستقلة تماماً عن اطارها الحضاري(١٨٨) .

أ ـ **العدد:** أنكر المتكلمون العدد وأثبتـه الحكماء وذلـك لسببين . الأول أن العدد مركب من الوحدات والوحدات ليست وجـودية ، وعـدم الجزء يستلزم عـدم الكل ضرورة ، وعدم وجود الـوحدات نـاشيء من منع التسلسـل لأنها لو وجـدت فلهـا وحـدة إلى مـا لا نهايـة ولأنها لا تنقسم . والثـاني لأنـه يـدل عـلى أن الكثـرة عدمية . فكر المتكلمين إذن أكثر التصاقاً بالـواقع من فكـر الحكماء وذلـك برفضهم إثبات المعقولات الذهنية في الخارج بالـرغم من أن الواحـد يقال عـلى معانٍ كثيـرة كالواحد بالاتصال والاجتماع ، ووحدته أمر وجودي بـالضرورة حتى ولـو لم ينقسم لأن لا كم له بل هو أمر اعتباري ، والكثرة مجموع الوحدات وبالتالي فهي موجـودة بهذا المعنى . لا يرى المتكلمون وجوداً إلا للمحسوس في حين يرى الحكماء الـوجود للمحسوس وللمعقول عـلى السواء . فـإذا كان فكـر المتكلمين حسيـاً فإنـه يصعب

(١٨٨) المـواقف ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ؛ طوالـع الأنوار ص ٧٥ ـ ٧٦ وقـد يعـرض لبعض الأمـور وجهـان كالحركة وانطباقها على المسافة والزمـان . كما قـد يعرض الكم المنفصـل بالمتصـل كقسمة الـزمان بالساعات . وقد يكون الشيء كما بالذات وبالعرض كـالزمـان . أي أن الأعراض متـداخلة وأن المحل يقبل أكثر من عرض ، وأن تعـدد الأعراض يتوحد في جوهر . المواقف ص ١٠٦ .

ابتداء منه اثبات ما يخرج عن الحس والمشاهدة . وبالتالي تكون نتائجه مثل اثبات وجود « الله » وخلود النفس مناقضة لمقدماته ومناهجه . وتكون الحكمة أقرب إلى إثباتها لأنها تثبت المعقولات الذهنية وتعطي لها وجوداً بالفعل . لذلك أسس الأصوليون المنطق الحسي بينما تمثل الحكماء المنطق الصوري(١٨٩) .

ب ـ **المقدار** : أنكر المتكلمون المقدار أيضاً لأن الجسم يتركب من الجزء الذي لا يتجزأ ولا يوجد اتصال بين أجزاء الجسم . إنما يرجع التفاوت إلى قلة الأجزاء أو كثرتها . وتعني القسمة فرض جوهر دون جوهر ولا عاد له إلا الأجزاء اللهم إلا وهماً . ولكن كيف تصدر أحكام بالوهم ؟ ولقد عرف المتكلمون من قبل أنهم من أنصار النظرة الحسية للعالم فلماذا لم يُستعمل هذا المنطق الحسي لاثبات المقدار وساروا وراء افتراض الجزء الذي لا يتجزأ الذي هو من صنع الوهم ؟ الحقيقة أن إنكار المقدار هو إنكار للكم وللأجسام وللأشياءوللعالم وتفتيت للجسم إلى أجزاء. هو هدم للعالم وقضاء عليه حتى تتدخل الارادة المشخصة من الخارج فيسهل القضاء على الأشياء وكأنما غرضها هو « فرق تسد » ! ولكن أثبته الحكماء لسببين . الأول توارد مقادير مختلفة على الجسم الواحد ، والثاني أن الجسم يتخلخل ويتكاثف وجوهريته باقية وكلاهما نفي للجزء الذي لا يتجزأ . والحقيقة أن إثبات المقدار لا يحتاج إلى حجج بل يثبت بالحس والمشاهدة وبالتعامل مع الأشياء في الحياة اليومية(١٩٠) . لقد رد الحكماء الاعتبار للعالم واثبتوا حقيقة الأشياء مع أنهم يثبتون الموجودات في الأذهان . ولكن يبدو أنهم تبادلوا المواقف مع المتكلمين فأثبتوا الموجودات في الخارج بينما وقع المتكلمون في أسر الوهم .

جـ ـ **الزمان** : كما أنكر المتكلمون الزمان لسببين. الأول أن الزمان ليس تقدماً بالعلية أو الذات أو الشرف أو الرتبة مثل تقدم الأمس على اليوم ، واليوم على الغد . هناك مجموع الزمان ولكن لا وجود للزماني الآني بمعنى اللحظة أي الزمان المحدد . والثاني أن الماضي سيحضر ، والحاضر سيمضي في المستقبل .

---

(١٨٩) المواقف ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(١٩٠) المواقف ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الماضي ما كان حاضراً والمستقبل ما سيصير حاضراً . ولما كان الحاضر غير موجود فلا ماضي ولا مستقبل . والحقيقة أن ذلك ليس إنكاراً للزمان بمعنى اللحظة والآن على ما يبدو بل اثبات للديمومة وللاستمرار دون الانقطاع في الزمان الكوني(١٩١) . وبالرغم من أنه لا توجد إشارة مباشرة لدافع ديني على إنكار الزمان بل الاعتماد على حجج فلسفية خالصة إلا أن الدافع قد يكون لا شعورياً وهو ايثار الزمان ، كل الزمان للذات المشخصة وإنكاره على العالم لما كان العالم فانياً دون العلم بأن التزمن وسيلة لاثبات الفناء. والحجتان تخلطان بين الزمان بمعنى تعاقب الليل والنهار أو الزمان الحسابي وبين الزمان كاحساس داخلي بالزمان وهو الذي سماه القدماء الوقت سواء من الأصوليين أو الصوفية(١٩٢). فالوقت لحظة شعور الفعل وليس

---

(١٩١) المواقف ص ١٠٨ ـ ١١٢ ؛ طوالع الأنوار ص ٧٨ .

(١٩٢) واختلف المتكلمون في الوقت إلى ثلاثة مذاهب . الأول أن الوقت عرض ، لا يُقال ما هو ولا تُعرف حقيقته وهذا انكار للاحساس الداخلي بالزمان . والثاني أنه ما توقته للشيء فالأوقات حركات الأفلاك لأن الله وقتها للأشياء (الجبائي) وهذا خلط بين الوقت كشيء والوقت للاستعمال كما هو واضح في القرآن ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ (٢ : ١٨٩) . والثالث فهو الفرق بين الأعمال ومدى ما بين عمل وعمل ، يحدث مع كل وقت فعل (أبو الهذيل) وهو رأي علماء أصول الفقه . كما طرح القدماء سؤالين هل يكون الوقت شيئين ؟ هل يجوز وجود أشياء لا في أوقات ؟ وهما موجهان نحو الوقت الشيئي فهو خطأ في وضع السؤالين . ومع ذلك فتراوحت الاجابة عليهما بين النفي والاثبات . مقالات جـ ٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ، وقد ورد لفظ الوقت ومشتقاته خاصة « ميقات » ١٣ مرة في القرآن يدل على معنى الوقت الآني أي اللحظة والزمان الشعوري الذي ينكره المتكلمون فكل رسول أتى في وقت ﴿ وإذا الرسل اقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل ﴾ (٧٧ : ١١) ؛ والشيطان قد أمهل ﴿ قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ (١٥ : ٣٨) ، ﴿ قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ (٣٨ : ٨١) ، ويوم القيامة يحدث في وقت معلوم ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ (٧ : ١٨٧) ، ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ (٧٨ : ٢٧) ، ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ (٥٤ : ٤٠) ؛ ويجتمع الأنبياء مع الله في الوقت ﴿ وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ (٧ : ١٤٢) ، ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ (٧ : ١٤٣) ، ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ (٧ : ٢٥٥) ، ومع بعضهم البعض في الوقت ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ (٢٦ : ٣٨) ، ﴿ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (٥٦ : ٥٠) ، والأهم من =

للشيء أو للفلك . فالزمان بعد للانسان وليس للأشياء وليس جوهراً مجرداً لا يقبل العدم .

أما الحكماء فقد أثبتوا الزمان بحجتين . الأولى أن الزمان عدد الحركة ، مرتبط بها وبالمسافة والسرعة والبطء . والثانية أن الأب مقدم على الابن ضرورة في الزمان . والحقيقة أن الحجتين معاً تخلطان أيضاً بين الزمان الطبيعي الكمي والزمان الشعوري الكيفي . فالزمان أقرب إلى مباحث الكيف منه إلى مباحث الكم . لذلك ظل متأرجحاً بين المقولات . فهو مرة في مقولة الكم المتصل الذي لا توجد أجزاؤه معاً أو الكم غير قار الذات ، ومرة يكون جوهراً ، ومرة يكون عدد الحركة أو عنصراً من عناصرها . بل إن الزمان ذاته يتأرجح بين الاثبات والنفي ، فاثبات الزمان النفسي يؤدي إلى انكار الزمان الطبيعي واثبات الزمان الطبيعي يؤدي إلى انكار الزمان النفسي . وكيف ينكر الأصوليون الزمان والأفعال لا تتم إلا في الزمان ؟ وهنا يبدو أن علم أصول الفقه بتحليلاته للزمان، الوقت والفور والتراخي والقضاء،كان أصدق من علم أصول الدين الذي أنكر الزمان وخرج منه متوهماً أنه بذلك يدافع عن كل الزمان عن القدم والبقاء كصفتين محجوزتين «لله» يُعطيان إليه فيما بعد .

د ـ المكان : وبالرغم من انكار المتكلمين العدد والمقدار والزمان إلا أنهم أثبتوا المكان وكأنهم لا يخشون منه خشيتهم من الزمان على تصورهم « لله » . فالمكان موجود ضرورة ، مشار إليها بهنا وهناك ، تُنقل فيه الأجسام ، متفاوت في الزيادة والنقصان . نظرة المتكلمين للعالم إذن مكانية كمية وليست زمانية كيفية لأن « الله » هو كل الزمان أو الدهر[193] . وقد أثبت الحكماء

= ذلك كله الوقت كلحظة للفعل ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ (٤ : ١٠٣) .

(١٩٣) وذلك طبقاً للحديث المشهور « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » . وهذا هو السبب في رفض المتكلمين والفقهاء لقدم الزمان والمكان (الفصل جـ ١ ، ص ٢٠ ـ ٢٧) ، ورفض قدم العالم ووجوب العالم بايجاب الباري وليس بايجاد الباري (نهاية الاقدام ص ٢١ ـ ٣٠) ، أنظر الفصل الخامس عن الذات ، دليل القدم والحدوث .

المكان أيضاً وهو عند بعضهم الهيولى[١٩٤] . لذلك ارتبط المكان بالمادة وأصبح لفظاً مشتركاً يطلق على المكان والمادة في آن واحد . وعند آخرين هو الصورة لأن المكان هو الحاوي للشيء المحوى والصورة كذلك وهو خلط بين المكان والصورة[١٩٥] . فالمكان هو السطح الباطني للحاوي المماس للظاهر من المحوى ، وهي صورة تجريبية للتماس وليست تعريفاً للمكان.أما التعريف الثالث للمكان وهو البعد المفروض وهو الخلاء فقد جوزه المتكلمون ومنعه الحكماء . والدافع عند المتكلمين هي قدرة « الله » على خلق الهواء في الخلاءوملئه بوجوده وإرادته وفاعليته . كما أن « الله » قد يعدم الجسم الذي أمامه ويخلق جسماً مكانه دون ما حاجة إلى التخلخل والتكاثف . يريد المتكلمون إذن اثبات الخلاء حتى يملؤه الله بارادته وقدرته في حين منعه الحكماء لأن العالم مادة لا فراغ فيها. ويعطي الحكماء خمس تجارب عملية لاستحالة الخلاء. فأي الفريقين أكثر تنزيهاً وتعظيماً واجلالاً « لله »[١٩٦] .

وتثار عدة أسئلة . الأول : هل هناك دلالة للعلم الطبيعي على العلم « الإلهي » كما هو وارد في « اللاهوت » العلمي أو اللاهوت الطبيعي ؟ وماذا يفعل العلم « الإلهي » لو تغير العلم الطبيعي في تعريفاته وتصوراته ونظرياته ونتائجه ؟ وماذا يفعل علم العقائد لو ناقضه العلم الطبيعي ؟ وماذا يحدث لو أساء المتكلم تأويل العقيدة وفهم العلم معاً ؟ وهل مصير العلم « الإلهي » أن يتعلق باستمرار على نتائج العلم الطبيعي دون أن يكون له بنيته الداخلية المستقلة ؟ ألا يعني ذلك ربط الثابت بالمتحول ؟ ألا يكون للعلم الطبيعي شرف الكشف والاختراع ولا يكون للعلم الإلهي إلا عمليات التبرير والتأويل وكأنه علم « طفيلي » لا يعيش إلا على إنجازات العلوم الأخرى ؟ ألا يخضع العلم كله الطبيعي والإلهي معاً لظروف

---

(١٩٤) هذا هو مذهب أفلاطون بعد أن عُرف في الحضارة الاسلامية .

(١٩٥) هذا هو مذهب أرسطو الذي عُرف في الحضارة الاسلامية وتمثله الفارابي وابن سينا .

(١٩٦) رفض ابن حزم الخلاء؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ وهو جائز عند الايجي وعند كثير من الفلاسفة ؛ المحصل ص ٩٥ ـ ٩٦ ؛ التلخيص ص ٩٦ ، وتجارب العلماء هي السراقات ، الزرافات ، ارتفاع اللحم في المحجمة بالمص ، والماء في الانبوبة مع ثقله ، وأنبوبة مسدودة في قارورة .

كل عصر وروحه وتصوراته وبالتالي لا يكون هناك مجال للتصور المطلق أو للحقيقة المطلقة ؟.

والسؤال الثاني الأهم : هل العلم الطبيعي كما يعرضه المتكلمون والحكماء علم « إلهي » مقلوب ؟ وهل العلم « الإلهي » علم طبيعي مفارق ؟ هل هناك امكانية لقيام علم ثالث ، علم صوري خالص يستحيل فيه التفرقة بين العلم « الإلهي » والعلم الطبيعي ؟ وأي العلمين أصدق نظراً أو أكثر تصديقاً في الواقع التجريبي ؟.

والسؤال الثالث: هل يمكن الحديث عن المكان والزمان والحركة والمسافة .. الخ اعتماداً على تحليل العقل الخالص أو على البواعث والموجهات الدينية دون اخضاع ذلك كله إلى التجربة في العلوم الطبيعية ؟ هل موضوعات الطبيعة موضوعات للتأمل أم للتجريب ؟ لقد حاول الحكماء استعمال التجربة ولكن ظل المتكلمون في نطاق التأمل النظري الموجه بالموجهات الايمانية .

والسؤال الرابع والأخير :هل لهذا الحديث أثر في علم العقائد ؟ هل يتأثر تصور العقيدة بمفاهيم السرعة والبطء والمسافة والبعد ؟ ألهذا الحد يمكن الإيغال في التأصيل النظري للعقائد في موضوعات تخرج عن نطاق التأصيل المتسق مع العقائد ذاتها بحيث تكون موجهات لسلوك الناس ؟ إن المكان موجود بالبديهة كأحد مجالات حركة الجسم ونشاط الانسان . المكان مجال للرؤية والحركة ، وميدان للنشاط والفعل ، وموطن للصراع والنضال . ولكل عصر تعريفاته وتصوراته طبقاً لظروفه ومستواه الثقافي ولغته الحضارية . فإذا كان القدماء قد آثروا النظر ولغة الحاوي والمحوى فإن عصرنا يفرض العمل ومفاهيم الحركة والفعل والنشاط والسعي في المكان . وبالتالي يكون المكان هو التاريخ الحاضر الذي يغيب فيه الفصل بين الزمان والمكان(١٩٧) .

---

(١٩٧) اختلف المتكلمون في المكان . فهو عند البعض مكان الشيء، ما يقله ويعتمد عليه ويكون الشيء متمكناً فيه . وعند البعض الآخر ما يماسه، فإذا تماس الشيئان فكل واحد منهما مكان لصاحبه . وعند فريق ثالث هو ما يمنعه من الهوى معتمداً كان عليه الشيء أو غير معتمد . ويرى آخرون =

٣ ـ الكيف : الكيف عرض لا يقبل القسمة أو اللاقسمة ، ولا يُعقل بالقياس إلى الغير . بل يُدرك ويُحس ويُشعر به بالتجربة الباطنية . والكيف هو لب مبحث الأعراض ، تشمل نصفه تقريباً . يأتي بعده الكم والنسبة على قدرين متساويين . وتأتي الاضافة في المحل الثالث[١٩٨] . وتنقسم الكيفيات استقراء لها إلى أربع : المحسوسة ، والنفسانية ، والمختصة بالكميات ، والاستعدادات أي أنها تشمل الظواهر النفسية والجسمية معاً. تظهر الحياة إذن في أربع دوائر : الحس ، والنفس ، والقدرات ، ثم المعقولات في الخارج وهي الكيفيات المتعلقة بالكم مثل النقطة والخط والدائرة فهي كيفيات محضة لا وجود لها . ليست الكيفيات إذن في الانسان وحده ، مع أنه هو الغالب ، بل في الطبيعة أيضاً ، فالطبيعة عالم للانسان ، والانسان موجود في الطبيعة . ويكون السؤال بالنسبة لها :هل الكيفيات مقولات رياضية أم أنها حالات نفسية ، وهل الحالات في الطبيعة أم في النفس ؟ وتمثل الكيفيات المحسوسة والنفسانية تقريباً كل الكيفيات بينما لا تمثل الكيفيات المختصة بالكميات والكيفيات الاستعدادية إلا أقل القليل مما يدل على أنها كيفيات بالتبعية وليست كيفيات بالأصالة[١٩٩] . كما أن الكيفيات النفسية تبدو أكثر امتداداً من الكيفيات المحسوسة وذلك لارتباط الحس بالشعور ، فالشعور هو موطن الحس

= أنه الجو لأن الأشياء كلها فيه، بينما يجعله آخرون ما يتناهى إليه الشيء . مقالات جـ ٢ ، ص ١١٥ـ١١٦ .

(١٩٨) في المواقف الكم ص ١٠٤ ـ ١٢٠ (١٦ ص) ، الكيف ص ١٢٠ ـ ١٦١ (٤١ ص) ، النسبة ص ١٦١ ـ ١٧٧ (١٦ ص) ، الاضافة ص ١٧٧ ـ ١٨١ (٥ ص) أنظر أيضاً نفس النسبة تقريباً في المحصل ص ٦٣ ـ ١٧٨، ص ٩٩ ـ ١٠١ ؛ النسفي ص ٤٢ ـ ٤٨ ؛ معالم أصول الدين ص ١٥ ـ ١٦ . وتشمل الكيفيات في المواقف نصف مبحث الأعراض وتقع في أكبر المراصد وهو المرصد الثالث الذي يمثل حجمه ضعف كل مرصد من المراصد الأربعة الأخرى التي تكون الموقف الثالث عن « الأعراض » . أنظر أيضاً المواقف ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، طوالع الأنوار ص ٨٥ ـ ٩٢ .

(١٩٩) يتضح ذلك أيضاً في المواقف . فالكيفيات المحسوسة ص ١٢٢ ـ ١٣٩ (١٧ ص) ، والنفسانية ص ٣٩ ـ ٦٠ (٢١ ص) ، والمختصة بالكميات ص ١٦٠ ـ ١٦١ (٢ ص) ، والاستعدادية ص ١٦١ (ثلاثة أسطر) .

ومركزه(٢٠٠) . كما أن الكيفيات الاستعدادية ضئيلة للغاية من حيث الكم مع أن الاستعداد هو بداية التحول من النظر إلى العمل ، ودراسة الأفعال والتحققات في مرحلة الكمون .

أ ـ **الكيفيات المحسوسة**. تنقسم الكيفيات المحسوسة أولاً إلى قسمين: انفعالات وانفعاليات فالانفعالات هي كيفيات محسوسة غير راسخة أي مجرد انطباعات حسية عن العالم الخارجي داخل عالم الحياة أي المحسوسات الداخلية . فإن دامت واستقرت ورسخت تحولت إلى كيفيات حسية وإن تزمنت ولم تستقر ظلت كما هي مجرد انفعالات أي انطباعات حسية ، تفاعل الضوء مع البصر أو الصوت مع السمع دون أن يتحول إلى مدرك حسي.وقد سميت انفعالات النفس كذلك لأنها طارئة وسريعة . أما الانفعاليات فهي الكيفيات المحسوسة التي رسخت وتحولت إلى مدركات حسية . وهي انفعاليات لأن الاحساس انفعال للحاسة . والمحسوسات اما حس أو مزاج . وهي تابعة للمزاج اما بشخصها كحلاوة العسل أم بنوعها كحرارة النار . فالمحسوسات مفتوحة على عالم النفس ، والنفس تحتوي على المزاج والانفعالات . الكيفيات المحسوسة انفعالات للمزاج بالنوع عند الحكماء وهي محسوسات لغير الحي القائم بالتحيز أي العرض أحد أقسام الحدث عند المتكلمين(٢٠١) . ويبدو هنا ظهور الانسان مع الطبيعة في الكيفيات المحسوسة وظهور الانسان بكل مكوناته من حس ونفس وعقل . والسؤال الآن : هل

---

(٢٠٠) ويتضح ذلك في عديد من الآيات القرآنية مثل ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ (٢٢ : ٤٦) ؛ ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ (٤٥ : ٢٣) ؛ ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ﴾ (٧ : ١٧٩) ؛ ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (٢٢ : ٤٦) ؛ ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٤٧ : ٢٤) ؛ ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ (٤ : ١٥٥) ؛ ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٢ : ٧) ، ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ﴾ (٦ : ٢٥) ؛ ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ (٧ : ١٠٠) ، ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ (٩ : ٨٧) .

(٢٠١) المواقف ص ١٢٢ ؛ أصول الدين ص ٤٤ .

الانفعالات سريعة طارئة غير راسخة أم أن هناك انفعالات دائمة وعواطف مستقرة وحاضرة ؟ وهل المدركات الحسية دائمة وراسخة أم أنها أيضاً متزمنة متغيرة ؟ يبدو أن المتكلمين قد انحازوا إلى الحس على حساب الانفعال ، فالحس مرتبط بالعالم ، له مضمون في حين أن الانفعال فارغ من أي مضمون . في الحس ذات وموضوع ، والانفعال ذات بلا موضوع .

والكيفيات المحسوسة الخارجية خمس : الملموسات ، والمبصرات ، والمسموعات ، والمذوقات والمشمومات ، وهي تأتي من الحواس الخمس . والألفاظ تشير إلى الموضوعات الحسية وليس إلى مجرد الاحساسات أو الحواس ، اللمس والبصر والسمع والذوق والشم . لقد دخلت الحواس من قبل في نظرية العلم كمادة بديهية له ولكنها تدخل هنا في نظرية الوجود كموضوعات حسية أو محسوسات ، ليست كقالب للشعور بل كمضمون للشعور . وهي في صيغة الجمع وليست في صيغة المفرد مما يدل على وظيفة الحواس الدائمة ومحسوساتها المتكررة . وتمثل الملموسات نصف الكيفيات المحسوسة كما وكأن اللمس عند المتكلمين وسيلة للادراك . ثم بعد ذلك تأتي المبصرات والمسموعات . ولا تقل أهمية المذوقات عن المبصرات والمسموعات في حين تقل المشمومات للغاية مما يدل على أهمية الذوق على الشم كما دل من قبل على أهمية البصر على السمع . وبالتالي فقد وضع المتكلمون الحواس في نظام للأولويات : اللمس ، والبصر ، والسمع ، والذوق، والشم مما يشير إلى أهمية الملموسات أي الاحساس بالأشياء باللمس عن طريق اليد ، وكأن اللمس أفضل وسيلة للمعرفة لتأسيس علم أصول الدين ! فالاحساس بالعالم عن طريق اللمس ومعاشرة الأشياء قبل رؤيتها وسمعها وذوقها وشمها ، وكأن الوحي يُلمس والعقائد تُحس باليد ! ثم تأتي بعد ذلك المدركات البصرية قبل السمعية في مجتمع كان الوحي والشعر فيه فنوناً سمعية ولم تكن له فنون بصرية إلا فيما بعد ، الزخرفة والعمارة . كما تبدو أولوية المذوقات في الطعوم على المشمومات في الروائح . فاللمس أقرب الحواس إلى الشعور والشم أبعدها . وتتفق آراء

الحكمـاء والمتكلمين في تحليل الحـواس الخمس وموضـوعاتهـا[٢٠٢] . وتتضح الأضداد في المحسوسات مثل صفـات الحرافة والحرارة ، الملوحة والحلاوة ، الدسومة والحموضة ، العفوصة والقبض أو في الملموسات مثـل الحرارة والبـرودة ، الرطـوبة واليبوسة ، الثقل والخفة ، الصلابة واللين أو في الأكوان مثل الحـركة والسكـون ، والاجتماع والافتراق ، وكأن الاحساسـات جوهـرها التعارض ، تقوم عـلى قسمة ثنائية متعارضة تبدو فيها الطهارة الدينية مسقطة على الطبيعة . ويكـون أحد طـرفي القسمة المتعارضة أشرف من الطرف الثاني . فالحرارة أفضـل من البرودة ، والخفـة أعلى من الثقل ، والصلابة أفضل من اللين ، والملاسَة أفضل من الخشونة .

ويطرح المتكلمون عدة أسئلة حول الحواس الخمس تعريفها وعددها وجنسها ووظيفتها وفعلها . . . الخ . وتبدو جميعاً وكأنها لا دلالة لها في أغلب الأحيان دلالة مباشرة في علم أصول الدين ولكنهـا قد تكشف عن بـزوغ الفكر العلمي من ثنـايا الفكـر الديني وعن هـذا التوتـر بين الفكـر العلمي المستقل والفكـر الديني التـابـع للعقـائـد فيـما يتعلق بـالـدفـاع عن قـدرة « الله » . وقـد تكـون صـورة « الـذات والصفات » قد ظهـرت مسبقاً كصـورة للحواس الخمس وعـلاقة النفس بـالبدن أو عـلاقة كـل منهما بـالحواس . فمثـلاً في تعريف الحـواس تتـراوح التعـريفـات بـين التعـريف الأسطوري ومـا يقابلهـا من نفي لها أو بـين التعـريف المثـالي والتعـريف المادي . الأول هو التعـريف الديني سـواء من الديـانات القـديمة في الغـالب أو من الفكـر الـديني الجـديـد والثـاني هـو التعـريف العلمي الـذي حمله المعتـزلـة في الغالب[٢٠٣] . كما يكشف سؤال : هل يقدر « الباري » على خلق حاسة سـادسة ،

---

(٢٠٢) في « المواقف » مثلاً الملمـوسـات ص ١٢٢ ـ ١٣١ (٩ ص) ؛ المبصـرات ص ١٣١ ـ ١٣٥ (٤ ص) ؛ المسمـوعات ص ١٣٥ ـ ١٣٨ (٣ ص) ؛ المـذوقـات ص ١٣٨ ـ ١٣٩ (صفحة واحدة) ؛ المشمومات ص ١٣٩ (ثلاثة أسطر) !

(٢٠٣) اختلفت الآراء في الحواس . فبينما تجعل « المنانية » الانسان هو الحواس الخمس وأنها أجسام وأنه لا شيء غير الحواس لأن الأشياء اثنان نور وظلمة ، النور خمس حواس والـظلام خمس حواس ، وبينما تجعل « الديصانية » الظلام مـوتاً وجهـلاً وأن النور حـاس ، النور بيـاض والظلام سـواد ، وبينما تجعل « المرقونية » البدن بـه روح وحواس خمس ، والـروح غير الحواس والبدن، انكـر كثير=

وعلى أن يقدر عباده على خلق الأجسام على نفس الصراع بين الفكر الديني والفكر العلمي فيما يتعلق باظهار القدرة الخارقة من « الباري » ومقاومة الطبيعة لها باعتبارها قانوناً مستقلاً ووجوداً ذاتياً يستعصي على الفعل الخارجي(٢٠٤) . كما يكشف سؤال هل الحواس من جنس واحد على اسقاط مفهومي الوحدة والكثرة على الحواس . وبطبيعة الحال يفضل الفكر الديني وحدة الحواس في جنس واحد بينما يؤثر الفكر العلمي تعددها في أجناس مختلفة(٢٠٥) . وتطرح أسئلة أخرى حول وظيفة الحواس وكيف يتم الادراك بفعل إرادة خارجية أو بفعل إرادة الانسان أو بفعل العضو الحاس ذاته مما يكشف عن الصراع بين الفكر الديني والفكر الانساني والفكر العلمي وكأن إرادة الانسان تتلو إرادة « الله » ثم يأتي فعل الطبيعة كوارث لارادة الانسان وكأن مسار الفكر من « الله » إلى الانسان ثم من الانسان إلى الطبيعة . مثلاً : هل الشم والذوق واللمس إدراك للمشموم والمذوق والملموس ؟ أي هل يمكن الانتقال من الذات إلى الموضوع ، ومن الحس إلى المحسوس ، ومن الداخل إلى الخارج ؟ وتتراوح الاجابة بطبيعة الحال بين الحل المثالي الذي ينفي امكانية الخروج والحل الموضوعي الذي يبين امكانية الادراك . ولكن كيف يقع إدراك المحسوسات ؟ وهنا تتراوح الاجابة بين فعل « الله » المباشر أو فعل « الله » من

= الحواس كرد فعل على هذه الآراء التي تجعل الحواس « آلهة » وهم نفاة الأعراض . فليس هناك إلا السميع البصير الذائق الشام اللامس أي ذوات بلا موضوعات . في حين جعل أبو الهذيل ومعمر الحواس أعراضاً غير البدن ، وللنفس عرض غيرها وغير البدن . وعند النظام تُدرك المحسوسات من هذه الخروق . أما عباد بن سليمان فإنه جعل الحواس ستاً ، فالفرج حاسة سادسة .

(٢٠٤) فأجاب البعض بالايجاب تأييداً للفكر الديني مثل جمهور الأشعرية وضرار ، وحفص ، وسليمان بن سمعان ؛ وأجاب البعض الآخر بالنفي دفاعاً عن الفكر العلمي كما هو الحال عند أكثر أهل الكلام من المعتزلة والخوارج وكثير من الشيع والمرجئة . وقد دفع ذلك فريقاً ثالثاً إلى حل وسط وهو أن « الله » قادر على أن يقدر عباده على خلق الأجسام مقالات جـ ٢ ، ص ٣٠ - ٣٣ .

(٢٠٥) أجاب الجاحظ بأن الحواس كلها جنس واحد في حين يرى الجبائي مع كثير من المعتزلة أن الحواس أجناس مختلفة . أما أبو الهذيل فيكتفي بالقول بأن كل حاسة خلاف الأخرى .

خلال الحواس أو فعل الانسان[٢٠٦] . ولكن هل يفعل الانسان الادراك من خلال الحواس مختاراً ؟ وهنا يعود الفكر الديني لسلب الانسان فعله الحر حتى فعل الحواس من أجل الدفاع عن أن « الله » هو الفاعل المختار . ولكن الفكر العلمي يطرح السؤال من أجل معرفة هل للارادة دور في فعل الحس أم أنه فعل شرطي منعكس صرف يتعلق بوظيفة العضو الحاس[٢٠٧] ؟ ويعود الفكر الديني للتشكك ويسأل: وهل يقدر العضو الحاس على الفعل دون تدخل الارادة «الإلهية»؟ وهكذا يظل الصراع محتدماً بين الفكر الديني والفكر العلمي حتى في تحديد وظيفة العضو الحاس الحيوية الصرفة وكيف يدرك المدرك الشيء ببصره، وما محل الادراك العضو أم جزء العضو أم الانتباه والوعي أي الشعور . وهل يمكن أن يحدث ادراك بلا حواس ؟ وماذا عن الصورة في المرآة هل هي شيء أم انعكاس؟[٢٠٨] . ثم يطرح الفكر الديني سؤالاً أخيراً يكشف به عن همه الأول . وهو هل يعرف « الله » دون معرفة الأشياء عن طريق الحس ؟ وبتعبير آخر هل يُعرف « الله » دون المعارف الحسية ؟ وقد كانت الاجابة بطبيعة الحال بالنفي نظراً لثقل الفكر العلمي في

---

(٢٠٦) اختلف المتكلمون فيما يقع بالحواس . فعند صالح قبة الحواس فعل « الله » يبتدؤه ابتداء . وعند محمد بن جربي الصيرفي أن فعل الحواس « لله » طبيعة يحدثها في الحواس ، وعند النظام فعل « لله » بايجاب خلقه الحواس ، وعند آخرين فعل ، الله يخترعه وليس للانسان فيه شيء في حين يرى ضرار أن فعل الحواس كسب للعبد خلق لله . ويرى آخرون أن الادراك يكون سواء من الحواس أو من « الله » أو من غيرهما. وعند بعض البغداديين أنها فعل للعبد دون الله . أما معمر فيرى أنها من فعل الطباع . مقالات جـ ١ ، ص ٦٤ - ٦٨ .

(٢٠٧) اختلف القائلون إن الانسان قد يفعل الادراك مختاراً له في سبب الادراك . فعند البعض أن سبب الادراك متقدم له وهو الارادة. وعند البعض الآخر أنه فتح الجفن. وعند فريق ثالث اعتماد الجفن. وعند النظام يدرك المدرك للشيء، ببصره بالمداخلة ، بينما ينفي ذلك البعض الآخر . مقالات جـ ٢ ، ص ٦٥ .

(٢٠٨) اختلف المتكلمون في الادراك ، هل يكون فعلاً للشيء الذي أدركه المدرك بين الاثبات والنفي . كما تساءلوا: هل يجوز خلق العلم بالألوان في قلب الأعمى؟ واختلفت الاجابة أيضاً بين الاثبات والنفي . كما اختلفوا في الذي يراه الرائي في المرآة . فأجاب صالح بأنه انسان مثله اخترعه الله في المرآة بينما رأى آخرون أنه انسان بانعكاس الشعاع . مقالات جـ ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

الكيفيات الحسية وهو ما ظهر فيما بعد في دليل الحدوث(٢٠٩) .

١ ـ **الملموسات :** الملموسات نوعان : الحرارة وما يتبعها من رطوبة ويبوسة ، والاعتماد وما يرتبط به من صلابة وملامسة . فالحرارة تفرق المختلفات ، وتجمع المتماثلات ، والبرودة بالعكس . التصعيد فعلها الأول ، والجمع والتفريق لا زمان له . وقد تحدث الحرارة بالفعل من التماس ، وبالقوة من الأدوية ، ويُعرف ذلك بالتجربة والقياس ، وباللون وبالطعم وبالرائحة وبسرعة الانفعال مع استواء القوام وقوته . والحرارة الغريزية والكوبية والنارية متخالفة بالماهية لاختلاف آثارها ، والغريزية أشد الأشياء مقاومة للنارية . والحركة تحدث الحرارة وذلك ثابت بالتجربة ، وقد يقع العكس أيضاً . أما البرودة فهي عدم الحرارة ، والتقابل بينهما تقابل العدم والملكة . وإذا كانت الحرارة والرطوبة متقابلتين فكذلك الرطوبة واليبوسة . الأُوليان أقرب إلى الذات والأُخْريان أقرب إلى الموضوع . والرطوبة سهولة الالتصاق والانفصال ، والأشد التصاقاً أرطب . والرطوبة غير السيلان . واليبوسة تقابل الرطوبة إن عسر الالتصاق والانفصال أو عسر التشكل(٢١٠) . ويلاحظ في كل ذلك اعتماد المتكلمين على طبيعيات الحكماء بل وعلى أوائل المترجمين منهم في تعريف الألفاظ ، وبالتالي يكون السؤال : هل الطبيعيات عند المتكلمين مرتبطة بعلم أصول الدين كمقدمة نظرية له وكتفكير عقلاني وتطور طبيعي للتفكير الديني أم أنها مقحمة عليه من علوم الحكمة نظراً لسيادتها عليه بعد ضعف علم الكلام المتأخر واستمرار العنفوان الفكري في علوم الحكمة ؟ أم كان الأمران معاً تطويراً طبيعياً للفكر الديني إلى فكر علمي في علم أصول الدين بالاعتماد على ما تم قبل ذلك كمشروع مماثل في علوم الحكمة ؟ على أية حال يكشف ذلك عن قدرة علم أصول الدين على الحديث عن الطبيعيات بصرف النظر عن الإلهيات ، وضم التحليل العقلي مع التجربة وبالتالي الاقتراب من الفكر

(٢٠٩) عند النظام لا يُعلم القديم بعلم واحد بل بعلوم كثيرة . وعند آخرين لا يعرف الله من يجهل أنه يعرف الأشياء (الفكر العلمي) بينما عند آخرين قد يعرف الله من لا يعرف أنه أحدث شيئاً (الفكر الديني) مقالات جـ٢ ، ص ٧٢ ـ ٧٥ .

(٢١٠) المواقف ص ١٢٢ ـ ١٢٥ .

العلمي وتأسيس علم « الديناميات الحرارية » ، وهو ما سقط من وعينا القومي مستبدلين إياه بنقل العلوم من الغرب التي كانت تطويراً لعلومنا هذه بعد أن تمت ترجمتها في العصر الوسيط الأوروبي[٢١١] .

أما الاعتماد فهو ما يوجب للجسم المدافعة لما يمنعه من الحركة إلى جهة ما . وقد يكون نفس المدافعة[٢١٢]. الاعتماد هو مقاومة الجسم لليد ، ومقاومة اللمس واليد للأشياء احساساً بالعالم وبوجود الانسان . والمدافعة غير الحركة لأنها توجد عند السكون بمقاومة الأشياء لليد وللجسم . ولها أنواع بحسب أنواع الحركة ، اما إلى أعلى أو إلى أسفل أو إلى سائر الجهات. والجهات ست : الامام والخلف ، واليمين والشمال والفوق والتحت وهي الاتجاهات البديهية كما يشعر بها العامة . وقد تكون ثلاثاً طبقاً لأبعاد الجسم كما يتوهم الخاصة . فالعامة أصدق حساً من الخاصة والتجربة البشرية في الحياة العامة أوسع نطاقاً وأشمل من التجربة العلمية الهندسية للأجسام . وقد يجعل البعض الجهة الحقيقية العلو والسفل أي الخفة والثقل في العلم وهو ما استقر في وجداننا القومي في تصور العلاقات بين الأعلى والأدنى وليس بين الامام والخلف (التقدم والتخلف) أو بين اليسار واليمين (المساواة الاجتماعية والتفاوت الطبقي). ويسمي الحكماء الاعتماد ميلاً ويقسمونه إلى ثلاثة أقسام : الميل الطبيعي وهو ميل غير مقرون بالشعور ، والميل القسري بسبب خارج عن المحل ، والميل النفساني وهو مقرون بالشعور ، وهو الميل الارادي، بالاحالة إلى الارادة. أما الصلابة فهي كيفية بها تتم ممانعة الغامز، واللين عدم الصلابة . والملامسة استواء بعض الأجزاء والخشونة عدمه عند المتكلمين ،

(٢١١) في نفس الوقت الذي الغي فيه هذا الفصل من المقررات حسب منهج ١٩٣٦ لقانون رقم ٢٦ لبعد هذا الفكر العلمي عن الفكر الديني التقليدي أي الإلّهيات وكأن الطبيعيات لا شأن لها بها أخذ الغرب بهذا الجانب وطوره تجريبياً والسؤال الآن : هل أزمة المنهج التجريبي في الغرب وأزمة العلوم التجريبية ناشئة عن الفصل بين هذين الجانبين ؟ .

(٢١٢) نفى الاعتماد أبو اسحق وأثبته المعتزلة والقاضي بالضرورة الحسية ، ثم اختلفت المعتزلة في الاعتمادات بعد اتفاقهم على قسمتها إلى لازم وهو النقل والخفة ومجتلب وهو ما عداهما. واختلفوا حول وجود التضاد فيها . فأثبته الجبائي ونفى بقاءها ، واثبته ابنه في المجتلبة دون اللازمة ، المواقف ص ١٢٥ ـ ١٣١ ، الشامل ص ٤٩٣ ـ ٥٠٢ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٩٥ .

وكيفيتان قائمتان بالجسم أو بسطح الجسم عند الحكماء[٢١٣] . ويبدو أن الاعتماد أقرب إلى مباحث الأكوان أي أقرب إلى العرض القائم بالمتحيز غير الحي . يظهر فيها الشعور والاحالة إلى موضوعات الارادة وغيرها ويبدو فيها الانسان كمحور لمعرفة الجهات وتصور الطبيعة . بل يبدو فيها قانون الجاذبية واضحاً بالتركيز على الخفة والثقل، تجاهي الأعلى والأدنى . ويكون السؤال : هل هذا المبحث أقرب إلى المعرفة الطبيعية التي لا شأن لها بالفكر الديني ، وتخضع للتجربة والعقل والمراجعة أم أن له دلالة في الفكر الديني خاصة بالتركيز على اتجاهي الأعلى والأدنى دون باقي الاتجاهات ؟ .

٢ ـ **المبصرات** : وتشمل المبصرات الألوان والأضواء . أما موضوعات الصغر والكبر ، والقرب والبعد ففروع على الألوان والأضواء وتبصر بواسطتهما عند الحكماء . ولا يمكن تعريفهما لظهورهما وكل محاولة للتعريف ، مثل تعريف الضوء بأنه « كمال أول للشفاف من حيث هو شفاف » فإنها تقع في تعريف الأوضح بالأخفى وبالتالي لا تستوفي شروط الحد .

وقد نفى البعض الألوان . وإنما نتخيل البياض من مخالطة الهواء المضيء للأجزاء الشفافة الصغيرة جداً ، والسواد ضد ذلك[٢١٤] . واثبتهما البعض الآخر على أنهما الأصل والباقي تركيب منهما . وقيل الأصل خمسة : السواد والبياض والحمرة والصفرة والخضرة[٢١٥] . والضوء شرط وجود اللون عند الحكماء . أما عند الأشاعرة فهو أمر يخلقه « الله » في الحي ولا يشترط بضوء ولا مقابلة ولا

---

(٢١٣) وهذه أقوال ابن سينا خاصة .

(٢١٤) هذا هو موقف الأشاعرة .

(٢١٥) « الأرض غبراء ، وفيها حمراء وبيضاء وصفراء وخضراء وسوداء » ؛ والماء أبيض إذا صب في الهواء أو إذا جمد ثلجاً بان البياض ؛ النار لا لون لها ، والهواء لا لون له الفصل جـ ٥ ، ص ٢٠٦ ـ ٢١١ ، البياض لون يفرق البصر والسواد يجمع البصر . الفصل جـ ٥ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ؛ وقد أجمع جميع المتقدمين بعد التحقيق بالبرهان على أنه لا يرى إلا الألوان وأن كل ما يرى فليس إلا لوناً واحداً . والسؤال : .هل الأصل في الألوان واحد أم اثنان أم خمسة أم سبعة وهي ألوان الطيف ؟ .

غيرهما . والظلمة عدم الضوء أي رد الموضوع إلى الذات والوجود إلى المعرفة وكأن التوحيد وظيفة معرفية تمكن العين من الرؤ ية كما تقول الصوفية . والظلمة مانعة من الرؤ ية حيث تغيب الأشعة الداخلة إلى العين . ويحدث اللمعان بوجود سطح مستوٍ أملس إذ أن الخشونة تباين للأجزاء وتمنع من اللمعان . ولكن الأغرب هو السؤال عن اللون هل هو الطعم أم غيره ؟ وهل الطعم هي الرائحة أم غيرها؟ وكأن الحواس يمكن أن تقوم بعمل بعضها البعض فتسمع العين وتبصر الأذن ويُذاق اللون والرائحة والصوت . ولكن يكاد يتفق أهل النظر على تفرد كل حاسة بمحسوسها(٢١٦) .

أما الأضواء ، فالضوء عند بعض الحكماء أجسام صغار تتفصل من المضيء وتتصل بالمستضيء(٢١٧) . وللضوء مراتب: المضيء لذاته وهو الضوء مثل الشمس والمضيء لغيره وهو النور مثل القمر ووجه الأرض(٢١٨). هناك شيء غير الضوء يترقرق على الأجسام وهو اما لذاته وهو الشعاع واما من غيره وهو البريق . وتشبه البريق إلى الشعاع تشبه النور إلى الضوء(٢١٩) . قد يتكيف الهواء بالضوء فيكون شرط اللون ، وقد يمنع البعض الملازمة بينهما . وفي كلتا الحالتين يكون السؤال إلى أي حد استطاع الفكر العلمي أن يبزغ من ثنايا الفكر الديني ؟ وما مقدار تصديق العلم لهذه التحليلات التأملية لموضوعات العلم ؟ .

٣ ـ **المسموعات** : والمسموعات أيضاً نوعان : الأصوات والحروف ، الأصوات العامة ثم تخصيصها في اللغة . وهنا يبدو الانتقال من الظواهر الطبيعية إلى الظواهر الانسانية ، من الصوت إلى اللغة . وقد قيل في تعريف الصوت إنه التموج أو القرع أو القلع . وماهيته بديهية . وهنا يبدو الصوت موجوداً في الخارج . وقيل أيضاً هو كيفية قائمة بالهواء يحملها إلى الصماخ لا لتعلق حاسة

---

(٢١٦) عند الديصانية اللون هو الطعم والرائحة والصوت والجو . وكذلك قولهم في السمع والبصر والذائق والشام ، مقالات جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٢١٧) ويرفض الأشاعرة ذلك .

(٢١٨) ويستشهدون بآية ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ .

(٢١٩) المواقف ص ١٣١ ـ ١٣٥ ؛ أصول الدين ص ٤١ .

السمع به كالمرئي . وقيل إن ما يقال في البصر يقال في السمع وفي سائر الحواس . إذ لا يتم الادراك إلا بتوافر اتجاهين . اتجاه من الشيء المدرك نحو الشعور من خلال الحس ، واتجاه مقابل من الشعور نحو الشيء المدرك أيضاً من خلال الحس . وقد منع البعض الانتقال واشترط البعض الآخر شرط المسافة بين المصوِّت وحاسة السمع[220] . فإذا ما صادم الهواءُ أمْلَسَ كجبل أو جدار رجع إلى الوراء فيحدث صوت هو الصدى مثل الكرة المرمية إلى الحائط . وليس لكل صوت صدى إذ لا بد من مسافة وجسم أملس أو صلب . ولكن السؤال هل الصدى تموج جديد للهواء أم رجوع للهواء الأول ؟ يتضح من ذلك التحليل العلمي الصرف لظاهرة الصوت دون ما تدخل علل خارجية سواء في سماع الصوت أو الصدى ، بالرغم من بقاء بعض التساؤلات التي تكشف عن بقايا الفكر الديني مثل هل يبقى الصوت ؟ هل يكون صوت واحد في مكانين ؟ هل الصوت جسم ؟ هل يكون صوت لا لمصوِّت ؟ وذلك كله حتى يتفرد « الله » بالبقاء وبالشمول وباللاجسمية وبالقدرة[221] .

أما الحروف فهي كيفية التعرض للصوت مدة وثقلاً ، وتنقسم الحروف إلى مصوتة وهي حروف المد واللين وصامتة . وهي اما زمانية صرفة كالفاء والقاف واما آنية صرفة كالتاء والطاء واما آنية تشبه الزمانية كالراء والحاء والخاء . وهي اما متماثلة كالباءَيْن الساكنين أو متخالفة بالذات كالباء والجيم أو بالعرض كالباء الساكنة والمتحركة . وقد جوز قوم الابتداء بالساكن ومنعه آخرون.ويجوز الجمع بين

---

(220) عند النظام ينتقل الصوت في الجو فيصل إلى السمع ، بينما لم يجوز عليه آخرون الانتقال إذ يسمع الصوت ألف إنسان . وعند فريق ثالث لا يسمع الصوت إذا كان بعيداً عن سمع الانسان . مقالات جـ ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(221) جوز البعض بقاء الصوت دون ما مراعاة لتفرد « الله » بصفة البقاء ، بينما منعه آخرون . وقد اعتبر النظام الصوت جسماً ، واعتبره آخرون عرضاً ، وعند فريق ثالث لا جوهر ولا عرض ، وعند فريق رابع أنه لا صوت في الدنيا. وقد منع البعض ألا يكون هناك صوت إلا بصوت إيثاراً لقانون العلة والمعلول بينما جوزه آخرون إيثاراً للقدرة « الإلهية » مقالات جـ ٢ ، ص ١٠١ ، أنظر في الموضوع كله المواقف ص ١٣٥ - ١٣٧ ؛ أصول الدين ص ٤٢ ؛ المحصل ص ٧٧ - ٧٨ .

الساكنين في الصامت المدغم قبله مصوت . أما الصامتان فقد جوزه قوم ومنعه آخرون[٢٢٢] . يتضح من ذلك خروج علم الأصوات كجزء من علم اللغة وكلاهما تموضع علمي لجوانب التوحيد . ويبدو الصراع بين الفكر العلمي والفكر الديني في عدد من التساؤلات قد لا تكون بذات دلالة إلا على نحو يكشف عن هذا الصراع مثل: هل يتكلم الانسان بكلام غير مسموع؟ هل يتكلم بكلام في غيره؟ فقد سمع الرسول الوحي وحده دون غيره ، وألقى في روعه الكلام . ومثل: هل هناك كلام بغير اللسان ؟ هل يمكن القاء الكلام في الروع بغير اللسان عن طريق اتصال الروح بالروح أو الذهن بالذهن حتى تصح النبوة في أحد معانيها وحتى يصح الالهام؟ هل يبقى كلام العباد؟ ومن ثم يمكن إفراد « الله » وحده بصفة البقاء . وعادة ما تتراوح الاجابة بين النفي والاثبات . الاثبات في السؤالين الأولين والنفي في الثالث دفاعاً عن الفكر الديني والنفي في السؤالين الأولين والاثبات في الثالث دفاعاً عن الفكر العلمي[٢٢٣] . كما تكشف عدة تساؤلات أخرى عن طرح علمي خالص استطاع أن يفلت من حصار الفكر الديني مثل هل كلام الانسان صوت أم غير صوت؟ هل كلام الانسان حروف؟ وما هو أقل الحروف لتكوين الكلام؟ هل الكلام مؤلف؟ هل يمكن أن ينطق كل فرد بحرف ويكون مجموع حروف الكلمة كلاماً؟ فالكلام قد لا يكون صوتاً لأن هناك لغة الاشارات والرمز والحركات الايمائية . وعدد حروف الكلمات موضوع في علم اللغة . ونطق كل فرد بحرف لتكوين كلمة موضوع لعلم النغم[٢٢٤] . ولكن يبدو أن هذا الفكر العلمي البازغ

---

(٢٢٢) المواقف ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢٢٣) عند أبي الهذيل قد يبقى كلام العباد . مقالات جـ ٢ ، ص ١٠٦ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢٢٤) قال البعض ان الكلام حروف . وعند ابن كلاب هو معنى قائم بالنفس . وعند بعض الأوائل اخراج ما في الضمير بالنُّطق . وعند المعتزلة حروف وكذا كلام « الله » ، وعند النظام كلام الله صوت قطع بالحروف. مقالات جـ ٢، ص ٢٤٧ . وعند البعض أقل الكلام حرفان وعند الجبائي حرف واحد؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ وفي تحديد كلام الانسان هل هو صوت وهل الصوت جسم أم عرض اعتبره البعض صوت عرض، مسموع مكتوب محفوظ بينما اعتبره البعض الآخر ليس بصوت وعرض ولا يوجب إلا باللسان . وعند النظام هو جسم لطيف ، وكلام الانسان تقطيع الصوت وعرض. وعند فريق رابع هو معنى قائم بالنفس لا يحل في=

من ثنايا الفكر الديني قد تم اسقاطه من الحساب ثم اجهاضه بسيادة الفكر الديني وحده . فانفصل العلم عن الدين ، والشيء عن العقيدة ، والبدن عن النفس ، والعالم عن «الله»[٢٢٥] .

٤ ـ **المذوقات** : والمذوقات هي الطعوم . وأصولها تسعة حاصل ضرب ثلاثة في ثلاثة . فالفاعل حارّ أو بارد أو معتدل والقابل إما لطيف أو كثيف أو معتدل فتخرج المذوقات التسع . ومن هذه الطعوم البسيطة تتركب طعوم لا نهاية لها كما تتركب الألوان . فالبشاعة مرارة وقبض . والزعوقة ملوحة وحرارة . والطعوم كلها تُرد إلى الحرارة والكثافة[٢٢٦] .

٥ ـ **المشمومات** : قد لا تظهر المشمومات ضمن الكيفيات المحسوسة في قسمة أعراض غير الحي بل تظهر في أعراض الحي (الحياة والقدرة والعلم والارادة واللذة والألم والسمع والبصر) . ومع ذلك عرض لها القدماء كأحد المحسوسات. ولا بد من أن يتوافر فيها شيئان : الأول اتجاه المشموم نحو الشعور ثم اتجاه الشعور نحو المشموم ، ويتقابل كلا الاتجاهين في الحس فالحاسة ما هي إلا المجال الحسي للشعور . وتنقسم المشمومات إلى ملائم طيب ، ومنافر منتن. كما تنقسم حسب ما يقابلها من طعم فيقال رائحة حلوة أو حامضة أو بالاضافة إلى محلها كرائحة الورد أو التفاح[٢٢٧] .

لقد حللت المقدمات الكيفيات المحسوسة فكشفت عن الصراع بين الفكر العلمي والفكر الديني. وفي كلتا الحالتين ينفصل الفكران عن الأسس الاجتماعية للفكر . فالكيفيات المحسوسة مدركات اجتماعية . فالملموسات تتوقف على رقة

= اللسان ، وهو عرض في صوت . مقالات جـ ٢ ، ص ٩٩ . وإذا نطقت جماعة بكلمة، كل فرد بحرف فعند الجبائي كل حرف كلمة بينها يمنع ذلك أحمد بن علي الشطوي مقالات جـ ٢ ، ص ١٠١ .

(٢٢٥) المواقف ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢٢٦) المواقف ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢٢٧) المواقف ص ١٣٩ ؛ أصول الدين ص ٤٢ .

الجلد الناعم للأيـدي الناعمـة للطبقة الـراقية أو خشـونة الجلد الخشن في الأيـدي الغليظة للطبقة العاملة . والمبصرات أيضاً مدركات اجتماعية فتتسع حدقة الفقـراء أمام قصور الأغنياء وتضيق حدقـة الأغنياء اشمئـزازاً من أكـواخ الفقـراء . تدرك الأبصار القاذورات في كل مكان . أما المذوقات فلا يدركها إلّا من له معرفة بطعومها . والجوع يدفع إلى الالتهام دون مـذوقات المتـرفين . والمسمـوعات من خـلال أجهزة الاعلام وما بها من كذب ونفاق . والمشمومات للروائح الكريهة وفضـلات الطعـام في الطرقات وأوساخ نفايات المنازل وطفح المجاري . فإذا كان القدماء قـد حاولـوا اخـراج الفكر العلمي من ثنـايا الفكـر الديني فـإننا نحـاول اخـراج الفكـر العلمي الاجتماعي من ثنايا الفكر الديني العلمي . وإذا كان القدماء قـد انتهوا إلى أنـه لا وجود لعلم نفس إلا من خلال علم النفس الفـزيولـوجي فإن لـدينا لا يـوجد لعلم نفس إلا من خلال علم النفس الاجتماعي .

ب ـ الكيفيات النفسانيـة : وكما أن الكيفيات المحسوسـة إذا كانت راسخـة سميت انفعـاليات وإلا كـانت انفعالات فكـذلك الكيفيـات النفسـانيـة إذا كـانت راسخة سميت ملكات وإن لم تكن سميت أحوالاً . وكل حال يصير ملكة بالتدريج قدر رسوخه(٢٢٨) . وتنقسم إلى عدة أنواع : الحياة والعلم ، والارادة ، والقدرة ، وبقيـة الكيفيات النفسـانية من لـذة وألم ، وصحـة ومـرض . والعلم والقـدرة هما الكيفيتان النفسانيتـان الغالبتـان على بـاقي الكيفيات كما مما يـدل على أهميـة النظر والعلم كبعدين للانسان(٢٢٩) .

وفي النفسانيات يصعب التفرقة بين نظرية العلم ونظرية الوجود وكأن النفس ذات وموضوع في آن واحد . فالنفسـانيات امـا حياة أو ادراكـات أو قدرة وارادة أو لـذة وألم أو صحة ومـرض . والادراكـات أهمهـا لأنها تنقسم إلى ظـاهـر وبـاطن .

---

(٢٢٨) المواقف ص ١٣٩ ؛ طوالع الأنوار ص ٩٢ ـ ١٠٠ .

(٢٢٩) الحيـاة ص ١٣٩ ـ ١٤٠ (٢ ص) ؛ العـلم ص ١٤٠ ـ ١٤٨ (٨ ص) ؛ الارادة ص ١٤٨ ـ ١٥٠ (٢ ص) ؛ القـدرة ص ١٥٠ ـ ١٥٨ (٨ ص) ؛ بـاقي الكيفيـات ص ١٥٨ ـ ١٦١ (٣ ص) .

والباطن اما تصور أو تصديق ، والتصديق اما جازم أو غير جازم ، والجازم اما بموجب أو بغير موجب فيكون تقليداً . والواجب اما يقبل النقيض وهو الاعتقاد أو لا يقبل وهو العلم . وغير الجازم إن تساوى الطرفان فهو الشك وإن كان راجحاً فهو الظن وإن كان مرجوحاً فهو الوهم(٢٣٠) . وهنا تبدو النفس جامعة للحياة والادراك والارادة والظواهر الجسمية . وتبدو الادراكات شاملة للاحساسات الداخلية والخارجية وللمنطق . فالمنطق جزء من النفس ، ومراتب العقل ملكات للنفس ، وكأن الكيفيات النفسانية تبشر بقرب الجواهر المفارقة ، النفس والعقل .

ويتضح أيضاً أن الكيفيات النفسية هي نفسها التي أصبحت فيما بعد صفات الذات او الصفات الوجودية للذات : العلم ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ،والارادة مع اختلاف الترتيب . أصبحت الحياة الصفة الثالثة ، والعلم الصفة الأولى ، والارادة الثالثة ، والقدرة الرابعة . اما صفات السمع والبصر والكلام فقد دخلت في الكيفيات المحسوسة ، المسموعات والمبصرات ، والكلام في الحروف والأصوات . ويكون السؤال : كيف يوصف « الله » بالكيفيات النفسانية وهي أعراض ؟ ألا يؤدي وصف الذات على هذا النحو بتحويل « الله » إلى مجموعة من الأعراض؟ . أليس « الله » جوهراً طبقاً للتصورات ؟ أليس من الأفضل تحويل هذه الكيفيات النفسانية إلى جواهر حتى يصح تأسيس الصفات عليها ؟ أليست أحق بالجواهر من الأجسام والعناصر والكواكب والأفلاك ؟ .

١ ـ **الحياة** : والحياة أول الكيفيات النفسية ، لها السبق عليها ، وكل ما سواها من علم وارادة وقدرة وباقي الكيفيات إنما هي مظاهر لها . الحياة هي الكيفية النفسية الأولى ، ولا شيء قبل الحياة . والموت عدم الحياة . ولا يوجد تعريف موجب للموت . قيل انه كيفية وجودية يخلقها « الله » في الحي فهو ضدها . وهنا يبدو الفكر الديني عاجزاً عن وضع تعريف نظري للحياة أو الموت

(٢٣٠) أنظر الفصل الثالث . نظرية العلم .

ولا يجد أمامه إلا الحجة النقلية[٢٣١] ، وكأن « الله » يخلق الموت وهو حياة . إذا كانت الحياة تخلق الحياة فالموت نقص وعيب ، و« الله » كمال لا يصدر عنه نقص أو عيب ، وحياة لا يصدر عنه موت . وإلا كان « الله » جامعاً بين الأضداد . وعند الأشاعرة يجوز أن يخلق « الله » الحياة في جزء واحد من الأجزاء التي لا تتجزأ وكأن « الله » قادر على خلق حياة في اليد بمفردها دون البدن وهي مزايدة على الطبيعة لحساب الوهم ، و« الله » غني عن المزايدة ، وكأن أفعال « الله » كلها معجزات ضد قوانين الطبيعة مما يعطي وجداننا القومي نفس البنية النفسية لفعل الخوارق المعجزات ضد قوانين الطبيعة فلا نجد أمامنا إلا السحر والأوهام أو ننتظر المخلص من الشرور والآثام. أما الحياة عند الحكماء والمعتزلة فهي مشروطة بالبنية المخصوصة أي بالجسم والكيفيات من اعتدال وغيره . ولكن الحياة ليست وحدها الحياة البدنية بل هي الحياة الشعورية فالنفس تتعلق بالبدن من حيث هو مجموع الوظائف الحيوية كما تتعلق بالشعور الخالص . الحياة عند القدماء « قوة تتبع اعتدال النوع ويفيض منها سائر القوى » قوى الحس والحركة والتغذية سواء في النبات أو الحيوان أو الانسان . والمقصود حياة الانسان أما حياة النبات والحيوان فلدراستها والتعلم منها وليس لحياتها . ولما كانت الحياة أقرب إلى الحياة العضوية بما فيها من لذة وألم وصحة ومرض أو إلى الحياة النفسية بما فيها من قوى حس وحركة فهي ليست وصفاً للذات المشخصة الخالصة المبرأة عن الجسم[٢٣٢] .

٢ ـ **العلم** : والعلم الكيفية النفسانية الثانية بعد الحياة، وتتداخل موضوعاتها مع نظرية العلم ، فالعلم ذات وموضوع في آن واحد ، ذات في نظرية العلم ، وموضوع في نظرية الوجود . والعلم لا بد فيه من اضافة بين العالم والمعلوم أي أنه علاقة بين الذات والموضوع وحالة شعورية تظهر فيها العلاقة بين قالب الشعور ومضمون الشعور . وعند الحكماء هو الوجود الذهني إذ قد يُعقل ما هو نفي محض وعدم صرف . وقد يطابقه أمره في الخارج وقد لا يطابقه . وقد نفى ذلك

(٢٣١) يعتمد القدماء على آية ﴿ خلق الموت والحياة ﴾ .

(٢٣٢) المواقف ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ أصول الدين ص ٤٢ ـ ٤٤ .

المتكلمـون لاستحالـة أن يكون في الـذهن موضـوعات في الخـارج ، واستحالـة أن تكـون مـاهيـة الجبـل والسـماء في الـذهن . ولكن هـل يجـوز تعلق العلم الـواحـد بمعلومين ؟ وهو سؤال يبدو في الاجابـات عليه الصـراع بين الفكـر العلمي والفكر الديني . فإذا كانت الاجابة بالجواز فذلك كعلم « الله » الذي يتعلق بذاته وبـالبشر في آن واحد . وهو تمثيـل بلا جـامع لأن علم « الله » لا يشبـه علمنا . وإذا كـانت الاجـابة بـالاستحالـة وإلا تعلق العلـم بـأمـور غـير متنـاهيـة ، استحـال العلم « الإلهي » . وبـالتالي يصبـح علم « الله » دافعـاً للإثبات والنفي عـلى السـواء حتى يصعب معه الفكر العلمي الخالص[٢٣٣] . وإن قيل لا يجوز تعلقه بنـظريين ويجـوز تعلقه بضروريين ففي الأول جهـد واكتساب فردي وفي الثاني عمـوم وشمول، شارك الانسـان علم «الله » في الضروري وتفـرد بعلم في النظري وهـذا أيضاً حجـر عـلى العلم « الإلهي » الشامل لكل شيء . وإن قيل لا يجوز تعلقه بمعلومين يجوز انفكاك العلم بهما وإلا جاز انفكاك الشيء عن نفسه. الجواز الذهني لا نزاع فيه ، والخارجي هو موضوع الخلاف[٢٣٤] . والحقيقـة أنه لا يجـوز فكل علم متعلق بمعلومـه لضبط العلم . وإلا لتنـازع المعلوم علوماً كثيرة ولتنـازعت العلوم الكثيرة معلومـاً واحداً . وكل علمين تعلقا بمعلومين فهما مختلفان تمـاثلا أو اختلفـا وإلاّ لم يجتمعا . والمتعلقـان بمعلوم واحـد فمثلان ان اتحـد المعلوم ووقته[٢٣٥] . ولكن هـل يمكن وجـود علم لا معلوم له مثل العلم بالمستحيل فإنه ليس شيئـاً والمعلوم شيء ؟ هل يمكن أن تكـون هنـاك معرفـة بلا مـوضوع ؟ فـالاجابـة بالاثبـات تؤثر الجـانب الصوري في العلم والاجابة بالنفي توحد بين الجانبين الصوري والمادي في العلم[٢٣٦] .

وتعود بعض الموضوعات الأولى في نظرية العلم في الظهور وكأن الفصل بـين العلم والوجود إنما هو فصل تعليمي صرف لا وجود له بـالفعل فـالوجـود يحيل إلى

---

(٢٣٣) الاجابة الأولى مذهب بعض الأشاعرة والثانية اجابة الأشعري وكثير من المعتزلة .
الـرأي الأول لأبي الحسن الباهـلي والثاني للقـاضي وامام الحـرمين . والخـلاف متفرع من تفسـير

(٢٣٤) العلم عند الرازي .

(٢٣٥) مثلان عند الأشاعرة ، وإن اتحد المعلوم ووقته عند الآمدي .

(٢٣٦) الاثبات أبو هاشم والنفي عند الرازي ، ولا يسميه الآمدي معلوماً .

العلم من خلال الحواس والذات العالمة وكأن الذات علم ووجود في آن واحد . فالجهل المركب اعتقاد جازم غير مطابق وهو ضد العلم في حين أن الجهل البسيط هو مجرد عدم العلم ، ويقرب منه السهو والغفلة والذهول والنسيان . ويظهر العلم أيضاً على أنه مجموعة من الاعتقادات تنقسم إلى ظن ويقين ، ويبدو العلم وكأنه أحد صفات الوجود. وتظهر معظم مسائل نظرية العلم من جديد ، حد العلم هل هو سلبي أم ايجابي ، تعلقه بمعلوم أو بمعلومين ، اجمال المعلوم ، تغاير المعلوم ، العلم الضروري والعلم الاستدلالي ، اجتماع الاضداد ، هل العلوم موجود أو معدوم . . الخ(٢٣٧) . وقد يكون الشيء معلوماً من وجه ومجهولاً من وجه(٢٣٨) . وقد يعلم الشيء بالفعل ويعلم بالقوة عن طريق اندراج المقدمات مما يسمح بتقسيم العلم الى ضروري واستدلالي . كما ينقسم العلم إلى تفصيلي واجمالي . ثم تفرض القسمة نفسها افتراضاً على العلم « الإلهي » هل هو اجمالي دون تفصيلي وهو ما يجيز الجهل أو هل هو تفصيلي وبالتالي يشارك العلم الانساني وهو العلم المقرون بالجهل أي العلم المقيد المنفي عن « الله »(٢٣٩) . وهل هذا تحليل علمي أم موقف وجداني خالص باتهام الانسان بالنقص وتبرئة « الله » عنه ووصفه بصفات الكمال؟ والعلم اما فعلي كما نتصور أمراً ثم نوجده أو انفعالي كما يوجد أمر ثم نتصوره . الفعلي قبل الكثرة ، والانفعالي بعدها . الفعلي قبلي والانفعالي بعدي . وعلم « الله » عند الحكماء فعلي لأنه السبب لوجود الممكنات . علم « الله » قبلي لأنه ليس في حاجة إلى الأشياء . وكأن القبلي أشرف من البعدي ، والاستنباط اكمل من الاستقراء ، وهو تمجيد للعقل عند القدماء . وأحياناً يبدو المتكلمون عقليين مثل الحكماء وأحياناً أخرى حسيين مثل الأصوليين . ولكن تمتاز الصور العقلية عن الخارجية عند الحكماء بأنها غير متمانعة في الحلول بل متفاوتة تحل الكبيرة محل الصغيرة ، ولا ينمحي الضعيف بالقوي ، ولا يجب زوالها وإذا زالت سهل استرجاعها(٢٤٠) .

---

(٢٣٧) المحصل ص ٦٨ ـ ٧٢ ، وانظر سابقاً الفصل الثالث . نظرية العلم .

(٢٣٨) عند القاضي المعلوم غير المجهول ضرورة .

(٢٣٩) جوز القاضي والمعتزلة اثبات العلم الاجمالي لله ومنعه كثير من الأشاعرة وأبو هاشم .

(٢٤٠) المواقف ص ١٤٠ ـ ١٤٥ .

وتثار من جديد قضية العلم الضروري والعلم النظري ، وهي قسمة العلم الأساسية في نظرية العلم في صيغة سؤالين : هل يستند العلم الضروري إلى النظري ؟ والاجابة بين النفي لاقتضائه توقف الضروري على النظري وبين الاثبات. والثاني هل ينقلب العلم الضروري والنظري؟ وتتراوح الاجابة أيضاً بين النفي، والا لجاز الخلو عن الضروري وهو محال بالوجدان، وبين الاثبات لتجانس العلوم أو النفي في الضروري الذي هو شرط لكمال العقل والاثبات فيما غير ذلك[٢٤١]. ويجوز انقلاب النظري إلى ضروري اتفاقاً ليس بخلق «الله» علماً ضرورياً كما يقول الأشاعرة بل لتفاوت الناس في القدرة على ممارسة الحدس وإدراك البداهات . وقد منع المعتزلة هذا الخلق في العلم « بالله » وصفاته لأن الانسان مكلف به . والفرق بين هذه الموضوعات في نظرية العلم وفي نظرية الوجود أنها في الأولى مستقرة من حيث البناء والحكم في حين أنها في الثانية مجرد تساؤلات تثبت أن العلم أحد مظاهر الكيفيات النفسية ولا يهم بناؤه ولا أحكامه . فأحكام العلم في نظرية العلم صريحة وهي استحالة انقلاب الضروري إلى نظري أو استناده إليه وإلا امتنعت بداهات الحس وأوائل العقول .

كذلك يثار موضوعا الحس والعقل في نظرية الوجود كما أثيرا من قبل في نظرية العلم مع هذا الفرق في الاستخدام بين الحالتين . فادراكات الحواس علم بمتعلقاتها عند الأشعري. وخالفه الجمهور نظراً لاختلاف العلم عن الرؤية نظراً لخداع الحواس وحدود المعرفة الحسية . وهنا تبدو الأشعرية نظرة حسية للعالم في الصلة الضرورية بين الحس وموضوع الحس أي بين الادراكات والمدركات. وارتباط البصر بالعلم ارتباط جوهري ولكن لا يجعلها متماثلين . فالبصر مصدر لمادة علمية دون أن يكون هو العلم إذ يستطيع العلم بعد ذلك أن يستغني عن البصر . ويُعاد ذكر الفرق بين الانطباع الحسي والادراك في نظرية الرؤية . فالأول خروج شعاع من الشيء تجاه البصر في حين أن الثاني مقابلة هذا الشعاع الأول بشعاع من البصر إلى الشيء . ومن ثم يتم الادراك كوعي بالمُبْصَر . الشعاعان المتبادلان بين العين

(٢٤١) هذا هو رأي القاضي وامام الحرمين .

والشيء هما في الحقيقة بين الشعور والشيء . لا يتم الادراك إذن إلا بتوجه الأشياء نحـو الشعور ، وبتـوجه الشعـور نحو الأشيـاء . الأول دون الثـاني انـطبـاع حسي والثاني دون الأول وعي فارغ بلا مضمون . وقد رفض المتكلمون النظرية الضـوئية في الادراك حرصاً على تفسير صفات السمع والبصـر في « الله » بلا حـاسة أو شيء أو شعاع ، وكأن الفكر الديني عامل محدد للفكر العلمي إن إيجاباً أم سلباً(٢٤٢) .

ومحل العلم الحادث غير متعين عقلاً عند الأشاعرة بل يجوز أن يخلقـه « الله » في أي جـوهر أراد . ولكن دل النقـل على أنـه القلب(٢٤٣) . وعنـد الحكـماء محـل الكليات النفس الناطقة المجردة لبراءتها ومحـل الجزئيـات المشاعـر العشرة الـظاهرة والباطنة . فـالعلم في الحس والنفس والعقل ومجمـوع ذلك كله هـو الشعور الـذي سماه النقل القلب أو الفؤاد . ولا يمكن أن يخلق « الله » العلم في الجماد لأن شرط العلم حياة الشعور(٢٤٤) . وقد تكون مراتب العقل هي مراتب النفس . وقد تبـدو في العلم كأحد مـظاهر الكيفيـات النفسانيـة كمبحث من مباحث الأعـراض . وقد تبـدو في النفس كجوهـر متصل بـالبدن ومقـدمة لاثبـات الجواهـر المفارقـة . فعنـد الحكماء للعقل أربع مراتب : العقـل الهيولاني وهـو الاستعداد المحض ، قـوة بلا فعـل ، والعقـل بـالملكـة وهـو عقـل حـادث وظيفتـه العلم بـالضـروريـات ويحس بالجزئيـات ، والعقل بـالفعل ، وهـو مكلة استنباط النـظريات من الضـروريات ، والعقل المستفاد تحضر فيه النظريات ولا تغيب عنه . وهي نظرية أسطوريـة صرفـة بعكس نظرية المتكلمين الحسية . فإذا كان العقل عند المتكلمين مرتبطاً بالحس فإنـه عنـد الحكماء متعلقـاً بمصدر آخـر للعلم من خارج العـالم كما هـو الحال في النـظرية الاشراقية التي استقرت عند الحكماء من الصوفية وهي صورة شعرية خـالصة تقـوم

---

(٢٤٢) « والمتكلمون محتاجون إلى القدح في هذا الاحتمال ليمكنهم بيان أنه تعالى سميع بصير » المحصل ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢٤٣) مثـل ﴿ان في ذلك ذكـرى لمن كان لـه قلب﴾ ، ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا أو آذان يسمعون بها﴾ ، ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها﴾ .

(٢٤٤) العقل هو العلم ببعض الضروريات عند الأشعري أي العقل بالملكة، وليس العلم بالنظريات لأنه مشروط بكمال العقل . وعند الرازي غريـزة يتبعها العـالم بالضـروريات عنـد سلامـة الآلات ، فالنائم لم يزل عقله وإن لم يكن عالماً .

على تشبيه الضوء أو النقش ، لا تعطي أي دور للحس ولا للعالم الطبيعي وتجعل النفس سلبية خالصة عليها استقبال المعارف ولا تضع في حسابها أي نقد للمعرفة من جراء النسيان . وهل يمكن للنفس أن تتذكر كل شيء ما دامت في جلباب البدن ؟ ولكن بالاضافة إلى نظرية المتكلمين الحسية ونظرية الحكماء الأسطورية هناك نظرية الأصوليين العملية السلوكية . فالعقل مناط التكليف اجماعاً ، والنظر واجب عقلاً وشرعاً واجماعاً[٢٤٥] .

٣ ـ الارادة : والارادة عند المعتزلة هو اعتقاد النفع أو ظنه . وقيل ميل يتبع ذلك وهو مغاير للعلم . هي ميل نفسي نحو جلب نفع أو دفع ضرر ومن ثم فهي في حاجة إلى مرجح ، وهي عند الأشاعرة غير مشروطة باعتقاد النفع أو الميل إليه ، هي استواء الطرفين دون ما حاجة إلى مرجح مثل الهارب من السبع على مسافتين متساويتين ، والعطشان الذي لديه قدحان من الماء متساويان من جميع الوجوه ، والجائع الذي لديه رغيفان ، وهو مستحيل إنسانياً إذ يبطل السلوك وتتوقف الحياة بلا دافع أو مرجح[٢٤٦] . والارادة مغايرة للشهوة لأنها تتعلق بنفسها دون الشهوة . كما أنها قد تكون للكريه مثل الدواء دون أن تشتهيه بل تتنفر عنها . وهي في نفس الوقت غير التمني لأنها تتعلق بمقدور مقارن حاضر أو مستقبل غير محال أو ماضٍ ، ثم تثار عدة قضايا أخرى تخرج عن نطاق هذا الوصف المادي للإرادة إلى وصف تأملي خالص ثم إلى فكر ديني صريح مثل هل ارادة الشيء كراهة لضده ؟ والحقيقة أن أمور الحياة ليس فيها تضاد عقلي فقد يريد الانسان الشيء ولا يكره ضده . فالتحليل العقلي والقلب المنطقي شيء والموقف الوجودي شيء آخر . كما تثار عدة مسائل أخرى عقلية نظرية صرفة تفقد دلالتها على المستوى المادي مثل هل إرادة الضدين ذاتية أم موضوعية ؟ أو تثار قضية حرية الأفعال كاستباق للموضوع الذي سيتأسس فيما بعد في نظرية الأفعال أو في أصل

---

(٢٤٥) المواقف ص ١٤٥ ـ ١٤٨ ؛ طوالع الأنوار ص ٩٧ ؛ أصول الدين ص ٤٥ .

(٢٤٦) في التراث الغربي استعمل « بيوريدان » من فلاسفة القرن الرابع عشر نفس الأمثلة لبيان استحالة حرية استواء الطرفين بلا مرجح . ولكننا لا نحيل إلى هذا التراث نظراً لأنه موضوع القسم الثاني من « التراث والتجديد » وهو « موقفنا من التراث الغربي » .

العدل . ثم تبدأ التساؤلات تتطور شيئاً فشيئاً حتى تخرج من التحليل المادي للارادة إلى التأملات الدينية الخالصة مثل أن الارادة تفيد متعلقها صفة ، للفعل طاعة ومعصية ، وللقول أمر وتهديد وذلك لربط الارادة بالفعل والفعل بالصفة وعدم الاقتصار على الميل أو الاعتقاد بالنفع وبالتالي دخول حكم القيمة على حكم الواقع(٢٤٧) . ومثل تساؤل : هل تسلسل الارادات إلى الوراء للحصول على ارادة أولى ضرورية ؟ وهنا يتم الخروج عن الارادة الانسانية إلى الارادة « الإلهية » . والعرض موضوع البحث هي الارادة الانسانية . أما الارادة القديمة التي توجب المراد اتفاقاً فهي مجرد افتراض عقلي يتغلب على مصاعب الارادة الانسانية « الحادثة » ويتخلى عن ضعفها ووهنها ويقلب الضعف قوة والوهن عزماً . في حين أنه يجوز ايجاب الارادة الحادثة للمراد إذا كانت قصداً إلى الفعل فالقصد يتقدم على الفعل قبل العزم والجزم وبالتالي يسترد المعتزلة للانسان ما سلبه الأشاعرة منه وأعطوه لغيره وهو « الله »(٢٤٨) .

٤ ـ القدرة : والقدرة تعادل العلم في الأهمية في الكيفيات النفسانية . وهي صفة تؤثر وفق الارادة فخرج ما لا يؤثر كالعلم وما لا يؤثر لا على وفق الارادة كالطبيعة . القدرة هي قوة الارادة . القدرة هي القوة والارادة هي التنفيذ والتحقيق . هي عند البعض سلامة البنية عن الآفات وعند آخرين بعض القادر وقيل بعض المقدور حيث يصعب التفرقة بين القدرة كذات والقدرة كموضوع أي بين الارادة والفعل . وتنقسم الأفعال المقدورة إلى ما يحتاج إلى آلة وإلى ما لا يحتاج . فالقدرة أوسع وأعم وأشمل من آلات التنفيذ اليد أو اللسان . والقدرة غير المزاج . فالمزاج من الكيفيات المحسوسة بينما القدرة من الكيفيات النفسانية . وقد يمانع المزاج القدرة إذ أن بالقدرة إرادة وروية وقصد وغائية وهدف وعلم في حين أن المزاج أقرب إلى الخلقة والهوى . والقوة تقال للقدرة لأنها جنسها ، وهو مبدأ التغيير في آخر . وأخيراً الخلقة ملكة تصدر عنها الأفعال بلا روية ، وتنقسم إلى فضيلة

(٢٤٧) هذا هو موقف القاضي وأبي عبد الله البصري ، المواقف ص ١٤٨ ـ ١٥٠ ؛ المحصل ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢٤٨) هذا هو موقف النظام .

ورذيلة ، الفضيلة الوسط والملكة الأطراف ، وهو مغاير للقدرة لأنه طبيعة وفطرة أي قوة طبيعية وليست إرادية . والعزم هو جزم الارادة بعد التردد ، أي هي الارادة الحاسمة المنفذة . وطريقة إثباتها الوجدان إذ يشعر بها كل إنسان من نفسه . وقد تثبت عندما يأتي الفعل من بعض دون البعض الآخر فيظهر الفرق بين القدرة والعجز(٢٤٩) . وقد تثبت عند العلم بصحة الشخص . والحقيقة ان القدرة إحساس بديهي يدركه كل انسان بوجدانه حتى عند وجود الموانع التي تسبب العجز الطارىء فإذا سألنا : هل المقدور تابع للعلم أم للارادة؟ نجد أنها نفس المسألة التي عرض لها الحكماء بالنسبة إلى الخلق ، هل الخلق بالعلم ضرورة أم بالارادة اختياراً . وأصلها مسألة في القدرة الانسانية ثم تعميمها واطلاقها ورفعها إلى مستوى خارج عن النطاق الانساني . المقدور تابع للارادة عند المعتزلة لأنها حقيقة القدرة ولا يكون تابعاً للعلم لأن صاحب الملكة يصدر عنه أفعال لا يقصدها . والعلم بذاته المبني على تصديق يتحول بالضرورة إلى فعل متجاوزاً القدرة على خلاف العلم الأقل تصديقاً واقتناعاً فإنه في حاجة إلى القدرة . وقد توصل المعتزلة في فروعهم على القدرة إلى « عتبة الجهد » أي إلى آخر حد يمكن للقدرة أن تتحمله وذلك في عدة تساؤلات مثل : هل من يتمكن من حمل مائة وزن ويعجز عن حمل مائة أخرى يقال له عاجز ؟ كل قدرة لها حد أو عتبة لا تتجاوزها . وهذا لا يتنافى مع أصل القول بتعلق القدرة بجميع المقدورات . ومثل : إذا حمل شخصان مائتي وزن هل تم الحمل بقدرة كل واحد مما يلزم اجتماع قادرين على مقدور واحد أم بقدرة مشتركة؟ والاجابة بطبيعة الحال بالقدرة المشتركة لأن اجتماع مقدورين ممكن إذا كانت القدرة مشتركة بين قدرتين انسانيتين كما هو الحال في العمل الجماعي وليس بين قدرتين غير متكافئتين حيث تبتلع القدرة الكبرى القدرة الصغرى كما هو الحال بين القدرة « الإلهية » والقدرة الانسانية .

ولكن هل تغيب القدرة في ساعة المنع أو العجز أو النوم ؟ هل الممنوع عن

---

(٢٤٩) يأتي الفعل من البعض دون البعض عند الهمداني من المعتزلة ، والعلم بصحة الشخص عند الجبائي .

الفعل قادر عليه؟ منعه الأشاعرة إذ أن القدرة مع الفعل « والله » لم يخلق القدرة دون ما حاجة إلى ضد . وجوزه المعتزلة لأن العجز يضاد القدرة والمنع المقدور وجودياً مضاد للمقدور . والحقيقة أن العجز والمنع من الطوارىء والقدرة هي الأساس ليست بخلق خارجي بل بفعل داخلي وباحساس وجداني بديهي وبتمسك بحقوق الانسان وبحقه في الفعل وبأدائه لرسالته . العجز عرض مضاد للقدرة أو عدم القدرة أو نفي للعرض(٢٥٠) . فالقدرة هي الأساس والعجز طارىء عليها . أما عجز المتحدي عن معارضة القرآن فهي قدرة نسبية على التحدي والخلق والابداع وليست عجزاً إلا عند من قال بصرف الدواعي ومن جعل فعل « الله » مسبباً لعجز ، وإرادة « الله » نفياً للارادة الانسانية فيقضي على تكافؤ الفرص منذ البداية من أجل ممارسة التحدي والاتيان بالخلق المشابه . وهل النوم ضد القدرة ؟ اتفقت المعتزلة وكثير من الأشاعرة على امتناع صدور الأفعال المتقنة المقصودة من النائم وجواز القليلة منها بالتجربة . أما الرؤيا فخيال باطل عند المتكلمين عامة والمعتزلة خاصة لفقد شرائط الادراك ، وعند الأشاعرة لخلاف العادة. ولم يثبتها إلا بعض الأشاعرة وهو ما ساد في وجداننا القومي حتى الآن(٢٥١) . وعند الحكماء يوجد المدرك في النوم في الحس المشترك يَرِدُ على النفس من العقل الفعال ثم يلبسه خيال الصور أو يرد عليه من الخيال مما ارتسم فيه من اليقظة فمن دام في فكره شيء رآه في منامه ، وذلك موضوع تفسير الأحلام في علم النفس . وللمعتزلة عدة فروع على هذا الأصل منها :هل يخلو القادر عن جميع مقدوراته؟ جوزه البعض على الاطلاق وجوزه البعض الآخر عند المانع ومنعه عند عدمه في المباشر دون التولد(٢٥٢) . فالانسان مهما كان عاجزاً فإنه قادر على فعل شيء سواء كان مباشراً أو توليداً . لا يوجد إذن عجز مطلق . ومثل: هل الترك عدم فعل المقدور ؟ قيل إن

(٢٥٠) العجز عند أبي هاشم هو عدم المقدرة وعند الأصم من حيث نفيه للأعراض . والاجتماع يمنع التحريك عند الجبائي وهو فرع أن المعدوم مقدور مع أنه قد يجوز الاجتماع التحريك أكثر مما تجوزه القدرة الواحدة كما هو الحال في العمل الجماعي .

(٢٥١) ومنعه من الأشاعرة الأستاذ والاسفرايني .

(٢٥٢) جوزه أبو هاشم وأتباعه مطلقاً وجوزه الجبائي عند المانع .

كان قصداً يتعلق به الذم . وقيل إنه من أفعال القلوب ، وقيل انه فعل الضد لأنه مقدور والعدم مستمر . والحقيقة أن الترك عدم فعل المقدور وليس العجز عن الفعل .

وإلى هذا الحد يغلب الفكر العلمي في تحليل القدرة على الفكر الديني . ولكن تظهر عدة تساؤلات كي تعطي الغلبة للفكر الديني على الفكر العلمي مثل : هل يجوز مقدر بين قادرين؟ بطبيعة الحال جوزته الأشاعرة مطلقاً لأن قدرة العبد غير مؤثرة مع شمول قدرة « الله »[٢٥٣] . ومنعه المعتزلة لامتناع قدرة غير مؤثرة . واتفق الأشاعرة على امتناع قدرتين مؤثرتين وقدرتين كاسبتين لأن الكسب هو خلق « الله » للقدرة الحادثة . وقد نفى البعض القدرة الحادثة تماماً وقال بالجبر وهي مكابرة لأن هناك فرقاً بين الصاعد بالاختيار والهابط بالضرورة[٢٥٤] . والحقيقة أن هذه مسألة ستأتي في موضوع خلق الأفعال ولا تدخل في المقدمات النظرية العامة التي تحاول وضع أوليات للفكر والوجود دون أن تدخل بعد في موضوع العقائد . ومع ذلك ، وفي هذا الوقت المبكر في تحليل القدرة كأحد الكيفيات النفسانية يظهر الصراع بين نظريتي الجبر والكسب من ناحية وحرية الأفعال من ناحية أخرى نظراً لاستحالة تعلق مقدور بين قادرين . فالجبر يضحي بقدرة الانسان لاثبات قدرة « الله ».ويحاول الكسب ادخال قدرة الانسان في الحساب ولكنه يجعلها مشروطة بقدرة « الله » وينفي استقلالها . وتدافع حرية الأفعال وحدها عن القدرة الانسانية بصرف النظر عن أي اعتبار آخر فقدرة الانسان وحريته هما الأولى بالدفاع . يمكن تعلق المقدور بقادرين انسانيين مثل اشتراك اثنين أو أكثر في عمل واحد في آن واحد أو على فترات وبالتالي يكون العمل الجماعي مقدوراً لأكثر من قدرة ولكنها قدرات على مستوى واحد ، وليست قدرة حادثة وقدرة قديمة أو قدرة نسبية وقدرة مطلقة.ولا تتعلق القدرة بالضدين بل بمقدورين مطلقاً عند الأشعري بناء على أن القدرة مع الفعل بينما تتعلق بجميع مقدوراته عند المعتزلة . وعند فريق ثالث قد تتعلق القدرة القائمة بالقلب بجميع متعلقاتها دون الجوارح ، كل واحدة منها

---

(٢٥٣) جوزه أبو الحسين البصري مطلقاً .

(٢٥٤) هو القول المشهور لجهم بن صفوان .

تتعلق بجميع متعلقاتها إما دون متعلقات الأخرى أو فكل منها لا يؤثر في متعلقات الأخرى نظراً لغياب الأدلة أو تتعلق القدرة القلبية بمتعلقها دون العضوية[٢٥٥] . والقدرة هي مجرد القوة على مبدأ الأفعال المختلفة ، نسبتها إلى الضدين سواء قبل الفعل - وتطلق أيضاً على القوة المشجعة لشرائط التأثير وهي لا تتعلق بضدين في حال الفعل[٢٥٦] . والحقيقة أن القدرة على عمل الضد ممكنة نظراً من حيث القوة الجسمية ولكنها قد تكون مستحيلة من حيث القصد والهدف والغاية والمصلحة . فالقدرة على القتل موجودة جسمانياً ولكنها تعارض الهدف والقصد وهي المحافظة على الحياة . ولا فرق في ذلك بين أفعال الشعور وأفعال الجوارح ، بين الأفعال الداخلية والأفعال الخارجية[٢٥٧] . ولا يوجد حل نظري ومقياس مجرد لصدق الآراء بل يوجد وصف القدرة على الفعل في موقف محدد .

وفي موضوع القدرة تبحث عدة مسائل تدخل في الجبر والاختيار مثل حد القدرة بأنها سلامة الأعضاء كما هو الحال عند الأشاعرة أو أنها شيء متحيز يدل على الاختيار كما هو الحال عند المعتزلة، أو بحث صلتها بالفعل هل هي مع الفعل مثل الاشاعرة أو قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، أي القصد والتحقيق والايقاع مثل المعتزلة . وكذلك العجز هل هو صفة وجودية أم صفة عدمية ؟ وتتم التساؤلات على نحو مادي صرف بتحليل القدرة الانسانية ككيفية نفسانية مع تواري الفكر الديني إلى أقل حجم . فالقدرة مع الفعل لا قبله ولا بعده في نظرية الكسب الأشعري المشهورة . وعند المعتزلة قبل الفعل . ومنهم من قال ببقائها حال الفعل . وإن لم تكن قدرة عليه فهي شرط البنية . ومنهم من نفاه لأن إيجاد الموجد محال ولأنه يلزم القدرة على الباقي ولأنه يوجب حدوث قدرة «الله» وأنه يلزم تكليف الكافر بالايمان . لا تبقى القدرة غير متعلقة فهي تتعلق بالفعل قبلها

---

(٢٥٥) هذا هو رأي أبي هاشم الجبائي .

(٢٥٦) القدرة مع الفعل عند الرازي .

(٢٥٧) القدرة على أفعال القلوب معها وعلى أفعال الجوارح قبلها عند العلاف أي أن أفعال الشعور الداخلية تصاحبها القدرة معها لا قبلها . هذا في أفعال الشعور المباشرة الحدسية وليست الارادية التي تتبع الارادة والعزم والتصميم .

وبعدها ، الفاعل في الأولى يفعل وفي الثانية فعل وفي الثالثة مفعول [٢٥٨]. وقد تولد القدرة في محال متفرقة حركات إلى جهات مختلفة وأما في محال مجتمعة فلا . وذلك يتوقف على نطاق الفعل يمكن أن يكون في جهات مختلفة أو في محال مجتمعة إثر محاضرة في طلاب متفرقين أو متجمعين [٢٥٩] .

وبالرغم من أن الكلام لا يدخل ضمن الكيفيات النفسانية بل ضمن الكيفيات المحسوسة نظراً لارتباطه بالسمع ، الأصوات والحروف ، إلا أنه يشار إليه كملحق للكيفيات النفسانية نظراً لأنه أيضاً كلام نفساني أي معانٍ في الشعور قبل أن تتخارج إلى أصوات وحروف . وقبل أن يتحول إلى صفة مطلقة لذات مشخصة في التوحيد، كما تظهر بعض الكيفيات النفسية الأخرى المتصلة بالارادة مثل المحبة وقيل هي الارادة ، محبة « الله » لنا ارادته لكرامتنا ومحبتنا « لله » إرادتنا لطاعته . فالمحبة عاطفة . وكذلك الرضا وهو الارادة عند المعتزلة وترك الاعتراض عند الأشاعرة . وكلاهما جانبان للارادة المعارضة والتسليم ، فالرضا فعل وليس ترك فعل ، إيجاب وليس سلبٌ [٢٦٠] . وعلى هذا النحو يمكن الاستمرار في تصنيف العواطف والانفعالات الانسانية حول الكيفيات النفسية وبالتالي تمحي التفرقة الأولى بين الانفعاليات والانفعالات .

٥ ـ بقية الكيفيات النفسانية : يذكر القدماء منها ما يكون أدخل إلى الحالات الجسمية منها إلى الكيفيات النفسانية مثل اللذة والألم ، والصحة والمرض ، وترك العواطف والانفعالات الانسانية وهو ما عرضه الصوفية في الأحوال والمقامات ، وما عرض له الحكماء باسم انفعالات النفس أو قوى النفس أو فضائل النفس .

---

(٢٥٨) الفاعل في الحالة الأولى يفعل وفي الثانية فعل عند الجبائي ، وسيفعل في الأولى ، والثانية يفعل عند ابنه ، ويفعل مطلقاً عند ابن المعتمر .

(٢٥٩) أنظر الموضوع كله في المواقف ص ١٥٠ ـ ١٥٧ ؛ المحصل ص ٧٢ ـ ٧٤ ؛ أصول الدين ص ٤٤ ـ ٤٦ .

(٢٦٠) المواقف ص ١٥٧ ؛ المحصل ص ٧٥ .

فاللذة والألم بديهيان يشعر كل إنسان بهما . لذلك لا يُعرّفان . قيل اللذة إدراك الملائم،والملائم كمال الشيء . وعند بعض الأطباء لا توجد لذة بل يوجد فقط دفع الألم(٢٦١) . واللذة والألم صفتان مختلف في نسبتهما إلى الذات المشخصة لوضوح أساسها الانساني الخالص وما بهما من نقص وعيب وسلب وعدم . ولكن لما ظهر الانسان داخل الكيفيات فقد ظهر بكل ابعاده النفسية والجسمية ، الحسية الانفعالية .

أما الصحة والمرض ، فالصحة ملكه أو حالة تصدر عنها الأفعال الموضوعة منها سليمة. تنطبق على الحيوان وعلى الانسان. هي كيفية للبدن في مقابل المرض ، حالتان له مثل اللذة والألم(٢٦٢) . ويظل السؤال لم التوقف عند هذا الحد في الكيفيات النفسية ؟ أين الاحترام والتبجيل ، الفرح والحزن . القَبْض والبسط ، الخوف والرجاء إلى آخر ما قاله الصوفية والحكماء في انفعالات الحس أو حالات الوجدان أو فضائل النفس ؟ لقد بدأت الكيفيات تأخذ طابعاً حسياً مادياً مما كان يؤهل لتأسيس علم النفس « الفيزيقي » والانتقال من دراسة النفس إلى البدن كما هو واضح في اللذة والألم وفي الصحة والمرض . ولكن يبدو أن الفكر الديني أوقف الاتجاه حتى يستطيع بعد ذلك رفع هذه الكيفيات النفسانية إلى درجة الصفات المطلقة للذات المشخصة . وهل يمكن اعادة التصنيف والاختيار بين هذه الكيفيات النفسانية دون حد أدنى ودون حد أعلى خاصة لو كانت النية اسقاطها على الذات المشخصة واستعمالها لوصفها قياساً للغائب على الشاهد ؟. ولقد بدأت باقي الكيفيات النفسانية في صورة ثنائية متعارضة مما كان يؤهل إلى البحث عن الأسس الاجتماعية للحالات النفسية . فاللذة والألم ، والصحة والمرض تشير إلى أوضاع اجتماعية، أوضاع الترف والفقر ، النعيم والبؤس ، البطنة والجوع ، التخمة والشظف ، أمراض الوفرة وأمراض الحرمان . وهو ما لم يتم في الكيفيات

---

(٢٦١) هو ابن زكريا الرازي الطبيب .

(٢٦٢) المواقف ص ١٥٨ - ١٦٠ ؛ أصول الدين ص ٤٥ . والمباحث كلها ابتداء من هنا حتى آخر مبحث الجواهر أصبحت بلا دلالة عند المحدثين دون تطوير لهذا الموقف الذي لا يظهر إلا في حذف هذه الأجزاء من المقرر حسب منهج ٩٣٦ لقانون رقم ١٣٦ المواقف ص ١٥٦ .

النفسانية الأولى . فقد ظهرت الحياة دون الموت ، والعلم دون الجهل ، والارادة دون الوهن ، والقدرة دون العجز وكأن صحوة المثال جعلت المتكلم ينسى الواقع وبالتالي يعجز عن قياس المسافة بين الواقع والمثال .

جـ ـ الكيفيات الكمية : قد يبدو التعبير متناقضاً فالكيفيات لا تكون كمية والكميات لا تكون كيفية نظراً للتقابل التقليدي بين الكيف والكم . ومع ذلك فالكيفيات الكمية تمثل مرحلة انتقال من الكيفيات المحسوسة والنفسانية إلى النسبة والاضافة اللذيْن يبدو فيهما اجتماع عَرَضَيْ الكم والكيف معاً لحقاً بالكم واسترداداً له . وهي باختصار الكيفيات التي تعرض للكم اما وحدها فتكون المنفصلة كالزوجية والفردية أو المتصلة مثل التثليث والتربيع واما مع غيرها كالحلقة والزاوية . ويعتمد القدماء على تعريفات المهندسين للخط والدائرة والكرة والاسطوانة والمخروط . هل يعني ذلك أن المفاهيم الرياضية في الحساب والهندسة هي نموذج الكيفيات الكمية . أي حال الاعداد والأشكال؟ وأيهما أقرب لها مباحث الكيف مع المحسوسات والنفسانيات أم مباحث الكم مع العدد والمقدار والزمان والمكان؟ ولماذا هذا الاقتضاب التام فيها بالمقارنة إلى الكيفيات المحسوسة والنفسانية؟ هل يفقد الصوري دلالته إلى هذا الحد؟(٢٦٣) .

د ـ الكيفيات الاستعدادية : وقد يبدو التعبير أكثر قبولاً من التعبير السابق وذلك لأن الاستعداد كيف وليس كماً . وهي مثل القبول ويسمى ضعفاً أو ميلاً أو تأثراً أو الدفع ويسمى قوة . القبول من الملاءمة والدفع من المفاخرة ، وهذا بخلاف قوة الفعل . يبدو أن الكيفيات الاستعدادية أقل بكثير مما يمكن أن تكون . فهي التي توصل التهيؤ والامكانية والتحقق وكأن المحسوسات والنفسانيات والكيفيات الكمية ما هي إلا مقدمات لاعداد النفس وتهيئتها إلى شيء . ولذلك تبدو مباحث الكيف مفلطحة للغاية في المحسوسات والنفسانيات ومضمرة للغاية في الكيفيات الكمية والاستعدادية أي في التعامل مع صور الأشياء وفي إعداد النفس . وهل هي القبول والدفع فقط أم هناك الاقدام والاحجام وغيرها ؟ وما صلتها

---

(٢٦٣) المواقف ص ١٦٠ ـ ١٦١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠٠ .

بالعواطف والانفعالات ؟ وما عددها وما تصنيفها؟ هل هي فطرية أم مكتسبة؟ هل هي حالات أم ملكات؟ هل فقدت دلالتها بالنسبة للفكر الديني؟ هل أحجم الفكر العلمي من الدخول في الفكر الرياضي في الكيفيات الكمية وفي علم النفس في الكيفيات الاستعدادية ؟ هل يمكن للفكر المتوقف في هذه المقدمات النظرية أن يستعيد نشاطه ويستأنف تقدمه(٢٦٤) .

٤ ـ النسبة : وبعد الكم والكيف تأتي النسبة. وتأتي وحدها عند القدماء في صيغة الجمع « النسب » في حين أن الكم والكيف والاضافة في صيغة المفرد . والنسب من الأعراض لأنها متغيرة . وهي أقرب إلى مباحث الكم لأنها تشمل الأكوان على مصطلح المتكلمين والأين على مصطلح الحكماء ، وبالتالي فهي أقرب إلى المكان ، وهو من مباحث الكم كالعدد والمقدار والزمان . والاين أكبر من مبحث الأكوان مما يدل على انتشار المكان على الأكوان وامتداد أقوال الحكماء على أقوال المتكلمين(٢٦٥) . يتحدث المتكلمون عن الأكوان ويعنون بها الجواهر في حين يتحدث الحكماء عن الأين ويعنون به الحركة. لذلك ارتبطت مباحث النسبة أيضاً بمبحث الجواهر لأنها تتعلق بأعراض الأجسام مثل الحركة والسكون والمماسة والمجاورة ، والاجتماع والافتراق والتأليف . كما أنها ترتبط بالكيفيات المحسوسة في الملموسات واعتماد اليد ومقاومة الأشياء لها . ومن ثم ارتبطت الأكوان بالكيفيات المحسوسة لأنها مدركة حسياً عن طريق البصر أو اللمس .

وقد أثبت الحكماء المقولات النسبية وأنكرها المتكلمون إلا الأين لعدة وجوه: منها أنها لو وجدت لزم التسلسل لأن محلها يتصف بها ، ووجودها إليه نسبة ولأن أجزاء الزمان بعضها لبعض نسبة . ولو وجدت لوجدت الاضافة وهي لا تتحقق إلا بوجود المنتسبين فيوجد التقدم والتأخر معاً . ولو وجدت لزم اتصاف الباري بالحوادث لأن له مع كل حادث اضافة بأنه موجود معه وقبله ، بأنه متقدم عليه وبعده لأنه متأخر عنه(٢٦٦) . والحقيقة أن الاضافة للأشياء ونسبتها فيما بينها ليست

(٢٦٤) المواقف ص ١٦١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠٠ .

(٢٦٥) في المواقف ، الأكوان ص ١٦١ ـ ١٦٧ (٦ ص) ، والأين ص ١٦٧ ـ ١٧٧ (١٠ ص) .

(٢٦٦) اثبتها ضرار بن عمرو والتزم التسلسل ومن ثم اثبت اعراضاً غير متناهية . وقد اختلف المعتزلة =

من الذات المشخصة التي هي حتى الآن افتراض خالص أو ايمان صرف ، وبالتالي فلا خوف عليها من الحوادث لأنها لا صلة لها بالعالم . واحتج الحكماء بأن كون السماء فوق الأرض ومقابلة الشمس لوجه الأرض تُعلم ضرورة . وتنفي أدلة المتكلمين وجود النسب في الخارج وتجعلها مجرد وجود في العقل من وضع الذهن ومن نسيج الشعور لما كان الانسان بؤرة للعلاقات بينه وبين الأشياء وبينه وبين الآخرين .

والسؤال الآن هل هناك دلالات دينية لهذه الموضوعات ؟ هل تكشف أيضاً عن الصراع بين الفكر والدين ؟ .

ويدخل في مباحث الأكوان عند المتكلمين مواضيع الحركة والسكون والتأليف والمجاورة والمماسة والمباينة والافتراق وكرد فعل عليها تظهر مفاهيم الكمون والطفرة والتولد كتصورات بديلة للحركة والسكون ، وكأن هناك تصورين للأكوان تصور كمي للأجزاء وتصور كيفي للكليات . فما هي الأكوان ؟ إن حصول الجوهر في الحيز معلل بصفة قائمة بالجوهر يسمى بالكائنية والصفة التي هي علتها تسمى بالكون . منعه البعض اما لوقوع في الدور واما لأن الحصول في الحيز المخصوص من خلق «الله» وكأن «الله» يتدخل في تكوين الأشياء وكينونتها وسكنها في المكان[٢٦٧]! والأكوان أربعة . لأن الحصول في الحيز أما أن يعتبر بالنسبة إلى جوهر آخر

= بناء على أصولهم ، المواقف ص ١٦٦ ـ ١٦٧ . ولهم شبه في أن الكون غير الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، الشامل ص ٤٣٩ ـ ٤٣٣ ؛ وعند أكثر أهل النظر أن الحركة غير السكون مقالات جـ ٢ ، ص ٢٢ ؛ الشامل ص ٤٤٤ ـ ٤٤٧ ؛ وإذا كان الجبائي يرى أن الحركة والسكون أكوان ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٢٠ ـ ٢٢ . ص ٤١ (في حالة خلق «الله» الكون ساكناً) الشامل ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ فعند أبي الهذيل الحركات والسكون غير الأكوان والمماسات، الشامل ص ٤٢٩ ـ ٤٣١ . الحركة والسكون مدركات بالبصر واللمس والتأليف ملموس ومبصر عند الجبائي ، وهو مختلف لديه باختلاف الأشكال وقد يقع مباشراً . وقد يتولد التأليف من مجاورة الرطب لليابس دون أن يكونا شرطين له عند أكثر المعتزلة . وإذا كان هناك اتفاق على بقاء الأعراض عند المعتزلة فإن الاختلاف في بقاء الحركة . نفاها الجبائي وأكثر المعتزلة . وأثبت أبو هاشم وأكثر المعتزلة بقاء السكون واستثنى الجبائي صورتين ، المواقف ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ أصول الدين ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠١ الدر النضيد ص ١٤٠ .

(٢٦٧) منعه الرازي لوقوع الدور ، ومنعه الايجي لأن الحصول في الحيز المخصوص من خلق الله .

أو لا . والثاني ان كان مسبوقاً بحصوله في ذلك الحيز فسُكونٌ وان كان مسبوقاً بحصوله في حيز آخر فحركة . السكون حصول ثان في حيز أول والحركة حصول أول في حيز ثانٍ . وأما القسم الأول فإن كان بحيث يمكن أن يتخلل بينه وبين الآخر ثالث فهو الافتراق وإلا فهو الاجتماع . والاجتماع واحد والافتراق مختلف لأن منه قرب وبعد ومجاورة. وإذا تحرك الاختلاف فإنه يأخذ صورتين: الأولى إذا تحرك الجسم تحرك الجوهر الظاهر منه اتفاقاً ثم اختلف في المتوسط المباين . والثاني إذا كان الجوهر مستقراً في مكانه وتحرك عليه آخر بحيث تتبدل المحاذاة فالمستقر يتحرك . ثم يتغير موضوع الحركة والسكون إلى موضوع التأليف والمجاورة والمماسة وذلك لأن كل جوهر فرد محفوف بستة جواهر أخرى من جهاته الست . فالجوهر الفرد له ست مماسات وست مباينات ، وقد منع ذلك بعض المتكلمين . التأليف والمجاورة إذن جائزان. ثم وقع الاختلاف هل المجاورة غير الكون؟ هل التأليف والمماسة غير المجاورة؟ هل المجاورة واحدة بينها يتحد التأليف والمماسة ؟ هل المجاورة تأليف؟ هل المماسة نفس المجاورة أم متعددان؟ هل يتغير الكون إذا تعرض لماسات ومجاورات؟ هل المتوسط من الجوهرين كلما قرب من أحدهما بعد عن الأخر؟ هل يقال للجوهر إذا ماس من جهة إنه مباين من الجهة الأخرى؟ هل تجوز المباينة والافتراق في جملة جواهر العالم؟ هل يُطلق القول بتضاد الأكوان عند من لم يجعل المماسة كوناً ؟ بل تصبح الأسئلة نظرية خالصة مثل : ماذا تعني الحركة والسكون؟ هل يحلان في الجسم؟ هل هما في المكان الأول والثاني؟ هل يكون الساكن في حال سكونه متحركاً بوجه من الوجوه؟[٢٦٨] . وما دلالة هذه التساؤلات كلها؟ وهل تكشف عن الصراع الدائم بين الفكر الديني والفكر العلمي؟ هل هو فكر علمي خالص بعد أن قد توارى الفكر الديني إلى أقل حجم

---

(٢٦٨) عند الأشعري والمعتزلة المجاورة غير الكون . وعند الأشعري وحده المجاورة واحدة في حين يتعدد التأليف والمماسة . وعند المعتزلة المجاورة بين الرطب واليابس تأليف . وفي رأي الأستاذ المماسة نفس المجاورة ومتعددتان ضرورة . وعند القاضي لا يتغير الكون إذا تعرض لماسات ومجاورات . مقالات جـ ٢ ، ص ٤١ ، المواقف ص ١٦٢ - ١٦٧ ؛ الشامل ص ٤٢٧ ، ص ٤٢٩ - ٤٤٧ .

له؟ هل يختفي الفكر الالهي أولاً بالفكر الميتافيزيقي ثم يختفي الفكر الميتافيزيقي ثانياً بالفكر العلمي؟[٢٦٩]. هل الفكر العلمي الخالص دلالة على التوحيد؟ هل الفكر العلمي نفسه هو الفكر الديني وبالتالي يكون التوحيد هو الطبيعة كموضوع ومنهج ونتيجة؟ فإذا كان الرد بالإيجاب يكون الفكر العلمي تأصيلاً للفكر الديني وتطويراً له ، ويكون الفكر الديني مقدمة للفكر العلمي وجزءاً من تاريخه وأحد مراحله التاريخية . ونكون باسقاطنا الفكر العلمي كلية ودعوتنا إلى الفكر الديني بل وإلى الفكر « اللاهوتي » المشخص قد عدنا إلى الوراء ، وانتهينا إلى حيث كنا في البداية ، وتكون الحضارة قد أدت دورتها وعدنا من جديد كما بدأنا إلى نقطة الصفر الأولى .

وبالاضافة إلى النظرية الآلية للأجزاء مداخلة ومجاورة ومماسة ، اجتماعاً وافتراقاً بل وتأليفاً حتى في دراسة أفعال القلوب من الارادات والكراهات والعلوم والنظر ظهرت نظرية حيوية أخرى للأجسام تقوم على الكمون والطفرة والظهور تتحدى الفكر الديني في نظرية « الخلق من عدم » والذي انتهى بدوره إلى اتهامها بالدهرية وانكار الخلق معها أنها تصور جديد للخلق وهو التخلق الذاتي . « فالله » خلق الأشياء دفعة واحدة واكمن بعضها في بعض أصلاً وهو ملاحظ في ظواهر الحياة مما أدى إلى اعتراف الفقهاء بها اعتماداً على الحس والمشاهدة ومجرى العادات[٢٧٠] . واثبات الطفرة يؤدي إلى انكار الجزء الذي لا يتجزأ الذي يقوم

---

(٢٦٩) مثلاً عندما يقال إن الترك معنى لأن كل من دون « الله » ترك وبالتالي يخطىء من يجعل الترك لا معنى الفصل جـ ٥ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ، كما يبدو أن الدافع لانكار الاعراض راجع إلى أن «الله» لا شيء معه ولا شيء يدخل في نسبة معه، المحصل ص ٥٨ ـ ٦٨ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠٠ ؛ وقد يستعمل الفكر العلمي لفهم موضوعات الفكر الديني . فعند أبي علي الجبائي وابنه أبو هاشم ان « الله » إذا أراد أن يفني العالم خلق عرضاً لا في محل أفنى به الأجسام والجواهر ولا يصح في قدرة « الله » أن يفني بعض الجواهر مع بقاء بعضها وقد خلقها تفاريق ولا يقدر على افنائها تفاريق . الفرق ص ١٨٤ ؛ الشامل ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٢٧٠) هذه هي نظرية النظام المشهورة والتي يؤيدها ابن حزم في الحياة وليس في الجماد . الفصل جـ ٥ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٨ . وقد أيدها الاسكافي أيضاً في الجماد فالنار كامنة في الحطب ، ونفاها الأصم وأبو الهذيل والسكاك ، مقالات جـ ٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ الفرق ص ١٣١ ، ص=

عليه التصور الآلي الأول . وفي حقيقة الأمر ان اثبات الكمون والطفرة يساعد على الخلق والابداع ومعرفة المراحل والاحساس بالتاريخ والشعور بالزمان وأخذ رؤية مستقبلية غائية بدلاً من النظر إلى الماضي والتقدم إلى الوراء. يمكن أن يكون الكمون والطفرة جزءاً من الثقافة الوطنية للشعوب النامية إذا كان ينقصها الحركة والتغير ويعوزها التخطيط المتصل القائم على التسلسل والرؤية المستقبلية والاحساس بالمراحل ، وتساعدها على الابداع الذاتي . كما أنها تساعد الفكر العلمي الآلي في الشعوب الصناعية على تجاوز الآلية وحتمية الطبيعة والتحليل الكمي إلى مزيد من التحليل الكيفي والتمييز بين المستويات دون أن تنقلب إلى ضدها وتتحول إلى إشراقات صوفية في النفس وفي الطبيعة ومن ثم يتحول العلم إلى تصوف بتحويل المادة إلى روح ، والديمومة إلى انقطاع .

وتعادل مباحث الحكماء في الأين مباحث المتكلمين في الأكوان ، فكلاهما مبحث في الحركة . والحركة عند الحكماء كمال أول بالقوة من حيث هو بالقوة . وهو تعريف يقوم على اسقاط وجدانيات من لفظ كمال أول كمقولة دينية أخلاقية . ويتضح ذلك أيضاً من تعريفهم للنفس بأنها كمال أول . تعريف الأين إذن اسقاط من تعريف النفس على الطبيعة ، ومن الذات على الموضوع ، وهو ما يشير إليه الحكماء بحديثهم عن وظيفة التوهم .وللحركة معنيان . الأول التوجه وهو كيفية بها يكون الجسم أبداً متوسطاً بين المبدأ والمنتهى . والثاني الأمر الممتد من أول المسافة إلى آخرها ولا وجود له إلا في التوهم . كل هذه التقسيمات إذن من صنع الفكر المثالي وريث الفكر الديني قبل أن يتحول إلى فكر علمي . ومقولات الحركة أربع . الأولى الكم وهو التخلخل وضده التكاثف ، والنمو وعكسه الذبول . والثانية الكيف والحركة فيه تسمى استحالة ؛ والثالثة الوضع مثل حركة الفلك ؛ والرابعة الأين وهو النقلة التي يسميها المتكلم حركة . وباقي المقولات لا تقع فيها

= ١٤٢ ، ص ١٩٨ ؛ الملل والنحل جـ ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ ؛ الانتصار ص ١٣٢ ص ١٣٢ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، الشامل ص ٤٣٤ - ٤٣٦ مقالات جـ ١ ، ص ١٢٦ ، ص ١٨ - ١٩ .

الحركة مثل الجوهر والمضاف والملك والمتى وأن يفعل وأن ينفعل . فالجوهر تتبدل صورته ، والمضاف طبيعة غير مستقلة ، والمتى وجود الجسم فيه يتبع الحركة وكذا الملك، وأن يفعل وأن ينفعل أثبت البعض فيهما حركة. وفي حقيقة الأمر إن الجوهر مبحث خاص والمضاف مع الملك أحد أقسام الأعراض بعد النسبة ، والمتى أي الزمان دخل في الكم مع العدد والمقدار والمكان . أما أن يفعل وأن ينفعل فهو جزء من مباحث الكيف في الكيفيات الاستعدادية . ومن ثم توضع مقولة الأين موضع الصدارة وتتفاوت المقولات الأخرى بين الاثبات والانكار إذ يتداخل الأين والمكان والحركة والسكون والقوة والفعل والكمال الأول والكمال الثاني معاً لتكوّن ابحاثاً في المكان والحركة تحت عرض الأين . وهنا يبدو الوجود وكأنه وصف لوجود دينامي تتقلب عليه الأعراض. والعلة للحركة الطبيعية ليست الجسمية والا دامت الحركة بدوامها ، وليست الطبيعية لأنها ثابتة فإن لم تكن المادية أو الصورية فلم تبق إلا الفاعلة أو الغائية ، آثر المتكلمون الأولى نظراً لسيطرة الفكر الديني والحكماء الثانية نظراً لسيادة الفكر الفلسفي . وتقتضي الحركة أموراً ستة : ما به أي الفاعل ، ما له أي المحل ، ما فيه أي المقولة ، ما منه أي المبدأ ، وما إليه أي المنتهى ، ثم المقدار أي الزمان . وقد زادت هذه القسمة على القسمة الرباعية الأولى شيئين المقولة والزمان . ومع ذلك فالحركة واحدة . ووحدة الحركة اما شخصية أو نوعية أو جنسية . الأولى وحدة ما له ، والثانية وحدة ما فيه وما منه وما إليه ، والثالثة وحدة ما فيه . وقد تكون الحركات متضادة بشرط دخولها تحت جنس واحد ، وتضاد الحركات ليس لتضاد ما فيه بل لتضاد ما إليه أي الغاية والمنتهى . والحركة ليست كمّاً بالذات بل بالعرض وتنقسم ثلاثة أقسام اما بحسب المسافة أو بحسب الزمان أو بحسب المتحرك . وما يوصف بالحركة اما أن تكون الحركة فيه بالحقيقة أو بالعرض مثل السفينة والراكب . والأول اما أن تكون الحركة في غيره وهي الحركة القسرية أو فيه اما مع الشعور وهي الارادية أو لا وهي الطبيعية مثل حركة النبات .والحركة اما سريعة أو بطيئة . وعلة البطء في الطبيعية ممانعة المخروق ، وفي القسرية والارادية ممانعة الطبيعة . وبين كل حركتين

مستقيمتين كصاعدة وهابطة سكون ، وكل حركة مستقيمة قد تنتهي إلى سكون[٢٧١] .

والآن ، ما دلالة هذه الأحاديث المطولة كلها عن الحركة؟ هل لها دلالة في الفكر الديني حيث تكشف كيف تحول الفكر الديني إلى فكر مثالي[٢٧٢] ؟ هل لها دلالة في الفكر العلمي حيث تكشف كيف استقى المتكلمون والحكماء أبحاثهم من العلماء التجريبيين؟ هل لهذه البحوث كلها أهمية من أجل تأسيس نظرية في المعلوم تصلح لأن تكون مع نظرية العلم مقدمات نظرية لتأسيس علم أصول الدين؟ وما المطلوب الآن؟ هل يترك مبحث النسبة على هذا المستوى الطبيعي العلمي من التحليل أم يُرفع من جديد إلى مستوى الفكر المثالي أم يُعاد بناؤه في الشعور كبواعث على الفعل؟ وهل يمكن الانتقال من العلم الطبيعي إلى العلم الاجتماعي والسياسي؟ هل الحركة حركة الأجسام ، أعراضاً وجواهر أم حركة المجتمعات شعوباً وتاريخاً؟ هل يمكن الاستفادة من تقسيمات القدماء لأنواع الحركة وعللها خاصة العلة الغائية ، القصد والاتجاه في التخطيط وتحديد الأهداف وصياغة رؤى مستقبلية؟ هل يمكن أن تتحول هذه التمرينات العقلية كلها التي تكشف عن الصراع بين المستويات في تحليل بين الايمان والحكمة والعلم إلى حركات واقعية بالفعل للشعوب في التاريخ؟[٢٧٣] هل يمكن الاستفادة من قسمة الحركة إلى يمين

---

(٢٧١) هذا رأي بعض الحكماء ، والجبائي من المعتزلة ؛ المواقف ص ١٦٧ ـ ١٧٧ .

(٢٧٢) يضرب ابن حزم المثل بالحركات الاختيارية « فعل النفوس الحية من الملائكة والانس والجن وسائر الحيوان كله »! يضع الانسان مع الملائكة والحيوان كما يضعه مع الجن ! والملائكة في هذه اللحظة من تأسيس العلم تخرج عن مباحث الاعراض ولا يمكن تأصيلها بالعقل وكذلك الجن . أما الحيوان فليس له حركة ارادية واعية مقصودة وتختلف حركته نوعاً وكيفاً عن الحركة الارادية الانسانية الفصل جـ ٥ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢٧٣) مثلاً هل الأجسام كلها متحركة أو ساكنة؟ عند معمر الأجسام كلها ساكنة على الحقيقة ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ١٩ ـ ٢١ ؛ ويجوّز أبو الهذيل والنظام تحرك الجسم لا عن شيء ولا إلى شيء مقالات جـ ٢ ، ص ١٩ ، ص ١٠٥ . والأجسام بأثرها متماثلة خلافاً للنظام ، المحصل ص ٩٢ ـ ٩٣ ؛ الشامل ص ٤٥١ ـ ٤٥٣ ؛ ويستحيل اجتماع الضدين عند الأشاعرة ، الشامل ص ٤٥٠ ؛ هذه كلها أمثلة صورية خالصة امتدت إلى المستوى الانساني عند النظام عندما اعتبر افعال العباد كلها حركات فحسب ، الملل جـ ١ ، ص ٨٢ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ص

ويسار أو إلى خلف وأمام للمساهمة في حركات التغير الاجتماعي ودفع الأمة نحو مزيد من التقدم والقضاء على معوقاته وانهاء التخلف من جذوره بعد أن استقر الأعلى والأدنى فقط في وجداننا القومي؟ ألا يترك تحليل القدماء للحركة وجدان المحدثين فارغاً بلا مضمون؟ ويكون السؤال : كيف يمكن ادخال المضمون الاجتماعي والسياسي لوجدان المحدثين في تحليل القدماء للحركة في الأكوان عند المتكلمين والأين عند الحكماء؟.

٥ ـ **الاضافة** : والاضافة آخر قسمة للعرض بعد الكم والكيف والنسبة . ويعني اضافة شيء لشيء آخر مثل أن الابوة هي المعقولة بالنسبة إلى الغير أي البنوة . وأهميتها لتأصيل الفكر الديني هو أن كثيراً من الموضوعات الدينية لا تُعقل إلا بالإضافة . وقياس الغائب على الشاهد هو نفسه فكر بالاضافة . وقد يكون تصور «الله» هو في حقيقة الأمر تصور بالاضافة إلى الانسان . فالاضافة أساس القياس والنسبة . وهو جوهر منطق العلاقة . وخواص المضاف اثنتان : الأولى التكافؤ في الوجود والعدم بحسب الذهن والخارج ، والثانية وجود التكافؤ في النسبة وهو الانعكاس . ولا تستقل الاضافة بوجودهما فحصولها يتبع لحوقها بالغير. وتقسم الاضافة إلى عدة تقسيمات : الأولى ، التوافق كالجوار والتخالف كالابن والأب . الثانية ، الاضافة لصفة واحدة من المضافين مثل العشق أو لصفة في أمرهما كالعاطفية . والثالثة أقسام المعادلة مثل الغالب والقاهر والمانع ، وفي الفعل والانفعال مثل القطع والكسر ، وفي المحاكاة مثل العلم والخبر ، وفي الاتحاد مثل المجاورة والمشابهة . والرابعة المقولات كلها مثل الجوهر في الأب والابن ، والكم مثل الصغير والكبير . والخامسة وجود اسم لها من الطرفين أو من أحدهما أعدم وجوده منها . والسادسة ، وضع اسم لها ولموضوعها يدل عليها بالتضمن . واضح من هذه القسمة أنها قسمة صورية خالصة بالرغم من وجود بعض الأمثلة الشارحة . ومع ذلك فالأمثلة قد تفرض بذاتها على الممثول . فالعشق ليس مثلا لاضافة من طرف واحد لأنه قد يكون متبادلاً وإلا كان حركة العاشق نحو المعشوق

= ٤١ ـ ٤٢ ؛ الفرق ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٢٨ ـ ١٣٠ ؛ الشامل ص ٤٥٣ ـ ٤٥٥ .

كما هو الحال في علوم الحكمة وفي علوم التصوف وهو ما استقر في وجداننا القومي حتى الآن في صيغة علاقة التبعية بالاستقلال . ويغلب على القسمة الفكر المثالي الخالص دون أثر للفكر الديني أو للفكر العلمي فيه(٢٧٤) .

ولكن الأهم من ذلك كله في الاضافة هو ادخال التقدم والتأخر من أقسام المضاف . فعند الحكماء التقدم والتأخر على خمسة أوجه : الأول بالعلية مثل تقدم المضيء على الضوء ، والثاني بالذات مثل تقدم الواحد على الاثنين ، والثالث بالزمان مثل تقدم موسى على عيسى ، والرابع بالشرف مثل تقدم أبي بكر على عمر ، والخامس بالرتبة مثل أن يكون أقرب إلى مبدأ معين . والترتيب اما عقلي كما في الأجناس أو وضعي كما في صفوف المسجد . أما عند المتكلمين فهناك تقدم كما لأجزاء الزمان بعضها على بعض طبقاً للتصور الآلي لحركة الأجسام . ولما أراد بعض الحكماء الحصر قالوا إن التقدم إما أن يكون حقيقياً أو اعتبارياً والأول يتوقف فيه المتأخر على المتقدم من غير عكس والثاني لا بد من مبدأ تعتبر إليه النسبة وذلك إما كمال أو لا . وعند هذا الحدث يتوقف وصف القدماء للتقدم والتأخر دون تدخل موضوعات عقائدية أو تاريخية وتبقى صورية منطقية محايدة ، خارج المكان والزمان بعد أن وضع الحكيم والمتكلّم نفسيهما خارج التاريخ(٢٧٥) .

والأمر بالنسبة لنا يختلف فالتقدم والتأخر أزمة العصر ووجدان الجيل كله ، وهدف قومي يسعى إليه الجميع يخطط له ، ويعمل على تحقيقه . ومن ثم فإننا نحول تصنيف القدماء من المستوى الصوري المنطقي النظري إلى المستوى المادي التاريخي العملي . فالتقدم بالعلية لا يعني فقط تقدم المضيء على الضوء بل تقدم العلة على المعلول في امكانيات العمل والمحاربة . والتقدم بالذات لا يعني فقط تقدم الواحد على الاثنين بل يعني أولويات التخطيط لصالح الأغلبية . والتقدم بالزمان لا يشير فقط إلى تقدم موسى على عيسى بل يشير إلى مراحل التاريخ وتطور النبوة وقانون التقدم . والتقدم بالشرف ليس فقط تقدم أبي بكر على عمر كما هو الحال في

---

(٢٧٤) المواقف ص ١٧٧ - ١٨١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢٧٥) المواقف ص ١٨٠ - ١٨١ .

عقائد القدماء بل هو التفاضل في النقاء والطهارة والأسبقية للجهاد . والتقدم بالرتبة سواء العقلية أو الوضعية لا يعني تقدماً في الأجناس أو في ترتيب الصفوف بل يعني التقدم في درجة العلم والفضل والأهلية .. إن التقدم لا يعني تقدم الزمان في حركات الأجسام بل تقدم التاريخ في حركات الشعوب . وقد يكون تقدماً اعتبارياً وهو تقدم الذهن، التصورات والمناهج، أو حقيقياً فهو تقدم الواقع والأبنية الاجتماعية . وفي كلتا الحالتين هو تقدم حقيقي وليس وهماً . ومن ثم فالتقدم بالذات ليس مجرد تقدم صوري ماهوي بل بحسب الوجود والتاريخ ، تقدم الشعوب والمجتمعات ، تقدم الانتاج وتقدم الخدمات .

ولقد استطاع القدماء في تنبيههم في آخر مباحث الأعراض التنويه بفضل التقدم على التأخر وأن الأصل هو المستقبل ثم يصير حاضراً فماضياً(٢٧٦) . كما أن للتقدم معنى زائد على التأخر سواء من حيث الذات فهو مقوم عليه أو من حيث العلة فهو موجد أو من حيث الزمان من حيث أن له زماناً أكثر،ومن حيث الشرف فهو أكمل ، وفي الرتبة من حيث وصوله إلى الغاية أولاً(٢٧٧) . يمكن إذن البحث والخوض في أعماق المقدمات النظرية لعلم أصول الدين والعثور على شروط التقدم وأسس النهضة بعيداً عن الأفكار الشائعة عن النظرة إلى الماضي والحنين إليه الذي يمثل الفكر الديني كما يبدو في الحركة السلفية ، وقد لا يكون فضل التقدم على التأخر بعيداً عن مقصد الوحي ونصوصه الصريحة(٢٧٨) .

---

(٢٧٦) « الماضي مقوم على المستقبل عند الجمهور نظراً لذاتيها . ومنهم من عكس الأمر نظراً إلى عارضيها فإن كل زمان يكون أولاً مستقبلاً ثم يصير حالاً ثم يصير ماضياً فكونه مستقبلاً يعرض له قبل كونه ماضياً » المواقف ص ١٨١ .

(٢٧٧) « جميع أنواع التقدم مشترك في معنى واحد وهو أن للمتقدم امراً زائداً ليس للمتأخر . ففي الذاتي كونه مقدماً ، وفي العليّ كونه موجوداً ، وفي الزماني كونه مضى له زمان أكثر لم يمض للمتأخر ، وفي الشرف زيادة كمال ، وفي الرتبي وصل إليه من المبدأ أولاً » المواقف ص ١٨١ . ولغوياً قد يكون « القدم » و « التقدم » من نفس اللفظ « قدم » . فالقدم يعني التقدم وليس التأخر ، وتعني قدّم أعطى إلى الامام وليس ذهب إلى الخلف .

(٢٧٨) ذلك واضح في القرآن القديم من آيات ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ (٧٤ : ٣٧) ، ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ (١٥ : ٢٤) .

رابعاً: انطولوجيا الوجود، (الجواهر):

ومبحث الجواهر هو المبحث الثالث في نظرية الوجود بعد «ميتافيزيقا الوجود» أو الأمور العامة و«فينومينولوجيا الوجود» أو الأعراض[٢٧٩]. وكأن مسار نظرية الوجود وهو الانتقال من المبادىء الميتافيزيقية العامة التي يتحد فيها الفكر بالوجود إلى ظواهر الأشياء كما تبدو للانسان ثم إلى الأشياء ذاتها، وكأن الانسان وجود بين عالمين، عالم المبادىء العامة وعالم الأجسام المادية. ومع أن الجواهر عند المتكلمين هي الأجسام، الأجسام المادية الملموسة المرئية المحسوسة وعند الحكماء الجواهر المفارقة ففي كلتا الحالتين يكون الانسان بين عالمين.

ويشمل مبحث الجواهر مباحث أربعة: الجسم، وعوارض الأجسام، والنفس، والعقل. وأشملها الجسم الذي يطغى على ثلاثة أرباع المبحث. بل إن عوارض الأجسام ذاتها أشمل من النفس والعقل[٢٨٠]. وأهم ما في الجسم هي قسمته وليس حقيقته أو أعراضه. فهي تشمل أكثر من نصف المبحث مما يدل على أن منهج الكلام يقوم أساساً على القسمة العقلية أكثر مما يقوم على التعريف أو التحليل[٢٨١].

وتدخل مقولة الجسم مع الجوهر والعرض في قسمة ثلاثية للمحدث الذي ينقسم إلى جسم وجوهر وعرض. فالجسم هو المؤلف المركب من جوهر وعرض، والجوهر الذي له حيز، والحيز هو المكان، والعرض الذي يعرض في الجوهر. الجسم إذن هو القابل للعرض، وهو الجوهر، وهو «الجزء الذي لا يتجزأ كجسم وجوهر»[٢٨٢]. ويطلق الجسم عند الحكماء بالاشتراك على معنيين: الأول الجسم

---

(٢٧٩) المواقف ص ١٨٢ - ٢٦٥.

(٢٨٠) في المواقف، الجسم ص ١٨٣ - ٢٤٤ (٦١ ص)؛ عوارض الأجسام ص ٢٤٢ - ٢٥٦ (١٢ ص)؛ النفس ص ٢٥٧ - ٢٦١ (٤ ص)؛ العقل ص ٢٦٢ - ٢٦٥ (٣ ص).

(٢٨١) حقيقة الجسم ص ١٨٣ - ١٩٩ (١٦ ص)؛ أقسام الجسم ص ١٩٩ - ٢٢٩ (٣٠ ص) عوارض الأجسام ص ٢٤٤ - ٢٥٦ (١٢ ص).

(٢٨٢) الانصاف ص ١٦؛ التمهيد ص ٤١ - ٤٢؛ طوالع الأنوار ص ١٠٩؛ الشامل ص ١٤١ - ١٤٢، والجزء الذي لا يتجزأ يحتمل الاعراض مثل الجوهر عند أبي الحسين الصالحي مقالات جـ ٢، ص ٤.

الطبيعي وهو موضوع العلم الطبيعي ، وهو جوهر له أبعاد ثلاثة متقاطعة على زاوية قائمة . والثاني الجسم التعليمي موضوع العلوم التعليمية أي الرياضية، ورفضوا تصور المعتزلة له بأنه الطويل العريض العميق . قد يكون هو القائم بنفسه الذي لا يتجزأ أو هو الوجود الذي يعني الجسم بلا تعين أو تحيز أو هو الشيء[٢٨٣] . وهي كلها تعريفات تجعل الجسم مجسماً في أغلب الأحوال ، وأقرب إلى المشاهدة الحسية والبداهة العقلية سواء في العلم الطبيعي أم في العلم الرياضي أم في العلم الانساني . ليس الجسم مجموعة أعراض مجتمعة بل لا بد من جوهر فالعلاقة بينهما ليست علاقة حامل بمحمول . ليس الجسم مجرد صفاته بل هو المتحيز أو المحل القابل للحال . واعتبار الجسم مجرد صفات انكار لقوام الشيء[٢٨٤] . واعتبار الأجزاء هي الأعراض كاللون والطعم والحر والبرد والخشونة واللين خلط بين الصفات الأولى والثانية . فالصفات الأولى هي ما يحدد « الجزء الذي لا يتجزأ » كالوجود والثقل والطول والعرض والعمق . أما الصفات الثانية فهي التي تظهر من خلال الحواس الخمس وهي الأعراض لا الأجزاء . وقد يكون الجسم هو المماسة من احدى الجهات . وهذا تحديد للجسم من الخارج وقد تكون المماسة من أسفل حتى يمكن للجسم أن يرتكز على آخر . وقد تكون من جهات أخرى حتى يكون القديم محاطاً بالأجسام . ويبدو أن الذي يحدد التصور الطبيعي للجسم هنا هو التصور « الإلهي »[٢٨٥] . والمماسة بعد المجاورة وقبل التأليف ، والمباينة ضد المجاورة . خلاصة القول إن الجسم عند المعتزلة والفلاسفة هو الطويل العريض العميق ذي الأبعاد الثلاثة وعند الأشاعرة هو المتحيز القابل للقسمة ولو في جهة واحدة . وعند كليهما الجسم مؤلف أو متألف ومنقسم إلى جهات ثلاث أو

(٢٨٣) القائم بنفسه عند الصالحية ، والوجود عند الكرامية ، والشيء عند هشام بن الحكم ولا يلزم من ذلك بالضرورة تسمية الاعراض أجساماً فالأعراض محمولة على أجسام ؛ الشامل ص ٤٠٦ .

(٢٨٤) عند النظام والنجار الجسم مجموع الاعراض مجتمعة . وعند ضرار والنجار وحفص الفرد ماهية الجسم مركبة من لون وطعم ورائحة وحرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وخشونة ولين المحصل ص ٨٤ ؛ وعند ضرار بن عمرو الجسم أعراض ألفت ، مقالات جـ ٢ ، ص ٦ ـ ٧ ؛ الفرق ص ٢١٤ ؛ الشامل ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، ص ١٥٣ .

(٢٨٥) هذا هو رأي الكرامية ، الشامل ص ٤٠١ .

مؤلف من أربعة أجزاء أو ستة أو ثمانية أو ستة وثلاثين جزءاً أو من عدد غير محدد من الأجزاء[٢٨٦] . فإذا ما تحدد الجسم بالأبعاد الثلاثة فإنه يكون قابلاً للقسمة كما يقول الحكماء إلى ما لا نهاية وليس له أجزاء يتوقف عليه[٢٨٧] . أو يكون هو الجوهر القابل للأبعاد الثلاثة ، وينقسم إلى أجزاء صغار لا تنقسم أصلاً أو لا تنقسم فعلاً غير متناهية وهو الجوهر الفرد الذي ينكره الحكماء .

وينقسم الجوهر عند الحكماء إلى خمسة جواهر : صورة إن كان حالاً ، وهيولى إن كان محلاً ، وجسماً إن كان مركباً منهما ، وإن كان لا حالاً ولا محلاً فإنه يكون نفساً إن تعلق بالجسم تعلق التدبير ، وعقلاً إن لم يكن كذلك . ويمكن فهم نفس القسمة بأنه إذا كان الجوهر له أبعاد ثلاثة فهو جسم ، وإن كان جزؤه به بالفعل فصورة وإلا فمادة . وإن لم يكن جزءاً وكان متصرفاً فيه فنفس وإلا فعقل . وهنا تبدو القسمة وكأن غايتها الانتقال من الوجود الحسي المركب من مادة وصورة إلى الوجود العقلي البسيط مثل النفس والعقل ، في حين أنه عند المتكلمين لا جوهر إلا المتحيز . قد يقبل القسمة وهو الجسم وقد لا يقبلها وهو الجوهر الفرد . فالجسم البسيط يقبل القسمة . وبالتالي فهناك أربعة احتمالات : الأول أن الأجزاء موجودة بالفعل ومتناهية ، والثاني أن الأجزاء موجودة بالفعل وغير متناهية ، والثالث أن الأجزاء موجودة بالقوة ومتناهية ، والرابع أن الأجزاء موجودة

---

(٢٨٦) الجسم عند الجمهورمجموع الجزأين وعند القاضي كل واحد من الجزأين لأنه الذي قام به التأليف . عند معمر الجسم هو الطويل العريض العميق . وعند الفلاسفة والمعتزلة أيضاً بوجه عام الجسم هو الطويل العريض العميق . وبالنسبة لعدد الأجزاء أربعة عند الايجي وستة عند العلاف ثلاثة على ثلاثة، وثمانية أو عشرة أجزاء عند ضرار وحفص الفرد والحسين النجار ، عند الجبائي ومعمر اثنان للطول واثنان للعرض واثنان للعمق ، وستة وثلاثين جزءاً ، ستة أركان ولكل منها ستة أجزاء ، والأركان وحدها هي التي بها تماس وتباين . مقالات جـ٢ ، ص ٥ ـ ٦ ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ الفصل جـ٥ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ؛ الشامل ص ٤٠١ ـ ٤٠٨ ، حاشية الاسفرايني ص ٤٤ ـ ٤٥ . والنظام هو الذي قال بأجزاء غير متناهية . المواقف ص ١٨٣ ـ ١٩٣ .

(٢٨٧) المحصل ص ٨٣ ؛ شرح المقاصد ص ١٥ ؛ شرح التفتازاني ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٠٩ .

بالقوة وغير متناهية[٢٨٨] . ولذلك كانت الأجزاء المفردة في العالم نوعين . الأول مفرد في ذاته ينتفي الانقسام عنه ، والثاني مفرد في الجنس دون الذات . وهو بدوره نوعان . الأول جوهر واحد وهو الجزء الذي لا يتجزأ ، وكل جسم من أجسام العالم ينتهي إلى جزء لا يتجزأ . والثاني كل عرض في نفسه فإن كل شيء واحد مفتقر إلى محل واحد[٢٨٩] .

١ ـ الجوهر الفرد : والجوهر الفرد لا شكل له[٢٩٠] . ولا يشبه شكلاً من الأشكال،لا طول له ولا عرض ولا عمق ، لا يماس ولا يجاور ولا يلاصق ، ومع ذلك قابل لجميع الأعراض إلا التركيب لأنه جزء لا يتجزأ . وقد يبدو ذلك متناقضاً لأن الأعراض لا يمكن حملها إلا على جسم . الحركة والسكون أعراض لا تحل إلا في محل . ولماذا تجوز عليه الحركة والسكون واللون والمماسة والطعم والرائحة ولا تجوز عليه باقي الأعراض مثل الطول والتأليف أو العلم والقدرة والحياة؟ لماذا تجوز عليه الأعراض الأولى إذا كان منفرداً ولا تجوز عليه الأعراض الثانية إذا كان منفرداً؟ والانسان جزء لا يتجزأ ويجوز عليه الطول والعلم والقدرة والحياة[٢٩١] . وقد قيل إن له خطاً من المساحة ، أو هو نقطة على خط . والأشكال الهندسية تعبر عن درجة أعظم من التعظيم والاجلال ، الدائرة أو المربع أو المثلث . فالأشكال الهندسية تعبر عن معانٍ انسانية وما هي إلا رموز لاشياء أخرى هي حقائق مستقلة . الخط هو اللامتناهي ، والمثلث هي الدولة التي ترتبط بمركز أعلى واحد أو العالم الذي في قمته « الله » ، والمربع هو التناهي المحدد الواضح . أما الدائرة فإشكالها أنها تعبر عن التناهي لأنها محددة في المساحة وعن اللاتناهي لأنها تدور إلى ما لا نهاية ولأن محيطها متصل إلى ما لا نهاية ومن ثم كانت أفضل

---

(٢٨٨) الاحتمال الأول عند المتكلمين والثاني عند النظام والثالث عند الشهرستاني والرابع عند الحكماء .

(٢٨٩) أصول الدين ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢٩٠) هذا هو رأي القاضي .

(٢٩١) كان الجبائي يثبت الجزء الذي لا يتجزأ ويقول إنه يلقى بنفسه ست أمثاله . يجيز عليه الحركة والسكون واللون والمماسة والطعم والرائحة إذا كان منفرداً ، وينكر أن يحله طول أو تأليف وهو منفرد أو يحله علم أو قدرة أو حياة وهو منفرد . مقالات جـ ٢ ، ص ١٤ .

شكل هندسي للتعبير عن قدم العالم[٢٩٢] . وهو حادث لأن المادة حادثة لا قديمة ، ومتناه لأن التناهي من طبيعة الحادث . وأجمعوا أنه إذا انضم جزء لا يتجزأ إلى آخر حدث طول وإلا كيف تكونت الأجسام؟ وهنا تتراوح التصورات له بين التصورات الميتافيزيقية الخالصة، والتصورات الرياضية والتصورات المادية . والسؤال الآن : هل له وجود حقيقة سواء كان وجوداً ميتافيزيقيا رياضياً في الأذهان أم وجوداً حسياً في الأعيان أم أنه من صنع الوهم ليخدم غاية دينية معينة؟ هل هو تحليل علمي للأجسام الطبيعية أم أنه محاولة لارساء مقدمات لاثبات وجود « الله » كما سيبدو ذلك في اثبات الصانع في موضع الذات؟ .

لذلك اختلف فيه المتكلمون والفلاسفة بين الاثبات والنفي ، يثبته المتكلمون وينفيه الحكماء وكأنهما هذه المرة يتبادلان الأدوار ، فيثبت المتكلمون شيئاً من صنع الوهم لا وجود له إلا في الأذهان وهم الذين لا يثبتون شيئاً إلا في الحس بينما ينفيه الحكماء وهم الذين يثبتون المعاني في الذهن متجاوزين للحس . ويتبع المتكلمون في ذلك حججاً رياضية وفلسفية وطبيعية . منها ما يعتمد على الاثبات ومنها ما يقوم على برهان الخلف أي اثبات استحالة النقيض وهو الهيولى والصورة عند الحكماء . مثلاً الجوهر الفرد كالنقطة في الرياضة التي منها تتكون جميع الأشكال الهندسية الخط والزاوية والمثلث والمربع والمستطيل والدائرة . . الخ . والحقيقة أن هذه كلها موجودات ذهنية لا وجود لها في الخارج ولا تنقسم إلا بالوهم ولا تجتمع أو تفترق إلا بالخيال . وإن أصغر الزوايا مجرد افتراض عقلي لا وجود له مثل النقطة والخط والموضوعات الرياضية كلها فمعظم الأدلة الرياضية مستقاة من الفكر التمثيلي. الرياضة خاصة الهندسة في النقط والخطوط والمساحات تقوم على التماس والتماس اثبات للجواهر الفردة . وهذا أيضاً اغفال للشيء وحديث عن بديله . أما اثبات الجوهر الفرد عن طريق اثبات قسمة الحركة والزمان ، استحالة وجود أجزاء لا متناهية وإلا استحالت الحركة كما يفعل الأشاعرة، فهو اثبات خاطىء وذلك لأن الزمان

---

(٢٩٢) الجوهر الفرد لا شكل له . ولكن اختلف الأصوليون في تشبيهه ببعض الأشكال مثل المدور أو المربع (القاضي) أو المثلث . وأبطل القاضي هذه الأقاويل . الشامل ص ١٥٨ - ١٥٩

والحركة لا ينقسمـان إلا من حيث هما مكـان . ليس بالحـركة مـاض أو حاضـر أو مستقبل فهذا إبدال للمكان بالزمان . الزمان احساس بالزمان وشعور به ، والحركة تغير في الزمـان . وكلاهمـا وحدة واحـدة لا تركيب فيهـا . التركيب افتـراض عقلي خالص يقوم عـلى التجزئـة والتفتيت من أجل الهـدم والقضاء عـلى العالم من أجـل اثبات، ولو كغاية بعيدة، ارادة مشخصة وقدرة خارجة عن العالم وعليه(٢٩٣). وسواء كان الجوهر الفرد لا ينقسم أصلاً أو فعلاً فهو لا ينقسم لأنه لا وجـود له بـالفعل. والأجسـام البسيطة لا تنقسم ولا تتجـزأ لأنها بسيطة . والصـورة جوهـر لا جسمي فكيف تنقسم الصورة ؟ والعقل جوهر ، والنفس جوهر فكيف تنقسم الجواهر؟ كما يثبت المتكلمون الجوهر الفرد ببرهان المماسة ، مماسة الكرة على البسيط في الجـوهر الفرد ، ويثبتونه أيضاً بالقرين ، وهي نقطة الخَط التي يتكون منهـا الخط ولا ينقسم وإن ممـاسة الكـرة لسطح لا تثبت الجـزء إلا افتراضـاً لأنا لا نـرى إلا الكـرة فـوق السطح . ومماسة خط لخط فوقـه يدل عـلى تماس الأجـزاء افتراضـاً أيضاً . ويـرد المتكلمون على الاعتراض على الجـوهر الفرد واثباتـه بالنقـطة بالنسبـة للخط على أن ذلك عرض والأعـراض لا تنقسم بأن الأعـراض أيضاً تنقسم(٢٩٤) . والحقيقـة أنه يمكن أيضاً نفي الجوهر ببرهان المماسة وذلك لأن كل جوهـر فرد لا بـد وأن تكون له جهات ست، يمين ويسار ، وأمام وخلف، وأعلى وأسفل ، يحاذي بهـا الجواهـر الفردة الأخرى . ومن ثم فكل جوهر فرد يتجزأ . ويرد المتكلمون على الشبهـة بأن الجوهر الفرد لا يتجزأ بأن كل الاعتراضات والالزامات تقوم على افتـراض الجوهـر الفرد وليس على نفيه ومن ثم كان اثباته أقرب . وهذه الطريقة تلزم المتكلمين جميعاً في اثبات استحالة الرأي المعارض حتى يثبت الرأي المـطلوب . كما يـرد المتكلمون على الجهات الست بأن كل مـا له جهـة فمنقسم وهو ليس الجـوهر الفـرد ، كما أن إثبات الجهة لا يعني الانقسام إلى ما لا نهاية لأن الجهات أعـراض وليست جواهـر أو هي نسب وليست ذواتٍ . ويعتمد المتكلمـون في كل الأحـوال لاثبات مـذهبهم

---

(٢٩٣) معالم أصول الدين ص ١٩ ـ ٢٠ ؛ طوالع الأنوار ص ١١٣ .

(٢٩٤) نهاية الاقدام ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ .

على مقدمتين . الأولى أن كل منقسم له أجزاء بالفعل والثانية أنها متناهية[٢٩٥] . والحقيقة أنهما مقدمتان جدليتان فارغتان لا يثبتان شيئاً بالفعل ، لا تعتمدان إلا على العقل الصوري القادر أيضاً على تفنيدهما صورياً بنموذج صوري آخر . إن استحالة الإنقسام إلى ما لا نهاية لاثبات وجود الجزء تفكير قائم على عقلية مركبة على افتراض أن النهائي من صنو الطبيعة وأن اللانهائي من خارجه . ويستعمل المتكلمون في ذلك حججاً خطابية صرفة مثل لو وجدت القسمة إلى ما لا نهاية لغمرت وجه الأرض ! وكأن قسمة حبة القمح إلى أقسام لا متناهية تغمر حقول مصر وغيطانها واذاً لأمكن بذلك إشباع الجياع[٢٩٦] ! وبعض الحجج الصورية الأخرى تكون مليئة بالمتناقضات مثل : كيف يتركب الجسم من جزء لا يتجزأ ولا يتجزأ أو لو جاز جزء على ملتقى اثنين لم يكن لا يتجزأ ! . . .

إن حجج إثبات المتكلمين للجوهر الفرد كلها افتراضات عقلية تعبر عن بناء عقلي مركب على النهائي واللانهائي أو على مجرد تحصيل حاصل لا يأتي بجديد مثل « كل منقسم له أجزاء بالفعل وأنها متناهية » فكل منقسم له بطبيعة الحال أجزاء ، وكل جزء متناه . ولا غرابة في ذلك إذ يؤيده الحس والمشاهدة ولا يحتاج إلى أدلة تثبت هذه الحقيقة البينة . وكأن الفكر لا يسير إلى الامام بل يسير إلى الوراء . والذي لا يتقدم خطوة يتراجع خطوات ، وينتهي به الأمر إلى النكوص المستمر ، والتعايش على ذاته والواقع منه بريء وهو غريب عليه . ومعظم الأدلة الفرعية لاثبات هذه الحقيقة البديهية تقوم على استحالة الرأي المضاد . فالحجة القائلة بأنه لو كان المنقسم واحداً للزم انقسام الوحدة لا تثبت شيئاً لأن البداهة لا يمكن اثباتها

---

(٢٩٥) وتثبت المقدمة الأولى بمقدمات ثلاث : أ ـ القابل للقسمة لو كان واحداً لزم انقسام الوحدة وهو باطل ب ـ القابل للقسمة لو كان واحداً لكان التفريق اعداماً له . جـ ـ مقاطع الأجزاء متمايزة بالفعل . وتثبت المقدمة الثانية بثلاث مقدمات أخرى هي : أ ـ لو كانت مركبة من أجزاء غير متناهية لامتنع قطع المسافة في زمن متناه . ب ـ المحصور بين طرفين وانحصار ما لا يتناهى محال . جـ ـ التأليف يفيد زيادة الجسم .

(٢٩٦) صياغة القدماء كالآتي : لولا انتهاء الأجسام إلى أجزاء لا تتجزأ لكان الانقسام في السماء والخردلة ذاهباً إلى غير نهاية ولأمكن انقسام الخردلة الى صفائح غير متناهية فتغمر وجه الأرض .

إلا بالدوران حولها واثبات ما يخالفها . والحجة بأن لو كان واحداً لكان التفريق اعداماً له أيضاً تقوم على رفض الرأي المضاد. والحجة بأن الجسم مقاطع لأجزاء متمايزة بالفعل تحصيل حاصل لأنها تعرف الكل بأجزائه ولم تأت بجديد كمن يقول : الانسان له رأس وبطن وذراعان وساقان . أما اثبات أن الجواهر الفردية متناهية في الجسم فإنها لا تحتاج إلى دليل . فالجسم له طول وعرض وعمق ، ويشغل مساحة ويتحيز في المكان . ومن ثم فهو محدود متناهٍ . ولكن العقلية المركبة على بناء المتناهي واللامتناهي تتوهم أن الحكم على الجواهر الفردية الداخلة في تكوين الجسم بأنها متناهية لتعطي الفرصة لاثبات موجود لا متناهٍ وهو ايهام تقع فيه النفس . واثبات هذه الحقيقة البديهية وهي أن الأجسام متناهية لا تحتاج إلى دليل خاصة ولو كانت الأدلة كلها خاطئة تقوم على الخلط بين الزمان والمكان وتكرر حججاً دخلت من حضارات أخرى بعد تمثلها وأصبحت جزءاً من الثقافة الاسلامية العامة . وهي حجج تهدف إلى هدم الإلٓهيات وانكار الحركة وتحويل الزمان إلى مكان . فمثلاً الحجة بأنه لو كانت الأجزاء غير متناهية لامتنع قطع المسافة في زمن متناه خلط صريح بين الزمان والمكان ونظرة خارجية تقسيمية تجاورية للزمان على أنه مُدَدٌ متتالية والمكان على أنه مسافات متتابعة(٢٩٧) . اما اثبات تناهي الأجزاء بأنها محصورة فتحصيل حاصل وكأن الانسان يريد أن يثبت تناهي الساق لأنه محصور بين القدم والركبة! أما التناهي عن طريق التأليف وزيادة الأجزاء فيزيد الحجم أو تنقص الأجزاء فينقص الحجم فتحصيل حاصل كمن يقول إن الواحد إذا أضيف إليه واحد أصبح اثنين وأن الاثنين إذا طرحنا منها واحداً يبقى واحد!.

وإذا كانت حجج المتكلمين ضد قسمة الجسم إلى ما لا نهاية عند الحكماء سليمة وقوية إلا أن ذلك لا يعني صحة رأي المتكلمين في وجود الجوهر الفرد .

(٢٩٧) وذلك يشابه نقد برجسون لحجج زينون الايلي في التراث الغربي المعاصر ، الذي حاول انكار الحركة واثبات سبق السلحفاة لايسخيلوس بالاضافة إلى أنه نقد بديهي يمكن لكل انسان بجهده الخاص أن يكتشفه .

صحيح أن ما له أطراف وأضلاع يستحيل أن ينقسم إلى ما لا نهاية ، وأن الانفصال إلى ما لا نهاية يقتضي الاتصال إلى ما لا نهاية ، ولما كان الجسم متصلاً إلى نهاية كان انفصاله متصلاً إلى نهاية، وان كان انقسام الجسم قسمين غير متساويين كان انقسام القسم الأصغر إلى ما لا نهاية أكبر من انقسام القسم الأكبر . ويعرف الحكماء بأن كل هذه الانقسامات بالقوة وليست بالفعل أي أنها افتراضات وهمية وليست وقائع محسوسة[298] . وتعتمد حجة الحكماء على أن الجسم واحد متصل قابل للقسمة إلى ما لا نهاية لا لأنه مركب من أجزاء لا تتجزأ . والجسم متصل بشهادة الحس وقابل للقسمة إلى ما لا نهاية موقف الحكماء أقرب إلى بداهة الحس وأوليات العقل وهي أن الأجسام متداخلة في نفسها وأن قسمة الجسم إلى قسمين يفقده الجسميةويحيله إلى جزء من الجسم ، ويتحول من المعنى الفلسفي إلى المعنى الطبيعي[299] . الأجسام متصلة كما يرى الحكماء ولكنهم يجعلونها قابلة للقسمة ولانقسامات غير متناهية وهذا أيضاً افتراض لا يزيد ولا ينقص شيئاً من واقع الأشياء ومن حيث مدلولها الفلسفي وإن كان لها مدلول علمي في البحث عن قوانين الطبيعة ، ويدل على عقلية مركبة على بناء اللاتناهي والتناهي . لقد أصاب الحكماء في انكارهم الجوهر الفرد وفي تصورهم أن الجسم جوهر واحد متصل ولكنهم عادوا فهدموا ما بنوه بجعلهم الجسم منقسماً إلى ما لا نهاية فوقعوا في نفس الافتراض الذي لا لزوم له والذي لا يقدم في كثير أو في قليل . ومع ذلك فحجج الحكماء أكثر اقناعاً ، حجج المحاذاة التي تثبت جهة الجسم يميناً ويساراً أو أعلى

---

(٢٩٨) نهاية الاقدام ص ٥٠٥ - ٥٠٧ .

(٢٩٩) اختلف المتكلمون في المداخلة . فقد اثبتها هشام من الروافض والنظام من المعتزلة . وينكرها الروافض ويثبتون بدلاً عنها المجاورة ، والملامسة . كما أنكر ضرار المداخلة وقال بالمجاورة . مقالات جـ ١ ، ص ١٢٥ ، الفرق ص ٦٨ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ٢٣ ؛ الشامل ص ٤٦٨ - ٤٧١ ؛ كما اختلفت الروافض في الجزء الذي لا يتجزأ إلى فرقتين . الأولى (هشام) تقول بأن الجزء لا يتجزأ أبداً ، ولا جزء إلا وله جزء وليس لذلك آخر إلا من جهة المساحة وأن لمساحة الجسم آخر وليس لأجزائه آخر من باب التجزؤ . والثانية تقول بأنه لأجزاء الجسم غاية من باب التجزؤ ، وله أجزاء معدودة لها كل وجميع . ولو رفع الباري كل اجتماع في الجسم لبقيت أجزاؤه لا اجتماع فيها ولا يحتمل لكل جزء منها التجزؤ . مقالات جـ ١ ، ص ١٢٤ .

وأسفل لا تدمر جسمية الأشياء ولا تحيلها هباء منثوراً أو نقاطاً هندسية(٣٠٠) . ومن ثم كان موقف الحكماء أكثر اتساقاً مع العقل والواقع من موقف المتكلمين . لذلك انتشرت علوم الحكمة فوق علوم التوحيد وضمته وطوته وأعادت صياغته لأنها كانت تمثل نسقاً عقلياً أكثر تقدماً من نسق الكلام . يعطي الحكماء تصوراً أكثر عقلانية ولو أنه ليس أقل « إلهية » بالضرورة وهو أن الجسم مكون من مادة وصورة ، المادة للانفصال والصورة للاتصال . ولما كانت الصورة لا تنفصل عن الهيولى استحال انقسام الهيولى والا انقسمت الصورة . والدليل على اثبات الهيولى والصورة هو اثبات الهيولى لكل جسم ، وعدم خلو الهيولى عن الصورة أو الصورة عن الهيولى وأن الهيولى ليست علة الصورة فالأدنى لا يكون علة للأعلى ، وأن لكل جسم صورة نوعية وأن لكل جسم حيزاً طبيعياً . والجسم الواحد لا يكون له حيزان طبيعيان .

والحقيقة أن اثبات الجوهر عند المتكلمين ونفيه عند الحكماء إنما ينتهي إلى حقيقة واحدة وهي اثبات الجوهر المفارق بصرف النظر عن الوسيلة والحجة ، إذ يريد المتكلمون اثبات تناهي الأشياء من أجل اثبات اللاتناهي ويريد الحكماء اثبات لا تناهي الأشياء أيضاً من أجل اثبات اللاتناهي . والخلاف بينهما فقط في درجة التنظير والاحكام الجدلي . فإذا كان اثبات الجوهر بأن كل متناه محصور وبالتالي لا يمكن أن يشتمل الجوهر على ما ليس بمتناه ليس اثباتاً للجوهر الفرد بل نفى لقسمة الشيء إلى ما لا نهاية على ما يقول الحكماء فكذلك اثبات الجوهر الفرد من صنو اثبات الهيولى والصورة التي لا تنفصل إحداهما عن الاخرى ومن ثم لا يتجزآن ، فالحكماء يثبتون التجزؤ عندما ينكرون على المتكلمين الجوهر الفرد(٣٠١) . ويهاجم المتكلمون

---

(٣٠٠) طوالع الأنوار ص ١١٦ ـ ١١٧ ؛ المواقف ص ١٨٣ ـ ١٩٣ ؛ وقد ذهب بعض المتفلسفة إلى أن الجزء يتجزأ والتجزئة غاية في الفعل . فأما في القوة والامكان فليس لتجزئته غاية ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٦ ؛ وصار معظم الفلاسفة إلى أن الأجرام لا تتناهى في تجزئتها وهو رأي النظام المنتسب إلى الفلسفة؛الشامل ص ١٤٣ ، وقال الحكماء : لما تقرر أن الجسم لا يتفصل إلى أجزاء لا تتجزأ فقط فقد ثبت أنه متصل واحد في الحقيقة كما هو عند الحي وقابل للقسمة إلى غير النهاية المواقف ص ١٩٣ ـ ١٩٥ .

(٣٠١) نهاية الاقدام، ص ٥٠٩ ـ ٥١٢ .

البديل الذي يقدمه الحكماء في تصورهم للجسم على أنه هيولى وصورة ويعتمدون على هذا التصور لرفض حججهم في انكار الجوهر الفرد واثبات القسمة إلى ما لا نهاية. إن تصور الحكماء للهيولى والصورة اثبات للتناهي ورفض للاتناهي لأن اتصال الصورة بالهيولى متناه وليس لا متناهياً وإلا كان الجسم لا متناهياً ، وهذا التناهي هو الجوهر الفرد .

ويتفق كثير من المتكلمين وعلى رأسهم المجسمة على نفي الجزء الذي لا يتجزأ مع الحكماء مع أن المجسمة هم أصحاب الطبيعية ومحللوها . كما كان القول بالطفرة رد فعل على تجزئة الأجسام وتصور بديل عن الجزء الذي لا يتجزأ ما دامت الطبيعة ليس لها حد ولا نهاية(٣٠٢) . ولكن رد الفعل الحاسم جاء من جانب الفقهاء الذين تمثلوا النظرة الحسية ودافعوا عن تصور المتكلمين الحسي الدائم والذين تخلوا عنه هذه المرة لحساب الجزء الذي لا يتجزأ الذي هو من صنع الوهم(٣٠٣) . كما رفضوا الصورة باعتبارها جوهراً وجعلها كيفية أو عرضاً . فالفقهاء الذين يُعرف عنهم بأنهم المدافعون عن « الله » هم الذين يدافعون عن الحركة والتغير والمادة دون الثبات والصورة . ويرد الفقهاء على الحجج الخمس التي يوردها المتكلمون لاثبات الجوهر الفرد ، واحدة وراء الأخرى.فالأولى تعتمد على الحركة التي لا بد من قطعها ومن ثم فهي متناهية . وهذا في حقيقة الأمر خلط بين المكان والحركة. يرفض الفقهاء الجوهر لأنه ليس هناك جزء لا يتجزأ لا تستطيع مقدرة « الله » أن تقسمه إلى قسمين إلى ما لا نهاية . إنكار الجوهر الفرد هنا قائم على اثبات قدرة « الله » المطلقة . وهكذا أدت الغايات « الإلهية » إلى تضارب في

---

(٣٠٢) كان هشام يقول بنفي نهاية الجسم وعنه أخذ النظام ابطال الجزء الذي لا يتجزأ ، الفرق ص ٦٨ ، ص ٣١ ثم بنى عليه القول بالطفرة التي لم يسبق إليها وهم أحد من قبله . وقد وضع جعفر بن حرب كتاباً في تكفير النظام لابطاله الجزء الذي لا يتجزأ ، الفرق ص ١٣٣ ؛ وقام أبو الهذيل بتكفيره في الأعراض والانسان والجزء الذي لا يتجزأ ، الفرق ص ١٣٢؛ ومن « فضائحه » قوله بانقسام كل جزء لا إلى نهاية وفي ضمن هذا القول احالة كون الله محيطاً بآخر العالم عالماً به ، الفرق ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ الملل جـ ١ ، ص ٨٣ .

(٣٠٣) الفصل جـ ٥ ، ص ١٤٥ .

تصورات الطبيعة لأنه لا يبدأ أحد من الطبيعة كما هي بل يأخذها الجميع سلماً لاثبات الإلهيات كل حسب تصوره لها . فعند البعض أن إثبات جوهر فرد فيه اثبات لله حتى يمكن فهم الشرعية العقلية لهذا الجوهر الذي لا ينقسم . وانكار الجوهر الفرد لاثبات قدرة الله المطلقة القادرة على قسمة ما لا ينقسم . وكيف تجتمع أبعاد الجسم ، الطول والعرض والعمق ، من جواهر فردة لا أبعاد لها؟ مم تنشأ الأجسام إذن؟ وكيف يجتمع الخط من نقاط لا طول لها ولا عرض ولا عمق؟ كيف تكون مساحة من نقاط لا وجود لها؟ لا بد إذن من اثبات قسم له طول وعرض ومساحة تتكون منه الأجسام .

والثانية تعتمد على حجة المماسة التي تعتمد بدورها على التجاور في المكان والملاصقة في الجوهر الفرد . ولكن كيف تتم ملاصقة ما لا وجود له وما لا طول ولا عرض ولا عمق ولا جهة من أمام أو خلف أو أعلى أو أسفل أو يميناً أو يساراً؟ فكل حيز متناه في أبعاده ، والتجاور هو ملاقاة الأبعاد بعضها البعض أو ملاقاة الجهات .

والثالثة قدرة الله على تفريق الأجزاء المجتمعة إلى أجزاء لا تتجزأ وإلا ثبت عجزها. وبالتالي فإن إثبات الجزء الذي لا يتجزأ هو مجرد وسيلة لاثبات قدرة الله المطلقة . ولكن العالم لم يوجد من أجزاء جمعها «الله بل العالم موجود فحسب .ولماذا يجمع « الله » أجزاء متفرقة ولا يفرق أجساماً مجتمعة وكلاهما اثبات للقدرة ؟ إن « الله » قادر على اثبات جزء لا يتجزأ ولكنه لم يخلقه بالفعل في بنية هذا العالم . بل إن اثبات الجزء الذي لا يتجزأ قد يكون تعجيزاً « لله » لأن الله قادر على قسمته . ومن ثم فاثبات القدرة يأتي عن طريق قسمة الجزء الذي لا يتجزأ إلى ما لا نهاية على قول الحكماء لو كانت الغاية اثبات القدرة الإلهية ونفي العجز . ولكن الانسان نفسه غير قادر على قسمة الشيء إلى أجزاء لا تتجزأ . لذلك قرر البعض أن لقدرة الله كمالاً وآخر لا تستطيع بعده أن تخرج إلى الفعل أي أن إثبات الجزء الذي لا يتجزأ أدى إلى تعجيز الله وإلى غير ما كان يهدف إليه منه(٣٠٤) . واثبات الجوهر

(٣٠٤) هذا هو رأي أبي الهذيل .

الفرد أن الافتراق نتيجة الاجتماع هو دليل يقوم على مسلمة وهي أن الأشياء قبل أن تجتمع كانت متفرقة وهو ما يحتاج إلى دليل أيضاً كمن يريد اثبات الافتراق بأن الأشياء كانت مجتمعة من قبل وهو ما يحتاج إلى دليل .

والرابعة الكبر والصغر وأن أقسام الصغير أقل من أقسام الكبير . وهذا خلط بين المتناهي في الكبر والمتناهي في الصغر ، وخلط بين الكم والكيف . فالجزء الذي لا يتجزأ واحد في الكبير والصغير بالاضافة إلى أن مجموع هذه الوحدات الصغيرة الكيفية التي لا طول ولا عرض ولا عمق لها نظراً لا تنتج جسماً له طول وعرض وعمق بالفعل . والغاية من اثبات التناهي في العالم هو الرد على الدهرية التي أخطأت فتصورت اللامتناهي موجوداً في العالم بالفعل باثبات أن الأجزاء لا متناهية لأن الله قادر على ذلك . وهنا يختلف الفقهاء عن الحكماء في السبب مع اتفاقهم في الرأي .

والخامسة أن الأشياء لها كل ومن ثم فهي متناهية وأن الله يعلم عددها . ويدل ذلك على أن موضوع الجزء الذي لا يتجزأ مجرد تمرين عقلي من أجل صفتي القدرة والعلم ولا وجود له بالفعل كموضوع مادي . وأن أقصى وجود له هو أنه موجود ذهني من اختراع الوهم ليساعد في عمليات الحساب والرياضة واقامة انساق صورية خالصة يجوز استخدام البعض منها للسيطرة على قوانين الطبيعة[٣٠٥] .

يتفق الفقهاء إذن مع الحكماء وفريق من المتكلمين الحسيين في نفي الجزء الذي لا يتجزأ واثبات أن كل جزء يتجزأ إلى ما لا نهاية مع اختلاف الدواعي والأسباب . ولا يكتفي الفقهاء ببيان تهافت أدلة المتكلمين ونقدها بل يوردون حججاً لنفي الجزء الذي لا يتجزأ واثبات أن كل جزء يتجزأ أبدا تجمع بين البداهة والاستدلال وتنتقل بين المستويات الرياضية والطبيعية والإلهية . مثلاً ، الجزء الذي لا يتجزأ اما موجود خارج العالم ومن ثم فالعالم يتكون من أجزاء لا تتجزأ أو لا يكون موجوداً . وإما أن يكون موجوداً في العالم كعرض يقوم بغيره أو كجوهر يقوم

---

(٣٠٥) الفصل جـ ٥ ، ص ١٦٨ - ١٧٤ ؛ الشامل ص ١٤٧ .

بنفسه . وان وجد في العـالم فلا بـد من أن يلاقى وأن يمـاس ولا بد لـه من جهات
وهي صفات لا تتوافر في الجزء الذي لا يتجزأ . وإذا كان الجزء الذي لا يتجزأ لا
طول له ولا عرض ولا عمق فكيف ينتج الكم من الكيف والجسم من الـلاجسم ؟
وإذا كان اجتماع جزأين لا يتجزآن أطول بالضرورة من وجودهما متفرقـين كان لهـما
طول . وان صغر الأجسام وكبرها يوحي بأن الجزء الذي لا يتجزأ له طول وعرض
وعمق . وإذا كان الجسم يتكون من أجزاء لا تتجزأ وكان للجسم لون كـان للجزء
الذي لا يتجزأ لون ، وكان كل ذي لون يتجزأ . وبالتـالي لا ينفع دفـاع الأشاعـرة
بأن الجزء الـذي لا يتجزأ ذو لـون واحد . إن كـل جسم يتجزأ ضـرورة أما الجـزء
الذي لا يتجزأ إذا كان جسماً فإنه إن لم يتجزأ يكون باطلاً معدوماً . والجزء من عـلى
المحيط يمر بأجـزاء أكثر من الجـزء الذي في المـركز ومن ثم فـالجزء الـذي لا يتجزأ
يتجزأ . وإذا وضع الجـزء الذي لا يتجـزأ على سـطح أملس إن كان لا يـزيد عـلى
السـطح فهو معـدوم وإن زاد عليه فله حجم ومن ثم ينقسم . وهـل ثقـل جـزء لا
يتجزأ من الحديـد له مثـل الوزن الـذي لجزء لا يتجـزأ من القطن؟. ويمكن اقـامة
خطوط ساقطة إلى ما لا نهاية بين متوازيين مما يدل على نفي الجزء الذي لا يتجزأ .
وفي المثلث المتساوي الأضلاع يكون الوتر أكبر من الضلعين ولا يفسر هذا الكبر إلا
وجود أجزاء لها طول . ويمكن قسم الـدائرة إلى قسمـين متساويـين حتى ولو كـانت
مكونة من أحد عشـر جزءاً ومن ثم فالجزء يتجزأ . وإذا كان قصد الأشاعرة اثبات
الإلّهيات فإنهم قد انتهوا إلى مناقضتها والوقوع في الشرك لأنهم وصفوا الجـزء الذي
لا يتجزأ بأوصاف « الله » إذ أنه لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا شكل ولا لـون
ولا حد له، لا يُرى ولا يُحس ولا يُلمس وليس بذي مادة. وينتهي الفقهاء إلى أن
الأجسـام جواهـر وأعراض لا أجـزاء لم تتجزأ ولا صـورة ولا هيولى . ويـرفضـون
تصور المتكلمين والحكماء على السواء[٣٠٦] . فالفقهاء هم الذين دافعوا عن الجواهر

(٣٠٦) « فإذا بطل قولهم في الجزء الذي لا يتجزأ وفي كل ما أوجبوه أنه جـوهر لا جسم ولا عـرض فقد صح أن العالم كله حامل قـائم بنفسه ومحمـول لا يقوم بنفسـه ولا يمكن وجود أحـدهما متخلياً .
فالمحمول هو العرض والحامل هو الجوهر وهو الجسم مـا شئت ولا يمكن في الوجـود غيرهمـا وغير الخالق لهما » الفصـل جـ ٥ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ ، ص ١٦٧ ـ ١٨٢ ؛ الشامـل ص ١٤٦ ؛ وقد=

والأعراض دعامة نظرية الوجود في المقدمات النظرية التي حاول المتكلمون ارساء قواعدها .

الجوهر الفرد إذن افتراض ذهني خالص يقوم على الخلط بين المنفصل والمتصل ، بين الذهن والمادة بل انه ينشأ من عمل الوهم أو الخيال الرياضي . ولا فرق في ذلك بين تصورات المتكلمين أو الحكماء للجوهر الفرد فإنه ليس من عمل العقل . والوهم لا يمكن أن يؤيد بالدليل لأنه وهم، والوهم افتراض لاسند له من العقل أو من الواقع ولكنه مجرد صورة خيالية أقرب إلى التشبيه منه إلى الاستدلال . وأدخل في الفن منه إلى العلم[٣٠٧] . فالجزء الذي لا يتجزأ ليس اقتراحاً علمياً يمكن التحقق من صدقه ، وليس واقعاً حسياً يمكن التحقق من وجوده . لذلك اختلف في تصوره المتكلمون ، كل يتصوره حسب خياله وما يقتضيه وهمه ، وكلها تصورات لا يمكن التحقق من صدقها لا في العقل ولا في الواقع[٣٠٨] . ومع ذلك فهو يكشف عن رغبة في التمسك بالطرفين معاً بمقتضيات العقل ومتطلبات الحس .

= أفاض الشهرستاني في اثبات الجزء الذي لا يتجزأ كما فصل ابن حزم عرض الحجج وتفنيدها وايراد حجج أخرى لابطاله . أما الايجي في « المواقف » فإنه فضل عدم الدخول في المعركة ربما توقفاً عن الحكم .

(٣٠٧) يُلاحظ أن الشهرستاني قد أفاض في الجزء الذي لا يتجزأ في « نهاية الاقدام » فأفرد له فصلاً خاصاً ، ويركز على أنه من عمل الوهم « ثم انا نسمي ما انتهى جزءاً فرداً اصطلاحاً وذلك معقول الدليل وليس بمحسوس ولأن ما يقدره الوهم ودل عليه البرهان هو ذلك الجزء الذي انتهى به . . فإن الذي اثبتناه معقول بالدليل غير محسوس ولا موهوم» ، نهاية الاقدام ص ٥٠٩ ـ ٥١٢ ؛ «ولا يمكن فهم الحجج نفياً أو اثباتاً إلا بالانتقال المستمر بين العقل والوهم ، بقي ها هنا في هذه الصورة وهو الانفصال في جانب الوهم أنه لا يقف حتى يقدر عالماً متصلاً بعالم آخر إلى ما لا يتناهى فذلك عمل الوهم المخالف لبرهان العقل ، فلا نقبل ذلك بل نقول إن الوهم إنما يصدق بشرط أن لا يؤدي إلى جسم غير متناه ، وذلك خلاف العقل ، ونقول ها هنا إن الوهم إنما يصدق بشرط الا يؤدي إلى أجزاء غير متناهية وذلك خلاف العقل . . وقد بينا في الوهم أن الوهم لا يقف إلى حد لا يتوهم زيادة على الجسم» نهاية الاقدام ص ٥١٢ ـ ٥١٤ .

(٣٠٨) عند احدى فرق الاباضية الجزء الذي لا يتجزأ جسم على مذهب الحسين مقالات جـ ١ ، ص ١٧٥ ؛ وأحال صالح قبة أن يلقى الجزء ستة أمثاله أو مثلين إذ يستحيل أن يلقى الجزء الواحد جزأين وجوز عليه أن يحله جميع الأعراض إلا التركيب وحده . مقالات جـ ٢ ، ص ١٥ ؛ وعند معمر الانسان جزء لا يتجزأ وأجاز عليه أن يحل فيه العلم والقدرة والحياة والارادة والكراهة . ولم =

فـالجزء الـذي لا يتجزأ لا طـول له ولا عـرض ولا عمق ، لا يماس ولا يجـاور ولا يلاصق ومع ذلك قابل لجميع الأعراض والتركيب لأنه جزء لا يتجـزأ . ولما كـانت الأعراض لا يمكن حملها إلا على جسم ، وأن الحركة والسكون أعـراض لا تحل إلا في محـل كان لا بـد أن يكون جسـماً . فالجـزء لا يتجزأ افتـراض من وضع الـوهم كجسم، والأعراض واقع حي مدرك بالعقل . فهو إذن جمع بين الوهم والعقل، بين الافتراض والواقع . واعتبار الانسان جزءاً لا يتجزأ أيضا جمع بين العقل والوهم ، بين الحس والخيال ، بين الافتراض والواقع . فالانسان وحدة واحدة لا تتجزأ إلى أعضاء أو إلى بدن وفكر أو إلى حس وعقل أو إلى فعل وانفعال . فمجموع هذه المظاهـر كلها هـو الانسان . بـل إن الانسـان هـو المثـل الأول للجـزء الـذي لا يتجـزأ . ولكن الانسان من ناحية أخرى له طول وعـرض ، ويتحيز في مكـان . وكل هـذه ليست من صفـات الجزء الـذي لا يتجزأ .والانسـان ليس جزءاً بـل هو كـل . صحيح أن العلم والقدرة والحياة والارادة من مظاهر الانسان ولكن لماذا انكار الحركة والسكون والممـاسة والمباينـة واللون والطعم والـرائحة وهي كلهـا مـظاهـر للبـدن ؟ البـدن يتحرك ، والانسان يسكن ويماس ، ويباين ويتلون ، وله طعم ورائحة . وإذا كـان الجزء الذي لا يتجزأ لا يوجـد إلا بالـوهم وإذا اجتمع جـزءان يوجـدان في الواقـع فانه يكون جمعاً بين الافتراض والواقع ، بين الـوهم والحس. من أين يأتي الـوجود باجتماع جـزأين لا وجود لهـما؟ وكيف يوجـد الكم مع اجتمـاع كيف محض؟ ولماذا جزءان وليس ثلاثة أو أربعة أجـزاء؟ إنه لأقـرب إلى العقل أنـه باجتمـاع جوهـرين

= يُجز أن يحل فيه المماسة والمباينـة والحركـة والسكون واللون والـطعم والرائحـة . مقالات جـ ٢ ، ص ١٦ ؛ وعنـد عباد بن سليمـان الجزء الـذي لا يتجزأ شيء لا طـول له ولا عـرض ولا عمق وليس بذي جهات ولا مما يشغل الأماكن ولا مما يسكن ولا يتحرك ويجوز عليـه أن ينفرد » مقـالات جـ ٢ ، ص ١٤ ؛ وقد يجوز عليه الطول فقط دون سائر الأحـوال . مقالات جـ ٢ ، ص ١٦ ؛ وبالرغم من أنه يفتقر إلى المكان إلا أنه يتحيز في المكان ! الشـامل ص ٢٥٩ ؛ ولـه جهة واحـدة وهي الصفحة التي نلتقي به فيهـا ؟ وماذا يحـدث لو التقى بـه اثنان الأول من الامـام والثاني من الخلف في نفس الـوقت أو إذا التقى بـه أربعـة من الامـام والخلف واليمـين واليسـار ؟ مقـالات جـ ٢ ، ص ١٥ .

يحدث جسم واحد . ومع ذلك لا يمكن تسمية الجوهر الفرد جسماً لأن الجسم هو المتآلف والجوهر الفرد لا يتألف[٣٠٩] . واعتبار أن الجزء الذي لا يتجزأ له ست جهات هو أيضاً توفيق بين الوهم والعقل ، بين الافتراض والواقع . ومع ذلك فالجهات الست أعراض هي غيره ، وكأن الجوهر الفرد ما زال افتراضاً خالصاً للوهم[٣١٠] . فإذا ما أخذ بعض الحكماء حلاً وسطاً يجعل الجزء الذي لا يتجزأ متوسطاً متجزئاً بالقوة إلى ما لا نهاية ومتجزئاً بالفعل إلى نهاية وغاية يشير أيضاً إلى البعد الافتراضي والأساسي الوهمي . وكيف يثبت جسم واحد متصل وفي نفس الوقت يكون متجزئاً إلى ما لا نهاية؟ أليس الأول مشاهدة حس . والثاني افتراض وهم؟ .

والآن نأتي إلى بيت القصيد ؟ هل الجوهر الفرد مقولة ميتافيزيقية ، وبالتالي يكون أمراً اعتبارياً أو موجوداً ذهنياً لا في الخارج شأنه شأن الأمور العامة في ميتافيزيقا الوجود مثل الوجود والماهية ، والواجب والممكن والمستحيل ، والقديم والحادث ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول ،أم هو مقولة طبيعية أي جسم موجود بالفعل ، جوهر حامل لأعراض ، يكون موضوعاً للعلم الطبيعي ؟ أم لا هو ذا ولا ذاك بل هو مقولة دينية صرفة الغرض منها اثبات وجود « الله » مع أنه سابق لأوانه في هذه المرحلة من تأسيس موضوع العلم وهو نظرية الوجود ؟ فإذا كان الاحتمال الأول أي الوجود الذهني فلا حرج فهو تصور وارد ويمكن استعماله في العلوم الرياضية . وإن كان الاحتمال الثاني أي الجسم الطبيعي فالقول الفصل في ذلك للعلم الطبيعي الرياضي أو التجريبي . وإن كان الاحتمال الثالث أي التصور الديني من أجل اثبات الصانع فهل حقق هذه الغاية أم أنه انتهى إلى أخذ صفات « الله » بدل أن يعطيها إياه ؟ فإذا كان لا جسم له ولا عرض ، ولا شكل ، ولا لون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا حركة ، ولا سكون فماذا عن صفات التنزيه « لله » وأنه ليس في محل ولا يشبه الحوادث ؟ وأي الموقفين أكثر

(٣٠٩) عند بعض أهل السنة إذا تآلف جوهران فهما جسم واحد . مقالات جـ ٢ ، ص ١٥ ؛ وعند القاضي وبعض المحققين أن الجوهرين إذا تآلفا فهما جسمان ، الشامل ص ٤٠٨ .

(٣١٠) مقالات جـ ٢ ، ص ١٥ .

دفاعاً عن الدين وحرصاً على « الله » اثبـات الجوهـر الفرد الـذي يشارك « الله » في بعض صفـاته وعـلى رأسها التفـرد أم نفي الجوهـر الفرد حتى يتفـرد « الله » وحـده بصفـاته وتثبت قـدرته المـطلقة دون مـا حاجـة إلى وسائـل مصطنعـة للدفـاع عنهـا واثباتها؟ .

يبدو أن المتكلمين أعدوا « الجوهر الفرد » كمقدمة لاثبـات وجود الله أولاً ثم صفاته ثانياً . فإذا ما انقسم الجسم إلى جـزء لا يتجزأ لا يحتـوي على سبب وجـوده من ذاته وبالتـالي فإنـه يحتاج في وجـوده إلى غيره ، ومن ثم يثبت وجـود الله . وإن انقسم إلى ما لا نهاية كما يقول الحكماء فإن اللانهائي يقود أيضاً إلى اللانهائية . ففي كـلا التصورين يثبت وجـود « الله » . خشي المتكلمون من قسمـة الجسم إلى ما لا نهاية خشية على العلم الإلّهي الذي يحصـر كل شيء فآثروا اثبـات الجزء الـذي لا يتجزأ دفاعاً عن القدرة الإلّهيـة على الايجاد من عـدم وبالتـالي يثبت شيئان في وقت واحد، قدرة «الله» وخلق العالم . وخطورة رأي الحكماء عند المتكلمين هو النيل من علم « الله » وإنكار العلم الكلي لأنـه ما دامت الأجـزاء لا تتناهى فعلم « الله » بهـا لن يكـون تفصيلا بـل جملة وهو مـرادف للجهل . كـما أنه يمثـل خطورة عـلى دليل الحدوث الذي يقوم على تناهي العالم . فـما لا نهاية لـه لا يدخـل في الحدوث. أمـا الحكـماء فإنهم يبـدون أكثر اتسـاقاً لأن معلومـات « الله » ومقدوراتـه لا نهاية لكـل واحـد منها وبـالتالي يتسق العلم والقـدرة مع المعلوم والمقـدور . أما عنـد المتكلمين فيتحدد علم « الله » بنهايـة الجزء الـذي لا يتجزأ كـما تتحدد قـدرته بـه . وفي كلتا الحالتين ليس الغرض من المقول في الجزء الذي لا يتجزأ تأسيس العلم الطبيعي بل تـأسيس الخطاب « الإلّهي » . ليست النـظرية وصفـاً للطبيعة بقـدر مـا هي وسيلة لاثبات وجود « الله » وصفاته مثـل العلم والقدرة . وعـلى هذا النحـو يكون الفكـر « الإلّهي » موجِّهاً للفكر العلمي . في كلتا الحـالتين الغـاية واحـدة وهو المبحث عن « الله » من خـلال الطبيعـة أو توجيـه الذهن البشـري « بالله » كـوظيفة معـرفيـة . فالوحدة الأولى هي الوحدة البسيطة التي منها تتركب الأشيـاء وهي مماثلة للواحـد . والصورة أيضاً هو العنصر الباقي في الطبيعة الذي يدل على الخالق كما تـدل النفس

على البدن والمخلوق على الخالق. ومن ثم انتهى المتكلمون والحكماء ، كل بطريقته وباحساسه الديني إلى اثبات المشاركة في الصفات بين الجوهر الفرد والمطلوب اثباته وهو « الله » . فالجوهر الفرد لا شكل له ولا لون ولا طعم ولا رائحة ولا يتحرك ولا يسكن ولا يرى ، ومن ثم فهو يشارك « الله » في صفات التنزيه وأنه « ليس كمثله شيء » . وإذا كان الجوهر الفرد جسماً فإنه ينفع من يتصور الله على أنه « جسم » فيشاركان معاً في صفة الجسمية أي في صفات التشبيه كما شاركا من قبل في صفات التنزيه . وفي حالة التنزيه ما قيمة جوهر فرد لا شكل له ولا ينسب إليه شكل من الأشكال ، ولا يمكن التعرف عليه أو رؤيته ؟ انه مجرد افتراض محض من أجل غاية أخرى أبعد ما تكون عن الطبيعة وكأن علم التوحيد آثر استبدال عالم الافتراض بعالم الواقع ، وعالم الوهم بعالم الحقيقة . وفي حالة التشبيه يكون « الله » قد أثبت جسماً مثل الجوهر الفرد . فسواء كان الجوهر الفرد لا ينقسم أصلاً أو فعلاً فهو لا ينقسم لأنه لا وجود له . وجعل الجواهر الفردة غير متناهية في الصغر أو في العدد هو اشراك لها مع صفات « الله » . وسواء كان الجسم ينقسم أو لا ينقسم أو انقسم إلى نهاية أو إلى لا نهاية أو كان مكوناً من أجزاء أو وحدة واحدة فالنهاية واحدة وهي أنها كلها مقدمات خطابية جدلية لاثبات وجود « الله » وتصور صفاته طبقاً للحساسية الدينية عند المتكلمين والحكماء ودرجة احساساتهم بالطهارة العقلية ودوافعهم الايمانية . إن اثبات وجود « الله » على افتراضات عقلية هو تأسيس هاوٍ لا صرح له ولا بناء. وهل من الضروري تدمير العالم وتجزئته وتقطيعه ارباً اربا إلى حد المتناهي في الصغر حتى يثبت «الله» على أشلاء؟ لقد استعمل الوحي عديداً من الأدلة تعتمد على شهادات الحس وأوائل العقول وبداهات الوجدان اعتماداً على مقاييس المنفعة والضرر وصالح الأمة[٣١١] . بل يبدو الفكر الديني خاصة عند المتكلمين وقد وقع في دور . فالجوهر الفرد وسيلة لاثبات وجود « الله » ، و « الله » هو الذي يمكننا من رؤية الجوهر الفرد . وكيف ترى ما لا

---

(٣١١) نستعمل هنا لفظ « الوحي » كشيء مادي صرف أي المدون في كتاب معين وهو القرآن ، ومن ثم فهو موجود . ليس في حاجة إلى اثبات وهو بخلاف نظرية النبوة .

جسم له ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا لون وما لا يُدرك بالحواس؟[(٣١٢)] .

يبدو أن موضوع الجوهر الفرد كله بصرف النظر عن الخلاف حوله بين اثبات وانكار أو حول التصورات فيه إنما يعبر عن عاطفة دينية وليس عن موقف عقلي . وإن تصور الجسم بين مقولتي القسمة والتناهي إنما يعبر عن رغبة في الوصول إلى الوحدة البسيطة الأولى التي منها تتكون الأشياء . فالرغبة في الذهاب من المركب إلى البسيط ، من المتناهي إلى اللامتناهي عاطفة دينية تعبر عن نفسها عقلاً وإن لم يكن لها ما يقابلها في الواقع . الجسم جسم لا ينقسم إلى أجزاء متناهية أو لا متناهية.هذه الوحدة الأولى هي النقطة الهندسية التي تبدأ منها الخطوط والمساحات والحجوم ، وهي اللحظة الزمانية التي يبدأ منها الحاضر والماضي والمستقبل ، وهو الواحد في العدد الذي منه تبدأ العمليات الحسابية من جمع وضرب وقسمة ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ في الطبيعة الذي منه تتركب الأجسام ،وهو « الله » مصدر الكون ومنشؤه ، وغايته ونهايته . وهنا يبدو أثر الفكر الديني الإلهي في الفكر الطبيعي والرياضي والانساني وكأن « الله » وظيفة معرفية في تصور العالم والأشياء . ولا يمكن تصور أجزاء غير متناهية لأنها ستشارك الله في صفة وهي اللاتناهي . ومن ثم كان الجزء الذي لا يتجزأ متناه . وهنا يبدو الفكر الديني الإلهي فكراً محدِّداً كما أنه فكر موجِّه . ولا تهم الحجج التي يثبت بها تناهي الأجسام ، حجة القسمة إلى النصف ثم قسمة النصف إلى النصف وهكذا حتى تصل إلى الجزء الذي لا يتجزأ ، ولا يهم مصدرها . الجزء الذي لا يتجزأ إذن تفكير ديني لاهوتي في الطبيعة ، فهو أحد التصورات الطبيعية للتوحيد . أما الجزء الذي يتجزأ فهو تصور علمي كمي للطبيعة . وقد قالت الفرق بالتصورين ، تصور المتكلمين من ناحية وتصور الحكماء والفقهاء من ناحية أخرى ، كلٌّ طبقاً لتصوره للتوحيد وإحساسه بالتعظيم والاجلال . وقد آثر فريق ثالث التوقف عن الحكم فهو أكثر أمانة إذ يدل على أن

(٣١٢) أجاز أبو الهذيل على الجزء الذي لا يتجزأ الحركة والسكون والانفراد وأن يماس ستة أمثاله بنفسه ، وأن يجامع غيره ويفارق غيره وأن يفرده الله فتراه العيون ويخلق فينا رؤية له وادراكاً له . ولم يجز عليه اللون والطعم والرائحة والحياة والقدرة والعلم . إذ لا يجوز ذلك إلا للجسم . مقالات جـ ٢ ، ص ١٤ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ الشامل ص ٤٠٧ .

العقل هنا لا يتعامل مع واقع بل مع عواطف التعظيم والاجلال ، كلٌ مفكر ودرجته من العقلانية ، يختار ما يشاء من التصورات التي تساعده على الاعلان عن تعظيمه وإجلاله في أكثر الصور العقلانية إحكاماً في رأيه[٣١٣] .

والقضية الآن هي : إذا كان مبحث الجسم وما نتج عنه من نظرية الجوهر الفرد بين الاثبات والانكار تفكير ديني إلّهي مقنع فلماذا لا يتحول إلى تفكير ديني إنساني صريح ؟ أليست الإلّهيات هي إنسانيات مقلوبة؟[٣١٤] ألم يحاول الوحي تأسيس علم إنساني ؟ لقد كشف الجسم عن دائرة الأشياء أو عن بعد الطبيعة في الحياة الانسانية كما ستكشف باقي الأجسام ، الأجسام التي لها مزاج عن بعد الانسان . وإذا كان مبحث الأعراض قد كشف عن بُعد الانسان صراحة فإن مبحث الجواهر يكشف عن بُعد الطبيعة بنفس الدرجة من الصراحة والوضوح . ولما كان الانسان ذا بعد اجتماعي فإن بعدي الانسان والطبيعة لا يكتملان إلا ببعديها الاجتماعي والسياسي إذا ما أراد الفكر الديني الابقاء على مفهوم الوحدة المتمثل في الجزء الذي لا يتجزأ . ومن ثم تظهر هناك مفاهيم وحدة الشخصية ، والوحدة الوطنية ، وحدة الشعب ، ووحدة الأمة ، ووحدة التاريخ . وبالتالي يُصبح لكثير من مسائل الجزء الذي لا يتجزأ مدلول . ويتأسس الفكر العلمي مستقلاً عن الفكر الديني ، ويتحول الفكر الديني إلى علوم الاجتماع والسياسة .

٢ ــ عوارض الأجسام[٣١٥] : عوارض الأجسام هي الأحكام الخاصة بالأجسام أو دلالاتها ،وأهمهاحدوث الأجسام وتناهيها[٣١٦] . وهنا ينقسم الجسم إلى ذات وصفات وهي نفس القسمة السابقة إلى جواهر وأعراض . فالجوهر هو

---

(٣١٣) شك شاكون فقالوا : لا ندري أيتجزأ الجزء أم لا يتجزأ مقالات جـ ١ ، ص ١٢٤ .

(٣١٤) أنظر دراستنا , Theologie on Anthropologie , la Renaissance du Monde Arabe

(٣١٥) في المصنفات القديمة تأتي قسمة الجسم قبل عوارض الأجسام وبعد حده مباشرة وقد آثرنا تركها بعد عوارض الأجسام حتى يمكن الحديث عن قسمة الأجسام مرة واحدة ابتداء من الجواهر الجسمية حتى الجواهر المفارقة . المواقف ص ٢٤٤ ـ ٢٥٦ .

(٣١٦) العوارض هنا تعني مجرد الأحكام والدلالات مع أنها قد توحي بالخلط مع الأعراض التي تم تحليلها في المبحث السابق عن ظواهر الوجود .

الذات، والأعراض هي الصفات. ولكن هذه المرة تتخلى اللغة الطبيعية عن مكانها إلى اللغة الميتافيزيقية للاقتراب من الإلّهيات واثبات الجواهر المفارقة. وأهم أحكامها ثلاثة. الأول ما يتعلق بالقدم والحدوث، والبقاء والفناء ثم الاعادة، والثاني ما يتعلق بصلة الجواهر بالأعراض وجوباً أو إمكاناً أو استحالة، والثالث ما يتعلق بوحدة الأجسام أو تعددها. ويتضح من هذه الاحكام أنها في حقيقة الأمر عود إلى « الأمور العامة » أو « ميتافيزيقا الوجود » وقراءة مبحث الجواهر من خلالها. فالقدم والحدوث، والوجوب والامكان والاستحالة، والوحدة والكثرة من مباحث الأمور العامة. ويبرز السؤال القديم من جديد: هل هذه الأحكام ميتافيزيقية طبيعية خالصة أم أنها تكشف عن موجهات الفكر الديني؟ هل هي أحكام فلسفية علمية صرفة أم أنها مقولات تمهيدية للدفاع عن عقائد الايمان وبالتالي فهي فكر ديني مقنع؟.

أ ـ **القدم والحدوث**، لما كانت الأجسام ذوات أو صفات وكان الاحتمالان القدم والحدوث أصبحت لدينا احتمالات أربعة. الأول أن تكون الاجسام محدثة بذواتها وصفاتها، وهو الحق عند المتكلمين وبه قال المِلّيون من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. والثاني أن تكون قديمة بذواتها وصفاتها وبه قال متأخرو الحكماء(٣١٧). فالاجسام فلكيات وعنصريات، والفلكيات قديمة بموادها وصورها وأعراضها إلا الحركات والأوضاع المشخصة. والعنصريات قديمة بموادها وصورها الجسمية بنوعها وجنسها. والثالث أن تكون قديمة بذواتها محدثة بصفاتها عند أوائل الحكماء(٣١٨). ثم اختلفوا في الذوات هل هي أجسام وأي أجسام هي؟ والرابع أن تكون حادثة بذواتها قديمة بصفاتها وهو باطل فالأصل لا يكون حادثاً والفرع قديماً، وتناقض عقلي لأن الذات هي الأصل والصفات الفرع، ولا يكون الفرع أشرف من الأصل(٣١٩).

(٣١٧) ومعهم ارسطو بعد أن تم تمثله في الحضارة الاسلامية وأصبح أحد روافدها.

(٣١٨) وهم الفلاسفة السابقون على أرسطو أي الطبائعيون الأوائل بعد أن أصبحوا أيضاً أحد روافد تاريخ الفكر الانساني من خلال الحضارة الاسلامية.

(٣١٩) يستشهد الايجي بتاريخ الأديان في اليهودية والثنوية وغيرها مثلاً على أن الذات جسم « ففي =

والحقيقة أن الخلاف ليس بين هذه الاحتمالات الأربعة فيما يتعلق بالذات والصفات والقدم والحدوث بل بين اثنين منها فحسب ، بين القدم والحدوث سواء كانا في الذات أم في الصفات. فعند الأشاعرة الأجسام حادثة لأن الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وكل ما لا يخلو عن الحوادث فهوحادث، وتثبت المقدمة الأولى بأن الأجسام لا تخلو عن الأعراض وأن الأعراض حادثة . واثبات الثانية بأن الجسم لا يخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان . ويبدو أن دليل الحدوث قد بدأ بعد دليل الجوهر الفرد لاثبات الصانع وهو الموضوع الأول في التوحيد كاشفاً عن الغاية البعيدة من مبحث الأجسام وهو اثبات وجود الله اما عن طريق الجوهر الفرد أو عن طريق الحدوث . وخطأ هذا الدليل هو قيامه على وهم أن التغير حدوث ، وأن تغير الأعراض تعني أنها حادثة ، فالتغير قيمة وكمال في حين أن مفهوم الحدوث عند المتكلمين لا قيمة ونقص ، وبالتالي فالقول بأن الأعراض حادثة يخلط بين حكمي قيمة، الأول ايجابي والثاني سلبي . والقول بأن كل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث تحصيل حاصل لا يضيف جديداً . كما أنه ينتقل من الحكم على الأعراض أي الصفات إلى الحكم على الذوات أي الأجسام مع أنه من الاحتمالات الأربعة أن تكون الأجسام قديمة بذواتها محدثة بصفاتها وهو اختيار أصحاب الطبائع من المعتزلة كحل وسط بين حدوث الأجسام بذواتها وصفاتها وهو حل الأشاعرة وقدم الأجسام بذواتها وصفاتها وهو اختيار الحكماء .

وقد تمت اعادة صياغة هذا الدليل عدة مرات من المتقدمين والمتأخرين .

= التوراة ؛ أن الله تعالى خلق جوهرة ونظر إليها نظر الهيبة فذابت فحصل البخار . ومن زبدها الأرض ، ومن دخانها السماء ، وقيل الأرض ، وحصلت البواقي بالتلطيف ، وقيل النار وحصلت البواقي بالتكثيف ، وقيل البخار وحصلت العناصر بالتلطيف وبالتكثيف ، وقيل الخليط من كل شيء لحم وخبز وغير ذلك . فإذا اجتمع من جنس منها شيء له قدر محسوس ظن أنه حدث ولم يحدث إنما تحدث الصورة التي أوجبها الاجتماع» المواقف ص ٢٤٥ ؛ ومنهم من قال إن الذوات ليست أجساماً . ثم اختلفوا فقالت الثنوية النور والظلمة ، والحرانيون النفس والهيولي ، عشقت النفس بالهيولى لتوقف كمالاتها عليها فحصل من اختلاطها أنواع المكونات . وقيل هي الوحدة فتجزأت فصارت نقطاً واجتمعت النقط خطاً ، والخطوط سطحاً ، والسطوح جسماً . المواقف ص ٢٤٥ .

وأزاد عليه البعض عدم جواز استناد القـديم إلى السبب الموجب ، فـالأجسام فعـل الفاعل المختار وبالتـالي تكون حـادثة[٣٢٠] . وهـذا بدايـة بالقـديم مباشـرة ، وهو المطلوب اثباته ، دون المحدث وهـو موضـوع البحث . كما أنـه حكم قيمة صـرف « لا يجـوز . . . » وليس حكماً عقليـاً أو وصفاً مـرئياً لشيء مـادي . وأحيانـاً يكون الدليل ذا بداية حسية تقوم على المشاهدة للحركات وتجدد الاعـراض على الأجسـام ثم يحدث القلب عن طريق العكس والتضاد ويقال « والقديم ليس كذلك » مع أنه لم تحدث دراسة للقديم ولا تحليل خاص له ولكن حدث فقط ادانة الجسم الحـادث ثم تبرئة القديم ، وكأن الخطيئة الأولى لا تمحوها إلا البراءة الأصلية![٣٢١] .

وحجج القدم أربع : الأولى أن المادة قـديمة وإلا احتـاجت إلى مادة أخـرى وتسلسـل الأمر إلى مـا لا نهايـة ، وأنها لا تخلو عن الصـورة ، وبـالتـالي يلزم قـدم الجسم مادة وصورة . وأهمية هذا الـدليل أنه يقـوم على مفهـوم التسلسل إلى مـا لا نهاية وينفي ضرورة وجوده مادة أولى وبـداية أولى ، وبالتالي يكون فكراً يقوم عـلى التواصل لا على الانقطاع ، وهي ميـزة الفكر العلمي ، والثـانية أن الـزمان قـديم وإلا كان عدمه قبل وجوده قبلية لا يجامع فيها السابق والمسبوق وتتميز الحجة بنفس الميزة السابقـة وبالتـالي تكون أقـرب إلى الاتساق العقـلي من افتراض لا زمـان قبل الزمان . بل إن هذا اللازمان لا يفهم إلا بالاضافة إلى الزمان وبالنسبة إليه فيكـون زماناً بمعنى ما أو زماناً إضافياً[٣٢٢] . والثالثة أن فاعليـة الفاعـل للعالم قـديمة ويلزم

---

(٣٢٠) هذه هي صياغة الرازي .

(٣٢١) المواقف ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩ أجمع أهل السنة على أن العالم كل شيء هـو غير الله وعـلى أن كل مـا هو غير الله وغير صفاته الأزلية مخلوق مصنوع ، وعلى أن صانعه ليس بمخلوق ولا مصنـوع ، ولا هو من جنس العالم ولا من جنس شيء من أجزاء العالم . أصـول الدين ص ٣٣ ، ص ٣٢٨ ؛ وقد انبرى ابن حزم لابطال قدم العالم محيـلاً إلى كتاب « التحقيق في نقض كتـاب العلم الإلٓهي » لمحمـد بن زكريـا الطبيب ؛ لأن « المـدة ليست للأمد. أحدث الله الفلك بمـا فيـه من الأجسـام الساكنة والمتحركة وأعراضها » الفصل جـ ٥ ؛ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ، أنظر أيضاً المحصل ص ٨٤ ـ ٨٥ ؛ شـرح التفتازاني ص ٤٣ ـ ٥١ ؛ طـوالـع الأنـوار ص ٢٧ ؛ نهايـة الاقـدام ص ٥ ـ ٧ ؛ أصول الدين ص ٥٩ ، ص ٧٠ ـ ٧١ ؛ الشامل ص ٢٢٦ ـ ٢٣٠ ؛ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

(٣٢٢) يقول القدماء « وترك الجود زماناً غير متناه لا يليق بالجواد المطلق » وهو حكم قيمة بعـدم اللياقـة

منه قدم العالم . فلو كانت حادثة لتوقفت على شرط حادث وإلا لزم الترجيح بلا مرجح ويلزم التسلسل. ومع أنها حجة تفترض المطلوب اثباته إلا أنها أقرب إلى الاتساق العقلي من أن الفاعل القديم لا يصدر عنه إلا شيء قديم كما أن الفاعل الحادث لا يصدر عنه إلا شيء حادث . فلو كان العالم حادثاً لصدر عن موجود حادث وبالتالي ينتفي وجود « الله » . والرابعة أن صحة العالم لا أول لها وكذلك صحة تأثير الباري فيه ، وبالتالي يكون كلاهما قديم لمصاحبة العلة للمعلول ولمقارنة المعلول بالعلة(٣٢٣) . ويبدو أن المعركة احتدمت قبل أن تُبْتَدأ وان حجج اثبات حدوث العالم أو قدمه إنما كانت تخفي المعركة الحقيقية على وجود الصانع وقدمه التي ستظهر في أول موضوع الذات .

فإذا كان الاحتمال الرابع متناقضاً أي حدوث الذات وقدم الصفات فلم يبق إلا الاحتمال الثالث وهو قدم الذات وحدوث الصفات الذي يحاول الجمع بين المطلبين المتعارضين الاتصال والتمايز وأن يجمع بين التصورين المتعارضين التصور الديني والتصور الطبيعي . فالنظريتان الأوليان الحدوث والقدم كل منهما رد فعل انفعالي على الآخر يأخذ صورة النظرية . وكل مطلب أصيل في الانسان مطلب الحدوث ومطلب القدم ، الرغبة في الانفصال والرغبة في الاتصال ، البحث عن

= وليس حكم عقل أو حكم واقع بل ان من طبيعة الجود ترك الزمان غير متناه وهو الأقرب .

(٣٢٣) الذين قالوا بقدم المادة فرق عديدة ترى أن أصل العالم لم يكن جسماً حادثاً . فقد أثبتت الحرمانية القدماء الخمسة : الباري ، والنفس ، والهيولى ، والدهر ، والخلاء . وقال ابن زكريا الطبيب بقدم المكان والزمان والنفس والعقل المبدع ، الشامل ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ وقد جعل الفلاسفة العالم صادراً عن الله ، والصادر عن القديم قديم ، وبالتالي فالعقل والنفس والفلك والمادة قدماء . يذكر البيضاوي أيضاً هرقليطس (ابريليطس) . ويشن الباقلاني في « التمهيد » هجوماً على الفلاسفة والقول بالقدماء الأربعة ؛ المحصل ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ طوالع الأنوار ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ؛ التمهيد ص ٥٤ ـ ٦٥ ، ومنهم الدهرية القائلين بأن العالم كان على الأزل في هذه الصورة بأفلاكه وكواكبه وأركانه وحيواناته المتناسلة ؛ والفلكية الذين نسبوا تدبير العالم وتقدير الحوادث إلى الكواكب السبعة والطبائع الأربع ، أصول الدين ص ٧٠ ـ ٧١ ، ص ٨٣ ؛ وكذلك هو رأي المنجمين ، الشامل ص ٢٢٩ ؛ التمهيد ص ٦١ ـ ٦٨ ؛ الفصل جـ ١ ، ص ١٨ ـ ١٩ ؛ شرح الأصول الخمسة ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ الشامل ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ؛ نهاية الاقدام ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

الأصالة والسعي نحو الجدة . وقد تم التعبير عن هذا الاحتمال الثالث بصورة اشراقية اسطورية تجعل ذات العالم قديمة وصفاته محدثة ، وبالتالي يخرج العالم من أصل روحي . وتكون الصعوبة حينئذ في تفسير كيفية صدور هذه الأعراض المادية من هذا الجوهر الروحي . ولما كان هذا التصور أقرب إلى العاطفة الصوفية منه إلى التصور العقلي فقد اعتمد على الصور الفنية أكثر من اعتماده على الحجج العقلية وظهرت لغة النور والفيض والاشراق والعشق والتذكر والمعرفة والاحتياج والشوق إلى آخر ما هو معروف من مصطلحات حكمة الاشراق . ويكون العالم رحلة مؤقتة للروح تخلص فيه من المادة العارضة للرجوع إلى مصدرها الروحي الأول تنعم بعد بؤس، وتلتذ بعد ألم ، فتسود عواطف التأليه على ما بقي من حكمة ، وتتحول نظرية الفيض والصدور إلى نظرية في الخلاص والرجوع(٣٢٤) . فإذا ما استطاع العقل التغلب على الخيال ، واستطاعت التصورات السيادة على الاشراقيات ظهرت اللغة الرياضية بدل الصور الفنية وتحول العالم كله إلى أعداد لا فرق فيه بين قديم وحادث ، ويصبح الواحد هو الأصل لا فرق في ذلك بين الواحد الرياضي والواحد الطبيعي والواحد في عقيدة التوحيد(٣٢٥) . ولكن ظهر هذا الاحتمال الثالث في صيغة علمية عند أصحاب الطبائع في الجمع بين التصورين تلبية للمطلبين وهو القول بالخلق عن طريق الطبائع أو التخلق . فإذا كانت الأجسام مخلوقة فإن الأعراض متخلقة بطباعها فالايجاب بالذات لا بالارادة ، وبالطبع لا بالقدرة(٣٢٦) . وفي حقيقة الأمر إن الصيغ الثلاث أقرب إلى القدم منها إلى

---

(٣٢٤) وهو أيضاً تصور الاسماعيلية والباطنية (أحمد الكيال) في أساطير الخلق الشاملة التي تفسر كل شيء الإلهيات والطبيعيات والانسانيات والكونيات والشرعيات وكل نظريات العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الانساني . مثلاً أن الإله خلق النفس ، وهما مدبران للعالم ، العقل والنفس ، بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأول . الفرق ص ٢٨٥ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ؛ الملل جـ ١ ، ص ٩٥ ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ ، ص ١٤٥ - ١٥١ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٨٠ - ٨١ .

(٣٢٥) مثلاً أصحاب فيثاغورث ، المحصل ص ٨٦ ؛ طوالع الأنوار ص ١٢٨ .

(٣٢٦) وهم أصحاب الطبائع ثمامة ، والجاحظ ، ومعمر ، والنظام . فعند ثمامة العالم فعل الله بطباعه كما يقول بعض الحكماء الملل جـ ١ ، ص ١٠٧ ، وهو ما يتهم به أيضاً الزنادقة المعطلة لقولهم - =

الحدوث. والسؤال الآن : هل مشكلة الذوات والصفات أساساً في الأجسام ثم نقلت بعد ذلك إلى الله في موضوع الذات والصفات؟ وهل مشكلة القدم والحدوث أساساً في الأجسام في الطبيعيات أو في الانسانيات ثم نقلت بعد ذلك إلى صفات الذات في الإلهيات ؟.

والقضية هي : هل يمكن نقل هذه المسألة ، القدم والحدوث من المستوى الميتافيزيقي النظري إلى المستوى الاجتماعي السياسي العملي؟ وأي الاحتمالات الأربعة أفضل وأكثر فعالية لحركات التغير الاجتماعي . هل المجتمعات محدثة بذاتها وبصفاتها وبالتالي لا يكون لها وجود دائم ومستمر؟ هل هي قديمة بذاتها وبصفاتها وبالتالي يستحيل عليها التغيير؟ هل هي قديمة بذاتها محدثة بصفاتها مما يسمح ببقاء المجتمعات كذوات وتغيير الأنظمة الاجتماعية كصفات؟ أو أنها مشكلة وهمية من الأساس يحسن الغاؤها وليس نقلها من المستوى الميتافيزيقي الطبيعي إلى المستوى الاجتماعي؟[٣٢٧] . وإذا كنا ما زلنا مجتمعات تراثية فلا سبيل إلا نقلها دون إلغائها حتى تتحول إلى رصيد فعال في حركة التغير الاجتماعي[٣٢٨] . فمهما كانت هناك محاولات لإلغائها فإنها ستفرض نفسها . وبالتالي فالأفضل نقلها من

= حسب الخصوم ـ أن الأشياء كائنة من غير تكوين أو أن الحوادث كانت قبل حدوثها أشياء، التنبيه ص ٩١ ـ ٩٢ ؛ وعند معمر أن الله خلق الأجسام دون الاعراض ، أصول الدين ص ٨٣ ـ ٨٥ ، وعند معمر أن الجوهر الواحد لا يحتمل الاعراض فإذا اجتمعت ثمانية أجزاء وصارت جسماً أحدثت في أنفسها الأعراض طباعاً . أصول الدين ص ٥٧ ؛ مقالات جـ ٢ ، ص ١٣ . وعند الحمارية (وعند الخصوم أنهم من القدرية) أن الانسان قد يخلق أنواعاً من الحيوانات مثل الديدان في اللحم والعقارب في التبن ، الفرق ص ٣٧٩ ؛ نهاية الاقدام ص ٢٩ ؛ التمهيد مثل ٢٥٢ ـ ٢٦١ . الشامل ص ٢٣٠ ـ ٢٣٧ ، ص ٢٧٥ ؛ معالم أصول الدين ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣٢٧) هذا هو موقف جالينوس أي التوقف في الكل ، المواقف ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ المحصل ص ٨٦ ؛ أو أن «الله» يحفظ الجواهر بأعراض متعاقبة يخلقها الله فيها فإذا أراد أن يفني لم يخلق فيها العرض أو خلق فيها عرضاً منافياً للبقاء وكأن الله شاغل نفسه بالأعراض والجواهر ، وكأن العالم ليس له قانون من ذاته . طوالع الأنوار ص ١٢٨ .

(٣٢٨) أنظر بحثنا « التراث والتغير الاجتماعي » قضايا معاصرة جـ ٣ .

الفكر الديني إلى الفكر الاجتماعي والسياسي .

ب ـ **البقاء والفناء والاعادة.** وينبني القول بفناء العالم على اثبات حدوثه كما ينتج القول ببقائه على اثبات قدمه . فمن قال بالحدوث قال بالفناء ثم الاعادة ومن قال بالقدم قال بالبقاء . فإذا كان الجسم ذا أبعاد ثلاثة أو ذا جهات ست فالأبعاد متناهية سواء كانت في ملأ أو خلاء . ويثبت المتكلمون ذلك بحجج رياضية ويردون على الحجج الرياضية للخصوم باستعمال كل المسائل الرياضية والطبيعية من أجل مسلمات الفكر الديني اثباتاً أو نفياً . واثبات فناء الأجسام يتضمن فناء العالم مع أنه شتان ما بين اعدام شيء واعدام العالم كله . المتناهي في الصغر محسوس ومرئي أما المتناهي في الكبر فليس كذلك[٣٢٩] . وبالتالي يظهر سؤال متى يفنى العالم وكيف؟ وتتفاوت الاجابة بطبيعة الحال بين تحديد عمر للعالم أو ترك ذلك للعلم « الإلّهي » . كما تتفاوت الاجابة عن كيفية الفناء بين القدرة « الإلّهية » غير المسببة أو بخلق « الله » الفناء أو بمنع البقاء أو بقطع الأكوان[٣٣٠] . ولا يمكن معرفة ذلك كله عقلاً أو حساً بل كلها ظنون وأوهام وهي كلها من مضادات العلم وليست من نظرية العلم . وهنا يبرز موضوع « الجنة والنار » وهل يفنيان بفناء العالم ؟ فإن بقيا

(٣٢٩) المواقف ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦ ، وعند النظام الأجسام فانية فلو بقيت لامتنع عدمها المواقف ص ٢٥٠ وعند معظم المعتزلة أن الله قادر على افناء الأجسام كلها دفعة واحدة ولا يقدر على إفناء بعضها مع بقاء بعضها ، الفرق ص ٢١٨ . الأجسام قابلة للعدم ، معالم أصول الدين ص ١٢٩ .

(٣٣٠) عمر الدنيا عند اليهود ٤٠٠٠ سنة ، وعند النصارى ٥٠٠٠ سنة ، وعند آخرين ٧٠٠٠ سنة ، وفي الهند من يقول بأنه ٧٠,٠٠٠ سنة أو ٤٠٠,٠٠٠ سنة وكذب من ادعى لمدة الدنيا عدداً معلوماً فالساعة لا يعلمها إلا « الله » الفصل جـ ٢ ، ص ١٧ ـ ١٨ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ . وقد اختلف أهل السنة في كيفية الفناء فعند الأشعري لا يخلق الله البقاء في الحال الذي يريد أن يكون فانياً فيه . وعند القلانسي يخلق الله الفناء ، وعند الباقلاني يقطع الأكوان عنه ، أصول الدين ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ . كما اختلفت المعتزلة . فعند معمر الفناء فناء إلى ما لا نهاية ، وفناء الشيء غيره . وعند محمد بن شبيب ، يحل الفناء في الجسم فيفنى . وعند الجبائي وابنه ، يخلق الله الفناء لا في محل وأن الله لا يقدر على فناء بعض الأجسام مع الابقاء على البعض الآخر وانما يقدر على افناء جميعها بفناء لا في محل ، أصول الدين ص ٨٧ ـ ٨٨ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ؛ الفرق ص ٣٣١، ص ٣٨٤، ص ١٩٧ ، معالم أصول الدين ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ؛ العضدية جـ ١ ، ص ١٦٥ ، الكلنبوي جـ ١ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ نهاية الاقدام ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩ .

شاركا الله في صفة الخلود ، وتناقضا مع فناء العالم ، وإن فنيا تناقضا مع عقيدة الثواب والعقاب الأبديين[٣٣١] . وهو استباق لموضوع المعاد من السمعيات قفزاً على الإلهيات مما يدل على تسرع الفكر الديني في الظهور دون ما انتظار للتأصيل . وإذا كانت الأجسام غير باقية فعدم بقاء الأعراض أولى لما كانت الأجسام لا تخلو من الأعراض ، ولما كانت الأعراض لا تقوم إلا بالأجسام . فأحكام الأجسام أو عوارضها تصدق بالتبعية على الأعراض[٣٣٢] .

وفي حقيقة الأمر أن فناء العالم ليس واقعة مادية ، فهذا ما يحدده العالم الطبيعي ان استطاع ، ولكنه واقعة شعورية دالة . العالم يوجد في الشعور في لحظة الوعي به ويفنى لحظة فقدان هذا الوعي . وفي كلتا اللحظتين لوجوده في الشعور أو لغيابه منه له آثار على السلوك للأفراد والمجتمعات إذْ تمثل عقيدة فناء العالم خطورة بالغة على الحياة كما هو الحال في نظرية الخلق وفي دليل الحدوث وذلك لأنها توحي للانسان بأن هذا العالم لا قيمة له ، وأنه ليس قائماً بذاته ، وأنه يستمد وجوده وقيمته من عالم آخر منفصل عنه . فهو سلب محض . ومن ثم يوحي للانسان بالتخلي عنه والاتجاه إلى الايجاب الخالص ، ومن ثم ينشأ الاغتراب والانحراف والانعراج وكل مظاهر الاعوجاج في السلوك . توحي عقيدة فناء العالم بأن هذا العالم لا أهمية له ، ولا بقاء له بذاته مما يبعث على الغثيان ويجعل العدم هو أساس وجوده ومصدره . وبالتالي تكون الأفعال فيه غير مجدية وغير باقية ، وبالتالي فهي فانية مثله . وهذا هدم للعالم وتدمير له ، ونظرة اعدامية لبنيته ، كما أنه انكار للغائية ولسبب وجود الانسان فيه . كما توحي بأنه يمكن تعويضه وبالتالي انتظار عالم

---

(٣٣١) قال جهم بفناء الجنة والنار ، وأبو الهذيل بانقطاع نعيم الجنة وعذاب النار . أنظر الفصل التاسع عن المعاد ، بينما جعل أهل السنة الجنة والنار متناهيين الفصل جـ ٢ ، ص ١٠١ ورفض ابن حزم أن يكون الشيء في حين خلق الله له لا باقياً ولا فانياً الفصل جـ ٥ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣٣٢) الأعراض لا تبقى لأنها عجز وجهل وموات . عند العطوي جاهلة بمعنى ليست عالمة وعاجزة بمعنى ليست قادرة وموات بمعنى ليست حية . ويبدو هنا تشخيص الطبيعة ووعي الشعور بعمليات النفي والاثبات في الصفات . مقالات جـ ٢ ، ص ٧٨ ؛ أنظر أيضاً الفصل السادس عن الصفات .

آخر أفضل من هذا العالم . كما أنها وسيلة رخيصة لاثبات بقاء الله وقدرته على الاعدام وكأن الله يعدم ولا يوجد ، يعذب ولا ينعم ، يهدم ولا يبني ، وكأنه كاره للبشر ، عدو للعالم ، يفرح لعذاب الآخرين ؟ وهو صورة « الطاغية » وليس « الإله » ! .

ومع ذلك فقد فرض البقاءُ نفسَه على الفناء في القول بالاعادة . فإذا كانت الأجسام تفنى فإنها تعود . وهذا حل لإشكال بإشكال آخر ، وتصحيح خطأ بخطأ ثان ، ومجموع الخطأين لا يكوّن صواباً . كيف تتم الاعادة؟ وهل الذي ابتدأ في الدنيا هو الذي يُعاد في الآخرة[٣٣٣] . وأين تتم الاعادة ؟ وهل تكون اعادة أبدية فتشارك الأجسام «الله» في صفة البقاء وإن لم تشاركه في صفة القدم؟ فإذا ما نجح المتكلمون في زحزحة الأجسام في البداية فإنها تعود وتفرض نفسها في النهاية .

بقاء الأجسام اذن هو الأكثر اتفاقاً مع العقل ومع الواقع والأكثر نفعاً في الحياة الاجتماعية والسياسية . وإن كان خطأ فهو خطأ واحد وليس خطأين . فالأجسام باقية ، هذا ما تقرره شهادة الحس بالرغم من التغير والحركة والفناء . لا تفنى إلا الأعراض بمعنى تغيرها وطريانها على الأجسام . الأجسام باقية ضرورة . وعند البعض ليس بسبب بقائها في الحس لأن الأعراض كذلك بل لأنها ضرورة عقلية . وعند البعض الآخر استدلالاً بأنه لو لم تكن الأجسام باقية لارتفع الموت والحياة والتسخن والتبرد[٣٣٤] . والحقيقة أن بقاء الأجسام يؤدي إلى بقاء العالم وله

---

(٣٣٣) اجابة على سؤال: هل الذي ابتدأ في الدنيا هو الذي يُعاد في الآخرة؟ أجاب أكثر المسلمين بنعم باستثناء عباد بن سليمان مقالات جـ ٢ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٣٣٤) تقول فرق عديدة ببقاء الأجسام . فمع اعتراف الكرامية بحدوث الأجسام إلا أنهم قالوا بأنها أبدية ممتنع فناؤها بدليل امتناع بقاء الأعراض . والكرامية طردوه في الأجسام ، المواقف ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، المحصل ص ٩٣ ؛ الانتصار ص ٣٤ ـ ٣٥ ؛ وعند الكيسانية الدنيا لا تفنى أبداً الفصل جـ ٥ ، ص ٢٣ ؛ وعند الجاحظ يستحيل عدم الأجسام بعد حدوثها. ويشرح الخصوم ذلك بأن الله يقدر على خلق الشيء ولا يقدر على افنائه ، الفرق ص ١٧٦ ، الانتصار ص ١٦٨ ؛ الملل جـ ١ ، ص ١١١ ـ ١١٢ ؛ وعند النظام قد يفنى البعض ويبقى البعض الآخر ، وما يفنى يأتي غيره ، يفنى الأقل ويبقى الأغلب ، مقالات جـ ٢ ، ص ٧ ، الشامل ص ١٦٠ ؛ =

ميزة ضخمة وآثار ايجابية على السلوك الفردي والاجتماعي . فالوجود هو الأساس وليس العدم . والعمل فيه باق ومنتج ولا يضيع هباء فيه وليس خارجاً عنه تعويضاً أو مكافأة . يحدث فيه التراكم التاريخي ويقع فيه عمل الأفراد والجماهير . يتضمن غائية وقصدية بعيداً عن العشوائية والمصادفة . وفيه تنزيه « لله » عن اللعب بالعالم وتدميره والتشكك فيه والقضاء على قوانينه واستقلاله . ويسترد البقاء كصفة للعالم بدلاً من عزوها للذات المشخصة ، روح العالم ، فلا يدفع العالم الثمن ولا يخرج الانسان منه خاسراً ويقوم بدوره فيه قادراً لا عاجزاً ، ومناضلاً لا هارباً ، ومؤثراً الحاضر القريب على المستقبل البعيد وما الفائدة من تدمير العالم ثم يعيش الانسان في خراب ، وعزاؤه في الاعادة؟ « وإن عادوا عدنا » . قد يكون الأقرب إلى التجربة البشرية والاطمئنان النفسي والروحي هو صيرورة البقاء والفناء ، تجدد الأجسام والجواهر حالاً بعد حال ، تجدد مستمر من داخل الأشياء وليس من خارجها وتجدد الحياة البشرية الفردية والاجتماعية دون نفي للمسؤولية بل توزيعها على الجماعة في العمل الجماعي المشترك . وعند الحكماء لا عالم غير هذا العالم وإن برهنوا على ذلك بأسباب رياضية طبيعية دون اشارة إلى دور الفعالية والنشاط كما يحتاج جيلنا .

جـ - هل تتعرى الجواهر عن الأعراض؟ هل يمكن الجمع بين العرض وضده ؟ هل يمكن وجود أعراض مجتمعة دون جواهر ؟ هل يبقى العرض بعرض مثله؟ كلها تساؤلات قد لا يكون لها أي موضوع فعلي يمكن الحديث عنه وبحثه موضوعياً سواء بتحليل العقل للموضوع أو بتحليل الموضوع بالتجربة . هي

بل إن أهل السنة أيضاً ضعفوا أمام بقاء الأجسام بالرغم من رفضهم لعدم العالم وللتجدد المستمر . فقد أجاز بعض أهل السنة فناء بعض الأجسام دون البعض وهو موقف وسطي لا يرضي الطرفين . فإما فناء الكل ايثاراً لقدرة « الله » أو بقاء للكل إيثاراً لحياة الناس المستمرة المتجددة الفعالة . وعند الحكماء لا عالم غير هذا العالم أي ما يحيط به سطح محدود الجهات لأسباب رياضية وطبيعية صرفة ، المواقف ص ٢٥٠ - ٢٥١ . ومع الدهرية والكرامية أحال الحكماء العدم ، عدم الفلك والكواكب وجعلوها طبيعة خاصة لا تقبل الفناء أو الفساد ، أصول الدين ص ٦٤ - ٦٧ ؛ الملل جـ ٢ ، ص ١٧ - ١٨ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ٢٣ ؛ المحصل ص ٩٧ - ٩٨ ؛ ويشارك في ذلك حكماء الهند بعد أن تم التعرف عليهم داخل الحضارة الاسلامية .

صياغات من وضع العقل المرتبط بالايمان الديني من أجل أن يسمح للذهن بالاعلان عن مواقفه اما باثبات الامكانية أو الاستحالة . في الأولى يتغلب الفكر الديني على الفكر العلمي وفي الثانية يتغلب الفكر العلمي على الفكر الديني . أهمية هذه التساؤلات إذا كانت جادة هي في كشفها عن بزوغ الفكر العلمي من ثنايا الفكر الديني بصرف النظر عن نوعية الاجابة ، وتعرية مرحلة في تاريخ الفكر الانساني ونموذج حضاري فريد ، كيف يمكن تأسيس العلم ابتداء من التوحيد؟ فاثبات جواز تعري الجواهر عن الأعراض لا يتم بسبب علمي ، وإن بدا ذلك ، بل لأن « الله » قادر على كل شيء . كما أنه قادر على الجمع بين الأضداد مثل العلم والجهل والحياة والموت ، والقدرة والعجز . كما أنه قادر على أن يخلي الجسم من العرض وضده وأن يبقى بلا أعراض . ولا يفترق في ذلك جمهور الأشاعرة عن بعض المعتزلة . وهو أيضاً قادر على ايجاد أعراض مجتمعة دون جواهر وعلى ابقاء العرض بعرض مثله كالساحر فاعل الأعاجيب أمام دهشة الناس![٣٣٥] . أما اثبات استحالة تعري الجواهر عن الأعراض والجمع بين العرض وضده ، ووجود اعراض بلا جواهر أو بقاء العرض بعرض مثله فهو دفاع عن قوانين الطبيعة وعن استطاعة العقل الوصول إليها وتسخيرها لصالح الانسان ، وتأسيس للفكر العلمي[٣٣٦] . وأحياناً يقوم المتكلمون بدور الحكماء ويقوم الحكماء بدور

(٣٣٥) عند الأشعري يجوز خلو الأجسام عن الألوان والطعوم والروائح ، تلخيص المحصل ص ٩٤ ؛ وعند أبي الحسين الصالحي وصالح وأبي الهذيل والكعبي وأبي هاشم يجوز أن يعري الله الجواهر عن الأعراض وأن يخلقها لا أعراض فيها ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٠ - ١١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ ؛ الشامل ص ٢٠٥ - ٢١٢ ، أصول الدين ص ٥٦ - ٥٩ . وقد جوز أبو الهذيل أن يفرد الله الحياة من القدرة ، مقالات جـ ٢ ، ص ٢١٩ ؛ وجوز وجود أعراض لا في جسم وحوادث لا في مكان كالوقت والارادة من الله .والبقاء والفناء خلق الشيء الذي هو قول ارادة عند الله . كما جوز الجبائي أن يخلق الله حياً لا قدرة فيه ، مقالات جـ ٢ ، ص ١١ ؛ وجوز الاسكافي أن يحل اليه علم وادراك وأن يجتمع النار والحطب ، والحركة والسكون ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٢ - ١٣ ؛ وجوزه البصريون في غير الأكوان والبغداديون في غير الألوان ، المواقف ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣٣٦) منع البصريون من المعتزلة منع تعري الجواهر عن الأكوان وجوزوها فيما عداه، الشامل ص ٢٠٥ ، ص ٢١٠ - ٢١٣ . ومنع عباد بن سليمان أن يفرد الله الحياة من القدرة ، مقالات جـ ٢ ، =

المتكلمين . وفي هذه الحالة يظل المتكلمون مدافعين عن حق الذات المشخصة اثباتاً للاختيار ومنعاً لاجبار القانون العلمي لها وتحديده لقدرتها المطلقة . فلو لزم من وجود الجوهر وجود العرض لكان الزب مضطراً إلى احداث العرض عند احداث الجوهر ولانتفى الاختيار . ومـا من معلوم ألا ويمكن أن يخلق « الله » في العبد علماً بـه . فإذا ما أراد المتكلمون خطاباً علمياً وجدوا أن الهواء والماء خال من اللون وضده أو من جعل قبول الأعراض معللاً بالتحيز والدوران . بل إن لفظ العرض لا يمنع منه

= ص ١١ ، ص ٦ ، ١٩ ، كما منع أبو الهذيل، والجبائي ، ومعمر ، وهشام ، وبشر وكثير من المعتزلة أن يجمع الله بين القدرة والارادة والموت ، مقالات جـ ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ؛ وأحال الصالحي أن يجمع الله بين المتضادات ، وأن يوجد أعراضاً لا في مكان ، وأن يفني قدرة الانسان مع وجود فعله ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٠ - ١١ . ويتفق بعض أهل الحق ومنهم ابن حزم أيضاً انه لا تخلو الجواهر عن الأعراض مقالات جـ ٢ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ ؛ الشامل ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ الفرق ص ٣٢٩ ؛ أصول الدين ص ٥٦ ؛ وهو أيضاً رأي عامة أهل النظر ، مقالات جـ ٢ ، ص ١٢ - ١٣ ، ص ٢٢ ؛ الارشاد ص ٢٢ - ٢٥ . وقد سخر ابن الراوندي من القائلين بالجواز بقوله « إن طوائف من المتحلين للتوحيد قالوا : لا يتم التوحيد لموحد إلا بأن يصف الباري بالقدرة على الجمع بين الحياة والموت ، والحركة والسكون ، وأن يجعل الجسم في مكانين في وقت واحد ، وأن يجعل الواحد الذي لا ينقسم مائة الف شيء من غير زيادة ، وأن يجعل مائة ألف شيء شيئاً واحداً من غير أن ينقص من ذلك شيئاً ولا يبطله ، وأنهم وصفوا الباري بالقدرة على أن يجعل الدنيا بيضة والدنيا على كبرها والبيضة على صغرها ، وبالقدرة على أن يخلق مثله ، وأن يخلق نفسه ، وأن يجعل المحدثات قديمة ، والقديم محدثاً » مقالات جـ ٢ ، ص ٢٢٢ . وفي هذا المعنى أنشد أحمد فؤاد نجم شاعر العامية « زغروطة للحزب الجديد» . وقد اجمعت المعتزلة والأشاعرة وطوائف الأمة على أن هذا هو المقصود بالعرض . فقد سميت المعاني القائمة بالأجسام أعراضاً لأنها عند النظام وكثير من أهل النظر تقترض الأجسام وتقوم بها فلا يوجد عرض لا في مكان أو لا في جسم . ولأنه لا يقوم بنفسه بل يقوم بغيره . وعند ابن كلاب هي المعاني القائمة بالأجسام أشياء وصفات . ولا يمنع ذلك عند جعفر بن حرب وطوائف من أهل النظر حجة من كتاب أو سنة أو اجماع أو لغة . بل ومذكورة في القرآن بمعنى ما لا لُبث لها مثل ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ (٤٦ : ٢٤) ، ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ (٨ : ٦٧) وذلك في مقابل الضروري ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ (٢ : ٧٣ ، ٦ : ١٤٥ ، ١٦ : ١١٥) ؛ ﴿ الا ما اضطررتم اليه ﴾ (٦ : ١١٩) مع أن الاضطرار هنا فعلي انساني وليس جسمياً شيئياً . مقالات جـ ٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ ، الشامل ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ التمهيد ص ٣٥ - ٣٦ ، ص ٤٢ .

كتاب أو سنة أو اجماع أو لغة وليس لفظاً منقولاً بل نابع من التراث ، وليس مستعاراً بل مأخوذ من الأصول ذاتها وتتفق بالمصادقة مع الألفاظ الجديدة مثل الجوهر والعرض ثم انتقلت من التشريع الخاص إلى الوجود العام ، ومن العمل إلى النظر ، كما نشأت ألفاظ أصول الفقه نشأة تلقائية في « الرسالة » .

د ــ هل الأجسام متجانسة ؟ هل الأجسام جنس واحد أم أجناس متعددة ؟ والتجانس هذا لا يعني الاستغراق المنطقي بل يعني وحدة الجوهر . هل الجوهر جنس واحد ؟ هل جوهر العالم واحد ؟ وهو سؤال يعيد من جديد موضوع الوحدة والكثرة على مستوى الجواهر هل الجوهر واحد أم الجواهر متعددة ؟ وبطبيعة الحال آثر البعض وحدة الجوهر دون التعدد فتنشأ معضلة التمايز ، وآثر البعض الآخر التعدد إيثاراً لشهادة الحس مضحياً بالوحدة كأمر اعتباري خالص أو بالوحدة الكيميائية كما يحدث في التفاعل. وما زالت القضية تعبيراً مثالياً عن فكر لاهوتي بصدد الطبيعة . وقد يكون السبب في التركيز على أن الوحدة هي الأصل الرغبة في التمايز مع الديانات القديمة التي ترى أن الاختلاف هو الأصل بصرف النظر عن عدد الجواهر بالرغم من خطورة التماثل في الوحدة بين صفات «الله» وصفات الأجسام(٣٣٧) .

---

(٣٣٧) عند جمهور المتكلمين الجواهر يمتنع عليها التداخل لذاتها بالضرورة باستثناء النظام . ووحدة الجوهر ووحدة حيزه مثلاً زمنان. فكما لا يجوز جوهران في حال واحد في حيز واحد فلا يجوز كون الجوهر الواحد في آن واحد في حيزين ، المواقف ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ؛ وعند النظام الجواهر أجناس متضادة منها بياض وسواد، وصفرة وحمرة وخضرة، وحرارة وبرودة ، وحلاوة وحموضة ، وروائح وطعوم ، ورطوبة ويبوسة ، وصور وأرواح . الحيوان كله جنس واحد ، والجواهر أعراض مجتمعة . وعند الجبائى الجواهر جنس واحد واختلاف الجواهر واتفاقها لما فيها من الأعراض مقالات جـ ٢، ص ٩، ص ٣٧ ـ ٣٨ ؛أصول الدين ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ الشامل ص ١٥٣ ـ ١٥٦ . وعند أصحاب أرسطو جوهر العالم واحد « واختلاف الجواهر واتفاقها لما فيها من الأعراض . وعند أهل الإثنينية مثل الديصانية الجوهر جنسان مختلفان ، نور وظلمة، متضادان في الصورة والفعل ، النور جنس واحد ، والظلمة جنس واحد . وعند البعض الآخر أن كل واحد منهما أجناس من سواد وبياض وحمرة وصفرة وخضرة . وعند المنانية والمانوية أبدان ، النور والنار والنور والريح والماء وروحه النسيم ، وأبدان الظلمة والحريق والسموم والضباب وروحها الدخان . وعند المرقونية الأجسام ثلاثة أجناس نور وظلمة ومعدل ثالث سبب المزاج بينهما . =

٣ ــ **أقسام الجسم** : والجسم هو العنصر الثالث في القسمة الثلاثية للوجود إلى جوهر وعرض وجسم . ولكن يتداخل مع الجوهر ويختلط به فيكون الجسم داخلاً تحت الجوهر ويكون الجوهر داخلاً تحت الجسم . فالجوهر اما منقسم وهو الجسم أو غير منقسم وهو الجوهر الفرد . وهنا يبدو الجسم جسمين ، جسم مادي وجسم معنوي . والجوهر اما هيولى وهو المحل أو صورة وهو الحال أو مركب منهما وهو الجسم أو غير مركب وهو المفارق . والمفارق أما نفس أو عقل . وهنا أيضاً يبدو الجسم جسمين ، جسم مركب وجسم بسيط ، الأول مادي والثاني معنوي . والغاية من القسمة اثبات الجسم المعنوي كالنفس والعقل . والجسم المركب كالمعادن والنبات والحيوان والبسيط كالعناصر الأربعة أو كري مثل الأفلاك والكواكب . البسيط اما كري مرئي كالأفلاك والكواكب أو معنوي كالعقل والنفس . وهنا تدخل المباحث الكونية والمباحث الطبيعية في مباحث الوجود ، واقتراب أجسام الأفلاك والكواكب من الجواهر المعنوية كالعقول والنفوس . وهنا يتسرب إلى علم الكلام الفلكيات والكونيات وهو أضعف الأجزاء في علوم الحكمة ، ومباحث ظنية خالصة في حين أن علم الكلام علم قطعي(٣٣٨) . ويبدو

= وعند أصحاب الطبائع الجواهر أربعة أجناس متضادة من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة . وعند فريق آخر خمسة أجناس متضادة ، أربعة طبائع والروح أو الريح أو الفلك . وعند أصحاب التناسخ الروح جسم خلاف الأجسام المحسوسة . وعند فريق من أصحاب الهيولى هيولى العالم جوهر من جنس واحد (أرسطو) . وعند فريق آخر لكل نوع هيولى مخصصة ، والأجناس في أصولها مختلفة . وعند فريق ثالث كانت الهيولى شيئاً واحداً ثم حدثت الأعراض فتجنست وتنوعت . وقد رفض أهل السنة والجماعة الثنوية والقول بطبائع خمسة ، وقالوا بتجانس الجواهر والأجسام ، وأن اختلاف الصور والألوان والطعوم والروائح لاختلاف الأعراض . الشامل ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩ ؛ أصول الدين ص ٣٥ ـ ٣٦ ؛ ص ٥٢ ـ ٥٣ ؛ الفرق ص ٣٢٨ ـ ٣٣٩ . وقد اسقط الايجي هذا الموضوع من بناء العلم نظراً لأنه مبحث طبيعي صرف ، فيما يبدو ، لا دلالة له في علم التوحيد . ولم يتعرض له إلا البغدادي في « أصول الدين » وفي « الفرق » والأشعري في « المقالات » في الجزء الثاني عن الطبيعيات ، والجويني في « الشامل » باعتباره مطولاً .

(٣٣٨) طوالع الأنوار ص ١٢٠ ؛ المحصل ص ٩٩ ـ ١٠١ .

المكن

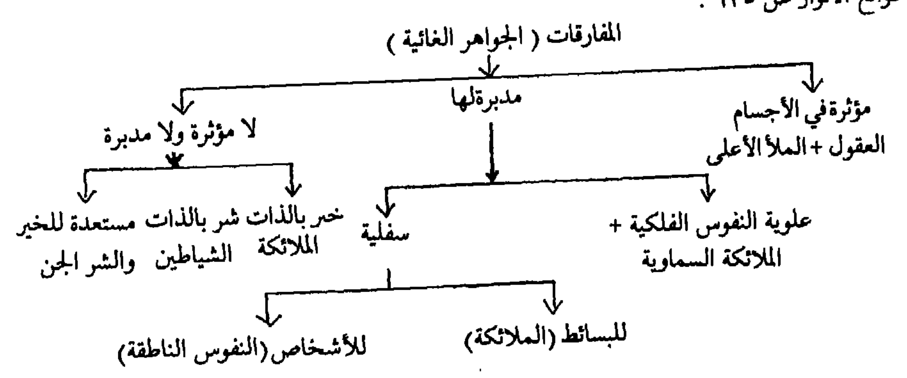
في الموضوع (العرض). — لا في موضوع (الجوهر)

حال (الصورة) — محل (الهيولى) — مركب من الصورة والهيولى (جسم) — لا حال ولا محل ولا مركب (المفارق)

متعلق مع الجسم تعلق التدبير (النفس) — غير متعلق مع الجسم تعلق التدبير (العقل)

أن هدف القسمة كلها هو اثبات المفارقات أي الجواهر الروحانية التي تتسق فيما بينها بقسمة خاصة . فالجواهر الروحانية هي التي لا تكون متحيزة ولا حالـة في متحيز ، وقد قال بها الحكماء، وهي الهيولى والأرواح البشرية أو النفوس السماوية والعقول أو الملائكة. بل تتم قسمتها من حيث تأثيرها في الأجسام. فالجواهر المفارقة أما مؤثرة كـالملأ الأعلى والعقول العشـرة وهي كاملة غـير حادثـة أو مدبـرة وهي امـا علويـة كالنفوس الفلكية أو سفلية للبسائط أو للأشخاص . والجواهر المفارقـة للأشخـاص هي النفـوس الناطقـة التي تشمل القـوى العاقلة والادراكـات والتي تتعلق بحدوث النفس وبـالبـدن وبـالحـواس الخمس الـداخليـة والخـارجيـة والتي تنتهي إلى بقـاء النفس . وقد تكون الجواهر غير مؤثرة ولا مدبرة مثل الملائكة القائمة بفعل الخير أو « الشياطين » القائمة بفعل الشر أو « الجن » المستعدة للقيام بفعل الخير والشـر على السواء . وهنا يبدو تأليه الطبيعة العليا ، واعـطاء الأعلى قيمـة أكثر من الأسفـل ، وتصـور البسيط أشرف من المـركب ، واعطاء الأعـلى قوة وسيـطرة على الأسفـل . ويقتـرب تأليـه الطبيعـة العليا من الأسـطورة وتشخيص صفـات الأفعـال من خـير وشر . ويظل هذا الجزء من مباحث الوجود أضعف الأجزاء من ناحية تحليل العقل وتحليـل الـوجـود(٣٣٩) . ولكن القسمـة الشـائعـة هي قسمـة الجسم الى مـركب وبسيط . والبسيط ينقسم بـدوره إلى فلكي وعنصـري ، والفـلكي إلى الأفـلاك والكواكب، والعنصري إلى العناصر الأربعة. أما المركب فإنه ينقسم إلى ما لا مـزاج له وإلى ما له مزاج . وينقسم ما له مـزاج بدوره إلى مـا لا نفس له ومـا له نفس . والنفس امـا نباتيـة أو حيوانيـة أو إنسانيـة دون الدخـول في المفارقـات مثـل النفس

(٣٣٩) طوالع الأنوار ص ١٣٥ .



والعقل[340] . ومن ثم تكون الأجسام خمسة ، ثلاثة من البسائط وهي الأفلاك والكواكب والعناصر الأربعة ، واثنان من المركبات وهي ما لا مزاج له وما له مزاج سواء ما لا نفس له أو ما له نفس[341] .

أ ـ الأفلاك : والأفلاك الثابتة بالمرصد تسعة تشتمل على أربع وعشرين كوكباً . الأول فلك الأفلاك ، وهو الفلك الأطلسي لأنه غير مكوكب ، وهو « العرش » المجيد في لسان الشرع والجهة فيه منتهى الاشارة ومقصد المتحرك . وأوصافه أنه بسيط ، شفاف ، لا ثقيل ولا خفيف ، لا حار ولا بارد ، لا رطب ولا يابس ، لا يكون ولا يفسد ، لا يتحرك في الكم ، فيه ميل مستدير دون مستقيم ، يتحرك يومياً . وتوهم المتكلمون له خمس دوائر : دائرة الأفق ، وسط السماء ، أول السموات ، السمت ، الارتفاع . والثاني فلك الثوابت وله حركة بطيئة تتم الدورة في ٣٠,٠٠٠ سنة أو ٣٦,٠٠٠ سنة ، وهو الفلك الموافق المركز أي أن مركزه مركز العالم ومركز الأرض . والثالث فلك الشمس والرابع أفلاك القمر ثم تأتي بعد ذلك الأفلاك الخمس الباقية؟[342] . ويلاحظ على هذا المذهب

---

(٣٤٠) المواقف ص ١٩٩ ـ ٢٢٩ .

الجسم
- مركب
  - ما له مزاج
    - ما له نفس
      - نباتية
      - حيوانية
      - انسانية
    - ما لا نفس له
  - ما لا مزاج له
- بسيط
  - فلكي
    - أفلاك
    - كواكب
  - عنصري
    - العناصر الأربعة

(٣٤١) طبقاً « للمواقف » للايجي (ص ١٩٩ ـ ٢٢٩) يبدو أن الجسم البسيط الفلكي (١٥ ص) أهم من البسيط العنصري (٩ ص) كما أن الجسم المركب ذا المزاج (٢٠ ص) أهم من الجسم المركب غير ذي المزاج (٢ ص)، وأن الجسم المركب ذا المزاج والنفس (١٣ ص) أهم من الجسم المركب ذي المزاج دون النفس (٢ ص) ، وأن النفس النباتية (٥ ص) ، والحيوانية (٦ ص) أهم من النفس الانسانية (٢ ص) ، فهذه الأخيرة ستجد أهميتها كجوهر مفارق في النفس (٤ ص) ، وفي العقل (٣ ص) .

(٣٤٢) طوالع الأنوار ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ؛ أصول الدين ص ٦٤ ـ ٦٦ ؛ الفصل جـ ٥ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

أنه حاول تأليه الطبيعة الكونية وادخالها في نظرية الوجود وهي حركة مقابلة لتجسيم المعبود . فإذا كان المعبود لا يُجسم نظراً للاعتراضات العقلية والحجج المضادة فإن الطبيعة تُؤله بسهولة عندما يتضخم الاحساس الديني إلى أبعد صوره فيتحول إلى خيال يُعبر عنه بالصور الفنية . فيأخذ فلك الأفلاك وهو أعلى الأفلاك وأشرفها دور العرش المجيد في لسان الشرع ، ويأخذ « الله » الدرجة الأولى بكرسيه ، وجهته منتهى الاشارة ، ومقصد كل حركة ، وغاية كل إتجاه ، أوصافه تشارك أوصاف الذات ، صورته الاستدارة ، وهي صورة الأبدية واللانهائية . أفلاكه السموات كما أن كرسيه العرش . وتأتي هذه المادة كلها من علم الفلك القديم وما وصل إليه تاريخ هذا العلم عند القدماء . فالأرض مركز العالم الذي يتحد به فلك الثوابت. وتشمل الأجسام الكونيات والأرضيات معاً أي تشمل دراسة الكواكب والنجوم وعالم السماء . ويكون السؤال : ما العمل إذا ما تغير علم الفلك وأعطى مادة أخرى مخالفة لمادة القدماء مع تقدم وسائل العلم الحديث ؟ كيف تتأسس العقائد إذن ، وهي اليقين المطلق على إحدى مراحل تاريخ العلم وهو اليقين النسبي ؟ كيف يُقام الثابت على التغير ، ويتأسس اليقين على الظن ؟ هذه الكونيات لا هي علم لأنها تغيرت ولا هي دين لأنه لا سند لها منه . هي مجرد نسق قديم لاكمال نظرية الوجود حتى تشمل الكونيات كجزء من الطبيعيات ، فتضم السموات إلى الأرض، و « الله » إلى العالم في ملحمة واحدة بطلها الايمان ومأساتها العقل[٣٤٣] .

ب ــ الكواكب : وهي كلها شفافة ومضيئة إلا القمر فإنه كمد ، يستمد نوره من الشمس . تختلف اشكاله حسب قربه أو بعده منها فيكون هلالاً أو بدراً . . الخ. وهناك خسوف القمر ومحوه وكسوف الشمس . وقيل في محو القمر آراء كثيرة: إنه خيال أو شبح أو سواد أو تسخين النار أو جزء لا يقبل النور. ويبدو وجه القمر مصوراً بصورة إنسان. وهذا في الحقيقة تعطيل لفعل الطبيعة لأن لكل

---

(٣٤٣) وقد اعتبر هذا الجزء كله في قسمة الجسم مع عوارض الأجسام باستثناء النفس والعقل كجواهر مفارقة غير مقرر نظراً لعدم ارتباطه بالفكر الديني الصريح ، المواقف ص ٢٠٠ .

عضـو طلب نفع أو دفـع ضرر ، بـالتالي يتم تشخيص الـطبيعـة واسقـاط الـرؤ يـة الانسية عليها . أما بقية الكواكب فهي أجسام سماوية حافظة لوضعها معه . وكل مجمـوعـة في مجـرة . ويعتمـد المتكلمـون هنـا عـلى أقوال العلماء يـدخلونها في انساقهم(٣٤٤) . وأحياناً لا يجدون شيئاً يحولـونها به إلى فكـر ديني صريـح أو مقنع فيعـودون إلى أصل الـوحي في القرآن امـا لاثبات الـظواهر الفلكيـة مثل الكسـوف والخسـوف أو للعودة إلى نـظرية الـوحي الأولى في أن الطبيعـة للانسـان ، والأشياء لـلاستعمـال أي الكـونيـات الانسـانيـة(٣٤٥) . ولكن في معـظم الأحـوال يعتمـد المتكلمون في تصوراتهم للأفلاك والكواكب لا على تحليلات العلماء ولا على أصـول الـوحي بل عـلى تصورات وهميـة مستمدة من الثقـافة الشعبيـة القـديمـة وخيـالات الناس(٣٤٦) . ويكون السؤال بالنسبة لنا : لماذا يكون الجسم هي أجسام الكواكب والأفـلاك ؟ ولماذا يتـأصل علم أصـول الدين في علم الفلك مثـل علوم الحكمـة ؟ قد يكون الجسم بالنسبة لنا هو الأجسام الأرضيـة أو الأجسام البشـرية. ولـو دفع التـأمل في الأفـلاك والكواكب إلى غـزو الفضاء لما كان ذلـك تعويضـاً عن نسيـان أجسام الأرض وأجساد البشر .

جـ ـ العناصر : وقد جعلها المتـأخرون أربعـة أقسام . الأول خفيف مطلق

---

(٣٤٤) الاشارة هنا إلى أقوال ابن الهيثم .

(٣٤٥) مثـلاً اعتبار الأفلاك سبعة والاستشهاد بالقرآن بآيات ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ (٢ : ٢٩ ؛ ﴿تسبّح له السمٰوات السبع﴾ (١٧ : ٤٤) ؛ ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ (٢٣ : ١٧) ؛ ﴿قل من رب السمٰوات السبع﴾ (٢٣ : ٨٦) ؛ ﴿فقضاهن سبع سمٰوات﴾ (٤١ : ١٢) ؛ ﴿الله الذي خلق سبع سمٰوات﴾ (٦٥ : ١٢) ؛ ﴿الله خلق سبع سمٰوات طباقاً﴾ (٦٧ : ٣) ، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً﴾ (٧١ : ١٥) ؛ والعـدد سبعة مـذكور في القـرآن ٢١ مرة،وسبعـون ٣ مرات ، وكـذلك الاستشهاد بالكونيات الانسانية مثل ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ (٤١ : ١٢) ؛ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ (٦٧ : ٥) .

(٣٤٦) « والغرض من نقل هذه الاختلافات ابداء ما ذكروه من الخرافات ليتحقق للعـاقل الفـطن أنه لا ثبت لهم فيما يقولونه ولا معول على ما ينقلونه، وإنما هي خيالات فاسدة وتمويهات بـاردة ، يظهـر ضعفها بأوائل النظر ، ثم البعض بالبعض يعتبر » المواقف ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

يطلب المحيط في جميع الأحياز، حار بالحس ويابس وهو النار . والثاني خفيف مضاف تحت النار وفوق الآخرين حار رطب بالطبع وهو الهواء ، والثالث ثقيل مطلق في المركز، بارد يابس وهو الأرض. والرابع ثقيل مضاف فوق الأرض وتحت الآخرين ، بارد رطب بالطبع وهو الماء . وهناك أقسام متوسطة مثل البخار فهو ماء وهواء ، والتربة فهي أرض وهواء ، والطين فهو أرض وماء ، والدخان وهو نار وهواء وتراب ، مما يجعل طبقات العناصر سبْعاً مثل طبقات السموات!(٣٤٧) وهي تقبل الكون والفساد على عكس الأجسام البسيطة في السماء. الكواكب والأفلاك تتركب منها المركبات عن طريق التحليل وعن طريق التركيب . ثم يتم التركيز على الأرض وتظهر وكأنها العنصر الرئيسي أو مركز العناصر(٣٤٨) . فالأرض في وسط الكل لأن الكواكب في جميع الجهات . وهي كرية الشكل كما أن الماء كري(٣٤٩) . وتستعمل الريح في اثبات كروية الأرض . والكرة تعبر عن التناهي واللاتناهي في آن واحد . ومع ذلك فالأرض متناهية الأطراف وذلك اثبات لنهاية العالم(٣٥٠) . وليس لها عند الأفلاك قدر محسوس . بها ظواهر مكانية راسخة مثل الجبال،ويحلل القدماء سبب تكونها . وبها ظواهر زمانية مثل الصبح، وسبب تكونه ، كرة البخار تتكيف بالضوء لقبولها نور الشمس . وبها ظواهر تجمع بين الزمان والمكان مثل خط الاستواء وهو ما يوازي من الأرض معدل النهار . والأفق يقطع المعدل وجميع المدارات بنصفين! ثم يأخذ موضوع هل الأرض ساكنة أم

---

(٣٤٧) هي : النارية ، النارية المخلوطة بالهوائية ، الهواء الصرف أو الزمهريرية ، البخارية ، التربة ، الطين ، الأرض الصرف .

(٣٤٨) في القرآن تظهر نظريتان بشأن العنصر الأول . يبدو أحياناً أنه الأرض **﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾** (٢١ : ٣٠) ؛ ويبدو أحياناً أخرى أنه الماء **﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾** (٢١ : ٣٠) .

(٣٤٩) تبدأ الفقرة بلفظ « زعموا » وكأن كروية الأرض زعم مع أن ابن حزم يقرها حقيقة ، وآخرون يؤيدونها بالقرآن مثل **﴿يكور الليل على النهار﴾** الشامل ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، ص ٤٨١ - ٤٨٣ .

(٣٥٠) هذا هو رأي أهل السنة والجماعة . وعند الدهرية لا نهاية للأرض إلا من الصفحة العليا . وعند القدرية لا نهاية للعالم من تحت ومن الأطراف،المواقف ص ٢١٥ - ٢٢٤ ؛ الفصل جـ ٢ ، ص ٩٤ ؛ أصول الدين ص ٣٨ - ٣٩ ؛ طوالع الأنوار ص ١٢٥ .

هاويـة حيزاً بارزاً وكأنه موضوع رئيسي تعم به البلوى وتتعلق به مصالح الناس . وبطبيعة الحال يبدو الخيـال الشعبي وأساطـير القدماء لتفسير سكون الأرض[٣٥١] . ويكون السؤال: هل هـذا الوصف كله علم أم فلسفـة أم دين ؟ فإن كـان علماً فهو يمثل إحدى مراحل تـاريخ العلم . وإن كـان فلسفة فهي تعبـر عن تصور القـدماء للكـون . وإن كان ديناً فـلا تعم به البلوى وليس مـوضوعـاً للعقائـد ولا تتـأسس عليه . ولكن يبرز أحياناً البعد الانساني للكون وأن الأرض سكن للانسان بما فيهـا من نبات وماء وحيوان وأن كل ما فيها إنما مسخر من أجله . ولكن يتـدخل الفكـر الديني في هذا الوصف الانساني للكون ويجعل كل ذلك من فعـل الذات المشخصـة ويقضي على جلال الطبيعة وحكمتها[٣٥٢] .

---

(٣٥١) مثلاً عند البعض أن الله يخلق تحت الأرض في كل وقت جسماً ثم يفنيه ، ولا يجوز أن يهـوي هذا الجسم،ويحتاج إلى مكـان يقبله ، مقـالات جـ٢ ، ص ٢٢ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ وعنـد ابن الراوندي خلق الله تحت العالم جسماً صعّاداً من طبعه الصعود، عمله في الصعود كعمله في الهبوط. فلما اعتد ذلك وتقادم، وقف العالم ووقفت الأرض ! مقـالات جـ ٢ ، ص ٢٢ . وعند الفـلاسفة علة وقوفها سرعة دوران الفلك حولها أو جذب الفلك لها أو دفع الفلك لها . وعند أرسطو بعـد ان أصبح رافداً في الفكر الاسلامي علة وقوف الأرض أنها تطلب مركزها الذي في وسطهـا. وعند القدرية علة وقوف الأرض أنه ليس تحتها خلاء ولا من جانبها ملاء؛ وعنـد أبي الهذيـل أن الله سكّنها وسكّن العالم وجعلها واقعة لا على شيء. أما أهل السنة والجماعة فقد أجمعوا على وقوف الأرض وسكونها وأن حركتها بعارض من زلزلة . وقد أدرك ابن حزم أن هذه الآراء كلهـا خرافات فقال « طائفة (غريب الحديث) . . . ان هي إلا خرافات موضوعة واكـذوبات مفتعلات أدارها الزنادقة تدليساً عـلى الأسلام وأهله فـاطلقت هذه الـطائفة كل اختلاط لا يصـح من أن الأرض على حوت ، والحوت على قرن ثور ، والثور على صخـرة ، والصخرة عـلى عاتق ملك ، والملك على الظلمة ، والظلمة على ما لا يعلمه إلا الله . وهذا يوجب أن جـرم العالم غـير متناه ، وهذا هو الكفـر بعينه » الفصـل جـ٢ ، ص ٩٢ ، ومع ذلـك فمقياس ابن حـزم ليس النظريـة العلميـة بل العقيـدة الدينية ، عقيـدة تناهي العـالم . أنظر أيضـاً ، الفصـل جـ٢ ، ص ٩٥ ؛ أصول الدين ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ الفرق ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ؛ الشامـل ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ .

(٣٥٢) يتضـح ذلك من قول الايجي « في الأرض تلال ووهـاد لأسباب خارجيـة ومعدات متـلاحقة لا بداية لها فسال الماء بالطبع إلى الوهاد فانكشفت التلال معـاشا للنبـاتات والحيـوان . ولم يذكـر له سبب الا عناية الله تعالى بالحيـوانات والنبـاتات . إذ كـان لا يمكن تكونها وبقـاؤ ها إلا بـذلك . وهذا رجوع إلى القـادر المختار فـإن اختصاص جـزء من البسيط باستعـداد دون جزء مـع استواء =

د ــ المركبات التي لا مزاج لها[٣٥٣] . والمزاج هو فعل الصورة الجسمية في مادتها ثم في مادة تجاورها . فالمجاورة شرط التفاعل وبالأولى المساطحة التي تكون بالسطح . وكلما كان السطح أكثر كانت المماسة أتم بحسب تصغر الأجزاء. والعناصر المختلفة الكيفية إذا تصغرت أجزاؤها واختلطت حتى يحصل التماس ، فعلت كل صورة في مادة الآخر . وقيل هو كيفية متشابهة تحصل من تفاعل عناصر متصغرة الأجزاء بحيث تكثر صورة كل صورة كيفية الآخر . وقيل هو تفاعل أجزاء الأشياء أي التفاعل الكيميائي الطبيعي بين العناصر . المزاج إذن هو حالات الأشياء . والسؤال الآن : هل المزاج حالات للأشياء بالفعل أم هو اسقاط من أحوال النفس ومزاجها على الطبيعة وتشخيصٌ لها؟ .

وينقسم المزاج طبقاً للكيفيات الأربعة للانفعال : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة . والاعتدال الحقيقي هو حدوث الانفعال بين طرفين على حد الوسط وإلا فهو المعتدل بحسب الطب أو غير المعتدل . هناك فرق إذن بين الاعتدال الطبيعي ، وهو افتراض عقلي مجرد، والاعتدال الحيوي وهو اعتدال الجسم

= نسبة المعدات اليها مما لا سبيل للعقل اليه واذا كان كذلك فمن طرح هذه المؤنات ووفق للاسترواح اليه واستناد الجميع الى قدرته واختياره فأولئك هم المفلحون » المواقف ص ٢٢٢ ؛ « أن يتكون من اجتماع الماء والأرض والنبات ، ولا بد من هواء يتخلل ، وحرارة طابخة إذ لو فقد أحدهما أو لم يكن على ما ينبغي فسد الزرع ، ومن النبات يحصل بعض الحيوان لأنه غذاؤه ، ومنهما يحصل الانسان وبعض الحيوان . فالكل آيل إلى حصولها من العناصر . وأنت تعلم أن ذلك استدلال بالدوران وأنه لا يغير العلية فلم لا يجوز أن يكون ذلك باجراء العادة » المواقف ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ؛ ولكن هذه الطبيعة وقصدها وجهاً إلى الذات المشخصة وليس إلى حكمة الطبيعة ، وبالتالي يرفض الايجي منطق الدوران ، دوران العلة والمعلول لايمانه بمنطق استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية من أجل الوصول إلى علة أولى . وأقصى ما يصل إليه هو جريان العادة ، والعادة لديه أيضاً من صنع الذات المشخصة وليس قانوناً مستقلاً للطبيعة. ويبدو هذا البعد الانساني للطبيعة في تفسير القرآن لنشأة الجبال ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (٣١ : ١٠ ، ١٦ : ١٥) ، ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ (٢١ : ٣١) .

(٣٥٣) ويبدأ الايجي بالمركبات التي لها مزاج في حين أنه طبقاً للمنهج الصاعد تبدأ المركبات التي لا مزاج لها أولاً ، المواقف ص ٢٢٤ ـ ٢٤٤ .

الحي . علوم الطب والحياة إذن تدخل مع العلم الطبيعي في نظرية الوجود باعتبارها علوماً طبيعية . وإن أعدل الأعضاء لهو الجلد سيما للأنملة ، سيما للسبابة . لذلك تستعمل في الفرق بين الملموسات ! وأعدل أنواع المركبات أي أقربها إلى الاعتدال الحقيقي نوع الانسان . فالانسان نموذج الاعتدال بين العناصر . ثم تختلف الأصناف أي الأجناس البشرية في عملها طبقاً لموضعها الجغرافي بين خط الاستواء حيث تتشابه أحوال الناس في الحر والبرد وسكان الاقليم الرابع حيث تحسن الأحوال وتطول الأعمار ، وتجود الأذهان وتكرم الأخلاق(٣٥٤) . وأعدل الأشخاص هو أعدل شخص من كل صنف . وتؤثر الأوضاع الجغرافية في المزاج طبقاً لموضع الانسان من المنخفض أو الجبل أو البحر أو التربة أو الرياح أو الأشجار . . الخ(٣٥٥) . وهنا يبدو الانسان الطبيعي في المزاج ، وتظهر معه البيئة الجغرافية ، كما تبدو التجمعات البشرية الطبيعية كتعبير عن تفاعل الانسان مع الطبيعة .

والمركبات التي لا مزاح لها هي الظواهر الجوية والأرضية بفعل حر الشمس، إذ تصعد أجزاء هوائية مائية وتصبح بخاراً أو نارية أرضية وتصبح دخاناً . والأول من شدة الحر يتحلل إلى ماء وهواء والثاني من شدة البرد يصبح سحاباً ، فإذا بلغ درجة الزمهرير بلا جمود فهو مطر أو بلا جمود فهو اما ثلج قبل الاجتماع أو برد بعد الاجتماع . وإن لم يبلغ درجة الزمهرير فهو الضباب ، ويكون بلا جمود الطل ومع الجمود الصقيع . والثاني أي النارية الأرضية وهو الدخان اما أن يكون مع سحاب أو يصل إلى كرة النار أو إلى كرة الزمهرير . فإن كان مع السحاب وبرد فهو الرعد أو

---

(٣٥٤) الاشارة هنا إلى ابن سينا من المتقدمين ، وهو لا يبعد أيضاً عن رأي ابن خلدون من المتأخرين .

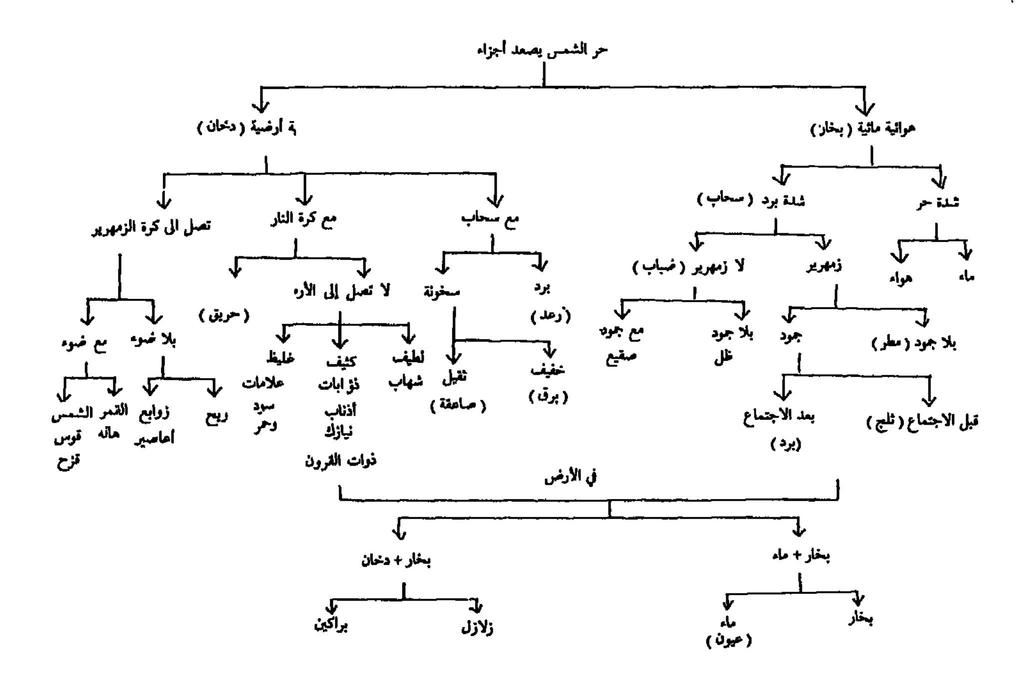
(٣٥٥) الأوضاع الأرضية المؤثرة في المزاج هي : أ ـ المنخفض لانعكاس الأشعة وقلة هبوب الرياح بخلاف المرتفع ب ـ الجبل قد يعين الشعاع بعكسه ، وقد يعكس الريح ويمنعه جـ ـ البحر ، مجاورته ترطب ، ويسخن بصقالته أو انعكاس الأشعة ، ويبرّد إذا كان شمالياً . د ـ التربة والسبخة والكبريتية والمزاجية تسخن ، والصخرية والرملية تحفظ الحر والبرد هـ ـ الرياح ، الشمالية تبرد ، والجنوبية تسخن و ـ مجاورة الآجسام والأشجار والمباقل تؤثر ز ـ الأوضاع الواقعة في مطالع البقعة . المواقف ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨ .

سخن وكان خفيفاً فهو البرق أو سخن وكان ثقيلاً فهي الصاعقة . وان وصل إلى كرة النار ولم يتصل بالأرض وكان لطيفاً فهو الشهاب أو كثيفاً فهي اللذؤ ابات والأذناب والنيازك وذوات القرون أو غليظاً وهي العلامات السود والحر . وإن اتصل بالأرض فهو الحريق . وإن وصل إلى كرة الزمهرير فهو أما ريح أو زوابع وأعاصير وإن انكسر عليه ضوء القمر فهي الهالة أو ضوء الشمس فهو قوس قزح . ومن البخار والماء في الأرض إن كان خفيفاً يخرج البخار أو كان ثقيلاً تخرج العيون . ومن البخار والدخان تخرج الزلازل والبراكين[356] .

وفي محاولة تعـريف هذه الـظواهر يـظهر الصـراع بين الفكـر العلمي والفكر

---

(٣٥٦) المواقف ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .



الديني[٣٥٧] . وأحياناً يأتي الفكر الفلسفي بينهما وكأنه تحصيل حاصل[٣٥٨] . وقد يتم تجاوز ذلك كله بتساؤلات نظرية صرفة عن العالم والدنيا[٣٥٩] . وفي النهاية

---

(٣٥٧) في المطر مثلا يتصارع الفكر العلمي مع الفكر الديني . يبزغ الفكر العلمي في جعل المطر بخارا يتصاعد من الأرض الى الجو ثم يسقط بينما يجعله الفكر الديني من فعل المعبود أو من اختراعه ، فعند هشام بن الحكم ماء يصعده الله ثم يمطره او يخترعه في الجو ، مقالات جـ١ ص ١٢٧ . وفي الزلزال أيضا ينتهي العلم الى تحليل خلخلة الأرض وتفاوت قشراتها ثم يتدخل الفكر الديني المشخّص ويجعل الله ممسكا بطبقات الأرض (هشام بن الحكم)، الفرق ص ١٨ ؛ مقالات جـ١ ص ١٢٧ . وهي كلها موضوعات علمية صرفة لا شأن لها بالخيال الشعبي أو صور الدين مثل القول بأن للجنة والنار نفسين ، «واحدة في الشتاء وواحدة في الصيف ، وهو أشد ما نجد من الحر والبرد ، وأن نارنا أبرد من نار جهنم ، كما تفعل الصاعقة في لحظة ما تفعله النار في الآماد الطوال ، الفصل جـ٢ ص ١٠٠ ؛ وعند النظام النار من شأنها العلو ، فاذا سلمت من الشوائب جاوزت السموات والعرش ، الفرق ص ١٣٧ ؛ وقد صوبت الكاملية ابليس في تفضيل النار على الأرض ، الفرق ص ٥٤ - ٢٥٥ . وقد أخذت الباطنية عبادة النار ليضلوا المسلمين بها ، وفي العبادات تحمر المساجد وتبخر ، الفرق ص ٢٨٥ ؛ والله قادر على خلق الملائكة منها ! الفصل جـ٥ ص ٨١ - ٨٢ وأيضاً : هل يجوز أن يخلق العالم لأنه مكان أو يوجد لا في مكان ؟ وبطبيعة الحال كتمرين عقلي يجوز على الله ذلك لاثبات القدرة أو لا يجوز ايثارا لقوانين الطبيعة ووجود العالم . مقالات جـ١ ص ٢٠٤ . ومثل : هل يجوز أن يرفع الله ثقل السموات والأرضين حتى تكون أخف من الريشة ؟ والاجابة بالاثبات والنفي انما تهدف لنفس الغرض مقالات جـ٢ ص ٩٥ .

(٣٥٨) مثلاً : هل الظل هو الشيء أم غيره ؟ مقالات جـ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦ ؛ هل الهواء معنى ؟ هل هو جسم أو جسم رقيق ؛ مقالات جـ٢ ، ص ١٠٦ ؛ هل الجو جسم ؟ مقالات جـ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣٥٩) مثل من مد يده وراء العالم هل يمتد مع يده أم يمد يده ويتحرك لا في شيء وهو موضوع الفضاء هل هو مكان وهل به حركة ؟ مقالات جـ٢ ، ص ١٠٧ . ومثل سؤال ما هي الدنيا ؟ هل هما الهواء والجو كما هو الحال عند زهير الأثري أم كل ما خلقه الله من الجواهر والأعراض قبل الآخرة؟ مقالات جـ٢ ، ص ١١٧ . وقد جوز المتكلمون وجود عالم آخر مماثل لهذا العالم لأن الأمور المتماثلة تتشارك في الأحكام . وقال الحكماء لا عالم غير هذا العالم أي ما يحيط به سطح محدد الجهات الثلاثة . واختلف المفسرون في العالم . فمنهم من قال ١٨,٠٠٠ عالم كل واحد منها مثل العالم المحسوس أو أكبر منه . ومنهم من قال ٩٠,٠٠٠ عالم ، ومنهم من قال ١٠٠٠ عالم ، وتأولوا على ما ذكروا من العدد قوله « رب العالمين » ، أصول الدين ص ٣٤ .

يبدو تشخيص الطبيعة أو تطبيع الانسان ، يبرز الانسان كبعد للطبيعة كما تبرز الطبيعة كبعد للانسان في التقابل بين العالم الكبير والعالم الصغير عند الحكماء(٣٦٠) . بل إن العالم من العلم أي من الحس والشعور ، فالعالم هو عالم الشعور وليس للعالم زمان بل الشعور هو شعور بالزمان(٣٦١) . وتظل القضية أنه في حومة الصراع بين التصور الديني والتصور العلمي للعالم يبرز الانسان بين الله والطبيعة(٣٦٢) . وفي احتدام الصراع بين التصور العلمي للطبيعة ، الطبيعة المستقلة التي تخضع لقوانين حتمية ومطردة وبين التصور الديني لها ، الطبيعة التابعة لارادة مشخصة تفعل ما تشاء بلا قانون أو علية وبلا قصد أو غائية ، يبرز الانسان من ثنايا التصورين مدركاً لقوانين الطبيعة ومسخراً إياها لصالحه .

---

(٣٦٠) « وقال بعض الحكماء إن كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير الذي هو بدن الانسان ﴿ ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ ، ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فحواس الانسان اشرف من الكواكب المضيئة . والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر في ادراك المدركات بها . .واعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض . وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن، ومن جنس الهواء فيه الريح والنفس . ومن جنس النار فيه مرة الصفراء، وعروقه بمنزلة الانهار في الأرض، وكبده بمنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار لأن العروق تستمد من الكبد، ومثانته بمنزله البحر لانصباب ما في أوعية البدن إليها كما ينصب الأنهار إلى البحر ، وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض ، وأعضاؤه كالأشجار فكما أن لكل شجرة ورقاً وثمرة فكذلك لكل عضو خصلة وأثراً ، والشعر على البدن بمنزلة النبات ، والحشيش على الأرض ثم ان فعل الانسان يحكي بلسانه صوت كل حيوان ، ويحاكي بأعضائه صنيع كل حيوان فهو العالم الصغير ، وهو مع العالم الكبير مخلوق محدث لصانع واحد » أصول الدين ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣٦١) في رأي بعض علماء اللغة أن العالم كله ما له علم وحس ، ولم يجعلوا الجمادات من العالم ، أصول الدين ص ٣٤ ؛ وقيل العالم من العَلَم الذي هو العلامة لأن كل ما فيه علامة على صانعه . وهنا يزاحم الفكر الإلهي الفكر الانساني .

(٣٦٢) ملخص ما ذكرناه كله آراء الفلاسفة حيث نفوا القادر المختار . فأحالوا اختلاف الأجسام بالصور إلى استعداد واختلاف آثارها إلى صورها المتباينة وامزجتها ، وكل ذلك إلى حركات الأفلاك وأوضاعها . وأما المتكلمون فقالوا : الأجسام متجانسة بالذات لتركبها من الجواهر والأفراد وأنها متماثلة لا اختلاف فيها . وإنما يعرض الاختلاف للأجسام لا في ذواتها بل بما يحصل فيها من الأعراض بفعل القادر المختار (إلا النظام فإنه يجعل الأجسام نفس الاعراض ، والأعراض مختلفة بالحقيقة فتكون الأجسام كذلك)، المواقف ص ٢٤٤ .

هـ ــ المركبات التي لها مزاج : وهي تنقسم قسمين ، ما لا نفس له ، وما له نفس . وتظهر النفس هنا على أنها كيفية من المزاج[٣٦٣] .

والمركبات التي لا نفس لها هي المعادن وتنقسم إلى منطرقة وغير منطرقة[٣٦٤] . فالمنطرقة هي الأجساد السبعة المتكونة من اختلاط الزئبق والكبريت المتكونين من الأبخرة والأدخنة وهي الفضة ، والذهب ، والخارصين ، والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، والأسرب[٣٦٥] . وغير المنطرقة تكون اما للين مثل الزئبق فتتحلل بالرطوبات كالاملاح والزاجات واما كالطلق والزرنيخ . هناك اذن تصوران . الأول يقوم على القسمة العقلية التي لا يمكنها حصر أنواع المعادن مما يدل على قصر منهج القسمة والتي لا يمكنها احتواء جميع مركبات الطبيعة . والثاني التصور الديني الذي يجعل كل المركبات خاضعة للفاعل المختار وبالتالي يستحيل العلم والكشف عن القانون لأن كل مظاهر الطبيعة تحدث بفعل إرادة خارجية مشخصة وليس طبقاً لقوانين مستقلة ومطردة[٣٦٦] . والحقيقة أن أصل الوحي إنما يشير إلى المعادن باعتبارها للاستعمال وللاستخدام في السلم والحرب ، وهو الأساس الذي يمكن عليه بناء العقيدة[٣٦٧] .

أما المركبات التي لها مزاج ونفس فهي النفس[٣٦٨] . والنفس كمال أول

---

(٣٦٣) المواقف ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢ .

(٣٦٤) المواقف ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٣٦٥) الزئبق والكبريت ان كانا صافيين وتما بالطبع وكان الكبريت أبيض فالحاصل الفضة. وان كان أحمر وفيه قوة صباغة فهو الذهب. وإن عقدة البرد قبل الطبخ فهو الخارصين. وان كان صافياً والكبريت رديئاً فهو النحاس، وإن كانا غير جيدي المخالطة فهو الرصاص. وإن كانا رديئين وقوي التركيب بينهما فالحديد وإلا فهو الأسرب. المواقف ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٣٦٦) « وأنت خبير بأن القسمة غير حاصرة ، وان التكوين على هذا الوجه لا سبيل فيه إلى اليقين ، ولا يرجى فيه إلا الحدس والتخمين . وإن سلم فتكونها على غير هذا الوجه مما لم يقم على امتناعه دليل . كيف والمهندسون بالكيمياء لهم في الأجساد والأرواح تفنن ؟ والكل بالفاعل المختار! » المواقف ص ٢٢٩ .

(٣٦٧) يشير القرآن إلى الحديد بقوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ (٥٧ : ٢٥).

(٣٦٨) المواقف ص ٢٢٩ ـ ٢٤٢ .

لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتغذى وينمو أو يحس ويتحرك بالارادة أو يعقل بالكليات ويستنبط بالرأي . وقد يُعبر عنها بلازم واحد من حيث إنها ذات حياة بالقوة ، وهو تعريف الحكماء ، يظهر فيها الكمال والجسم والحياة ، والعقل أحد مظاهرها . تتعلق بالبدن وليست مفارقة له . والنفس من حيث هي مبدأ الآثار قوة ، وبالقياس إلى المادة صورة، وإلى طبيعة الجنس كمال. التعريف أقرب إلى النفس الحيوية ، مبدأ الحس والحركة والاستدلال ، تجمع بين الوظائف البدنية والوظائف النفسية(٣٦٩) .

وتنقسم النفس إلى النفس النباتية ، وهي كمال أول لجسم طبيعي من حيث هو يتغذى وينمو فالكمال جنس ، والأول تعني إخراج الكمالات الثانية كتوابع من الأول من العلم والقدرة. والجسم تعني إخراج كمال المجردات ، والطبيعي تعني استبعاد الصناعي ، والآلي تعني العناصر . والنفس الحيوانية كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يحس ويتحول بالارادة . فالاحساس والحركة وظيفتان أعلى من التغذي والنمو . والنفس الانسانية كمال أول لجسم آلي من حيث يعقل الكليات ويستنبط بالرأي .هناك إذن مراتب للنفس، الكل يشترك في الكمال والجسمية والطبيعية والآلية . وكل مرتبة عليا تحتوي على وظيفة أو وظائف أكثر من المرتبة الدنيا . فالنفس الحيوانية تزيد على النفس النباتية التمتع بالحياة والتحرك والارادة . والنفس الانسانية تزيد على النفس الحيوانية عقل الكليات واستنباط الرأي(٣٧٠) .

وتتضمن النفس النباتية قوى طبيعية أربعاً . اثنتان لبقاء الشخص وهي الغاذية والنامية ، الغاذية تحيل الأجسام داخل الجسم وقد يحدث توقفها الموت لأنها متناهية ، والنامية تدخل الغذاء بين الأجزاء . واثنتان يحتاج إليهما لبقاء النوع وهما المولدة والمصورة ، المولدة تفصل من الغذاء ما يصلح أن يكون مادة للمثل ،

---

(٣٦٩) المواقف ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ؛ويتحدث البغدادي عن تكوين الحيوان البيولوجي وكأنه بيولوجيا خالصة ، أصول الدين ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣٧٠) المواقف ص ٢٢٩ .

والمصورة توجد في الرحم خاصة تعطي الأجزاء الصور والقوى. وهذه القوى الأربع تخدمها قوى أربع أخرى . القوة الجاذبة وهي التي تجذب المحتاج إليه ويدل عليها حركة الغذاء من الفم إلى المعدة ، والقيء ، وجذب المعدة للغذاء في التمساح والرحم بعد الطمث للمني ، وجذب الاعضاء للدم من الكبد . والقوة الهاضمة ولها أربع مراتب ، في المعدة ثم الكبد ثم العروق ثم الأعضاء . والقوة الماسكة وهي التي تمسك الغذاء ريثما تفعل فيه الهاضمة فعلها . وأخيراً القوة الدافعة وهي اما للغذاء المهيأ للعضو إليه واما للفضل عنه (التبرز ، التقيؤ ... الخ) . وقيل ان هذه الأربع تخدمها الكيفيات الأربعة . فأشد القوى حاجة إلى الحرارة الهاضمة ثم الجاذبة ثم الدافعة ثم الماسكة . وأشد القوى حاجة إلى اليبوسة الماسكة ثم الجاذبة ثم الدافعة. والهاضمة لا حاجة لها إلى اليبس بل إلى الرطوبة . وقد تتضاعف هذه القوى في بعض الأعضاء مثل الجاذبة في المعدة[٣٧١] . وفي حقيقة الأمر إن التفسير بالقوى هو نوع من الفكر الديني القائم على التشخيص. فبدل أن تكون هناك وظيفة هناك قوة مشخصة حية مريدة عاقلة. وهذا النوع من البيولوجيا العقلية يمثل أحد مراحل التفكير العلمي ويكون السؤال : كيف تتأسس العقائد اليقينية على فكر تاريخي ظني؟ ألا يعني ذلك القضاء على الثابت في سبيل المتحول؟ وماذا لو انهار هذا البناء القديم كله كما انهار الآن في المرحلة الآنية لتاريخ العلوم البيولوجية؟ .

وتتضمن النفس الحيوانية قوتين مدركة ومحركة . والمدركة اما ظاهرة أو باطنة[٣٧٢] . والقوى المدركة الظاهرة تشمل المشاعر الخمس[٣٧٣] : البصر ويتم سواء بانعكاس صورة المرئي بتوسط الهواء المشف إلى الرطوبة الجلدية وانطباعها في جزء منها أي الشعاع من الخارج إلى الداخل ، من الموضوع إلى الذات ، من الشيء إلى العين أو يتم بالشعاع المقابل من الداخل إلى الخارج ، من الذات إلى الموضوع ومن العين إلى الشيء[٣٧٤] . والسمع ويحلله القدماء تحليلاً مادياً

(٣٧١) المواقف ص ٢٣٠ ـ ٢٣٥ ؛ طوالع الأنوار ص ١٤٨ .

(٣٧٢) المواقف ص ٢٣٥ ـ ٢٤١ .

(٣٧٣) وهي تسمية البيضاوي نظراً لارتباط النفس بحياة الشعور، طوالع الأنوار ص ١٤٥ .

(٣٧٤) الأولى نظرية أرسطو والثانية نظرية أفلاطون بعد أن أصبح كلاهما رافدين للحضارة الاسلامية .

خالصاً عن طريق الهـواء والقارع والمقروع والصماخ والعصب والـطبلة . . الخ . والشم قـوة في زائدتـين في مقدم الـدماغ تحـدث فيه الـرائحة بتحلل أجـزاء الجسم وسـريانها في الهـواء . والذوق أعصـاب على اللسـان من خلال الـرطوبـة . وأخيراً اللمس أعصـاب الجلد . وهو أربعـة ، المحاكـة بين الحـار والبـارد ، بـين الـرطب واليـابس ، بين الصلب واللين ، وبـين الأملس والخشن . وقد تكـون قـوة الـذوق مشروطة باللمس لما كانت الحـاستان تعمـلان عن طريق الأعصـاب والاحتكاك . وهناك محسوسات مشتركة كالمقادير والاعداد والأوضاع والحـركة والسكـون والقرب والبعد والمماسة ، تشترك فيها أكثر من حاسة لادراكها . وتختلف الحواس الظاهرة قـوة وضعفاً في حـالة سـلامتها . ويتضـح من هذا التحليـل سيادة النـظرة العلمية الخالصة لعمل الحواس بل والتصور المادي لوظائفها دون اللجوء إلى علل خارجية مما يسبب للمتكلمين مشكلة « نفي الفـاعل المختـار »[٣٧٥] . كـما أنـه يكشف عن حضـور الانسان كجـوهر من خـلال النفس كما كـان حـاضـراً كعرض من خـلال الكيفيات المحسوسة . فالحواس نقطة التقاء بين الأعراض والجواهر ، في الأعراض كمحسوسات وفي الجواهر كحـواس ، في الأعراض كـظواهر طبيعيـة وفي الجواهـر كقوى للنفس ، في الأعراض كموضوع وفي الجواهر كذات .

أما القوى المـدركة البـاطنة فهي أيضـاً خمس : الحس المشترك ، وهي القـوة التي تسهم فيها صور الجزئيات المحسـوسة بـالحواس الخمس فتـطالعها النفس ثمـة فتـدركها أي أنها أول مـرحلة في النفس بعد الحس ، وهي ادراك الحس ، وتحويـل المحسوسات إلى مدركات كما هو الحال في القطرة النازلة والشعلة الـدائرة والخـطوط والدوائر الهندسية . والخيال يحفظ الصور المرتسمة في الحس المشترك كالخزانة له وبه يعرف من يرى ثم يغيب ثم يحضر . وهنا يختلط التذكر بـالتخيل . والـوهم يدرك المعاني الجزئية كالعداوة التي تدركها الشاة من الذئب ويكون السؤال هـل هذا وهم

(٣٧٥) ويزيد بعض المتكلمين في الدراسات البيولوجية للكائنات الحية بصرف النظر عن أسسها العلميـة أم توجهاتهـا الدينية . فعند ابن حابط مثـلاً كـل نوع من أنـواع الحيوانـات أمة عـلى حيالها، الملل جـ ١ ، ص ٩٥ ؛ ويتكلم غيره عن التوالد والتولـد وأنواع الحيـوانات طبقـاً للتولـد . ويتحدث آخرون عن الذباب وأنواعه والحشرات والطيور ، الفصل جـ ٥ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

أم استعداد طبيعي غريزي؟ والحافظة تحفظ المعاني التي تدركها الوهمية ، ونسبتها إلى الوهم نسبة الخيال إلى الحس المشترك . وأخيراً المتخيلة وهي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني بالتركيب والتفصيل مثل إنسان ذي رأسين . وإذا استعملها العقل سميت مفكرة ، وكأن القوة الناطقة هنا ليس لها استقلال خاص بل هي أحد وظائف المخيلة ، وكأن النطق قد حُجز للنفس الناطقة كجوهر مفارق . ومع أن لكل قوة مركزاً في الدماغ طبقاً للنظرية المادية في عمل الحواس إلا أن الحواس الباطنة تمثل درجة أقل في ارتباط النفس بالمادة وتكون بمثابة حلقة اتصال بين الحواس الظاهرة وبين النفس الناطقة[٣٧٦] . ولكن منها ما يدخل في العلم الظني مثل الوهم والخيال في نظرية العلم . ويمكن من خلال هذا التفاوت في ارتباط الحس بالمادة ، والانتقال من الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة الارتفاع درجة أخرى إلى النفس الناطقة واثبات خلود النفس . فبالرغم من ارتباط الحواس بالمادة إلا أن النفس التي هي علة الحواس لا تتعلق بالمادة . وقد ظهر ذلك أيضاً في نظرية العلم عند تحليل عمل الحواس المادي لافساح المجال لتدخل إرادة خارجية لذات تعطي المعاني وتؤسس العلوم . والمهم هو ظهور الحواس في نظرية العلم وفي نظرية الوجود في مبحثي الأعراض والجواهر على حد سواء وكأن علم أصول الدين كله يتأسس من خلال المحسوسات وبداية من العالم الحسي . وهنا أيضاً يسود التصور العلمي الذي يجعل الادراك من عمل الحواس كمظهر من مظاهر النفس دون تدخل « القادر المختار » سواء عند المتكلمين أو الفلاسفة[٣٧٧] . فعند المتكلمين كل ادراك مرتبط بحسه ، وآفة العضو توجب آفة فعله ، وان عمل الحواس ببساطة هو ارتسام ما له وضع وحيز أي موضوع الحس فيما له وضع وحيز أي الحاسة ، مع قدرة الحواس الباطنة على التمييز بين المربعين المجتمعين على مربع واحد . وعند الحكماء الحواس آلات والنفس مدركة لجميع صنوف المدركات . وهي قادرة على الحكم بالكلي على الجزئي وبكل جزئي على أنه غير الآخر .

---

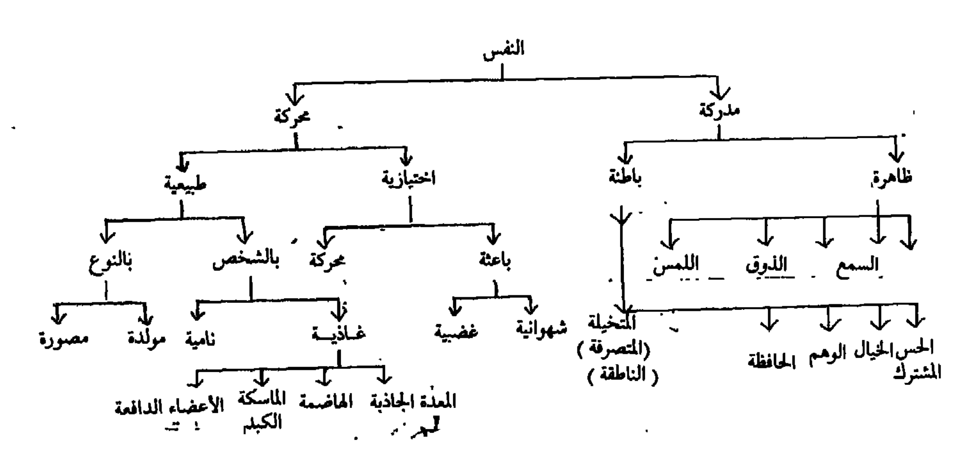
(٣٧٦) المواقف ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ؛ طوالع ، الأنوار ص ١٤٥ ـ ١٤٨ .

(٣٧٧) « أكثر الكلام في هذه القوى بعد نفي القادر المختار على أن النفس ليست مدركة للجزئيات » المواقف ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

والانسان يدرك بوجدانه أنه يسمع ويبصر ويجوع ويشبع . والنفس مدبرة للبدن وفاعلة للجزئيات وبالتالي فهي مدركة للجزئيات. إنما في جيلنا نحن بدأ الطعن في شهادة الحواس واثبات خداعها اما تمويهاً على الناس وتعمية لهم أو تبعية لمذاهب غربية تدافع عن الموروث القديم أو احساساً بالطهارة الفارغة وارضاء للذات . فالمثالية العقلية هي الوريث الطبيعي للايمان القديم .

ولم يفصّل القدماء في القوى الفاعلة كثيراً وكأن الفعل أقل أهمية من الادراك الظاهري أو الباطني . ربما لأن ذلك أدخل في علم الأخلاق سواء في علوم الحكمة أو علوم التصوف أو علم أصول الفقه . ولكن هذه العلوم قد تناولت أيضاً ظواهر الادراك ولم يغب عنها الفعل . اقتصر القدماء على قسمة القوى الفاعلة إلى باعثة ومحركة ، الباعثة لجلب نفع وتسمى شهوية أو لدفع ضرر وتسمى غضبية . أما المحركة فهي التي تمدد الأعصاب فتقرب الأعضاء من مبادئها كما في قبض اليد وتراخيها أو تبعد الأعضاء كما في البسط . وهي المبدأ القريب للحركة والمبدأ البعيد التصور وبينهما الشوق والارادة . فإن النفس تتصور الحركة فتشتاق إليها فتريدها إرادة قصد وايجاد فتحصل[٣٧٨] . وبالرغم من أهمية البواعث فإن القدماء أيضاً لم يفصّلوا فيها ، وركزوها كلها في جلب المنافع ودفع المضار مع أن ذلك جزء من غائية أوسع وقصدية أشمل هو أداء الرسالة وتحقيق الغاية في التاريخ . وهل

(٣٧٨) المواقف ص ٣٤١ ؛ طوالع الأنوار ص ١٤٨ .



الغضب يكـون فقط لدفـع الضرر ؟ أليس هنـاك غضب لجلب النفـع إذا مـا مُنـع النفع ؟ وهل النفع فردي أم اجتماعي ؟ مادي أم معنـوي ؟ نفع مـاذا ونفـع من ؟ وهل الحركـة هي فقط الحركة الفيـزيقية أم حـركات الأفـراد والشعوب وحـركة التاريخ ؟ ولماذا الاقتصار على الحركة البدنية ، حركة الأعضاء بـالرغم من الاشـارة إلى دور التصور أي الفكر والشوق والارادة أي الوجدان والأفعال؟ إن الحركة أيضاً هي نزوع النفس واتجـاه الشعور ، حـركة المجمـوعات ومسـار الشعوب . والنفس الانسانية بالرغم من أنها جـوهر مفـارق مع العقـل إلا أنها أيضاً تتـويج للنفس من حيث هي مجمـوع الوظـائف الحية . فهي من المـركبات التي لهـا مـزاج نفسي وفي نفس الوقت جوهر مفارق . وقواها العقلية اثنتان . النظرية باعتبار ادراكها للكليات والحكم بينها ايجاباً أو سلباً، والعملية باستنباطها للصناعات الفكرية ومزاولتها للرأي والمشورة . كما يحدث فيها من القوة هيئات انفعـالية مثـل الضحك والخجـل والحياء دون أن يفـرد القدمـاء قسماً خـاصاً للقـوى الانفعاليـة أو الوجـدانية أو العـاطفية. واكتفوا بجعل القوى العمليـة جـزءاً من قـوى النفس مثـل القـوةالنظرية(٣٧٩) .

٤ ــ **هل هناك جواهر مفارقة ، النفس أو العقـل؟**: يبدو أن النـظرة المادية الغالبة على تحليل النفس قد وجدت تعويضاً لها ورد فعل عليها في الجواهر المفارقة ، النفس والعقل، آخر مباحث الجواهر وآخر موضوع في المقدمات النـظرية أيضـاً وربما أيضاً في خاتمتها عن الجن والشياطين! وتبدأ النفس المفارقة بالنفوس الفلكيـة وليس بالنفس الانسانية أي بنفس الكون أو بروح الطبيعة تريد احتواء العالم كله أولاً قبل أن تتحول إلى نفس فردية مجردة . والنفـوس الفلكية هي أيضـاً مجردة لأن حـركات الأفلاك ارادية . فـالحركـة اما طبيعيـة أو قسريـة أو ارادية . والأولان بـاطلان لأنها مطلوبة ومتروكة فلا تكون طبيعية، ولأنها ليست طبيعية فلا تكون قسرية . وارادتها ليست عن تخيـل محض وإلا امتنـع دوامهـا عن نـظام واحـد فهي إذن نـاشئـة عن تعقـل كلي(٣٨٠) . ولها مع القوة العقلية قوى جسمانية هي مبدأ للحركات الجزئيـة . ومع

(٣٧٩) المواقف ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣٨٠) « ومحل العقل الكلي مجرد لما سيأتي في النفوس الانسانيـة برهانه » ، المـواقف ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨، طوالع الأنوار ص ١٣٩ .

ذلك ليس لها حس ولا شهوة ولا غضب لأن الاحتياج إليها لجلب المنافع ودفع المضار لحفظ الصورة عن الفساد ، وصورتها لا تقبل الفساد . ويبدو أن القدماء هنا قد برؤوها من أوجه النقص الانساني من حس وشهوة وغضب لاقترابها من الملأ الأعلى وعدم طريان الفساد عليها أو النفع والضرر حتى يمكن الاستمرار بعد ذلك خطوة أبعد في تشخيص الذات المجردة وراء الأفلاك . وفي حقيقة الأمر إن النفوس الفلكية اسقاط من النفس الانسانية على الطبيعة وتشخيص حيوي للأفلاك في موضوعي النفس والارادة ، وكأن المتكلم كلما نظر إلى أعلى ألّه وكلما نظر إلى أسفل جسّم . وقد انتهى أحياناً إلى الخلط بين الدورين ، يجسِّم حين ينظر إلى أعلى ويؤلِّه حين ينظر إلى أسفل . اسقط المتكلم على الأفلاك الوعي الخالص الذي يبحث عنه وشخصه فيها قبل أن يشخصه في ذاته وهو لا يعلم أنه بذلك يقع في خطأي التجسيم والشرك . فالوعي الخالص ليس مجسماً ويتفرد في صفاته دون أن يشاركه فيها أحد لذلك رفضها الفقهاء(٣٨١) . وإن كان لا بد من مفارقات فهي المبادىء الانسانية العامة التي تحرك الأفرادوالجماعات، مبادىء الحرية والعدالة والمساواة التي تتراءى في كتبنا ويستشهد الشباب في سبيلها ، وما زالت قادرة على نهضة أمة وتحقيق مصالح الشعوب(٣٨٢) .

أ ــ النفس : وقد تفاوتت النظريات في النفس الانسانية بين النظرية المادية الصرفة ، والنظرية الحسية ، والنظرية العقلية ثم النظرية المفارقة . فالنظرية المادية الصرفة عند بعض المعتزلة تجعل النفس جزءاً لا يتجزأ من القلب لدليل عدم الانقسام مع نفي المجردات ، أو قوة في الدماغ أو ثلاث قوى ، احداها في القلب وهي الحيوانية والثانية في الكبد وهي النباتية والثالثة في الدماغ وهي النفسانية أو أنها

---

(٣٨١) رفض ابن حزم آراء الحكماء في أن النجوم ناطقة ومدبرة وكذلك الفلك وفند حججهم ، الفصل جـ ٢ ، ص ٩٠ ـ ٩٤ ، جـ ٥ ، ص ١٠٧ ـ ١١١ .

(٣٨٢) أنظر بحثنا « الفكر الاسلامي والتخطيط لدوره الثقافي المستقبلي » جامعة الدول العربية ، الكويت مارس ١٩٨٣ .

أجزاء لطيفة سارية في البدن باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليها تخلل ولا تبدل أو أنها الدم المعتدل إذ بكثرته واعتداله تقوى الحياة وبالعكس ، أو أنه الهواء إذ بانقطاعه طرفة عين تنقطع الحياة ، أو أنها الهيكل الخصوصي أو الاخلاط المعتدلة كماً وكيفاً أواعتدال المزاج النوعي(٣٨٣) . كل هذه النظريات هي التي سببت رد الفعل المقابل التي تجعل النفس مفارقة للبدن ومتميزة عنه ، فالنقيض يولّد النقيض .

والنظرة الحسية هي نظرية الأشعرية والفقهاء تجعل النفس جسماً طويلاً عريضاً عميقاً ذا مكان عاقل مصرف للجسد . النفس والروح اسمان مترادفان والمسمى والمعنى واحد . والدليل على ذلك انقسامها على الأشخاص ، وأنها لو كانت جوهراً والعلم من صفاتها لكانت عالماً وبالتالي يعلم زيد ما يعلمه عمر ، وأنها اما خارج الفلك أو داخله والأول باطل لتناهي الجرم فلم يبق إلا الثاني وهو جسم وأنها لا تقع تحت جنس آخر غير الجوهر وبالتالي فهي جسم . وقد يتم تفصيل النظرية الحسية بجعلها عرضاً كسائر أعراض الجسم لا يشاهد إلا بالحواس أو أنها النسيم الداخل والخارج بالتنفس(٣٨٤) . ويكون السؤال الآن كيف يقول أهل السنة بجسمية النفس ؟ أليست هذه نظرية مادية ؟ كيف يعارضون إذن أصحاب الطبائع وباقي الماديين ؟ كيف يتم التوفيق بين مادية النفس واثبات تمايزها

---

(٣٨٣) النفس جزء من القلب عند ابن الراوندي ، وأجزاء لطيفة سارية في البدن عند النظام ، المواقف ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣٨٤) هي نظرية أهل السنة وسائر أهل ملة الاسلام والملل المقرة بالميعاد ، ومن الفقهاء ابن حزم ، الفصل جـ ٥ ، ص ١٤٨ ، ص ١٦٢ - ١٦٧ ؛ والأصم هو الذي ينكر النفس ، فلا يوجد لديه الا ما يشاهد بالحواس ، وعند أبي الهذيل أن النفس عرض كسائر أعراض الجسم ؛ وعند الباقلاني أن النفس هو النسيم الداخل الخارج بالتنفس ، فهو النفس والروح عرض ، وهي الحياة . وعند جالينوس، بعد أن أصبح احد روافد الحضارة الاسلامية بعد تمثله، النفس عرض مزاج متولد من تركيب. أخلاط الجسد؛ . الفصل جـ ٥ ، ص ١٤٧ - ١٦٢ .

عن البدن واثبات خلودها من أجل الحساب والعقاب في الآخرة طبقاً لنسق العقائد لديهم ؟ وكيف يوافق الفقهاء عليها ويدافعون عنها ويجدون الأدلة على صدقها وفي نفس الوقت يهاجمون النظرة المثالية العقلية عند المعتزلة أو النظرية المجردة التي تثبت النفس المفارقة عند الحكماء؟ يبدو أن تبادل الأدوار بين المتكلمين والحكماء قد وصل إلى حد قلب الأدوار حتى أنه أصبح من الصعب معرفة أي الفريقين المادي وأيهما المثالي .

والنظرية العقلية هي التي دافع عنها أوائل المعتزلة والتي تجعل النفس جوهراً لا جسماً ولا عرضاً لا طول له ولا عمق ، لا في مكان ولا يتجزأ ، وأنها هي الفعال والمدبر للبدن وهي الانسان[٣٨٥] . وهي التي أصبحت النظرة الحسية عند الأشعرية رد فعل عليها كرد فعل على الخصم دون تحكيم للعقل أو انصياع للبرهان . وهي النظرية التي كانت مهمتها الدفاع عن لا مادية النفس ضد النظرية المادية . لذلك كانت الحجج كلها سلبية تقوم على برهان الخلف أي استحالة كون النفس جسماً ، وابطال موقف الخصوم حتى تثبت لا مادية النفس . فلو كانت النفس جسماً لتحركت بتحركه ولوجب أن نعلم ببعضها أو كلها ، ولزادت في الكمية بجمع جسم آخر وكانت بين الخفة والثقل ولكانت ذات خاصية خفيفة أو ثقيلة ، حارة أو باردة ، لينة أو خشنة ، ولكانت لها كيفيات محسوسة ، ولوقعت تحت جميع الحواس أو بعضها ، ولكان لها طول وعرض وعمق وسطح وشكل ولقبلت التجزئة بين الصغير والكبير ، ولكانت مستحيلة متغيرة ، ولكان لها نفس أو غذاء ولكان اتصالها بالجسم اما مجاورة أو مداخلة أو ممازجة ولكانت تعرف بالمماسة ولكانت مسايرة للجسم في العمر من القوة إلى الضعف ومن الضعف إلى القوة .

والحقيقة أن هذه الحجج كلها يمكن استعمالها لاثبات تمايز النفس عن البدن وبالتالي الانتهاء إلى النظرية الرابعة والأخيرة وهي تجرد النفوس الناطقة . فالنفوس

(٣٨٥) هذا حق موقف معمر والعطار وأوائل المعتزلة، الفصل جـ ٥ ص ١٤٧ ـ ١٦٢ .

الانسانية مجردة ، ليست جسمانية ولا جسما ، تعلقها بالبدن تعلق التدبير والتصرف[٣٨٦] . ونفاها المتكلمون على الاطلاق . وحجة الحكماء أنها تعقل البسيط فتكون مجردة ، وأنها تعقل الوجود وهو أمر بسيط ، ولأنها تعقل المفهوم الكلي ، وأنها تعقل الضدين ويستحيل ذلك إذا كانت جسماً أو جسمانياً ، وأنها لو كان العاقل منها جسمانياً لعقل محله ، ولا يوجد جسم فينا محل العلم كالقلب أو الدماغ .

ثم يصل المتكلم والحكيم كلاهما إلى بيت القصيد في اثبات حدوث النفس وتمايزها عن البدن وأنها باقية لا تفنى بفنائه . فحدوث النفس يبدو متناقضاً مع اثبات جوهريتها اللاجسمية . ولما كان الجسم حادثاً فالنفس لا يمكن أن تكون كذلك . لذلك يبدو أن حدوث النفس كان الغرض منه ليس اصدار حكم طبيعي أو حتى عقلي على النفس بل لتخصيص صفة القديم « لله » دون أن يُشاركه فيها أحد . حدوث النفس إذن قلب لقدم الله من أجل اعطاء الانسان أقل مما يعطى « الله » ، واعطاء « الله » أكثر مما يُعطى الانسان . لذلك كان القول بقدمها أكثر اتساقاً مع جوهريتها اللاجسمية . وكانت الحجج ضد الحدوث أقوى من الحجج لاثباته مثل أن كل حادث له مادة ، وأنه لو لم تكن أزلية لم تكن أبدية ، وأنه يلزم عدم تناهي الابدان[٣٨٧] . كما تثير نظرية حدوث النفس اشكالاً ثانياً وهو متى يحدث الحدوث مع البدن أو قبله ؟ وكل منها تؤيده الأدلة النقلية ويصعب ايجاد أدلة عقلية لاثبات أحد الرأيين ضد الآخر[٣٨٨] . وتتطلب نظرية الحدوث بيان كيفية تعلق النفس بالبدن . ولما كان يغلب عليها النظرة التطهرية والتصور

(٣٨٦) هذا هو أيضاً موقف الغزالي والراغب، المواقف ص ٢٥٨، ٢٥٩، طوالع الأنوار ص ١٤٠ - ١٤٣.

(٣٨٧) «لا قديم إلا الله وصفاته». والنفس عند أرسطو ومن تبعه حادثة لكن من قبل أرسطو قديمة المواقف ص ٢٦٠، ٢٦١ « ما سوى الواجب لذاته محدث فكانت النفس حادثة »طوالع الأنوار ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣٨٨) حدثت النفس مع البدن يعتمد على آية ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ بعد تعداد أطوار البدن في حين يعتمد حدوث النفس قبل البدن على حديث «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»، المواقف ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

الثنائي الايماني كان تعلقها به تعلق العاشق بالمعشوق لتوقف كمالاتها ولذاتها عليه . وهي صورة شعرية توحي باتجاه الأدنى نحو الأعلى وتصور اشراقي يرى الخلاص في التجرد عن العالم ، سبب الشرور والآثام ، والعيش مع النفس الخالصة . تدين طرفاً وتبرىء طرفاً ، تجعل واحداً سالباً والآخر موجباً ، والعلاقة بينهما أحادية الطرف ، صعوداً لا هبوطاً . وكيف تعشق النفس البدن ولا يعشق البدن النفس ؟ أليس هذا العشق متناقضاً مع كمال النفس ونقص البدن ، وإن الناقص هو الذي ينحو نحو الكمال؟ ويتصارع الفكر العلمي مع الفكر الديني في تفسير العشق . فهو اما عشق مادي عن طريق الأعضاء واما عشق روحي عن طريق « القادر المختار »(٣٨٩) . ثم تأتي نظرية بقاء النفس تتويجاً لمباحث النفس وكأنها الغاية القصوى من اثبات تجردها وحدوثها وتميزها عن البدن . فالنفس لا تفنى بفناء البدن لأنها ليست مادة مثله . لها بعد البدن سعادة وشقاوة . وبالرغم من محاولة الحكماء والفقهاء إيراد حجج على بقاء النفس بتميزها عن البدن فحظ النفس من الفضائل غير حظ البدن وأن النفس سبب التذكر والعلم في حين أن البدن سبب النسيان والجهل ، وأن تجربة النوم تثبت بقاء النفس في غياب البدن ، والنوم موتة صغرى. وكل هذه الحجج لا تخفي الاغراق كلية في الايمان الديني وفي النظرة الطوباوية الأخروية للعالم وكأن علم أصول الدين قد التحق بعلوم التصوف ، وكأن المقدمات النظرية كلها ، نظرية العلم ونظرية الوجود ، قد تحولت إلى تأملات اشراقية تعطي النفس المعرفة النظرية والسعادة العملية(٣٩٠) .

---

(٣٨٩) التفسير المادي مثل «بالروح القلبي المتكون في جوفه الأيسر من بخار الغذاء ولطيفة ، وتفيد قوة بها تسري إلى جميع البدن فتفيد كل عضو قوة بها يتم نفعه من القوى التي فصلناها من قبل» والتفسير الديني «وهذا كله عندنا القادر المختار ابتداء ولا حاجة إلى إثبات القوى» المواقف ص ٢٦١ ، طوالع الأنوار ص ١٤٥ .

(٣٩٠) يقول البيضاوي مثلاً في بقاء النفس «النفس لا تفنى بفناء البدن لأنها ليست مادية كالبدن. لها بعد البدن سعادة وشقاوة طبقاً لمعرفتها بها وفيضانها عليها. العلم يجعلها مثل الملائكة والجهل مثل الشياطين ، الكمال والنقص ، الفضيلة والرذيلة». ويقول الشارح مغرقاً في الإشراقيات« احتج الحكماء بأن النفس غير مادي ، وكل ما يقبل العدم فهو مادي ، فالنفس لا تقبل العدم. لها بعد البدن سعادة وشقاوة لأنها إن كانت عالمة بالله ووجوب وجوده وفيضان جوده وتقدس ذاته عن =

قوة ممكنة وليس جوهراً واجباً[٣٩٧] . إن هناك فرقاً بين تأليه العقل الكوني عند الحكماء واستعمال العقل الاستدلالي عند المتكلمين والفقهاء . ليس كمال العقل في مرتبته بين الوجودات بل في استعماله وآثاره واقامة حياة الأفراد والمجتمعات عليه . وقد عرض الحكماء لأحكام العقول باعتبارها موجودات وليست باعتبارها أحكاماً عقلية . وجعلوها ليست حادثة لأن الحدوث يستدعي مادة ، وليست كائنة ولا فاسدة لأنها بسيطة ، وأن نوع كل عقل منحصر في شخصه إذ أن تشخصه بماهيته وليس بالمادة ، وأن ذواتها جامعة لكمالاتها ، وانها عاقلة لذواتها ، وأنها تعقل الكليات وكل المجردات ، وأنها لا تعقل الجزئيات لأنها تحتاج إلى آلات جسمانية ولأنها تتغير . ومع ذلك فقد فرض العقل الاستدلالي نفسه على العقل الكوني في الأحكام الأخيرة في تعقل الكليات . ولكن العقل عاد وتطهر وبرأ نفسه من العلم بالجزئيات لأنها تحتاج إلى حواس ولأنها متغيرة والعقل الإلهي ثابت لا يدرك إلا الكليات . وظهر على أنه صوري خالص يستنكف من المادة ، كامل يستبرىء من النقص ، فأصبح كماله وشموله فارغاً بلا مضمون[٣٩٨] .

جـ ـ هل هناك جن وشياطين ؟ : ولكن العجيب أنه بعد هذا الحديث كله عن العقل والفيض والمعقولات تنتهي نظرية الوجود بل والمقدمات النظرية كلها

---

(٣٩٧) يقول ابن حزم مثلاً «فصح أن العقل فعل النفس، وهو عرض محمول فيها، وقوة من قواها، فهو عرض كيفية بلا شك. وإنما غلط في هذا لأنه رأى لبعض الجهال المخلطين من الأوائل أن العقل جوهر وأن له فلكاً فعوّل على ذلك من لا علم له، وهذا خطأ. وأيضاً فإن لفظة العقل غريبة أتى بها المترجمون، عبارة عن لفظة أخرى يعبر عنها في اليونانية أو في غيرها من اللغات بلفظة . العقل عنه في اللغة العربية. هذا ما لا قضاء به عند أحد. ولفظة عقل في لغة العرب إنما هي موضوعة لتمييز الأشياء واستعمال الفضائل فصح ضرورة أنها معبرة عن عرض، وكان مدعي خلاف ذلك رديء العقل عديم الحياء ها هنا بلا شك.وقد قال بعض النوكى الجهال لو كان العرض عرضاً لكانت الأجسام أشرف منه فقلت: وهل للجوهر شرف إلا بأعراضه؟ وهل شرف جوهر قط على جوهر إلا بصفاته لا بذاته؟ هل يخفى هذا على أحد؟ ثم قلنا ويلزمهم هذا نفسه على قولهم السخيف في العلم والفضائل أن لا يخالفونا في أنها أعراض فعلى مقدمتهم السخيفة يجب أن تكون الأجسام كلها أشرف منها» الفصل ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣٩٨) المواقف ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ، وسيكون ذلك موضوع الجزء الثاني «فلسفة الحضارة».

والحقيقة أن النفس هي مبدأ النشاط الحيوي في الانسان من حس وتخيل وتذكر وتعقل وحركة وسلوك لا فرق في ذلك بين نفس وبدن . الانسان واحد ، ونشاطه واحد ، وأي تصور ثنائي له يقسمه قسمين ثم بعد ذلك تنشأ صعوبة الربط بينها ، فيستحيل ذلك لأن مجموع خطأين لا يكوّن صواباً . الحياة إذن لا فرق فيها بين نفس وبدن، والبقاء فيها أيضاً لا فرق بين نفس وبدن، فالحياة باقية، اما الحياة العضوية عن طريق النسل أو الحياة العقلية عن طريق الذهن أو الحياة الاجتماعية عن طريق الفعل . فالانسان باقٍ بجسده عن طريق الخلف ، وباق بذهنه عن طريق الفكر ، وباقٍ بفعله عن طريق أثره في الحياة ودوره في التاريخ[391] .

ب ـ العقل :أما العقل فإنه وجود أكثر منه ملكة، وشيء أكثر منه فكراً، وبالتالي أصبح العقل شيئاً مادياً وليس نظراً واستدلالاً . اثبته الحكماء اعتماداً على حجة نقلية[392] . وقد لا تعني هذه الحجة خلق شيء بل تعني أولوية الفكر على الواقع وأهميته ، وبالتالي لا يمكن تفسيره حرفياً بمعنى خلق الشيء بل معنوياً بمعنى أهمية الفكر ووجوب النظر وهو ما يتفق مع نظرية العلم . وقد اعتمد الحكماء في اثباته على أن « الله » واحد ولا يصدر عنه إلا واحد . ويستحيل أن يكون جسماً لتركبه ولتقدم الهيولى والصورة عليه ضرورة ولا أحد جزأيه إذ لا يستقل بالوجود عن الآخر ، ولا عرضاً إذ لا يستقل بالوجود دون الجوهر ولا نفسا إذ لا تستقل بالتأثير دون الجسم . وإذا ثبت أن الصادر عن الأول عقل فإن له اعتبارات

= النقائص، وكانت نقية عن الهيئات البدنية، معرضة عن اللذات الجسمانية التذّت بوجدانها نفسها كاملة شريفة منخرطة في سلك المجردات المقدسة نحو الملائكة المكرمة. وإن كانت جاهلة به معتقدة للأباطيل الزائفة تألمت بإدراك جهلها واشتياقها إلى المعارف الحقيقية ويأسها من حصولها خالدة مخلدة، وتمنت العود إلى الدنيا واكتساب المعالم. وإن اكتسبت من البدن هيئات كريهة وأخلاق ذميمة عذبت لميلانها إليها، وتعذر حصولها إلا بعد مدة بحسب رسوخها ودوامها فيها حتى تزول. جعلنا الله من السعداء الأبرار، وبعثنا من زمرة الأخيار، والسلام على من اتبع الهدى»طوالع الأنوار ص ١٥٠ .

(٣٩١) أنظر الفصل العاشر عن المعاد.

(٣٩٢) هو الحديث المشهور «أول ما خلق الله تعالى العقل» المواقف ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥ .

ثلاث ، وجوده في نفسه تعقل ، وجـوبه بـالغير كنفس ، وامكـانه لـذاته كجسم .
هناك إذن عقل ونفس وفلك لكل عقل . ولما كانت هناك عقول عشرة ، يفيض كل
منها عن الآخر ، ويفيض الأدنى عن الأعلى والأخس عن الأشرف[٣٩٣] حتى نصـل
إلى العقـل العاشـر وهو العقـل الفعال المفيض للصـور والأعراض عـلى العنـاصـر
والمـركبـات بسبب مـا يحصـل من الاستعـدادات المسببة عن الحـركـات الفلكيـة
وأوضاعها، وهي ملحمة الفيض المشهورة في الفلسفة الاشراقيـة التي افرزتهـا علوم
الحكمـة وعند المتكلمين ، هـذه الأمور كلهـا إن كانت وجـودية أي مـوجودة في
الأعيان فلا بد لها من مصادر ، وإن كانت اعتبارية أي موجودة في الأذهـان امتنعت
أن تكون مصدراً للأمور الوجودية . وهي في حقيقة الأمر مجرد صـور فنية تعبـر عن
جـلال العـالم العلوي بعـد أن يئس الصـوفي من صـلاح الـدنيا . وقـد استـطاع
المتكلمون الكشف عن هذه الجوانب الانشائية عند الحكماء في نظرية العقول العشرة
والعقل الفعال[٣٩٤] . وقـد اعتبر الحكـماء العقول أشـرف من « الملائكـة » . وهذا
تشـريف للعقـل ولكن العيب أنـه العقـل بـاعتبـاره شيئـاً مـوجـوداً وليس العقـل
الاستدلالي . هو العقل كموضوع وليس العقل كمنهج ، ويكون حديث العقل أكثر
خطورة عندما يكتمل لتأييد القدر والجبر ضد الاختيار وحـرية الأفعـال[٣٩٥] . وهنا
ينتهي العقل الكوني إلى الجبر الكوني ويتحـول علم أصول الـدين إلى الاشراقيـات
الكونية الخالصة[٣٩٦] . لذلك كان موقف الفقهاء أفضل لنفيهم العقل الكوني واثباتهم
العقل الاستدلالي الذي يغيب ويحضر ، يشتد ويضعف ، فالعـرض له ضـد ، وهو

---

(٣٩٣)-«استناداً الى الأشرف الى جهة الأشرف والأحسن إلى الأحسن فإنه أحرى وأخلق» . طوالع الأنوار ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٣٩٤) «وحديث إسناد الأشرف الى الأشرف خطابي . . وبالجملة فلا يخفى ضعف ما اعتمدوا عليه في هذا المطلب العالي» ، المواقف ص ٢٦٣ .

(٣٩٥) صيغة الحديث الكاملة « . . . فقال: أكتب، فقال ما أكتب؟ فقال القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبـد». واللوح هو الخلق الثـاني ويشبه أن يكـون العرش أو متصـلاً به لقـول الرسـول «ما من مخلوق إلا وصورته تحت العرش»! طوالع الأنوار ص ١٣٦ .

(٣٩٦) وهنـا يغرق أهـل السنة في تـأويلات الشيعـة، ويتحول علم الكـلام السني إلى اشراقيـات كونيـة شيعية .

بخاتمة عن « الجن والشياطين » وهو ما ترسب في وجداننا القومي عندما غاب العقل وحضر الجن والشياطين ! وهي عند المليين وليس جمهور العلماء أو ملايين الناس « أجسام تتشكل بأي شكل شاءت » وكأنها حُواة أو أبطال أساطير أو آلهة وثنيين . وقد أنكرها الحكماء لأنها إما أن تكون لطيفة أم لا وكلاهما باطل فالأول يلزم أنها لا تقتدر على الأفعال الشاقة وتتلاشى بأدنى قوة ، وهو خلاف الاعتقاد الذي يجعلها قادرة على خرق العادات . والثاني أنه لا يوجب أن ترى ونحن لا نراها « ولو جوزنا أجساماً كثيفة لا نراها لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وبلاد لا نراها،ودقات وطبول لا نسمعها وهو سفسطة » . والعجيب أن المتكلمين يردون على حجج الحكماء لاثبات، الجن والشياطين فقد يقوى الشفاف على الأعمال الشاقة ولا ينفعل بسرعة . ولا يلزم رؤيتها ، يفيض عليها « القادر المختار » مع لطافتها قوة عظيمة لأن القوة لا تتعلق بالقوام . وقد قال قوم إنها النفوس الأرضية وهي مختلفة، فمنها « الملائكة » الأرضية ومنها الجن ومنها الشياطين فهذه « جنود ربك لا يعلمها إلا هو » ، وكأن علم أصول الدين بمقدماته النظرية لتأسيس العلم آثر النكوص واعلان العجز عن تأصيل موضوعات العقيدة فسلم واستسلم واعتقد وآمن . وقال قوم هي النفوس الناطقة المفارقة فالخيرة تتعلق بالخيرة وتعاونها على الخير وهي الجن، والشريرة تتعلق بالشريرة وتعاونها على الشر وهي الشياطين « والله أعلم بحقائق الأمور » ! أي أنها النفوس المفارقة وكأن الحساب والعقاب قد تما من قبل . وكيف تكون الجن نفوساً خيرة وهي تسترق السمع بنص الوحي؟[399] يبدو أن تشخيص قوى الخير والشر

---

(٣٩٩) ﴿قل: أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجبا﴾(٧٢ : ١)؛ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾(٤٦ : ٢٩)؛ ولقد ذكر لفظ الجن في القرآن بصيغتين «جان» مفرد نكرة ٧ مرات، و«الجن» جمع معرفة ٢٢ مرة. فقد خلق الجان من نار السموم ومن مارجٍ من نار، مخلوق لا يشارك الله في شيء، يهتز، ويتناسل، أما لفظ الجن فقد ذكر ١٤ مرة مع الأنس يفيد معاني أنه مخلوق لا يُعبد، لا يعلمون الغيب، لهم قوى خارقة وعلى ذلك لا يقدرون على الإتيان بمثل القرآن، أعداء للنبيين وللمؤمنين، أمم مثل الأنس لهم رسل، أبليس منهم، وجنود سليمان منهم، يعتل من يستعيذ بهم ، محاسبون ومعاقبون ويدخلون النار.

أو التعبير عنها في صور فنية قد منع المتكلمين والحكماء معاً من البحث عن الأسس الاجتماعية للشر ، واكتفوا بتصويره عجزاً عن مواجهته وتغييره(٤٠٠) . ومع أنها كانت عند القدماء مجرد خاتمة لمبحث الجواهر إلا أنها أصبحت عند المتأخرين موضوعاً محبباً إلى النفس لجذب انتباه العامة اعتماداً على الخيال الشعبي وهدماً لكل المقدمات النظرية الأولى . وتساءل المتأخرون هل يأكلون أي الجن ويشربون ويتناكحون أم لا؟(٤٠١) . هل يدخلون في الناس أم لا؟(٤٠٢) . هل يخبرون الناس بشيء أو يخدمونهم؟(٤٠٣) . هل هم مكلفون أم مضطرون؟(٤٠٤) . هل لهم ثواب

(٤٠٠) قال أهل السنة والجماعة بإثبات الملائكة والجن والشياطين في أجناس حيوانات العالم وكفروا من أنكرهم من الفلاسفة والباطنية ، الفرق ص ٣٢٨ ؛ ومظاهر كلام الحكماء أن الجن والشياطين أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة . ولم يضعها الايجي ضمن قسمة الجواهر بل جعلها مجرد خاتمة . المواقف ص ٢٦٦ ؛ طوالع الأنوار ص ١٣٥ ؛ وقد أنكر النظام رؤية الجن أصلاً . ويرد عليه أهل السنة بأن ذلك يلزم ألا يرى الجن بعضه بعضاً . وإن اجازه فليس هناك ما يدعو إلى تكذيب رواية ابن مسعود! الفرق ص ١٤٩ .

(٤٠١) بينما قال البعض بالنفي قال الأكثرون بالإثبات واختلفوا في الكيفية . قال البعض بالمقابلة . وقيل أكلهم وشربهم استشمام واسترواح لا بمضغ وبلع وهو مردود بالسمع . وقيل اعتماداً على السمع أيضاً أنهم أصناف ، فخامستهم لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتوالدون ، وجنس منهم فقط يقع منه ذلك! وروي «ما من أهل بيت إلا في سقف بيتهم من الجن إذا وضع الغذاء نزلوا فتغذوا معهم والعشاء» ، وكل قول يستند إلى رواية . وقيل لا يجوز الاستنجاء بالعظم لأنه طعام الجن! وفي قصة بلقيس كره الجن أن يتزوجها سليمان فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية! وقيل خافوا أن يولد منها ولد تجتمع له فطنة الجن والأنس . وقد اختلف المشايخ في المناكحة بين الأنس والجن . وقيل إن الجن يصفع السائل لحماقته! الدر ص ١٥٨ ـ ١٥٩ وعن الكلنبوي لا تناسل في الملك بل فقط في الجن والشياطين ، الكلنبوي ص ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٤٠٢) منع ذلك البعض وجوزه آخرون لأن أجسام الجن رقيقة فليس بمستنكر أن يدخلوا في جوف الإنسان من خروقه كما يدخل الماء والطعوم في بطن الإنسان وهو أكثف من أجسام الجن . وقد يكون الجنين في بطن أمه وهو أكثف جسماً من الشيطان . وليس بمستنكر أن يدخل الشيطان إلى جوف الإنسان . مقالات جـ ٢ ، ص ١٠٨ .

(٤٠٣) منع ذلك النظام وأكثر المعتزلة لأن في ذلك فساد دلائل الأنبياء لأن من دلالتهم أن ينبئوا بما نأكل وندخر . وجوزه آخرون ، أن يخدم الجن الناس وأن يخبرهم بما لا يعلمون مقالات جـ ٢ ، ص ١١٠ .

(٤٠٤) عند بعض المعتزلة وكذلك هشام هم مأمورون منهيون بنص القرآن وأنهم مختارون . وعند

ويدخلون الجنة؟[٤٠٥] وانتهت النظرة الحسية والتحليل العلمي المادي الذي ساد تصور المتكلمين . ولم تفلح الحركات الاصلاحية في تغيير الأمر وتساءلت أيضاً عن الحكمة في خلق الجن![٤٠٦] وتساءل القدماء أيضاً عن الشياطين ناسين المقدمات النظرية ، نظريتي العلم والوجود ، ووقعوا كلية في الغيبيات والظنيات والسمعيات وكأن بداهات الحس وأوائل العقول وشهادات الوجدان لم تعد مقياساً للصدق وأصلاً للتأسيس ، ولم يعد هناك إلا الروايات الظنية ، المشهورات والذائعات دون المتواترات . هل يرون في الدنيا؟[٤٠٧] هل يجوز انقلابهم في صور الانس أو في أي صور أخرى إذا أرادوا ذلك؟[٤٠٨] هل يسترقون بعضهم البعض؟[٤٠٩] هل

= آخرين أنهم مضطرون مأمورون. وقد انتقل نفس الخلاف من الجن إلى الملائكة. مقالات جـ ٢، ص ١١٣، ص ١٢٦ ويضرب ابن حزم المثل بالحركات الاختيارية فعل النفوس الحية مع الملائكة والأنس والجن وسائر الحيوان! الفصل جـ ٥، ص ١٣١ - ١٣٢، يضع الإنسان مع الملائكة والحيوان كما يضعه مع الجن!

(٤٠٥) أجمع الأشاعرة على أن من كان من الجن مؤمناً فإنه يدخل الجنة. ولكن هل يكون لهم ثواب؟ أنكر ذلك أبو حنيفة. لهم الجنة ولا ثواب لهم. وعن أبي يوسف ومحمد والشافعي لهم الثواب كالعقوبة. والأصح أن يقال ليس لهم أكل وشرب ولكن يتمتعون بالنظر والشم والسماع كما في الدنيا. أنكر البعض عليهم الاستمتاع في الجنة مع أهل الجنة. وقال آخرون الاستمتاع لهم بحسب طبيعتهم وعادتهم. وقيل لهم الطمث مع أهاليهم ولا يكون مع أهل الجنة. الدر ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٤٠٦) تساءل محمد بن عبد الوهاب عن الحكمة من خلق الجن والأنس وفسر آية الجن . الكتاب ص ٣، ص ٢٦.

(٤٠٧) جوز البعض ذلك على الإطلاق، ومنعه آخرون إلا أن يرزقهم الله نبياً أو يجعل رؤيتهم علماً ودليلاً على نبوة نبي أو أن يقلب الله خلقهم ويخرجهم عمّا هم عليه. وجوزه فريق ثالث فالله قادر على أن يقدر عباده على رؤية الملائكة والشياطين من غير أن يقلب خلقهم. وقد يرى الإنسان الملائكة في حال المعاينة. وكلها تصورات دينية. ولكن ذهب فريق إلى إنكار الجن والشياطين ، وأنه ليس في الدنيا شياطين ولا جن غير الأنس الذين نراهم. مقالات جـ ٢ ص ١١٣ - ١١٤.

(٤٠٨) جوز ذلك البعض فيكون الشيطان مرة في صورة انسان ومرة في صورة حية ومنعه المعتزلة ، مقالات جـ ٢ ، ص ١١١ ، ص ١١٤ .

(٤٠٩) ويعني استرقاق الشياطين صفة ركوب بعضهم بعضاً ، وهو سبب ارسال الشهب ، فتارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها وتارة يلقيها في أذن وليه من الانس قبل أن يدركه الشهاب . كتاب التوحيد ص ٣٦ . معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو مسه قصد الفاعل ، كتاب التوحيد =

يـطيقون عـلى حمـل مـا لا يـطيق البشـر عـلى حمله؟[٤١٠] هـل هم يعلمـون مـا في القلوب؟[٤١١] هل يوسوسون؟[٤١٢] وتتراوح الاجابات بطبيعـة الحال بـين الاثبات والنفي ، الاثبـات تدعيـماً للتصور الـديني للعالم والنفي بنـاء عـلى التصـور العلمي

= ص ٤٥ ، أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الانس . كتاب التوحيد ص ٦٩ .

(٤١٠) جوز ذلك البعض وأن يحمـل الأشياء الكثيـرة ومنعه الجبـائي لأن في ذلك بـطلان دلائل الـرسل مقالات جـ ٢ ، ص ١١١ .

(٤١١) قال ابراهيم ومعمـر وهشام ومن اتبعهم ان الشيـاطين يعلمـون ما يحـدث في القلوب وليس ذلك بعجب عند الأشاعرة لأن الله قد جعل عليه دليـلاً . ومحال أن يـدخل الشيـطان قلب الانسان . مثال ذلك أن نشير إلى الرجل اقبل أو ادبر فيعلم ما تريد فكـذلك اذا فعـل فعلاً عـرف الشيطان كيف ذلك الفعل. فإذا حدث نفسه بالصدقة والبر عرف ذلـك الشيطان بـالدليـل فنهى الانسان عنه . وقال آخرون من المعتزلة أن الشيطان لا يعرف ما في القلب فإذا حدث الانسان نفسه بصدقة أو بشيء من أفعال البر نهاه الشيطان عن ذلك الظن والتخمين. وعنـد فريق ثـالث أن الشيطان يدخل في قلب الانسان فيعرف ما يريد بقلبه . مقالات جـ ٢ ، ص ١١٠ ، ص ١٢٦ .

(٤١٢) جوز البعض أنهم يوسوسون ، وعند هشام قد يجوز أن يكون الله قد جعل الجو أداة لهم يصل به إلى القلب من غير أن يدخل فيه أو جعل لهم أداة غير الجو وهي متصلة بالقلب فيحـرك الشيطان تلك الآلة من جهة بعض خروم الانسان فتصل الوسوسة الى القلب بتلك الآلـة مثال ذلـك أنك تأخذ الرمح وبينك وبين الانسان عشرة أذرع فتتكلم فيـه فيسمع الانسـان إذا كان الـرمح مجـوفاً وكان متصلاً بسمعه. وعند فريق آخر أن جسم الشيـطان أرق من أجسامنـا ، وكلامـه أخفى من كلامنا فيجوز أن يصل إلى سمع الانسان فيتكلم بكلامه الخفي فيكون ذلك هو وسوسته . وعند فريق ثالث يدخل إلى قلب الانسان بنفسه ويوسوس فيـه مقالات جـ ٢ ، ص ١٠٩ جـ ١ ، ص ٣٢٤ ، وعنـد أهل السنـة يوسـوس الشيطان لـلانسان ويشكله ويتخبـطه خلافـاً لقول المعتـزلـة والجهمية ، الابانة ص ١٢ ؛ أما المعتزلة فقد قالت ان الشياطين ليس لهم عمل عـلى بني آدم ولا يمكنهم أن يوسوسوا وكذلك الجن . وقال أهل السنة لهم عمل على بني آدم في الظاهر والبـاطن ، في الباطن لما روي عن الرسول « ان الشياطين تجري من بني آدم مجرى الدم » فثبت أن لهم ولاية في البـاطن فيوسـوس إلى الانسان ويـدعو الى الشـر . وأما في الـظاهر فيـزين المعـاصي في قلوب العباد ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ . والحكمة في أننا لا نراهم وهم يروننا أنهم خلقوا على صور قبيحة فلو رأيناهم لم نقدر على تناول الطعام والشراب فـستروا عنا رحمة الله ! خُلق الجن من الـريح وأصـل الريـح لا يُرى ، وخلق المـلائكة من النـور فلو رأيناهم لـطارت أرواحنا . وتقـع النفس في المعاصي بوسوسة الشياطين ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ ، بحـر الكلام ص ٥٨ - ٥٩ .

الذي يعمل إلى حد تصور الصرع في مقابل وسوسة الشيطان[٤١٣]. وقد ظلت بعض هذه التساؤلات حتى حركات الاصلاح الأخيرة . فالشيطان هو المسؤول عن البدع وعن كل مظاهر الشرور في العالم بما فيها الطاغوت . لم يستطع المتكلمون والفقهاء معاً وهم الذين دافعوا عن التصور الحسي للعالم أن يحافظوا على مكتسبات نظرية العلم ونظرية الوجود ، وانتهت المقدمات النظرية بالوقوع في الغيبيات المحضة والظنيات الخالصة ، والبعيدة كل البعد عن مصالح الأمة .

٥ ــ خاتمة : لقد استطاعت نظرية الوجود في نهاية الأمر أن تجعل العلوم هي الطبيعة وأن يظهر الانسان أيضاً من خلال الطبيعة في مقابل « الله » مثبتاً دوره في الكون في ادراك قوانين الطبيعة والسيطرة عليها . فموضوع علم أصول الدين كما ظهر من نظرية الوجود هو الطبيعة ، وأنه لا تفكير في « الله » إلا بعد التفكير في الطبيعة وكأن الدين لا يتأسس إلا في العلم . لا يمكن الوصول إلى « الله » إلا من خلال الطبيعة ، وفي هذا تتفق كل العلوم الاسلامية الأربعة علم أصول الدين

---

(٤١٣) اختلفوا في المصروع يرى الشيطان أم لا؟ فعند فريق أن الشيطان يخبط الانسان ويستهلكه ويراه الانسان وما يُسمع منه فهو كلام الشيطان . وعند فريق ثان بل يخبط الانسان ويصرعه ويوسوسه ولا يراه الانسان ، وليس الكلام المسموع في وقت الصرع والاختبار كلام الشيطان . وعند فريق ثالث الجن لا يخبطون الناس ولا يستهلكونهم وإنما ذلك من جهة اختلاط الطبائع وغلبة بعض الأخلاط من المرة أو البلغم . مقالات جـ ٢ ، ص١٠٩ . وعند ابن حزم واعتماداً على النقل الصرع تأثير الشيطان في المصروع بالمماسة بعد أن يسلطه الله عليه ، يثير فيه من طبائعه السوداء والأبخرة المتصاعدة الى الدماغ كما يخبر به عن نفسه كل مصروع بلا خلاف مهم فيحدث الله له الصرع والتخبط . . . وما توجبه المشاهدة وما زاد على هذا فخرافات من توليد الغرابين والكذابين . . ويعتمد ابن حزم على نقل مثل « ان الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها فإذا استوت قارنها فإذا زالت فارقها فإذا أجنحت للغروب قارنها فإذا غربت فارقها » ، ونهى عن الصلاة في هذه الأوقات ! يتضح إذن الصراع بين التصور العلمي والتصور الديني في تفسير الصرع بالأبخرة، وتفسيره بوسوسة الشيطان ، أو وجود الجن بناء على قدرة الله أو عدم رؤيتهم بناء على أنها أجسام رقيقة صافية هوائية ، عنصرها النار لا ألوان لها وبالتالي لا يمكن ادراكها بحاستي البصر أو اللمس . ويقول ابن حزم « لم ندرك بالحواس ولا علمنا بوجوب كونهم ولا وجوب امتناع كونهم في العالم أيضاً بضرورة العقل » ولكن كان المبدأ والقياس شيء والتطبيق والنتيجة شي آخر، الفصل جـ ٥ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وعلم أصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف . وهذا يعني أن الأدلة على وجود « الله » أدلة بَعْدية خالصة . « الله » نتيجة وليس مقدمة ، نهاية وليس بداية ، غاية وليس أصلًا ، مقصداً وليس أساساً ، اتجاه وليس شيئاً . . . . الخ. ولهذا السبب تتجاور الطبيعيات والإلهيات وتتداخل وكأنهما علم واحد . تُدرك الإلهيات بلغة الطبيعة ، وتُدرك الطبيعة بلغة الإلهيات . « الله » جوهر ، والشيء جوهر . « الله » شيء والشيء الطبيعي شيء ، « الله » موجود والشيء الطبيعي موجود . وقد يصل الأمر إلى استحالة التصرف في أي الموضوعين يكون الحديث في « الله » أم في الطبيعة[٤١٤] . والحقيقة أن كل هذا التوحيد الطبيعي أو الطبيعة التوحيدية لم تكن الغاية منه تحليل الطبيعة أو اثبات وجود الانسان في الطبيعة بل اثبات الإلهيات بصورة أخرى بطريق بعدي أو اسقاط الإلهيات على الطبيعة على نحو قبلي ، وبالتالي جعل الطبيعة متحدثاً رسمياً باسم « الله » . فإذا ما انتهى الأمر إلى أن تصبح الإلهيات والطبيعيات علماً واحداً فذاك إنما يأتي كنتيجة وبطريق المصادفة وليس كمسلمة أو كنتيجة قصدية . الطبيعيات إلهيات مقلوبة إلى أسفل والإلهيات طبيعيات مقلوبة إلى أعلى، ولكن المهم بالنسبة لنا هو كيف استطاع العقل التوحيدي النظر إلى الطبيعة ، وهل يمكن أن يوجه العقل التوحيدي تحليل الطبيعة؟ إن ما ظهر في نظرية الوجود هو أن كل تحليل طبيعي كان مقدمة لاثبات صفة إلهية أو نفي أخرى . فتحليل الأعراض لاثبات حدوثها مقدمة لاثبات صفة القديم . وتحليل المثلين والمختلفين لنفي الشبه وتحليل الجسم لنفي صفة الجسمية عن « الله »، وتحليل الأكوان والاعتمادات لنفي صفة المكانية عن « الله » ، وتحليل الجوهر لنفي صفة الجوهرية عن « الله » وتحليل الشيء لنفي صفة الشيئية عن « الله » . ومع ذلك يمثل الفكر الطبيعي المستقل بوادر صراع الفكر العلمي مع الفكر الديني ، وصراع العقل لاثبات سلطته أمام طبيعة مستقلة لها قوانينها المطردة الثابتة . فالطبيعيات تدل أكثر ما تدل على بزوغ الفكر العلمي من ثنايا الفكر الديني أكثر مما تدل على تحليل علمي للطبيعة . وذلك موجود في تاريخ العلوم الطبيعية

---

(٤١٤) مثلًا يقول الجويني : « ونحن نوضح وجوه الرد على الفلاسفة أولًا (في الجزء الذي لا يتجزأ) ثم نتعطف على النظام ونوضح له آداء مذهبه إلى هدم قواعد الدين » الشامل ص ١٤٣ .

والـرياضيـة وفي علوم الحياة مثـل الطب والتشـريح والنبـات . وبتعبـير آخـر تمثـل الطبيعيات الصراع بين تحليل الواقع والتعبير الانشـائي ، وتكشف عن التباين بـين الموقف العلمي والموقف الخـطابي . وقـد استعملت الـطبيعيـات كجـزء من علم التوحيد المنهج التأملي الخالص أي أنها طبيعيات عقلية وليست طبيعيات علمية تقوم على التحليل المعملي وعلى التجارب العلمية وعلى القياس وفرض الفروض والتحقق من صحتها . ومع ذلك إذا ما احتاج العالم إلى بعض تصورات نظرية تساعـده على اجراء التجارب العلمية فالطبيعيات العقلية تستطيع أن تمده بمثـل هذه التصـورات عن المداخلة والتركيب والمزج والاتحاد والملامسة والمجـاورة . . . الخ . وهـذا يحدث دائماً في تاريخ العلم المرتبط بالميتافيزيقا الخـالصة أو بعلوم الحكمـة . فإذا مـا حدث اكتشـاف علمي دائم لا يتغير فـإن ذلك يحـدث بالعـرض وليس بالجـوهر ، نتيجـة لعمل الذهن في التوحيد عن طريق وصف ظواهر الطبيعة وتحليل الـواقع المـادي . « الله » إذن رؤ ية موجهة للذهن نحو الطبيعة أو « فكرة محدِّدة » كما يقول المناطقة . ومع ذلك ، وبالرغم من أن هذا الكلام في « الدقيـق » يبدو أقـرب إلى الطبيعيـات منه إلى الفكر الديني إلا أن الفكر الديني يظهر من ورائه كافتراض بعيد غير محتمـل الموضوع ، ولا يؤثر وجوده في الوصف العقلي للطبيعة . أما أزمات العلم التي يمكن لميتافيزيقا الطبيعة أن تمدهـا ببعض التصورات لحلهـا فإنها لا تحـدث إلا بعد نشـأة العلم وتطبيق العلم وتوجيه العلم للحياة الانسانية .

تكشف إذن هذه المقدمات النظرية كلها عن أن التـوحيد يمكن أن يقـوم على أصول عقلية يمكن الوصول إليها مسبقاً ، وهذا هو الـذي أدى بالفعـل إلى تأسيس نظريتي العلم والوجـود(٤١٥) . وتبدو في المؤلفـات الكلاميـة الأولى وتظهـر تدريجيـاً

(٤١٥) يقول الخياط مهاجماً ابن الراوندي « ثم ان الماجن السفيه ذكر أبا الهذيل فحكى عنه قولاً قد كان أبو الهذيل يناظر فيه على البحث والنظر، وذلك لأنه باب من أبواب الكلام شديد، وهو أصل من أصول التوحيـد عظيم ، وهـو الكلام فيـما كان ويكـون وما يتنـاهى وما لا يتنـاهى ، والكلام في البعض والكل ، وإنما يعنى بهذا الباب من العلم من له عنايـة بالتـوحيد وبـالرد عـلى الملحدين » الانتصار ص ٧ .

حتى تبتلع موضوعاتها في نظريتي العلم والوجود الموضوعات الكلامية نفسها[٤١٦] ، ويصبح علم الكلام كله علماً نظرياً أو انطولوجياً يتحد فيه العلم والمنطق ، وتحليل العقل وتحليل الوجود حتى ليصعب بعد ذلك التفرقة بين علم الكلام والفلسفة والميتافيزيقا . ويبدو الحديث في الموضوعات الإلهية وعلى رأسها التوحيد وكأنه حديث عارض راجع إلى نقص في قدرة العقل على التنظير ، أو كأن تطور هذه الموضوعات مرتبط بمرحلة معينة من تطور العلم . فإذا ما تطور العلم واكتمل أصبح الوجود هو موضوع علم الكلام وعالم الكلام باحث الوجود ، والإلهيات الانطولوجيا العامة والمتكلم هو الفيلسوف الميتافيزيقي الباحث في الوجود[٤١٧] .

ويمثل علم الكلام المتأخر محاولة للتوحيد بين الأساس العقلي للكلام وللحكمة على السواء، ويبرز في تعريف الموضوعات أوجه التشابه والاختلاف بينهما[٤١٨] . وبالرغم من اقتراب علم الكلام من علوم الحكمة إلا أنه يقوم على أساس عقلي خاص به وكأن هذا الانتقال من النقل إلى العقل كان تطوراً طبيعياً من داخله وليس تبنياً لعلوم الحكمة التي كانت في حقيقة الأمر اشراقية أكثر منها عقلية ، وأسطورية في بعض جوانبها أكثر منها واقعية ، في حين كان علم الكلام صاحب نظرة حسية عقلية لم يتخل عنها إلا في النهاية عندما ضعفت عزائمه

---

(٤١٦) يقسم البيضاوي « طوالع الأنوار » إلى مقدمة وكتب ثلاثة . تستغرق المقدمة بفصولها الأربعة الكتاب الأول كله ببابه الأول وفصوله الستة ، وبابه الثاني وفصوله الأربعة ، وبابه الثالث وفصلين أكثر من نصف الرسالة . كما يقسم التفتازاني « المقاصد » الى ست ، تضم المقدمات الخمسة الأولى . الأول « في المبادىء » ، والثاني « في « الأمور العامة » ، والثالث « في الاعراض » ، والرابع « في الجواهر » ، والخامس « في العقليات » . ولا تظهر موضوعات علم الكلام التقليدي إلا في المقصد السادس «في الإلهيات » المقاصد ص ١١١ وقد حاولنا نحن في هذا الفصل « نظرية الوجود » رده إلى حجمه الطبيعي أسوة بباقي الفصول ، فقد كانت المصنفات القديمة حبلى به ، لا هروباً من الوجود بل لاعادة تأسيس موضوعات العلم ذاته على أساس من الواقع الاجتماعي والسياسي للأمة في مرحلتها التاريخية الراهنة .

(٤١٧) يقول التفتازاني « والمتقدمون على أن موضوعه الموجود من حيث يتميز عن الإلهي » المقاصد ص ١٧ .

(٤١٨) مطالع الأنوار ص ١٤٣ .

ووهنت قواه وتسرب إليه الايمان التقليدي من جديد . بل إن علم الكلام يقف أحياناً من علوم الحكمة موقف العداء ويرفض تصوراتها للعالم مثل قدم العالم والجواهر المفارقة(٤١٩) . ويذكر الحكماء دون تعيين وأحياناً يُعين أحدهم وهو الذي بين أحكام الوجود والعدم والواحد والكثير والواجب والممكن والمستحيل ، والوجود والماهية ، ولديه تبلغ الفلسفة أقصى ما وصلت إليه من تجريد(٤٢٠) . فإذا كان مسار علم الكلام التقليدي وتطوره في التاريخ يثبت أن النظرية العقلية سواء في نظرية العلم أو في نظرية الوجود تطغى على الموضوع الإلهي أو أن الأساس العقلي يبتلع تدريجياً الموضوع نفسه فإننا بتطوير علم الكلام لمرحلة أخرى نصل إلى صياغة نظرية عقلية شاملة تتلاشى فيها الموضوعات الإلهية حتى يصبح علم الكلام علماً عقلياً خالصاً وحتى يتأسس العلم في النهاية بتحويل موضوعه من موضوع حسي مادي وجداني نفسي وهو التشخيص أو التشبيه إلى موضوع عقلي علمي خالص وبالتالي يتحقق مشروع علم الكلام الذي وضعه هو لنفسه وهو تأسيس علم أصول الدين في مقدمات نظرية خالصة مثل نظريتي العلم والوجود ، هذا المشروع الذي توقف منذ القرن الثامن حتى الحركات الاصلاحية الحديثة ، وما كاد ينهض حتى خبا من جديد(٤٢١) . ويكون أيضاً قد تخلى عن منهج النص الحرفي أو المعنوي (التأويل) واعتمد على القسمة العقلية الخالصة . هذه المقدمات النظرية التي تحتوي على نظرية العلم ونظرية الوجود ليست من قبيل الترف العقلي أو الاستطراد أو الاستعارة من علوم أخرى ، علوم الحكمة أو علوم الفقه والأصول أو علوم التصوف بل هو آخر ما وصل إليه علم الكلام من تنظير للموضوعات الإلهية(٤٢٢) . وهذا لم يمنع أنه في بعض الأحيان عندما يضعف التنظير تطل الإلهيات بين الحين والآخر خاصة في الصياغات الأولى لنظرية العلم وفي الصياغات الأخيرة لنظرية الوجود(٤٢٣) . لذلك كان استعمال علم الكلام المتأخر للحجج

---

(٤١٩) المقاصد ص ١٨ .

(٤٢٠) هو ابن سينا ، المقاصد ص ١٩ .

(٤٢١) أنظر بحثنا « كبوة الاصلاح » الندوة العلمية لكلية الآداب ، جامعة الرباط ابريل ١٩٨٣ .

(٤٢٢) المقاصد ص ٢١ .

(٤٢٣) طوالع الأنوار ص ٩٢ ؛ الشامل ص ١٠٥ .

النقلية قليلاً للغاية لاعتماده على القسمة العقلية وحدها ، ورغبته في اقامة نظرية عقلية خالصة على عكس علم الكلام المتقدم الذي لا يتجاوز كونه تجميعاً لبعض النصوص في موضوع واحد وشرحها(٤٢٤) . ومع ذلك فقد انتهت نظرية العلم اعتماداً على تحليل العقل وحده إلى أن صار العقل فارغاً بلا مضمون ، يعيش العقل على نفسه ، وتظهر قواه بفعله الخاص ، فتتشعب التقسيمات حتى ولو لم تكن بذات دلالة ، بالنسبة للموضوع الرئيسي ، وكأن العقل عندما يبلغ حداً من الصورية فإنه يترك موضوعه الأساسي ويعيش على ذاته ويخرج نسيجاً من الخطوط الهندسية المتسقة مع نفسها ، وينسج شبكة من التقسيمات ونظاماً من الأبنية ينطبق على كل موضوع ، ويكون هو الموضوع المثالي للعقل المتسق مع بنية العقل ذاته ، فإذا ما تحول العقل إلى الوجود فإنه يحوله أيضاً إلى وجود صوري ، وكأن العقل يصف ذاته ، فالعقل الصوري والوجود الصوري صنوان .

والسؤال الآن : هل تكفي نظريتا العقل والوجود وحدهما لاقامة العلم؟ صحيح أن العقل هو العلم؟ والوجود هو المعلوم. ولكن العقل والوجود كليهما يظهران في الشعور، والعلم والمعلوم كلاهما بعدان للشعور. ومن ثم احتاجت نظرية العلم ونظرية الوجود إلى نظرية ثالثة هي نظرية الشعور . وكما تقوم نظرية العلم بتحليل العلم ونظرية الوجود بتحليل الوجود فإن نظرية الشعور تقوم بتحليل الشعور واكتشاف العقل والوجود كبعدين للشعور. وعلى هذا النحو يمكن التغلب على هذين الانحرافين الصوري والمادي في نظريتي العلم والوجود بايجاد الشعور كطرف يظهر فيه العقل والوجود. فالعقل هو الجانب العاقل للشبعور، هو الذات العاقلة، والوجود هو الجانب الوجودي للشعور أو هو الموضوع الموجود. يستطيع تحليل الشعور القضاء على صورية العلم وصورية الوجود على السواء . والشعور قادر على اعطاء مادة جديدة خصبة ومتجددة يقوم العقل بتحليلها . ومن ثم لا يعيش العقل على ذاته ، ولا يتحول إلى مجرد آلة نسيج لتصورات وتقسيمات بل يعمل في تحليل مضمون التجارب التي يقدمها الشعور والتي تكشف عن نفس

---

(٤٢٤) وذلك منذ « الفقه الأكبر » لأبي حنيفة حتى « الابانة » للأشعري .

التجارب التي منها تنبثق النصوص الكلامية والدينية[٤٢٥] . والحقيقة أن تحليل الشعور ليس غريباً على مادة الكلام بل متغلغل فيها مطمور داخل القسمة العقلية وتحليلات الوجود . تظهر كلمة شهادة الوجدان كثيراً على أنها حجة . والوجدانيات ، شهادة الحس الباطنة ، أحد مصادر العلم طبقاً لنظرية العلم. فإذا كانت المقدمات النظرية لعلم الكلام قد أعطتنا :

١ ــ نظرية عقلية محكمة تعبر عن أقصى ما وصل إليه العلم من تنظير عقلي ولكن تحكمها ثنائية عقلية متطهرة تعبر عن تصور ديني للعالم وهي المثالية العقلية التي تعبر عن الايمان الديني التقليدي .

٢ ــ نظرية وجودية محكمة تعبر عما وصل إليه علم الكلام من تنظير عقلي في وصف الوجود ، ولكن تحكمها نفس الثنائية المتطهرة التي تقسم العالم إلى قطبين ، قطب موجب وآخر سالب ، وتجعل العلاقة بينهما علاقة أولوية وشرف ، علاقة نقص وكمال .

وعلى هذا النحو تكون مهمتنا إذن في تطوير هذه المقدمات النظرية كالآتي :

١ ــ تحويل القسمة العقلية ، وهو الطابع الغالب على نظرية العلم التي تعبر عن الموقف الديني المتطهر إلى تحليل عقلي خالص لا يتبع أسلوب القسمة بل التحليل المتشعب الاتجاه الذي يكشف عن البناء الشعوري للموضوع .

٢ ــ تحويل القسمة الوجودية ، وهو الطابع الغالب على نظرية الوجود، إلى خبرات شعورية بالعالم تكشف عن ماهيته ، وتكون موضوعاً للتحليل العقلي .

فإذا كان علم الكلام القديم قد تطور من مرحلة الحجة النقلية إلى مرحلة الحجة العقلية إلى مرحلة التحليل الوجودي الخالص فإنه يمكن أن ينتقل الآن إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة التحليل الشعوري للموضوعات من خلال الخبرات الحية ، ويكون المعلوم هو المشعور به . فعلم الكلام نشأ وتطور ولم يتوقف تطوره

---

(٤٢٥) « ولان ابتناءه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية أشد العلوم تأثيراً في القلب وتغلغلاً فيه فسمي بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح » . شرح التفتازاني ص ١١ .

إلا في عصر الشروح والملخصات، والعصر الثاني للنقل والترجمة عن الحضارات المجاورة[426]. فمن الممكن إذن تطويره من جديد خاصة وأننا باحثين منتسبين إلى الحضارة ولسنا مستشرقين خارجين عنها أو عليها. فهي جزء منا ومن تصورنا للعالم ومن وجودنا ونحن جزء منها كتحقّق تاريخي لها، ثقافة، ونظاماً، ودافعاً. فتسير الحضارة من جديد وتنتقل من طورها الثاني الذي توقفت فيه في القرون السبعة الأخيرة إلى طورها الثالث الذي تلحق به بطورها الأول في القرون السبعة الأولى . فلسنا أمام علم مقدس بل أمام نتاج تاريخي خالص ، صب كل عصر ثقافته وتصوره فيه . وتصور القدماء تصور تاريخي خالص يعبر عن عصرهم ومستواهم الثقافي كما أن تصورنا تصور معاصر يعبر عن روح عصرنا ومستوانا الثقافي . فإذا استطاع باحث أو جماعة من الباحثين الوعي بروح العصر وباحتياجاته ومتطلباته فإنه يمكنه ويمكنهم تطوير العلم به ، وأن يؤرخ لعلم الكلام بهذا التصور الجديد كما نؤرخ له حالياً طبقاً للمراحل القديمة ، مرحلة الحجة النقلية ، مرحلة التحليل العقلي ، مرحلة التحليل الوجودي . ويُطبق هذا المنهج الشعوري على خطوتين :

١ ــ يُقرأ النص القديم وغالباً ما يكون نصاً صورياً عقلياً مجرداً فيشعر القارىء بشيء ، ويكون هذا الشيء هو المادة الناقصة فيكمل تحليل النص به . ولما كان الباحث هو الباحث المعاصر فإن مادة الشعور تعبر عن البناء النفسي المعاصر . وكثيراً ما يكون النص مادة صرفة مثل التحليل الفزيولوجي للحس،وهنا يبدو الشعور وكأنه يرفع هذه المادة ويضعها على المستوى العقلي الشعوري واعطاء نظرية في الادراك شعورية بقدر ما هي فزيولوجية. وإذا وجد الشعور نفسه أمام نص كوني يقوم على تشخيص الطبيعة من تصور للأفلاك على أنها نفوس حية عاقلة وتصور للفيض وللعقول العشرة وكل ما يقال عن المفارقات فإن الشعور يبدأ بتحليله العقلي ويعيد بناء الموضوع على

(٤٢٦) العصر الثاني للترجمة هو القرن الماضي وهذا القرن في مقابل العصر الأول الذي تمت فيه الترجمة ، في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

أساس عقلي حتى يتلاشى التشخيص والخيال والاشراقيات .

٢ ـ نظراً لأن تحليلات القدماء لا تكفي إذ يغلب عليها التحليل العقلي للوجود الصوري فإننا نضيف عليها مادة جديدة مستقاة من الوجود الانساني أو من روح العصر . وكما استعمل القدماء الشعر الجاهلي وشعر الفرق فإنه يمكن استعمال الشعر الحديث باعتباره معبراً عن احتياجات العصر[٤٢٧] . ولما كان الشعر هو الفن الغالب على تراثنا القديم فإنه يمكن استعمال كل ضروب الفن السائدة في عصرنا من شعر ورواية وقصة ومسرحية . وإذا كان القدماء أيضاً قد استعملوا أمثال العرب فإننا نعتمد أيضاً على الأمثال العامية بل وعلى الأزجال التي تعبر عن روح الشعب على نحو قد يكون أصدق من الأدب المدون .

ولما كان الشعور في حقيقته وعياً ، وكان الوعي في واقع الأمر وعياً اجتماعياً ، فإن منهج الشعور هو منهج لتحليل الواقع الاجتماعي . فالشعور ليس وعياً خالصاً منعزلاً عن محيطه ودوائره ، عالم الأشياء ، وعالم الآخرين ، بل هو وعي اجتماعي يكشف عن بناء الواقع ومكوناته[٤٢٨] . ولما كان الواقع هو في نهاية الأمر تراكم للماضي ، وأحد مراحل التاريخ فإن الوعي الاجتماعي هو أيضاً وعي تاريخي . وعلى هذا النحو يتحول علم الكلام القديم من الحجة النقلية إلى التحليل العقلي إلى وصف الوجود ثم يصبّ في نهاية الأمر في التحليل الاجتماعي والسياسي للوعي التاريخي في حياة الأمة . وعلى هذا النحو يعود علم الكلام إلى نشأته الأولى أي إلى علم أصول الدين حيث صبّت فيه الأمة القديمة تاريخها وصراعاتها وأزماتها وقرأت واقعها في العقيدة كما يبدو ذلك في عقائد الفرق . ولربما يستطيع جيلنا نحن أن يقرأ في عقائده اليوم كما فعل القدماء تاريخه وصراعاته وأزماته فتتأصل ثورته من خلال عقيدته .

---

(٤٢٧) أنظر مثلاً نماذج من شعر الفرق في الفرق ص ٤١ ـ ٥٣ .

(٤٢٨) أنظر بحثنا « من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي » دراسات اسلامية ص ٣٤٩ ـ ٣٩٢ .

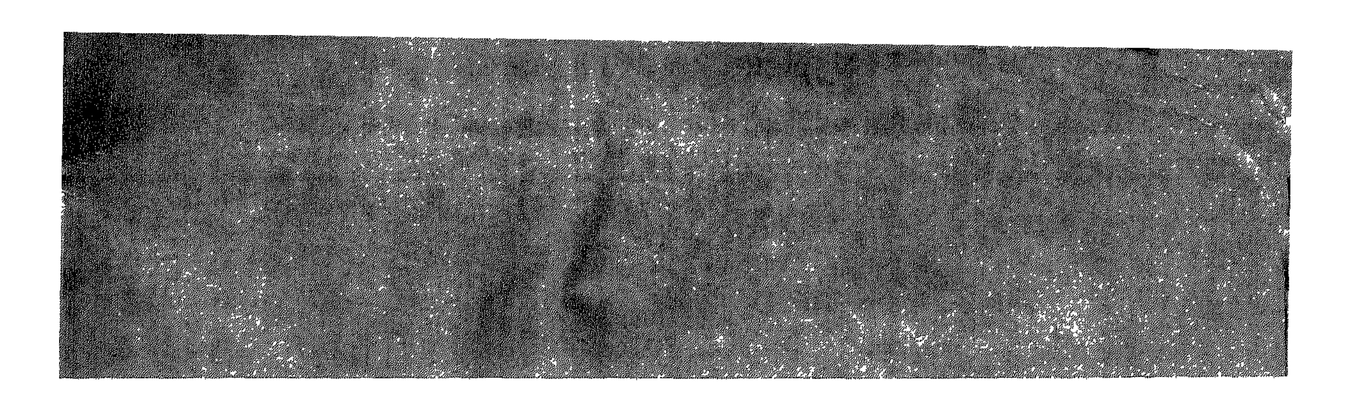
الفهـــرس

الفصل الثاني
بناء العلم

الفصل الثالث
نظرية العلم

الفصل الرابع
نظرية الوجود





* دار التنوير للطباعة والنشر ص.ب: ١١٣/٦٤٩٩ بيروت ـ لبنان.

* المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ص.ب: ١٣/٥٨٨١ بيروت ـ لبنان.